قصة سنغافورة

مذكرات لي كوان يو

نقله إلى العربية

د. هشام الدجاني

العبيكان
Obeikan

قصة سنغافورة

مذكرات لي كوان يو

نقله إلى العربية

د. هشام الدجاني

العبيكان
Obeikan

Original Title:

The Singapore Story

Memoirs of Lee Kuan Yew

Copyright © 1998 Lee Kuan Yew

ISBN 981 - 204 - 983 - 5

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
Published by: Times Editions An imprint of Times Media Private Limited,
a member of Times International Publishing.
and The Straits Times Press a member of Singapore Press Holdings, Singapore.

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع تايمز إيديشن. وسنغبور برس هولدنغز. سنغافورة.

© العبيكان 1428هـ - 2007م

ISBN 2 - 288 - 54 - 9960

الطبعة العربية الأولى **1428هـ - 2007م**

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: ٢٩٣٧٥٧٤/ ٢٩٣٧٥٨١، فاكس: ٢٩٣٧٥٨٨ ص.ب: 67622 الرياض 11517

ⓒ **مكتبة العبيكان، 1428هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

يو، لي كوان

قصة سنغافورة./ لي كوان يو؛ هشام الدجاني. - الرياض 1428هـ

672 ص؛ 16,5× 24 سم

ردمك: 2 - 288 - 54 - 9960

1- سنغافورة - الأحوال الاقتصادية أ. الدجاني، هشام (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 330,95952 1428 / 2779

ردمك: 2 - 288 - 54 - 9960 رقم الإيداع: 2779 / 1428

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/ ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص.ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

أثناء العمل في البيت على المسودات (شارع أوكسلي)

إلى زوجتي وشريكتي

تشو

المحتويات

توطئة	9
كلمة شكر	11
1- الاستقلال فجأة	15
2- النشأة	27
3- الغزاة اليابانيون	47
4- بعد التحرر	87
5- أيامي في كمبريدج	103
6- العمل والزواج والسياسة	139
7- اصطداماتي الأولى مع الحكومة	153
8- توسيع دائرة شارع أوكسلي	163
9- عالم ذوي الثقافة الصينية	171
10- الالتحاق بـ «باب» PAP	179
11- الجولة الأولى للشيوعيين	201
12- ماريشال يبرز الأزمة	211
13- إخفاق تام في لندن	227
14- خروج ماريشال ودخول ليم يوهوك	241
15- ثلاثة أرباع استقلال	255
16- إبعاد الشيوعيين	297
17- موعد مع «بلين»	277
18- انتخابات عام 1959 ـ نقاتل من أجل أن نفوز	289
19- تولي المهمة	305
20- لمحات اضطرابات قادمة	327

21- هزيمة في هونغ ليم 351
22- مفاجأة انضمام التونكو 363
23- حفلة الشاي في قاعة ايدن 373
24- انكشاف الشيوعيين 387
25- التوجه نحو الاندماج 403
26- التعرف على تونكو 413
27- تصويته على الاندماج 431
28- أوروبا تغري بريطانيا 455
29- ضغط من جانب سوكارنو 461
30- نمو قاس لماليزيا 471
31- تحول المد 485
32- سنغافورة تعلن استقلالها 497
33- كو نفرونتاسي 513
34- اكتساب أصدقاء في إفريقية 527
35- مجازفة في عمق مالي 541
36- ألبار يداعب عواطف الملاويين 553
37- تصاعد التوتر في سنغافورة ـ ك ل 573
38- إعادة ترتيبات دستورية 585
39- البحث عن التأييد في الأسفل 597
40- حملة أومنو «لسحق لي» 605
41- العمل من أجل ماليزيا ماليزية 621
42- التونكو يريد إبعادنا 633
43- أطلقك بالثلاثة 651

تسلسل الأحداث 667

توطئة

لم أقصد أن أكتب مذكرات، ولم أحتفظ بدفتر يوميات. إذ لو فعلت ذلك لكنت أعقت عملي. وبعد خمس سنوات على استقالتي من منصب رئاسة الوزارة أقنعني صديقي وزميلي القديم ليم كيم سان، رئيس مجمع سنغافورة الصحافي (sph) بأن الجيل الشاب سيقرأ مذكراتي لأنه مهتم بقراءة كتاب عن خطبي السابقة التي نشرها المجتمع باللغة الصينية. كنت قلقاً أيضا من الثقة الجلية الزائدة لجيل لم يعرف سوى الاستقرار، والنمو، والرخاء. ورأيت أن شعبنا لا بد أن يفهم كم كانت سنغافورة هشة، وما تزال، والمخاطر التي تحيط بنا، والتي لم نصنعها نحن. وكنت آمل قبل كل شيء أن يعرفوا أن الحكومة الفاعلة والأمينة، والنظام العام والأمن الشخصي، والتقدم الاجتماعي والاقتصادي لم تأتِ على أنها مجرى طبيعي للأحداث.

فهذه ليست تاريخ رسمي. بل إنها قصة سنغافورة التي نشأت فيها، والسنوات الهادئة لحكم الاحتلال البريطاني، وصدمة الحرب، والسنوات القاسية للاحتلال الياباني، والعصيان الشيوعي المسلح والإرهاب منذ عودة بريطانيا، والاضطرابات الطائفية والتهديد في ماليزيا، ومخاطر الاستقلال.

يعالج هذا الكتاب السنوات المبكرة التي انتهت باستقلالنا المفاجئ، عام 1965م. ولسوف يصف كتابي التالي الصعود الطويل والشاق على مدى 25 سنة من الفقر إلى الرخاء.

كثيرون كانوا لم يولدوا بعد أو كانوا صغيرين جداً عندما استلمت السلطة عام 1959. ولا يعرفون كيف اقتطعت دولة صغيرة تفتقر إلى الموارد الطبيعية من أرضها الخلفية الطبيعية، كما كان عليها أن تحافظ على وجودها في عالم قاس من الدول القومية الجديدة في جنوب شرق آسيا. إنهم يعتبرونه أمراً طبيعياً جداً أن يعيد البنك الدولي تصنيف سنغافورة في أقل من أربعين سنة من دولة دون مستوى التطور إلى دولة متطورة.

ومن أجل أن أضع هذا الكتاب كان علي أن أستعيد ذكريات أحداث نسيتها منذ زمن، وأن أقرأ محاضر الاجتماعات، والرسائل التي بعثت بها والتي تلقيتها، ونسخ التاريخ الشفوي للزملاء، إنه جرد محتويات نفساني، ولقد دهشت كم كانت مزعجة أحياناً رغم مرور وقت طويل على تلك الأحداث.

كان لدي ناقد ومساعد وحيد قدير، هو زوجتي تشو. فقد كانت تتابع كل كلمة كتبتها عدة مرات. وكان بيننا مناقشات لا تنتهي. إنها محامية لا تقوم بتفريغ الوثائق ألا وهي المحاماة. لم أكن أسجل مسودة أو وثيقة كي يدققها قاض. ومع هذا فقد طالبتني بلغة دقيقة واضحة لا يشوبها الغموض. كانت تشو ذروة من القوة تحدثني دوماً بتأييد عاطفي وفكري دائمين.

لم أكتب إلا عرضاً عن جزء مهم من حياتي، وهو أولادنا الثلاثة. فقد كانوا مصدر متعة ورضى، بينما أنا وزوجتي نراقبهم يكبرون، ويبنون كأجدادهم مهناً ناجحة في سنغافورة التي حولتها سياستي

بالنسبة لي ولزملائي في الوزارة، كانت عائلتنا في قلب جهودنا الجماعية لبناء دولة من حطام، أردنا لسنغافورة أن تكون مفخرة لأولادنا وأولاد مواطنينا، سنغافورة تقدم لجميع مواطنيها فرصاً متكافئة وفسيحة للمستقبل. لقد كان هذا الواقع في مجتمع آسيوي مهاجر، هو ما حفزنا على النضال وتجاوز كل الصعاب.

لي كوان يو

سنغافورة، تموز (يوليو) 1998م.

كلمة شكر

كنت محظوظاً عام 1995 في جمع فريق من الباحثين الشبان. أندرو تان كوك كيونغ، العامل في الخدمة الإدارية في سنغافورة يساعده بانغ جيك تشو،الذي كان يعمل في «ستريتس تايمز». و«آلان تشونغ». الذين قاموا ببحث دقيق في محفوظات الحكومة، وفرزوا رسائلي، واجتماعاتي المهمة والوثائق المناسبة. وكان أندرو تان من أكثر المساعدين لي أهمية، إذ عمل على تنسيق العمل بين الباحثين، وتنظيم المواد، مما جعل مهمتي أيسر وأسهل. وكان بانغ جيك تشو سريعاً وفعالاً في متابعة تقارير الأحداث والخطب في محفوظات جريدة «ستريتس تايمز» وفي السنوات الأربعين الأخيرة. وبعد سنتين ومع توسع العمل انضم الى فريق عملي كل من ولتر فرنانديز ويفون ليم من sph ود.جوه إي تينغ من «جامعة سنغافورة الوطنية» (nus).

كانوا قد تلقوا مساعدات من موظفين أمثال بانير سيلفان من وزارة الخارجية. كما كانت مسؤولة السجلات في مكتب رئيس الوزراء، فلورنس ليرتشي كينغ ومساعدوها، ويندي تيو كوي جيوك وفيجيا نيثمالا، ناجحين للغاية في تصنيف رسائلي ومذكراتي منذ الستينيات.

وقامت ليلي تان، مديرة المحفوظات الوطنية، بمساعدة الباحثين العاملين معي في تقديم ما يطلبونه من وثائق ونصوص تاريخية شفوية، لأولئك الأشخاص الذين سمحوا لي بأن أطلع عليها، وموظفو مكتبة جامعة (nus) و(المكتبة الوطنية) ومكتبة افتتاحيات (ستريتس تايمز) قدموا كذلك يد العون الكريمة.

وقد سمح لي رئيس الوزراء جوه تشوك تونغ، أن أطلع على التسجيلات والوثائق كافة في الوزارات الحكومية والمحفوظات.

كما قدمت وثائق (مكتب السجلات العامة البريطانية) في كيو، والمكتب الكولونيالي وشؤون الكومونويلث رؤية مفيدة من وجهة نظر بريطانية تجاه الأحداث من 1955 حتى1965 . واطلع دينيس بلودورث، وهو صديق قديم، وكان مراسلاً خارجياً لصحيفة (لندن أوبزيرفر) على مسوداتي. وكان دقيقاً في شطب ما هو مكرر واقتراح بدائل لتعبيراتي المفضلة. بيد أنه تركني أقرر ما جاء في كتابي.

كما قرأ مسوداتي جيل أكثر شباباً من كتّاب الافتتاحيات والصحفيين من صحيفة straits times من أمثال تشيونغ يب سينغ (رئيس التحرير) وهان فوك كوانغ (محرر سياسي) وارين فرنانديز، وسوميكوتان وزورياده إبراهيم من (الجريدة الجديدة) وإيرين نغ من (زاوباو) وليم جيم كون (محرر) وسينغ هان ثونغ. وقد اقترحوا كثيراً من التحسينات، بحيث يستطيع أولئك الذين لم يكونوا مولودين عندما حدثت الأحداث التي تناولتها، أن يفهموا خلفية ما حدث. كما قام كل من هان فوك كوانغ وارين فرنانديز بتحسين أسلوب روايتي. كما دققت شوفا لوه المحررة في (تايمز ايديشنز) في جملي وأزاحت الأخطاء.

ولتجنب الكلام غير الدقيق عن قضايا الملايو جعلت غونتور سادلي (رئيس التحرير في بريتا هاريان) يقرأ جميع مسودات الفصول المتعلقة بالملايو، وشارك في ذلك عضو البرلمان عن (حزب العمل) يعقوب إبراهيم، ومحمد ميدين، وزين العابدين رشيد، ووزير تنمية الجماعات عبد الله طرموجي. إذ لم أكن أريد أن أسيء إلى مشاعر سكان الملايو، وقد حاولت ألا أفعل ذلك.

كما قرأ عدد من زملائي من أمثال جوه كينغ سوي، وليم كيم سان، أونغ بانغ بون، وعثمان ووك، ولي كهون تشوي، ورحيم إسحاق، وموريس بيكر، وسيم كي بون، وناثان ونغيام تونغ دو، الفصول التي تهمهم من مسوداتي، وعملوا على تأكيد أو تصحيح إعادة ذكري للأحداث.

كما قرأ تصحيح الصفحات السفير تومي كوه. والسفير في واشنطن تشان هينغ تشي، والسكرتير (السياسي) الدائم كيشور محبوباني في وزارة الخارجية، وبيلهاري كاوسيكان نائب سكرتير في وزارة الخارجية، وقد قدموا اقتراحات مفيدة وكثيرة.

أنا ممتن لهم ولكثيرين آخرين ممن أعطوني طواعية الكثير من الوقت والمشورة اللذين استفدت منهما. ولكن المسؤولية عن أي تقصير تقع على عاتقي فحسب.

إذ كنت أستقبل الزوار وأقوم بمهمات أخرى مناطة بي أثناء النهار. وكنت أقوم بمعظم أعمال البريد الشخصي في الليل بعد إنجاز أعمال النهار. وكان كثير من الشبان والشابات ممن كنت أرسل إليهم مسوداتي، يسألون ما إذا كان توقيت بريدي الشخصي صحيحاً، وكنت أجيبهم بالإيجاب.

قام المساعدون الذين عملوا معي طويلاً من أمثال تشيونغ شينغ هون، وونغ لين هو، بعمل شاق في طباعة وإعادة طباعة مسوداتي. وقد استقال تشيونغ عندما تم إنجاز ثلاثة أرباع الكتاب وحلَ محله اثنان هما كوه كيانغ تشاي ولوه هوك تيك. كان عليهم جميعاً أن يتكيفوا مع الساعات الصعبة التي يتطلبها عملي بعد الظهر.

إنني مدين لجميع هؤلاء وشاكر لهم.

1. فجأة الاستقلال

كان كأي صباح من صباحات يوم الإثنين في سنغافورة إلى أن توقفت الموسيقى. وفي العاشرة صباحاً أُوقفت فجأة موسيقى البوب في الإذاعة. وسمع جمهور المستمعين المذهول المذيع يقرأ بصوت رزين إعلاناً من تسعين كلمة غيّر حياة الناس في سنغافورة وماليزيا:

«لما كان من حق الشعب غير القابل للتصرف أن يكون حراً ومستقلاً، أعلن هنا، أنا لي كوان يو، رئيس وزراء سنغافورة وأصرح باسم الشعب وباسم حكومة سنغافورة، أن سنغافورة ستصبح منذ اليوم، التاسع من آب (أغسطس) من عام 1965، دولة مستقلة وديمقراطية ذات سيادة، قائمة على مبادئ الحرية والعدالة وتسعى دوماً لخير شعبها وسعادته في مجتمع أكثر عدالة ومساواة».

وعلى مسافة 250 ميلاً إلى الشمال في شبه جزيرة ماليزيا، كان تونكو عبد الرحمن يذيع إعلانه الخاص به، معلناً أن «سنغافورة لن تكون دولة ماليزيا وستكون دولة مستقلة وذات سيادة إلى الأبد وأمة منفصلة عن ماليزيا المستقلة، وتعترف حكومة ماليزيا بحكومة سنغافورة على أنها حكومة مستقلة ذات سيادة، ولسوف تعمل معها دوماً بصداقة وتعاون».

انفصال! ما كافحت من أجل تحقيقه بدأ يتلاشى الآن. لماذا؟ ولماذا بشكل مفاجئ هكذا؟ منذ سنتين فقط أصبحت جزيرة سنغافورة جزءاً من «اتحاد ماليزيا» الجديد (والذي كان يضم أيضاً المناطق الشمالية من أراضي بورنيو في ساراواك وصباح).

في الساعة العاشرة مساء من اليوم نفسه شرح تونكو أمام البرلمان في كوالا ـ لامبور عاصمة ماليزيا ما يلي:

«وجدنا في النهاية أن أمامنا طريقين مفتوحين فقط: اتخاذ إجراءات قمعية ضد حكومة سنغافورة أو زعمائها بسبب تصرف بعض قادتها، والإجراء الذي نتخذه الآن، أي الانفصال عن حكومة سنغافورة التي توقفت عن تقديم الولاء للحكومة المركزية».

استمع المجلس بصمت كامل، كان «التونكو» يقرأ لأول مرة قراراً قدمه تون عبد الرزاق، نائب رئيس الوزراء للمصادقة على مشروع دستور ماليزيا (تعديل سنغافورة) عام 1965 على الفور. وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر انتهت المداولة حول القراءة الثانية والثالثة، وأرسل مشروع القانون إلى مجلس الشيوخ. وبدأ مجلس الشيوخ قراءته الأولى في الساعة الثانية والنصف وأنجز القراءة الثالثة في الساعة الرابعة والنصف. وأعطى رئيس الدولة، يانغ دي ـ بيرتوان أغونغ، مصادقته الملكية في اليوم نفسه مستكملاً بذلك الشكليات الدستورية. وهكذا فُصلت سنغافورة.

بموجب تقليد مالايو الإسلامي فإن الرجل، وليس المرأة، هو من يستطيع إعلان «الطلاق» وبذا تُطلق المرأة. وبوسع الزوجين أن يتصالحا ويتزوجها الرجل ثانية، ولكن ليس بعد أن يطلقها ثلاثاً. ولقد كانت القراءات الثلاثة في مجلس البرلمان بمثابة ثلاث طلقات ما بين ماليزيا وسنغافورة. الشريكان ـ المالاويون في ماليزيا، والصينيون الذين يشكلون الأغلبية في سنغافورة ـ لم يكونا على اتفاق، فقد أفسد اتحادهما بنزاع زوجي حول ما إذا كان الاتحاد ينبغي أن يكون مجتمعاً متعدد الأعراق حقاً، أم يكون مجتمعاً يسيطر عليه المالويون فقط.

كانت سنغافورة مهتمة بجوهر الطلاق لا بشكلياته الشرعية. إذا كان لا بد من الانفصال، وأردت أن أتأكد من أن تكون الشروط عملية ونهائية وقابلة للتنفيذ. ومن أجل التأكيد على ذلك بصورة نهائية فقد نشرت حكومة سنغافورة الإعلانين في صحيفة حكومية خاصة في ذلك الصباح. وقد طلبت ـ واستجاب تونكو ـ أن يكون الإعلان عن ذلك بتوقيعه الشخصي بحيث لا يكون ثمة عودة، حتى ولو لم

يوافق بعض الزعماء أو أعضاء البرلمان الماليزيون على ذلك. وقد استلم رامان، مدير إذاعة وتلفزيون سنغافورة هذه الوثائق من أمين سر مجلس الوزراء. وقرر أن تقرأ بالكامل باللغة المالوية، ولغة الماندرين، والإنكليزية، في القنوات الثلاثة المنفصلة وأن تعاد قراءتها كل نصف ساعة. وفي غضون دقائق كانت وكالات الأنباء قد نقلت الخبر برقياً إلى العالم.

بدأت نهاري يوم الإثنين التاسع من آب (أغسطس) بسلسلة من الاجتماعات مع مساعديّ الرئيسيين، ولاسيما أولئك الذين يعملون بموجب القانون الاتحادي، لإبلاغهم بأن الوزراء السنغافوريين هم الذين سيستلمون السلطة الآن. وقبل الساعة العاشرة بقليل، حيث كان من المقرر إذاعة الإعلان، قابلت أعضاء السلك الدبلوماسي في سنغافورة ممن كان يمكن جمعهم بسرعة أعلمتهم بانفصال سنغافورة واستقلالها، وطلبت الاعتراف بها من قبل حكمائهم.

وفيما كان يغادر الدبلوماسيون أخذت بيد نائب رئيس البعثة الهندية والقنصل العام (المصري) للجمهورية العربية المتحدة لتسليمهما رسالتين إلى كل من رئيس وزراء الهند شاستري والرئيس عبد الناصر. وكانت الهند ومصر آنذاك، بالإضافة إلى إندونيسية، من البلدان الرئيسية في الحركة الأفرو- آسيوية. وقد طلبتُ رسالتيّ اعترافهما وتأييدهما. وطلبت من الهند إرسال خبراء لتدريب الجيش، وكما طلبت من مصر إرسال خبير في بناء قوة دفاع بحرية.

وصلت قبل الظهر إلى استديوهات الإذاعة والتلفزة في سنغافورة من أجل مؤتمر صحفي. وفوجئت بنتيجة غير مقصودة وغير متوقعة. فبعد بضعة أسئلة افتتاحية والإجابة عنها، سأل أحد الصحفيين «هل لك أن تلخص لنا مجرى الأحداث التي أدت الى إعلان هذا الصباح؟» فاستعدت لقاءاتي مع تونكو في كوالا لامبور خلال اليومين السابقين وقلت:

«ولكن تونكو أوضح بسهولة أنه لا يوجد سبيل آخر، وأنه سيكون هناك الكثير من الاضطرابات إذا أصرينا على الاستمرار. وأود أن أضيف: أنت ترى في هذه اللحظة. أننا في كل مرة نسترجع تلك اللحظة أي عندما وقعنا هذه

الاتفاقية، التي فصلت سنغافورة عن ماليزيا نجدها لحظة ألم شديد، لأنني كنت أؤمن طوال حياتي باندماج ووحدة هذين القطرين. إنه شعب مرتبط بالجغرافيا، والاقتصاد، وبروابط القرابة والنسب.. فهل تمانع بأن نتوقف لفترة من الوقت؟».

وفي تلك اللحظة غلبتني عواطفي. ولم أستطع أن أستعيد رباطة جأشي أو استئناف المؤتمر الصحفي إلا بعد عشرين دقيقة.

لم يكن البث حياً: إذ لن يبدأ البث التلفزيوني إلا في الساعة السادسة مساء. فطلبت من رامان أن يحذف تسجيل الفترة التي انهرت فيها. ولكنه نصحني بخلاف ذلك تماماً. فالصحافة كما قال، مُلزمة بالإعلام عن ذلك، وإذا ما حُذف المشهد فإن وصفهم للمشهد سيجعل الأمور أسوأ وجدت رامان السكرتير الخاص، وهو مثقف من طبقات التأميل العليا ووفي لأهالي سنغافورة، مستشاراً ذكياً بارزاً. وأخذت بنصيحته. وهكذا رآني كثير من الناس في سنغافورة والخارج أفقد السيطرة على مشاعري. وفي تلك الليلة بث راديو وتلفزيون ماليزيا في كوالا لامبور مؤتمري الصحفي بما في ذلك المشهد المذكور. ولم يكن من المألوف بين الصينيين أن يفقد المرء رباطة جأشه. ولكنني لم أستطع تمالك نفسي. وكان لدي بعض العزاء من خلال تعاطف كثير من المشاهدين في بريطانيا وأستراليا ونيوزيلاندة معي ومع سنغافورة. كانوا مهتمين بماليزيا لأن قواتهم كانت تدافع عنها ضد «الجبهة» المسلحة، وهي التعبير المخفف الذي استخدمه الرئيس الأندونيسي سوكارنو لوصف حربه المحدودة غير المعلنة ضد الاتحاد «الاستعماري الجديد» المتسع.

كنت متوتراً عاطفياً بعد أن أمضيت ثلاثة أيام بلياليها بتجربة شديدة الوطأة. وبما أنني لم أنم إلا بضع ساعات قليلة منذ ليلة الجمعة في كوالا لامبور، فقد كنت على وشك الانهيار من الإعياء الجسدي. فشعرت بإحساس شديد بالذنب. وشعرت بأنني تخليت عن بضعة ملايين من البشر في ماليزيا: مهاجرين صينيين

وهنوداً وأوروبيين ـ آسيويين، وحتى بعض الملاويين. كنت قد أنعشت آمالهم، وكانوا قد انضموا إلى السكان في سنغافورة في مقاومة الهيمنة الملاوية، التي كانت السبب الجذري لنزاعنا. شعرت بالخجل لأنني تخليت عن حلفائنا ومؤيدينا لحماية أنفسهم، بمن في ذلك زعماء الحزب من ولايات ماليزيا الأخرى ـ الصباح، وساراواك وبيانغ وبيرك وسيلانغور ونيغري سيميلان. وكنا قد شكّلنا معاً «ميثاق التضامن الماليزي»، الذي كان يجمع وينسق نشاطاتنا لحشد الشعب من أجل تأييد مجتمع غير طائفي. وكنا قد شرعنا في إيجاد تحالف واسع يستطيع أن يضغط على حكومة «التحالف» الحاكمة التي كانت نفسها واقعةً تحت هيمنة «المنظمة الوطنية لاتحاد الملاويين» (umno) التابعة لتونكو.

كذلك كنت مفعماً بشعور الذنب والندم لأنني خدعت رؤساء وزراء بريطانيا، وأستراليا ونيوزيلاندة. ففي الأسابيع الثلاثة الأخيرة، وفي الوقت الذي كانوا فيه يمنحونني ويمنحون سنغافورة تأييدهم الكامل والقوي من أجل حل سلمي لمشكلات ماليزيا الطائفية، كنت أناقش سراً هذا الانفصال. جميع هذه الأفكار جالت في خاطري خلال الأسابيع الثلاثة من مفاوضاتنا مع عبد الرزاق، نائب التونكو. ومع استمرار معركة الإرادات كنت محافظاً على رباطة جأشي. ولكن ما إن وقع الحدث حتى تغيرت مشاعري.

في الوقت الذي كنت فيه مغلوباً على أمري كان تجار شاينا تاون في سنغافورة مبتهجين. منذ أطلقوا الألعاب النارية احتفالاً بتحررهم من الحكم الجماعي من جانب الملاويين في كوالالامبور، وفرشوا الشوارع بكتل الورق الأحمر. وذكرت صحيفة «سين تشيو جيت بوه» الصادرة باللغة الصينية أن الناس قد أطلقوا المفرقعات النارية فرحاً بذلك اليوم العظيم، وقالت بغموض صيني معهود «لعلهم كانوا يتوقعون زهونغ يوان جي (احتفال الأشباح الجائعة)» وأضافت بعبارة مبهمة «في قلب كل فرد توجد صلاة خاصة به». وقالت نانيانغ سيانغ باو: «القلب يعرف دون أن يعلن عن ذلك».

رحّب رئيس «غرفة التجارة الصينية» في سنغافورة، سون بينغ يام، بصورة علنية بخبر انفصال سنغافورة عن ماليزيا. إذ ستجتمع لجنته في اليوم التالي لمناقشة رعاية احتفال مشترك باستقلال الجزيرة من جانب جميع المؤسسات والاتحادات التجارية والمؤسسات المدنية الأخرى وقال: «يشعر رجال الأعمال عامة بارتياح كبير للتطورات السياسية الأخيرة».

لم يشعر المستثمرون كذلك بما كنت أشعر به من غم. فالانفصال يُطلق فورة هائلة من النشاط في سوق الأسهم المالية في سنغافورة ـ ماليزيا، في كل من سنغافورة وكولا لامبور، ضعف حجم الصفقات في أكثر الأيام نشاطاً من الأسبوع السابق. وفي اليوم التالي قرر المستثمرون أن الاستقلال مفيد للاقتصاد، ولسوف يعطي عائدات أكبر. وارتفعت قيمة أسهم 25 شركة من أصل 27 شركة صناعية.

وعلى العكس من ذلك كانت الشوارع خالية في مركز المدينة بعد ظهر يوم 9 آب. وكنت قد أعلمتُ في الليلة السابقة جون لي كين مفوض شرطة سنغافورة، بالإعلان الوشيك، وسلمته رسالة من الداتو د. إسماعيل بن داتو عبد الرحمن، الوزير الاتحادي للشؤون الداخلية، أعلمه فيها بأن يأخذ تعليماته من حكومة سنغافورة في المستقبل. نشر لي كين وحدات الشرطة الاحتياطية والوحدات شبه العسكرية المدربة خصيصاً لمكافحة أعمال الشغب، وفي حال قيام النشطاء الموالون umno في سنغافورة بثورة احتجاج على الانفصال. إذ سرعان ما أحس الناس بالخطر بعد أن عانوا من تجربتين دمويتين في عمليات شغب ما بين الملاويين والصينيين في العام الماضي 1964. ومما شجع على الحذر وجود قوات مكافحة الشغب بعرباتهم الخاصة المجهزة بخراطيم المياه والنوافذ المغطاة بالشبك ومضادات الرياح التي تحميهم من القذائف. وقرر كثيرون أن يغادروا مكاتبهم ويعودوا إلى منازلهم في وقت مبكر.

كان النهار حاراً ورطباً كما هو الحال في شهر آب. ولكن عندما برد الطقس في المساء أحسست بالقلق. ولكنني صممت على متابعة عملي اليومي كي أزيح عن نفسي القلق. فقد أمضيت أكثر من ساعة وأنا أضرب 150 كرة من كرات

«الغولف» أمام (سري تيماسيك)، مقر إقامتي الرسمي على أرض إستانا (مقر الحكومة سابقاً. وهذا ما جعلني أشعر بأنني أحسن حالاً وقد فتح شهيتي على الطعام قبل لقائي مع الفيزكونت هيد المبعوث البريطاني العالي في كوالا لامبور.

تلقى سكرتيري مكالمة هاتفية من مكتب أنطوني هيد في ذلك الصباح في تمام الساعة التاسعة والنصف، ولما لم يكن هناك إلا ثلاثين دقيقة فقط على إذاعة الإعلان، فقد أخبرني أنه لا يستطيع أن يأتي على الفور. وطلب مني أن يكون الموعد بعد ظهر ذلك اليوم إن أمكن. فبعثت إليه برسالة أخبره أن الموعد في الساعة الثامنة مساء.

وفي الساعة السابعة والنصف مساء وصل سري تيماسيك (وكنت لأسباب أمنية غير متواجد في منزلي في شارع أوكسلي) لتستقبله ابنتي وي لينغ، التي بلغت العاشرة من عمرها، بقميصها وبنطالها القصير.

وسألتْ اللورد هيد: «هل تريد أن تقابل والدي؟».

كان استقبالاً مناسباً غير رسمي. إذ مع إعلان الاستقلال أصبحت علاقتي معه فجأة ملتبسة أو غير محددة. قد وصلت إلى الرواق في الوقت المحدد لاستقباله وهو يخرج من السيارة، فسألته «باسم من تتكلم؟».

أجابني: «حسناً، أنا مُعتمد، كما تعلم، لدى حكومة أجنبية».

«هذا صحيح. ولكنْ هل لديك التفويض للتحدث معي حول علاقة سنغافورة مع بريطانيا؟».

«لا»

«إذن فهذه محادثة شخصية. مجرد محادثة- غير رسمية»

«إذا أردت أن تكون كذلك».

وكانت كذلك بالفعل. وعندما وصفت هذا اللقاء لمجموعة من الصحفيين والبريطانيين والأوستراليين الأجانب في وقت لاحق من هذا الشهر. حاولت بأن أترك انطباعاً بأن الحديث قد كان مجابهة بين خصمين. والحق أنني بقيت

متضايقاً من اللقاء طوال الوقت. فالجلسة معه أثّرت فيَّ. فسلوكه كان جديراً بضابط متخرج من «ساند هيرست» فقد كان وزيراً للدفاع أثناء الغزو البريطاني ـ الفرنسي للسويس عام 1956، واستقال مع أنطوني إيدن وتحمل مسؤولية الهزيمة الكاملة. كان ينتمي إلى الطبقة العليا في بريطانيا، ويتحلى بالثبات والصلابة.

حاول جهده كي يمنع هذا الانفصال، كما بذل قصارى جهده ليجعل التونكو والحكومة الاتحادية تتبنى سياسات يمكن أن تعزز الوحدة مع ماليزيا. ولقد منحني، بوصفه المبعوث السامي البريطاني ذا الصلة المباشرة مع التونكو ووزرائه، ومع رئيس الوزراء في بريطانيا هارولد ويلسون، دعماً كاملاً من أجل حل دستوري للنزاع بين كوالا لامبور وسنغافورة. وأصروا، بنجاح، على ضرورة عدم استخدام القوة. ولو لم يفعلوا ذلك لكان يمكن للنتيجة أن تكون مختلفة. ولو لم يكن الانفصال بالتأكيد الحل الذي عملوا من أجله بعناء.

ولكن على الرغم من وجود 63 ألف موظف بريطاني، وحاملتي طائرات، و80 سفينة حربية، وعشرين سرباً من الطائرات في جنوب شرق آسيا للدفاع عن (الاتحاد) لم يستطع التغلب على قوة «الاشتراكية المالاوية». فالقادة المالاويون، بمن فيهم التونكو، كانوا يخشون إذا ما شاركوا في السلطة السياسية الحقيقية مع غير المالاويين فسيغلبون على أمرهم. تلك كانت النقطة الأساسية الحاسمة في المسألة. ولكن هيد لم يفهم ذلك.

كذلك أنا في البداية، ولكنني بدأت أدرك الأمور قبله لأنني أمضيت وقتاً طويلاً في التعامل مع التونكو، ورزاق وإسماعيل. وأنا أتحدث اللغة المالاوية أما هيد فلا. كما كنت أستطيع أن أتذكر أحداث الخلافات والمنافسة ما بين الملاويين وغير المالاويين من ماضيّ، ولاسيما أيام الدراسة في (كلية رافيلز) في عامي 1940 و1941 كنت أعرف المالاويين بصورة أفضل. لذا عندما قرأت في نهاية حزيران 1965 أنه قد ذهب إلى لندن شككت في أن يكون قد توصل إلى اتفاق ما.

استمر لقائي مع هيد قرابة ساعة، ولكن كيف يسعني أن أشرح له، بعد لقائي وجهاً لوجه مع رزاق في 29 حزيران في مكتبه في كوالا لامبور، أنني لم أجد إلا أملاً ضئيلاً بحل سلمي لمشكلاتنا؟ كنت أنا وهيد مقيدين متحفظين في تبادلنا للآراء. لم يوجه أية اتهامات، ولكن عبّر فقط عن أسفه لأنني لم أطلعه أو أطلع حكومته على ما حدث. من جانبي، كنت حزيناً للغاية لإخفائي عنه التطورات الأخيرة في الأسابيع الثلاثة الماضية والتي انتهت بالانفصال. وأظن أنه كان حزيناً بدوره. ولكنني لو كنت أخبرت هيد أن التونكو يريدنا أن ننفصل عن ماليزيا، رغم أنني كنت أريد اتحاداً أقل ارتباطاً وأكثر حرية، لوجد وسيلة لإيقاف التونكو لأنه ليس من مصلحة بريطانيا أن تنفصل سنغافورة وتستقل. ولو حدث ذلك لما كان بالإمكان السيطرة على أعمال العنف العرقية. وبعد 17 ساعة من لقائنا اعترفت الحكومة البريطانية بسنغافورة المستقلة.

بعد مغادرة هيد أجريت مناقشات لا حصر لها على الهاتف مع زملائي من الوزارة للتداول في تطورات الأمور. كنت أريد خوفاً من وقوع انشقاق داخل مجلس الوزراء وبين أعضاء البرلمان، أن يوقع كل وزير على «اتفاقية الانفصال» لأنني كنت أعرف أن كثيرين منهم قد يعارضونها بضراوة.

ولكن كان عليّ أن أدير حكم هذه السنغافورة الجديدة. كنت قد أمضيت جلّ وقتي ذلك النهار مع زميلي الحميم جوه كينغ سوي. وقررت أن أدمج وزارة الداخلية مع وزارة الدفاع، وأن يكون هو مسؤولاً عنها. ولكن عندئذ من يستطيع تولي وزارة المالية؟ واتفقنا على أن يكون الوزير هو ليم كيم سان. وكانت المشكلة الثانية الاعتراف الدولي والعلاقات الطيبة مع أولئك الذين يستطيعون أن يساعدوا على توفير الأمن لنا والبقاء. واتفقنا على أن يتولى س. راجاراتنام، العضو المؤسس في حزبنا (حزب العمل الشعبي) (pap) وزارة الخارجية. كنا في حالة دوار، ولم نتكيف بعد مع المواقع الجديدة ونخشى من الأمور غير الموزونة بدقة مستقبلاً.

كنا نواجه مستقبلاً كئيباً. فقد كانت سنغافورة والملايو مندمجتين من خلال ممر عبر (مضائق جوهور) وكانت تحكمهما معاً كأرض واحدة بريطانيا. كانت المالايو المنطقة الخلفية لسنغافورة، كما كانت مناطق بورنيو وساراواك وبروني وصباح. جميعها كانت أجزاء من الإمبراطورية البريطانية في جنوب شرق آسيا، حيث كانت سنغافورة بمثابة المحور الإداري والتجاري. الآن أصبح على أرضنا، ولم يعد بوسع حكومة ماليزيا أن تلقي علينا الدروس، أو أن توبخنا لعدم الانصياع للقواعد والممارسات التي تناسبها. ومن الممكن أن نتوقع أن يلغوا دورنا باعتبارنا المنفذ التقليدي لوارداتهم وصادراتهم، والمزود لهم بكثير من الخدمات.

في عالم تكثر فيه الدول الجديدة والتي تسعى جميعها لتحقيق مصالحها القومية والاقتصادية، بل وجميعها تريد أن تقوم بكل شيء بنفسها وأن تتعامل مباشرة مع المشترين منها أو البائعين لها سواء في أوروبا أم أمريكا أم اليابان، فكيف يتسنى لسنغافورة أن تبقى بدون أرض تزود غيرها بالمؤن؟ كيف كان بوسعنا أن نحيا حقاً؟ حتى مياهنا تأتي من الدولة الماليزية المجاورة. أتذكر تماماً كيف أمسك الجيش الياباني، في بداية شباط 1942، بخزاناتنا المائية هناك، الأمر الذي أحبط معنويات المدافعين البريطانيين، رغم أنه كان مايزال لديهم بعض الخزانات المائية في سنغافورة.

بعض الدول ولدت مستقلة، وبعضها حققت الاستقلال. أما سنغافورة فقد فرض الاستقلال عليها لقد احتفلت قرابة 45 مستعمرة بريطانية بانتقال السلطة إليها من بريطانيا الإمبريالية إلى حكوماتها الوطنية. أما بالنسبة لسنغافورة فإن 9 آب 1965 لم يكن مناسبة احتفالية. إذ لم نسع أبداً إلى الاستقلال. ففي استفتاء جرى قبل ثلاث سنوات صوّت 70% من المقترعين لصالح الاندماج مع ماليزيا. ومنذ ذلك الحين لم تتغير حاجة سنغافورة في أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الاتحاد في دولة سياسة واجتماعية واقتصادية واحدة. لم يتغير شيء ـ عدا عن أننا كنا مُبعدين. كنا نقول: إنّ كانت سنغافورة مستقلة فهي ببساطة غير

قابلة للحياة. ومهمتنا الآن التي لا نُحسد عليها أن نجعلها قابلة للحياة. كيف يسعنا أن نخلق دولة من مجموعة متعددة اللغات ففيها مهاجرون من الصين، والهند وماليزيا، وإندونيسية وأجزاء أخرى عديدة من آسيا؟

سنغافورة جزيرة صغيرة مساحتها 214 ميلاً مربعاً على المد المنخفض، وقد انتعشت لأنها كانت في قلب الإمبراطورية البريطانية في جنوب شرق آسيا ومع الانفصال أصبحت قلباً بلا جسد. 75% من سكاننا والبالغ عددهم مليونين، كانوا من الصينيين، أقلية ضئيلة في أرخبيل من 30 ألف جزيرة يقطنها أكثر من100 مليون مسلم من الملايو وإندونيسية. كنا جزيرة صينية في بحر ملايو. كيف يسعنا أن نحافظ على بقائنا وسط هذه البيئة المعادية؟

ليس ثمة شك حول العداء. ومن أجل أن تزيد متاعبنا صعّد الأندونيسيون (مجابهتهم) العدوانية ضد ماليزيا عندما وجدت في أيلول 1963، حرب محدودة تضمنت المقاطعة الاقتصادية، وأعمال إرهاب يقوم بها فدائيون (كوماندوز) يتسللون إلى سنغافورة لتفجير القنابل والغارات العسكرية التي تتضمن إنزال قوات في جوهور بالمظلات. كان الصينيون في ماليزيا وسنغافورة يعرفون أن الحكومة الإندونيسيا ضدهم رغم وجود 3 ملايين مواطن من أصل صيني يعيشون على أرضها.

وفي غضون ذلك لم يواجه المركز التجاري، الذي اعتمدت عليه سنغافورة منذ إنشائها عام 1819، مستقبلاً تكتنفه الشكوك فحسب، بل إن أهميتنا الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا، للإمساك بالإمبراطورية، كانت تتلاشى مع انحلال الإمبراطورية. فاقتصاد سنغافورة يتعرض لمخاطر شديدة جراء أي زوال مفاجئ للحضور البريطاني. فقد كانت نفقات الدفاع البريطاني في سنغافورة تصل إلى ما يقارب 20% من ناتجنا القومي العام، وكان وجودهم العسكري يوفر وظائف لثلاثين ألف عامل بصورة مباشرة، كما يوفر مساعدات غير مباشرة لقرابة عشرة آلاف شخص، بالإضافة إلى الآخرين الذين يقدمون خدمات

مختلفة. وقد أوجدوا فرص عمل لما يزيد على 10% من قوة العمل في البلاد في وقت بلغ فيه معدل النمو السكاني 2.5 % في السنة، مما كان يلقي على عاتق الحكومة ضغطاً كبيراً من أجل إيجاد فرص عمل، بالإضافة إلى خدمات التعليم والصحة والإسكان.

ولكن بالنسبة إلى هذه اللحظة فإنني أشعر بالامتنان والراحة لأننا مررنا بذلك اليوم بدون اضطرابات. ذهبت إلى الفراش بعد منتصف الليل متعباً ولكنني لم أكن أشعر بالنعاس. ولم أسقط من الإعياء إلا في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، إذ أصحو قلقاً من وقت إلى آخر لأن عقلي الباطن يفكر في مشكلاتنا. كيف أستطيع التغلب عليها؟ لماذا وصلنا إلى هذا الوضع المؤسف؟ هل كان ما حصل هو النتيجة النهائية بعد أربعين سنة من الدراسة والعمل والنضال؟ ماذا يحمل المستقبل لسنغافورة؟ لسوف أمضي السنوات الأربعين القادمة أفكر في إيجاد إجابات لهذه الأسئلة الصعبة.

2. النشأة

تعود بي ذكرياتي المبكرة والحية إلى إمساكي من أذني فوق بئر في رقعة أرض فسيحة تحيط بالبيت الذي كنا نعيش فيه، والذي يقع فيما يُعرف الآن (بشارع تيمبيلينغ) في سنغافورة. كنت آنذاك في الرابعة من العمر.

كنت مولعاً بالعبث وقد كسرت جرة ثمينة من مجموعة والدي الخضرا المتألقة. كان والدي حاد الطبع، ولكن غضبه في تلك الأمسية وصل إلى الذروة. فقد حملني من مؤخرة عنقي من المنزل إلى هذا البئر وأمسك بي فوقه. كيف لم تتمزق أذناي وهو يؤرجحني فوق ذلك البئر؟ بعد خمسين سنة قرأت في مجلة Scientific American (المجلة العلمية الأميركية) مقالة تشرح كيف أن الألم والصدمة يحرران الوريد العصبي في الدماغ، فتطبع التجربة الجديدة في خلايا الدماغ وبذا تنطبع التجربة في الذاكرة بحيث يظل المرء يتذكرها لفترة طويلة بعد ذلك.

ولدت في سنغافورة في 16 أيلول عام 1923 في دارة كبيرة ذات طابقين في شارع كامبونغ جافا ـ 92. وكان عمر أمي، تشوا جيم نيو، آنذاك 16 عاماً، أما والدي، لي تشين كون فكان في العشرين من عمره. وكان والدهما قد رتبا زواجهما قبل سنة، ولا بد أن كلا العائلتين فكرت بهذا الزواج على أنه عمل ممتاز لأنهما بعد سنة زوّجتا شقيقة والدي الصغرى إلى شقيق والدتي الأصغر.

كان والدي ابن رجل غني. وقد اعتاد أن يتباهى بذلك أمامنا عندما كان شاباً، وقد سمح له والده بحساب لا حدود له في مخزني روبنسون وجون ليتيل، وهما أكبر محلين تجاريين في (رافليز بليس) حيث كان يشتري بذلك الحساب كل ما يروق له من ألبسة ومقتنيات أخرى. درس الإنكليزية في معهد سانت جوزيف، وهو مدرسة تبشيرية كاثوليكية أنشأها الأخوان دي لاسيل عام 1852. وقال: إنه

حصل على شهادة المدرسة الدنيا بعد أن أنهى تعليمه الرسمي ـ من دواعي أسفه وأسف والدتي. ولما كان بدون اختصاص فإنه لم يحصل إلا على وظيفة أمين مستودع في (شركة شل للنفط) بعد أن ضاعت ثروة الأسرتين في «الكساد الكبير». بدأ تاريخ أسرتي في سنغافورة مع جدي الأكبر من جهة أبي، لي بوك بون «الهاكا» والهاكا (Hakka) هم صينيون من الهان من السهول الشمالية والوسطى في الصين الذين هاجروا إلى فوجيان، وغواندونغ، ومحافظات أخرى في الجنوب وكان ذلك قبل ما يتراوح بين 700 وألف سنة الماضية، ولما كان مجيئهم متأخراً فلم يجدوا سوى أن يحشروا أنفسهم في مناطق جبلية قاحلة غير مأهولة بالسكان المحليين. ووفقاً لما جاء على شاهدة القبر الذي شيده خلف البيت الذي بناه في الصين، فإن لي يوك بون ولد عام 1846 في قرية تانغكسي، التابعة لمقاطعة دابو في غواندونغ. ثم هاجر إلى سنغافورة على متن سفينة شراعية صينية. ولا يُعرف عنه الكثير إلا بعد عام 1870 عندما تزوج فتاة صينية، تدعى سيو هوان نيو، مولودة في سنغافورة من والد من الهاكا عنده دكان.

وفي عام 1882 رأى أنه قد جمع ما يكفي من المال ليعود إلى قرية الأجداد في الصين، وبنى بيتاً كبيراً ونسب نفسه إلى طبقة عليا. ولكن زوجته رفضت أن تغادر أسرتها في سنغافورة وتذهب إلى مكان لم تره من قبل. ووفقاً لما يقوله جدي الذي كان آنذاك في العاشرة، فإن الأطفال وأمهم ذهبوا للاختفاء في بيت عائلة الأم في شارع (أه هود) وعاد لي بوك بون وحيداً إلى الصين. وهناك تزوج ثانية، وبنى لنفسه بيتاً واسعاً، كما اشترى بستاناً صغيراً. وأرسل إلى سنغافورة صورة له في بستانه وبيته الذي بني على الطراز الصيني مع باحة واسعة وأسقف رمادية اللون. وقد ضاعت صورة المنزل ولكن صورة جدي ما تزال موجودة.

ولد جدي، لي هون ليونغ الذي كنت أدعوه كونغ؟ أو جدي باللغة الصينية؟ في سنغافورة عام 1871، ووفقاً لرواية والدي فقد درس في «معهد رافلز» حتى مستوى الصف الخامس، أي ما يعادل اليوم المرحلة الإعدادية، وأخبرني هو نفسه

أنه كان يعمل بائعَ أدوية (صيدليٌّ غير متخصص) عندما ترك المدرسة، ولكن بعد بضع سنوات أصبح موظفاً مسؤولاً في سفينة تبحر بين سنغافورة وشرق الأنديز الهولندية. وكانت السفينة إحدى سفن أسطول تمتلكه شركة هيب إنغ موه للملاحة، والتي كان يملكها ملك السكر في جافا المليونير أوي تيونغ هام.وفي أثناء رحلاته تزوج من جدتي، كوليم نيو، في سيمارانغ، وهي مدينة وسط جزيرة جافا . وثمة وثيقة بالهولندية يعود تاريخها إلى 25 آذار (مارس) 1899، صادرة عن محكمة أورفان في سيمارانغ تشهد بزواج كوليم نيو، وهي في السادسة عشر من عمرها، من لي هون ليونغ البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً. وتثبت المصادقة على تلك الوثيقة أن الزواج تمّ في السادس والعشرين من آذار (مارس) 1899 وولد أبي في سيمار انغ عام 1903، في الأنديز الشرقية الهولندية. ولكنه بريطاني الجنسية بالنسب، لأن والده ـ كونغ ـ كان من سكان سنغافورة. وكان كونغ قد أحسن صنعاً بإحضار زوجته وولده إلى الجزيرة بعد ميلاد الطفل.

نمت ثروته بكسبه لثقة أوي تيونغ هام، الذي عيّنه نائباً عنه في إدارة شؤونه في سنغافورة. وقد أخبرني كونغ كم كان موضع ثقة، إذ أنه تبرع على مسؤوليته بمبلغ 150 ألف دولار، وهو مبلغ ضخم في تلك الأيام، من حساب أوي لتأسيس «كلية رافليز».

لم يكن ثمة مجال للتساؤل حول مدى حبي لجدي وإعجابي بوالدي. فقد كان جدي يحبني ويرعاني أما والدي، الذي يفرض الانضباط في الأسرة، فقد كان صارماً في معاملتي. وكان جدي قد حقق ثروة طائلة، أما والدي فهو مجرد ابن رجل غني لا يملك الكثير لنفسه.

عندما انخفضت ثروة العائلة أثناء فترة (الكساد الكبير) التي سببت انهياراً في قيمة المطاط من 80 سنتاً لكل أونصة إلى ما يقارب 20 سنتاً ما بين عامي 1927 و1930، لحق بكونغ ضرر كبير. إذ لا بد أن حسه التجاري كان دون مستوى والد أمي، تشوا كيم تينغ. على أن ثروة تشوا تعرضت بدورها للضرر لأنه استثمر

بعد عودته إلى دابو، مقاطعة غواندونغ عام 1882 والد
جدي لي بوك بون في ثوب كينغ الرسمي درجة 7.

جدي كونغ لي هون يونغ، المحب لبريطانيا، في لباسه الكامل في مناخ استوائي.

أموالاً في مزارع المطاط وضارب في أسواقه. ولكن كان لديه أملاك عقارية أيضاً، ويمتلك أسواقاً ومتاجرَ لذا لم يفلس كما حدث مع كونغ. وهكذا انتقل والدي عام 1929 من منزل كونغ إلى منزل تشوا الواسع في تيلوك كوراو.

كان كونغ غربي الطابع جداً، نتيجة للسنوات التي أمضاها مسؤولاً عن الحسابات على متن السفن مع قباطنة وضباط ومهندسين مسؤولين بريطانيين. وقد اعتاد أن يقص عليّ تجاربه وقصصاً حول صرامة النظام على متن السفن. ومن ذلك على سبيل المثال أنه بالرغم من الحرارة والرطوبة في المناطق المدارية كان القبطان والضباط الآخرون، وهم يرتدون ملابس قطنية بيضاء أثناء الطعام، ينظفون الصحون وأدوات الطعام. فقد تركت لديه خدمته مع الضباط البريطانيين انطباعاً دائماً بالتزام النظام والصرامة والكفاءة.

وعندما ولدت شاورت أسرتي صديقاً خبيراً لاختيار اسم ميمون لي. واقترح اسم (كوان يو) والذي يعني (النور واللمعان). ولكن إعجاب جدي بالبريطانيين جعله يضيف «هاري» إلى اسمي، لذا صار اسمي: (هاري لي كوان يو). كما أضيف إلى اسمي أخوي الأصغرين: كيم يو، وثيام يو اسمين مسيحيين؟ دينيس وفريدلي على التوالي. وفي ذلك الوقت كان قليل من الصينيين غير المسيحيين يفعل ذلك، وفيما بعد في المدرسة وجدت نفسي غريباً باسم شخصي مثل (هاري) وعندما ولد أخي الأصغر سيوان عام 1933، ألححت على والدي ألا يضيفا على اسمه اسماً مسيحياً لأننا لسنا مسيحيين.

على الرغم من أن كونغ قد فقد الأموال التي كانت تؤهله كي يعيش ويلبس بطريقة مواكبة للعصر. فقد ظلّ يحتفظ ببقايا ثروة قديمة، بما في ذلك بعض قطع الأثاث الأنيقة المستوردة من إنكلترا والتي تعود إلى عام 1910 وكان بالإضافة إلى ذلك خبيراً في المآكل والخمور. كان تناول الطعام معه متعة. وكانت جدتي طباخة ماهرة، تجيد تحضير اللحم المشوي (الستيك) مع قطع البطاطا المقلية، وهي أكلة كانت تعجب كونغ إعجاباً خاصاً. وكان انطباعي عنه أنه رجل شق طريقه في الحياة. وعرف كيف يعيش حياة هانئة.

كان نقيض جدي من والدتي تماماً. فلم يتمتع تشوا كيم تينغ بدراسة الإنكليزية رسمياً ولم يُتح له أن يختلط بقباطنة بريطانيين أو تجار سكر صينيين أثرياء. إذ ولد في سنغافورة عام 1865 لأسرة صينية جاءت من مالاكا. نشأ ثرياً من خلال عمله الدؤوب وعيشه المقتصد. وتوظيفه نقوده في استثمارات ذكية في مجال العقارات وتجارة المطاط.

تزوج ثلاث مرات. توفيت زوجتاه الأولى والثانية، والثالثة كانت جدتي، نيو آه سون، وهي سيدة ضخمة الجثة من من بونتياناك في بورنيو الهولندية، وتتحدث بلهجة (الهاكا) والمالاوية والإندونيسية. وعندما تزوجت تشوا كانت أرملة شابة ولها ولدان من زوجها الأول، الذي توفي بعد ولادة الابن الأصغر مباشرة. ولدتْ من تشوا سبعة أطفال قبل أن تتوفى في عام 1935. وتوفي عام 1944 أثناء الاحتلال الياباني لسنغافورة.

كانت والدتي أكبر الأولاد من هذا الزوج، وعندما تزوجت عام 1922، وكانت في الخامسة عشر من عمرها، كانت ثروات الأسرتين ما تزال في حالة جيدة. فقد جلبت معها جزءاً من نصيبها في الميراث، عبدة صغيرة السن كانت مهمتها، بالإضافة إلى أشغالها الأخرى، أن تساعدها في الاستحمام وتغسل لها قدميها وتحضر لها حذاءها. ومثل هذه الرموز التي تدل على التراث اختفت بعد أن أصبحت أعي ما يدور حولي وأنا في سن الرابعة أو الخامسة من العمر، لكن ذكريات الأوقات المفضلة ما تزال محفوظة في صور لي ـ طفل يرتدي ملابس مستوردةً من بريطانيا أو يجلس في عربة أطفال غالية الثمن. كان بيت تشوا في تيلوك كوراو بيتاً واسعاً من الخشب والقرميد، وكان يعيش فيه مع جميع أولاده من زوجته الثالثة، فأمي، بوصفها الابنة الكبرى، مع والدي، وخمسة أولاد تحتل غرفة نوم واسعة، كان بيتنا واسعاً تغمره السعادة. نعيش جميعاً معاً بانسجام مع مماحكات بين حين وآخر حول أمور تافهة. وهكذا نشأت مع إخوتي الثلاثة وأختي الوحيدة وسبعة أبناء عم في البيت نفسه. ولكن لما كانوا جميعاً أصغر مني كنت ألعب غالباً مع أولاد صيادي السمك الصينيين والمالاويين الذين يعيشون في أكواخ قريبة ذات سقوف من الخشب أو التوتياء، وكان هؤلاء الصيادون يعملون على طول شاطئ (سيغلاب) على امتداد 200 ياردة.

صورتي في سن الرابعة في عرس عمتي التي كانت ترتدي الزي التقليدي لتلك الفترة.

كان عالماً بسيطاً كنا نلعب بالطائرات الورقية، والصوف، بل ونحاول اصطياد الأسماك. وقد زرعت فينا تلك الألعاب روح القتال والرغبة في الانتصار. ولا أدري ما إذا كانت تلك الألعاب قد هيأتني للمعارك التي خضتها فيما بعد في عالم السياسة. لم نكن رقيقين ولا مدللين. ولم يكن لدي عندما كنت طفلاً صغيراً الملابس والأحذية الفاخرة كتلك التي يرتديها أحفادنا اليوم.

لم نكن فقراء، ولكن لم يكن لدينا ألعاب كثيرة، ولم يكن هناك تلفزيون. لذا كان علينا أن نكتسب سعة الحيلة ونستخدم خيالنا. كنا نقرأ وهذا أمر جيد لتحصيل الثقافة، ولكن لم يكن من المتوفر آنذاك إلا القليل جداً من الكتب المصورة، وهذه كانت باهظة الثمن، كنت أشتري كتب قصص الرعب الرخيصة وقصص المغامرات لأولاد غريغريز ـ هاري دارتون وبيلي بانتر ورفاقهما. كنت أنتظر بفارغ الصبر وصول سفينة البريد من بريطانيا التي كانت تأتي إلى رصيف تانجونغ باثمار كل يوم جمعة حاملة معها المجلات والصور، ولكنها لم تكن رخيصة الثمن بدورها. وعندما كبرت قليلاً رحت أتردد على «مكتبة رافيلز» حيث يمكن استعارة الكتب لمدة أسبوعين في ذلك الوقت. كنت أقرأ بشغف ولكنني كنت أفضل القصص التي تتحدث عن الدول الغربية أكثر من القصص البوليسية.

في أيام العطل كانت الأسرة تمضي أسبوعاً في بيتنا الخشبي في مزرعة المطاط التابعة لجدي تشوا في مقاطعة تشاي تشي. كنا نركب عربة يجرها ثوران ذات عجلات خشبية، يقودها المزارع الذي يعمل عند جدتي. كان الركوب بتلك العربة متعة حقيقية. ولقد تساءلت بعد خمسين سنة، في عام 1977، عندما سافرت بطائرة الكونكورد من لندن إلى نيويورك وعبرت الأطلسي في ثلاث ساعات، تساءلت ما إذا كان أحد المسافرين معي في الطائرة قد جرب متعة ركوب العربة التي يجرها الثور.

لم تكن الحياة كلها مسرات بسيطة. فبين فترة وأخرى كان والدي يعود إلى المنزل سيء المزاج بعد أن يكون قد خسر في لعبة (البلاك جاك) وغيرها من الألعاب في نادي السباحة الصيني في شارع عنبر، ويطالب ببعض الحلي

ليرهنها بحيث يستطيع أن يعود ثانية ويجرب حظه مرة أخرى. وكانت تحدث بينهما مشاحنات مرعبة، ويلجأ، إلى العنف أحياناً. ولكن أمي كانت أمرأة شجاعة مصممة على أن تحتفظ بمجوهراتها، هدية عرسها من والديها. لقد تزوجت في سن مبكرة جداً، ولكنها كانت ذات شخصية قوية وطاقة وعزيمة كبيرتين. فالمرأة في أيامها مطلوب منها أن تكون زوجة صالحة وأن تنجب كثيراً من الأولاد ليكونوا بدورهم أزواجاً وزوجات صالحين، ولو أنها ولدت بعد جيل واحد من جيلها، وأكملت تعليمها العالي، لاستطاعت بسهولة أن تصبح مديرة أو سيدة أعمال ناجحة ومتميزة.

وقد كرّست حياتها فيما بعد لتربية أولادها بحيث يحصلون على تعليم جيد ويعتمدون على أنفسهم في اختصاصهم.

وتصدت لوالدي كي تحمي مستقبلهم. كنت وإخوتي وأختي نعي جيداً تضحياتها، كنا نشعر بأننا لا ينبغي أن نخيب آمالها. وأن نفعل كل ما بوسعنا كي نكون جديرين بها وبآمالها فينا. وعندما كبرت بدأت تشاورني، بوصفي الولد الأكبر، في جميع شؤون العائلة المهمة، بحيث أصبحت وأنا في سن اليفاعة أشعر بأنني رجل البيت الفعلي. وهذا ما علمني كيف أتخذ القرارات

كان لجدتي من أمي آراء سديدة فيما يتعلق بتعليمي. ففي عام 1929 وقبل أن أبلغ السادسة، أصرت على أن ألحق بمدرسة قريبة متواضعة مع أولاد صيادي السمك، في ذلك الكوخ كان يوجد صف واحد ذو مقاعد مهترئة ومنصة مسطحة، وغرفة أخرى كانت بمثابة منزل للأستاذ الصيني البائس المتوسط العمر. وكان يطلب منا أن نردد الكلمات وراءه بدون إدراك معانيها؟ وإذا ما حاول أن يشرح شيئاً لم أكن أفهم منه.

كنت أشكو مر الشكوى لوالدتي وكانت بدورها تشكو لجدتي. ولكن أماً شابة في الثانية والعشرين ما كان بوسعها أن تمارس نفوذاً على أم متمرسة في الثامنة والأربعين من عمرها، وقد أنجبت تسع أطفال من زيجتين، بل كانت مصممة على

أن أتلقى بعض التعليم بالصينية. وقد سمحت جدتي مع هذا أن أغير المدرسة، فأرسلوني إلى مدرسة تشون حيث كنت أعود إلى المنزل سيراً على الأقدام كل يوم. هذه المدرسة كانت أفضل، تتألف من غون في شارع (جوتشيات) كانت على بعد ميل واحد من المنزل، وكنت أذهب إليها إذ تتألف من طابقين خشبيين مع أرضية من الإسمنت، وما يقارب عشرة صفوف مع مقاعد تتسع لما بين خمسة وثلاثين وأربعين تلميذاً في كل صف. كانت الدروس باللغة الصينية صعبة. في البيت كنت أتحدث الإنكليزية مع والداي. والدي كان يتحدث بلكنة إنكليزية مختلطة بالصينية، وأتحدث المالاوية المختلطة بالهوكين مع أصدقائي أولاد الصيادين. كانت لغة الماندرين الأصلية غريبة كلياً ولا صلة لها بحياتي. ولم أكن أفهم الكثير مما كان يقوله المعلمون.

بعد مرور شهرين أو ثلاثة على هذا، توسلت إلى والدتي كي تنقلني إلى مدرسة تدرّس بالإنكليزية. واستطاعت أن تكسب موافقة جدتي هذه المرة، وفي كانون الثاني (يناير) من عام 1930 التحقت بالمدرسة الإنكليزية (تيلوك كواروا). وأصبحت الآن أفهم ما يقوله أستاذي وحققت تقدماً بقليل من الجهد. كان معظم الطلاب من الصينيين، ومن بينهم قلة من الهنود وبعض المالاويين الذين انتقلوا من مدرسة (تيلوك كوراوا) المالاوية.

كان والداي مهتمين بقلة اجتهادي، وأوكلت أمي إلى خالي (كينغ هي) مهمة التأكد من تحضيري لدروس اليوم التالي. وكان علي أن أمضي ثلاث أمسيات في الأسبوع معه قبل العشاء، لمدة ساعة. وقد وجدت من السخف أن يُفوّض الأقل تعلماً من أخوالي بمتابعة وظائفي المدرسية.

حصلت على ترفيعين في المدرسة وعند المستوى الخامس، بعد سبع سنوات من التعليم الابتدائي ـ ست سنوات بالنسبة لي ـ تقدمنا جميعاً إلى الامتحان العام على مستوى الجزيرة للحصول على مقاعد في المدارس الإعدادية الحكومية. وقد بذلت في سنتي الأخيرة، 1935، جهداً إضافياً. وكنت الأول في المدرسة واكتسبت مكاناً في «معهد رافليز» الذي لم يكن يقبل إلا الطلاب المتفوقين.

كان «معهد رافليز» وما يزال المدرسة الثانوية الأولى، التي تدرس بالإنكليزية، في سنغافورة، وهي تحمل اسم مؤسسها. وقد خرّجت مجموعات صغيرة من الرجال البارزين ذوي الثقافة العالية، حصل الكثير منهم على منحة الملكة للالتحاق بجامعة أوكسفورد، أو كيمبريدج، أو لندن، أو إدينبرغ وغيرها من المعاهد البريطانية لدراسة الطب، أو القانون أو الهندسة.

في عام 1936 التحقت (بمعهد رافليز) مع ما يقارب 150 طالباً من الطلاب المتفوقين من خمس عشرة مدرسة ابتدائية حكومية. كان القبول يتم على أساس الجدارة والموهبة. وكان الطلاب ينتمون إلى جميع الأعراق والطبقات والأديان، بمن فيهم الكثير من مالايا. وكان المديرون الأوائل من الإنكليز الذين شكلوا المعهد وفقاً لنموذج المدرسة العامة الإنكليزية.

كان المنهج الدراسي يهيئ الطلاب لامتحانات الإمبراطورية للشهادات الدنيا والعليا لجامعة كمبريدج. وكانت الكتب والبرامج، ولاسيما المتعلقة منها باللغة الإنكليزية، والأدب الإنكليزي، وتاريخ الإمبراطورية البريطانية، والرياضيات، والجغرافيا موحدة بالنسبة لجميع المستعمرات، مُعدلة كما أعتقد عن تلك المستخدمة في المدارس البريطانية. وكان التعليم باللغة الإنكليزية حصراً. وبعد سنوات عدة، حينما كنت ألتقي زعماء (الكومونولث) من الجزر البعيدة في الكاريبي أو المحيط الهادي، اكتشفت أنهم تلقوا البرامج والنصوص ذاتها وأنهم يحفظون المقاطع ذاتها من شعر شكسبير.

كان ثمة أربع درجات في المدرسة الثانوية: الدرجتان 6 و7، لشهادتي كمبريدج الدنيا والعليا. لم أكن شديد الدأب في الدراسة، ولكنني كنت جيداً في مادة الرياضيات والعلوم ومتقدماً في اللغة الإنكليزية. لذا في نهاية الدرجة السادسة، كنت من بين أفضل الطلاب ورُفعت إلى الدرجة 7 آ، حيث كنت من بين الثلاثة الأوائل بدون عناء كبير. كنت ما زلت غير شديد الانتباه، والإصغاء في الصف، وكنت أحاول أن أنقل متلصصاً من فوق الطالب الذي يجلس إلى جانبي. إذ أن

تيوكاه ليونغ، لم يكن الطالب الأول في الصف فحسب، بل كان يحتفظ بملخصات جيدة عن الدروس. ولكنه كان يغطي الصفحات بيديه. ومع هذا فإن أستاذي الهندي واسمه م.ن كامبوس، كتب في تقرير عني هذه الكلمات التي تنطوي على الثناء والتشجيع: «هاري لي كوان يو طالب مجد ومتميز. ومن المحتمل أن يحصل على منصب رفيع في الحياة».

التحقت بالصف (جونيور A) وهو أفضل صف من حيث المستوى. كان المسؤول عن الصف إنكليزياً يدعى آ.ت غريف، وهو شاب من خريجي أوكسفورد، ذو شعر كثيف وطبيعة ودية.

كان عازباً في أواخر العشرينيات من عمره، ويمضي مهمته الأولى عبر البحار. لم يكن لديه أي تميز عرقي، ربما لأنه لم يُمضِ وقتاً طويلاً في المستعمرة كي يتعلم أن يحافظ على مسافة معينة بينه وبين السكان المحليين، وهي ما كانت تعتبر ضرورية للإبقاء على السيطرة البريطانية. استطاع أن يحسّن لغتي الإنكليزية إلى حد كبير، وقد اجتهدت جيداً وكنت الأول في امتحانات كيمبريدج الدنيا، وكان أول امتحان أؤديه على أوراق جامعة كيمبريدج وعلاماتها. كذلك تلقيت جائزتين ذلك العام: منحة معهد رافلز ومنحة جياك كيم. وقد بلغت قيمة كلتيهما مبلغاً يعادل 350 دولاراً كاملة. وكانت كافية كي أشتري دراجة رالي أنيقة بـ 70 دولاراً، ثلاثية الحركة وبها صندوق خلفي، وهكذا كنت أذهب إلى المدرسة متأنقاً وما يزال لدي احتياطي من المال. ولكن كان ينتظرني ما هو أفضل. فقد كنت أعد نفسي للتفوق في امتحانات جامعة كيمبريدج العليا، سُعدت عندما أظهرت النتائج في وقت مبكر من عام 1940 أنني كنت الأول في المدرسة، بل الأول على جميع الطلاب في سنغافورة والملايو.

كنت مستمتعاً بالسنوات التي أمضيتها في (معهد رافليز). إذ توافقت مع العمل توافقاً مريحاً، وكنت من الناشطين في الحركة الكشفية، كنت ألعب الكريكيت وقليلاً من التنس، وأسبح، وأشارك في كثير من المناقشات. لكنني لم

أكن أبداً مثالياً وهيهات أن أبلغ حد الكمال. كان هناك أمر ما يزعجني أو يلهيني في داخلي. كثيراً ما كنت أضبط بحالة عدم انتباه في الصف أنسخ الملاحظات من رفاقي الطلاب، أو أحاكي بعض طرق الأساتذة الغريبة في التصرف. أما بالنسبة إلى أستاذ العلوم الهندي الممل فقد ضُبطت في المختبر أرسم خلفية رأسه الأصلع.

طردت مرة من قبل المدير: كان د.و. ماك لويد عادلاً وصارماً، يفرض النظام على الجميع، ومن بين القواعد التي يتبعها أن الطالب الذي يتأخر ثلاث مرات في الفصل الواحد سينال ضربات بعصا من الخيزران. كنت أنهض متأخراً دوماً، وعندما تأخرت ذات مرة للمرة الثالثة في أحد الفصول عام 1938 أرسلني مسؤول الانضباط لمقابلة مك لويد. عرفني المدير من الجوائز التي حصلت عليها في أيام توزيع المكافآت، ومن المنح المجانية التي حصلت عليها. ولكنه لم يعفني من العقاب. انحنيت على الكرسي وتلقيت ثلاث ضربات على رجليّ. أعتقد أنه خفف لي الضربات. لم أفهم أبداً لماذا يعارض المربون الغربيون العقوبة الجسدية. إنها لم تؤذ رفاقي ولم تؤذني.

ومع هذا كنت أتعلم أن آخذ الحياة بجدية. وكان والديّ يخبراني كيف أن بعض أصدقائهما أصبحوا محامين وأطباء بفضل دراستهم. لقد اعتمدوا على أنفسهم ولهذا لم يتأثروا بما ألحقه (الكساد) من أذى.

كان أبي يتأسف على إضاعة شبابه، وكان يحثني ووالدتي على تلقي تعليم عال. لهذا هيأت نفسي أن أكون محامياً، ومحترماً، لا أن أكون مستخدماً. كان هدفي أن أدرس القانون في لندن.

ولكن في عام 1940 كانت الحرب في أوروبا تجري على نحو سيء. فقد كانت فرنسا مهددة بشدة وعلى وشك أن تُحتل. وكان من الأفضل تأجيل دراسة الحقوق في لندن. ولما كنت الأول في سنغافورة والملايو في امتحانات كيمبريدج العليا، فقد حصلت على «منحة أندرسون» وهي أعلى منحة آنذاك للدراسة في

«كلية رافيلز» وقررت أن أقبلها. كانت تزيد بمقدار 200 دولار عن أية منحة حكومية أخرى، وكافية كي أدفع الرسوم وأشتري الكتب واللوازم. وأترك شيئاً للمصروفات الاحتياطية.

تأسست كلية رافيلز عام 1928 من قبل حكومة (ستريت سيتلمينتس) كانت تدرس الفنون (الإنكليزية، والتاريخ، والجغرافية، والاقتصاد) والعلوم (الفيزياء والكيمياء والرياضيات التطبيقية والبحتة).

وقد بنت الحكومة أبنية أنيقة لهذه الكلية ذات واجهات جميلة، تشبه تلك الموجودة في اكسفورد وكيمبريدج ولكنها تتلاءم مع المناخ المداري.

ولما كنت طالب منحة، كان علي أن أبقى في إحدى قاعات الإقامة. كان التكيف صعباً. فقد بنى المهندسون للتلاؤم مع طقس سنغافورة الحار والرطب مهاجع كبيرة ذات أسقف عالية. وكل مهجع منقسم إلى عشرين غرفة ذات نوافذ فرنسية تؤدي إلى شرفات مفتوحة. الحواجز بين الغرف كان ارتفاعها 7 أقدام فقط، أي بالكاد أطول من قامة الإنسان، كي تسمح بدوران الهواء بحرية. وكان هذا يعني أن الصوت يلف الغرف أيضاً والشرفات والتي يشغل كل منها عشرون طالباً، كان على كل طالب أن يختار ثلاث موضوعات. درست الإنكليزية التي كانت مقرراً الزامياً بالنسبة لجميع الطلاب، وقد ركزت اهتمامي عليها لتحسين قدرتي اللغوية ولكي تساعدني على دراسة القانون والرياضيات لاحقاً، كونني أحبها ومتفوقاً فيها، وعلى دراسة الاقتصاد لأنني كنت أعتقد أنه سيعلمني كيف أكسب المال في العمل وسوق الأسهم ـ كنت ساذجاً! وبعد السنة الأولى كان على الطالب أن يختار موضوعاً واحداً كمادة أساسية لدراسته. فاخترت الرياضيات.

في نهاية الفصول الدراسية الثلاثة في السنة الأكاديمية تأتي الامتحانات، وفي أول امتحان منها كنت الأول في مادة الرياضيات، وحصلت على أكثر من تسعين درجة. ولكنني اكتشفت بشعور من الخوف أنني لم أكن الأفضل في مادة اللغة الانكليزية أو الاقتصاد. كنت الثاني، وجاءت بعدي بفارق كبير الآنسة

كواجيوك تشو. كنت قد تعرفت على الآنسة كوا في معهد رافيلز. وفي عام 1939، طلب منها بوصفها الطالبة الوحيدة في المدرسة أن تقدم الجوائز في اليوم السنوي لتوزيع الجوائز، وقد حصلت على مجموعة من ثلاثة كتب منها. كانت في الصف الخاص تستعد للحصول على منحة الملكة الدراسية لسنتين.

كنت منزعجاً وقانطاً. فقد كانت هناك منحتان فقط باسم الملكة في السنة لجميع (مستعمرات سترتيس) (سنغافورة وبينانغ ومالاكا) وليس بالضرورة أن يحصل عليها أفضل طالبين من حيث العلامات. وفوق ذلك كنت أخشى من توزيع جغرافي عادل يقوم على إعطاء فرصة لمشتركين من بينانغ ومالاكا. وإدارة المنح قد لا تعطي منحتين لطالبين من سنغافورة، وبالتالي فإن من يحصل على المرتبة الثانية قد لا يستفيد شيئاً.

لم أستمتع بسنتي الأولى في (كلية رافيلز) كما كان الحال في معهد رافيلز. عرف الجميع أنني كنت الأول قبل أن أصل إلى الكلية. وكنت موضع شك من قبل زملائي وكان بعضهم يزعجني. كان عليّ أن أقوم بكثير من الأعمال التي لم أكن أحبها أو أراها مملة وسخيفة، ولكني تحملت كثمن لا بد من دفعه للانتساب إلى معهد يفتقر إلى النضج وينمي تقاليد خاطئة.

كان علينا أن نحضر المحاضرات ونحن نلبس الجاكيت وربطة العنق. لم تكن غرف الصف مكيفة، ولكن كان ثمة غرفة في القسم العلمي توجد فيها مدفأة توقد بعض الظهر. وكان من الطبيعي أن أصاب بالسعال والبرد. كذلك كنت منزعجاً من وجودي في محيط غريب، مع تسعة عشر طالباً آخرين في مجمع واحد، وأن آكل من طعام المعهد غير الشهي.

بعد السنة الأولى انتقلت من المجمع (C) إلى مجمع أفضل هو المجمع (E) حيث وجدت في غرفة أفضل وأكثر برودة. ولكن الإحساس بالضياع لا بد أن يؤثر على أدائي الأكاديمي. وأذكر أنني في أحد امتحانات الفصل لم يكن أدائي ممتازاً حتى في الرياضيات. ومع هذا فقد كنت في امتحانات نهاية السنة

الدراسية موفقاً وكان ترتيبي الأول في مادة الرياضيات البحتة. ولكن الآنسة كواجيوك تشو كانت الطالبة الأولى في اللغة الإنكليزية والاقتصاد، وربما التاريخ أيضاً، وهو مادتها الثالثة. وحصلت على علامة أفضل قليلاً من علامتها في الإحصاء الذي كان جزءاً من مادة الاقتصاد. كنت أعرف أنني سأواجه منافسة شديدة من أجل الفوز بمنحة الملكة.

كان ثمة مشكلات أخرى. ومن خلال استرجاع الذاكرة تبيّن لي أن كلية رافيلز كانت استهلال معرفتي بسياسة العرق والدين. ففي مستعمرة بريطانية لا تفرق بين الأعراق كان المالاويون السنغافوريون معتادين على أن يعاملوا مثل الآخرين. ولكن في حزيران عام 1940، قابلت لأول مرة عدداً لا بأس به من المالاويين الذين وُلدوا مترعرعين في ظل نظام مختلف. ففي الولايات المالاوية الاتحادية (FMS) التي تضم: بيراك وسيلانغور وباهانغ ونيغري سيمبيلان، والأكثر من ذلك من ولايات الملايو غير الاتحادية (جوهور وكيداي وبيرليس وكيلانتان وتيرينغانو) كان المالاويون الأصليون يتمتعون بحقوق سياسية واقتصادية خاصة. ففي اتحاد (FMS) كانت هناك خمس منح فقط (لكلية رافيلز) مفتوحة أمام غير المالاويين، في حين كان للمالاويين خيار أكبر وكذالك في الولايات المالاوية غير المتحدة. وكان من بين كل مئة طالب مقبول كل سنة عشرون طالباً من المالاويين من داخل البلاد ممن يتمتعون بمنح تدفع من حكومات ولاياتهم.

كان ثمة شعور قوي بالتضامن ما بين المالاويين، وهو إحساس نما بسبب الشعور بالتهديد، أو الخوف من المهاجرين الهنود والصينيين الأكثر نشاطاً ودأباً. أحد المالاويين في صفي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء ماليزيا. فقد التحق عبد الرزاق بن حسين في صفوف اللغة الإنكليزية والاقتصاد ذاتها التي التحقت بها، ولكننا لم نكن صديقين حميمين. كان ينتمي إلى طبقة ارستقراطية مالاوية في باهانغ، ولهذا كان ينأى بنفسه قليلاً عن باقي الطلاب المالاويين، الذين كانوا يشخصون بأبصارهم إليه، أما أولئك الذين كنت أتعامل معهم بسهولة أكبر فكانوا من الطلاب العاديين، وكنت ألعب مع أحدهم الكركيت في الكلية.

ولما كان لدي كثير من الأصدقاء المالاويين منذ الطفولة، فقد كانت لغتي المالاوية طليقة. ولكنني سرعان ما اكتشفت أن موقفهم نحو غير المالاويين، ولاسيما الصينيين يختلف تماماً عن موقفهم من المالاويين من سكان سنغافورة.

أخبرني أحد الطلاب من كيداه في سنتي الثانية في المدرسة، بعد أن أصبحنا أصدقاء: (أنتم الصينيون نشطاء جداً وأذكياء جداً في كيداه، حيث يوجد كثير منكم. لا نستطيع أن نقاوم الضغط). وكان يقصد ضغط المنافسة على الأعمال والتجارة، وعلى الأماكن في المدارس والجامعات. المالاويون كانوا مالكي الأرض، ومع هذا بدا أنهم يشعرون بخطر الإبعاد عن المراكز الرفيعة من جانب القادمين حديثاً، الذين كانوا أكثر ذكاءً وتصميماً وقدرة على المنافسة وربما لأنهم كانوا الأفضل والأكثر ثقة بالنفس، فإن الصينيين والهنود كانوا يفتقرون إلى هذا الشعور بالتضامن. لم يكن ثمة وحدة بينهم لأنهم لم يكونوا يشعرون بالتهديد.

ما يزال حدث ماثلاً في ذاكرتي. ففي سنتي الثانية كان لدي إحساس كبير بالكآبة تجاه ترتيبات حفلة غداء (اتحاد طلاب كلية رافيلز) السنوي في فندق (سي فيو). كان غير المالاويين يستاؤون من ردود الفعل الحادة والمتعجرفة من قبل الأمين العام الفخري، أونغكو عزيز بن عبد الحميد تجاه شكواهم.

وشرعت قلة من الطلاب بحركة من أجل لقاء عام استثنائي لتوبيخه وحرمانه من منصبه. ولكنه كان مالاوياً. وبعد أن انتهت عملية جمع التوقيعات لهذا الاجتماع الاستثنائي، تكاتف الطلاب المالاويون معه وأوضحوا بجلاء أنه إذا أزيح من منصبه فإنهم سيستقيلون جماعياً من الاتحاد. وكان هذا يعتبر تحدياً لغير المالاويين. اقتربت وطلبت أن ألقي الخطاب الافتتاحي وأن أطرح شكواهم ضد أونغكو عزيز. ولم أحضر حفل الغداء، ولم يكن بيني وبينه مصادمة شخصية. ولكن لما كان الجميع عازفين عن هذه المهمة الكريهة قررت أن أقوم بها أنا. جرى الاجتماع بعد ظهر السبت، وكان معظم الطلاب قد انصرفوا، ربما لأنهم يريدون تجنب هذا الموقف غير المريح. حضر بقوة المالاويون فقط. كان التوتر شديداً، والمشاعر العنصرية قوية.

كانت تجربتي الأولى مع المالاوية، كان لدي تعاطف شديد مع المالاويين. أديت المهمة، بجرأة وبطريقة محسوبة ولكن بدون عدوانية. وتكلم أونغكو عزيز داحضاً جميع المزاعم المتعلقة بسلوكه الفظ. شعرت أن المحاضرين من الطلاب الذين يقترب عددهم من الثمانين طالباً غير مرتاحين البتة إزاء تأكيداته. وعندما جرى التصويت فاز المالاويون لصالح أونغكو عزيز، وانفض الاجتماع. ولكن غير المالاويين شعروا بأنهم سجلوا نقطة واختفت هذه الحادثة من ذاكرتي. ولكن في وقت متأخر ما بين 1963 و1965، عندما كنا في ماليزيا ونعاني من مشكلات مشابهة مع الماليزيين، عادت بي الذاكرة إلى تلك الحادثة.

ولكنه إذا كان وقت المنافسة فقد كان أيضاً زمن تكوين صداقات دائمة. فكثيرون ممن التقيت معهم لأول مرة في (كلية رافيلز) أصبحوا زملاء سياسيين ودودين، وكان من بينهم توه تشين تشاي، وهو طالب علوم أكبر مني سناً، دؤوب ومنتظم في عمله، هادئ ومستقيم، وجوه كينغ سوي، مدرس الاقتصاد الذي يتمتع بذهن متقد، لم يكن لامعاً في التحدث، لكنه بارعاً في الكتابة. عندما بدأت مهنتي محامياً في الخمسينيات كان لدي شبكة من الأصدقاء والمعارف من ذوي المراكز المهمة في الحكومة والمهن في سنغافورة والمالايو. وحتى إذا كان المرء لا يعرف شخصاً ما شخصياً، فإن مجرد وجود خلفية مشتركة يجعل الأمور أسهل، كما أن روابط المدرسة القديمة لها تأثير حسن في كل من سنغافورة والمالايو، حتى بين الصينيين والمالاويين. وقبل أيام العمل السياسي الفعال، وعندما كانت السلطة بالكامل في أيدي البريطانيين، لم أكن أشعر بأية ضغينة أو كراهية من المالاويين وفي الجزء الداخلي من البلاد كان لدي صداقات مع كثيرين منهم، بمن فيهم اثنان من القضاة مثلت أمامهما فيما بعد.

كانت شبكة أولاد كبار من النخبة من ذوي التعليم الإنكليزي والنشأة التربوية البريطانية الكولونيالية. درسنا في مدارس متشابهة وقرأنا الكتب ذاتها وتشاركنا في كثير من المواقف والصفات. ولم تكن المدارس البريطانية العامة النظام العامل الوحيد الذي يشجع على وجود شِلل من خلال الأحاديث وأسلوب الحياة واللباس وطريقة أداء الأشياء.

3. الغزاة اليابانيون

كنت نائماً في المبنى (E) من كلية رافلز، في الساعة الرابعة من الصباح الباكر لليوم الثامن من كانون الأول (ديسمبر) من عام 1941، عندما صحوت على صوت دوي القنابل. لقد بدأت الحرب مع اليابان. كانت مفاجأة كاملة. كانت أضواء الشوارع مُنارة، وصفارات الإنذار لم تطلق حتى أسقطت تلك الطائرات اليابانية قنابلها وقتلت 60 فرداً وجرحت 130 آخرين. ولكن الغارة جرى التخفيف من أهميتها. ومنعت الرقابة الأخبار التي تفيد أن أحواض ميناء كيبيل، والقاعدة البحرية في سيمبا وانغ، وقاعدتي تينغاه وسيليتار الجويتين قد هوجمتا أيضاً.

الطلاب في كلية رافلز كانوا قلقين بشدة. أولئك الذين يعيشون في داخل البلاد تهيأوا على الفور للعودة إلى بيوتهم بالقطار. كان كل واحد تقريباً يعتقد أن سنغافورة ستكون الهدف الرئيسي للهجوم، لذا فمن الحكمة العودة إلى ريف الملايا، الذي سيوفر أماناً أكثر من القاذفات اليابانية. كانت إدارة الكلية مضطربة بدورها مثل الطلاب. لم يكن أحد مستعداً لهذا. وبعد يومين سمعنا أن اليابانيين قد أنزلوا قواتهم في كوتا بهارو في منطقة كيلانتان. فالملايا لن تنجو من الاحتلال في النهاية.

وفي غضون أيام فرغت بيوت الضيافة من قاطنيها تقريباً. وعُلّقت المحاضرات، وطُلب من الطلاب أن يتطوعوا في وحدة كلية رافلز لتقديم (الخدمات الطبية المساعدة). تطوعت في هذه الخدمة، وكنت أركب الدراجة يومياً من بيتي (في نورفولك منذ1935) إلى مركز الكلية حيث أقطع ثلاثة أميال. لم نزود بألبسة رسمية لهذا الغرض ـ إذ لم يكن ثمة وقت لذلك ـ ولكن زُود كل واحد منا بخوذة وبريطة على الذراع تحمل شارة الصليب الأحمر، وكانوا يمنحوننا أجرة رمزية مقدارها حوالي 60 دولاراً في الشهر، كنا نعمل في مقابلها على مدار الساعة. نُظمنا في وحدات تضم الواحدة منها ست أفراد. لم نكن نشعر بالخوف.

كان ثمة إحساس بالقهر، إحساس بأننا في حالة حرب وأننا منغمسون في معارك حقيقية. ولكن الحرب كانت نتيجتها وخيمة. إذ سرعان ما تواصلت الأخبار من مالايا حول سير المعارك، وعن السهولة التي كان اليابانيون بها يقطعون خطوط البريطانيين ويصلون بالدراجات إلى مقاطعات المطاط جنوب شبه الجزيرة، وينزلون إلى البر بالقرب من خطوط العدو بالقوارب وزوارق (السامبان) الصينية ذات الحبال، مُجبرين البريطانيين على مزيد من التراجع. وبدأت أعداد وفيرة من الأسر البيضاء ـ مزارعون ومواطنون مدنيون مع أسرهم وأطفالهم ـ تصل إلى (كوزواي) وكان هناك أسر آسيوية أيضاً ولكنها لم تبحر، كانوا يتوجهون إلى بيوت أصدقائهم وأقاربهم. أو يبحرون بهدوء من سنغافورة خشية انتقام اليابانيين منهم لمساعدتهم البريطانيين، أو للمساهمة في (صندوق جنوب الصين للإنقاذ) لدعم مقاومة شان كاي تشيك لليابانيين على أرض الصين.

وفي كانون الثاني (يناير) اقتربت القوات اليابانية من جوهور، وشرعت طائراتهم بقصف سنغافورة بشدة، ليلاً ونهاراً. أُصبت لأول مرة في أحد الأيام بعد الظهر في قرية (بوكيت تيماه). وكان هناك عدة وحدات تابعة للخدمات الطبية قد سافرت إلى سنغافورة مستخدمة باصات (شركة تراكشن) والتي حولتها لسيارات إسعاف. سقطت قنبلة قرب مخفر للشرطة وسقط عدد من الضحايا. كان مشهداً مرعباً. إذ كانت أول تجربة في مشاهدة النازفين والجرحى والموتى.

في حوالي الساعة الثامنة صباحاً، كنت وصديق لي من باهانغ جالسين عند حاجز يحيط بالقسم الإداري لكلية رافلز، في مهمة حراسة للوحدة الطبية (MAS) عندما وقع فجأة انفجار زلزل الأرض من تحت أقدامنا. أصيب كلانا بالذهول، وقلت بعفوية (هذه نهاية الامبراطورية البريطانية): سمعني الأستاذ داير، مدير «كلية رافلز». الذي كان ماراً في طريقه إلى مكتبه، ونظر إلي ثم تابع سيره.

في صباح اليوم نفسه انسحبت جميع القوات البريطانية من جوهور إلى الجزيرة. وفي اليوم التالي، حملت الصحف صور الدمار في أغريل وسوتيرلاند هايلانديرز. وهما آخر موقعين للوصول إلى (كوزواي).

وقد خلفت عندي هذه المشاهد إحساساً ببرودة الإنكليز تجاه هزيمة وشيكة لازمني طوال حياتي. وما لبث المهندسون الملكيون أن شقوا ثغرة في كوزواي في جانب جوهور، وقصفوا مورايس كما فجروا أنبوب المياه الذي ينقل الماء من جوهور إلى الجزيرة. لقد بدأ حصار سنغافورة.

وفيما كنت أركب الدراجة في طريقي إلى البيت صباحاً، وأنا أضع شارة الإسعاف على ذراعي، مررت بطابور من الشاحنات العسكرية كان متوقفاً في شارع (ستيفينس) وكان يقف إلى جانبها بعض الجنود الطوال الأوستراليين مرتدين قبعات واسعة وعيونهم تقدح بنظرات توحي بوهن العزيمة. كانوا يبدون خائفين ومحبطين. توقفت لأسألهم عن مدى قرب الجبهة. فقال أحد الجنود: «لقد انتهى الأمر هنا، خذ هذا»، وقدم لي أسلحته. كنت مذهولاً وأنا أرتعش. هل يمكن أن يكون هذا تعبيراً عن يأس؟

رفضت أخذ الأسلحة وحاولت أن أغريه بالقول: إن المعركة لا تُخسر إلا عندما تنتهي. لكن المعركة بالنسبة للأوستراليين كانت قد انتهت. كانت معاناتهم مريرة. فبعد الحرب قرأت أن عدة كتائب من القوات الأستراليا كانت تبحر إلى الشرق الأوسط حيث كانت قد حُوّلت إلى سنغافورة. ووصلوا قبل ثلاثة أسابيع فقط من سقوط الجزيرة، ونُقلوا إلى وسط البلاد، وسرعان ما رُدّوا على أعقابهم. كان من المتوقع أن يقاتلوا في صحارى شمال إفريقية، ربما في ليبيا ضد قوات رومل. وفجأة وجدوا أنفسهم في دغل مداري يواجهون اليابانيين. كانت مأساة بالنسبة لهم وكارثة بالنسبة للروح المعنوية للقوات البريطانية والهندية التي كان يُفترض أن تساعدهم.

في تلك الأثناء أخبر والدي، الذي كان يعمل مراقباً في موقع لشركة (شل) في (باتوهات)، على بعد 100 ميل إلى الشمال من الشاطئ الغربي لمالايا، بإخلاء ذلك الموقع. وعاد إلى الجزيرة بسيارته (الأوستن) الصغيرة قبل أن تدمر (كوزيواي). كنا ما نزال نأمل أن تصمد قلعة سنغافورة. كنت أعرف أن خسائر جمّة ستقع، ولكن البريطانيين سيتشبثون بها، وبالتالي سننجو. ولكن كل يوم كان يمر، بل في كل ساعة بعد الأسبوع الأول من شهر شباط، كنت أشعر في داخلي بأن سنغافورة ليست مالطة وأنها لا تستطيع أن تصمد أمام حصار طويل.

في أواسط شهر كانون الثاني (يناير) أغلقت المدارس. ومع اقتراب القذائف من المدينة اقترحت أمي أن تنتقل العائلة كلها إلى بيت والدها الذي كان بعيداً وأقل عُرضة للقصف، أيدت الانتقال ولكنني قلت لها: إنني سأبقى لكي أعتني بالبيت في شارع نورفولك مع الاستمرار في واجباتي في كلية رافلز (محطة MAS). ولن أكون وحيداً نظراً لوجود البستاني الذي يعمل عندنا، كوه تيونغ كو، فهو سيبقى في شارع نورفولك، ليحرس البيت فيما أقوم أنا بواجياتي في الكلية. كما كان أيضاً يجر العربة التي تنقل إخوتي من البيت إلى المدرسة وبالعكس كل يوم منذ 1937. وكنا قد بنينا ملجأ من الطائرات، وهو بناء خشبي تحت الأرض مغطى بالتراب، كانت أمي تخزّن فيه الأرز وبعض المؤن الأخرى مما قد نحتاجه لوقت طويل. لم تكن النقود مشكلة بالنسبة لنا لأن شركة شل كانت قد دفعت بسخاء لوالدي رواتب سبع أشهر، عندما طُلب منه أن يغادر محطة النفط في (باتو باهات).

ووسط هذه الآفاق المظلمة كنت أذهب إلى السينما خارج أوقات العمل. وقد ساعدني ذلك على الهروب من المستقبل القاتم مدة ساعتين. وبعد ظهيرة أحد الأيام في كانون الثاني (يناير) حضرت فيلماً كوميدياً في سينما كاثي، ففي أحد المشاهد كان يفترض أن تنفجر قنبلة وتحدث صوتاً. ولكنها كانت معطلة. وظهرت على الشاشة عبارة (صنع في اليابان). كان أمراً مستغرباً. فطوال الشهرين

الماضيين عانت سنغافورة من شدة انفجار قنابلهم وقذائفهم، ومع هذا فقد سخرت من اليابانيين وأنا أشاهد ذلك الشريط ـ الذي يفترض فيهم أن يكونوا ذوي عيون شبه مغمضة، ومقوسي السيقان، غير قادرين على الإصابة مباشرة أو بناء السفن التي تستطيع مجابهة الرياح. إنهم قادرون فقط على صنع أسلحة لا تنفجر. ولكن الحقيقة المحزنة أنهم أثبتوا طوال الشهرين الماضيين منذ الثامن من كانون الأول شجاعتهم وارتفاع مهارتهم العسكرية إلى درجة أنهم حققوا نجاحاً مرموقاً في معظم المعارك ضد القوات الإنكليزية.

بعد ذلك بعدة سنوات كتب وينستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني في فترة الحرب عن سقوط سنغافورة: (كان أسوأ كارثة وأكبر إخفاق في تاريخ بريطانيا).

استولى العسكريون على الكلية بكاملها في العاشر من شباط (فبراير) بعد أن انسحب البريطانيون، وبعد يومين حُلّت الوحدة الطبية (MAS). في البداية مكثت في بيتنا في شارع نورفولك، ولكن مع اقتراب القصف التحقت بعائلتي في تيلوك كوراد. وفي اليوم التالي سمعنا بعض الطلقات النارية البعيدة التي أصبحت تقترب شيئاً فشيئاً. لم يكن هناك أصوات مدافع ضخمة أو قنابل. ومن الغريب أنني كنت أخرج من البوابة الخلفية إلى لورونغ ل، الدرب المتاخم للمخيم حيث كنت ألعب مع أصدقائي أولاد صيادي السمك. وقبل أن أمشي أكثر من عشرين ياردة فوق الممر رأيت شخصين يرتديان ملابس رسمية داكنة اللون تختلف عن ملابس القوات البريطانية الخضراء والبنية اللون. كانت ملابسهم مختلفة تماماً. وقد علمت فيما بعد أن النعال التي يرتدونها تساعدهم على عدم الانزلاق أو التعثر. كما كانت قبعاتهم مختلفة أيضاً فهي ذات ذيل يحمي أعناقهم. بدوا لي كأنهم لا ينتمون إلى هذه الأرض لضآلة أجسامهم وطول بنادقهم ذات الحربات الطويلة. كما تصدر منهم رائحة كريهة لا يمكن أن أنساها. رائحة أجساد لم تعرف الاستحمام طوال شهرين من القتال وسط الغابات والشوارع من كوتا بهارو إلى سنغافورة.

مـرت بضـعـة ثوان قبـل أن أتحقق مـن هم. إنهم يابانيـون! وتجـمـدت من الذعـر. ولكنهم كانوا يبحثون عن الجنود المعادين. ومن الواضح أنني لست منهم، لذا فقد تجـاهلونـي وتابعـوا سـيـرهم. اندفـعت عـائداً إلـى البـيت وأخـبـرت أسـرتي عـمـا شـاهدت. أغلقنـا الأبواب والنوافذ، ولا يعلم إلا الله ما إذا كان يحمينا ذلك. كانت المخاوف شديدة من الاغتصاب والنهب والسلب بسبب ما شـاع عن اليـابانيين بعد فظائعهم في الصين منذ عام 1937. ولكن لم يحدث شيئاً من ذلك بقيـة النهار أو في الليل. كانت القـوات البـريطانيـة تتـراجع بسـرعـة إلى مـركـز المدينة دون أي مقاومة تذكر.

كـان اليـوم التـالي، الخـامس عـشـر من شـبـاط (فـبـراير) من السنة القـمـرية الجديدة، وهو أكبر احتفـال سنوي عند الصينيين، الذي يحتفلون به عادة بملابس جديدة، وأحذية جديدة، وبوفرة من الصحون التقليدية وأنواع المعجنات اللذيذة.

كـانت أكثـر أعـيـاد رأس السنة إثارة للاشـمـئـزاز منذ جـاء الصـينيـون إلى سنغـافورة عـام 1819. فـقـد كنا نـسمع أصوات مـعركـة في الشـمـال قـرب المدينة، وأصوات بعض قذائف المدفعية ومدافع الهـاون البعيـدة نسبيـاً، ولكن لا شـيء في منطقة تيلوك كوراد نفسها. فاليابانيون كانوا قد مشطوا المدينة.

في تلك الليلة سكتت أصـوات المدافع. وسـرعـان مـا سـرت أخـبـار تفـيـد بأن البـريطانيين اسـتـسلمـوا. وفي اليـوم التـالي ذكـر بعض الأصـدقـاء العـائدين من المدينة أن أعـمـال النهب والسلب قـد نشطت. فـقـد نُهـبت بيـوت البـريطانـيين وأوروبيين آخـرين من قبل سـائقيهم وحـراس جنائنهم من الملاويين. وقد أثار هذا قلقـاً شـديداً لدى أسـرتـي. ماذا عن شـارع نورفولك 28 مع كل أطعـمـتنا وأغـراضنا التي لم نتفقـدهـا منذ زمـن طويل؟ فـاصطحـبت البـسـتـاني تيـونغ كـو، بعـد إذن من أمي، معي ومـشـينا ثمـانيـة أميال تقـريبـاً من تيلوك كـوراو إلى شـارع نورفـولك. وقد أخـذ منا الطـريق ما يقـارب سـاعـتين. رأيت مـالاويـين يحـملون قطع أثـاث وأشـيـاء أخرى من البيـوت الكبيرة على طول الطـريق. أما السـارقـون الصينيون فقـد ذهبوا

لسرقة البضائع في المخازن والمحلات، الأخف وزناً والأغلى ثمناً. وفي منزل ريفي مخرب يقع على مسافة بيتين من بيتنا كانت تقطن هناك 20 عائلة من البويانيز، معظمهم من السائقين. ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى بيتنا. كانت مجالات السرقة أكبر في البيوت الكبيرة، والتي خلت الآن من الأوروبيين الذين جُمعوا معاً بغية اعتقالهم. لقد عدت في الوقت المناسب.

في الساعتين اللتين أمضيتهما في السير من تيلوك كوراو وحتى شارع نورفولك، وجدت سنغافورة في حالة يرثى لها. فالجيش البريطاني قد استسلم. والشرطة المحلية ـ المؤلفة من صينيين وهنود من الضباط الصغار ومن الجنود المالاويين ـ قد اختفت خوفاً من أن يعاملها اليابانيون بوصفها جزءًا من القوة العسكرية البريطانية. لم يكن الجنود اليابانيون قد ظهروا في الشوارع بعد. كان كل فرد يمثل القانون بحد ذاته.

وخلافاً للعادة ظل بعض الناس غير جزعين. ولكن مع غياب المسؤولية، استغل الجريؤون منهم الفرصة لنهب الممتلكات والمخازن والمحلات التابعة لشركات بريطانية لاعتقادهم بأنهم يقومون بنهب مشروع. واستمر هذا الحال بضعة أيام قبل أن يعيد اليابانيون النظام. لقد زرعوا الخوف في قلوب الناس من خلال إطلاق الرصاص على بعضهم أو شنقهم أو عرض رؤوسهم في الجسور الرئيسية أو على مفارق الطرق.

كذلك شارك الغزاة اليابانيون في نهب المغانم. ففي الأيام الأولى كانوا ينزعون من كل واحد يرونه في الطريق قلمه أو ساعة معصمه. وكان الجنود يقتحمون البيوت للتفتيش بصورة رسمية أو يدّعون ذلك، من أجل الحصول على أشياء صغيرة يستطيعون إخفاءها في جيوبهم. في البداية كانوا يصادرون أفضل الدراجات. ولكنهم توقفوا عن ذلك بعد بضعة أسابيع. ولم يمكثوا في سنغافورة إلا لوقت قصير قبل أن يغادروها إلى جافا أو أية جزيرة أخرى في الأرخبيل للقتال ولاحتلال المزيد من الأراضي. ولم يكن بوسعهم أن يأخذوا دراجاتهم الأنيقة معهم.

كان نهب البيوت والمخازن الكبيرة التي تعود لسادتنا البريطانيين رمزاً لنهاية حقبة من الزمن. من الصعب على أولئك الذين ولدوا بعد 1945 أن يتقبلوا المضامين الكاملة للهزيمة البريطانية، كما لا يتذكرون النظام الاستعماري الذي فرضه اليابانيون في الخامس عشر من شباط (فبراير) 1942. فمنذ عام 1819، عندما أنشأ رافلز سنغافورة كمركزٍ تجاري (لشركة الهند الشرقية) كان تفوق الرجل الأبيض مسألة غير قابلة للمناقشة. لم أعرف كيف ترسّخ هذا، ولكنني مع الوقت عندما ذهبت إلى المدرسة عام 1930 كنت أعي أن الإنكليزي هو الرئيس الكبير (المعلم) وأولئك الذين يتمتعون ببشرة بيضاء مثله هم أيضاً «معلمون» وإن لم يكونوا (معلمين) كباراً لم يكن ثمة الكثير منهم، كانوا قرابة ثمانية آلاف.

كانوا يعيشون حياة باذخة ويقطنون في بيوت منفصلة عن بيوت الآسيويين، كما كانوا يسموننا آنذاك. وموظفو الحكومة لديهم بيوت أكبر في مناطق أفضل، ولديهم سيارات وسائقون وكثير من الخدم، ويأكلون أفخر الطعام مع كثير من اللحوم ومنتجات الألبان ويذهبون إلى بلادهم كل ثلاث سنوات حيث يمضون في إنكلترة ما بين ثلاثة وستة أشهر للتعافي من مناخ سنغافورة المنهك للجسم. وكذلك كان يذهب أولادهم إلى وطنهم كي يتعلموا هناك، وليس في مدارس سنغافورة. هؤلاء بدورهم كانوا يعيشون حياة باذخة.

كان طاقم المدرسين في (كلية رافلز) كلهم من البيض. وأفضل اثنين من خريجي المدرسة ممن يحصلون على الدرجات العليا في الفيزياء والكيمياء كانا يُعينان بصفة (مساعد مدرس) بمرتب أدنى كثيراً من المدرسين البريطانيين، وكانوا يُبعثون إلى لندن للحصول على درجة البكالوريوس (BS) من أجل الحصول على ذلك المنصب. وأحد أفضل الخريجين في وقته بالدرجة الأولى من شهادة التخرج في الاقتصاد، هو جوه كينغ سوي (الذي أصبح فيما بعد نائباً لرئيس الوزراء) كان مُدرساً وليس مُحاضراً.

لم يكن ثمة استياء أو امتعاض. فالوضع المتفوق للبريطانيين في الحكومة والمجتمع كان مجرد أمر واقع. وفي المحصلة فإنهم كانوا أعظم شعب في العالم. كان لديهم أكبر امبراطورية عرفها التاريخ امتدت عبر جميع المناطق عبر المحيطات الأربع والقارات الخمس. تعلمنا ذلك في دروس التاريخ في المدرسة. وقد كان لديهم من أجل فرض حكمهم في سنغافورة بضع مئات من الجنود، يتغيرون باستمرار. كان معظمهم يتواجد في مركز المدينة في (فورت كايننغ). ولم يكن عدد الموظفين يزيد على ما يتراوح ما بين ألف وألفي موظف لحماية الحكم الاستعماري علاوة على ما يتراوح بين ستة وسبعة ملايين آسيوي في (مستعمرات المضائق) في الدول المالوية. وكان البريطانيون ينشرون أن مالايا تحتاج إليهم لحماية المالاويين، الذين يمكن أن يُحجم دورهم على يد المهاجرين الأكثر جلداً ونشاطاً. وقد جُلب كثير من الصينيين والهنود من أجل الأعمال ذات المستوى المتدني و قبلوا بذلك لأن المالاويين لم يكونوا يرضون بالأعمال التي يستلزمها الاقتصاد التجاري أو الزراعي، كصناعة المطاط وبناء الجسور والطرق، بل يعملون ككتبة ومحاسبين وحراس متاجر. لم يكن يسمح إلا لعدد قليل من الآسويين البارزين بالاختلاط الاجتماعي مع أصحاب المصالح البيض، وكان بعضهم يُعَيّنون بصفة غير رسمية كأعضاء في مجلس الحاكم التنفيذي أو (المجلس التشريعي). وكانت صورهم تظهر في الصحف مع زوجاتهم، كما يحضرون الحفلات وأحياناً كانت النساء يلبسن القفازات البيضاء، ويتقيد الجميع بسلوك المجتمع الراقي. قلة منهم كانت تمنح لقب فارس (وهي مرتبة رفيعة يمنحها الملك) فيما يأمل آخرون أن يكرّموا بعد خدمة طويلة ومخلصة للامبراطورية. كانوا يكرمون بارتداء اللباس الأبيض الرسمي: ولكنهم يقبلون بالمراكز الأدنى برضى لأنهم يعتبرون أنفسهم أعلى من رفاقهم الآسيويين. وعلى النقيض من ذلك فإن أي بريطاني، أو أوروبي أو أمريكي يسيء التصرف أو يظهر بمظهر المتسكع كان يُبعد على الفور لأن ذلك سينتقص من مكانة كل العرق الأبيض الذي ينبغي ألا يكون تفوقه موضع شك أبداً.

نشأت على يدي أبوي وأجدادي على القبول بهذا النظام على أنه النظام الطبيعي للأمور. ولا أذكر أن أي مواطن قد تساءل عن هذا بالقول أو بالفعل. ولم يكن لدى ذوي الثقافة البريطانية أية نزعة للدفاع عن الآسويين باسم المساواة. ولم أكن أعرف آنذاك أنه كان يوجد كثير من الصينيين الذين درسوا في مدارس اللغة الصينية، والذين لم يتم دمجهم بالنظام الاستعماري. لقد جاء أساتذتهم من الصين وهم لا يعترفون بتفوق البيض، لأنهم لم يُربوا أو يرسّخ في أذهانهم القبول بفضائل الإمبراطورية البريطانية ورسالتها. ولقد تعلمت الكثير من مثل هذه الأمور بعد الحرب.

هذه كانت المالايا وسنغافورة اللتان هاجمهما ستون ألف جندي ياباني واحتلوهما رغم وجود أكثر من 130 ألفاً من القوات البريطانية والهندية والأسترالية. في سبعين يوماً من المفاجآت والحماقات والاضطرابات تبعثر المجتمع البريطاني الاستعماري وتبعثرت معه جميع الادعاءات بتفوق الرجل الإنكليزي.

كان من المفترض أن يصاب الآسيويون بالذعر والرعب عندما بدأ إطلاق النار، ولكنهم كانوا متحررين من الانفعال وقد تحملوا الخسائر الجسيمة وماتوا دون أن يصابوا بالهستريا. لقد كان زعماء المدنيين البيض هم من اختبأوا تحت الموائد عندما سقطت القنابل والقذائف. لقد كان الموظفون البيض وموظفو الحكومة في بيانغ هم، من اختفوا تحت جنح الظلام في السادس عشر من كانون الأول (ديسمبر) 1941، من الجزيرة من أجل «إنقاذ» سنغافورة، تاركين الآسويين وراءهم ليلاقوا مصيرهم. وهُجرت المشافي والمرافق العامة وإدارات الخدمات الأخرى بلا موظفين. ولم يكن هناك رجال إطفاء لإخماد النيران، ولا موظفون للإشراف على توزيع المياه. فرّ جميع البيض من أصحاب المسؤوليات. وقد أدى جبنهم هذا إلى أن ينظر إليهم الآسيويون على أنهم أنانيون وجبناء. ربما كان هناك بعض المبالغة فيما رُوي عنهم، ولكن بالمقابل كان هناك ما يكفي من أدلة على إثبات ذلك. البيض يفزعون عند الخسارة كما يفعل الآسيويون على أنهم يستحقون القيادة ولكنهم خذلوهم.

بنى البريطانيون أسطورة تفوقهم الموروث بطريقة شديدة الإقناع، بحيث أن معظم الآسيويين آمنوا بأنه لا أمل في تحديهم. أما الآن فقد تجرأ عرق آسيوي على هزيمتهم وتحطيم تلك الأسطورة. ولكن ما إن حكمنا اليابانيون الفاتحون حتى أظهروا لرفاقهم الآسويين أنهم كانوا أشد قسوة ووحشية وظلماً وفظاعة من البريطانيين. فخلال السنوات الثلاث والنصف من الاحتلال عندما كنت أصادف بعض اليابانيين يعذبون أو يضربون أو يسيئون معاملة أحد أفراد شعبنا كنت أتمنى لو أن البريطانيين ما يزالون يحكموننا. كنت كرفاقي الآسيويين مُضلّلاً، ولكن اليابانيين أنفسهم كانوا يخجلون من وصفهم بالآسويين لأنهم كانوا يعتبروننا أدنى منهم عرقياً وأدّى حضارة. إنهم ينحدرون من إلهة الشمس، أماتير اسوا أو ميكامي ساما، الشعب المختار، المتميز والمختلف عن الصينيين والهنود والمالاويين.

كانت مجابهتي الأولى مع جندي ياباني عندما حاولت أن أزور خالتي، شقيقة أمي الصغرى، في شارع كامبونغ جافا، في مواجهة الجسر الأحمر فوق قناة بوكيت تيماه. وفيما كنت أقترب من الجسر رأيت خفيراً يسير صعوداً وهبوطاً فوقه. وبالقرب منه مجموعة من أربع أو خمس جنود يابانيين جالسين، ربما كانوا الأفراد الآخرين في مفرزته. كنت ألبس قبعة مخططة من النوع الذي يلبسه الجنود الأوستراليون، الذين تفرق عدد كبير منهم في الأيام التي سبقت الاستسلام. التقطت تلك القبعة معتقداً أنها ستكون مفيدة في الأيام الصعبة القادمة لتحميني من الشمس.

مررت بالقرب من تلك المجموعة من الجنود، وحاولت أن أبدو غير مهتم قدر الإمكان ولكنني لفت انتباههم. وصاح أحد الجنود بي «كور،كورا» وأومأ إلي. وعندما وصلت إليه دفع حربة بندقيته نحو حافة قبعتي، وأزاحها بعيداً وصفعني بقوة، وجعلني أركع. ثم دفعني بكعب حذائه على صدري وجعلني أتدحرج على الطريق. وعندما نهضت أشار علي أن أعود إلى الطريق الذي جئت منه.

انسحبت بهدوء. كثير من الذين لا يعرفون قواعد اللياقة «الإتكيت» الجديدة ولا ينحنون أمام الجنود اليابانيين عند مفترق الطرق أو الجسور كان عليهم أن يجثوا على ركبهم لساعات تحت الشمس، وأن يحملوا جلاميد صخر ثقيلة فوق رؤوسهم حتى تتلاشى قواهم.

وبعد ظهر أحد الأيام فيما كنت جالساً في الشرفة في 28 شارع نورفولك رحت أراقب جندياً يابانياً يدفع لسائق عربة. احتج السائق وطلب زيادة المبلغ. أخذ الجندي ذراع الرجل، ووضعها فوق كتفه الأيمن وقذف به بقوة في الهواء بضربة جودو. وقع سائق العربة على وجهه. وبعد فترة تحامل على نفسه وراح يترنح بين عمودي عربته. صُدمت من فظاعة هذا المشهد.

وفي اليوم التالي كان علي أن أتعلم درساً آخر عند «الجسر الأحمر» كانت تتهادى سيارة جديدة على جناحها علم صغير أزرق مستطيل الشكل، إذكانت الأعلام الصفراء للجنرالات والحمراء للمقدمين والعقداء والزرقاء للملازمين والنقباء. تباطأ الخفير بعض الشيء في التقدم لأداء التحية. عبرت السيارة، ولكن السائق أوقفها وعاد بها إلى الوراء. وخرج منها أحد الضباط واقترب من الخفير وصفعه ثلاث صفعات قوية. ثم أخذ ذراعه الأيمن ووضعه وراء كتفه وضربه ضربة جودو كتلك التي تلقاها سائق العربة بالأمس، وأطاح بالرجل في الهواء. وقع الخفير على وجهه، كما فعل سائق العربة البارحة. هذه المرة أُصبت بقدر أقل من الذهول وبدأت أفهم أن الوحشية جزء من النظام العسكري الياباني الذي يمارس الضرب المبرح ضد من هم أدنى مرتبة.

وفي وقت متأخر من اليوم نفسه جاء إلى بيتنا ضابط لا يحمل رتبة عسكرية ومعه عدد من الجنود. فتشوا البيت ولم يجدوا إلا تيونغ كو وأنا. وقرروا أنه سيكون مأوى مناسباً للفصيلة. وكانت بداية الكابوس. كنت أعالج عند أطباء أسنان يابانيين وممرضاتهم في شارع براس باساه، وكانوا في منتهى النظافة والأناقة. كذلك كان البائعون والبائعات اليابانيات في مخازن العشرة سنتات في

«شارع ميدل». لم أكن معتاداً على رؤية أمثال هؤلاء الجنود الذين تفوح من أجسادهم رائحة القذارة. جالوا في جميع أرجاء المنزل والأرض التابعة له. راحوا يبحثون عن طعام فوجدوا ما كانت خزّنته أمي من مؤن. واستهلكوا كل ما وجدوه أمامهم. كانوا يطهون الأطعمة على مواقد في بهو المنزل. لم أجد لغة أتفاهم بها معهم. كانوا يؤشرون بأيديهم وبحركات من أنوفهم، وكنت إذا تلكأت قليلاً في تلبية طلباتهم ينهالون علي بالشتائم والصفعات. كانوا مخلوقات عجيبة، شُعّثاً وذقونهم طليقة، يتحدثون بلغة عدوانية قبيحة. أشعروني بخوف شديد. نمت نوماً متشنجاً ومتقطعاً. ولم يرحلوا عنا إلا بعد ثلاثة أيام من الجحيم.

فيما كانت هذه السريّة اليابانية تعسكر في بيتنا، كانت قوات بريطانية وهندية وأستراليا تُقاد إلى الأسر. بدأت المسيرة في السابع عشر من شباط (فبراير) 1942 وظلت مستمرة مارة بالقرب من المنزل وفوق (الجسر الأحمر) لمدة يومين وليلة في طريقها إلى تشانغي. جلست في الشرفة لساعات طويلة أراقبهم، وقلبي مثقل بالألم. كان مشهد جيش مستسلم مشهداً يبعث بالحزن والألم.

كان بعضهم جديراً بالاحترام والإعجاب. ومن بينهم سكان جبال اسكوتلنده الذين كنت أميزهم من قبعاتهم الاسكتلندية. فعلى الرغم من الهزيمة كانوا منضبطين إذ يمشون بحسب الإيعازات. ومثلهم كان الغوركاه في انضباطهم. كنت أحيّيهم سراً. لقد تركوا في نفسي انطباعاً لا ينسى. وفي النتيجة استخدمت حكومة سنغافورة فرقة من الغوركاه في شرطة مكافحة الشغب منذ فترة الستينيات حتى يومنا هذا.

أما الأستراليون فقد كانت معنوياتهم منهارة ولا يمشون بخطى منتظمة. كذلك بدت لي القوات الهندية فاقدة للروح المعنوية وواهنة العزيمة. لا بد أنهم كانوا يشعرون أن المعركة ليست معركتهم.

بعد رحيل الجنود اليابانيين عن بيتنا بقليل انتشر خبر في المنطقة ألا وهو أن على جميع الصينيين أن يذهبوا إلى مركز التسجيل في ميدان «جالان بيسار» للفحص. رأيت جاري وعائلته يغادرون ورأيت من الحكمة أن أغادر أنا أيضاً لأن

الشرطة العسكرية اليابانية إذا اكتشفت أنني في البيت فسوف تعتقلني. لذا اتجهت إلى جالان بيسار بصحبة تيونغ كو. ولكننا لم نتمكن من المغادرة بسبب الازدحام. فعشرات الآلاف من العائلات الصينية كانت قد احتشدت هناك في تلك المنطقة الصغيرة. وجميع نقاط الخروج كانت تحرسها الشرطة العسكرية اليابانية ـ الكيمبيتاي Kempeitai ـ وكان معهم كثير من المواطنين المحليين أو التايوانيين. وقد أخبرت فيما بعد أن جميعهم كانت رؤوسهم مغطاة، مع أنني لم ألاحظ ذلك.

وبعد أن أمضينا ليلة في مهجع تيونغ كو عزمت على أن أغادر المكان من خلال نقطة الخروج، ولكن بدلاً من أن يسمح لي الجندي بالمرور أشار إلي أن أنضم إلى مجموعة الصينيين الشباب. شعرت غريزياً أن هذا ينذر بالسوء، لذا طلبت الإذن بالعودة إلى المهجع لأجمع أغراضي. وأذن لي بذلك. عدت واضطجعت في مهجع كيونغ كو لفترة يوم ونصف. ثم حاولت الخروج ثانية. في هذه المرة سُمح لي لسبب لم أعرفه بالمرور عبر نقطة التفتيش. ووضع (ختمٌ) على أعلى ذراعي الأيسر، وعلى مقدمة قميصي.

وكانت عبارة (كانجي) أو (جيان) التي ختمت على قميصي بالحبر تعني أنني (فُتّشت) وهي دليل على أنني قد أفرج عني. وعدت إلى البيت مع تيونغ كو بشعور كبير من الارتياح. لا يمكن أن أفهم أبداً كيف تتخذ القرارات المتعلقة بالحياة والموت بهذه الطريقة العَرضية أو النزوية. كان أمامي فرصة ضيقة للنجاة من تجربة تدعى (سوك تشينغ) وتعني (محق) الثوّار، وهي عقوبة يفرضها العقيد ماسانوبو ياماشيتا، قائد القوات اليابانية، لمعاقبة الصينيين في سنغافورة لجمعهم الأموال لتأييد المجهود الحربي الصيني ضد اليابانيين، ولمقاطعتهم للبضائع اليابانية.

كان لديه حساب آخر لتصفيته ـ مع (دالفورس)، التي كانت جزءاً من فيلق تطوعي صيني مؤلف من ألف مقاتل من مقاتلي عبر البحار، نظمه زعماء الجماعة المحلية في سنغافورة لمقاومة اليابانيين. وقد وُضعوا جميعاً تحت قيادة

العقيد جون والي، عن الوحدة الماليزية الخاصة، والتي ضمت صينيين من مختلف المشارب، من مؤيدي حزب الكومنتانغ القومي (KMT) التابع لشيانغ كاي تشيك، ومن مؤيدي الحزب الشيوعي المالاوي (MCP)، بما في ذلك خمس مائة شيوعي حررهم البريطانيون من السجن في الساعة الحادية عشرة، ولما كان هؤلاء المتطوعون مسلحين فقد أرسلوا لاحتلال الأراضي الواقعة شرق نهر كرانج على جناح اللواء الأوسترالي السابع والعشرين. قاتلوا بوحشية، ومات منهم كثيرون وكذلك مات كثير من اليابانيين. لقد جعلوا من (دالفورس) أسطورة واسماً يرمز للشجاعة.

وفي الثامن عشر من شباط (فبراير)، نشر اليابانيون إعلانات، واستخدموا مكبرات الصوت في أرجاء المدينة كي يخبروا الصينيين أن جميع الرجال ما بين سن الثامنة عشر والخمسين يتوجب عليهم الحضور شخصياً في خمس مناطق للتجمع من أجل التفتيش. وراحت الشرطة العسكرية اليابانية (كيمبتاي) المرهوبة الجانب تفتش بيتاً بيتاً كي تُخرج الصينيين الذين لم يحضروا إلى مراكز التجمع، حيث النسوة والأطفال والشيوخ سِيقوا أيضاً كالقطعان. واكتشفت فيما بعد أن أولئك الذين اعتقلوا عشوائياً عند نقاط وصل التفتيش التي مررت بها قد نقلوا إلى باحات مدرسة (فكتوريا) واُحتفظ بهم حتى الثاني والعشرين من شباط (فبراير) إلى أن وصل ما بين أربعين وخمسين سيارة شحن لجمعهم. كانت أياديهم مربوطة خلف ظهورهم ونُقلوا إلى شاطئ «تاناه ميراه بيسار» الذي يبعد حوالي عشرة أميال عن الشاطئ الشرقي قرب (سجن تشانغي) أجبروا على الترجل، وهم موثَقون جميعاً مع بعضهم بعضاً، وأكرهوا على السير باتجاه البحر. وفيما هم يسيرون كانت الرشاشات اليابانية تحصدهم. وبعد ذلك، ومن أجل التأكد من مصرعهم كان يتعرض كل واحد منهم للرفس أو الإيذاء بطرق أخرى. ولم تجرِ أية محاولة لدفن الجثث التي تركت حتى تذوب وتتحلل. واستطاع قلة منهم أن يفروا بأعجوبة كي يحكوا عن ذلك التعذيب الشنيع.

أقر اليابنيون أنهم قتلوا ستة آلاف شاب صيني في ذلك المكان (سوك تشينغ) في الفترة ما بين الثامن عشر والثاني والعشرين من شباط (فبراير) 1942. وبعد الحرب اكتشفت لجنة من غرفة التجارة الصينية عدة مقابر جماعية في (سيغلاب) و(بنغول) و(تشانغي). وقدّر عدد القتلى ما بين خمسين ألفاً ومئة ألف.

يستطيع الجيش الامبراطوري نظرياً، أن يبرر هذا العمل بأنه عملية لحفظ النظام والقانون، وقمع المقاومة ضد اليابانيين ولكنه كان انتقاماً فاضحاً لم يمارس أثناء معركة، ولكنه مورس عندما كانت سنغافورة قد استسلمت. وحتى بعد تلك المذبحة في (سوك تشينغ) جرت عدة عمليات اعتقال في المناطق الريفية، ولاسيما في الجزء الشرقي من سنغافورة، وأعدم مئات آخرون من الصينيين. جميعهم من الشبان والرجال الأشداء الذين يمكن أن يسببوا الاضطراب والمتاعب

عندما عدت إلى شارع نورفولك، وجدت المنزل كما تركه اليابانيون على حالة من الفوضى والقذارة. ولكنه لم يهدم وبعض حوائجنا ظلت على حالها. وبعد عدة أيام عادت أسرتي من «تيلوك كوارو». ورحنا ننظف البيت جميعاً. وبدأنا نتعرف ببطء على بؤس الاحتلال الياباني الذي كان قدر أهالي سنغافورة للسنوات الثلاث ونصف القادمة.

خلال أسبوعين من الاستسلام سمعت أن اليابانيين قد وضعوا سياجاً خشبياً حول بيوت المدينة إلى شارع كيرنيهيل، الذي كان يقطنه رجال الأعمال البريطانيون والآسيويون وعائلاتهم الذين غادروا سنغافورة أو كانوا معتقلين. إنها منطقة الطبقة المتوسطة الراقية. تجولت ثمة بالدراجة ورأيت صفوفاً طويلة من الجنود اليابانيين يمشون على طول «كيرن هيل» خارج السور. وسمعت من المقيمين قريباً أنه توجد في الداخل نسوة يابانيات وكوريات التحقن بالجيش لخدمة الجنود قبل وبعد المعركة. كان مشهداً عجيباً، صف من مئة أو مئتي رجل

ينتظرون دورهم لم أرَ أية أمرأة ذلك اليوم. ولكن كانت هناك لوحة عليها كتابة بالصينية قال الجوار إنها تعني «بيت الراحة». مثل هذه البيوت كانت قد أنشأت في الصين. والآن انتقلت إلى سنغافورة. كان هناك أربعة بيوت أخرى على الأقل. وأذكر أنني مررت بالدراجة بالقرب من أحد تلك البيوت في شارع تانجونغ كاتونغ، حيث يحيط سور خشبي بحوالي عشرين إلى ثلاثين بيتاً منها.

ظننت آنذاك أن الجيش الياباني لديه موقف عملي وواقعي من مثل هذه المشكلات التي تختلف تماماً عن مشكلات الجيش البريطاني. تذكرت العاهرات على طول شارع واترلو وهن يغرين الجنود البريطانيين المرابطين عند «فورت كانتغ». لقد اعترفت القيادة اليابانية بالاحتياجات الجنسية للرجال ولبتها. ونتيجة لذلك لم تكن حوادث الاغتصاب كثيرة. في الأسبوعين الأولين من الغزو كان الناس في سنغافورة يخشون أن يقتحم الجيش الياباني المدينة برغبة وحشية. ورغم حصول حالات من الاغتصاب فقد كان معظمها في المناطق الريفية، ولم يحدث أي شيء كالذي حدث في تانكين عام 1937. وأعتقد أن بيوت الراحة تلك كانت هي التفسير. لم أكن أعلم آنذاك أن الحكومة اليابانية كانت تخطف النساء الكوريات والصينيات والفيلبينيات من أجل أن ترضي حاجات الجنود اليابانيين في جبهة القتال في الصين وجنوب شرق آسيا. كذلك استخدموا نسوة هولنديات لخدمة الضباط اليابانيين.

أولئك الذين ينتمون إلى جيلي ممن رأوا الجنود اليابانيين أثناء القتال لا يمكن أن ينسوا موقفهم اللإنساني من الموت في المعركة. لم يكونوا يخشون الموت. كانوا أعداء مرعبين، ولا يحتاجون إلا إلى القليل للاستمرار في القتال - فالأوعية المعلقة على جيوبهم لم تكن تحتوي إلا على القليل من الأرز وبعض حبات الصويا والسمك المملح. وطوال فترة الاحتلال كان من المشاهد المألوفة رؤية الجنود اليابانيين يجوبون الحقول بحرابهم. وإذا ما أعاد البريطانيون غزو البلاد وحاربوا على طريقتهم في الملايو وسنغافورة لحَلَ بالبلاد دمار فظيع.

بعد أن رأيتهم في الأحياء الضيقة بتُّ متيقناً أنهم أصحاب روح معنوية قتالية هي الأقوى في العالم. ولكنهم كانوا يظهرون الدناءة والوحشية تجاه أعدائهم كما كان يفعل المغول. ما كان بوسع جينكيز خان وقبائله أن يكونوا أشد وحشية. وليس عندي شك في أن القنبلتين الذريتين اللتين أسقطتا على هيروشيما ونازاكي كانتا ضروريتين. إذ لولاهما لقتل مئات الألوف من المدنيين من سكان المالايا وسنغافورة، والملايين من اليابانيين أنفسهم أُبيدُوا عن بكرة أبيهم.

ما الذي جعل منهم محاربين على هذه الشاكلة؟ اليابانيون يدعون ذلك (البوشيدو) رمز الساموراي أو «نيبون سيشين»، أي روح «نيبون». أعتقد أنه تشرب منظم لمبادئ عبارة الامبراطور، وإيماناً بالتفوق العرقي كشعب مختار يستطيع أن يقهر الجميع. كانوا على قناعة أن الموت في المعركة من أجل الإمبراطور يعني أنهم سيرتفعون إلى السماء ويصبحون آلهة، في حين يحتفظ برفاتهم (رمادهم) في «مزار ياسوكوني» المقدس في ضواحي طوكيو.

كان لا بد أن تستمر الحياة اليومية تحت ظل الاحتلال الياباني. وفي البداية شعر كل امرئ بالضياع، لم يكن لدى والدي عمل، وأنا لا كلّية لي، وإخوتي الثلاثة وأختي كانوا بلا مدرسة كان ثمة نشاط اجتماعي ضئيل. كنا نشعر بالخطر من حولنا. ومعرفة شخص ما في السلطة، سواء أكان يابانياً أو مترجماً تايوانياً له صلات باليابانيين، أمر بالغ الأهمية ويمكن أن يكون عامل إنقاذ للحياة. فملاحظة مع توقيعه وخاتمه فوقها تشهد بأنك مواطن صالح وتمنحك ميزة جيدة. وهذه وثيقة جيدة إذا ما أوقفت بسبب ما أو فُتشت من قبل الحراس. ولكن الأسلم أن تبقى في البيت وتتجنب الاتصال أو النزاع مع السلطة.

أحد رفاقي كان في المدينة، مشيت قرابة ميلين حتى أصل إلى مكتبات الكتب المستعملة في شارع (براس باساه) المختص بالأدوات المدرسية. وفي طريقي رأيت جمهرة قرب المدخل الرئيس لسينما الجمهور ورأيت رأس رجل صيني مُدلّى من على عمود صغير، وكان بقربه لوحة كتب عليها كلمات صينية. لم أكن أعرف اللغة الصينية، ولكن أحدهم شرح معنى العبارة وهي تتضمن ما لا ينبغي للمرء فعله كي لا يلقى المصير ذاته.

لقد شنق الرجل لأنه ضبط يسرق، وكل من يخرق القانون سيعامل بالطريقة نفسها. غادرت المكان بشعور الخوف من اليابانيين، ولكنني في الوقت نفسه فكرت في أنها ستكون صورة رائعة للنشر في مجلة (لايف) (Life). المجلة الأمريكية التي ستدفع بسخاء لمثل هذه الصور الحية للتناقض: أحدث بناء في سنغافورة وإلى جانبه مشهد لعقوبة القرون الوسطى ولكن المصور سيلاقي النهاية ذاتها التي تلقاها السارق المقطوع الرأس.

كنت أفكر في هذا المشهد المروع وأنا أسير في طريقي في شارع براس باساه لأنني قررت أن أتعلم الصينية كي أتثقف بما يكفي كي أفهم مثل هذه الجمل والعبارات. لم تكن للغتي الإنكليزية قيمة في ظل الحكام الجدد. وسيكون تعلم الصينية أفضل من تعلم اليابانية، لأنها على الأقل لغتي، وليست لغة غازٍ كريه. إذ اشتريت كتاب تشاينغ كيرتشيو (الماندرين الميسّرة) وهو كتيب من ثلاثين صفحة لتعليم الصينية، يعلم قرابة 700 تركيب صيني أساسي، وكيف تكتب وكيف تستخدم مع بعضها بعضاً. أنجزت ذلك في أسبوعين وانتقلت إلى الجزء الثاني المتقدم. وبعد ذلك اشتريت سلسلة من أربع كتب نشرتها مدرسة صينية في شارع برينسيب، وهي ذات مرتبة رفيعة. ورحت أقرأ فيها كل يوم، وأمضيت الأشهر القليلة التالية وأنا أتمرن على كتابة ما بين 1200 و1500 رمز محاولاً أن أطبع معانيها في ذاكرتي. ولكنني لم أستطع أبداً أن أتعلم كيف تلفظ. ففي اللغة الصينية الشمالية (ماندرين) لكل واحدة أربع نبرات. كتابي يشير إليها ولكن لم أعرف كيف ألفظها، ولم يكن ثمة من يعلمني. في وجه هذه الصعاب كانت مقاومتي لتعلم اليابانية تضعف مع مضي الأشهر. اكتشفت أنها لا تشبه الصينية وحدها فلها نظام أبجدي مقطعي مكتوب بنصين: كاتاكانا وهيراجانا. لو أن اليابانيين كانوا سيبقون في سنغافورة كسادة ومعلمين للسنوات القليلة القادمة، وكان عليّ البقاء هنا، لكنت تعلمت لغتهم.

ومع هذا فقد انتسبت في أيار (مايو) 1942 مع الدفعة الأولى من الطلاب إلى مدرسة اللغة اليابانية التي فتحتها السلطات المعنية في (شارع الملكة). كانت دورة من ثلاث أشهر. الطلاب من مختلف الأعمار والقدرات، بعضهم من المدارس

الثانوية، وبعضهم من الكليات مثلي، وبعضهم من العمال اليافعين في العشرينيات من العمر. نجحت في الامتحان وحصلت على شهادة. وجدت اليابانية أسهل من لغة (الماندرين) لأنها ليست منغّمة، ولكنها أصعب في التصريف والقواعد.

سقط جدي من أبي، لي هون ليونغ، فريسة لمرض شديد في شهر تموز، وبعد ثلاثة أسابيع من تخرجي توفي. وكنت قبل وفاته قد زرته عدة مرات في شارع براس باساه، حيث كان يعيش مع ابنته بالتبني. حزنت لحاله حزناً عميقاً. لم يكن مريضاً فحسب، ولكن كُتب عليه أن يشهد عالمه يتحطم: فالبريطانيون وكل ما دافعوا عنه بات نهباً للهزيمة والإذلال. البحرية البريطانية وقباطنة سفنها، ونظامها، وتفوقها في البحار. كلها تلاشت على يد اليابانيين ذوي الشكل الغريب. إنه لا يستطيع أن يفهم كيف يستطيع شعب قذر أن يهزم الضباط الإنكليز المرفوعي الرأس. كيف استطاعوا أن يغرقوا السفينتين (برنس أوف ويلز) و(ريبالز)، وأن يشتتوا الأسطول البريطاني ويسقطوا سلاح الجو الملكي، ويأسروا /130/ ألف جندي، بجنودهم الستين ألفاً فقط بعد حصار لسنغافورة لم يستغرق سوى أسبوعين فحسب؟! كنت أراقبه وهو غارق في غيبوبته، وشعرت أنه كان من الأفضل أن يموت قبل أن يشهد ذلك كله.

صِلاته الجيدة في سنغافورة تحت الاحتلال البريطاني قد ولت، ولكن كان له صديق ياباني واحد يدعى السيد شيمودا الذي التقاه والدي بعد أيام من وفاة كونغ. صعوبات الاحتلال أرهقت والدي. فأصبح أكثر مسؤولية في أيام صعبة. وقد حصل على عمل في دائرة عسكرية مسؤولة عن تموين الوقود، كما حصل لي على عمل.

بناء على طلبه، ودون علم جدي، قدم لي شيمودا عملاً في العالم الجديد الذي بات اليابانيون سادته. عملت في شركته كاتباً لمدة عام، أنسخ الوثائق لأغراض العمل الداخلية وأقوم بالمراسلات مع الشركات اليابانية. وعندما أفلست الشركة (شيمودا وشركاه)، انتقلت إلى الجانب الآخر من منطقة رافلز،

حيث حصلت على عمل آخر وهو الطباعة على الآلة الكاتبة في شركة (كومياي) التي تبيع المواد الغذائية الأساسية كالأرز والزيت، والسكر والملح والتبغ ولفائف التبغ. كان يدفع لي راتبي بعملة تطبعها الإدارة العسكرية اليابانية مرسوم عليها أشجار جوز الهند والموز. (أوراق الموز) هذه، كما كنا نسميها، لم تكن ذات أرقام متسلسلة، وكانت قيمتها تتدنى شهراً بعد آخر. كان راتبي يُدفع لي عينياً. أي ما يقارب 10 كانتيس (15جنيهاً) من الرز والسكر والزيت، والأهم من ذلك، لفائف التبغ. هذه السلع كانت أفضل من النقود اليابانية، إذ أنها مع مرور الوقت كانت تصبح أكثر ندرة وتزداد قيمتها أكثر فأكثر من (أوراق الموز).

عملت في (كومياي) فترة ثمانية أشهر، حتى أواخر عام 1943، عندها قرأت إعلاناً في جريدة (سيونان شيمبون) نشرته دائرة الاستعلامات والدعاية اليابانية التي تدعى (هوردبو) والتي كانت موجودة في مبنى (كاثاي) إذ كانوا يطلبون محررين باللغة الإنكليزية. فأجريت مقابلة مع ياباني أمريكي المولد، يدعى جورج تاكيمورا، وهو رجل طويل نحيل أبيض البشرة يتكلم الإنكليزية بلكنة أمريكية، وكان رفاقه يسمونه جي ـ أده ـ جي. لم يكن يرتدي البزة العسكرية اليابانية، ولكنه مدني في دائرة عسكرية، وعلى بزته خمس نجوم زرقاء، أي ما يعني أنه برتبة رقيب. كان لطيف الحديث لبقاً. كان راضياً عن لغتي الإنكليزية، وكنت سعيداً بأن أجد عملاً في مكان مناسب.

كان عملي أن أتابع برقيات وكالات أنباء الحلفاء: رويتر، UP، AP، وكالة الصين المركزية للأخبار، ووكالة تاس. وكانت هذه البرقيات ترسل بلغة مورس حيث يستقبلها العاملون في إذاعة الملايو. لم تكن إشارة الراديو واضحة في الأوقات المتأخرة من بعد الظهر وبداية الأمسيات، ولما كان الاستقبال سيئاً كان يطمس أو يضيع الكثير من الكلمات المتقاطعة. هذه البرقيات يجب أن تلتقط من جميع جبهات المعركة وتفحص وتدقق وترسل من الطابق العلوي في (بناء كاثاي) إلى الطابق الأرضي حيث يعاد إعدادها من أجل الإذاعة. عملت هناك فترة 15 شهراً حتى نهاية 1944.

كانت حياة غريبة. كان عملي يبدأ في الساعة السابعة بعد الظهر بتوقيت طوكيو الذي يعادل الخامسة والنصف بعد الظهر في سنغافورة، حيث ما يزال الوقت نهاراً. كان استقبال الراديو ضعيفاً حتى قرابة منتصف الليل بتوقيت طوكيو. لذا فإن فترة المناوبة ما بين السابعة مساء والثانية عشرة صباحاً كانت الفترة الأصعب، ولكن المرء يستطيع أن يذهب إلى النوم مباشرة. أما الفترة من الثانية عشرة صباحاً حتى التاسعة صباحاً فكانت مقسمة إلى مناوبتين بينهما فسحة لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. الاستقبال أفضل، والأخطاء أقل، ولكن هذا كان يعني النوم في أوقات غير مناسبة.

كان لدينا رئيسا تحرير في كل وجبة عمل. وكان جورج تيكمورا الذي يرتدي عادة لباسه الرسمي بدون جاكيت بسبب الطقس الحار والرطب يأتي عدة مرات في المساء كي يعطي رئيس التحرير الآخر ويعطيني علبة من لفائف التبغ اليابانية من حصته. كان عليّ أن أبقى متيقظاً أخطف بعض النوم من الرابعة حتى السادسة صباحاً بالترتيب مع زميلي المحرر، ثم أعمل حتى التاسعة صباحاً عندما تتدهور الأمور مرة أخرى. أصبح استقبال الإذاعة أمراً ميئوساً منه في الشمس. كنت أمشي ميلاً ونصف من مبنى «كاتي» إلى «شارع نورفلك» من أجل وجبة ما بعد الصباح ثم أعود إلى السرير في وضح النهار من أجل ساعتين أخريين للنوم.

الشيء الغريب في نظام عملنا هو الانطباعات النفسية للعمل. كنت أصغي للأخبار طوال أربع ساعات عن سير وقائع الحرب التي كانت تجري لغير صالح اليابانيين، كما هو الحال أيضاً بالنسبة للألمان والإيطاليين. ولكننا كنا نتحدث عن هذا إلى من هم خارج العمل بشعور مفعم بالخطر ففي الطابق الأرضي من (مبنى كاثاي) كان هناك فرع لـ (كيمبيتاي) (مخابرات). وكل فرد يعمل في هذه الدار (هوروبو) له مصنف ومهمة (الكيمبيتاي) هي التأكد من عدم تسريب أي شيء من جانب الموظفين.

منذ نهاية 1943، أصبح الطعام يزداد ندرة. وكانت البحرية اليابانية قد تكبدت هزائم وخسائر باهظة في معارك (ميد واي) وبحر كورال. إذ فقدوا السيطرة على المحيطات وأغرقت سفنهم من قبل غواصات الحلفاء. وحتى تايلاند، المصدر التقليدي للأرز، لم يعد بوسعها تصدير الأرز إلى سنغافورة، إما لأن اليابانيين لم يريدوا أن يدفعوا للتايلانديين ثمنها أو لأنها لم تستطع نقل الأرز إلى الجزيرة. كان علينا أن نجد بدائل عن الأطعمة التقليدية. وكانت أمي تحضر لنا ككثير من النساء الأخريات ما يتيسر من خضار وذرة وبطاطا. كنا نشعر بالجوع نظراً لفقدان اللحم الذي بات عزيز المنال. كان هناك القليل من لحم البقر والخنزير. وكان بوسعنا أن نربي الدجاج ولكن من أين نحصل على العلف اللازم لها؟.

كان دهاء أمي موضع امتحان عسير أثناء فترة الاحتلال. فعندما أصبحت رواتب والدي، وأخي دينيس وراتبي ضئيلة بسبب التضخم، باتت تجرب جميع الأعمال. كابنة تنتمي إلى أسرة ستريتس صينية، كانت قد تعلمت كيف تطهو وتخبز. وها هي الآن تصنع الكعك لبيعه. وسرعان ما أصبح الدقيق والزبدة من الأشياء التي لا يمكن الحصول عليها، لذا فقد عمدت إلى استخدام أنواع أخرى من الدقيق وحليب جوز الهند وسكر النخيل. كما كانت تصنع لنا حلوى من الحليب المكثف والطازج. كانت طاهية ماهرة. وفيما بعد، عندما أصبحت رئيساً للوزراء كانت تملأ وقتها بتعليم نساء ستريتس شؤون الطبخ، بمن في ذلك زوجات الدبلوماسيين. ووضعت كتاباً عن الطبخ بعنوان (كتاب السيدة لي في شؤون الطبخ) الذي بيع على نطاق واسع حتى بعد وفاتها.

كل شيء كان بالتقنين، اختفت الدراجات النارية، باستثناء تلك التي يستخدمها العسكريون والمدنيون اليابانيون المهمون. والقلة من الناس التي كانت تملك سيارات لم يكن بوسعها أن تملأها بالوقود. وباتت سيارات النقل (التاكسي) تعمل بوقود الحطب. وسرعان ما نضبت عجلات الدراجات المطاطية

واضطر المصنعون المحليون إلى صنع إطارات صلبة بدلاً من الركوب على إطارات مطاطية. كذلك بات النسيج نادراً، لذا كنا نضطر إلى تحويل أقمشة الستائر ومفارش الطاولات إلى بنطلونات وقمصان. كما أصبحت جميع المواد المستوردة نادرة وارتفعت أسعار المشروبات واقتصر بيعها على تجار السوق السوداء وعلى الضباط اليابانيين. في تلك الأثناء كان التضخم يزداد شهراً بعد شهر، وفي منتصف 1944 لم يعد بالإمكان العيش اعتماداً على راتبي. ولكن ثمة حل لهذا. فمع أنني كنت أتلقى إعانة من الأرز والزيت والسجائر وبعض المواد الغذائية الأخرى فقد كان من الأفضل أن أبيعها في السوق السوداء. وكان ثمة تجارة رابحة من بيع الأدوية البريطانية التي تتناقص باستمرار، ومعظمها من موجودات ما قبل الحرب. وكان أثمنها السلفاميد بريدين MCB ـ 693 وبين الأشياء الثمينة الأخرى المشروبات الروحية كالويسكي (جوني ووكر) والبراندي ولفائف التبغ الإنكليزية وغيرها.

كان السماسرة يعملون بالدرجة الأولى في شارع تشوليا أو هاي ستريت، خارج منطقة رافلز. انضممت إليهم عام 1944، وتعلمت كيف أختزن المواد، ولاسيما القطع الصغيرة من المجوهرات الرخيصة. كنت أشتريها وأحتفظ بها لبضعة أسابيع، ثم أبيعها عند ارتفاع الأسعار إذ من السهل أن يكسب المرء المال إذا عرف كيف يقيم علاقات حسنة. وكانت أمي تعرف الكثير من النساء ذوات الأسر الغنية سابقاً ممن كن يحتجن إلى بيع مجوهراتهن وحاجياتهن الشخصية في سنغافورة حيث يشح الطعام. والسماسرة الذين هم على شاكلتي كانوا يبيعون هذه الأشياء في مناطق أخرى ولاسيما إلى اليابانيين المدنيين الذين كانوا مستعدين لبيع أقراط الموز من أجل الحصول على أشياء تدوم طويلاً.

مفتاح البقاء هو الارتجال. أحد الأعمال التي قمت بها وغيّرت مجرى حياتي، هي أنني في أثناء عملي في السوق السوداء قابلت يونغ نيوك لين، وهو خريج من كلية رافلز في العلوم والذي كان يعمل لدى (شركة عبر البحار للتأمين) مع اثنين

من (الهاكاس)، وهما أيضاً من خريجي كلية رافلز، ومعهما أخوهما الأكبر. المتجر كان مكاناً للقاء السماسرة من أمثالي ممن يتاجرون بقطع المجوهرات الصغيرة. وكنت من قبل قد سألت عن الأخوين باساري، وهما هنديان يقيمان في شارع (تشوليا)، ما إذا كنت أستطيع أن أشتري لهما مادة الصمغ للأغراض المدرسية، والتي كانت نادرة ـ لم يتبقّ منها إلا القليل من مخزّنات فترة ما قبل الحرب. هل أستطيع أن أصنعها بنفسي؟ سألت نيوك لين ما إذا كان يستطيع ذلك. فقال: إنه يستطيع ذلك باستخدام دقيق النشاء وحامض الكربون وقمت بتمويل تجاربه.

وأعجبتني فكرته. وقام صديقي بالتجربة بنجاح، وصبّ الصمغ في زجاجات. وقمت بتسويق مادة الصمغ تحت اسم (ستيكفاس) وزيّنا الزجاجة بغلاف ورقي جذاب.

تحوّل الصمغ إلى مادة رابحة، ورحنا نحضّره في مركزين: في بيتنا بمساعدة أمي وأختي، وأما المركز الثاني فكان في بيت نيوك، بمساعدة زوجته وأختها، كواجيوك تشو التي كانت متقدمة عليّ في (كلية رافلز). رأيتها ثانية عندما ذهبت أول مرة راكباً دراجتي ذات الإطارات القوية، إلى شقة نيوك لين في منطقة تيونغ باهرو. كانت جالسة في الشرفة عندما وصلت، وعندما سألت عن نيوك أشارت إلى الدرج عند الزاوية، وصرنا نتقابل في ظروف مختلفة. كانت تقوم بالأعمال المنزلية في البيت لعدم وجود خادمات، وكانت صناعة الصمغ تدر عليها نقوداً كثيرة، ونمّت زياراتي لمراقبة الإنتاج صداقتنا على مر الشهور.

وفي أيلول (سبتمبر) من عام 1944 ازدادت معرفة أحدنا بالآخر، حيث دعوت نيوك لين وزوجته وجيوك تشيو (التي صرت أناديها بتشو) إلى حفل عشاء بمناسبة عيد ميلادي الحادي والعشرين في المطعم الصيني في حديقة الملاهي (العالم العظيم). كانت أول مرة أدعوها فيها إلى خارج المنزل. صحيح أنها كانت برفقة صهرها، ولكن في سنغافورة في ذلك الوقت كان قبول فتاة لدعوة من شاب في الحادية والعشرين من العمر إلى حفل عشاء، حدثاً ذا دلالة.

استمرينا في صنع الصمغ لحوالي ستة أو سبعة أشهر حتى نهاية 1944. وفي ذلك الوقت كانت الحرب تجري لغير صالح اليابانيين. لم يكن يصل إلى الجزيرة إلا القليل من السفن، والتجارة كاسدة، وتراجعت الأعمال ولم يعد أحدٌ يطلب الصمغ. فتوقفت عن صنع الصمغ ولكنني استمريت في زيارة تشو في بيتها في تيونغ باهرو كي أتحدث إليها ولكي تستمر صداقتنا.

في أيار (مايو) أخفقت محاولة اليابانيين لغزو الهند من بورما في إمفال وكوهيما. في هذه المرة كان اليابانيون هم من هُزموا. إذ قاتلوا بعناد وشراسة وهم ينسحبون. وقد قرأت بعض الأخبار عن مقاومتهم العنيدة فيما كان البريطانيون يتقدمون نحو ماندالاي وشاطئ أركان. وكنت متأكداً أن البريطانيين سرعان ما سيشقون طريقهم إلى شبه الجزيرة الماليزية بالطريقة ذاتها، وبينما اليابانيون يقاتلون حتى آخر رجل، خشيت من إعادة احتلال سنغافورة الذي سيعني قتالاً من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، حتى النهاية المرّة مع وقوع خسائر كبيرة في صفوف المدنيين. كان ذلك مسألة وقت ـ سنة أو سنتين.

فوجدت من الأفضل أن أغادر سنغافورة فيما الأمور ما تزال هادئة، وأستطيع الاستقالة من (هودوبو) بدون إثارة الشك حول دوافعي. قدمت طلب الاستقالة وذهبت إلى ملايا لكي أستطلع بيناناغ، و(كاميرون هايلاندز) لأعرف أيهما أكثر أمناً. سافرت من سنغافورة إلى بيانغ ثم إلى تاباه بالقطار، ومن تاباه إلى (كاميرون هايلاندز) في شاحنة لنقل الخضروات حيث وجدت مكاناً جانب السائق. وبعد ليلتين قضيتهما بالكاميرون، عدت إلى تاباه بالطريقة ذاتها. كانت رحلة مروّعة. كان السائق يطفئ المحرك توفيراً للوقود ويترك الشاحنة تنحدر في الطريق لمدة ساعتين ونصف أسفل الهضبة في طريق متعرج.

أقمت في بيانغ مع هون سيوسين في عام 1942. كان هون، بعد أربعة أشهر من احتلال سنغافورة، قد أرسل زوجته وطفليهما إلى بيانغ فنزلوا لدى عائلتي في شارع (نورفولك) كضيوف يدفعون أجرة. تقاسمنا الغرفة وأصبحنا

صديقين، ولكن بعد تسعة أشهر قرر أن يغادر سنغافورة. كان أفضل الخريجين في العلوم من تلك السنة، وأحد اثنين يتطوعان سنوياً في الخدمة المدنية (لمستوطنات ستريتس) (أصبح فيما بعد وزيراً للمالية). ولكن راتبه الشهري كان ضئيلاً وغير كافٍ، ولم يكن بوسعه أن يعيل عائلته وهكذا انضم إليها في بيانغ. مع أنني لم أشاهد إلا قليلاً من النشاط العسكري فقد تجولت في بيانغ. إنها ستكون ركيزة منطقية للقوات البريطانية في طريقها إلى سنغافورة. سيكون ثمة قتال شوارع من بناء إلى آخر. لذا ذهبت إلى (مرتفعات كاميرون) حيث كان صديقي في (كلية رافلز) موريس بيكر يمتلك منزلاً في قرية (رينغليت) على بعد 3200 قدم، كان هو وبعض الأصدقاء يحصّلون معيشتهم عن طريق زراعة الخضروات والمحاصيل ذات الجذور. وقد دفعت تكاليف رحلتي كلها عن طريق بيع نصف دزينة من أدوات التجريف بربح وفير. فالمزارعون يحتاجون إلى مثل هذه الأدوات بشدة. وفي رحلة العودة اشتريت سلة من الخضروات الجميلة غير المتوفرة في سنغافورة، وأمضيت نهاراً ونصف نهار وأنا أحميها في القطار.

وعندما عدت ناقشت الأمر مع أمي ورأينا أنه من الأفضل الانتقال إلى « كاميرون هايلاندز) وكانت الخطوة الأولى أن بعنا الأرض المؤجرة لبيتنا في شارع نورفولك إلى مجموعة من اليابانيين الذين كانوا يعملون لدى (كيوسياي).

دفعوا لنا مبلغاً جيداً مقداره 60 ألف دولار لامتلاك هذه الدار وما حولها. ثم أخذت إجازة من مقر عملي (هودوبو) لمدة شهر.

فيما كنت أغادر مبنى كاثاي قبل يوم من مغادرتي العمل أخبرني عامل المصعد الذي كان صديقاً لي أن أتوخى الحذر، ذلك لأن مكتب (كيمبيتاي) أخذ ملفي. فشعرت بذعر شديد. ورحت أتساءل عمَّ سبب هذا؟، وهيأت نفسي للتحقيق. ومنذ تلك اللحظة لاحظت أنني مراقب كنت قلقاً مشغول البال ليل نهار.

وراحت تخطر ببالي كل الأسباب الممكنة، ولم أستطع أن أستنتج سوى أن أحدهم أخبر المخابرات اليابانية (كيمبيتاي) أنني أوالي الإنكليز وأشيع أخباراً عن أن الحرب تجري في غير صالح اليابانيين، وأنني لهذا السبب كنت أريد أن

أغادر. وكان هناك رجلان على الأقل في وقت واحد خارج المخزن في (شارع فكتوريا) حيث أقمنا بعد أن انتقلنا من شارع نورفولك. حصل والدي على استئجار هذا المنزل من هيئة النفط في شارع ألكساندرا.

ومن أجل أن أعرف ما إذا كان أحدهم يتبعني، طلبت من شقيقيّ دينيس وفريد أن يمكثا عند النوافذ العليا وأن يراقبا الرجلين الصينيين الواقفين عند زاوية شارع براس باساه وشارع فكتوريا وبقربهما دراجتهما. ثم استدرت نحو البناء. وعندما عدت فعلا ذلك أيضاً. وغاص قلبي. أعلمت والدتي بذلك، ورأيت أن من الأفضل ألا أغادر سنغافورة مطلقاً. إذ لمن المحتمل لو حاولت ذلك أن يجرني الكيمبيتاي (الشرطة السرية) إلى تحقيق كريه.

فأخذت أعمل عملاً مكشوفاً وعشت حياتي العادية أشتغل في السوق السوداء وأصنع الصمغ كي أعيش فمن المحتمل أن يدعونني وشأني.

تحملت لعبة القط والفأر هذه فترة ثمانية أسابيع ففي بعض الأحيان، وفي هدوء الصباح الباكر في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً كانت تمر سيارة في شارع فكتوريا وتقف قرب منعطف عند شارع (براس باساه). من الصعب أن أصف ما كنت أحس به من رعب من فكرة أنهم ربما جاؤوا من أجلي. لقد سمعت مثل ما سمع كثيرون عن أهوال التعذيب التي يمارسها (الكيمبيتاي) وأساليبه في التحقيق. كانت قيادتهم تقع في بناء YMCA في شارع ستامفورد، وهناك فروع في مناطق أخرى. ويقول القاطنون بالقرب من تلك المناطق: إنهم كانوا يسمعون الضحايا يصرخون من الآلام، وكانت صرخاتهم تجعل قلوبهم تتخلع خوفاً. وسرعان ما كانت تنتشر أخبار هذه المظالم المرعبة. كان أسلوباً متعمداً لإخافة السكان المحليين، فالجبناء يُسهل قيادتهم.

لم يكن لدي أية اتصالات مع أي خلية أو شبكة سرية لنشر أخبار الحلفاء. ولم يكن ثمة ما يدعوني إلى أن أصغي سراً إلى الإذاعة لأن عملي كان يقتضي بطبيعة الحال التعامل مع التقارير الإخبارية الغربية. عزمت على أن أقول لهم إذا

ما اعتقلت ما كنت أخاف منه: بعد تحرير بورما لا بد أن يغزو البريطانيون الملايو ثانية ويتابعون سيرهم إلى سنغافورة فيما يقاتل اليابانيون حتى آخر رجل. لذا قررت أن أغادر الجزيرة وأزرع نبات التابيوكا والبطاطا الحلوة والخضروات في مرتفعات كاميرون، التي لن تكون عرضة لأي غزو عسكري. وسأقدم الدليل على زيارتي لبيانغ وكاميرون، حيث لحقت بي أمي وأختي بعد شهرين، لأثبت لهم رأيي بأنها أفضل منطقة يمكن أن تنتقل إليها العائلة. ولكن ذات يوم، وبعد شهرين من المتابعة توقفت المراقبة. كانت تجربة مثيرة للأعصاب تفقد المرء رباطة جأشه.

بعد أن توقفت عن صنع الصمغ لضعف الطلب اشتغلت مع شاب من شانغهاي يدعى لويولينغ. كان متعهداً صغيراً في تجارة البناء، في الثلاثينيات من العمر. لم يكن له شركاء. كنت أستطيع التحدث باليابانية، بينما هو لم يكن كذلك، حصلنا على أعمال مختلفة من الشركات اليابانية ومن (بوتاي) المفارز التي كانت تحرس سنغافورة. ولتكثيف اتصالاتي مع القطاع المدني، عملت مع السيد كاجياما وهو مدني ياباني، في الثلاثين من عمره أيضاً. كان يعمل مع (كيومياي) وعندما شحّ العمل بالنسبة إليه في (كيومياي) بسبب أن السفن اليابانية كانت تغرق وبدأت البضائع تشح، قرر أن يعمل بمفرده كوسيط ما بين الشركات اليابانية الكبيرة، والممولين المحليين والعسكريين. كان أحدنا مكمّلاً للآخر. كنت أزوده بالنجارين والبنائين والمعماريين الذين كان يحتاجهم في أعمال البناء. وهكذا استطعنا معاً أن نحقق بعض النجاح.

واستمريت في العمل في السوق السوداء، أعمل سمساراً لأية سلعة تجارية. لم يكن الوضع سيئاً. فقد كانت المواد شحيحة وتزداد ندرة. ولم يكن فرط التضخم يعني انخفاضاً في الأسعار، ولكن المرء يحتاج إلى رأس مال كي يصبح أغنى. كنت قادراً على جمع بعض المال. أعلم أن في اللحظة التي يكون لدي نقود سائلة علي أن أستبدلها بشيء ذي قيمة أكثر ديمومة وإلا ذابت النقود بين يدي.

هذا الدافع المجنون حول نقودي الورقية إلى أثاث، فاشتريت لنفسي طاولة بلياردو وحسّنتها وأعدت طلاءها، وغيّرت كثيراً من الأشياء في شقتنا العالية في شارع فكتوريا. وفي شهر آذار أو نيسان عام 1945 انتقل صديق لوالدي من شقته في (مبنى الصين) وعرض علينا استخدامها، وهكذا بت أستطيع الاستفادة من شارع فكتوريا في مجال الأعمال المختلفة، وفي الاستجمام وإلى جانبه كان يوجد مبنى على الزاوية، مبني من القرميد الأحمر ومحل لبيع الحلويات ومخبز، حيث يلتقي السماسرة لتبادل المعلومات وعقد الصفقات، والتسلية، حيث كانت طاولة البلياردو هناك. كانت حياة وجودية، فيوماً بعد يوم كان يقترب موعد إعادة الغزو بما يحمل من مخاطر على السكان المحليين. وخلال تلك الفترة كان على المرء أن يعيش ويعمل كالمعتاد.

في شهر أيار (مايو) وصلت الأنباء عن هزيمة ألمانيا واستسلامها. والآن سوف يتوجه المجهود الحربي كله ضد اليابانيين. كل واحد منا كان يعرف أن المسألة باتت مسألة وقت لكي تهزم اليابان. ولما كنت أحرر حملة بورما الصحفية أثناء عملي في (هودوبو) فقد كنت أخشى من الثمن الباهظ الذي سيدفعه المدنيون، ولكن لم يكن ثمة من سبيل آخر. فمغادرتي قد تثير الشك والتحقيق.

وفجأة سقطت في السادس من آب (أغسطس) قنبلة غريبة وانفجرت فوق هيروشيما ـ لم يرد الخبر إلا في جريدة (سيونان شيمبون) في الحادي عشر من آب (أغسطس) على شكل تقرير «نيبون تحتج ضد الهجوم على هيروشيما بنوع جديد من القنابل يوم الاثنين الماضي» ـ ولكن أولئك الذين استمعوا إلى إذاعات الموجة القصيرة من محطة BBC نشروا خبر ضرب اليابان بسلاح إشعاعي جديد فتاك. شعرنا أن النهاية باتت وشيكة.

وفي الخامس عشر من آب (أغسطس) أذاع الامبراطور الياباني على رعيته نبأ الاستسلام. سمعنا ذلك على الفور لأن الشعب أصبح جريئاً فجأة وكان كثيرون يستمعون إذاعات الحلفاء، وخاصة BBC. لم ينشر الخبر في سيونان

شيمبون حتى العشرين من آب (أغسطس) عندما نشرت «القرار الامبراطوري» كاملاً. لقد انتهت الحرب بدون مزيد من القتال. لقد اجتبنا محنة محمومة كانت قدراً محتوماً على رانفون وماندلاي، على مدى ثلاثة أسابيع بعد إعلان الامبراطور لم تكن ثمة إشارات على وصول الإنكليز وكان هذا وضعاً غير طبيعي. كان وضعاً مختلفاً عما حدث قبل ثلاث سنوات ونصف السنة، عندما استسلم البريطانيون قبل أن يسيطر اليابانيون تماماً على الموقف. القوات اليابانية، خلافاً للقوات البريطانية، لم تهزم وتفقد معنوياتها في المعركة. كانوا جزعين ومضطربين، ولكنهم ظلوا متماسكين ومحتفظين بالقدرة على إلحاق الأذى بنا. وعندما احتفى السكان المحليون بهزيمتهم ولم يستطيعوا أن يخفوا مشاعرهم كان الجنود اليابانيون يصفعون من يظهرون سرورهم.

كان الجيش الياباني يتوقع أن يُستدعى لتصفية الحساب على يد البريطانيين ويعاقب على أفعاله المشينة، وكان مستاء أيضاً من أن ينقض الناس على ضباطهم عندما يصلون. وقد سمعت طلقات نيران من مجموعة من الضباط اليابانيين لأن بعضهم لم يستطع أن يقبل بالاستسلام وفضّل الانتحار على طريقة الهاراكيري بالأسلوب الياباني أو بالمسدس. ولكن السكان المحليين كانوا سعداء. لم يقتل اليابانيون المدنيين على حد علمي كما لم تقع أحداث سيئة أو وحشية. تركوا الأهالي وشأنهم إلى أن تولى البريطانيون زمام الأمور، وظلوا محافظين على الانضباط العسكري كانت فترة السنوات الثلاثة ونصف من الاحتلال الياباني هي السنوات الأهم في حياتي. منحتني رؤية عميقة حية لسلوك البشر والمجتمعات الإنسانية، وبواعثهم ودوافعهم. وتقديري للحكومات، وفهمي للسلطة بوصفها عجلة للتغيير الثوري، ما كنت لأحصل عليهم لولا تلك التجربة. لقد رأيت نظاماً اجتماعياً كاملاً ينهار أمام جيش غاشم محتل. كان اليابانيون يطلبون الخضوع المطلق وقد حصلوا على ذلك من الجميع تقريباً. كانوا مكروهين من كل فرد ولكن كان كل فرد يعلم مدى قدرتهم على الإيذاء وبالتالي يخضع لهم.

وأولئك الذين تقاعسوا أو رفضوا التغيير والقبول بالسادة الجدد عانوا الكثير. عاشوا على هامش المجتمع الجديد، وتجمدت فرصهم وتضاءلت وفقدوا مراكزهم. أما أولئك الذين سارعوا إلى تقدير الوضع الجديد، وإلى انتهاز الفرص الجديدة، من خلال تقديم خدماتهم للسادة الجدد حققوا ثروات رغم كل ما كان يحيط بسنغافورة من بؤس.

حكمت الإدارة العسكرية اليابانية عبر نشر الخوف في قلوب الناس. لم تبد أي مظهر من مظاهر التحضر. وكانت العقوبات من القسوة بحيث اختفت الجريمة أو كادت. فوسط الحرمان بعد النصف الثاني من عام 1944. عندما كان الناس يعانون من الجوع، كان معدل انخفاض الجريمة مذهلاً. وكان الناس يستطيعون ترك أبواب بيوتهم مفتوحة في الليل. كل أسرة لها خفير، وكل عشرة بيوت يوجد مسؤول عنها. ويقوم هؤلاء الخفراء بدوريات من الغسق حتى شروق الشمس وهم يحملون العصي. لم يكن هناك حالات سرقة . فالعقوبات كانت شديدة جداً وتوصلت إلى قناعة بأن العقوبة الرادعة تكبح الجريمة، خلافاً لما يعتقده كثيرون. كان هذا خلافاً لخبرتي في سنغافورة قبل الحرب وأثناء الاحتلال البريطاني حيث تعلمت بعد الصدمة الأولى أن الحياة ينبغي أن تجري كالمعتاد. الناس يجب أن يأكلوا وهم يحتاجون إلى أدوية وأشياء أخرى مثل فراشي ومعجون الأسنان والملابس والأحذية والأقلام والحبر والورق، حتى شفرات الحلاقة أضحت غالية الثمن وصعبة المنال، فأصبحت الشفرات المستعملة تُشحذ ويعاد شحذها وذلك بتمريرها على حواف الألواح الزجاجية. التبغ صار أغلى ثمناً من العملة اليابانية. وتدنت مكانة بعض المهن. قل الطلب على المحامين المتمرنين على القانون الإنكليزي وذلك بسبب قلة التجارة. القانون العسكري كان يتعامل بسرعة مع الجرائم. وتعطلت المحاسبة بعد قلة الأعمال أما الأطباء وأطباء الأسنان فقد حافظوا على أهميتهم لأن الناس ما انفكوا يمرضون ويعانون من آلام الأسنان. لذلك ازدهرت أعمال الأطباء رغم النقص في الأدوية وشح العقاقير المخدرة.

في الأشهر العشرة الأولى من الاحتلال كان من المعتاد أن نرى مجموعات العمال من أسرى الحرب البريطانيين والأستراليين تأتي إلى المدينة مخفورة بجنود يابانيين. كانوا يقومون عادة بنقل البضائع من الأرصفة إلى الشاحنات. كانوا يتسللون إلى المقاهي طلباً للطعام، وكان الرجال والنساء يعطونهم الخبز والأطعمة المعلبة والنقود. وكان الصينيون يتعاطفون معهم كثيراً، نحلت أجسادهم وساءت أحوالهم منذ احتجازهم، أزياؤهم من قمصان وشورتات أصبحت رثة. ومنذ عام 1942 بدأ يقل ظهورهم في الشوارع وبعد سنة أصبح وجودهم نادراً. واعتقد الناس أنهم أرسلوا للعمل في أقطار أخرى مثل تايلاند، وإندونيسية، واليابان، وعندما عادوا إلى الظهور في سنغافورة في أواخر عام 1944 وبداية عام 1945، كانوا أشبه بالأشباح من شدة الخمول، هياكل عظمية وقد برزت منها العظام بحيث يمكن عدها. كانوا يعملون في السكك الحديدية في بورما، كانت عظام الورك ناتئة من أجسادهم. كانوا يثيرون الشفقة حيث ملأت أجسادهم القروح والجروح والندبات والجرب، ولاسيما على سيقانهم وأذرعهم. الطعام كان قليلاً ولكن ليس لدرجة عدم القدرة على إطعامهم بشكل مناسب. كانت معاناتهم تفوق معاناة أي سجناء حرب آخرين في العالم.

التحول من اللغة الإنكليزية إلى اللغة اليابانية باعتبارها لغة الإدارة والمسؤولين جعلت كبار السن يعانون كثيراً، إذ لم يكن من السهل تعلم اليابانية. والذين كانوا يتكلمون اليابانية مثل الصينيين التايوانيين بعضهم كان في سنغافورة قبل الاحتلال، ولكن الآخرين تبعوا الجيش الياباني، بعض الشباب المحليين تعلموا شيئاً من اليابانية كي يعملوا، معظم الناس كانوا محترمين، ولم يرغبوا بالتعاون مع الاحتلال، أرادوا أن يقدموا للاحتلال أقل ما يمكن. حفنة قليلة تجرأت على معارضتهم وقد جرى ذلك سراً ولكن لم يكن هناك من يرضى بالتعاون مع العدو. ولكن كان هناك آخرون انتهازيون أيضاً يقدمون الخدمات لليابانيين كما يقدمون النساء والشراب والمعلومات والطعام الجيد كي يحصلوا على المال الوفير. وبعض المحظوظين منهم صاروا سماسرة يوفرون لليابانيين ما يحتاجون من مواد

ولاسيما مواد البناء. أما الأكثر حظاً، كالأخوة شو، فهم من يحصلون على رخصة لإدارة صالات القمار التي كان يرتادها الكثيرون طمعاً في الربح وتزجية أوقات الفراغ. وبعد جمع المال كان الهم الأول هو كيفية المحافظة عليه عن طريق تحويله إلى عملات أخرى، أو شراء أشياء تحافظ على قيمتها. وكان هؤلاء يحرصون على اقتناء أشياء تحافظ على قيمتها عند عودة الإنكليز. وأن تكون صغيرة الحجم غالية الثمن يسهل إخفاؤها كالمجوهرات. أما الأثرياء الأكثر جرأة فكانوا يشترون العقارات. بيد أن أسعارها لم تكن ترتفع كارتفاع أسعار العملات الصعبة. وفي المراحل الأخيرة من الاحتلال بات من الممكن بيع صندوق من زجاجات الويسكي (12زجاجة) بما يكفي من العملة اليابانية لشراء دكان في شارع فكتوريا. وصار السماسرة الذين يرتبون مثل هذه الصفقات من الأثرياء بعد الحرب.

تعلمت الكثير من سنوات الاحتلال الياباني التي دامت ثلاث سنوات ونصف أكثر مما يمكن لأية جامعة أن تعلمني. لم أكن قد قرأت بعد قول ماو المأثور «تأتي القوة من برميل البارود»، ولكنني عرفت الوحشية اليابانية، والمدافع اليابانية، والحراب والسيوف اليابانية، وأعمال الرعب والتعذيب التي قاموا بها كانت تجعل الناس يغيرون سلوكهم وحتى ولاءاتهم. لم يكن اليابانيون يأمرون الناس ويطلبون منهم الطاعة فحسب، بل كانوا يكرهونهم على التكيف وفقاً للقواعد اليابانية على مدى طويل بحيث ينشأ أولادهم وهم متكيفون مع النظام الجديد، ولغته وعاداته، وقيمه من أجل أن يكونوا مفيدين وقادرين على العيش.

المرحلة الثالثة والأخيرة التي سيحققونها إذا أتيح لهم الوقت، أن يجعلونا نقبل بهم كسادة جدد لنا قبولاً طبيعياً، ولا مكان للأخلاق والعدل.

لقد كسبوا الحرب وباتوا في موقع الذروة والقيادة. كان علينا أن نمتدح آلهتهم، ونحترم ثقافتهم ونقتدي بسلوكهم. لكن هذا لا يتحقق دوماً. فقد واجه اليابانيون في كوريا مقاومة منذ اللحظة التي حاولوا فيها أن يحكموا تلك البلاد.

حاولوا أن يقمعوا مواهب وعادات الشعب وثقافته العريقة، أن يقمعوا شعباً لديه إحساس شديد بالاعتزاز بتاريخه والتصميم على مواجهة الطغاة البرابرة. قتلوا كثيراً من الكوريين ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على روحهم المعنوية.

ولكن ذلك كان حالة استثنائية. ففي تايوان - التي حكمها الصينيون، والبرتغاليون، والهولانديون، قبل مجيء اليابانيين - لم تكن ثمة كراهية، ولو أن اليابانيين بقوا في سنغافورة والملايو 50 سنة لكانوا كسبوا الكثير من المؤيدين لهم كما فعلوا في تايوان بنجاح. كانت الملايو صغيرة جداً تقطنها شعوب متنوعة ومجتمعها هش وضعيف المقاومة. وكان هناك بعض الملاويين الذين انضموا إلى مقاتلي حرب العصابات ضد اليابانيين في الأدغال الملاوية بإشراف مدربين بريطانيين من القوة 136 وكان كثير منهم يأملون أن يكون اليابانيون حماتهم الجدد، تماماً كما كانوا يتمنون أن يصبح البريطانيون حماتهم بعد أن هزموا اليابانيين. الشعب الوحيد الذي كان لديه الشجاعة والقناعة لمجابهة الغزاة هم الصينيون الذين انضموا إلى الحزب الشيوعي المالاوي. كما انضموا بأعداد صغيرة إلى المقاومة التي يقودها الكومينتانغ. كان المحرك الذي يثير مشاعر كلا الفرقين هو الأممية الصينية وليس الوطنية الملاوية. وكانوا مناوئين للبريطانيين في زمن السلم كما كانوا مناوئين لليابانيين زمن الحرب.

في الفترة الفاصلة المضطربة بين استسلام اليابانيين في الخامس عشر من آب (أغسطس) 1945 وتأسيس إشراف بريطاني فعال على الجزيرة في أواخر شهر أيلول (سبتمبر)، أخذت المجموعات المعادية لليابان السلطة في أيديها. وقامت هذه المجموعة بأعمال الإعدام بدون محاكمة والقتل والتعذيب والانتقام والضرب، وقد طال ذلك من المخبرين والجلادين وكل من شارك اليابانيين في جرائمهم. أو اشتبه بهم. وأتذكر أصوات حفيف أقدام الأشخاص الذين كانوا يُجَرْجَرُونَ في وضح النهار. حول بيتنا في شارع فكتوريا و (بناء الصين). كنت

أسمع أصوات الضربات والصرخات وهم يُقتلون ويُذبحون. ولكن في الأيام الأخيرة نجح كثير من المتعاونين (مع اليابانيين) في الاختفاء أو الهروب من البلاد إلى الملايو أو جزر رياو في الجنوب.

لم يجلب التحرير ما كان يتمناه كل فرد: معاقبة الأشرار ومكافأة الأخيار. لا يمكن أن يكون هناك عدل في تصفية الحسابات. العدل والإنصاف يتطلبان وثائق وتحقيقات سليمة. ولم يكن من الممكن جمع الوثائق الكافية لمعاقبة كل مذنب. كان هناك كثير من المذنبين من يابانيين ومحليين. لم تطبق العدالة إلا على القلة واستطاع كثيرون أن ينجوا من العقاب.

كانت هناك محاكمات، ولكن مجرمي الحرب اليابانيين الكبار لم يعاقبوا. فالعقيد تسوجي، الرجل الذي أمر بمذبحة (سوك تشينغ) قد اختفى، والجنرال ياماشيتا (نمر الملايو) الذي صادق، بوصفه قائداً مسؤولاً، على المذبحة المذكورة، قد نُقل أولاً إلى منشوريا ثم إلى الفيلبين، حيث استسلم في أيلول (سبتمبر) 1945 إلى قوات الجنرال ماك آرثر. وقد حوكم وشُنق في مانيلا بسبب نهبه للمدينة، وليس بسبب المصادقة على قتل ما بين 50 إلى مئة ألف إنسان بريء في سنغافورة.

حوكم قرابة 260 يابانياً على جرائم ارتكبوها في سنغافورة، ولكن لم يُحكم بالإعدام إلا على مئة شخص على الرغم من أن مئات الأشخاص في سنغافورة، ومن بينهم أصدقاء لي، قد اعتقلوا وعُذبوا في مراكز (الكيمبيتاي) في سنغافورة. وكان أحدهم ليم كيم سان، الذي أصبح فيما بعد وزيراً في الفترة ما بين 1963 ـ 1968. وقد حدثني عن معاناته الكئيبة عام 1944 فقال:

> «اعتقلت مرتين في أوكسلي رايز» الأولى في كانون الثاني 1944 لمدة أسبوعين، والثانية في شباط عام 1944 لفترة تزيد على شهر. أخبر عني فتى صيني كان يأتي إلى دكاني في «شارع الجسر الشمالي» وادعى أنني أعطيته مالاً من أجل الشيوعيين. وعندما ناقشتهم بأن لا صحة لذلك لأنني رأسمالي ولا يمكن أن أكون شيوعياً، وثّقوني بالحبال، وتعرضت للضرب والرفس.

لم أستعد وعيي إلا بعد أن صبوا الماء على وجهي. فجدت نفسي سجيناً في غرفة مساحتها ما بين الخمسة عشر أو العشر أقدام، يشاركني فيها حوالي ثلاثين شخصاً من ذكور وإناث

كان يوجد مرحاض في إحدى زوايا الغرفة، وهو من النوع الخفيض مزود بحوض ماء بمكان مرتفع فوق رؤوسنا. وتدفق الماء المتكرر يجعله «نظيفاً» يعاد جمع الماء المتدفق في حوض المرحاض. هذا الماء هو ما كنا نشرب منه ونستحم به. وإذا قدر لأحدنا أن يمرض لا يعرف إلى أين سيذهبون به إلا الله، أصبت بالغثيان من مشهد امرأة تنزف دم الحيض. كانوا يطعموننا الأرز ممزوجاً بخضر لا تصلح للطعام. لم أكن أستطيع ابتلاعها وكنت أتقيّأ في كل مرة أحاول أن أتناولها. ذكرني ذلك كيف كنا نُطعم البط.

كنا نجلس جميعاً في زرائبنا ولم يكن من المسموح لنا تغيير أماكننا بدون إذن من الحرس، وهم صبية محليون تطوعوا ودُرِّبوا على القسوة. في أحد الأيام أُحضر هندي عجوز. لم يكن يستطيع الجلوس. بل يمشي وهو يجر رجله المصابة. كان يتألم مرَّ الألم وهو يجر ساقه المعطوبة.

وكان بين المعتقلين شاب صغير في ما يقارب السابعة عشرة من عمره. جيء به بعد عقوبة. وذات ليلة علقه الحرس الياباني عارياً على جدار مرتفع. ويداه مربوطتان خلفه.ثم تركوه على هذه الحالة طوال الليل بدون ماء أو طعام. تعرض لتعذيب شديد وراح يصرخ ويتألم، وهم يضربونه على ظهره. استمر التعذيب بضع ساعات، وبدأت صيحاته تتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن توقفت. توفي، وظل معلقاً بضع ساعات أمامنا كتحذير لنا.

في كل صباح كنا نرتجف هلعاً عندما نسمع صوت خطوات ثقيلة تقترب منا. كان ذلك يعني اقتراب الحرس منا من أجل التحقيق والتعذيب.

تعذيب غريسوم على يد جنود يابانيين أثناء الاحتلال.

«تحررت على يد ضابط اتصال تايواني رفيع. رأيت الطبيعة الحقيقية لليابانيين خارج وداخل السجن. المدنيّة والانحناءات لم يكونوا إلا غطاء رقيقاً يخفي الوحش. لقد أنقذ انتصار الحلفاء آسيا».

كانت الوحشية اليابانية تتجلى في العقيد كولين سليمان سليمان المدعي العام في محكمة العشرة التي افتتحت في سنغافورة في الثامن عشر من آذار عام 1946:

«من أجل إعطاء وصف دقيق للأعمال الشنيعة لهؤلاء الرجال سيكون من الضروري أن أصف أفعالاً تعكس أعماق والانحطاط والانحلال الإنساني. مفتاح هذه القضية يمكن أن يُلخص بكلمتين ـ الخوف الذي لا يمكن وصفه».

رغم كل هذه الوحشية والقهر، وعلى مدى خمسين عاماً منذ انتهاء الحرب آثرت حكومات الحزب الديمقراطي الليبرالي الياباني، وغالبية زعماء الأحزاب السياسية اليابانية، ومعظم الأكاديميين، وجميع وسائل الإعلام تقريباً ألا تكشف أو تتحدث عن هذه الأفعال الشنيعة. كانوا يأملون، خلافاً للألمان، أن هذه الأفعال سوف تنسى مع تعاقب الأجيال، وأن المحاسبة عليها سوف تندثر. ولأنهم رفضوا أن يقروا بآثامهم تجاه جيرانهم. كان هؤلاء يخشون أن تتكرر تلك المآسي. وفي عام 1992 فقط، عندما استلم السلطة حزب آخر غير الحزب الديمقراطي الليبرالي، قدم رئيس الوزراء موريهيرو هوسوكاو اعتذاراً عما ارتكبه اليابان من أعمال فظيعة في سنوات الحرب.

4. بعد التحرير

في يوم الأربعاء الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) عام 1945، عند قرابة الساعة العاشرة والنصف صباحاً، مشيت إلى (سيتي هول) حيث سيجري مراسم الاستسلام وانتظرت عند بادانغ عبر الطريق. فالمشهد يستحق الانتظار. رأيت مجموعة من سبعة من كبار الضباط اليابانيين يصلون إلى (هاي ستريت) مصحوبين بالشرطة العسكرية البريطانية بقبعاتهم الحمراء وربطات أذرعتهم. وكان على رأسهم الجنرال ايتاجاكي، رئيس أركان القوات في الملايو وسنغافورة. كانوا يمشون بطريقة صحيحة خلافاً لكثير من الضباط اليابانيين.

وكانت الجماهير تصرخ في وجوههم وتُصفر وتسخر منهم، ولكن اليابانيين كانوا منضبطين رافعي الرؤوس ينظرون أمامهم. لقد جاؤوا لتوقيع صك الاستسلام الرسمي تنفيذاً لأوامر امبراطورهم. وكان يُشاهد في وقت لاحق كثير من الضباط في أماكن مختلفة يسلمون الساموراي الطويلة في غمدها. لقد اعترفوا بالهزيمة ونزعت منهم أسلحتهم وباتوا أسرى حرب. ولكن الجنرالات السبعة الذين كانوا يمشون الآن في (ستي هول) كانوا يمثلون جيشاً لم يهزم في معركة. كان عليهم أن يقاتلوا حتى النهاية، وتركوا لدى شعب سنغافورة الذي كان يكرههم انطباعاً لا يرقى إليه الشك بأنهم كانوا يفضلون أن تبتلعهم ألسنة اللهب مع كل الآخرين على أن يستسلموا.

وبعد خمس وأربعين دقيقة ظهر اللورد لويس مونتباتن، القائد البريطاني المسؤول في قيادة جنوب شرق آسيا، مرتدياً زي سلاح البحرية الأبيض. وكان يصحبه عدد من جنرالاته وكبار ضباطه، وسبعة أو ثمانية ضباط يمثلون القوات الحليفة، من هنود وصينيين وهولانديين وغيرهم. ورفع قبعته البحرية عالياً وحيا بها القوات ثلاث مرات والتي انتظمت كالعقد أمام الأدراج. كان يحب البزات الرسمية والاستعراضات العسكرية والمراسم.

كانت لحظات ابتهاج عظيم. فقد زال كابوس الاحتلال الياباني والناس وأخذت تعتقد أن الأيام السعيدة باتت وشيكة العودة. وكان ثمة أمارات تدل على ذلك. فالقوات كانت سخية في توزيع السجائر ـ رزم من (باكيتات) دخان بليزر، التي لم تكن موجودة منذ ثلاث سنوات. وكميات كبيرة من الجعة وويسكي جوني ووكر والجن من ماركة جوردون باتت متوفرة في السوق، واعتقدنا أنه سرعان ما سوف يتوفر الأرز والفواكه والخضار واللحوم والأطعمة المعلبة. فخلال الأسابيع القليلة الأولى كان ثمة شعور بالابتهاج. إذ كانوا الناس سعداء بعودة الإنكليز وقاموا بالترحيب بهم.

وفي بداية عام 1946، تبين للناس أنه لن تكون ثمة عودة إلى تلك الأيام الآمنة المستقرة والحياة السهلة في سنغافورة. فالمدينة كانت مليئة بالقوات العسكرية بملابسها العسكرية. كانوا يملأون الحانات والمقاهي وأماكن اللهو. والأعمال التجارية الناشطة قبل الحرب لا يمكن أن تعود على الفور، ذلك أن المستخدمين الإنكليز قد توفوا أو استعيدوا من الاعتقال. وكان وصول السفن قليلاً والبضائع البريطانية نفسها شحيحة. كانت تبدو مُخزّنة لعدة سنوات قبل الحرب قبل أن يُستأنف تصديرها. حتى المواطنون المحليون الذين كانوا يعملون في مكاتب الحكومة ما كان بوسعهم أن يعودوا إلى أعمالهم القديمة، وظل كثير منهم بلا عمل. كان عالماً مضطرباً حيث انتعش البائعون المتجولون في سنغافورة كما هو الحال في بريطانيا وكان يطلق عليهم لقب (المتبطلين) وبات كثير من البضائع التي كانت تباع سابقاً في السوق السوداء تباع الآن في السوق الحرة.

كان هناك أعداد كبيرة من سيارات الجيب والدراجات العسكرية في الشوارع، ولكن لم يكن ثمة سيارات أو حافلات جديدة. فقد خُربت حافلات (الترولي باص) وامتلأت الطرق بالحفر، أما الهواتف فكانت قديمة وخطوطها غير واضحة الصوت بسبب عدم تجديدها، ولم تكن الكهرباء متوفرة دوماً بسبب الانقطاعات. كان لا بد من مرور بعض الوقت حتى تعود الأمور إلى انضباطها.

كنا ننتظر بفارغ الصبر (الأيام الخوالي الجيدة) أثناء سنوات المعاناة آمالنا التي كانت مرتبطة بالحنين إلى الماضي، كانت آمالاً كبيرة، ولكن خيبة الأمل كانت مقدرة علينا. فالبنية التحتية منهارة، والأملاك الخاصة ضائعة أو مُخربة. مات أناس كثيرون فيما أصاب الآخرين المرض أو الهرم. لا بد للحياة أن تأخذ مجراها ولكنها لن تكون كالأيام التي مضت.

ومع هذا فإن الإدارة العسكرية البريطانية، مهما كان تقصيرها، كانت بمثابة راحة كبرى لنا بعد القمع والرعب اللذين قاسينا منهما على يد أسلافهم اليابانيين، وكان الضباط والمدنيون البريطانيون يعرفون أن السكان المحليين يرحبون بعودتهم ولمسوا الحرارة التي أظهرناها نحوهم وفعلوا ما بوسعهم من أجلنا. وكان كثير من الجنود والضباط يشاركوننا في مخصصاتهم من الدخان والخمر. وكان كثيرون في سنغافورة يفهمون اللغة الإنكليزية والثقافة الإنكليزية ونظام الحكم في بريطانيا. حتى غير المتعلمين كانوا متآلفين مع مكونات النظام الاستعماري البريطاني لأنهم كانوا على اتصال بها.

كان من المتوقع أن يكون حي (ستريت تشاينيز) تحديداً، سعيداً بعودة مجتمعه الذي اشتهر به إليه. ومع أنه استعاد كثيراً من تقاليده الصينية فقد امتنع كثيرون عن التحدث بلهجاتهم الخاصة وتحولوا إلى اللغة الملاوية. ومن المعروف أن المهجرين الأوائل لم يُحضروا زوجاتهم معهم وتزوجوا من نساء محليات. وكان هؤلاء موالين للبريطانيين ؛ في معظمهم، وأرسلوا أولادهم إلى مدارس إنكليزية آملين في النهاية أن يصبحوا اختصاصيين أو موظفي حكومة في مستعمرة تديرها بريطانيا ولغتها الرسمية الإنكليزية. انضم الناس الأكثر ولاء إلى جمعية ستريتس البريطانية الصينية وكانوا يعرفون شعبياً باسم (صينيو الملك) والأعضاء البارزون في تلك الجمعية أصبحوا فرساناً، بيد أن هؤلاء لم يشكلوا إلا 10% من المجتمع. أما البقية كانوا صينيين يتكلمون اللغة الصينية وقد جاؤوا إلى سنغافورة في وقت متأخر. وهم يتكلمون بلهجاتهم الخاصة، ولا سيما لهجة (الهوكين)

و(تيوشيو) و(الكانتونية) و(الهاكا) و(الهينانيس) والتحق أولادهم بمدارس صينية وتعلموا لغة الماندرين، وكانت علاقاتهم مع السلطة البريطانية محدودة. كانوا يعيشون منفصلين، ولم تختلف حياتهم بعد الحرب عما كانت عليه قبلها.

كان ولاؤهم للصين وليس لبريطانيا. وكانوا هم من اقتحموا أدغال المالايو لمقاتلة اليابانيين، في حرب عصابات ضمن الجيش المالاوي المعادي لليابان (MPAJA)، الذراع العسكري للحزب الشيوعي المالاوي. وكانوا يتطلعون إلى يوم لا يطردون فيه اليابانيون فقط، بل والبريطانيين أيضاً. وقد أشاعوا الفوضى عندما استسلم اليابانيون فجأة قبل وصول الإنكليز.

وفي المالايو استولوا على بعض المدن الصغيرة، ونصبوا الأقواس ترحيباً برجال العصابات بوصفهم المنتصرين الحقيقيين في المعركة ضد اليابانيين، وتصرفوا كما لو كانوا سلطة محلية فعلية. ومن حسن الحظ أنهم لم يفعلوا الشيء ذاته في سنغافورة، ولكنهم سببوا بعض الاضطرابات. فقد كانوا يظهرون في الشوارع بملابس موحدة ذات لون خاكي مع قبعات تحاكي لباس الجيش الصيني الشيوعي الثامن. وفي ذروة الانتصار كان لهم اليد الطولى، فقد صادروا بعض الأراضي بالقوة وأقاموا محاكم شعبية لإصدار أحكام فورية على المتعاونين مع اليابانيين من جميع الأعراق. وفي إحدى المرات جمع 20 من رجال الشرطة السرية الصينيين ووضعوا في أقفاص كبيرة لمحاكمتهم.

وكانوا يبتزون رجال الأعمال بسبب تعاونهم السابق مع العدو. وأكره أناس بارزون كثيرون على تقديم تبرعات سخية (للجيش المالاوي المعادي لليابان) (MPAJA) بسبب أفعالهم السابقة. وانتشر بعض قطاعي الطرق الشبان الذين يجمعون المال للجيش المذكور من أولئك الذين تعاونوا في السابق مع اليابانيين. ولم يكن بوسع القوات البريطانية أن تعيد فرض النظام والقانون في وجه عدوانية وانتهازية رجال العصابات الذين ادعوا أنهم لعبوا دوراً في المقاومة. ومن حسن الحظ فقد ظل هؤلاء في المالايو ولم يقتربوا من سنغافورة. لأنه لم يكن

لديهم وسائط نقل، فظلوا في المالايو، وكانوا أكثر فاعلية هناك لأنهم متآلفون مع تلك المنطقة، قدمت الإدارة العسكرية البريطانية مبلغ /350/ دولاراً لكل فرد من أفراد الجناح العسكري للحزب الشيوعي المالاوي ممن يقومون بتسليم أسلحتهم.

وخلال الفترة من كانون الأول (ديسمبر) 1945 إلى كانون الثاني (يناير) 1946 سلّم 6500 شخص بالفعل سلاحهم، بمن فيهم بضع مئات من سنغافورة. وفي السادس من كانون الثاني (يناير) أقام البريطانيون احتفالاً خارج (سيتي هول) حيث أجرت فرقة صغيرة من الجيش المذكور بملابسها الرسمية استعراضاً أمام اللورد لويس مونتباتن الذي قلد 16 من قادتهم أوسمة. وتلقى تشين بينغ، الذي وصفته الصحف بأنه قائد المغاوير الشيوعي، وسام نجمة بورما (1939 ـ 1945) ونجمة الحرب بعد أن قدم التحية. وجرى الاعتراف رسمياً بمساهمة (الجيش المالاوي المعادي لليابان ـ MPAJA) في هزيمة اليابانيين وهذا ما أعطاه امتيازاً استغله أفراده إلى أقصى الحدود لتوسيع نفوذهم.

وفي تلك الأثناء كانوا يخزنون كثيراً من الأسلحة سراً لاستخدامها في المستقبل. كان الشيوعيون قادرين على تطويع بعض الأفراد من ذوي الثقافة الإنكليزية في الجبهة الموحدة التي كانوا يشكلونها. واستطاعت مجموعة ممن يدعون بالمثقفين ـ من محامين وأساتذة وخريجي وطلاب كلية رافلز العائدين من كمبريدج ـ تشكيل ما دعي (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) الذي كان مقر قيادته في شقة متواضعة فوق قاعة الرقص في ملهى الحرية في شارع (الجسر الشمالي)، واختاروا رئيساً لهم فيليب هواليم سينيور، وهو محامي وصديق لأسرتي. كانوا يحتاجونه كغطاء للتلاعب بالمنظمة، وكنت من زائري المنظمة بحكم معرفتي به. كان هدف المنظمة يبدو وكأنه شرعيٌّ تماماً. وقد أعلن البريطانيون تشكيل (اتحاد المالايو) الذي ضمّ تسع ولايات مالاوية، ومستعمرات ستريتس في بيانغ ومالاقا، ولكنه لم يشمل سنغافورة. وهذا يعني أن سنغافورة ستظل مستعمرة بريطانية. ولم يكن هذا مقبولاً. فقد طالب (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) باستقلال كل من المالايو وسنغافورة كوحدة واحدة.

صورة عائلية في أيلول عام 1946 قبل أن أبحر إلى بريطانيا. مونيكا، دينيس، أنا، فريدي، سيوان يو واقفون وراء والديّ.

مع تشو في أيلول 1946 عند خزان ماكريتشي. كنا متحابين وفي سن الشباب.

ساهم فيليب هواليم في وضع الدستور المقترح، ومع أنني اطلعت على مسودته إلا أنني لم يكن لي شأن به. أما الشيوعيون فقد اعتبروا من جانبهم أن كل حديث عن تغيير الدستور لا علاقة لهم به. كانوا يريدون الهيمنة على السلطة بالكامل. ولم يكن «الاتحاد الديمقراطي المالاوي» إلا واجهة لحشد ذوي الثقافة الإنكليزية كي يساعدوهم على تحقيقه. ولكن عندما لجأوا إلى الكفاح المسلح ضد البريطانيين عام 1948 ليحصلوا على السلطة انهار (الاتحاد الديمقراطي المالاوي).

قبل أن يحدث ذلك كان ثمة عمل كثير. فقد شرع الشيوعيون بعد خروجهم من الأدغال مباشرة، في استعراض عضلاتهم مستخدمين النقابات. وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول (اكتوبر) 1945 حملوا سبعة آلاف من عمال أحواض السفن في تانجونغ باجار وهيئة ميناء سنغافورة على الإضراب. وبعد بضعة أيام عقدوا اجتماعاً جماهيرياً ضم 20 ألف عامل حيث أعلنوا عن تأسيس (اتحاد العمال العام). وقد ضم (الاتحاد) على الطريقة الشيوعية التقليدية عمالاً من المهن ومجموعات العمل كافة. وعندما أعلنوا عن إضراب عامٍ في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) 1946 في استعراض للقوة، بعد أن كانت الإدارة العسكرية البريطانية قد اعتقلت بعض الشيوعيين، أعلن ما يقارب 170 ألف عامل من المستشفيات وأحواض السفن، والقاعدة البحرية ومصانع المطاط، والنقل العام ودور السينما والملاهي وغيرها من المؤسسات، التوقف عن العمل. كما أغلقت جميع المحلات. واعتبر هذا ضرباً من العصيان المدني أو (هارتال) وهي كلمة تعني العصيان المدني بالهندية.

لم يكن هذا الإضراب عفوياً أو تلقائياً، بل كان مفروضاً بالقوة والخوف. فالمحلات أغلقت خشية التعرض للأذى أو النهب. وأكره معظم العاملين حتى في الأشغال الحرة على التوقف عن العمل. لقد تجمدت الحياة في المدينة. ولكن الشيوعيين كانوا يشكون في قدرتهم على الاستمرار طويلاً في الاضراب، وهذا ما دعاهم إلى التخلي عن (العصيان) في اليوم التالي.

استكملت معرفتي عن الظلم والحماقات الإنسانية من مشاهداتي لما كان يحدث في أعقاب الحرب مباشرة. فإذا كانت السنوات الثلاث ونصف من الاحتلال الياباني قد علمتني الكثير من حقائق الحياة، فإن السنة الأولى في سنغافورة المحررة كانت بمثابة دورة ما بعد التخرج. كانت مختلفة تماماً عن ذكرياتي عن ثلاثينيات الاحتلال. فالموظفون البريطانيون الذين نجوا من الموت كانوا يعادون إلى الوطن من أجل المعالجة والاستشفاء، أما الضباط المؤقتون في الإدارة العسكرية البريطانية فكانوا يشرفون على عمل الدوائر الارتجالية.

والحق أنهم تلقوا تعزيزاً من بعض أجيال ما قبل الحرب ممن كان عليهم أن يغادروا عندما جاء اليابانيون، أو هربوا في الوقت المناسب. ولكن لم يمسهم أحد مع التغييرات التي حصلت. المسؤولون الآن ـ المقدمون والعقداء والعمداء ـ أنهم سيبقون في السلطة حتى يُسرحوا من الخدمة ـ ومن عجب أن مطالبهم كانت مشابهة لمطالب الضباط اليابانيين ـ شيء ما صغير وقيّم ويمكن إخفاؤه لأخذه إلى الوطن عندما ينتهي الوضع. بالمقابل ضمنوا إجازات وإمدادات من المواد النادرة للسكان المحليين، وبالتالي تحقيق فرص لجمع المال. ولكنهم لم يكونوا متميزين وظالمين كاليابانيين.

مع خروج اليابانيين شغر كثير من المنازل، ورحت أبحث أنا وأمي عن شقة لائقة ننتقل إليها، إذ كان علينا أن نغادر (مبنى الصين) ولم يعد شارع فكتوريا مناسباً. وفي شارع أوكسلي، وهو منطقة للطبقة المتوسطة حيث أخلى الأوروبيون شققهم عام 1942، وحل محلهم مدنيون يابانيون، عثرنا على منزلين مناسبين ـ رقم 38 و40 ـ بناهما تاجر يهودي أطلق عليهما اسم كاستور بولوكس. كانا فارغين باستثناء بعض الأثاث الثقيل، وقررنا أن نعرض استئجار المنزل رقم 38 كان منزلاً كبيراً رحباً يتألف من خمس غرف نوم، وثلاث غرف أخرى في الخلف تستخدم عادة كجناح للخدم. قابلت جورج غو، وهو صديق صيني مولود في

جافا، كان مسؤولاً عن مكتب (أملاك العدو) وقد رحب بتأجيرنا المنزل بسعر ما قبل الحرب، بمبلغ يقارب 80 دولاراً أمريكياً في الشهر، وهو ميلغ كبير جداً ولكن قررنا أن نأخذ البيت.

عاد أبي إلى العمل في شركة (شل) ليكون مسؤولاً هذه المرة عن مستودعها في بازير بانجنغ في سنغافورة. في تلك الأثناء كان عليّ أن أقرر ما ينبغي عمله. كانت التجارة في السوق المفتوح ما تزال مربحة، ولكن حجم البضائع اختلف وهذا ما كان يحمل معنى المخاطرة. لم أكن أستطيع التنبؤ بالمواد التي يفتقر إليها والتي يمكن أن تتوفر فجأة إذا ما استوردتها. واخترت كبديل أن أتصل ببعض الضباط البريطانيين المسؤولين عن الأشغال العامة لأرى ما إذا كانوا يرغبون ببعض أعمال البناء. وبعد محاولتين أو ثلاث نجحت في عقد صفقة مع رائد هندي كان يشرف على مستودعات ومخازن الجيش الياباني في (شارع ألكساندر). تحدثت إلى رائد إنكليزي طويل القامة كان يحتاج إلى عمال لإخلاء البضائع اليابانية من المستودعات ونقلها إلى مستودعات الجيش البريطاني. وقمت بتزويده مع صديق لي من شانغهاي يدعى ليولونغ بما يقارب 100 و 150عاملاً مقابل دولارين في اليوم، وعمل معي أخي الأصغر دينيس كمحاسب ومسؤول عن المدفوعات. كان الجيش يُدفع لنا في نهاية النهار، ونحن بدورنا ندفع للعمال، وكان ثمة أعمال بناء أخرى منفصلة كان يٌدفع لنا مقابلها على حدة. بدأ العمل في تشرين الأول 1945واستمر حتى أيار 1946 في شهر آذار (مارس) 1946. تعرض دينيس لحادث سير، ذات مساء عندما كان مستقلاً دراجته وهو في طريقه إلى البيت ومعه أجور العمال. صدمته شاحنة وقذفته عدة ياردات على قارعة الطريق. أوشك ذراعه الأيسر أن ينخلع من كتفه، وجُرح وجهه. ذهبت لرؤيته في المشفى فكان أول ما سألني: هل ضاعت النقود؟ شعرت بالحزن والألم العميق، إنها بضع مئات من الدولارات. لكنه جاد في عمله، واسيته بقدرما استطعت. أجريت له عملية جراحية ناجحة لكنه ظل يعاني من الألم والعجز أشهراً طويلة.

وفيما كنت منهمكاً في هذه الأعمال كنت منشغلاً أيضاً بما ينبغي علي فعله كي أكمل تعليمي، وما ينبغي أن أفعل تجاه علاقتي المتنامية مع تشو. لم أكن متفائلاً تجاه الحصول على شهادتي في (كلية رافليز) إلى سنة أو سنة ونصف حتى أتخرج. أي أنني سأفقد ما مجموعه ثلاث سنوات. ناقشت الأمر مع والدتي. وارتأينا أن العائلة تستطيع أن تسدد نفقات دراستي للحقوق في بريطانيا وفي دينيس، مما وفرته من نقود، ومن مجوهرات أمي، ومما كنت أكسبه من السوق السوداء، وعقد العمل الذي أشرت إليه. وخططت للمغادرة إلى انكلترة بأسرع وقت ممكن بدلاً من العودة إلى (كلية رافيلز) كي أحاول الحصول على منحة الملكة.

فيما بين شهري تشرين الأول وتشرين الثاني من عام 1945 قدّمت (تشو) إلى مسؤول المكتبة في (مكتبة رافيلز) (المكتبة الوطنية الآن) وحصلت لها على عمل مؤقت هناك. وكانت أسرتها قد انتقلت إلى بيت في (شارع ديغو شاير) على بعد ميل من بيتنا، واعتدت أن أذهب إليها سيراً على الأقدام. ولكن في شهر تشرين الثاني من عام 1945 تمكنت من شراء سيارة مستعملة من نوع موريس مجهزة ببعض قطع الغيار التي باتت الآن متوفرة لدى الجيش البريطاني. ومع تحسن أعمالي بعتها بشيء من الربح بعد أشهر قليلة واشتريت سيارة فورد 8V صناعة ما قبل الحرب، وبحالة جيدة. لا بد أن أحد الجنرالات اليابانيين كان يستخدمها أثناء الاحتلال.

وفي عشية رأس السنة أخذت تشو إلى حفلة لشباب في (فيلا ماندالاي) في شارع عنبر، وهي قصر مطلٌ على البحر تعود ملكيته إلى أرملة ثرية جداً تدعى السيدة لي تشون غوان، وقبل أن تنتهي الحفلة أخذت تشو بالسيارة إلى حديقة تواجه البحر. وأخبرتها أنني لن أعود إلى (كلية رافيلز) بل سأذهب إلى إنكلترة لدراسة القانون. وسألتها ما إذا كانت ستنتظرني حتى أعود بعد ثلاث سنوات بعد انتسابي إلى مهنة المحاماة. سألتني تشو ما إذا كنت أعرف أنها أكبر مني بسنتين ونصف. قلت أعرف ذلك. ولقد درست هذا الموضوع بعناية.

كنت أكثر نضجاً ممن هم في سني، ومعظم أصدقائي كانوا أكبر مني سناً على أية حال. لذلك أردت زوجة في مثل نضجي، وليس واحدة لم تنضج حقاً بعد وتحتاج إلى من يعتني بشؤونها، ولم يكن ممكناً أن أجد فتاة أخرى تلائمني وتشاطرني اهتماماتي. قالت: إنها ستنتظر. لم نخبر أبوينا بأي شيء. إذ من الصعب جداً أن نجعلهم يوافقون على التزام طويل الأجل كهذا. هذه هي الطريقة التي كنا نتعامل بها عندما كنا نواجه مشكلات شخصية عسيرة، كنا نواجهها ونحلها. لم نكن نحاول أن نقفز فوقها. المحبة أزهرت. وبدأت أخطط لمغادرة سنغافورة في تلك السنة، سنة 1946.

في شهر آذار (مارس) كتبت إلى (ميدل تيمبيل). وهي واحدة من أربع جمعيات قانونية في لندن، مضمناً رسالتي نتائج شهادة مدرستي. وأجابوني في غضون شهر بأنهم سيقبلونني إذا ما حضرت شخصياً وانتسبت كطالب. وعند استلامي هذه الرسالة اتصلت برائد بريطاني كنت أعمل معه وسألته ما إذا كنت أستطيع السفر على متن إحدى السفن التي كانت بدأت تتقاطر على (تانجونغ باغار) لإعادة القوات إلى بريطانيا كي تُسرّح من الخدمة. أوصلني الرائد إلى الضابط المسؤول عن النقل والسفر، وفي شهر أيار (مايو) التقيت بأحد معاونيه. واستطعت أن أترك انطباعاً جيداً لديه إذ أن قليلاً من السكان المحليين آنذاك كانوا يتقنون الإنكليزية بدون أخطاء قواعدية أو لفظية. شرحت له كل شيء يتعلق بي وبدراستي وعملي بالتفصيل. كان متعاطفاً معي ووعد بالمساعدة. وفي شهر تموز (يوليو) عرض علي فرصة السفر، على متن سفينة لنقل الجنود، تنقلني إلى لندن في شهر تشرين الأول (اكتوبر). وخلال الشهرين اللذين سبقا مغادرتي سنغافورة، كنت أجوب الأسواق مع أمي بحثاً عن ملابس صوفية تناسب شتاء إنكلترة. وجدنا ضالتنا المنشودة في سوق فعلي في شارع سونجي. وهو سوق كان يتعامل بالمسروقات قبل الحرب. وقد دبّت به الحياة من جديد، حيث تباع فيه الآن بضائع مشتراة أو مسروقة من القوات البريطانية. كثير من هذه

البضائع حصل عليها الجنود البريطانيون لاستعمالها إبان عودتهم للحياة المدنية، وقد اشترت أمي صندوقاً خشبياً ضخماً يحتوي على معطف وألبسة رياضية وحقائب وأزياء صممها أمهر خياط في الهاي ستريت.

قبل أن أبحر حرصت والدتي على أن التزم أمامها قبل أن أغادر سنغافورة مع فتاة صينية ما. وبذا لا أعود من بريطانيا مع فتاة إنكليزية. فكان هناك الكثير من الطلبة الذين عادوا مع زوجات بريطانيات، وكانت نتيجة مثل هذه الزيجات تعيسة في أغلب الأحوال. إذ كانت تنهار الرابطة الأسروية وينفصل الزوجان، أو كانت الزوجات يعدن إلى بريطانيا لعدم استطاعتهن العيش في مستعمرة بريطانية حيث كن يعانين من الوحدة وعدم القدرة على الاختلاط، وعرفتني أمي بالمقابل على ثلاث سيدات شابات مناسبات يتمتعن بخلفية مناسبة ومركز اجتماعي جيد. لم أكن متحمساً. كونهن في سن مناسبة وينتمين إلى أسر ذات وضع مريح فضلاً عن أنهن كن مناسبات من حيث الشكل. ولكنهن لم يثرن اهتمامي. كنت سعيداً تماماً لأنني اتفقت مع تشو، وأخيراً قررت أن أعترف لوالدتي بالموضوع. كانت امرأة عاقلة. فعندما تأكد لها أنني جاد في علاقتي مع تشو. توقفت عن البحث عن أخريات. وتبدل موقفها من تشو إلى موقف صداقة حميمة بوصفها حماة المستقبل.

كنت أخبرتها عن تشو، الفتاة التي تفوقت علي باللغة الإنكليزية وامتحانات مادة الاقتصاد في (كلية رافيلز) وكانت قد تعرفت على تشو، عندما كنت أشتغل بالصمغ، وزارت أسرتها. كان والد تشو، واسمه كواسيوتي، يعمل في مصرف شركة صينية مصرفية عبر البحار، وهو مثل والدي وجدتي لأبي صيني من مواليد جافا أما والدتها فكانت صينية من مواليد سنغافورة مثل أمي. لدينا أصل متشابه ونتكلم اللغة ذاتها في البيت وننتمي إلى المستوى الاجتماعي ذاته.

درست تشو في المدرسة (النظامية للبنات)، ونجحت في امتحانات كامبريدج العليا، وكانت في السادسة عشر من عمرها فقط، عندما انتقلت إلى الصف الخاص في (معهد رافيلز) للطلاب المتنافسين على الحصول على (منحة الملكة) ولكنها لم تحصل عليها. وأخبرتني فيما بعد أنها تنتظر فارس أحلامها. وقد جئتها ليس على ظهر حصان أبيض ولكن على متن دراجة ذات عجلتين! وفي عام 1940 التحقت بـ (كلية رافليز)، والتقينا هناك على موائد العشاء وفي النزهات، ولكنني في ذلك الوقت أبقيت مسافة بيني وبينها، لأنني كنت في سنتي الأولى وكان علي أن أتكيف مع أوقات عصيبة. والأكثر من ذلك أنني لم أكن متلهفاً على إقامة أية علاقة مع أية فتاة لأنني لم أكن مستعداً لأي التزام. واللقاءات الاجتماعية القليلة أو في قاعات المحاضرات كانت دورية ولكنها عرضية. وخلال الفترة بين 1943 ـ 1944 ازداد قرباً أحدنا من الآخر وبدأت أنظر إليها نظرة مختلفة. كانت تشو تجمع ما بين العمل في المنزل، وتعلم لغة الماندرين، وقراءة أية كتب تقع تحت يديها ومستعدة لصنع الصمغ معي.

كانت من أسرة كبيرة العدد تتألف من ثمانية أولاد، ونعمت بطفولة سعيدة في أحضان أسرة محافظة. كان والداها ميسوري الحال إلى حد ما، وكان لدى الأسرة سيارة تقلها دائماً إلى المدرسة، إلى (كلية رافليز) أو إلى حيثما رغبت أن تذهب. وكان لدى الأسرة شعور برفعة المقام، ففي إحدى المناسبات، بعد أن انتقلوا إلى شارع ديفون شاير، جاءت تشو من المكتبة إلى منزلها وهي تركب على مؤخرة دراجتي، الأمر الذي أفزع والدتها. وقد وُبّخت توبيخاً شديداً على ذلك التصرف الذي لا يليق، ما ظن الناس بها!؟ من سيتزوج فتاة كهذه؟ وسرعان ما عادت أسرتها إلى باسير بانجنغ، حيث كانوا يعيشون سابقاً. ومن حسن الحظ أنني كنت أمتلك سيارة آنذاك.

في الأشهر القلقة التي سبقت أيلول (سبتمبر) 1946 أمضينا كثيراً من الوقت معاً. وقبل أن أغادر كان ابن عمي هارولد ليم الذي كان يقطن معنا في، 38 شارع أوكسلي، يلتقط لنا مجموعة من الصور في غضون يومين. كنا شابين عاشقين،

ونتطلع بشوق إلى تسجيل هذه اللحظة من حياتنا، حتى يكون لدينا ما يذكّر أحدنا بالآخر طوال السنوات الثلاث التي سأمضيها في إنكلترة. لم نكن نعرف متى سنلتقي ثانية بعد أن أغادر. تمنينا أن تعود إلى (كلية رافليز) وأن تحصل على منحة الملكة لدراسة القانون وتلتحق بي حيثما أكون. كانت ملتزمة معي تماماً. كنت أشعر بهذا. وقد عزمت من جانبي أن أبقى ملتزماً تجاهها.

عندما غادرت سنغافورة في عيد ميلادي الثالث والعشرين، في السادس عشر من أيلول (سبتمبر) 1946، على متن السفينة (بريتانيك) لوحت لها بيدي من على ظهر السفينة، كانت دموعها تسيل، وكذلك كنت أنا. جميع أفراد أسرتي وبعض أصدقائي، ومن بينهم هو سوي سين، كانوا على رصيف البناء كي يتمنوا لي الحظ السعيد، يلوحون لي بأيديهم مودعين.

5. أيامي في كيمبريدج

كانت سفينة (بريتانيك) التابعة لشركة (كانارد لاينر) تزن 65 ألف طن وتبحر عبر المحيط الأطلسي من ليفر بول إلى نيويورك قبل الحرب. ولم تكن تضارعها سفينة من السفن التي تبحر ما بين ساوثامبتون وسنغافورة من حيث الحجم والسرعة. كانت محملة بالجنود العائدين إلى الوطن للتسريح من الخدمة العسكرية.

وكان على متنها أربعون آسيوياً، معظمهم من الصينيين، ينامون في القمْرة ضعف الوقت الذي ينامه الركاب الذين دفعوا أجراً وقد أسعدني أن أكون واحداً منهم، لم تكن كتبي معي استعداداً للدراسة. لذا أمضيت الوقت في لعب البوكر مع بعض الطلاب من هونغ كونغ. فوجئت على متن الباخرة ببعض الرجال والنساء يمارسون القبل وذات ليلة أخبرني طالب من هونغ كونغ، وعيناه تكادان تخرجان من مآقيهما، أن بعض الرجال والنسوة يمارسون الحب بدون حياء على سطح السفينة. دهشت وأردت أن أرى بنفسي. يا له من مشهد! كان سطح السفينة يعج بالنشاط حيث يتبادل الشبان والفتيات العناق العاطفي. وكانوا يغطون أنفسهم بأغطية قوارب النجاة لتحاشي الأنظار. وكانت المفاجأة الثانية لي عندما عبرت السفينة قناة السويس. كانت تمشي ببطء بحيث لم تكن تصل المياه إلى رمال حافتي القناة. وفيما كنّا هناك كان ثمة بعض العمال العرب الذين يرتدون الجلابية ويلوحون من بعيد بطريقة تدل على كراهيتهم للإنكليز. لم أعرف السبب. فهذه هي المرة الأولى التي أغادر فيها سنغافورة عبر البحار. كنت أكتشف عالماً جديداً من الحب والكراهية، من التحامل والانحراف لدى شعوب مختلفة.

لم يكن أحد في بريطانيا يعلم بقدومي، لذا لم يكن ثمة ترتيبات لاستقبالي عندما وصلت السفينة إلى ليفربول في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر، بعد سبعة عشر يوماً من مغادرتها لسنغافورة. ولما كنت أعلم أن طلاب هونغ كونغ

الذين ترعاهم حكومتهم يُستقبلون من قبل رسميين من (المكتب الكولونيالي) في لندن، فقد عزمت على الانضمام إليهم. وصل قطارنا إلى لندن في ساعة متأخرة ليلاً، وقد لحقت بهم سيارة عامة إلى بيت الضيافة عصبة فكتوريا في منطقة (ايرلزكورت) حيث أعطوني سريراً ذا طابقين في قبو بدون نوافذ. وجدت نفسي مع 20 طالباً من إفريقية ومنطقة الكاريبي. وكانت صدمة أخرى فأنا لم أر أفارقة من قبل إلا في الصور. ولم أكن مستعداً لتقبل روائح أجسادهم الغريبة، إنهم يختلفون عرقياً تماماً عمن أعرفهم في سنغافورة. لم أنم جيداً في تلك الليلة.

كان علي أن أبحث عن مكان آخر للعيش، وبعد 12 يوماً من الإقامة المؤقتة في YMCA، وجدت لنفسي غرفة في 8 شارع فيتزجونز. كان شارعاً جميلاً وهادئاً ومزروعاً على جانبيه بالأشجار، يقع على مسافة قصيرة من محطة (الكوخ السويسري) وموقف الباص رقم 13 الذي ينقلني مباشرة إلى ستراند، بالقرب من (مدرسة لندن للاقتصاد) LES

كان علي أيضاً أن أجد مكاناً في المدرسة المذكورة، وهو أمر ليس بالهين. فالفصل الدراسي كان قد بدأ منذ أسبوعين، والجامعات مليئة بالموظفين والطلاب العائدين. ولكنني استطعت مقابلة عميد كلية الحقوق البروفيسور هيوز باري، وشرحت له كيف أضعت ثلاث سنوات ونصف. وعرضت عليه نتائجي الجيدة في (كيمبريدج العليا) كأحسن طالب في سنغافورة والملايو كي أقنعه بأنني لن أجد صعوبة في اللحاق بزملائي رغم تأخري بالالتحاق في الفصل الدراسي. كان العميد متعاطفاً ومن ثم قبلني.

كانت حياة غريبة «فمدرسة الاقتصاد» تشبه فندقاً مشغولاً بالكامل، وهي تختلف كثيراً عن (كلية رافليز) في سنغافورة، حيث الغرف والقاعات الواسعة. وحيث الطلاب يحضرون دروسهم في مجموعات يتألف كل منها من طالبين أو ثلاثة أو أربعة طلاب على أبعد تقدير. كانت مدرسة الاقتصاد إذ ينبغي أن أندفع

عبر ستراند إلى (كلية كينغ) لحضور محاضرة أخرى، ثم أستقل الحافلة إلى ايستون لحضور محاضرة ثالثة في (يونيفيرستي كوليج) في لندن - وهي أفضل الكليات لأنها بعيدة عن ضجيج لندن. لقد كانت أجواؤها تشعرني بأنها كلية.

جرى حادث مثير في وقت مبكر من السنة الدراسية في قاعة الدخول إلى «المدرسة». فلمدة أسبوع وقف طلاب يمثلون أندية مختلفة في أكشاك صغيرة يحملون منشورات ويطوعون أعضاء جدداً. كان الشيوعيون من أنشط الطلاب القادمين من المستعمرات. كانوا يتخفّون تحت شعار «نادي اشتراكي»، ولكنني سرعان ما اكتشفت هويتهم الماركسية ومحاولتهم خداع الطالبات لجلب الأفارقة والكاريبيين والآسيويين القلائل. انزعجت منهم كثيراً.

كنت أعاني من صدمة حضارية، فالمناخ والملابس والطعام والناس والعادات والأخلاق والشوارع والجغرافيا، وترتيبات السفر. كل شيء، مختلف. لم أكن مستعداً البتة باستثناء: أنني أعرف اللغة الإنكليزية، و على معرفة سطحية بالأدب الإنكليزي، ولدي خبرة سابقة بالتعامل مع استعماريين بريطانيين.

كنت أدفع من أجل المنامة ستة جنيهات في الأسبوع، وهو مبلغ كبير بالنسبة لشخص لا يعمل ولا يكسب نقوداً. ومن حسن الحظ أن نفقة المنامة كانت تتضمن الإفطار. وكان يوجد في الغرفة مدفأة على الغاز وفرن غاز، وكنت أدفع بعض شلنات لاستعماله في الطبخ. كنت قانطاً بالنسبة للطعام. فقد كان يوزع علينا بالحصص (جراية)، أما المطاعم حيث أستطيع أن آكل بدون بطاقة فهي باهظة الثمن. لم أكن أعرف كيف أستخدم البطاقات التي توزع علينا للطعام، وهي لم تكن كافية. ولم يكن لدي ثلاجة. عانيت الكثير في تحضير طعامي، وكان الطعام سيئاً في الكليات الثلاث التي كنت أذهب إليها. وفي الليل كنت أشعر بالبرد والوحدة. وعندما كنت أعود إلى (الكوخ السويسري) كل مساء كنت أشعر بالسعادة لأنني لن أعود إلى (الغيتو) الطلابي. ولكنني كنت وحيداً دوماً. ففي البيت نفسه كان كل واحد يذهب إلى غرفة ويغلق الباب على نفسه، إذ لا توجد

غرفة طعام أو جلوس مشتركة، وفي الصباح يأتيهم الإفطار إلى غرفهم أو يحضرونه بأنفسهم. وعندما كنت أواجه صعوبات في تدبير أمور معيشتي كنت أتحدث مع فتيات بريطانيات، يعملن سكرتيرات ويشتركن في غرفة السقيفة، وكنّ يقدمن لي النصائح والإرشادات العملية والمفيدة. فالأمر يختلف هنا عن سنغافورة حيث كان يقدم لي كل شيء. أما هنا فعلي الاعتماد على نفسي في كل الأمور، وبالإضافة إلى مشقة الانتقال من مكان إلى آخر مما كان يضعف من طاقتي من أجل الدراسة والتفكير.

ذات يوم وبعد محاضرة بالقانون الدستوري، اقتربت من المحاضر غلانفيل وليافر. عرفنا أنه متخرج من كلية سانت جونز جامعة كيمبريدج، حيث نال شهادة الدكتوراه. سألته عن كيمبريدج والحياة فيها. قال: إنها مدينة صغيرة تقع الجامعة في وسطها، وهي تختلف كثيراً عن لندن، والحياة فيها أكثر متعة. والطلاب والأساتذة يتنقلون فيها على الدراجات. فشجعني ما قاله، وعزمت على زيارتها.

ذهبت في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1946 وقابلت طالباً من (كلية رافليز) يدعى سيسيل وونغ، كان قد التحق بـ (فيتز وليام هاوس)، وهي مؤسسة تعليمية لا تعتبر كلية، مخصصة للطلاب الفقراء حيث رسومها منخفضة للغاية. أخذني سيسيل للتعرف على المراقب و. س. ثاتشر، وهو منصب يعادل عميد الكلية. كان رجلاً غير عادي، فقد حصل على وسام الصليب العسكري في الحرب العالمية الأولى لخدمته في فلاندرز، حيث أصيب بجرح خطير. كان وجهه مشوهاً ويتلعثم في كلامه بسبب إصابته في حنكه. كان مسيحياً شديد الإيمان ويتعاطف كثيراً مع المظلومين. وكان يحظى بمحبة الطلاب والأساتذة على حد سواء. شرحت له متاعبي. فتعاطف معي وعرض علي أن يأخذني في تلك السنة التعليمية ذاتها عندما يبدأ فصل (لينت) في بداية كانون الثاني (يناير) 1947، وعرض أن أشترك مع صديقي سيسيل في الغرفة نفسها. وافق سيسيل على

الفور. كنت سعيداً للغاية وشديد الامتنان. عدت إلى لندن وأنهيت أشغالي وحزمت حقائبي. وفي بداية كانون الثاني أخذت القطار من محطة (كينغ كروس) ووصلت إلى كيمبريدج بعد قرابة ساعتين، ثم ركبت سيارة أجرة متوجهاً إلى غرفة سيسيل في 36 شارع بلفور.

بعد أسبوعين كتبت رسالة إلى البروفيسور هيوز باري أعلمه فيها أنني قررت ترك (مدرسة لندن لعلم الاقتصاد LES) والالتحاق بكمبريدج بدلاً منها. ثم استلمت منه رسالة غاضبة جاء فيها: «أود أن أذكرك أنني فعلت كل ما بوسعي لإقناع المسؤولين في هذه المدرسة لقبولك، في وقت لم نكن نقبل فيه أحداً. تصرفك يدل على أنني كنت مخطئاً في تقديري لك وأنه ما كان ينبغي أن أساعدك». عندما وصلتني هذه الرسالة قررت أن أقابله شخصياً. فجئت إلى مكتبه وشرحت له كم كانت الحياة صعبة بالنسبة لي في الفصل الأول، وأنني جئت من مدينة صغيرة ووجدتني كالضائع في مدينة كبيرة يُعد سكانها بالملايين، ولا أعرف فيها أحداً. والأكثر من ذلك أنني لا أستطيع أن أطعم نفسي.

أصغى إلي جيداً، لا بد أنه شعر بصدق ما أقول لأنه سألني لماذا لم أخبره بمتاعبي؟. كان بوسعه أن يؤمن لي إقامة في مكان يوفر لي كل ما أحتاج إليه. عندما أتذكر تلك السنوات الآن أشعر بالسعادة لأنني لم أسكن في لندن، إذ لو سكنت فيها لكانت حياتي بائسة، ولكنني كنت أشعر دوماً بالأسى لأنني خذلته بعد أن صنع معي معروفاً. وعندما أصبح نائب رئيس جامعة لندن في أواخر السبعينيات، وكنت أنا رئيساً لوزراء سنغافورة، فكرت أن أكتب إليه، ولكنني وجدت من الأفضل أن أتجاهل الموضوع. ربما كان من الأفضل أن أكتب لأقول له: إنني لم أنس معروفه.

لندن تعوض للإنسان وتعطي دروساً لمن سيصبح محامياً في المستقبل. أحد الناس الذين كان لهم تأثير عليّ في الفصل الأول في (مدرسة لندن لعلم الاقتصاد) هو هارولد لاسكي، أستاذ العلوم السياسية. فمثل كثير من الطلاب

الذين لم يكن اختصاصهم العلوم السياسية كنت أحضر بعض محاضراته. كان متحدثاً ساحراً، لا يعطي شكله انطباعاً حسناً، ولكنه كان يتمتع بذهن وقّاد. وكان لنظرياته الاشتراكية الماركسية تأثير عميق في كثير من الطلاب القادمين من المستعمرات، ممن سيستلم بعضهم السلطة في بلادهم ويديرون شؤون اقتصادياتها المتخلفة وفقاً لسياسات قائمة على ما تعلموه من لاسكي. وكان من حسن حظي أنني تابعت بعض هذه الاقتصادات المخففة مما جعلني أستخلص العبر المفيدة قبل أن أستلم أي منصب في بلادي.

المحاضرتان أو الثلاث محاضرات التي حضرتها للاسكي كانت بداية اطلاعي على النظرية العامة للاشتراكية، والتي انجذبت إليها على الفور. لقد تأثرت بها لأنها تحقق العدل، فكل فرد في هذا العالم ينبغي أن يُمنح فرصة متكافئة في الحياة، ولأنه في المجتمع العادل لا يكون هناك فروق كبيرة في الثروة بين الناس، بسبب المركز أو المنزلة. لم أكن أميز بين مختلف الأعراق والشعوب. كنا جزءاً من الإمبراطورية البريطانية، وكنت أعتقد أن الإنكليز يعيشون حياة مرفهة على حساب الدول التابعة لهم. لذا كانت الأفكار التي يمثلها لاسكي في ذلك الوقت جذابة بالنسبة للقادمين من المستعمرات. كنا جميعاً نريد الاستقلال بحيث نستطيع أن نحافظ على ثرواتنا لأنفسنا.

وفكرت بعد ذلك بأن الثروة تعتمد بالدرجة الأولى على امتلاك الأراضي والموارد الطبيعية، سواء كانت أراضي غنية وفيرة الأمطار من أجل الزراعة، أم غابات، أم معادن ثمينة، أم نفط أم غاز. ولم أعرف إلا بعد أن استلمت السلطة بسنوات في بلادي أن حسن الأداء يتفاوت بدرجة كبيرة ما بين مختلف الأعراق في سنغافورة، وبين مختلف الفئات في العرق الواحد. وبعد أن جربت عدداً من السبل لتقليص عدم المساواة فشلت، وبدأت أستخلص بالتدريج أن العوامل الحاسمة هي الناس وقدراتهم الطبيعية، وثقافتهم وخبراتهم العملية. أما المعرفة وامتلاك التكنولوجيا كانا عاملين حيويين لخلق الثروة.

كانت اشتراكية لاسكي غنية بالتحليل الماركسي. أتفق مع الماركسيين أن الإنسان يستغل أبناء جلدته من خلال امتلاك رأس المال أو سلطة أكبر. ولما كان إنتاج الإنسان أكثر من حاجة استهلاكه كي يبقى حياً، فإن الفائض يستفيد منه صاحب العمل أو مالك الأرض. واختلافي مع الشيوعيين ناجم عن أساليبهم اللينينية وليس عن الأفكار الماركسية المثالية. لقد رأيت كم كان الحزب الشيوعي في سنغافورة شديد القسوة بعد أن استسلم اليابانيون، فراح أعضاؤه ينتقمون من كل من كانوا يشكّون في أمره أو ممن عمل مع العدو أو لأية تهمة أخرى دون التثبت من الحقيقة. كانت مواقفهم تتصف بالعنف والعدوانية. وفي (مدرسة لندن لعلم الاقتصاد) لاحظت لدى الشيوعيين الخصال السيئة ذاتها، إنهم لا يتورعون عن أية وسيلة دنيئة لتحقيق أغراضهم أو لتزوير الحقائق، بما في ذلك استخدام السيدات الجذابات اللاتي كن على استعداد لمصادقة طلاب المستعمرات الذين يشعرون بالوحدة. وكانوا يخدعون من يجهل حقيقة أمرهم وذلك بتسمية أنفسهم (النادي الاشتراكي).

قرأت في الصحف البريطانية أيضاً كيف استخدم الروس جيوشهم المحتلة لخلق أنظمة حكم شيوعية في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا. وقرأت الكثير الكثير عن مظالم الروس الشيوعيين في أوروبا الشرقية، وعن مظالم الحكومات التي أوجدوها. وكان لها تأثير سيء في نفسي، وتركت لدي انطباعاً عميقاً زاد من كراهيتي للشيوعية.

ولكن فكرة مجتمع المساواة والعدل والخير كانت تروق لكثير من طلاب المستعمرات، كما كانت تروق لهم أفكار الفابيين البريطانيين الذين كانوا ينادون ببناء هذه الدولة المثالية خطوة خطوة بحيث لا يكون ثمة حاجة إلى ضرب أعناق الأغنياء ومصادرة ثرواتهم. فعلى مراحل، وبدون إثارة الاضطراب في اقتصاد البلاد أو خلق ثورة اجتماعية، فإن الأغنياء سوف يحرمون من ثرواتهم عن طريق الضرائب في حياتهم، ومن خلال القيود العقارية الثقيلة بعد وفاتهم. وعلى

أولادهم أن ينشأوا وينطلقوا في هذا العالم كشأن أولاد الفقراء. ولا أرى ضيماً في هذا. كنت صغيراً كي أدرك أن المحامين البريطانيين كانوا من الدهاء بحيث لا تستطيع الحكومة أن تحصل على كثير من الضرائب العقارية.

كنت منجذباً بشدة إلى المقاربة الفابية بحث بقيت لسنوات بعد عودتي من بريطانيا أشترك في مجلات الفابيين ونشراتهم. ولكن منذ بداية السبعينيات بدأت أشعر أن أفكارهم غير منطقية ولا تتفق مع الواقع، إحدى هذه المسائل ماتزال لاصقة في ذهني. كانت عن التربية. إذ كتب أستاذان كبيران مقالة خطيرة تفيد أن مدارس بريطانيا الشاملة فاشلة لا لأنها سيئة، بل لأن أفضل الأساتذة ما زالوا يدرسون أفضل الطلاب. وأفضل الأساتذة ينبغي أن يدرسوا أضعف الطلاب الذين يحتاجونهم من أجل أن يكونوا متساوين. فالطلاب الجيدون يستطيعون تدبير أمورهم على كل حال. هذه المقاربة المفروضة لم أتقبلها. أوقفت اشتراكي. وهذا ما جعلني أبتعد عنهم وعن قراءة منشوراتهم.

كانت كيمبريدج مريحة جداً لي بعد لندن. وفي السنوات التي تلت الحرب مباشرة كانت مدينة ريفية هادئة. فحركة المرور فيها هادئة ـ كثير من الدراجات الهوائية، وقليل من السيارات الخاصة والباصات والشاحنات. معظم الأساتذة والمدرسين والمحاضرين وزملائي في الكلية كانوا يركبون الدراجات. اشتريت دراجة مستعملة لنفسي بثمانية جنيهات. كنت استخدمها في كل مكان، حتى تحت المطر. كانت الدراجة أمراً أساسياً وكانت تسلم من طالب لآخر خلال العشرين سنة الماضية أو أكثر. سرعان ما تعودت على روتين حياتي الجديد. ولم يعد لدي مشاكل كثيرة مع وجبات الطعام. كان الطعام جيداً ومتوفراً، وفيه ما يكفي من الكربوهيدرات والبروتينات رغم أنه بريطاني جداً ولا أستسيغه وهو يفتقر إلى التوابل، ولكن رغم وجباتي الملائمة وحرصي على ركوب الدراجة في الهواء الطلق اكتشفت عندما عدت إلى سنغافورة وأجريت فحصاً لصدري بأشعة اكس (بأنني مصاب ببداية عدوى السل وحمدت الله على أنني كنت في كمبريدج، وليس في غيرها وإلا لكانت الإصابة أشد).

قررت من أجل التمرين أن أنتسب إلى «نادي القوارب». كان عليّ أن أتمرن أولاً على عدة أمور ذات علاقة بالجذيف. وبعد تمرينين في الأسبوع ولمدة ثلاثة أسابيع، انتقلت إلى التمرين على القارب. وبعد ظهر جولتي الثانية هبت عاصفة ثلجية واعتبرت أن التمرين قد ألغي. أصبت بخيبة أمل، واعتبرت البريطانيين مجانين، وتركت نادي القوارب. بعد ذلك كان الدوران بالدراجة حول كيمبريدج كي أتلقى المحاضرات، ومن ثم كنت أتوجه إلى «فيتز وليام هاوس» لتناول وجبة الطعام، وهذا ما حسن أدائي.

كان طلاب الصف في قسم تأهيل طلاب الحقوق صغيراً لا يتجاوز 30 طالباً بالمقارنة مع عدد هذا القسم البالغ 200 طالب في لندن. كان معظم الطلاب الذين التحقوا بالكلية من المستخدمين السابقين، الذين مُنحوا إعفاء خاصاً كي يحصلوا على درجة في سنتين بدلاً من ثلاثة، وبالتالي يذهبون مباشرة إلى السنة الثانية. وخلافاً لهم كان عليّ أن أتأهل في السنة الأولى ثم أتابع ثلاث سنوات. الطلاب الذين كانوا يدرسون معي كانوا شباباً تتراوح أعمارهم بين 18 و19 سنة جاؤوا مباشرة من المدارس. كنت في الثانية والعشرين من عمري. كان هناك بعض الرجال من ماليزيا، ومن بينهم يونغ بونغ هاو، في العشرينيات من العمر، ومن كوالا لامبور. (الذي أصبح مسؤول العدالة في سنغافورة عام 1990) ولما فاتني الفصل الأول، فقد أعارني بونغ هاو مذكراته. كانت واضحة ومستوعبة جيداً ومُلخصة لِما فاتني. كانت مفيدة جداً لي لأن منهج كيمبريدج مختلف عن منهج السنة الأولى في جامعة لندن. وخلال عطلة عيد الفصح استعدت ما فاتني وانتظمت في عملي. وفي أيار عندما أجريت امتحانات التأهيل الأولى كنت مستعداً على نحو جيد. وبعد ثلاثة أسابيع، في شهر حزيران، عندما أعلنت نتائج الامتحان كان اسمي بين قلة في الصف الأول. هاتفت إلى أهلي لأخبرهم بالأنباء الجيدة.

صورة محببة إلى تشو في شتاء بريطانيا القارص، في كانون الثاني 1947

كنت سعيداً ولم أنزعج من الرقيب. قابلني بيلي ثاتشر، كما كان يعرف من قبل طلابه، خارج فيتز وليام فيما كنت أصفّ دراجتي كي أذهب إلى غرفة الطعام. توقف ليهنئني. شعرت أنه كان مسروراً. كان قد أخبرني عندما رأيته في كانون الأول عام 1946، عندما تلتحق بكيمبريدج فأنت تلتحق بجامعة ذات خصوصية. عليك أن تتمتع بهذه المزية. وعندما أجبت أنني سأحاول الحصول على «الدرجة الأولى» نظر إلي بوقار وقال: «لي لا تصب بخيبة الأمل إذا لم تحصل على ذلك. ففي أوكسفورد وفي كيمبريدج أنت تحتاج إلى تلك اللمعة السامية، تحتاج إلى شيء غير عادي قبل أن تصبح الأول». كنت مرتاحاً لأن الممتحنين في كيمبريدج وجدوا أن لدي شيئاً ما غير عادي.

وبروح معنوية عالية اشتريت لنفسي دراجة نارية مستعملة، من مخلفات الجيش، قد لا يسرّ مظهرها كثيراً ولكن محركها جيد. كلفتني ما يقارب الستين جنيهاً. لقد أصبحت فجأة من راكبي الآليات المتحركة. رحت أتجول في جميع أنحاء كيمبريدج وأشاهد أماكن من الممكن مشاهدتها عن طريق الباص أو القطار. بل أستطيع أن أتوقف وأشتري الكرز أو التوت حيث وضع المزارعون لافتات يدعون فيها الناس إلى الاقتراب والتقاطها أو شرائها.

في نهاية شهر حزيران (يونيو) كتبت لي تشو تقول: إنها حصلت على شهادة وكانت الأولى في الترتيب. ولديها الآن فرصة طيبة للفوز بالمنحة الملكية للدراسة في إنكلترة. كنت متفائلاً. وفي نهاية شهر تموز (يوليو) تقريباً جاءت أحلى الأنباء، برقية من تشو تفيد أنها حصلت على منحة الملكة. ولكن (مكتب المستعمرة) قد لا يجد لها مكاناً في أية جامعة في السنة الدراسية التي تبدأ في تشرين الأول (أكتوبر) 1947. لذا عليها أن تنتظر حتى عام 1948. كنت متحفزاً للقيام بعمل ما، ولكنني كنت محتاراً لا أعرف كيف آتي بها إلى كمبريدج. قابلت السيد باريت، المسؤول الأول في (فيتزوليام) كان رجلاً كفوءاً متمرساً في أواخر الأربعينيات من العمر. عرف مئات الطلاب الشبان من خلال عمله يأتون

ويذهبون. كان يعرف أن المراقب يحبني. حكيت له موضوع تشو وحصولها على أعلى منحة للدراسة في بريطانيا، وأنها تريد أن تدرس القانون. كيف تستطيع ذلك في هذا الوقت؟

قال لي وقد برقت عيناه: (أنت تعرف أن المراقب يعرف الآنسة تبلر، رئيسة (جيرتون) جيداً. إذا استطعت أن تجعله يتحدث إليها فالأمر عندئذ سيختلف). وشعرت بأن هناك بارقة أمل.

بقي شهران حتى تبدأ السنة الدراسية الجديدة. طلبت مقابلة المراقب. لم يستقبلني فحسب، بل كان راغباً في المساعدة. وفي الأول من آب (أغسطس) كتب إلى الآنسة تبلر، كما كتب إلى المسؤول نيونهام، مسؤول كلية البنات الأخرى في كمبريدج. كلاهما جاوب على الفور. قدم نيونهام مقعداً في عام 1948. أما السيدة بتلر كانت أكثر إيجابية فقد عرضت شاغراً في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1947 كانت جيرتون قد استبقته لحالات خاصة، وقدمته إلى تشو لأنها تتمتع بمؤهلات القبول. كتب إلي ثاتشر مُرسلاً إلي الطلبين واندفعت إلى (دائرة الامتحانات) قرب شارع سيلفر الممتد على طول نهر كام. أعلمتهم بالسنة التي حازت فيها تشو بشهادة كيمبريدج العليا ـ عام 1936. دققوا في نتائجها وأعطوني نسخة مصدقة. كانت الأولى في سنتها. طلبت بعد ذلك أن أقابل الآنسة بتلر في غريتون. كانت راغبة في رؤيتي. وقد وصلت في الوقت المناسب من صباح 6 آب (أغسطس). أخبرتها عن الآنسة وتفوقها في دراستها في (كلية رافليز)، وكيف كانت تتفوق علي في كثير من المواد. كما أخبرتها أنني متفوق في دراستي هنا، وهي لن تكون أقل مني جدية وكفاءة. كانت السيدة بتلر ودية في مقابلتها معي ويبدو أنها أُعجبت بالطريقة التي أثني بها على صديقتي. وفي اليوم نفسه أبرقت إلى تشو: (وافقت غريتون. المراسلات الرسمية ستأتي فيما بعد. إنك أهل للثناء والإطراء). غادرت سنغافورة على متن سفينة للجنود في أواخر شهر آب (أغسطس). كنت أنتظرها بفارغ الصبر على رصيف الميناء

عندما وصلت أخيراً إلى ليفربول في بداية شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وكنت مفعماً بالسعادة لرؤيتها بعد سنة طويلة من الفراق. توجهنا على الفور إلى لندن بالقطار وبعد قضاء خمسة أيام هناك انتقلنا إلى كيمبريدج.

الآن باتت أموري منتظمة وأعرف طريقي. ولكن كانت هناك مشكلات جديدة. فقد أعطاني السيد باوندز، أمين الصندوق في (فيتزوليام) غرفاً تبعد ثلاثة أميال عن جنوب كيمبريدج. كنت مذعوراً فقد كانت (غريتون) شمال المدينة. حاولت جهدي أن أحصل على غرفة أقرب لتشو ولكن على غير طائل كان السيد باوندز صارماً. فلجأت إلى المراقب فكان رده أبوياً وينطوي على شيء من الدعابة:

عزيزي لي:

« ...أخبرتني أن أمامك طريقاً طويلاً لترى خطيبتك أو زوجتك في المستقبل كما تتمنى أن تكون، لن يكون هذا بعيداً، لا سيما وأن الحب يمدك بقوة حافزة. لا أعرف ما إذا كنت قد قرأت الأساطير العظيمة، ولكنك قد تتذكر ذلك النبيل الذي كان يسبح كل ليلة في البوسفور ليشاهد معشوقته. الذهاب إلى غريتون يعتبر أمراً يسيراً بالمقارنة مع هذا. من دواعي الأسف أن ذلك النبيل غرق في إحدى الليالي وهو يحاول ذلك. ولكنني لا أحسب أنك ستموت من الإعياء على الطريق. وإذا استطعت أن تجد مكاناً قرب غريتون فسنقوم بكل جهدنا لمساعدتك، إذا كنت تريد أن تأتي وتفتش فافعل ذلك.

«بالمناسبة، أنا لست متأكداً أن غريتون سترحب بزواجك من السيدة الشابة بسرعة بالغة، إذ من الطبيعي أن يفترضوا أنه عند بارقة الحب الأولى لا بد من فعل الكثير. ولكنني طاعن في السن وقد لا أستطيع أن أقدم نصيحة تتعلق برجل وما يراه بعينه.

المخلص د.ثاتشر»

وبعد أسبوع وجدت غرفة قرب فيتز وليام (عند اسطبلات كابتن هاريس). كنت الطالب الوحيد المستأجر عنده. كان يتقاضى مني سعراً باهظاً، ما يقارب 9 جنيهات في الأسبوع للمنامة والإفطار فقط، مع استخدام الحمام والأشياء الأخرى مجاناً. لم يكن أمامي خيار. كانت غرفة مريحة. كان علي أن أبقى فيها طوال السنتين القادمتين إلى أن أغادر كيمبريدج في صيف 1949.

الآن جاء دور تشو في مواجهة الصدمة الثقافية، لم تكن معتادة على السترة الصوفية الثقيلة التي جلبتها معها، والمعطف الثقيل والجزمة الشتوية الطويلة. كانت ثقيلة بالنسبة إليها. (وغريتون) تبعد مسافة ميلين عن المدينة. لم تكن تستطيع ركوب الدراجة، وكان عليها أن تركب الباص. ولم تكن معرفتها بالاتجاهات جيدة. لقد جاء دورها كي تواجه المتاهات.

بعد بضعة أسابيع من الترتيبات المتعبة قالت لي: إنها وجدتني قد تغيرت. لم أعد ذلك الرفيق المرح المتفائل والذي يستطيع القيام بأي شيء، والمستمتع بمباهج الحياة. على الرغم مما قُدم لي من معروف ولاسيما لطف المعاملة من بيلي ثاتشر، ومزاجي الرائق أثناء صيف 1947 المجيد، بدوت معادياً بشدة للإنكليز ولاسيما لحكمهم الاستعماري للملايو وسنغافورة، الذي قررت أن أضع له نهاية. سنة واحدة في لندن وكيمبريدج قد بلورت متغيرات في داخلي بدأت مع الاحتلال الياباني لسنغافورة عام 1942. أنا أرى الآن البريطانيين في عقر دارهم وأتساءل عن قدرتهم على حكم هذه المناطق لمصلحة سكانها المحليين. أولئك القابعون هنا غير مهتمين بتقدم مستعمراتهم؛ بل يهتمون بالمراكز العالية التي يحصلون عليها والرواتب العالية التي يتقاضونها. وعلى المستوى الوطني كانوا يهتمون بالدرجة الأولى بالحصول على العملة الصعبة لقاء صادرات الملايو من المطاط والقصدير وما يتقاضونه من دولارات تعزز جنيههم الإسترليني الضعيف.

بعد بوح تشو المفاجئ بدأت أتفقد ذاتي لأرى ما حدث. لعل الأمر بدأ بالتحامل العرقي لدى الطبقة العاملة البريطانية، لدى المشرفين على الحافلات، لدى البائعات والنادلات في المحلات والمطاعم، والسيدات اللواتي قابلتهن في بحثي عن مأوى. عدة مرات ذهبت إلى بيوت مسجلة تحت عنوان (غرف للإيجار) قرب محطة الكوخ السويسري. وما إن أعلمهم أنني صيني حتى يقولوا: إن الغرف شُغلت. بعد ذلك رحت أستبق هذه المشكلة بإعلامهم على الهاتف. أن اسمي (لي) وأنني صيني. إذ كانوا لا يريدون صينياً فليوفروا علي إذن مشقة الترحال والمجيء إليهم.

البريطانيون الذين قابلتهم في أعلى السلّم الاجتماعي - من الأساتذة وأمناء المكتبة في كيمبريدج (ميدل تيمبل) كانوا مثقفين ومهذبين ويمدون يد العون، وإن كانوا متحفظين قليلاً. والطلاب البريطانيون كانوا بصورة عامة على درجة جيدة من حسن الطباع، والمودة، وهم على صواب دوماً. ولكن كان هناك تمييز عرقي عندما يتعلق الأمر بالتنافس في الألعاب الرياضية. كان من الصعب على أي آسيوي أن ينتسب إلى فريق رياضي مهم كفريق الكريكيت أو الرّكبي أو رياضة التجذيف التي كانت تعتبر الأكثر رقياً.

قد لا يعود التمييز العنصري إلى اللون وحده. إنه تمييز طبقي. تمييز ضد شخص يأتي من بلاد الغربة. حتى بين الطلبة البيض أنفسهم يتميز الطلاب القادمون من المدارس العامة (اليمينية)، وهم يحصلون عادة في المستقبل على مراتب عليا في المجتمع والدولة. وهم يتمنون أن يحصلوا على ألوان الكلية لأنها ستكون مصدر قوة لهم في المستقبل، فبمجرد تضمينها طلب التأهيل لعمل ما ستكون جسراً يصل بهم إلى أشياء عظيمة، وسيجدون وظائفهم بانتظارهم. وأن يكون أحدهم رئيساً لجمعية اتحاد كيمبريدج، فإن هذا يؤهله لأن يصبح مرشحاً محتملاً في إحدى الدوائر الانتخابية التابعة لحزب العمل، أو لحزب المحافظين. أو تمكنه من الحصول على عمل في قسم الأبحاث التابع لأحد الحزبين. كذلك

كان ثمة تنافس حاد بين الآسيويين، ولاسيما الهنود، على انتخابات (جمعية الاتحاد)، ولكن يصعب فهم ذلك لأن الهند والباكستان كانتا، منذ عام 1947 في طريقهما إلى الاستقلال. وقد فاز أحد الطلاب من سيلان في (ترينيتي هول) أميناً عاماً (لاتحاد الطلاب). وتساءلت ما إذا كان هذا يفيد في أن يصبح زعيماً في سيلان الحرة؟.

لم أكن معنياً بمثل هذه الأمور. فقد عزمت على التركيز بأن أكون (الأول) لأن هذا سيكون له شأنه عندما أعود إلى سنغافورة.

في تلك الأثناء كنت أتناقش أنا وتشو حول حياتنا في بريطانيا وأعيننا على المستقبل. وقررنا أنه سيكون من الأفضل إذا ما تزوجنا بهدوء في شهر كانون الأول (ديسمبر) أثناء عطلة عيد الميلاد، وأن نبقي ذلك سراً. فوالدا تشو قد لا يوافقان وسوف ينزعجان من هذا الأمر، كما أن (كلية جريتون) قد لا توافق، كما ذكرني المراقب في رسالته، وسلطات المنحة الملكية قد تثير العقبات. كنا في سن النضوج، في أواسط العشرينيات من العمر، وصممنا على قرارنا. ونصحنا صديق لنا من بريطانيا بأن نقيم في ستراتفورد ـ أون ـ آفون، وهي المنطقة التي يعيش فيها، كمكان نمضي فيه عيد الميلاد، ثم نزور مسرح شكسبير الشهير. وما إن وصلنا حتى قصدنا المأذون المحلي الذي يسجل عقود الزواج. وبعد أسبوعين من الإقامة كنا متزوجين. في طريقنا إلى ستراتفورد أون آفون توقفنا في لندن، حيث اشتريت لتشو خاتم زواج من البلاتين من بائع المجوهرات في شارع ريجينت ولكن عندما عدنا إلى كيمبريدج وضعت الخاتم في سلسلة حول عنقها.

رغم هذا التبدل الذي طرأ على حياتنا كنا نعمل بدأب وانتظام في دراستنا. ولكن تشو كانت تواجه بعض المشاكل في دراستها في السنة الثانية. وجاءت الامتحانات ثانية في أيار (مايو) 1948، وعُلقت النتائج في حزيران. حصلت على مرتبة الشرف في الصف الأول (Tripos I) وحلت تشو في المرتبة الثانية في كلية

الحقوق. وقررنا أن نأخذ إجازة أسبوعين في كونتينت. تجنبنا الرحلات السياحية الجماعية، وارتأينا أن نمضي خمسة أيام في باريس، ثم نمضي أسبوعاً في سويسرا.

ثمة حادثة في لوغانو ما تزال عالقة في ذهني حتى اليوم. نظر إلي موظف الاستقبال في الفندق وسألني ما إذا كنت صينياً؟.

قلت له: نعم لكن من سنغافورة.

قال: (آه، تشان كاي تشيك).

لم يكن يعرف الفرق بين سنغافورة والصين، ولم أكن فخوراً بتشان كاي تشيك. لقد تمت ملاحقته من قبل جيش التحرير الشعبي في بلاد الصين. لكنني نشأت على توقع هذه المقولة النمطية على معاملة الأوروبيين لي على أنني رجل صيني

تمتعت مع تشو بأفضل أيام العطل في حياتنا، ما بين النزهات والمشي وتناول الطعام والشراب والبيرة والنبيذ والشامبانيا.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) عدنا إلى كيمبريدج لقضاء السنة الأخيرة. كنا نتابع المحاضرات ونكتب الوظائف المقررة علينا لنقدمها للمشرف. ونقرأ في المكتبة أو في غرفتي. ولكن الحياة لم تكن عملاً كلها. كنت أستمتع أنا وتشو بأوقات فراغنا، وندعو أحياناً بعض الأصدقاء من سنغافورة ممن يدرسون هنا. وكانت تشو تتفنن بتحضير الأطعمة الشهية لضيوفنا.

في هذا الوقت كنا في وضع جيد ولي علاقاتي الطيبة مع أشخاص مهمين. قررت أن أتعلم على يد أفضل مدرسي الحقوق في كيمبريدج كانوا رفاقاً في ترينيتي هول، أفضل كلية حقوق آنذاك، ولكن بعد أن تسجلت في الدرجة الأولى في نهاية السنة الأولى كنت قادراً على إقناعهم بالإشراف علي رغم أنني كنت في "فيتز وليام". وكان من أفضل المشرفين علي تريفور توماس الذي كان يتمتع بعقل

منهجي واضح ومتميز. كما رافقت قلة من الطلبة البريطانيين، وبعضهم كان من أعضاء (النادي العمالي) في الجامعة، ثم أصبحوا فيما بعد من مرشحي حزب العمال في الانتخابات العامة سنة 1950. وانتسب منهم آخرون إلى فروع أخرى من فروع دراسة القانون وأصبحوا من الأساتذة المتميزين في القانون الدولي أو القانون المقارن أو الصناعي. كانوا زمرة متميزة ورفقة طيبة.

في شباط عام 1949 مثّلت كيمبريدج في مناقشة أعجبت المحكمين. ولكنني لم أتابع المشاركة في مثل هذه المناقشات، إذ لم أجد من الحكمة أن أعرض أفكاري قبل أن أتفق مع زملائي على التوجه الذي سنتخذه عندما نعود إلى سنغافورة.

ولقد أتيح لي عندما كنت في لندن أن أزور (مجلس العموم). في عدة مناسبات كي أستمع إلى الخطب. بعض أعضاء حزب العمال كانوا وديين تجاه طلاب المستعمرات (خلافاً للمحافظين الذين كانوا ينزعجون من مطالبتهم بالحرية). فقد قابلني فينر بروكواي، النائب عن إيتون وسلو في (القاعة الكبرى) في ويستمنستر ليعطيني بطاقة لدخول متحف سترينجرز للوحات. أما ستانلي أوبيري (الذي أصبح فيما بعد لورد أوبيري) فكان مثل فينر بروكواي، مؤيداً لضحايا الاستعمار. كان بين العماليين خطباء بارزون. أذكر منهم ستافورد كريبس، وفي زيارتي الأولى للمجلس عام 1947 الذي تفوق بقوة على خصمه المحافظ، المسؤول عن شؤون المستعمرات بشكل ملحوظ. كان يتمتع بذكاء لمّاح.

أدينا امتحانات الحقوق النهائية في أيار (مايو) 1949، وعندما ظهرت النتائج في حزيران كنت راضياً إذ كنت الأول وفزت بوسام التفوق في لائحة الشرف في (لو تريبوس) النهائية. كذلك كانت تشو الأولى، وقد أبرقنا إلى أهلينا بهذه الأنباء الطيبة. لقد كان طابعاً مميزاً للمرحلة التالية من حياتي. وكان على الطالب قبل التخرج، أي قبل أخذ شهادته، أن يمضي تسعة فصول على الأقل، حسب قواعد الجامعة. وكان على تشو أن تبقى في كيمبريدج ستة فصول

(terms)، وأنا ثمانية فصول. وكان لا بد من دفع بعض النفقات الخاصة قبل أن يُسمح لنا بالحصول على شهادتينا في 21 حزيران (يونيو) من ذلك الصيف. وإلا كان علينا أن نبقى في كيمبريدج لفصل آخر، وأن تبقى تشو لمدة ثلاثة فصول قبل أن نَستطيع التخرج.

كيمبريدج تحافظ على تقاليد قديمة أصبحت أكثر جاذبية مع السنين، وهي تضاف إلى مكانتها كموقع عتيق للتعليم. وفي «يوم الحشد» كان الطلاب يشكلون صفاً وفقاً لأقدمية كلياتهم، يترأسه أساتذتهم، ويدخلون إلى «المجلس الأعلى» قرب مدارس الحقوق. وكان يقودنا بيلي ثاتشر ـ كمراقب مسؤول ـ شخصياً إلى الأمام. أما فيتز وليام فكان في آخر الصف لأنه ليس عضواً في الكلية. بعد ذلك كنا نلتقط الصور مع العمداء والطلاب الآخرين فوق المرج الأخضر خارج مجلس الشيوخ. إذ كثير من الأساتذة المحاضرين الحقوقيين، الذين علموني وعلموا تشو بوصفهم مشرفين من «ترينيتي هول»، كانوا هناك للمشاركة في المرح والبهجة، ومن بينهم ترفور توماس. وقد سجل بونغ هاو هذه اللحظة بآلة تصويره.

ثم تفرقنا في غرف تريفور توماس في «ترينيتي هول» للاحتفال بالمناسبة ولشرب الشامبانيا. وانضم إلينا د. ث. إليس لويس، الذي كان يدعى تحبباً بـ «تيل»، وكان مدرساً لنا. قال لنا (إذا كان غلاماً أرسلوه إلينا في «ترينيتي هول»). وعندما ولد طفلنا الأول، لونغ، عام 1952، كتبت إلى كبير الأساتذة لحجز مقعد له. ولكن بعد 19 عاماً، عندما ذهب لونغ إلى كيمبريدج قرر أن يذهب إلى «كلية ترينيتي» التي أسسها إسحاق نيوتن كمدرسة أولى للرياضيات. وقد ساعده الأساتذة القديرون في «ترينيتي» على أن يصبح متفوقاً (في مادة الرياضيات) بحيث أمضى سنتين في الكلية بدلاً من ثلاث سنوات.

صورة تخرجنا التي أعتز بها كثيراً هي الصورة التي يقف فيها بيلي ثاتشر بيني وبين تشو. لم أخيب ظنه، كما لم أخيب (زوجتي الصديقة). لقد خلّف ثاتشر انطباعاً عميقاً في نفسي. كان حكيماً بعيد النظر يمنح الكثير من وقته لطلابه على حساب عمله. ذات يوم عندما كنت أشرب الشاي معه في غرفته،

أشار إلى عمال كانوا يحفرون في طريق ترمبينغتون، وقال: إنه في الساعات الثلاث الماضية أخذوا فرصتين من الراحة لشرب الشاي. كان الأمر مختلفاً قبل وأثناء الحرب. الآن تجدهم لا يرغبون للعمل بدأب، والبلاد لن تتقدم. ظننت أنه عجوز رجعي، ولكنه كان يدرّس مادة الاقتصاد، وقد استنتجت بعد سنوات أنه كان يعرف ما يحقق النمو. وفي مناسبة أخرى قال لي: (أنت صيني. وأنتم الصينيين لديكم حضارة عريقة تمتد آلاف السنين. وهذه مزية عظيمة). وقبل أن نغادر كيمبريدج في حزيران (يونيو) عام 1949 دعاني أنا وتشو إلى شرب قهوة الصباح للمرة الأخيرة. ربَت على يد تشو وقال وهو ينظر إلي: (إنه قليل الصبر جداً. لا تجعليه يستعجل الأمور هكذا) لقد فهم طباعي جيداً، لكنه كان يعرف أيضاً أن لدي هدفاً جدياً في الحياة وأنا مصمم على تحقيقه.

بعد التخرج، أخذنا إجازة عشر أيام. كي نتجول في إنكلترة واسكوتلاندة في حافلة. لم نكن قد انتهينا من الدراسة بعد. فمن أجل ممارس العمل في سنغافورة حتى شهادة جامعة كيمبريدج لا تكفي. كان لا بد أن نتخصص في المحاماة العامة أو المحاماة في المحاكم العليا. وهكذا انتسبنا إلى (ميدل تيمبل) الذي كان أحد (الغرف القانونية) التي تعلم وتهيئ الطلاب للانتساب إلى مهنة المحاماة. وعندما عدنا من جولتنا، حاولنا لهذا أن نعيش في لندن وأن نستأجر شقة غير بعيدة عن حجرتي الصغيرة في (شارع فيتز جونز). كنت أدرس أنا وتشو في مقر (الغرفة القانونية) ونحضّر معاً لامتحانات المحاماة النهائية.

أمضينا كذلك عدة عطلات هنا في منزل عتيق كانت تديره السيدة ميلور بمساعدة أولادها الثلاثة. كانت تطعمنا جيداً وتساعدنا. كنا وحدنا في المنزل إلا في فترة الصيف عندما كان يأتي بعض الزوار. كنا نتمشى ونستمتع بالطقس الماطر الدافئ برياحه الآتية من الجنوب الغربي للبلاد. وكانت تسليتنا الوحيدة الاستماع إلى إذاعة BBC المحلية من راديو من نوع (باي) اشتريته في كيمبريدج. كان الاستماع إلى الموسيقى يعطينا شعوراً بالبهجة والارتياح. وكنت أتلهى أحياناً بلعب الغولف فيما كانت تشو تلتقط الكرات. كما كانت تقطف حبات الفطر البري، التي كانت تطبخها لنا السيدة ميلور، لقد كان طعاماً شهياً.

كيمبريدج، 1948 يبدو وراءنا جسر التنهدات.

يوم التخرج، 21 حزيران 1949، مع تشو و و س ثاتشر، المراقب في فيتز ويليام، الذي جعل كل شيء ممكناً.

كانت الوجبات الأقل إثارة للشهية والتي كنا مرغمين على تناولها هي تلك التي كانت في (الميدل تمبل). حيث كان علينا أن نتناول (وجبات العشاء) في القاعة ثلاث مرات في الفصل وذلك للحصول على لقب محام، وهذا الجهد مطلوب من كل الطلاب؛ مما يعني قضاء سبع ساعات في رحلة بالقطار إلى محطة باد ينغتون. ولكنها كانت فرصة للقاء الأصدقاء من الملايو وسنغافورة، وكنا ننخرط في محادثات مع طلاب من لندن، ومن كل المقاطعات الاستعمارية، تتعلق بكفاحنا في المستقبل من أجل الحرية.

بعض أصدقائي من (كلية رافيلز) كانوا من النشطاء سياسياً. وكان من بينهم جوه كينغ سوي، مدرسي السابق لعلم الاقتصاد، والذي حصل على المرتبة الأولى في شهادة البكالوريوس من كلية LSE للاقتصاد، وتوه تشين شاي الذي كان يحضر للباكلوريوس في علم وظائف الأعضاء في جامعة لندن. وقد شكّلا مع عدد من الطلاب الآخرين ما سمّي (المنتدى المالاوي) والذي كان هدفه بناء وعي سياسي، وصحافة للمالايو المستقلة والتي تتضمن سنغافورة. وأعضاء هذا المنتدى ينتمون إلى عدة مجموعات عرقية - مالاويين وصينيين، وهنود وآسيويين - ولم يكن المنتدى ذا طابع إيديولوجي أو طابع يساري أو يميني. كان مناهضاً للاستعمار ولكنه ملتزم بتجنب العنف وذلك كي يميز نفسه عن (الحزب الشيوعي المالاوي) (MCP)، الذي استخدم السلاح ضد البريطانيين في الملايو في حزيران (يونيو) عام 1947، وكان أعضاء المنتدى يجتمعون أحياناً مع سياسيين بريطانيين - ووزراء صغار في الحكومة العمالية مثل ودرو ويات، أو مع أعضاء حزب المحافظين والأحرار في البرلمان - يستضافون للتحدث في المنتدى. وكانت الهند وباكستان قد حصلتا على استقلالهما في آب (أغسطس) عام 1947، وحصلت كل من سيلان وبورما على استقلالهما عام 1948. لقد انهار السد الامبريالي، والامبراطورية البريطانية كانت في تراجع. وكنا جميعاً على ثقة بأننا نستطيع أن نحصل على الاستقلال. كنا نشعر أن الشعب البريطاني وزعماءه قدتخلوا عن قمع الشعوب الخاضعة لهم.

بعض أعضاء المنتدى الملاوي في مطعم في «سوهو»، لندن، صيف، 1950
يقف من اليسار إلى اليمين أخي دينيس، فيليب هواليم الصغير، موريس بيكر، لي كيب لين. محمد سوبيي على يميني.
الجلوس من اليسار إلى اليمين: تشين تشي، ميكي جوه، تشو، كيني بيرن وزوجته إلين.

وبعد التحدث مطولاً كنا نسير ببطء من «قاعة مالايو» إلى «القوس الرخامي» عبر «شارع ادجوير» كانت الجعة سيئة وثقيلة. لم أستطع أن استسيغها حتى بعد سنوات. الجعة الجيدة غالية الثمن وكذلك الويسكي. كنا نتحدث عن أشياء كثيرة سنقوم بها بعد عودتنا. وفيما بعد اكتشفت أن قلة قليلة استطاعت أن تحقق أمانيها. إذ ستعترض كثير من الزوجات على أن يُقدم أزواجهن على مجابهة السلطة الاستعمارية البريطانية، ويعرضون بذلك أعمالهم للخطر، كما أن بعض هؤلاء الرجال قد فقدوا الرغبة في النضال بعد أن صُدموا بالحقيقة الباردة والخيارات الصعبة. فمن ناحية كان هناك ذوو الثقافة البريطانية ومن جهة ثانية كان هناك أيضاً الشيوعيون وجبهتهم المتحدة والمنظمة جيداً والتي تتمتع بتأييد جهات بارزة في المجتمع بدءاً من المدارس، وحتى النقابات والصحافة و(غرفة التجارة الصينية).

قررت قبل أن أغادر بريطانيا أن أتصل بليم هونغ بي الممثل غير الرسمي للحزب الشيوعي المالاوي (MCP) في لندن. وكان ليم قد حصل على منحة الملكة عام 1934، ولكنه فقد اهتمامه بالدراسة وانصرف إلى القضية الشيوعية. لم يستطع أبداً النجاح بامتحاناته في دراسة المحاماة ولم يحصل على شهادة جامعة كيمبريدج. بقي في لندن كي يصدر نشرة تطبع على الآلة الكاتبة، موالية للحزب الشيوعي المالاوي تدعى (مالايان مونيتور). كانت نشرة دعائية فجة. ولكنه شخص قوي الشخصية هتفت إليه لأنني أردت مقابلته ورتب لي موعداً خارج جريدة (ديلي ووركر) الناطقة باسم الحزب الشيوعي البريطاني، قرب شارع (فليت ستريت). وأحضرت معي تشو التي كانت تعرفه كصديق لأخيها الأكبر.

كان رجلاً غريباً. بدلاً من أن يأخذنا مباشرة إلى حيث يمكن أن نجلس ونتكلم، أخذنا إلى طريق دائري عبر أزقة ضيقة متخذاً منعطفات وأزقة منحنية لا ضرورة لها قبل أن نتوقف أخيراً أمام مطعم ومشرب شعبي جداً. كان يعيش في عالم تآمري خاص به. وبعد المجاملات الاجتماعية سألته مباشرة: لماذا ابتعد

وانفصل جميع الشيوعيين عن العمال الديمقراطيين الاجتماعيين في جبهتيهما المتحدتين، مستلهمين ما كانوا قد فعلوا في تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا؟. أنكر ذلك بشدة. وقال: إن الديمقراطيين الاجتماعيين في هذين البلدين، كانوا مقتنعين أن قضية الشيوعيين أعلى من مستواهم. كان من الواضح تماماً أنه غير مطلع على الأمور ويعيش في عالم حالم من صنعه، كان فيه ثورياً عظيماً. وعندما انفصلنا كنت مقتنعاً أن الحزب الشيوعي المالاوي لم يكن يعتبر لندن موقعاً مهماً أو أنه لا علم له بما كان يفعله ليم هونغ بي فعلاً بوصفه ممثلهم غير الرسمي.

في شباط (فبراير) من عام 1950 وبينما كنت لا أزال موجوداً في تينتاجل، تقدم أحد أصدقائي في جامعة كيمبريدج هو دافيد ويد يكومب للانتخابات كمرشح عن حزب العمال لشغل مقعد توتين الريفي في ديفون، والتي تبتعد مسافة ساعة ونصف الساعة بالقطار. كان بحاجة لسائق لشاحنته، ولمساعد عام، أمضيت أنا وتشو أسبوعين في مساعدته وصولاً إلى ليلة الانتخابات. كنا بين مناصري حزب العمال. كنت أنا مع سائق قطار، أمّا تشو فقد كانت مع زوجة شابة وأولادها. أمّا زوجها فقد كان بعيداً عنها يتدرب كي يصبح محامياً. تعلمت كيف أخوض الحملات الانتخابية، وألقيت عدة خطب في مدرسة صغيرة وفي قاعات الكنيسة. كان عدد المستمعين بضع عشرات، يصل في الحد الأقصى إلى مئة وخمسين شخصاً. اخترت موضوعاً أساسياً واحداً تمرنت عليه جيداً، وكنت أغير فيه بعض الشيء ما بين اجتماع وآخر. كان الموضوع أن بريطانيا كانت تحصل من العملة الصعبة (الدولارات) كل سنة من المالايو أكثر مما تحصل عليه من مساعدات مشروع ماريشال الذي ترعاه الولايات المتحدة، لأن المالايو تنتج نصف مطاط العالم وثلث إنتاجه من القصدير. فإذا ما خسرت بريطانيا المالايو فستفقد كثيراً من وارداتها من الغذاء والمواد الخام، فضلاً عن زيادة البطالة والارتفاع الشديد في تكاليف المعيشة.

في الاختيار ما بين العمال والمحافظين لم يكن الاختيار صعباً بالنسبة إلى أولئك القادمين من المستعمرات، كان لحزب العمال سياسة تجاه المستعمرات. وكان سجله منذ عام 1945 مؤثراً. فالاصلاحات التي طال انتظارها قد تم تنفيذها. أما بالنسبة للمحافظين، فإن المستعمرات كانت مجرد مناطق للاستثمارات ذات الربح العالي.

وقد قررت حكومة المحافظين أن تقمع الروح الوطنية الجديدة لدى شعوب المستعمرات فمن أجل أن تحافظ على الامبراطورية يجب أن تحرص على الفوضى. وإلا سيصبح الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) على درجة كافية من القوة كي يطرد البريطانيين من المالايو.

كان المستمعون في ديفون مندهشين لرؤية صيني يتحدث عن مرشح من حزب العمال البريطاني. كانت قضية خاسرة، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة التي يجعل فيها المرشحين الشباب يتميزون. وفي 23 شباط (فبراير) عام 1950 أعلنت نتائج الانتخابات في مدينة (تاون هول). وسقط ديفيد ديديكومب سقوطاً شنيعاً، ولكنه ألقى خطبة شجاعة، وكان خصمه المحافظ المنتصر رجلاً كريماً، وقد شجعه على أن يناضل مرة ثانية في دائرة انتخابية أخرى، كانت تجربة مفيدة في السياسة على مستوى الدوائر الانتخابية.

بعد مرور شهر أو اثنين تلقيت رسالة من مسؤول الشرطة في سنغافورة، إي. فولغير، الذي كان في إجازة. كان يعرف والديّ، وقد دعاني وتشو إلى بيته في بترلستون ديفون. وأمضينا ثلاثة أيام هناك. كان يريد أن يكوّن رأياً عني، وكنت مهتماً بإقامة علاقة ورؤية مع رئيس في الشرطة البريطانية الاستعمارية في فترة ما بعد الحرب، ورؤية الهيئة التي أمسى عليها. كان أسبوعاً مفيداً لعبنا لعبة الغولف، وكنت ما أزال سيئاً في تلك اللعبة. عرفت آنذاك أنني لفت انتباه (فرع سنغافورة الخاص) وسأكون على لائحة مراقبتهم. كنت قد ألقيت عدة خطب معادية للبريطانيين والاستعمار في (قاعة الملايو). كانوا يعرفون أن ليس

لي ارتباطات مع أحد. ورأيت أنه من الأفضل أن يعرفوا أنني أعمل على المكشوف وبشكل دستوري، وليس لي أية ارتباطات مع الشيوعيين أو تعاطف معهم. إذ إننا كنا سنعود قريباً إلى سنغافورة.

في أيار (مايو) 1950 نزلنا إلى لندن لاجتياز امتحانات الحقوق النهائية، وهناك صادفنا جمهور كرة القدم في عطلة الأسبوع تلك، وكانوا يقرعون أبواب الفندق حيث كنا نجلس ليلاً نهاراً، وحرمونا من الدراسة. فكان علينا أن ندفع ثمن وجودنا خارج لندن وعدم الإصغاء إلى المحاضرين الذين كانوا هم اللجنة الفاحصة في الموضوعات الأساسية. كانت الأسئلة مطروحة بطريقة جديدة. لم يحصل أحد على (الدرجة الأولى) حصلت على الدرجة الثانية وصُنِّفت في الدرجة الثالثة. وحصلت تشو على الدرجة الثالثة، ولكن كل شيء كان على ما يرام. وفي 21 حزيران (يونيو) 1950، استدعينا، وقد اعترانا الوجل، إلى استلام شهادة المحاماة في غرفة الطعام في (تيمبل هول). هاهي الحياة تبدأ مرحلة جديدة.

كنت سعيداً بترقب العودة إلى الوطن، ولكنني كنت أنظر إلى السنوات الأربع التي أمضيتها في لندن بعين الرضى وشيء من السرور. رأيت إنجلترة قد روّعتها الحرب. ولكن شعبها لم يهزم جراء ما لاقاه من خسائر ومعاناة، ولم يصب بالغطرسة والغرور بالنصر الذي حققه. فكل قنبلة سقطت على لندن قد نُظّف مكانها وأزيح الركام جانباً، وغالباً، ما كانت تنمو الزهور جانباً لتخفف من آلام الخرائب. كانت الحرب جزءاً من فخرهم الذي لم يطلقوا له العنان، ومن تهذيبهم.

كانت كياستهم وأدبهم في التعامل فيما بينهم ومع الأجانب لافتة للنظر. وما يؤثر في النفس ما يظهره ركاب السيارات من اعتبار: فأنت تلوح لأحدهم محيياً فتراه يرد عليك التحية بمثلها. لقد كان مجتمعاً بالغ التحضّر. ولقد شعرت

بالحنين إلى كيمبريدج حيث درست مع ذلك الجيل الاستثنائي الفريد من المقاتلين العائدين للعشرينيات من العمر، وبعضهم في الثلاثينيات، متزوجون وعندهم أولاد. كانوا جديين عرفوا الموت والدمار. بعضهم عبر الجحيم. فأحد الطلاب في فيتز وليام أصيب بحروق شديدة إثر تحطم طائرته. كان النظر إليه يبعث على الأسى رغم عمليات التجميل المتكررة التي خضع لها. ولكنه استطاع التغلب على عجزه. كان يعلم أن وجهه المشوه يفزع الآخرين الذين يقابلونه في المرات الأولى، ومع ذلك فهو يعمل بشكل طبيعي وبثقة وبدون شفقة على الذات. لم ينحنِ واستطاع أن يحقق أفضل ما بوسعه في حياته.

لقد كان أولئك الذين خدموا في الجيش من طلاب كيمبريدج، وتركت الحرب آثارها المشوهة على أجسامهم، هم من صنعوا كيمبريدج ما بعد الحرب مكاناً للتعلم ولمواكبة آثار ما بعد الحرب. كنت محظوظاً بأن أعايش ذلك الجيل من البريطانيين.

أما الذين عاشوا منهم في رغد العيش والتسلية، والذين تسربوا من الخدمة الوطنية زمن السلم، أو الذين حصلوا على استثناءات من الخدمة فقد كانوا قلة. إذ كان هناك من أساء إلي بعض الشيء، ربما لأنني طالب آسيوي، أو كانت بعض السيدات اللواتي يؤجرن الغرف والبيوت سيئات في التعامل، كان هناك سيدات رائعات من أمثال السيدة ميلور في (تينتاغيل) والسيدة جاكسون التي كانت تعتني (بالمعهد الصيني) في لندن، والتي ما زلت أذكرها كثيراً خلال سنوات معيشتي في بريطانيا. لقد بُني المعهد الصيني في ساحة غوردون من قِبل الحكومة البريطانية، وبأموال كان على الصينيين أن يدفعوها كتعويض عن الضرر الذي أصاب حياة البريطانيين وممتلكاتهم في عصيان عام 1900. كان مفتوحاً لجميع الطلاب الصينيين من كافة الأعراق، ولقد وجدته مكاناً مريحاً وملاذاً رائعاً للأمن والهدوء قرب وسط لندن. كانت السيدة جاكسون ودودة مع جميع الطلاب، ولكنها منذ البداية كانت ودودة وداً خاصاً معي. وخلال أيام العطل حيث كان

عنواني يتغير باستمرار، أصبح مقر إقامتها مكاناً نضع فيه حقائبنا وكتبنا. كنت أنا وتشو نتردد على ذلك العنوان: 16 ساحة غوردون، لأنه لم يكن لدينا منزل في لندن، وكنا نأوي إلى «معهد الصين» من أجل الاغتسال والراحة بدون ثمن. وكانت السيدة جاكسون تزودنا بالشاي مقابل شلن واحد.

هل هي أمور مؤسفة؟ لا يستطيع أحد غير الطالب الأجنبي في بريطانيا في تلك السنوات الصعبة يمكن أن يتخيل كم كانت الحياة صعبة وغير مريحة بالنسبة إلينا للإقامة في لندن. كانت صاحبة المنزل تقدم لنا الإفطار فقط، وبعد ذلك كنت أخرج أنا وتشو من الغرفة كي نسمح لها بتنظيفها. وبعد ذلك كنا نتوجه إلى مكتبة عامة للدراسة، ونتناول الغداء والعشاء في مطعم ما. كان وجود مكان نظيف وهادئ للراحة والاستحمام ترفاً مستحيلاً ولا سيما إذا كان مجانياً.

عندما كنت في لندن عام 1956 من أجل المؤتمر الدستوري حول مستقبل سنغافورة. عدت إلى ساحة غوردون لزيارة السيدة جاكسون. كانت سعيدة بلقائي كما كنت سعيداً بلقائها. ولكن ارتباطي (بمعهد الصين) قد أوجد في تلك الأثناء حركة ارتجاعية سياسية غير متوقعة. واكتشفت بعد سنوات تقارير قديمة ضمن مصنفات عن (فرع سنغافورة الخاص) تدعي أنني وتشو كنا نتردد على هذا الفرع كي نختلط مع الملاوين الشيوعيين من الصينيين، حيث كان ماوتسي تونغ في تلك الفترة يقود النصر في الحرب الأهلية وأعلن في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 1949 الجمهورية الشعبية. جاء في أحد التقارير أن تشو أكثر راديكالية وتطرفاً. اهتزت ثقتي بتقارير (الفرع الخاص) بشدة.

خلال سنواتي الدراسية كنت أتطلع إلى إقامة علاقات مع الزعماء السياسيين في «حزب العمال» ولا سيما أولئك الذين يستطيعون أن يساعدوا أمثالي ممن يسعون إلى نهاية مبكرة للحكم الاستعماري وملايو مستقلة تشمل سنغافورة. كان حزب العمال أكثر تعاطفاً مع استقلال المستعمرات من «حزب المحافظين» الذي ما يزال يتحدث عن «الملك والامبراطورية» في الاجتماعات التي كنت أحضرها.

كما أردت تطوير علاقاتي مع الطلاب البريطانيين الذين يمكن أن يلعبوا دوراً في المستقبل في الأحزاب السياسية الرئيسة، شبكة تكون مفيدة عندما أشتبك مع السلطات الاستعمارية في سنغافورة ومالايو. لذا درست نظامهم السياسي باهتمام كبير. ويبدو أن نظامهم البرلماني الديمقراطي يعمل عملاً جيداً. كان ثمة ثورة هائلة ـ اقتصادية، واجتماعية، وسياسية ـ تجري بهدوء أمام ناظري. فالناخبون أطاحوا بونستون تشرشل وبالمحافظين في أيار (مايو) 1945، على الرغم من أن تشرشل كسب الحرب لبلاده. فنصّبوا كليمينت أتلي وحزب العمال في السلطة على أمل معالجة التبدلات العميقة في التاريخ البريطاني. وكانت حكومة أتلي تنفذ برامج خاصة بخلق دولة العدالة التي تعتني بطبقات البريطانيين كافة من المهد إلى اللحد. ولم يكن هناك أي احتجاج عنيف من قبل خصومهم، ولم تجرِ الدماء في الشوارع. كانت تصدر فقط كلمات انتقاد عن المحافظين في البرلمان وفي الدوائر الانتخابية تحثّ على الاعتدال والتعقل في مسألة تحقيق ما يجري. وقد كنت شديد التأثر.

بعد فترة قصيرة من صدور قانون خدمة الصحة الوطنية عام 1948، ذهبت للحصول على نظارات طبية لدى طبيب عيون في شارع ريجنت في كيمبريدج. كنت أتوقع أن أدفع ثمنها ما بين خمس وست جنيهات وعند الحساب قال لي الطبيب بفخر بأنني لن أدفع أي شيء لقاء النظارة وأصرّ على أن أوقع ورقة رسمية.

كنت سعيداً وظننت أن المجتمع المتمدن يكون هكذا. وبعد بضعة شهور، جرى معي الشيء ذاته عند طبيب الأسنان. إذ كان علي أن أوقع ورقة فحسب طبيب الكلية لم يطلب مني حتى توقيع ورقة لأنني مسجل لديه من قبل في سجل المرضى. ومرة ثانية أصبت بالذهول. ولكن الصحف ذكرت أن كثيراً من الفرنسيين وأبناء القارة الآخرين يأتون إلى بريطانيا من أجل المعالجة السنيّة المجانية، اعتقدت أن هذا سيمضي بالأمور بعيداً جداً. لكن الفرنسيين أضحوا أكثر فقراً. كنت معجباً بهذا التحول الذي يقوم به البريطانيون.

وأكثر شيء أذهلني هو عدالة النظام. فالحكومة كانت تعمل على خلق مجتمع يجعل كل فرد ـ غنياً كان أم فقيراً، رفيعاً أم بسيطاً أم من الطبقة المتوسطة ـ يعيش في مستوى لائق من الحياة. وطبعاً كان هناك بعض القصور في تطبيق ذلك. ولكن استمر نظام في توزيع الطعام والملابس والذي كان معمولاً به أثناء الحرب إلى أن ألغاه المحافظون في أواسط الخمسينيات. ولكنه ما يزال مطبقاً على مواد غذائية مثل السكر والشاي، والحلوى والشوكولا، والزبدة واللحوم ولحم الخنزير والدقيق، والبيض، وكانت ملابس العمل متوفرة بأسعار معقولة. ولكنها تحتاج إلى قسائم

كنت يانعاً ومثالياً جداً كي أتأكد أن تكاليف الحكومة ستكون باهظة، والأسوأ من ذلك أنه في ظل نظام مساواة كهذا سيكون كل فرد مهتماً بما يمكن أن يحصل عليه من القطاع المجاني المشترك بدلاً من أن يسعى نحو الأفضل بنفسه، وهذا ما يخلق القوة الدافعة لتقدم التطور البشري. تلك النظرة الواقعية كانت تنتظر فترة الستينيات عندما أصبحت مسؤولاً عن حكومة سنغافورة الصغيرة الأكثر فقراً من بريطانيا، وكانت تجابهني الحاجة إلى توليد عائدات وخلق ثروات قبل أن أفكر، أو حتى أتحدث عن إعادة توزيعها

في غضون ذلك علمت من الرسائل وبعض المقتطفات من الصحافة البريطانية عن أحداث في الوطن. فقد أثيرت اضطرابات عمالية وحصلت توترات اجتماعية بسبب الحزب الشيوعي المالاوي MCP وحدثت مظاهرات واضطرابات سياسية، وفي حزيران (يونيو) 1948 بدأ الشيوعيون إطلاق النار وقتل زارعي المطاط البريطانيين داخل البلاد. وعاد رجال العصابات إلى الأدغال، وأعلنت الحكومة المستعمرة حالة الطوارئ.

وفي المعترك الدستوري المفتوح، من جهة أخرى، لم تكن ثمة قوة سياسية وراء الزعماء الضعفاء ذوي الثقافة البريطانية الذين كانوا يتوقون إلى إرضاء الحكام البريطانيين. أحسست بقوة لأنني عندما يعود جيلي ينبغي أن نملأ الساحة.

وانضممت إلى (نادي العمال) في جامعة كيمبريدج ورحت أحضر اجتماعاتهم بانتظام، ولا سيما حينما كان يحضر وزراء عماليون يوم الجمعة مساء للتحدث عن البرامج التي يقومون بدعمها وتمريرها من خلال البرلمان.

كان وقت تبدل وإثارة عظيمة. إنها ديمقراطية اشتراكية فعلية، كما كانت حضارية جداً. لقد هدد الأطباء البريطانيون بالإضراب ذات مرة. ولكن ضمائرهم وتقاليدهم منعتهم من تحقيق ذلك، وكذلك عادات النظام الدستوري. واستطاع أنورين بيفان، وزير الصحة، أن يمرر مشروع قانون (خدمة الصحة العامة) بعد أن وصف المحافظين بأنهم (أقل من حشرات طفيلية). وكان حزب العمال يبني أيضاً بيوتاً جماعية ليؤجرها بأثمان زهيدة. ووسعوا نطاق المشروعات الخيرية ليتأكدوا أن (شبكة الأمان) باتت تشمل جميع العائلات التي لا تزال غير قادرة على تلبية احتياجاتها الضرورية. (هذه الحاجات الضرورية البسيطة تبدو لي كمالية بالمقارنة مع ما كنت أتذكره من أوضاع في سنغافورة حتى قبل الغزو الياباني). كان درساً جديراً بالاهتمام في كيفية تحقيق العدالة الاجتماعية.

فأبناء جيلي من طلاب سنغافورة والملايو في بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية كانوا معجبين أشد الإعجاب بعدالة وعقلانية برامج الحكومة العمالية. كنا متحمسين للنظام البريطاني الناضج الذي في ظله سمح التقليد الدستوري والاعتدال بتحولات أساسية في السلطة والثروة تأخذ مجراها بسلام. كنا نقارن بين ما نراه في بريطانيا وما يجري في سنغافورة والمالايو حيث العدد الكبير من غير المتعلمين، وحيث تتجاهل الصحافة الضعيفة جميع القضايا الأساسية وتكتفي بذكر أخبار وتحركات المسؤولين المهمين ومن يلوذ بهم. كان الوضع يبدو متخلفاً وغير واعد.

أبحرت أنا وتشو عائدين إلى الوطن، على متن الباخرة الهولندية وليم ريوس، وفي ذهننا مجابهة هذا التخلف. كانت أفضل سفينة تمخر عباب البحر ما بين ميناء سلوثامبتون وسنغافورة - جديدة ومكيفة وتقدم طعاماً إندونيسية وهولندياً

فاخرين، فضلاً عن الخدمة الممتازة التي يوفرها مئات العاملين الممتازين (ادنجو نغوز) الذين يرتدون زيّاً بحرياً. كانت رحلة الوداع. سافرنا بالدرجة الأولى في كابينات متحاذية. وأمضينا وقتاً رائعاً ـ لولا أنني أصبت بدوار البحر عند خليج بيسكاي، ومرة أخرى في البحر العربي، واضطررت لاتباع ريجيم قاس من التوست المجفف ولحم البقر المقدد، وما عدا ذلك فقد كانت رحلة لا تنسى.

أصبحت الآن على دراية عالية بشؤون السياسة ومعاداة الاستعمار، وكنت أتحاشى ركاب الدرجة الأولى من الأندونيسيين واليورو آسيويين الذين كانوا يتوددون للقبطان الهولندي وضباطه. ومن جهة أخرى كنا سعيدين بصحبة السيد محمد رازيف وزوجته، وهما إندونيسيةن في أواسط العمر كانا ينأيان بنفسيهما عن القبطان. ومن خلال تعرفنا عليهما عرفت أن رازيف وطني من سومطرة ـ أصبح فيما بعد سفيراً لبلاده في كوالالامبور.

أحيا إيماني بكبرياء شعب خاضع للاستعمار، وبتّ أكن له احتراماً شديداً. ولكنني كنت أحتاج إلى بعض الوقت كي ما أتأكد أن أي بلد يحتاج إلى ما هو أكثر من وجود أناس فخورين وذوي قدرة في القمة كي تتغير الأمور. الشعب كله يجب أن يتحلى باحترام الذات والرغبة في النضال لتحقيق أمة قائمة بذاتها. ومهمة الزعماء أن يوفروا للمواطنين إطاراً واسعاً يتعلمون ضمنه، ويعملون بدأب، ويكونوا منتجين، وأن يكافأوا بحسب عملهم، وليس هذا بالشيء الذي يسهل تحقيقه.

وصلنا إلى سنغافورة في الأول من شهر آب (أغسطس) إنه لشعور طيب أن يعود المرء إلى الوطن. كنت أعرف أنني أدخل مرحلة مختلفة من حياتي. وسرعان ما تذكرت مخاطرها. على الرغم من أننا سافرنا بالدرجة الأولى فإن ضابط الهجرة، السيد فوكس، الذي كان يسير على ظهر السفينة بلباسه الرسمي، كان متأكداً أنني أعرف مكاني. لقد جعلني وجعل تشو ننتظر حتى آخر راكب. ثم نظر في جواز سفر تشو وجوازي وقال بغموض: (أفترض أنني سأسمع عنك أكثر يا سيد لي). حدقت في وجهه وتجاهلت ملاحظته. أراد أن يخيفني، ولكنني ما كنت لأخاف منه.

فيما بعد اكتشفت أن من بين النقاط السوداء ضدي، التحاقي المشبوه باحتفال الشبيبة العالمي في بودابست في شهر آب (أغسطس) من عام 1949. فهناك استخدم الاتحاد السوفييتي الهنغاريين كمضيفين لهذا الاحتفال الشيوعي المنظم وقد دعا (اتحاد الطلاب العالمي) في لندن مجموعات في بريطانيا للمشاركة في الاحتفال. وقد وافق بعض المالاويين والسنغفوريين على المشاركة لأنها كانت فرصة الحصول على عطلة رخيصة مع تقديم كثير من الخدمات المجانية.

واشترك كينغ سوي، وموريس بيكر، وشقيقي دينيس وآخرون. وقد نظم بعض المالاويين هناك تظاهرة تحت شعار (الملايو تقاتل من أجل الحرية). وعلمت المخابرات البريطانية بهذا. ولما كان بعضهم ممن قد يسببون المتاعب عندما يعودون إلى وطنهم فقد أرسلت المخابرات البريطانية إلى (فرع سنغافورة الخاص) لائحة بأسماء هؤلاء الذين شاركوا. ومن بينهم (ك.ي.لي). وقد حقق الفرع الخاص مع والديّ ولكنهما لم يستطيعا توضيح الأمر لأنهما لم يكونا يعرفان أي شيء. وبالنتيجة فإن السلطات لم تعرف بأن المشتبه به هو أخي دينيس، وليس أنا.

ولكن كانت هناك تقارير أخرى في ملفاتهم تخصني. مما أهّلني للتميّز فيجعلني آخر راكب يغادر السفينة (ويليم رويز). عندما دوّنت تاريخي الشفهي عام 1981، أطلعني باحث على وثائق حول اجتماع القائم في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) عام 1950 في دار الحكومة. ففي ذلك الاجتماع، أوصى نيغل موريس مدير الفرع الخاص باعتقالنا: أنا وتشو فورَ عودتنا من إنكلترة. وقد رفض هذه التوصية رئيس الشرطة آر. إي. فولفر الذي كان قد دعانا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه في ديفون. وقد جاء في وقائع الوثائق المسجلة أن الحاكم وكبير الضباط والسكرتير الاستعماري دعموا موقف فولفر محتجين بأننا كلينا منحدران من عائلتين محترمتين. لذلك فإن ردة فعل الرأي العام على

اعتقالنا ستكون سيئة. وقالوا: الأجدى أن يستميلونا وأن يكسبوا ودّنا. وقد اقترح اسم المفوض العام لجنوب شرق آسيا مالكولم ماكدونالد ليكون المضيف المناسب، بما أنه معتاد على دعوة الطلاب إلى موائد العشاء. وكذلك كان، فقد دعاني وتشو بعد أشهر قليلة من عودتنا.

وبينما استبقاني السيد فوكس منتظراً في قاعة الدرجة الأولى على متن ويليم رويز، صعدت إلى ظهر السفينة كي ألوح بيديّ لأسرتي: أبي وأمي وفريد ومونيكا وسوان الذين اصطفوا على رصيف الميناء مع بعض الأصدقاء ومنهم: هون سوي سن. كذلك كانت عائلة تشو بانتظارها. وما أن نزلنا من السفينة حتى افترقنا، هي عادت مع والديها إلى باسير بانجنغ، وأنا ذهبت إلى شارع أوكسلي. افترقنا كأصدقاء كي لا نفشي سر زواجنا في بريطانيا.

6. العمل والزواج والسياسة

أبرزت الصحافة نبأ عودتنا، وأشارت إشارة واضحة إلى النجاح الأكاديمي الذي تم في كيمبريدج. وبالطبع كان لتشو نصيباً في ذلك. وقد ساعدت هذه التنويهات الإعلامية على إيجاد أول عمل لي. فخلال زيارتي إلى المحكمة العليا قابلت المحامي ت. دبليو أونغ من مواليد ستريتسي. وسألني إن كنت مهتماً بإمضاء الفترة التدريبية في شركته ـ ليوك وأونغ؟ ووافقت فوراً، وتمت ترتيبات مقابلتي لشريكه جون لايوك في اليوم التالي.

لايوك كان من لانكشاير، تقريباً في الستين من عمره، وكان قد تأهل للعمل كمحكم في إنجلترة. مارس عمله في سنغافورة منذ بداية الثلاثينيات، وتزوج من امرأة صينية. ولما لم يرزقا بذرية، فقد قاما بتبني عدد من الأطفال الصينيين. كان يتحلى بعقل راجح، وطباع شرسة. فعندما يغضب يحمر وجهه وبالكاد يستطيع السيطرة على ارتعاش جسده. كان مليئاً بالطاقة، يشرب بنهمٍ. ويتعرق طوال الوقت ويمسح عرقه بمنديل كبير. عرض عليَّ أن أكون تلميذه (متمرنه) الشخصي. مما كان يعني أنه علي الجلوس في مكتبه الذي يتم تبريده بواسطة مكيفين من ماركة فيلكو واللذين كانا يحدثان جلبة كبيرة. إلا أنهما من ناحية أخرى كانا شديدي الفاعلية. عرض علي أن يدفع لي خمسمئة دولار في الشهر إلى أن يحين موعد مثولي أمام هيئة المحامين، أي بعد عام كامل لأني كنت قد اخترت ألا أقوم بذلك أمام الهيئة في إنجلترا.

بدأت بالعمل على الفور. كان لدي ملابسي الاستوائية المكونة من بنطال كتاني ومعطف مقلم بقلم خفيف، وابتعت قميصاً قطنياً واسعاً يمكنني من التنفس بسهولة. ولكن هذا لم يفدني، إذ كنت أتعرق تعرقاً غزيراً بسبب عدم تعودي على الحرارة والرطوبة العاليتين. كنت في كل مرة أذهب خارجاً إلى المحكمة أعود

وقد تبللت تماماً بالعرق. وكانت كارثة أن تكون مبللاً في غرفة لايكوك المبردة وهذا ما يسبب إصابة بالسعال والزكام. ولكن سرعان ما تعلمت أنه ينبغي علي عند العودة إلى المكتب، قبل كل شيء، أن أقوم بغسل وجهي بماء بارد، وأتريث قليلاً، ومن ثم أستبدل ملابسي بأخرى جافة.

بما أني قد وجدت العمل، بقي علي أن أذهب لرؤية والد تشو، (كوا سيوتي) كان طويل القامة ونشيطاً. وعصامياً، علم نفسه المحاسبة والأعمال المصرفية من خلال دورات تمت بالمراسلة إلى أن ترقى إلى مركزه الحالي في المؤسسة المصرفيّة الصينية لما وراء البحار، وكل ذلك كان بفضل جهوده الشخصية، حيث لم يكن مسؤولاً عن عائلة تدفعه إلى الأمام ولا يملك مالاً يشتري به الترقية. طلبت منه يد ابنته، وسألته عن الموعد الذي يمكن أن نعقد قراننا فيه، بُهت الرجل وصمت. فقد كان يتوقع زيارة رسمية تقليدية تقوم بها عائلتي لإثارة هذا الموضوع معه، ولكن أن يقوم هذا الفتى الطائش بطلب تحديد الموعد بنفسه فهذا قلب للأمور.

رغم ذلك كان واضحاً أن القبول قد تمّ. ومع أنه لم يُظهر لي امتعاضاً كبيراً. إلا أن ذلك تبدأ بوضوحٍ فيما بعد أمام تشو. اتفقنا على الخطوبة التي سيتبعها الزواج في نهاية شهر أيلول (سبتمبر) وعند معرفة لايوك بهذه الأنباء التي نقلتها الصحف، اقترح أن تعمل تشو لديه كتلميذة متمرنة وأن يدفع لها خمس مئة دولار شهرياً. أعلمت تشو بذلك وقبلت العرض على الفور كان ذلك مريحاً، إذ كنا نستطيع الذهاب إلى العمل معاً، ورؤية بعضنا بعضاً كل يوم.

وفي الثلاثين من أيلول (سبتمبر) 1950، وبعد زواجنا السري الذي دام بحدود ثلاث سنوات بدأنا احتفالاً مع توقيع عقد الزواج، الذي تمّ في مبنى المحكمة العليا. وقد كان موثق العقود السيد جروسيه الذي تأخر 15 دقيقة مما استدعى غضبي وطلبت منه عند ظهوره الانصراف. تم تدبير موعد جديد فيما كان الجميع ينتظر. وبعد ظهر ذلك اليوم أقامت لنا عائلتانا حفلاً ضم الأقارب

عرسنا في فندق رافيلز، في 30 أيلول 1950، البطاقة المكتوب عليها «ستيكفاس» في الزاوية اليسرى وضعها يونغ نيوك لين ليذكرنا بصناعة المسكة أثناء الاحتلال الياباني.

والأصدقاء في فندق (رافلز) واقترح توم سيلوك أستاذ الاقتصاد في جامعة سنغافورة، وكان قد درّسنا في (كلية رافيلز)، أن نشرب نخب العروس. ورغم أنه كان بعيداً عن خفة الظل وحضور البديهة إلا أن كلمته جعلت تشو تفخر بنفسها. انتقلت تشو بعد ذلك إلى 38 شارع أوكسلي، وكانت والدتي قد ابتاعت لنا بعض المفروشات الجديدة وبدأنا حياتنا الزوجية العلنية، لم تتكيف تشو بسهولة مع وجودها الآن مع عائلة لي، والتي كانت تتألف ليس فقط من جدتي وأبي وأمي وأختي وثلاثة أخوة، بل كان هناك أيضاً بعض الأقارب القادمين من إندونيسية والذين يعيشون معنا ويساعدون والدتي في دخلها.

انضممت إلى نادي (ايلند كلوب)، السنغافوري لأتابع رياضة الغولف التي كنت قد تعلمتها في تنتاغل. كنت مواظباً على التمرين واللعب إلى درجة أنني كنت أقود سيارتي ومعي تشو إلى النادي على الرغم من تساقط الأمطار الغزيرة. وذات مرة وعند بلوغنا شارع تومسون انزلقت سيارتي (الستوديباكر) ودارت حول نفسها، وتوقفت عند منحدر عشبي ناعم. كنت مصعوقاً من هذا الحادث وكذلك كانت تشو ولكننا كنا محظوظين، إذ لم نصب بأي جرح، ولو انزلقت السيارة أكثر مع خروجها عن الطريق لكنا صدمنا أنبوب ماء كبير عوضاً عن العشب الطري لكانت بلا شك النهاية.

لم أكن مرتاحاً. فقراءة الوضع السياسي في سنغافورة كان يثير الخنق، بل الغضب، من السلطة التي كانت في يد الحاكم، وسكرتيره الاستعماري والنائب العام. كانوا كلهم يعيشون في مجمع بيت الحكومة والذي كان يمثل مركز السلطة. عاش الحاكم في المبنى الأكبر. بيت الحكومة. وسكن السكرتير الاستعماري في المبنى الأصغر، وهو مبنى مؤلف من طابق واحد، وسكن النائب العام في المبنى الثالث. أما أعضاء السكرتاريا والمعاونون فقد عاشوا في المبنيين الباقيين. وخدم المقسم الهاتفي لهذه المباني الخمسة على مدار الأربع وعشرين ساعة.

هنا كان قلب الحكومة الحقيقي. كان هناك مجلس تشريعي. ولكن ستة من أصل خمسة والعشرين عضواً كانوا منتخبين، أما الباقون فقد عينهم البريطانيون والمسؤولون الذين كان على رأسهم السكرتير الاستعماري. وفي عام 1951 ازداد عدد الأعضاء المنتخبين إلى تسعة، ولكن لم يملكوا سلطة تستطيع تحديد السياسات، كما أنه لم يعرف عنهم أنهم وقفوا إلى جانب الشعب، الذي كانت مشاركته بالانتخابات التشريعية والمحلية سلبية إلى حد يبعث على الأسى.

رئيسي في العمل جون لايكوك كان روح ودينامو الحزب السياسي الرئيسي: (الحزب التقدمي) ولكن رئيسه المسمى كان سي-سي تان، وهو محام ذو شخصية ومظهر لا يسران. قيادة الحزب كانت تتكون رئيسياً من أولئك الطلاب الذين درسوا في إنجلترا القانون أو الطب في الثلاثينيات، وكانوا يهابون ويخشعون أمام المثل البريطانية الطاغية. مثلهم كمثل جدي الذي كان يرى أن كل شيء بريطاني يفوق في روعته الكمال. لم يثقوا بأنفسهم وبالتالي لم يثقوا بأبناء جلدتهم.

وصف باتريك دونافان مراسل الصحيفة الأسبوعية (الأوبزرفر) في جنوب شرق آسيا الجيل الأقدم من الطلاب الآسيويين العائدين من بريطانيا بأنهم لا يستطيعون عاطفياً أو نفسياً النضال من أجل الحرية. اعتُبروا أنهم غير قادرين على تولي زمام الأمور تولياً فورياً كما أنه لا يمكنهم إدارة دولة مستقلة وهذا ـ برأيهم ـ يتطلب سنوات طويلة من الخبرة.

ما رأيت، كان مجموعة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ودع عنك وقوفها أمام البريطانيين. وهذا ما انطبق على الهنود القادمين من الهند والذين كانوا يعتبرون (قادة سنغافورة) لأنهم كانوا يحملون جوازات سفر بريطانية، ولأن ثورة الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) أحدثت فراغاً سياسياً. فالقوة المحلية الفاعلة كانت (اتحاد العاملين والموظفين) بأمينها العام ليم يوهوك.

خطب هؤلاء الساسة كانت تتسم بالبلادة، التي لا تتحدى قط السيادة البريطانية. كان إحساسهم بالوجود والتفوق يتم عندما يقوم أحدهم بمجرد انتقال مسؤول استعماري. وصديقي كيني بايرون وصفهم بأنهم من (سلالة

العبودية والرق). كيني كان قد عاد إلى الوطن معي على متن (وليم رويس) وعمل في سكرتاريا الدولة، وكنا ننفس عن آلامنا وغضبنا عندما كنت أزوره في مكتبه الحكومي بعد العشاء.

كيني كان طويل القامة، يتحدث ببطء، ويمشي ببطء، أوروآسيوي يحمل ذاكرة تنوء بتطاول ووقاحة بعض زملائه البريطانيين العاملين في الخدمة العامة.

كنت مصمماً على أن أقوم بشيء تجاه هذا الوضع المزري، وكنت أتطلع لعودة أصدقائي الآخرين من إنجلترا، ولاسيما كينغ سو وتشن تشيو، كنت أريد أن أطلع على تقييمهم للأحوال، ومقارنة وجهات نظرنا، لنحدد اتجاه طريق العمل. وأردت أيضاً أن أقيم اتصالاً مع جون ايبر و ليم كين تشو، والأخير كان يقود الجناح اليساري في حزب (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) (MDU) قبل قرار منع الحزب من مزاولة نشاطه بموجب قانون الطوارئ الذي أُعلن في حزيران (يونيو) 1948. الذي حدث أنه في أحد أيام تشرين الثاني (نوفمبر) 1950. وبدون إعلان مسبق اتصل بي جون ايبر إلى سكني في (أوكسلي رود). سألته حينذاك عمَّ يمكننا فعله تجاه السياسيين الدستوريين المفلسين؟ ولِمَ لا ننشئ حزباً ونفعل شيئاً حقيقياً ووطيداً، ونوقف ضرب الطواحين هذا، ونتحدى سلطة الحكومة الاستعمارية؟ لم يعلق بشيء. قال: (حسناً، هنالك الآن حالة طوارئ. ويجب أن تكون في غاية الحذر) لا بد أنه كان قد سمع من ليم هونغ بي عن لقائي معه في لندن واعتبر أني قد أصبحت نصيراً محتملاً.

في كانون الثاني (يناير) 1951. أعلنت الصحف عن اعتقال مجموعة من الشيوعيين من ذوي الخلفية التعليمية البريطانية. وبين المعتقلين كان جون ايبر، وهو نائب حزب الاتحاد الديمقراطي المالاوي، وسي. في ديفان ناير سكرتير اتحاد المعلمين السنغافوريين، وعبد الصمد بن إسماعيل المحرر الرئيسي في الصحيفة المالاوية (أوتوسان ميلاوي). كانت هذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها السلطات بالاعتقال استناداً إلى أحكام قانون الطوارئ، لتشمل مجموعة ذات

خلفية ثقافية إنجليزية. كنت آمل أن أثير اهتمام جون ايبر وأصدقائه لتشكيل حزب سياسي دستوري ولكنه كان قد اعتبرني عضواً محتملاً في حزبه وقضيته، ولو تأخر القبض على هذه المجموعة ستة أشهر أخرى أو سنة لكانت طالتني حملة التطهير هذه والتي قامت بها المجموعة الخاصة. تحول الأحداث هذا أعطاني وقتاً لتتبلور ردود أفعالي، وسرعان ما فهمت خطورة هذا التطور.

كان الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) يشن حرب عصابات ضد البريطانيين في أدغال الملايو، يطلق النار على المزارعين البيض، وعلى السكان المحليين الذين يساندون المستعمرين. كانوا يربحون الكثير من المناصرين في أوساط الأكثرية الصينية المتعلمة في سنغافورة، والذين تأثروا بالتقارير التي تحدثت عن تقدم الصين الشيوعية، والنجاحات التي أحرزها (جيش التحرير الشعبي) ضد الجيش الأمريكي في كوريا. هذه النجاحات أعطت دفعاً قوياً لمركز الصين، وبالتالي أدى إلى تحول المتعلمين الصينيين باتجاه تبني القضية الشيوعية.

ومع التطورات الأخيرة أصبح ظاهراً أن الحزب الشيوعي المالاوي قد كسب أنصاراً داخل الطبقة المثقفة إنجليزياً. ورغم المعاملة المتميزة التي كانوا يلقونها، وهيمنتهم على الوظائف والمهن في الدولة، نجد أن بعض أكثرهم مثالية قد استسلم إلى الجاذبية الشيوعية التي كانت تدعو الشعب لمقاتلة الاستعماريين. هنا إن لم نقم بشيء وإن فشلنا في تجنيدهم في حركة سياسية مؤثرة فإن الحزب الشيوعي سيكون الرابح الأكبر.

تابعت عملي في المحاماة ولحقت لايكوك إلى قاعات المحاكم في قضايا شانسري. كان يبدو عليه الوقار عند وقوفه أمامها، ولكن في الحالات الأخرى كان أقرب ما يكون إلى شخص بدائي فطري. كان يأخذني معه إلى الغداء والعشاء، يشرب بغزارة (البيرة السوداء والبيرة العادية) كي يغسل بهما طبق المحار الذي تناوله في مطعم فندق مطار كالانغ، أو شرائح اللحم السمكية في مقهى ستانفورد أو (ادلفي جريل). كان أحياناً يسكر إلى الحد الذي يعيقه عن

ممارسة عمله بفعالية بعد الظهر. وفي الليل كان يجرع الويسكي بإسراف. وكنت آكل أكثر مما هو مناسب لي، وأشرب أكثر مما أريد. كان لايكوك يعتبرني مرشحاً جيداً للانضمام إلى (حزبه التقدمي) وقد سألني في شباط (فبراير) 1951 أن أكون مندوبه في مجلس الانتخابات التشريعية، وافقت لأن هذا سيعطيني فكرة أوضح عن الظروف والممارسات في سنغافورة.

يوم الترشيح كان في الثامن من آذار (مارس)، ولكن الشيء الغريب أن الشارع لم تبد عليه الإثارة. فالمجلس التشريعي السابق الذي تمت انتخاباته عام 1948 كان المصوتون فيه 23000 من أصل 200000 ممن يحق لهم التصويت. وكان نصف المصوتين تقريباً من الهنود، رغم أن الجالية الهندية لا تتجاوز الستة بالمئة من عدد السكان. وفي انتخابات هذا العام 1951 لم يكن غريباً أيضاً أن يكون عدد الهنود المتقدمين إلى الانتخابات غير متناسب مع وزن الجالية الفعلي. كان عددهم 9 من أصل 22 مع وجود متقدم من سيلان يتنافسون على تسع مقاعد. ومن ضمن هؤلاء الهنود تقدمت امرأة، وهي المرأة الأولى التي يتم انتخابها للمجلس التشريعي، إلا أنها فرّت إلى الهند مع زوجها المحامي وحملا معاً مبلغاً كبيراً من المال يعود إلى الموكّلين والزبائن. ولم تكن نتائج هذا العمل نافعة لهنود سنغافورة الذين نُظر إليهم وكأنهم طيور مهاجرة.

مع التصويت الهزيل، ضمن لايكوك لنفسه مقعداً في المجلس بين ست مقاعد فاز بها الحزب التقدمي. ذهب مقعدان إلى حزب العمال، والمقعد التاسع لمستقل. هذه الانتخابات كانت تقليداً لما شاهدته في إنجلترا. لايكوك اختار منطقة كاتونغ كدائرة انتخابية له. وهي منطقة تقع على الساحل الشرقي حيث يوجد عدد كبير من متكلمي الإنكليزية الصينيين من سكان المضيق والذين يوالون الملك والامبراطورية. ولما كنت وكيله الانتخابي قمت بتوزيع المتعاونين ليعلقوا ملصقات في الشوارع تحمل صورته واسمه وشعاراً عنوانه (صوتوا لجون لايكوك ـ الحزب التقدمي). طلب مني لايكوك أن أنظم له حفلات ساهرة مع راقصات محترفات

تشاركن الرجال في رقصات (الجوجيت) المالاوية؛ وأن أقدم لهم الطعام والشراب مع أن ذلك كان ضد القانون. كان علي أن أكون متأكداً من أن زعيم المنطقة قد استلم المكافأة المناسبة. لأنه عند عودته إلى جماعته سيحثهم على انتخاب لايكوك. وخلال هذه السهرات كان جون لايكوك يقف على منصة صغيرة وسط المحاضرين حاملاً مكبراً بيده ليبدأ خطاباً باللغة الإنكليزية. ويعد بأنه سوف يجلب الكهرباء والماء لمستمعيه. وقليل من المستمعين كان يفهم لغته. أقام لايكوك أيضاً اجتماعين في (كامبونغ أمبر) وهي منطقة بائسة عشوائية، وقد أصبحت اليوم منطقة سكنية مرموقة ذات أبنية عالية جميلة.

كما كان الحال في انتخابات عام 1948 كان عدد المصوتين في هذه الانتخابات قليلاً أيضاً. بلغ عددهم 24693 من أصل 250000 صوتاً. وبالطبع كان هؤلاء النواب لا يمثلون إلا جزءاً صغيراً من الجموع السكانية. أكثرية السكان ممن يسكنون في الجزءين لم يبالوا بما يجري، عدا عن كون التعليمات الانتخابية كانت كلها باللغة الإنكليزية، والأغلبية كانت تتحدث بالصينية فقط. وكان تقدمهم في النواحي الحياتية محدوداً عند إنهائهم المدارس الصينية، أما تطلعاتهم السياسية فرأوا أنها ممكنة التحقيق عن طريق الحزب الشيوعي المالاوي. هذه الجموع من الناس كانت تتألف من الباعة الجوالين وسائقي العربات الفردية (تريشاو) وسائقي التكسي وباعة اليانصيب غير الشرعي (شاب ـ جي ـ كي) وغير ذلك من الممنوعات. كانوا خليطاً من الناس العاديين الذين لا يظهرون في غرفة الاستقبال الخارجية كمكتب لايكوك، يبحثون عن نجاة من مأزق لهم مع الشرطة أو السلطات المحلية أو الحكومة. ولما كانوا يجهلون اللغة الإنكليزية كان الموظفون المساعدون يقومون بترجمة أقوالهم إلى محامين لا يعرفون لغتهم.

شعرت أن العالم الذي وضعنا فيه الاستعمار كان عالماً سوريالياً. فالمسؤولون يقومون بخدمة أغراضهم الخاصة، وأغراض أولئك الذين تثقفوا ثقافة انكليزية بسبب إمكانهم إثارة ضغوط عليهم عبر الصحف الناطقة بالانكليزية؛ مع أنهم لم

يكونوا المحرك الاقتصادي للمجتمع السينغافوري. كان عندي إحساس عميق بالقلق وعدم الراحة. ناقشت هذه الأفكار مع كيني فقط، فعليّ متابعة تحسين مستقبلي عبر ممارسة القانون، وأن أرى المدى الذي يمكن لهذه الممارسة أن تساعدني في العمل السياسي.

في السابع من آب (أغسطس) 1951 أنهيت مدة العام كمتمرن، واستدعيت مع تشو إلى هيئة المحامين. لبست بزة سوداء وفوقها ثوب المحاماة الموشح بشريط قماشي أبيض، وفي جيبتي كانت القبعة المنشاة القاسية. كان ذلك حدثاً هاماً لأن هيئة المحامين كانت تضم 140 عضواً ولا ينضم إليها سنوياً أكثر من عشرة أعضاء جدد. وقدم رينيه ايبر وهو محامي أوروآسيوي محترم أوراقنا للقبول، مرفقاً ذلك بكلمة لطيفة طيبة. لا بد أن نذكر أن ابنه جون - الشيوعي المستتر - كان قد اعتقل قبل سبعة أشهر. يا له من عالم صغير، عالم سنغافورة!.

لأن اسمي في شهادة الميلاد كان هاري كيوان يو، لم أرد أن أسقط اسم هاري من سجلات القيود. حاولت ذلك في (ميدل تمبل) وفي جامعة كيمبريدج وجاء اسمي في شهادتيّ الاثنتين من جامعة كيمبريدج التي تشهد علي أني حصلت على إجازة في القانون هاري كيوان يو. قررت عام 1950 أن يكون اسمي في هيئة محامي سنغافورة اسماً صينياً، وأن يوضع اسم العائلة قبل اسمي ليصبح لي كوان يو. هذه المرة نجحت في مساعي وأصبح اسمي الرسمي والمعروف هو لي كوان يو. كان هذا ما يساعدني على تصنيف نفسي كوطني يساري، وهذا ما لاومني فيما بعد في التقارير الصحفية التي علقت على مرافعاتي في المحاكم. ولكن خلال تلك السنوات بقيت زوجتي - وبعض أصدقائي الخاصين ينادوني بهاري. وكنت أرى أن هذا يؤثر علي سلبياً من الناحية السياسية. وحتى منتصف الستينيات وبعد مروري بأوقات صعبة استطعت تجاوز آثارها، تمكنت من تجاوز الإحساس بعدم الراحة من ذلك الاسم. وفهمت أن الاسم لا يعني انتقاصاً مني أو من القيم التي أومن بها، فأنا لم أسم نفسي ولم أسم أبنائي بأسماء غربية، كما أنهم لم يسموا أبناءهم بأسماء غربية.

بعد ثلاثة أيام من استدعائي إلى هيئة المحاماة طلب مني صديقي القديم ـ كاتب المحكمة العيا ـ تان ثون ليب، أن أقوم بالدفاع عن أربعة من الملاويين، وهو ما ترك بعد ذلك، أثراً عميقاً في نظرتي إلى نظام المحلفين في المحاكم السنغافورية. في كانون الأول (ديسمبر) 1950 أودعت فتاة هولندية في الدير بأمر من المحكمة العليا بعد أن كانت أمها الملاوية بالتربية قد أدخلتها في الديانة الإسلامية، حتى ينظر القاضي ويقرر حق أمها الطبيعية في إعادتها إلى دينها الأصلي. كانت الأم الطبيعية الهولندية قد أودعت الفتاة عند امرأة ملاوية كي ترعاها بعد أن اجتاح اليابانيون البلاد. وتفجر الموضوع عندما نشرت الصحف صورة الفتاة وهي واقفة أمام تمثال لمريم العذراء. وأثارت هذه الصورة غضب المسلمين الذين اعتبروا أن الفتاة مسلمة مثلهم، وتأججت أعمال الفوضى لعدة أيام، قامت خلالها الجموع الثائرة بقتل الرجال والنساء البيض في الشوارع بدون تمييز.

أما الرجال الأربعة الذين كان علي الدفاع عنهم فهم ضمن مجموعة من 13 شخصاً اتهموا بارتكاب أعمال عنف، أدت إلى مقتل تشارلز جوزف رايان، الضابط في سلاح الجو الملكي. اف. بي. أويهيلرز، المحامي القديم والزميل تولى الدفاع عن التسعة الباقين.

دامت المحاكمة قرابة الأسبوعين، وانعقدت أمام قاضٍ ومحلفين سبعة. وبذلت جهداً في هذه القضية أكبر من جهود أويهيلرز لأن الرجل الخمسيني كان قد رسخ سمعته لدى هيئة المحامين، أما أنا فقد كان علي أن أعمل على تأكيدها. قمت بأكثر المداخلات والاستجوابات والتي يمكن أن تؤدي نتائجها إلى زرع الجهة التي قامت بارتكاب العنف والفوضى والتي تسببت بموت رايان. الحادث وقع مع اقتراب الظلام، فقد قامت بضربه حتى فقد وعيه ومن ثم ألقي في عمق مجرى مياه موسمي في منطقة جيلانغ سيراي الملاوية. تمكنت من نقل القاضي والمحلفين إلى مكان الحدث مساءً حتى أشهدهم على ضعف إنارة الطريق وكثرة

الأمكنة المعتمة فيه وكان سؤالي: كيف يمكن لشخص شهد هذه الحادثة التي اشترك فيها ما بين 40 إلى 50 مالاوياً ومسلماً هندياً، ورغم عدم معرفته المسبقة بهم، ورغم انعدام النور الكافي أن يتأكد من تحديد الأشخاص الذين قاموا بضرب الضحية؟ كم كانت المسافة التي كانت تفصله عن المهاجمين؟ ما هو طول المدة التي رأى فيها موكليي؟ ما نوع الألبسة التي ارتدوها؟ وما هي العلامات الفارقة أو الملامح البارزة التي ارتسمت على وجوههم؟

بعد استجوابنا للشهود، قمت وأويهيلرز بتلاوة مرافعاتنا. بيّنا فيها التناقض الذي وقعت فيه أقوال الشهود، بين ما قالوه في بداية التحقيق، وبين ما قالوه في قاعة المحكمة، ولاسيما فيما يتعلق بسلامة الرؤية في الظلام.

المحلفون الصينيون والهنود كان مثلهم كمثل شخص يقف أمام باب مفتوح وينتظر من يدفعه خلاله. فإدانتهم للمتهمين لم تكن تشعرهم بالرضى لو كانت هذه الإدانة سترسل أحداً إلى الموت. وشعروا بالارتياح عندما برّأوا الجميع من تهمة القتل. ولكن لما كانت هناك أدلة ضاغطة على ضمائرهم فقد وجدوا تسعة من هؤلاء مذنبين لكونهم ساهموا بإرادتهم في إحداث أضرار فادحة. وثلاثة من موكلي سلموا من الإدانة، أما الرابع فقد حُكم خمس سنوات بالسجن المشدد. وارتسمت على وجهي القاضي والنائب العام البريطاني علامات عدم الرضى والتقزز.

وأنا أيضاً لم أكن راضياً عن هذه النتيجة. كان واجبي كمحام أمام المحكمة العليا يتطلب مني أن أبذل ما بوسعي لصالح موكلي بدون أن أزيح عن القانون، أو أن أقدم على تزوير أو افتراء، تجمعت لدي الكثير من الشكوك حول مسار المحكمة والنتيجة المُحبطة التي طالت العدالة، فموكلي الأربعة قاموا بقتل رايان. في تلك الليلة كانوا في قمة الهيجان، وكان ممكن لهم أن يقتلوا كل من يظهر في طريقهم من البيض أو من يمت للبيض بصلة، وكذلك كل من كانت له علاقة بالديانة المسيحية مما كان يعني لهم أنه ضد الاسلام. لم أكن أثق بالنظام الذي

يسمح بالخرافات القائمة على أسس جاهلية، مجحفة، بالإضافة إلى الخوف من قرار سبعة محلفين يمكنهم إيقاع الإدانة أو إقرار البراءة. بينما هم وحسب التصنيف أناس عاديون تلقاهم في الشارع، لا تميزهم صفات خاصة عن غيرهم، عدا عن فهم اللغة الإنكليزية لمتابعة إجراء المحكمة وقوانينها. رأيت المحلفين في المحاكم البريطانية. ولم أقتنع قط بأنهم يستحقون ذلك الإجلال والإشادة بحكمتهم الجماعية والذي يتم وفق طقوس يقوم بها المحامون.

الفرق بين محاكم إنجلترا ومحاكم سنغافورة هو أن الأخيرة كانت بحاجة إلى مترجم. فالكثير من الشهود لم يستطيعوا، أو لم يريدوا التحدث بالانكليزية. ولو كان ذلك لكسب بعض الوقت يعينهم في ترتيب إجاباتهم عن الأسئلة. فالمترجم المالاوي في القضية المذكورة كان مسلماً هندياً غامق اللون، فخم الأداء. كان يستعين في ترجمته بطبقات الصوت، ولغة الجسد، ويعبر عن مزاج الشاهد من أشهر العبارات التي لا ننساها كانت ترجمته لعبارة (الله أكبر) هي على النحو التالي: (إنه يقول إن الرجال صرخوا الله أكبر، يا إلهي، هذه العبارة تعني «الله هو العظيم» وهي أيضاً صرخة الحرب عند المسلمين).

ولكن كانت هناك فوائد أخرى للمترجمين، فعندما ولد لنا أول ابن في يوم الأحد 15 شباط (فبراير) 1952 استشرت واحداً من هؤلاء المترجمين المتواجدين في المحكمة العليا والذي ساعد الكثير من المحامين في إيجاد أسماء صينية لأولادهم. ولما كان تاريخ الولادة يعتبر فالاً حسناً حسب التقويم الصيني ـ اليوم الخامس عشر من أول قمر في عام التنين. قررنا لذلك وبعد الاستشارة، أن نسمي ابننا هيسين لونغ ـ (التنين الشهير). كان ابننا يتمتع بطول ممتاز ويزن أكثر من ثماني باوندات، كانت فرحتنا به كبيرة.

وعندما قابلت تشو في مشفى الولادة (كاندانغ كيرباو) بعد أيام، كنت أزف لها الجزء الثاني من طالعي الذي تحقق، والذي كان عملي النقابي الأول. لا شك أن هذا سيجلب لي موقعاً سياسياً ويضعني في صدام وجهاً لوجه مع الحكومة.

7. صداماتي الأولى مع الحكومة

بعد ظهر أحد الأيام من عام 1952 جاءتني مجموعة من ثلاث شبان من الملاويين وهندي واحد في لباس موزعي البريد إلى مكتب (ليكوك وأدنغ) لرؤيتي. قابلتهم في المكتب الخارجي - وكان حاراً وغير مكيف وصاخباً بسبب أصوات الحافلات والباعة المتجولين. أخبرني موظفو البريد الذين كانوا يلبسون ملابس موحدة بأن ثمة ادعاءات ضدهم بشأن الرواتب، ولكن هذه الادعاءات لم تثبت صحتها، وأنه سمح لهم باستشارة محام كي يرافع عنهم. سألت جون لايكوك ما إذا كنت أستطيع أن أتولى القضية؟، لا سيما وأنها ليست قضية كبيرة. فسمح لي بذلك تعبيراً عن النوايا الطيبة. وقبلت بدون أن أطلب منهم الأتعاب القانونية.

هذا القرار بتمثيل موظفي البريد صار بمثابة نقطة تحول في تاريخ النقابات والعمل القانوني. لم أكن أعرف إلا القليل لأنني سأوجه قادة النقابات إلى اضطرابات غيّرت خلال أسبوعين المناخ السياسي. لقد وضعت القضية الحكومية الاستعمارية في موقع الدفاع وشجعت النضال العمالي، ولكنها خلقت في الوقت نفسه ظروفاً شجعت الشيوعيين على إعادة تنظيم تأييد جماهيرهم.

ب. غوفنداسامي موظف بريد (أعلى بدرجة من موزع البريد) لم يكن مثقفاً، ولكنه كان يلخص ما يريد قوله بإنكليزية مناسبة. كان رجلاً جيداً يعتمد عليه انتخب فيما بعد عضواً في البرلمان في دائرة انتخابية قريبة، واهتم بأمري. كنّا مُقدمين على تظاهرة. وفي أحد أيام الآحاد صباحاً عقد الاتحاد اجتماعاً قبل إعلان إضراب في مركز تجمعهم في شارع ماكسويل حيث تعيش أسر كثيرة في شقق من غرفة واحدة ومطابخ ودورات مياه مشتركة. اجتمع معظم أعضاء اتحاد البريد الذي يقارب عددهم 450 شخصاً. كان حضوري لتشجيعهم ولإعادة التأكيد على أن ما يفعلونه ليس غير قانوني، ولا سيما أن الاضرابات ممنوعة في

سنغافورة منذ إعلان حالة الطوارئ عام 1948. وفي سوق المالايو قلت رأيي أمام الجميع، ومعظمهم من المالاويين، والبقية من الصينيين والهنود الذين كانوا مصممين على الإضراب.

وقبل أن يبدأ الإضراب في 13 أيار (مايو) دعاني كينغ سوي الذي عاد من إنكلترة إلى الغداء في (نادي السباحة الصيني) في شارع عنبر كي ألتقي بصحفي من جريدة (سنغافورة ستاندرد) واسمه سيناثامبي راجاراتام. كان مالاوياً من جافنا تاميل. عاش في لندن 12 سنة حتى عام 1947، كان زميلاً لمجموعة من الهنود والأفارقة والبريطانيين اليساريين ويكتب مقالات صحفية معادية للاستعمار كان يجيد الإصغاء. فأوجزت له، ونحن جلوس في الهواء الطلق بجانب بركة السباحة والموسيقى تصدح، الأسباب الكامنة وراء الإضراب. إذ كان ينتظر موضوعاً ساخناً كي يتحدى الحكومة الاستعمارية، وتواقاً لخوض معركة من أجل موظفي البريد.

وفيما كان موظفو البريد يتظاهرون بصورة سلمية في الصباح الأول للإضراب، أرسلت الحكومة مفرزة كبيرة مسلحة من قوات حفظ الأمن (الغوركا) إلى المركز العام للبريد في بناء فوليرتون في منطقة (كولير كواي) التجارية المشهورة، وأعلن نائب رئيس الشرطة أن الشرطة المسلحة ستحمي وترابط أمام جميع مراكز البريد حتى انتهاء الإضراب.

وفي اليوم التالي نشرت الصحف صور (الغوركا) والشرطة، ونشرت إلى جانب ذلك بياناً معتدلاً لرئيس الاتحاد يقول فيه: إن موظفي البريد سوف يمتنعون عن التظاهر حتى تُفهم أهدافهم فهماً واضحاً. والتي جذبت عواطف الجماهير إلى موظفي البريد. وفي اليوم التالي سحبت الحكومة (الغوركا) واستؤنف الإضراب بصورة سلمية.

في مقر أمانة سر الحكومة في قصر امبريس، آقود الوفد المفاوض حول الاتصالات البريدية في أيار، 1952 في أقصى اليمين رئيس مكتب البريد ب. جوفيندا سامي الذي أصبح فيما بعد عضواً في البرلمان.

كانت صحيفة (سنغافورة ستاندرد) صحيفة محلية محدودة التوزيع بالمقارنة مع صحيفة (ستريت تايمز) الموالية لبريطانيا، ولكن صوتها ارتفع عالياً في هذا الصراع. وقد قرأها كثير من القراء المحليين، كما اضطر بعض الضباط البريطانيين إلى قراءتها أيضاً. وفي المقالة الافتتاحية تهكم، وأجاب بسخرية من الانحياز العنصري للحكومة الاستعمارية متسائلاً عن حق المغتربين البريطانيين في تلقي رواتب أعلى من الموظفين المحليين، فهم يتقاضون ألف دولار شهرياً، في حين رفضت الحكومة منح الموظفين المحليين زيادة مقدارها 10 دولارات في الشهر.

في غضون ذلك تراكم البريد وهذا ما أقلق الجميع. كان على المواطنين أن ينقلوا رسائلهم وبريدهم بأنفسهم. ومع هذا فقد كان الجمهور متعاطفاً مع موظفي البريد بسبب تصرفاتهم المعتدلة والبيانات التي كنت أكتبها لهم. كما ساعدت عناوين ومقالات صحيفة (سنغافورة ستاندارد) كثيراً. كما ساندت صحيفة (أوتوسان ميلايو) المُضربين، لأن معظمهم كان من المالاويين. كذلك فعلت الصحف اليومية الصينية، مثل (نانيانغ سيانغ باو) و(سين تشيو جيت بوه) حيث إن معظم محرريها من الشيوعيين الذين يعارضون الحكومة دوماً.

صحيفة (ستريتس تايمز) من جهة أخرى، كان يملكها ويديرها البريطانيون. وكان لديها كاتب افتتاحيات ماهر، هو الينغتون كينارد، الذي حاول أن يكون محايداً، ولكن من الصعب عليه ألا يوالي الحكومة. كان راجا يتمتع بالمعركة، كانت حملة عنيفة بكل معنى الكلمة ـ نضال من جانب الجماهير المسحوقة ضد عصبة لا تعرف الشفقة من المستعمرين المستغلين البيض، أما أسلوبه الساخر فكان شديداً. فالسنوات الطويلة من التعامل مع الهنود والهنود الغربيين المعادين للامبريالية قد أعطته خبرة كبيرة. وكنا نشكل معاً ثنائياً متناقضاً: راجا قوي وجريء، وأنا مجامل، كنت أخابره لتقديم اقتراحات، أو للتشاور حول ردود أفعال

المؤيدين، وقد كان يراجع افتتاحياته معي قبل نشرها. واستطاعت (سنغافورة ستاندرد) أن تثبت أقوالها، أما أنا فقد كنت أنشر رسائلي في (ستريتس تايمز) كي نحافظ على مظهر عدم التحيز.

وفي نهاية الأسبوع الأول انقلب الرأي العام بقوة ضد الحكومة. لم يكن ضباط الاستعمار البريطاني معتادين على عرض قضيتهم من أجل أن يكسبوا الرأي العام، أو التعامل مع المحليين الذين يظهرون بدأب تناقضهم وضعفهم. فالتعامل القاسي الذي أظهره ضباط الحكومة مع رجال البريد حرك الاتحادات الأخرى لدعمهم. حتى الأمين العام لمجلس نقابات سنغافورة، والذي كان مقرباً ومتعاوناً مع ليم يوهوك، وعضو (اللجنة التنفيذية لحزب عمال سنغافورة) انضم إلى التيار السائد. وأعلن عن تأسيس صندوقٍ (لمساعدة موظفي البريد من أجل الاستمرار في إضرابهم حتى يحققوا النجاح) ودعت صحيفة (سنغافورة ستاندارد) إلى تبرع الجمهور وجمع التبرعات من المتبرعين.

أسقط في يد الحكومة. ودعا أمين سر السلطة الاستعمارية إلى (استئناف المفاوضات حالما يعود المستخدمون إلى عملهم). أجبت أن العمال إذا أوقفوا إضرابهم. ثم أخفقت المفاوضات ثانية، فسوف يواجهون احتمال إضراب آخر. (هذا العمل إذا تكرر عدة مرات من شأنه أن يضعف الإضراب ويؤدي إلى إفلاس سلاح الاتحاد الأخير في المساومة الجماعية).

وفي اجتماع المجلس التشريعي الذي انعقد يوم الأربعاء، 20 أيار (مايو) حذر الحاكم نفسه عمال البريد بأن الحكومة لن تقبل عن طريق الإضراب الانصياع إلى جميع مطالبهم. وفي اليوم التالي كتب راجا في صحيفة (سنغافورة ستاندارد):

> «لأول مرة في تاريخ الحركة النقابية في هذه البلاد، يشك المسؤول الأول في المستعمرة علانية بشرعية سلاح الإضراب. والأكثر من ذلك أن السيد نيكول (الحاكم) يقول: إن الحكومة ستمارس الضغط خلال الإضرابات سواء أكانت مبررة أم لا، مشروعة أو غير مشروعة، كأمر لا يمكن للحكومة أن تتساهل فيه».

أثار التصريح الاستياء. وشعر المسؤولون البريطانيون بالإحراج والضعف تجاه تحول الأحداث. فقد أصيبوا بصفعة أمام الجمهور. ورد أمين عام المستعمرة بوعد موظفي البريد والبرق المضربين، بأنه هو نفسه الذي سيدير المفاوضات مع ممثلي اتحادهم، إذا ما عادوا إلى العمل. مما حفّز قادة الاتحاد على اتخاذ موقف جديد وأعلنت أن الإضراب سيُعلّق لمدة ثلاثة أيام. حفظ هذا الاقتراح ماء وجه أمين سر المستعمرة وموظفيه. واستؤنفت المفاوضات في 26 أيار (مايو) وانتهت باتفاقية مرضية.

كان ذلك أول إضراب منذ فرض (إجراءات الطوارئ) في حزيران 1948، وقد تم في إطار القانون تماماً، بدون تهديدات أو عنف أو أعمال فوضوية. كان النضال من أجل الحصول على التأييد الشعبي وقد فاز الاتحاد في معركته. وبعد هذا الاستعراض لعجز موظفي الاستعمار البريطاني اكتشف الشعب أن الحكومة هشة عندما تتعرض للامتحان. وعزز ما نشرته الصحافة ووسائل الإعلام مكانتي المهنية. فلم أعد مجرد محامٍ صغير عائد من كيمبريدج بشهادات أكاديمية مشرفة. بل قدت العمال المضربين، وتحدثت باسمهم وكنت موضع ثقتهم. فاوضت بدون تساهل ولا ضعف. وكسبت إلى حد كبير تقدير آلاف العمال في سنغافورة والملايو. وبدون أن أثير خشية الطبقة ذات الثقافة الإنكليزية. ونستطيع أن نوسعها بالجهد السياسي الذي كنا نسعى إليه عندما كنا نناقش خطط عملنا أثناء الأمسيات التي كنا نمضيها في الحديث وشرب الجعة في لندن بعد اجتماعاتنا في قاعة الملايو لقد وجدنا الطريق لحشد تأييد الجماهير.

تشجعت الجماعات غير الشيوعية واشتد عودها بهذا الاستعراض وبهذا العمل الدستوري، السلمي، غير العنيف لإحقاق الحقوق المشروعة. وقد طلبت مني عدة نقابات واتحادات أن أكون مستشاراً حقوقياً لها، وكنت سعيداً بالتعاون معهم كمؤيدين سياسيين محتملين. ودفع معظمهم نفقات لـ: ليكوك وأونغ من أجل وضع اسمي على رأس رسائلهم بصفتي مستشاراً حقوقياً لهم. كما حضرت كثيراً

من دعوات العشاء ودعوات الاجتماعات العامة التي كانوا يوجهونها إلي. وتعلمت أن أختلط بكثير من الجماعات الصينية، التي يتحدث بعضها اللغة الكانتونية أو لغة الماندرين مثل (اتحاد عمال الطباعة الصيني) وبعضها يتحدث اللهجة المحلية فقط مثل (اتحاد هاكا) في سنغافورة. كان الأمر محرجاً لي غالباً لأن لغتي الصينية ضعيفة للغاية. وكنت أشعر بالخجل لعدم قدرتي على التواصل معهم بلغة يفترض أنها لغتي القومية. ومرة أخرى بدأت أبذل جهدي لتعلم لغة الماندرين.

فحصلت على مُدرس، وعلى مسجلة صغيرة، واشتركت مع شخص في تلقي الدروس حيث كنا نلتقي في مكتب المدرس الحكومي في شارع كانتومنت. ولكن التقدم كان بطيئاً (مع الأسف). فلم يكن لدي سوى القليل من الوقت، ومن الفرص لممارسة اللغة. لم أكن بحاجة إلى لغة الماندرين على أية حال عند انهماكي الواسع المقبل في العمل الصناعي، ففي كانون الأول (ديسمبر) من عام 1952أضرب الأعضاء الهنود الرئيسيون في اتحاد (القاعدة البحرية العمالي) وفي التاسع والعشرين من كانون الأول أضرب العمال في قاعدة سيمبا وانغ بسبب عدم رضاهم عن الضباط البحريين المسؤولين عنهم وعن الحكومة السنغافورية. وتعطلت سفن البحرية الملكية التي وصلت إلى سنغافورة من الحرب في كوريا - حاملة طائرات وطائرتان مقاتلتان وغواصة لأنها كانت بحاجة إلى إصلاح. تدخل الحاكم، ولكن بعد اجتماعين غير مثمرين، وافق ممثلوا الطرفين إلى إحالة النزاع على مُحكّم مستقل. هو جون كاميرون، مستشار الملكة من (المحكمة الاسكتلندية) وطلب مني الاتحاد أن أعرض قضيته.

أمضيت بضعة أسابيع أدرس معدلات الرواتب وأجري المقارنات ما بين رواتب الحكومة والأدميرالية السنغافورية للعاملين لديها في أعمال مماثلة. وكانت المرافعات في غرفة (مكتب التسجيل التابع للمحكمة العليا) واستمرت لمدة أسبوع في شهر شباط (فبراير) عام 1953. وكان كاميرون محامياً اسكتلندياً ناضجاً عمل في جو من النزاهة وعدم الانحياز. وكان لدى الأدميرالية رجل خبير ممن

يعرف أن معدلات الرواتب لديهم متدنية. وعندما ألقى كاميرون مرافعته في 11 آذار (مارس) كان من الواضح أنه يعرف حدود ميزانية الأدميرالية، ولم يكن يرغب في أن يخرقها. ضغطت من جانبي على فكرة المساواة مع معدل ما تدفعه حكومة سنغافورة، ولكن كاميرون رفض ذلك.

أصيب المسؤولون في النقابة بخيبة أمل، وكان الرئيس واقعاً تحت ضغط رفض الحكم. اجتمعت مع المسؤولين وقلت بإلحاح إنه لن يكون من الحكمة استئناف الإضراب بعد أن قبلوا بمبدأ التحكيم كوسيلة للتسوية، وكان هذا جزءاً لا يتجزأ من النضال الدستوري. انتصر رأيي ولم يكن الوضع سيئاً لي. على الرغم من أنني خسرت بعض التشجيع لعدم حصولي إلا على تنازلات يسيرة، فقد أثبت نفسي كمستشارٍ قانونيٍ يعرف القواعد ويحسن المداورة. مستعدٌ لتقديم النصح لزبوني (الاتحاد) بالقبول بحكم ليس في صالحهم.

كانت تجري إضرابات أخرى في سنغافورة والملايو. فقد أعلن كُتّاب (اتحاد سنغافورة لعمال البريد والاتصالات الهاتفية) أنهم سيضربون في 23 آذار (مارس) 1953 من أجل زيادة رواتبهم. وكان ذلك أول إضراب يأتي من جانب عمال يعملون في الحكومة. طلب مني الاتحاد أن أكون مستشاره القانوني. عرضت الحكومة التحكيم، وبعد مناقشات بيني وبين الاتحاد وافق الأخير. ووضعت الحكومة أسماء ستة أعضاء من هيئة المحلفين، وكان أحدهم يونغ بونغ هاو، زميلي في (مدرسة كيمبريدج للحقوق).

وعلى مدى ثلاثة أيام حظيت الوقائع باهتمام كبير في الصحافة والإذاعة. كان أمامي هدفان: أن أحصل على حكم جديد، والأهم من ذلك أن أكشف الطريقة الاعتباطية والتي لا تتسم بالكفاءة التي يتعامل بها موظفو الإدارة الاستعمارية البريطانيون مع الموظفين الحكوميين المحليين. وقد قمت بهذا بدون إبداء عدوانية. عرض يونغ هاو أن يُدفع للعمال الألف رواتب 28 شهراً إضافية مع زيادات أخرى تصل إلى مليون دولار. وقد أعادت هذه النتيجة مكانتي لدى العمال وعززت موقفي.

في تلك الأثناء كان كبار موظفي الحكومة المحليين يتململون. فقد اشتكى كيني من العرض غير العادل بإعطاء تعويضات عائلية خاصة للموظفين المغتربين فقط. وكان (اتحاد كبار موظفي سنغافورة) قد كرر مطالبه بهذا الشأن دون جدوى. وعندما عاد كينغ سوي من لندن في نهاية 1951، أوجد استراتيجية بسيطة تعطيهم قدرة سياسية على مناقشة الحكومة. بدلاً من الاختلاف على التعويضات العائلية، بالمقارنة مع تعويضات الاغتراب، بالنسبة لأقل من 200 موظف رفيع المرتبة، اقترح كينغ سوي أن يطالبوا بتعويضات نسبية لجميع موظفي الحكومة، ولاسيما ذوي الرواتب الضئيلة والرواتب اليومية. فمنذ عام 1945 تراجعت أجور الموظفين لدى الحكومة تجاه التضخم. وبعد أن أظهر إضراب عمال البريد ما يمكن أن يضعه التعاون الجماعي دستوراً، بات العمال المياومون تواقين للعمل الجماعي.

وفي تموز (يوليو) 1952 ساعد كينغ سوي كيني على تشكيل (مجلس للعمل المشترك) تمثل جميع نقابات واتحادات الحكومة والتي يصل عدد أعضائها إلى حوالي 14 ألف شخص. وطالب هؤلاء بعلاوات عائلية. وفي اجتماع جماهيري عقد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تحول العمال إلى العنف للتعبير عن استيائهم من جراء التفرقة العنصرية تجاه الموظفين المحليين. وتساءل إعلانهم: (هل هذه عدالة؟ فالأوربيون لديهم عائلات صغيرة وعلاوات كبيرة. ونحن لدينا عائلات كبيرة ولا نتقاضى أية علاوات).

شعر الأعضاء المنتخبون في (المجلس التشريعي) أن ثمة فائدة سياسية كبيرة من مساندة مطالب العلاوات العائلية للموظفين المحليين، ولاسيما ذوي الرواتب الضئيلة، وبدأوا يدعمون مطالبهم في (المجلس التشريعي). لم يكن الحاكم سيرجون نيكول، الذي يترأس (المجلس) مرتاحاً لسير الأمور. ونصح الأعضاء بالانضباط، وحذّر الموظفين المدنيين قائلاً: «لا تستطيعون أن تضغطوا على أعضاء المجلس».

نفى «مجلس العمل المشترك» أنه اتصل بالمستشارين التشريعيين طلباً للمساعدة، ولكنه تساءل ما إذا كان أعضاؤه، كمواطنين وموظفين، ليس لديهم الحق لمناقشة الأمور المبدئية مع ممثليهم المنتخبين. وكتبت اتحادات «موظفي اتحاد سنغافورة» إلى الأمين العام للإدارة الاستعمارية للتعبير عن «عدم الثقة العميق الذي يشعر به جميع الموظفين المحليين تجاه الموظفين الغرباء في الحكومة».

بعد أن جوبه بمقاومة متزايدة وموقف ثوري يدعو للدهشة من موظفي حكومته سعى الحاكم إلى امتصاص السخط المتصاعد بتعيين لجنة حكومية تحت رئاسة رجل اقتصاد معرف، هو ف. سي. بينهام (للتحقيق فيما إذا كانت الأجور الحالية للموظفين المحليين ملائمة). وبعد ثلاثة أيام من الاستشارات، وافقت اللجنة مع الاتحادات على أنه ينبغي أن يتقاضوا التعويضات العائلية. الأمر الذي رَوّع الحاكم. فهذا من شأنه أن يمتص جزءاً كبيراً من الميزانية. وعندما رفض التقرير، هددت ست اتحادات بالإضراب. ولتفادي الإضرابات وعد الحاكم بتشكيل لجنة مستقلة برئاسة السيد إدوارد ريستون. وفي آذار (مارس) عام 1953 أوصى ريستون بإلغاء التعويضات العائلية للمغتربين. هز (مجلس العمل المشترك) النظام الاستعماري. فبعد 10 أشهر من المفاوضات المستمرة وافقت الحكومة على سلّم للرواتب يعطي زيادات أكبر لذوي الرواتب الأعلى أكثر من رواتب موظفي الحكومة الأدنى أو المتوسطين. وهكذا حرمت الحكومة الاستعمارية كينغ سوي وكيني من رصيدهما السياسي لدى العاملين البسطاء الذي سعوا إليه.

8. توسيع دائرة شارع أوكسلي

في أيلول (سبتمبر) من عام 1952 وصل إلى مكتبي رجل مالاوي طويل، يبدو هندياً، في أواخر الأربعينيات من العمر وله أنف رفيع. كان يتحدث الإنكليزية جيداً ولكن بطريقة مترددة مع بعض التلعثم. عرّف على نفسه: يوسف إسحاق مالك، ورئيس تحرير (أوتوسان ميلايو) ومديرها الإداري. وكان معاونه الأول صمد إسماعيل قد تورط ببعض الأعمال الهدامة في جزيرة سان جونز منذ أن اعتقل في كانون الثاني (يناير) عام 1951، ولكن سرعان ما رُفعت قضيته للمراجعة، هل أستطيع أن أمثله؟

جميع القضايا الميؤس منها أو شبه الميؤس منها ضد الحكومة، كانت تأتيني وكأنني الملجأ الأخير. كنت قد اشتغلت في عدد من القضايا الشائكة (التي يقاضي فيها مواطن عادي الدولة)، وحصلت على أحكام ضد موظفين صغار، وفي إحدى القضايا المشهورة وجّهت تهمة جزائية (سوء ائتمان) إلى ضابط ذي رتبة عسكرية عالية، هو جورج أنسيل هارد كاسل، رئيس الوحدة النارية في القاعدة البحرية (فاير بريدج)، لإساءة استخدام الصندوق الخيري للعمال. جرت القضية أمام قاضٍ بريطاني في المحكمة الجزائية، والذي برّأه. فاستشارني رجال الإطفاء الغاضبون، واستأنفوا ضد هارد كاسل مطالبين إياه بالتعويض والأضرار أمام المحكمة العليا كي يعطوا للقضية أبعاداً شعبية واسعة. بيد أن رفاقه الضباط عرضوا مبلغ 12 ألف دولار، وهو المبلغ المطلوب للتعويض ودفع التكاليف القضائية قبل أن تُعرض الدعوى ويجري الاستماع إليها، وبذلك يحولون دون تعرض زميلهم للإهانة والتعرض للعقوبة. ذلك كان الجو المشحون بالكراهية وعدم الثقة الذي كنا نعيش فيه.

ولكن قضية صمد لم تكن قضية حقوقية. بل كانت تصرفاً سياسياً من قبل إدارة استعمارية مُهددة بعصيان مسلح شيوعي، وضغوط متنامية من جانب القوميين المطالبين بالاستقلال. وكانت المعالجة الفضلى هي إقناع الحكومة بأن هذا المحتجز الخاص قد يكون قومياً وقد يصبح بالنتيجة مناهضاً إن لم يكن عدواً للشيوعيين، حتى ولو كان يسير معهم في الوقت الراهن. قررت أن آخذ القضية بدون الإشارة إلى جون ليكوك. وهذا ما سيجعل (أوتوسان مالايو) يدفع الغرامة.

لم أكن أتوقع الوصول إلى نتائج ليس من شأنها إلا أن تضغط على الحكومة، لذا قررت أن استدعي ضابط (الفرع الخاص) ليكشف لنا عن الموضوع الحقيقي لموكلي وماذا لديهم ضده؟. ويشاء الحظ أن يسوقني إلى المراقب المشرف ريتشارد بيرن كوريدون والذي كان المسؤول عن قسم الهنود الذين يتكلمون الإنكليزية في (الفرع الخاص) وخبيراً اشتغل في كثير من القضايا المشابهة في الهند البريطانية، ويعرف الفرق ما بين الهنودالقوميين والهنود الشيوعيين.

كنا قد التقينا سابقاً. فقد درس مصنفي، وزارني في أحد أيام الآحاد صباحاً في وقت مبكر من عام 1952 في 38 شارع أوكسلي، لمجرد تبادل الحديث. قال: إنه قرأ عن نشاطاتي في لندن وأنه مهتم بلقائي ليعرف المزيد عن الشيوعيين هناك، مثل ليم هونغ بي، وتأثيرهم في سنغافورة والطلاب المالاويين. فأخبرته عما أظنه في ليم هونغ بي، وعن الكراهية بين الشيوعيين الذين يجابهون المثقفين بالثقافة الإنكليزية في لندن، وأضفت بأنه بعد اعتقال ايبير Eber وجماعته في سنغافورة في كانون الثاني (يناير) 1951 فلربما كنت مخطئاً. وفي الوقت نفسه لقد برأته من الشبهات المتعلقة بالفرع الخاص والمتعلقة بمهرجان الشباب في بودابست. قلت: إن دينيس ذهب إلى المهرجان لقضاء عطلة جميلة، وإنه لا علاقة له بالسياسة. واكتشفت بعد سنوات أن هذه العبارة وجدت مكانها في أضابيرهم.

الآن أقابله في مكتبه في (الفرع الخاص) في شارع روبنسون. كان منفتحاً للغاية. قال: إن صَمَدْ مالاوي ذكي، ونشيط جداً، ومتعاون من الدرجة الأولى. سألته: ما إذا كان شيوعياً؟. قال: (إنه ألمع الشيوعيين الذين عرفتهم). ولم يفدني هذا بأي معنى إلى أن قال (ولكن الناس يكبرون وعقولهم تتغير مع الخبرة والتجارب. اعمل من أجله. إنه يستحق الإنقاذ).

قدمت لي الشرطة قارباً كي يأخذني إلى جزيرة سان جون، وهو احتفاء يُقدم للمحامين الذين يمثلون المتهمين. كانت جولة لطيفة بالقارب، استغرقت 20 دقيقة في يوم عمل بعد الظهر، تلاها 20 دقيقة من السير على الأقدام وصولاً إلى الشاطئ الشمالي للجزيرة. ووسط الأشجار الباسقة الجميلة كنت تجد بعض المنتجعات الساحلية الحكومية. وبالقرب منها صفوف طويلة من الأبنية تشبه الثكنات محاطة بأسوار مخصصة لمدمني الأفيون لإعادة تأهيلهم. وكان ثمة مبنى آخر محاط بالأسلاك الشائكة مخصص للمحكومين السياسيين.

وأخيراً جاؤوني بالمتهم وهو رجل نحيل متوسط الطول يرتدي نظارتين، يبدو في حالة بائسة بشاربه المعوج وسنه الأمامية المكسورة. كان يبدو متشككاً. إذ ربما كان يتوقع أن يمثل أمام لجنة استشارية على رأسها قاض من المحكمة العليا واثنان من المساعدين.

قلت له إن الأمر يعتمد على ما إذا كان (الفرع الخاص) يعتقد أنه سيستمر في أن يظل شيوعياً، وفي هذه الحالة سيحتجز ثانية وثالثة. ولكن إذا عمل بعد تحريره كقومي فمن المحتمل أن يدعوه وشأنه. عبر عن شيء من الفظاظة. كانت هذه المرة الأولى التي ألتقي فيها وجهاً لوجه مع عضو معتقل من المنظمة الشيوعية. كنت جاهلاً بنفوسهم وطريقتهم في إثبات وجودهم، وكيف أنهم أصحاب قناعة وقوة. وقادرون على تحمل الأذى والصعاب من أجل قضية تستحق أن يضحي من أجلها الرفاق الماركسيون.

عقدت مراجعة قضيته في غرفة القاضي بدون جمهور. فالقاعدة الأساسية لاتهامه أنه عضو في الحزب الشيوعي MCP، ورئيس قسم الملايو بمؤسسته المساعدة (عصبة شعب سنغافورة المعادية لبريطانيا) استمع القاضي إلى مرافعتي لأنه كان أساساً معادياً للاستعمار و مالاوياً قومياً، وهو كمواطن من الملايو لا يمكن أن يقبل بالدعوات الشوفينية (للحزب الشيوعي المالاوي) الذي توجهه الصين، وأنه نظم هروب شيوعي بارز هو عبد الله سودين، لأمر لا علاقة له بالصداقة أو الولاء الشخصي، وذلك في أيلول أو تشرين الأول 1950، إلى إندونيسية عالماً بأنه مطلوب من الشرطة. لا أعرف ما إذا كنت قد أثّرت في القاضي وفي مساعديه. إذ لم يقل القاضي حرفاً، وانتهت المرافعة في أقل من 20 دقيقة.

أعيد صمد إلى جزيرة سان جون، ولكن في نيسان عام 1953، أطلق سراحه هو وعدد من المعتقلين، ومن بينهم ديفان نير. عندما رأيت نير لأول مرة بأصفاده وملابسه الرثة أحسست بأنه شخص غير محبوب. كان قصيراً وثخيناً ومشاكساً محباً للخصام وغاضباً من الدنيا. ولكن عندما لاحظ صمد نظرتي إليه أخبرني أنه رجل طيب، ومسؤول في (اتحاد المعلمين في سنغافورة) وتابع يقول: (إنه كان رهن الاعتقال، وسوف تتعلم قريباً أن تفرق ما بين المستضعفين والأقوياء). وأشار إلى معتقل هندي آخر. اسمه جيمس بوثو تشيري الذي يُكثر من الكلام، لقد كان ذكياً ظاهرياً، ولكن لا يُعتمد عليه. أما نير فهو رجل قوي ويعتمد عليه تماماً. قلت في نفسي: ربما كان الأمر كذلك ولكنني لم أحب نظراته، وما حدث بعد ذلك بوقت قصير أن (اتحاد المعلمين في سنغافورة) اتصل بي في (ليكوك و أونغ) وطلب مني أن أمثله. لم أستطع أن أرفض ولكنني لم أسترح لفكرة نجاحه. وعندما قابلت كوريدون ثانية، أعطاني ملخصاً عن نير وخصاله العُصابية. لقد تحول إلى الشيوعية على يد شارما رئيس الاتحاد.

كانت مجموعتنا الصغيرة - كينغ سوي، تشين تشي راجا، كيني وأنا - نجتمع أيام السبت بعد الظهر في غرفة الطعام في الطابق الأرضي عندي، في (شارع أوكسلي) لنبحث في إمكانية تشكيل حزب سياسي.

كانت الغرفة التي نجتمع فيها صغيرة وحارة رغم نوافذها الثلاث العريضة وبابيها المفتوحين. ولكن إذا كان الجو خانقاً فنحن لم نكن كذلك. كنا مصممين على أن نكون مختلفين تماماً عن الأحزاب الانتهازية الأنانية الضعيفة، وعن الأفراد الموجودين في (المجلس التشريعي) و(مجلس المدينة) لذلك قررنا أن ندعو صمد للانضمام إلينا كي نناقش آفات خوض نضال دستوري من أجل الاستقلال بدون أن نجد أنفسنا متهمين أو متورطين في الحركة الشيوعية. وكنا نريده معنا أيضاً لأنه يستطيع أن يوصلنا إلى العالم الذي يتحدث المالاوية ويوصل أفكارنا إلى الجماهير الملاوية من خلال (أوتوسان ميلاوي).

وبعد لقائين سألنا: ما إذا كان يستطيع أن يُحضر صديقه ديفان نير معه لأنه يمكن أن يكون إسهاماً جيداً. لم ترق لي الفكرة، ولكن رفاقي وافقوا، إذ لو أننا اقتصرنا على الأشخاص الذين نحبهم فلن نستطيع أن نوسع الحزب أبداً. وهكذا صار نير يحضر كل أسبوع، أو على الأقل كل أسبوعين، وكنا نلتقي للتحدث حول الأوضاع وما هو التصرف السياسي الذي يمكن أن نقوم به.

لم يكن البريطانيون غافلين عن تصاعد الضغوط السياسية. وفي عام 1953 عيّن الحاكم السير جورج رينديل، السفير السابق في بلجيكا، رئيساً للجنة مراجعة دستور سنغافورة واقتراح الخطوة التالية. والتي جاءت في تقريره الذي نشر في 22 شباط (فبراير) من عام 1954، التسجيل الآلي لجميع الرعايا البريطانيين المولودين في سنغافورة كمصوتين شرعيين. وهذا من شأنه أن يزيد عدد هيئة التصويت بمقدار أربع مرات. وتتشكل الحكومة الجديدة من مجلس وتسعة وزراء،ستة منهم أعضاء منتخبون يعينون بتوصية من رئيس حزب الأغلبية. ولكن تبقى الحقائب الوزارية الأساسية بيد ثلاث مسؤولين بحكم

مناصبهم وهم: الأمين العام، ووزير المالية، والمدعي العام. وباستثناء صلاحيات محدودة تتعلق بالعلاقات الخارجية والدفاع (بما في ذلك الأمن الداخلي) سيكون الحاكم ملتزماً بقبول قرارات المجلس، الذي سيكون مسؤولاً فقط أمام (الجمعية التشريعية) الجديدة. فهناك 25 عضواً منتخباً، و6 معينون، وثلاثة بحكم مناصبهم. وافق الحاكم على تنفيذ مضمون هذا التقرير في الانتخابات القادمة في شهر نيسان (ابريل) 1955.

بات من العاجل بالنسبة لي ولأصدقائي أن نقرر ما إذا كان ينبغي أن نشارك في الانتخابات في ظل الدستور الجديد، أم ننتظر ثانية في الصفوف الجانبية. كان صمد ونير من أنصار البقاء خارجاً. كانا يريدان الاستقلال ولا بديل غيره. أما راجا الذي تعلم جيداً الدرس من أخطاء (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) (MDU) فقد وقف بقوة إلى جانب المشاركة. وكذلك كان حال كيني وكينغ سوي. كنت مقتنعاً أن عدم المشاركة سوف يبعدنا عن المسرح الدستوري، وعندئذ سيكون شأننا كشأن الـ (MDU) أو أن نعمل بصورة سرية.

وهكذا شرعنا نخطط لتشكيل حزب قبل نهاية 1954حتى تتوفر لدينا فترة ستة أشهر قبل بدء عمليات الاقتراع.

تبدو الأمور دوماً على غير ما يرام. ففي 28 أيار (مايو) 1954، اعتقلت مجموعة من الطلاب في جامعة الملايو واتهمت بالتحريض على العصيان. أرادوا مني أن أدافع عنهم. فتفحصت الاتهامات، ووجدت أن احتمال الإدانة يصل إلى 50%. كانوا قد نشروا في مجلة (الفجر) وهي مجلة متواضعة تصدر بصورة غير منتظمة رغم أنه يفترض أنها شهرية، مقالة يمكن أنها خرقت القانون. وقبلت أن أساعدهم، وبعد بعض المراجعة نصحتهم أن تطرح قضيتهم كقضية سياسية وليس كقضية قانونية. واقترحت أن نستدعي من لندن مستشار الملكة البريطانية د. ن. بريت، المشهور بالتعامل بمهارة مع قضايا اليساريين. كان بريت في الستينيات من العمر، ويُعرف عنه كثرة الترحال وله لسان لاذع، وهو لا يعرف

الخوف من أي قاض سواء في المستعمرات أم في بريطانيا نفسها. كان منقطعاً عن المؤسسة البريطانية، وكان يعامل كمنبوذ، أو كواحد من الرجال البريطانيين المنحرفين من الطبقة البورجوازية، اختار أن يكون بروليتارياً أكثر من أي عامل فقير، مع أنه يعيش حياة رغيدة. في حزيران عام 1950 زرته أنا وتشو في شقته في لندن كي نطلب منه أن يوقع أوراقاً تتعلق بانتسابنا إلى النقابة، حيث كان (سيد المحفل المتوسط) كنت مقتنعاً أنه سيستلم القضية، مفترضاً أننا نستطيع أن ندفع له أتعابه وأن نقدم له هدية، كتبت إليه وأجابني بسرعة. نعم إنه سيأتي.

9. عالم المتكلمين بالصينية

تعرّفي على عالم المثقفين الصينيين جاء بعد الحادث الذي أطلق عليه حادث 5 ـ 1 ـ3، والذي اكتسب الاسم بعد أحداث الشعب في 13 أيار (مايو) 1954. إذ جاء إلى بيت خمس طلاب ذات مساء عام 1954، بعد وقت قصير من محاكمة (فاجار): روبرت سون لوه بون، شاب صغير فقد سنه الأمامية، كان يعمل بصفة مترجم لهم ومتحدث باسمهم، ولويس هو الذي كان يتحدث الإنكليزية جيداً أيضاً، وثلاث فتيات لهن ضفائر.

كان الصبيان والفتيات في لباسهم ولباسهن المدرسي. وكان سبعة من رفاقهم قد أدينوا لإعاقتهم رجال الشرطة أثناء أعمال الشغب، التي شارك فيها 500 صيني من طلاب المدارس المتوسطة، ولاسيما من مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية، إذ اصطدموا مع الشرطة. كما كانوا يقومون بمسيرة تضامناً مع وفد كان يتجه إلى مقر الحكومة لتقديم التماسٍ ضد التسجيل في الخدمة الوطنية، عندما أوقفوا وأجبروا على التفرق. فراحوا يلقون الحجارة على الشرطة، إذ أصيب ستة منهم. هاجمتهم الشرطة بالهراوات وأصابت بعض الطلبة في رؤوسهم. وأصيب 26 شخصاً بإصابات مختلفة، كما جرى اعتقال 48 طالباً من بينهم فتاتان.

عُقدت المحاكمة في 28 حزيران (يونيو). اتُّهم فيها 41 طالباً بعصيان أوامر الشرطة بالتفرق، ووجد أن 26 منهم كانوا مذنبين، فحكم عليهم بستة أشهر مع إرجاء التنفيذ. وحوكم سبعة آخرون بتهم أشد، تتعلق بإعاقة رجال الشرطة. وقد طالبوا بنقل قضيتهم إلى محكمة أخرى لأن القاضي أظهر تحاملاً في الطريقة التي عامل بها وحكم بها رفاقهم الطلاب في اليوم الأسبق. كما رفضوا قولَ أي

شيء في دفاعهم، فحكم عليهم بثلاثة أشهر، وهذا هو الحد الأقصى لعقوبة تلك التهمة. إذ سيتم الاستئناف في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، هل أطلب من بريت أن يضطلع بالاستئناف؟.

تحديهم للقانون كان الاهتمام الأول للمحكمة. ولكن القضايا الجارية كانت عميقة وجوهرية. ولم يكن لذوي الثقافة الصينية مكان أو دور يضطلعون به في الحياة الرسمية للمستعمرة، التي كانت تستخدم المحليين الذين يعرفون الإنكليزية فقط كموظفين ثانويين. كانت الحكومة توفّر في المدارس الابتدائية تعليم الإنكليزية والمالاوية، وتوفر تعليم الإنكليزية فقط في المدارس المتوسطة.

أما الجماعات المهاجرة فكان الاختيار متروكاً لها. وقد جمع الصينيون التبرعات وبنوا مدارس خاصة بهم. وقد استخدموا كتباً ومقررات مطبوعة في الصين معتمدين على أنفسهم، كما استخدموا مدرسين خدموا في الصين كانوا يعلمون لغة الماندرين كما لو كانوا في غوانغدونغ أو مقاطعة فوجيان. كانوا يعيشون ثقافياً في عالم منفصل. وكان على المتخرجين أن يكملوا دراستهم بالتحول إلى مدارس إنكليزية، وبذلك يصعدون سلم المتعلمين للإنكليزية، أو يبحثون عن أعمال في شركات تستخدم اللغة الصينية، كالمحلات والمطاعم وبيوت الأعمال الصينية، أو المصارف القليلة التي يملكها صينيون. كانوا يشعرون بأنهم منبوذون، وبافتقارهم إلى الفرص الاقتصادية تحولتْ مدارسهم إلى تربة خصبة للشيوعيين، الذين كانوا ينشطون في الملايو وسنغافورة منذ عام 1923، عندما أرسلت (الكومينتيرن) (المنظمة الشيوعية) أوائل عملائهم في شنغهاي إلى الجزيرة. وبعد الحرب، أعطى سجل المقاومة ضد اليابانيين الحزب الشيوعي المالاوي MCP مكانة جعلته قوة قادرة أمام الشباب غير الواعين، ودفعته إلى بناء شبكة من الخلايا في الصفوف المدرسية. وانضم كثير من المعلمين إلى كوادر الشيوعيين أو تعاطفوا معهم، ولُقن كثير من الطلاب الغاضبين الذين انقطعت

دراستهم بسبب الاحتلال الياباني، مبادئ الحزب وتعاونوا معه. كما كانت لجان الإدارة في المدرسة المؤلفة من تجار وأصحاب محلات متعاطفة معهم أو خائفة من معارضتهم.

وما إن أُعلنت حالة الطوارئ حتى همد الشيوعيون في سنغافورة ظاهرياً، ولكنهم في الواقع كانوا ينظمون صفوفهم ويتوسعون. وفي عام 1952 أصدر البريطانيون تعليمات خدمة وطنية في سنغافورة والملايو، تتيح لجميع الذكور ما بين 18 و55 سنة من العمر أن يُقبلوا في خدمات الجيش والشرطة وقوات الدفاع المدني، وفي نيسان عام 1954 بدأت الحكومة بتسجيلهم. فقد كانت تحتاج إلى 800 من القوات العسكرية السنغافورية، و1200 شخص من قوات الدفاع المدني عن طريق الاقتراع. ولكن سير العمل كان بطيئاً. قدم طلاب المدرسة الصينية العليا التماساً إلى المسؤول عن الاستثناءات. ولكن الشروط التي وضعتها السلطات البريطانية لهذا الاستثناء، بدراسة كل حالة على حدة، كانت عسيرة وهذا ما أدى إلى الاحتجاج وإضراب 500 طالب، مما أدى في النهاية إلى قبولهم جميعاً.

لم أفهم خلفية المشكلة في ذلك الوقت، رغم أنني كنت أعلم أن شيئاً ما يجري ويغلي في هذا العالم المختلف كلياً. كان الطلاب منظمين جيداً وواعين. وكان لديهم قدرة على ضبط الذات وعلى العمل الجماعي، وعلى القيام بمظاهرات جماعية بحيث يصعب على الحكومة عزل رواد هذه المظاهرات ومعاقبتهم. وبعد الاعتقال أثاروا قضايا أخرى تمكنهم من تنظيم اصطدامات مع الشرطة من أجل وقوع شهداء وبالتالي إثارة الرأي العام ضد الحكومة. لم أعرف بواعثهم وأساليبهم إلا متأخراً. وكان على جهل بتكتيكاتهم أيضاً كثير من متعلمي الإنكليزية، بما في ذلك طلبة جامعة المالايو، واتحاد طلبتها، حتى أنهم قاموا بمظاهرة في 18 أيار (مايو) تأييداً للمتظاهرين الصينيين داعين إلى إجراء تحقيقات بشأن أعمال شغب لاستخدام الشرطة لأساليب غير ملائمة. لقد كانوا بسطاء التفكير كما كنت.

أحيا الشيوعيون على الفور ذكرى الصدام في 13 أيار بالأرقام « 5 ـ 1 ـ 3»، 5 ترمز لشهر أيار، و13 اختصار صيني لأحداث مهمة أو غير مهمة ـ حادثة تيانامين في 4 حزيران 1989 يرمز لها بـ «4/6» أي السادس من حزيران. قام الطلاب باحتجاجات واسعة، وشكلوا وفداً للأعضاء من 55 رجلاً الذي انقسم إلى عدة أقسام لجمع معلومات عن الطلبة المصابين، وتزويدهم بالمعالجة الطبية، وجلب التعاطف الشعبي.

جال الصينيون عبر شوارع سنغافورة للحصول على تأييد باقي الطلبة، والآباء، وأصحاب الحوانيت، والزعماء الصينيين المحليين ـ أي كل الجماعة الناطقة بالصينية عملياً. كانوا يجربون أساليب التحريض الشعبي التي اتبعها الشيوعيون في الصين. فعند أول إشارة للاضطراب من جانب الشرطة يعتصمون في المدارس أو المصانع، ويشكلون جماعات، ويلفتون الانتباه إليهم والتعاطف معهم، ويتحدون السلطة ويستفزون الحكومة كي (تُضحي) بهم.

وفي 14 أيار، في اليوم الذي تلا حادث 13 أيار، احتشدوا في مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية، ولكنهم تفرقوا بعد يوم واحد، بعد أن طلبت منهم لجنة مؤلفة من اثني عشر شخصاً من (غرفة التجارة الصينية) أن يفعلوا ذلك. لقد أصبحوا ذوي شأن، وبات زعماء الجماعة الصينية يطلبون منهم الهدوء ويعدون بالتدخل مع السلطات. ورداً على الضغط من جانب الحكومة، نظراً لانتشار الشغب والفوضى، قُرّب موعد العطلة الانتصافية بمقدار أسبوعين وأُغلقت المدارس. واضطر وجهاء الجالية الصينية أن يتوسطوا لدى الحكومة لقبول عدة مطالب للمضربين الصينيين، منها إطلاق سراح الموقوفين، وإجراء تحقيق في الحادث، والإعفاء من الخدمة الوطنية، وغيرها من المطالب. وسرعان ما انفض العصيان بعد أن منعت عنهم الشرطة الطعام لمدة ثلاثة أيام وتدخل آباء الطلاب والمعنيين. لم تهدأ الأمور وظلت المعارك سجالاً بين الطلاب من جهة والسلطة من جهة أخرى. أشرك الطلاب بمهارة كبار الجماعة الصينية في قضيتهم، وفي 22 ـ 23

أيار اعتصم 2500 منهم في مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية مرة أخرى، رافضين الخروج حتى يُستثنوا جميعاً من الخدمة الوطنية. ولم يتفرقوا إلا بعد ثلاثة أيام، بعد أن منعت الشرطة عنهم الطعام وحرضت أولياء أمرهم على إرغامهم على ذلك. واستمرت الأمور. طالب تلاميذ مدرسة تشونغ تشينغ بإعادة فتح المدارس، وهدد طلاب المدارس الثانوية بالاضراب عن الطعام، وفي 2 حزيران تجمع آلاف الطلاب من عدة مدارس متوسطة في (المدرسة الصينية الثانوية) للبدء بالتحشد أثناء العطل المفروضة. كان ذلك بمثابة تحد. تابعوا دروسهم في الصفوف وفي الحقول المكشوفة حيث قام الطلاب الكبار بتعليمهم الرياضيات، واللغة الإنكليزية والصينية والجغرافيا. وكان أهاليهم يجلبون لهم الطعام. كان ذلك أشبه بمخيم استراحة في عطلة منتصف العام منظمة ذاتياً.

أرسل الطلاب مزيداً من الالتماسات إلى الحاكم، دون أية استجابة. وعندما أُعيد فتح المدارس في 24 حزيران، فرضت إجراءات تنظيمية جديدة: من بينها أن المدرسين، والطلاب سيُمنعون من استخدام مباني المدارس من أجل نشاطات خارجية لا يجيزها القانون. ولكن هذه الأوامر كانت شكلية تنشر في الصحف فحسب، فهي لا يمكن أن تطبق لأن اللجان الإدارية والمديرين كانوا يخشون من النشاط السري المنظم في أوساط الأساتذة والطلاب. وفي 13 أيلول حزمت الحكومة أمرها وأعلنت أنها ستغلق أي مدرسة تخالف (نظام المدارس). وسوف يُسأل المشرفون على المدارس من الآن فصاعداً ما إذا كانت الأشهر الستة المنصرمة قد استُغلّت للأغراض السياسية. ولكن هذه الإجراءات كانت خطأ كبيراً كما أحدثت شرخاً بين الشيوعيين وغير الشيوعيين من الصينيين. ووجد الطلاب بذلك مناسبة لتنظيم مظاهرات معادية للحكومة. وفي 12 تشرين الأول (أكتوبر) تجمهر عدد كبير منهم في منطقة (بادانغ) خارج (المحكمة العليا)، ووفقاً لما ذكرته صحيفة (سنغافورة ستاندارد) هبّت عاصفة من التصفيق عندما وصل بريت أحد زعماء الطلاب.

أستطيع القول إنه من خلال المحاكمات ما بين السلطة والطلاب الصينيين، والتي أُتيح لي الاطلاع على كثير من تفاصيلها، استطعت أن أدخل عالم المثقفين بالثقافة الصينية أو المتحدثين بها. كان عالمهم مليئاً بالحيوية وبالنشاط الفاعلين، ومن بينهم كثير من الشباب المثاليين، غير الأنانيين، والمستعدين للتضحية بكل شيء من أجل مجتمع أفضل. كنت شديد التأثر بإخلاصهم الكامل لقضية الثورة، وتصميمهم الجماعي على الإطاحة بالحكومة الاستعمارية من أجل بناء عالم جديد من المساواة والعدل. وكنت أزداد خوفاً من الاتجاه الذي يدفعني إليه زعماؤهم. ولكنني كنت مقتنعاً أيضاً أنني إذا لم أستطع أن أُسخّر بعض هؤلاء الشباب الديناميكيين لقضيتنا التي كنت أناضل من أجلها أنا ورفاقي فإننا لن ننجح أبداً. حتى الآن كان لدينا صلات مع ذوي الثقافة الإنكليزية والمالاويين فقط ممن لم يكن لديهم القناعات أو الحوافز على المواكبة، فضلاً عن الرغبة في مقاومة الشيوعيين ذوي الثقافة الصينية. كان الذين يتحدثون الصينية فقط في شبكتنا مجموعات صغيرة ممن يعملون في القاعدة البحرية والميناء، معظمهم من عمال كانتون المهرة، بالإضافة إلى بعض العمال المالاويين. وأما الاتحاد الوحيد الذي كان أعضاؤه جميعاً من المتحدثين بالصينية هو اتحاد (المجلس البلدي) الذين كانت مهمتهم جمع القمامة. لم يكونوا من المتعلمين جيداً ولم ينظروا إلي على أنني رجل ثوري.

لا بد أن الطلاب قد أُبلغوا بأن ينظروا إلي على أنني محاميهم، بعد أن كانوا قد استخدموا آخرين ممن لم يكونوا مُسيّسين جداً ولا راغبين في مجابهة الحكومة كما كنت أفعل، كانوا يجوبون في شارع أوكسلي بحثاً عن مشورة حول العديد من المشكلات التي تواجههم في مجابهة السلطة، أو السعي للحصول على إذن لعقد اجتماعات عامة. كانوا يأتون عادة في سيارة شيفروليه وردية اللون تحمل الرقم 1066. وواحدة من طالبات المدارس ذات ضفيرة كانت تستخدم سيارة والدها، الذي ربما كان تاجراً أو صاحب متجر غني.

فلم أكن أردهم خائبين أبداً، مهما كان الوقت حرجاً. كنت أريد أن أغوص في ذلك الحوض، حيث يتربى السمك على يد الشيوعيين حتى أتمكن من رمي الصنارة والخيط لألتقط أكبر عدد ممكن. فهم أولاً وأخيراً كانوا يصطادون في بركتنا الإنكليزية، وقد اصطادوا جون ايبر، وشارما، وديفين نير، وصمد وغيرهم. كنت ساذجاً، أشبه بشرطي صغير تطوع في منطقة «مافيا» خطيرة. ثم عرفت بعد ذلك عن يقين أن النظام والطاقة الحيوية لدى الطلاب وولاءهم لزعمائهم من الأمور الطبيعية والطوعية الناجمة عن حماسة الشباب ومثاليتهم. فقد احتجت إلى سنتين أي ما بين 1954 و1956 حتى أسبر أغوار أساليبهم، وأطلع على حيلهم و انحرافاتهم ولأفهم ديناميكية «الجبهة الشيوعية الموحدة» (CUF). خلف الستار كانت اللجنة المجهولة للحزب الشيوعي المالاوي MCP في المدينة تتحكم بالعاملين في الجبهة المفتوحة من أمثال روبرت سون لوه بون ورؤساء الأقسام ذات الطابع الجماهيري. كان لدى الشيوعيين شبكة سرية من الكوادر المنظمة تضم أربع خلايا، ولكل واحدة منها رئيس يعطي الأوامر والتوجيهات (والتي تبدو وكأنها نتيجة لمناقشة ديمقراطية) والذي يتلقى بدوره الأوامر من رئيس خلية أخرى ذات مستوى أعلى.

هذه الأوامر لم تكن تطاع عند خطر العزلة والتهميش لأولئك المهمّشين، أو المعاقبين الذين كانوا أعضاء في «عصبة معاداة البريطانيين» أو حزب MCP، وكذلك في حالة الاغتيال إذا ما ارتكب أي عضو عملاً من أعمال الخيانة. كان نظاماً صارماً لا يُجدي معه سجل التضحيات السابق، ولا يوضح ذلك إلا ما علمتني إياه قضية «ليويت فن».

انضم ليو إلى الحزب الشيوعي في المالايو عام 1942 وعمل ضد اليابانيين في نيجري سيمبليان في الفوج الثاني في الجيش المالاوي الشعبي المعادي للجيش الياباني MPAJA وقد أصبح بعد الحرب ممثلاً للحزب الشيوعي المالاوي MCP في المالايو للاتصال مع السلطات، وناشراً لجريدة الحزب "مين تشينغ بو". وقبل

إعلان حالة الطوارئ في عام 1948 بقليل، اتُهم بالتحريض على العصيان وحكم عليه بالسجن 18 شهراً. وفي تشرين الأول 1948 عندما اقتربت فترة نهاية سجنه صدر أمر باحتجازه ثانية وتكرر ذلك ثلاث مرات حتى عام 1955.

طلب مني أصدقاؤه أن أمثله في المراجعة القضائية لقضيته، وقابلت ليو في سجن جوهور باهرو، ووجدته رجلاً من أذكى الشيوعيين وأكثرهم تصميماً وفصاحة. أراد أن يُنفى إلى الصين (أو إلى جامايكا حيث ولد) ولكن لم يكن بمقدوري أن أساعده كثيراً بموجب القانون. لذا قررت أن أستخدم التهديد باستصدار أمر قضائي بالتحقيق في قانونية سجنه. الأمر الذي من شأنه أن يولد تعاطفاً معه. كان ذلك بعد ستة أشهر من إنجاز قضية د.ن.بريت في قضية «فاجار»، وبعد أربعة أشهر من قضية الدفاع عن الطلاب الصينيين، لذا أخذ تهديدي على محمل الجد. وفي رسالة مؤرخة بتاريخ 11 تموز 1955 وموجهة إلى قيادة شرطة كولا لامبور، أوضح لي مدير الفرع الخاص في سنغافورة: «إذا لم ينجح الأمر القضائي في التحقيق بسجنه، ستُعرف الحقائق من خلال صحافة العالم، وستشرع بكين بالاهتمام بهذه القضية الخاصة بأحد مواطنيها». في غضون ثلاثة شهور أبعد البريطانيون ليو إلى الصين. وكانت الأزمة النهائية قادمة. فمثل شأن كثير من الشيوعيين فقد التهمته ثورته. فأثناء «الثورة الثقافية» طرده تشين بينغ، زعيم الحزب الشيوعي المالاوي MCP، من الحزب، ومات مكللاً بخيبة الأمل والخزي. لقد كان شهيد الجانبين.

ولكن في عام 1954 كنت ما أزال جاهلاً بالطبيعة الحقيقية للخصم الشيوعي. ولم أرتدع. كنت أعتقد أنني ألتقي بأحد من غير الملتزمين من ذوي العقول المفتوحة ممن يرون في شيوعية ماو الملهمة أنها لن تنجح أبداً في مالايو. كان عليّ أن أتعلم الكثير.

10. حزب العمل الشعبي

كانت تشو في صباح يوم من عام 1954 تقف على شرفة منزلنا مع ابننا لونغ، الذي أتم السنتين، عندما ظهر شخصان على عتبة الباب في شارع أوكسلي 38 وقد جاء حضورهما بعد أسبوعين من لقائي ببعض الطلاب من الناطقين باللغة الصينية، حيث أبديت رغبة في لقاء الحركة النقابية الصينية. فدخلت إلى غرفة الجلوس للترحيب بهما. وعلمت أنهما ينتميان إلى نقابة عمال النقل في سنغافورة. كانا رجلين لطيفين ولكنهما لا يتحدثان الإنكليزية جيداً، فأحضرا معهما روبرت سون لوه بون كمترجم. كان اسماهما ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سوان. وكنت قد أجريت اتصالين مع اثنين من نشطاء الحركة العمالية من ذوي الثقافة الصينية، وكنت أسعى إلى اجتذابهم لقضية مالايو الديمقراطية الاشتراكية غير شيوعية.

بدا لي ليم وفونغ نموذجين ملائمين، فهما يتمتعان بسلوك مهذب وجلد، وبساطة في اللباس. كان اهتمام الاثنين واستعدادهما مكتوباً على قسمات وجهيهما وفي كل حركة من حركاتهما.

كانا على النقيض من تلك الشخصيات الضحلة التي التقيت بها مع زملائي في وقت سابق في شقة ديفيد مارشال، الذي كان يبحث مع ليم يوهوك من حزب العمل في تشكيل مجموعة سياسية جديدة تنبثق فيما بعد كجبهة عمل. كان هذا اللقاء جزءاً من استطلاعنا لتقدير مدى الإمكانات المتوفرة لديهما. ولكن وجدنا إنه كان من الصعب أخذ مارشال على محمل الجد فهذا اليهودي الشرقي له شخصية زئبقية متلونة، وهو أحد كبار محامي الطبقة الإجرامية في سنغافورة. في هذا الاجتماع غالباً ما كان صعباً علينا منع أنفسنا من الضحك عندما كان يقترح آراء يعتقد أنها صائبة. فعلاقته بالوعي السياسي كانت سطحية، رغم أنه

يحب أن يكون مركزاً للاهتمام. ويرى نفسه فتىً أولاً. في الوقت نفسه لم يكن يستطيع السيطرة على جموح نزقه، وحدث أن استشاط غضباً عندما ضحكنا لتعليق سخيف قاله، فانتفض خارجاً من الغرفة ومن ثم خرج من شقته وتركنا فيها. إذ وجدنا أنفسنا مع رفاقه وكثير من الطعام والشراب.

تمازحنا و أكلنا وشربنا، ومن ثم شكرنا الخادمة وغادرنا المنزل. وبعد اللقاء الثالث معه قررنا أن نتائج تعاوننا مع هؤلاء الناس ستكون كارثية بالتأكيد. ما كنا نبحث عنه كان نوعية أخرى من الرجال الذين نثق بأنهم قادرون على إكمال الشوط معنا إلى الآخر. رجال يتمتعون برباطة الجأش التي تتفهم الانتصارات وتتغلب على النكسات التي تعترض تحقيق الأهداف في العمل السياسي. فعلى النقيض من مارشال وجماعته وجدت ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سوان. وقد أعجبني ما رأيته فيهما. كانا من ذوي التعليم الصيني، ويمكن مقارنتهما بجماعة «الفاجار» الذين أدينوا بتهمة إثارة القلاقل، إلا أنهما يتميزان عن هذه الجماعة بأنهما أكثر تصميماً، وأكثر غَيْرِيّة وجدية، وأكثر تأثيراً. كانا بالضبط من نوع القادة الذين كنا نبحث عنهم، وكنت أتمنى دائماً أن نحظى برجال من هذا النوع.

شرحت لهما خططي في تأسيس حزب يمثل العمال والمنبوذين، لاسيما ذوي الثقافة الصينية. ليس هدف الحزب اكتساح الانتخابات القادمة، بل كسب عدد كاف من المقاعد تمكننا من كشف طبيعة النظام الفاسد، والأحزاب السياسية القائمة، وإعداد الحزب لجولات قادمة. لكنهما لم يعطياني جواباً نهائياً، ولتجربتي مع طلاب المدارس الصينية لم أكن مندهشاً.

كنت أعلم أن التزامهما بقرار جوهري مثل هذا يُوجب عليهما العودة إلى من هو أعلى منهما أو إلى الجهة التي أرسلتهما كي يخضع ما ينقلانه إلى الدراسة والتقدير، وبالطبع إلى حوار جدي سيؤدي بالنتيجة إلى التخلي عن الخط الممالئ للحزب الشيوعي المالاوي. وبعد أسبوعين عادا إلي ومعهما مترجم آخر. والجواب

كان نعم أي هنالك استعداد للانضمام إليّ ليس من أجل السلطة ولكن من أجل فضح النظام الاستعماري، وفضح القصور الموجود في دستور راندال المقترح وللانقضاض على الأحزاب التي ستتولى السلطة.

قررنا إطلاق حزبنا «حزب العمل الشعبي» في اجتماع عام يوم 21 تشرين الثاني (نوفمبر) 1954، ورغبت في أن يكون الرجلان كلاهما في قيادة الاجتماع. تهامسا فيما بينهما وقالا: إن هذا الأمر يستحق المناقشة. وفي الزيارة التالية قالا: إن فونغ، سكرتير نقابة عمال النقل في سنغافورة، سيكون في قيادة الاجتماع، وسيبقى ليم تشين سيونغ خارجاً في الوقت الحاضر. لم أعرف أسبابهما، ولكن افترضت أن فونغ هو الأقل أهمية، والأقل عرضة للخطر الأمني، بحيث لن يجد الفرع الخاص آثاراً وسجلات كثيرة له يمكنه تعقبها عند ظهور اسمه في الصحف.

لكني كنت راضياً. مع وجود فونغ في الفريق نفسه، إذ أحسست أن الحزب الجديد سوف يتمتع بقاعدة عمالية عريضة وواضحة. فإلى جانبنا يقف الآن ذوو التعليم الإنكليزي، والعمال الملاويون من أصحاب الياقات البيضاء والزرقاء. ومعنا أيضاً الجمعيات الصينية المتعددة، والغرف التجارية إلى جانب العمال أصحاب الياقات الزرقاء. ولم نرغب بالتعامل مع طلاب المراحل المتوسطة. لأن أي حزب سياسي في المجتمع السنغافوري المتعدد عليه أن يفهم أن أي اقتراب له من شريحة في المجتمع سوف يثير الخوف والمعارضة من جانب الشرائح الأخرى، ولهذا السبب لم تكن الأحزاب القائمة ذات وزن حقيقي. وسيؤدي التقارب مع الطلاب إلى ابتعاد الطبقتين. أصحاب التعليم الانكليزي، وأصحاب التعليم المالاوي، واللتين تشكلان أربعين في المئة من عدد السكان.

في تشرين الأول (أكتوبر) أعلنّا تأسيس الحزب. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) تعاهدنا على أننا سوف نقاتل من أجل «مجلس تشريعي متعدد اللغات مع الترجمة الفورية، لأن أعضاء المجلس بدون ذلك لن يكون لديهم أدنى فكرة عن السكان الصينيين، ولا عن تفكيرهم وشعورهم، وبالطبع لن يكون هذا وضعاً صحياً بأي حال" وقد حَذتْ بقية الأحزاب السياسية حذونا في هذا المطلب.

أول لجنة مركزية تنفيذية «لحزب العمل الشعبي»، في شهر تشرين الثاني 1954، في الصف الخلفي من اليسار: تان دي كينغ، ديفان نير، س. سوكالينغام، لي كيوان يو، أونغ إينغ غوان، فونغ سوي سوان. في الصف الأمامي: لي جينغ سينغ، موفرادي بن حاجي مهد نور، توه تشين تشي، إسماعيل رحيم، شان تشيو تور.

ولكي نتمكن من إيجاد التوازن بين سمعة الحزب الراديكالية وبين الخلفية اليسارية لبعض قادته، قمت بإقناع تنكو عبد الرحمن، الذي كان زعيم «منظمة الاتحاد الوطني المالاوي»، وعضو المجلس التنفيذي في المالايو، وكذلك السيد تشينغ لوك تان، رئيس الجمعية الصينية المالاوية ليتحدثا في حفل افتتاح الحزب. كنت قد قابلت تان في مآدب عشاء متعددة. وكان تنكو قد استشارني في مكتبي عندما أراد مقاضاة صحيفة في سنغافورة بتهمة التشهير. فيما بعد قمت بدعوته مع زعماء «الاتحاد الوطني المالاوي» إلى حفل عشاء في منزلي. والآن في حفل إطلاق «حزب العمل الشعبي» يقف معي اثنان من زعماء الملايو المحترمين، وذلك لعلاقتهما الشخصية بي، ولربما أيضاً أنهما اعتقدا أنني يمكن أن أكون حليفاً نافعاً في المستقبل. وعلى الرغم من أن تنكو لم يكن يرغب أن أدخل السياسة في الاتحاد، فإن تان أراد ذلك. هذا الفارق الجوهري في موقفهما عكس رؤيتيهما المتناقضتين،في المصالح الانتخابية.

تنكو أراد أن يبقى الصينيون متفرقين إن أمكن في جيوب صغيرة، ومبعثرين بحيث يسهل على المالاويين التعامل معهم. أما تان فقد كان يريد فريقاً من الشباب باستطاعته توحيد المجتمع الصيني. وكانت «الجمعية الصينية المالاوية» متحمسة لأن تنضم سنغافورة إلى الاتحاد بحيث يؤدي ذلك إلى ازدياد قوتها الانتخابية. بدأنا اجتماعنا في الساعة العاشرة من صباح الأحد21 تشرين الثاني (نوفمبر) في قاعة فكتوريا التذكارية، ودام اجتماعنا حتى الواحدة ظهراً، حيث توقفنا لكون القاعة محجوزة بعد ظهر ذلك اليوم لإقامة حفل فيها. كان صباحاً حاراً ودبقاً. فقد امتلأت القاعة. ولكن لا أستطيع القول إنها كانت مزدحمة ولكن الجميع كان يجلس على المقاعد الخشبية والخيزرانية. قالت صحيفة «سينغابور ستاندور» إن عدد الحضور كان 1500 شخص، وذكرت «سترايت تايمز» أن عددهم كان 800 شخص. لم يكن هذا الحفل متميزاً بشيء، فأنصارنا من أعضاء النقابات احتلوا ما يقارب ثلثي المقاعد، أما الباقون فكانوا مراقبين من الأحزاب

السياسية الأخرى ومن مستقلين مهتمين بالموضوع. قرأنا خطابات مكتوبة، بسيطة في تركيبها، ليس فيها الكثير من التنميق وفن الخطابة. وارتدينا قمصاناً مفتوحة عند العنق، وارتدى تشينغ لوك تان بذة رسمية، أما تنكو فقد ارتدى الثياب المالاوية التقليدية الفخمة المغلقة عند العنق بالحرير، والسروال العريض والإزار التجميلي القصير حول الخصر.

لم يكن حفل الانطلاق لاهباً وحماسياً، ولكنه كان جيداً. فقد أعلنا عن تأسيس الحزب رسمياً، وحصلنا على إطراء جيد من الصحافة، وأصبحنا معروفين على المستوى العام ويمكن الآن التعامل معنا بشكل جدي. لم يكن هناك قصاصات ملونة ولا تزويقات خطابية، ولا بالونات ولم يطلق الحمام في سماء الاحتفال. إنما كنا مستعدين ليوم الترشيح الذي سيكون في 28 شباط (فبراير) وبينما سيكون يوم الاقتراع هو الثاني من نيسان (ابريل) 1955. وبعد نقاش مستفيض تم انتقاء خمسة مرشحين: فلمركز بوكيت تيماه اختير ليم تشن سيونغ، ولمركز فارار بارك اختير ديفان ناير (لم يكن ديفان خياري المفضل، ولكنه كان تنازلاً لإرضاء أصحاب الميول الشيوعية). واختير لمقاطعة بونغول- تامبينز المرشح جوه تشيو تشوا (وهو متعهد في الستين من عمره، صديق لكيني يعيش في بونغول وهو معروف كونه من أبناء المنطقة) ولمنطقة تانجونغ باجار تم اختياري. ولما كان فونغ سو سوان من أبناء منطقة جوهار وانتصاره سيكون صعباً في سيمبا وانغ فقد تم اختيار أحمد إبراهيم كمرشح مستقل في تلك المنطقة التي تتواجد فيها القاعدة البحرية حيث يستطيع كسب العمال المالاويين والهنود، وسيظهر كأنه بعيد عن حزب العمل الشعبي. وبالتالي بعيداً عن صفة الراديكالية.

التنظيم الحزبي كان ضعيفاً. بالأحرى لم يكن موجوداً. ليس هناك كادر متفرغ، ولا توجد فروع للحزب أو زعامات شعبية محلية. وكان علينا الاستعانة بالنقابات وطلاب المراحل المتوسطة الصينية من أجل المساعدة في الانتخابات

المقبلة. ولكن ما إن ابتدأت الحملة الانتخابية حتى انطلق مرشحونا كل في مسار منفرد. باستثناء الجولات التي يقوم بها خطباء معروفون مثلي على الدوائر الانتخابية الخمسة لمخاطبة الجماهير.

في يوم الترشيح كان خصماي في مركز تانجونغ باجار ـ أحدهما من ذوي الثقافة الصينية والآخر إنكليزي الثقافة ـ يعترضان على ترشيحي لأني لم أكن من سكان سنغافورة لمدة سبع سنوات من أصل السنوات العشر الأخيرة، كما تتطلب تعليمات المجلس المستندة إلى رأي هيئة المحكمة الاستشارية الخاصة بالانتخابات استناداً إلى دستور راندل. ولكن ظهر أن هذا المطلب كان به ثغرة هامة، وهي أن سنغافورة كانت مستعمرة منفصلة لمدة ثماني سنوات وأحد عشر شهراً ـ قبل نيسان (ابريل) 1946 كانت جزءاً من مستوطنات المضيق.

وقام بعض أصحاب الميول البريطانية بكتابة رسالة إلى صحيفة (ستريتس تايمز) هددوا فيها باتخاذ ما يلزم لعرقلة تسميتي في المجلس في حال نجاحي. لكن الهيئة المسؤولة أقرت ترشيحي ونصحت خصومي بتقديم اعتراضهم القائم على خلفية مدة إقامتي في التماس انتخابي إن تمت عودتي.

أخبرت كينغ سوي بما حدث، وبعد عودته إلى لندن. قام بدوره بإعلام وزير الشؤون البرلمانية في حزب العمال ستانلي أوبري بالموضوع، وقام أوبري بدوره بتقديم استجواب في مجلس العموم البريطاني في الأول من آذار (مارس) رد عليه هنري هوبكنسون وزير الدولة لشؤون المستعمرات كما يلي:

> «إن الطلاب المالاويين الذين كانوا في بريطانيا العظمى خلال المرحلة التي تخولهم حق دخول الانتخابات لدى عودتهم إلى بلادهم مؤهلون لذلك، ما لم يكونوا فاقدي الأهلية لأسباب أخرى. ويسمح لهم بالمشاركة طالما كانوا خلال غيبتهم يعتبرون الاتحاد هو وطنهم. وبالقطع يجب معاملتهم على أنهم مستكملون لشروط التقدم للانتخابات».

بدا هذا الإعلان وكأنه موجّه إلى الطلبة المالاويين الذين كانوا يعارضونني، مما أدى إلى إسقاط قضيتهم. فقد علموا أن لندن سوف تتخذ إجراءات، عندما تجد أن عليها وضع الأمور في نصابها. ولتحاشي جلبة سياسية ضارة نتيجة تعليمات كانت عبثيتها واضحة. كما ذكرت في حينه إن كان جون إدي الذي ولد وعاش في بريطانيا مؤهلاً لخوض الانتخابات لسكنه في سنغافورة لمدة سبع سنوات، بينما أنا مولود في سنغافورة وأمضيت حياتي فيها باستثناء أربع سنوات قضيتها في بريطانيا لست مؤهلاً. إذن لا بد أن يكون العالم مربع الشكل، وليس كروياً.

تلك كانت العقبة الأولى التي استطعت تجاوزها. كما عانيت من حرج علني عندما أعلنت الصحف أن لام تيان منافسي ذا التعليم الصيني في الحزب الديمقراطي قد قال: إني لا أستطيع قراءة وكتابة اللغة الصينية. وبذا أكون غير قادر على تمثيل الناخبين الصينيين. رددت عليه بالأسلوب نفسه «منطقياً، طالما أن السيد لام تيان لا يستطيع قراءة وكتابة لغة التاميل واللغة المالاوية، فهذا يعني أنه لا يستطيع التطلع لتمثيل السكان الهنود والسكان المالاويين في مقاطعة تانجونغ باجار». وأعلنت بكل أريحية أنني أستطيع قراءة وكتابة لغة الماندرين، والهاكا والهوكين، كما أستطيع أيضاً التحدث باللغة المالاوية. تصريحي هذا لم يكن دقيقاً وعلى الأصح كان ضمن الدعاية الانتخابية. بعض المراسلين الصينيين نصحوني بأنه من الأفضل لي ألا أعلن عن عدم تمكني من لغتي الأم، وتذكرت نادماً عدم التفاتي لنصيحة جدتي بتعلم اللغة الصينية في مدرسة" تشون جوان". والآن أتت هذه المبالغة والادعاء بمهارتي اللغوية. صحيح أنني كنت قادراً على كتابة بعض العبارات ولكني نسيت معظم مفرداتي لعدم استعمالها منذ تركت عملي مع شيمودا وشركته عام 1943. إذن فإمكانياتي اللغوية في الهاكا والهوكين كانت بائسة، تستدعي الرثاء إذ بالكاد أعرف قليلها. وأخذت عهداً على نفسي بتعلم اللغة وتجاوز تجاهلي الماضي لها.

تحداني لام تيان إلى مناظرة علنية في منطقة كريتا آير والتي يتحدث سكانها اللغة الكانتونية والتابعة لمنطقة تانجونغ باجار. تحديت خصمي وشننت هجوماً معاكساً قلت فيه: إنه لكي تجري الأمور بشكل صحيح، ومن أجل أن تكون تأدية الواجب في المجلس التشريعي وفي الحكومة مثمرة، على المرشح أن يكون متمكناً من اللغة الإنكليزية لكي يستطيع القيام بواجبه بشكل فعال. ولكن في اجتماع شعبي آخر انعقد في باندا ستريت وهو حي كانتوني استطعت، بعد جهد كبير، أن أقول بعض الكلمات باللغة الكانتونية. ذلك تمّ بعد أن قدم لي جك ثونغ وهو صحفي صديق يعمل في صحيفة"سين باو»، فقرتين مكتوبتين. أمضيت ساعات عديدة أتدرب على قراءتها والنطق بها تحت إشرافه، لأؤديها خلال ثلاث دقائق فقط. وما كان من الجماهير إلا أن ظاهرتني وحيتني على جهدي.

أما مشاكلي لم تنتهِ عند هذا الحد. فالنقابات اليسارية المتحدثة بالصينية وكذلك طلاب المراحل المتوسطة ركزوا جهودهم جميعاً لإنجاح ليم تشين سيونغ في بوكيت تيما وديفان نير في فارار بارك، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من أجلي ومن أجل مرشحي حزبنا الآخرين. لو كانت لدي في السابق أية شكوك عن الجهة التي أعطتهم هذه الأوامر فقد تبدت الآن بعد تجربتي هذه. لقد اندمجنا بسبب المصلحة المشتركة. أرادوا إنجاح عضوين منهم وأرادوا أن أكون غطاءً نافعاً لهما. لم أسمح لنفسي فيما بعد بنسيان ذلك. كان علي التحدث في جولة انتخابية لصالح ليم، وأخرى لصالح نير، ولكن في الواقع لم يكن قلبي راضياً عن ذلك. قمت بالجولتين في سيمبا وانغ وكنت مع أحمد إبراهيم النقابي من القاعدة البحرية، وفي بونغول تامبينز مع جون تشو تشوا. العجوز الذي اتضح لي أنه كان خطيباً مفوهاً باللغة الهوكينية وقد كان ناجحاً في خطابه. لم تكن هذه الحملة تشبه بأي حال من الأحوال حملة عام 1951 عندما كنت وكيلاً انتخابياً للايكوك في كانتونغ. تلك الحملة كانت مهمة بسيطة تخللها شرب الشاي وحفلات العشاء.

كان هناك 48000 ناخب مسجل من أصل 1.8 مليون مواطن. أما في عام 1955 ومع التسجيل الآلي لمواليد سنغافورة فقد كان هناك 300,000 ناخب. أي ما يقارب 60% منهم من الناطقين بالصينية. بالإضافة إلى أن الشيوعيين والمتعاطفين معهم قرروا خوض هذه المهمة لأول مرة منذ إعلان نظام الطوارئ. إذن فالجو العام كان مختلفاً جداً، واللغة الأساسية كانت اللهجات الصينية، ولغة السوق المالاوية التي كانت تصل إلى أوسع الشرائح السكانية، وفي النهاية اللغة الإنكليزية التي كانت تصل إلى شرائح أضيق ـ الطبقة العليا من المجتمع السنغافوري الذي كان أقرب إلى تيارات السلطة، ولكن تأثيره الانتخابي كان محدوداً. امتلأت الشوارع بالحشود الانتخابية وعُقدت الاجتماعات في الساحات العامة، ووقف الخطباء على ظهور الشاحنات الكبيرة والصغيرة حاملين مكبرات الصوت، بينما أحاطت بهم مصابيح الإنارة من كل جانب. استطاعوا استقطاب حشود كبيرة سادها المتحدثون بالصينية والمالاوية. أما لعبة قاعات الاستقبال السياسية الهادئة والرصينة لعام 1951 أصبحت شيئاً من الماضي.

اكتسبتُ تجربة غنية من خلال تجييشي للأصوات في المعركة الانتخابية. تعتبر منطقة تانجونغ باجار عاصمة أحواض السفن في سنغافورة، حيث تجد عمال أحواض السفن والباعة وأصحاب المتاجر يُؤَمنون المؤن والحاجات الضرورية، إلى جانب جحور الأفيون. كنت قد زرتُ أماكن مثل منطقة ميناء سنغافورة بشكل يومي لكسب المالاويين الموجودين في ناحية "طريق التوبة" حيث يعيش الناس في بيوت خشبية بدون مجارٍ، ناهيك عن الصرف الصحي، وحيث رائحة العفن والروائح الخبيثة هي الطاغية. كنت أشعر بالغثيان في كل مرة أدخل فيها هذه المنطقة. وفي داخل هذه البيوت كان زعماء هؤلاء السكان يمسكون بشبكة من الخيوط تعمل على جعل المجتمع المالاوي ضمن شبكة اجتماعية متقاربة. تعرفت هناك على زعيم «الاتحاد الوطني المالاوي». وخلال وقت قصير قام بتقديمي إلى مفاتيح بضع مئات من الأسر التي تعيش هناك، ووعدوني بمنح أصواتهم لي.

موقع آخر فاحت منه رائحة القذارة والتعفن، وهو عبارة عن صفوف عديدة من الحوانيت الوضيعة والمتهالكة في شارع «نارسيس» والأزقة المؤدية إليه في المنطقة التي يوجد فيها الآن تانجونغ باجار بلازا. لم يطل هذه البيوت أي إصلاح خلال سنوات، فمصارف المياه تسدها أكوام القمامة التي رماها الباعة الجوّالون المنتشرون على جانب الشارع حيث تتفسخ بقايا الطعام وينتشر النتن في كل مكان. جرذان هائلة الحجم تدخل وتخرج من هذه المصارف بكل جرأة واستخفاف بالقطط المحيطة. مرة أخرى انتابني الغثيان. وعندما عدت إلى المنزل لم يكن غسل يدي شيئاً كافياً. فقبل أن أجلس إلى العشاء كان علي أن أستحم وأن أبدل ثيابي جميعها.

الموضوع الأكبر والأوحد الذي استرعى اهتمام الناطقين بالصينية هو الثقافة الصينية، والحاجة إلى الحفاظ على التقاليد الصينية من خلال المدارس الصينية. ولم يكن هذا الموضوع موضوعاً بروليتارياً. بل كان بكل بساطة ووضوح رمزاً للتعصب القومي. ولكن الشيوعيين أدركوا أنه ورقة جماهيرية رابحة تمس شغاف قلوب الصينيين، وقد عملوا عليها بكل اجتهاد. ففي انتخابات المجالس التشريعية السابقة كان الخطباء يؤدون خطاباتهم بفتور وضعف وبصوت خافت دون إحساس أو اقتناع. وغالباً ما كانت تؤدّى باللغة الإنكليزية، وفي أحيان أقل بالمالاوية، وفي بعض المرات تتم ترجمتها إلى اللهجات الصينية المختلفة. أما هذه المرة فقد انطلق الخطباء ـ الدعاة الصينيون ـ بكل قوة، يخطبون باللهجات الصينية: الهوكين والكانتونية، والتيوتشو، وبالحق كانوا مؤججين بارعين لمشاعر مستمعيهم. إذ تمكنوا من ذلك بعبارات بليغة طيعة سلسة، فقد استعاروا الأقوال والحكم المأثورة، واستندوا إلى الاستعارات المجازية والأساطير التقليدية ووظفوها في الحديث عن الأوضاع الحاضرة. فالحرارة التي تحدثوا بها انعكست على مشاعر مستمعيهم وأيقظت مشاعر الافتخار بالعظمة الصينية التي تفجرت عندهم. بعد الآن لن يعود صينيو سنغافورة إلى ما كانوا عليه بالأمس.

شخص واحد خرج من هذه الانتخابات كخطيب جماهيري مفوه. كان شاباً نحيلاً ذا طول معتدل، ووجه طفولي ناعم وصوت رنان ينساب بجمال من خلال لغته الوطنية. وتولهت الشابات به، ولاسيما صبايا اتحادات التجارة. أما مواضيع خطبه فضلاً عن الثقافة الصينية كانت أوضاع العمال المقهورين، والإمبريالية الشريرة، وأحكام الطوارئ التي داست على حقوق الجماهير. وحرية القول وحرية الجمعيات العامة. بعد انطلاقه الفاتر في أول اجتماعين جاء التصفيق الحاد كل مرة كان يتكلم بها. وبعد نهاية هذه الحملة كان ليم تشين سيونغ يعتبر ذا شخصية قادرة على سحر الجماهير، ومكانه في قلب الحياة السنغافورية، وهذا ما أثار قلقاً آنياً في أوساط حزب العمل الشعبي.

كما توجه إلى هذه المجاميع ضمن السباق ذاته فونغ سوي سوان ولكنه لم يكن يملك القدر نفسه من تأثير ليم عليهم. وهذا ما كان عاملاً سلبياً في الحملة. فقد كان على فونغ التحدث بالهوكينية حتى يصل صوته إلى أوسع الشرائح. إذ أن الهوكينيين شكلوا أوسع مجموعة صينية في سنغافورة وبالتالي أصبحت لهجتهم مفهومة من قبل الفئات الأخرى، ولكن فونغ كان من الهاكا، مثلي أنا. أما بالنسبة للهجة الماندرين التي كانت تصل فقط لمن هم تحت سن الخامسة والثلاثين من مرتادي المدارس الصينية. كنت متحمساً لتعلمها، ولكن بعد هذه الانتخابات أدركت أنني حتى ولو تمكنت منها فلن يكون ذلك كافياً، وكنت قد أقلعت عن فكرة تعلم الهوكينية أيضاً. أما اللغة الأخرى التي كان يمكن أن تصل إلى جمهور كبير كانت لغة السوق المالاوية "مالاوي بازار" هذه اللغة كانت خليطاً من لغات مختلفة مع قواعد بسيطة، ولكنها كانت مفهومة من قبل جميع الأعراق. وكانت الأسلوب الوحيد للتعامل التجاري مع المالاويين والهنود. ولكن بما أنها كانت لغة محدودة فكان صعباً قيادة الجماهير من خلالها. فالبلاغة تحتاج إلى أجنحة تطير بها.

المذهل في هذه الانتخابات هو الإمكانية الكبيرة بالاعتماد على الولاءات الشخصية. هؤلاء الذين أتوا للمساعدة فعلوا ذلك لأنهم أحسنوا الظن بي ورغبة منهم في إنجاحي. أقام ما يقارب العشرين من عمال البريد، بإمرة زعماء نقابتهم، ولعدة أيام مرهقة في شرفة منزلي الخارجية في أوكسلي رود (منزلي كان مركز قيادة الدوائر الانتخابية الأربعة التي دفع إليها حزب العمل الشعبي بمرشحيه) وذلك كي يعنوني بياني الانتخابي ليوزع على الناس. وساهم أيضاً نيابة عني موزعو البريد في تانجونغ باجار وداروا من بيت لبيت لتوزيع كُرّاساتي الدعائية. كما أن هيئات مثل جمعيات الباعة الجوالين، وباعة البسطات الصغيرة ساعدونا أيضاً. بعض أعضاء الجمعيات من باعة الدجاج والبط الحي كانوا ينوءون بحملهم الثقيل الموجود في سلاسل مثبتة إلى دراجاتهم، ومع حلول العام الجديد الصيني طلبت الرحمة من مسؤوليهم ليخففوا عنهم أحمالهم الثقيلة فالمهرجان الجديد هو أكبر أعياد التقويم القمري.

أكثر التنظيمات حماسة لي كانت هيئة مجتمع الهاكا، والهيئات الرافدة لها مثل الجمعية التي تضم أبناء مقاطعة أجدادي في البر الصيني الـ"دابو". فكثير من الناس الغرباء عني تماماً جاؤوا إلى أوكسلي رود مقدمين خدماتهم وكانوا من الهاكا الدابو (أحدهم كان يناديني بالعم مع أنه كان أكبر مني في السن) لم يفكر أحدٌ بمكافأة على عمله، وكل ما أرادوه هو مشاركتي بالنجاح والمجد. قام تشونغ مونغ سانغ وهو رئيس جمعية الهاكا في سنغافورة بتجنيد طاقات أعضاء جمعيته لصالحي كما ساعد في تأمين وسائط النقل اللازمة. كان أيضاً جاراً لي في أوكسلي رود، وهو يملك سلسلة من المَراهِن الناجحة في الملايو وسنغافورة (كثير من المَراهِن هذه كان يديرها أفراد من الهوكا). وكنت أيضاً المستشار القانوني الفخري لجمعيته. ولكون الهوكا أقلية مترابطة فقد أخلصوا في نصرة قضيتي. وسمحت لي الجمعية الصينية لباعة الكحول بالمفرق باستخدام مبناها في شارع بيرنام كمقر قيادة ثانٍ للمعركة الانتخابية.

تبرع كثير من الناس الذين لا أعرفهم بالمال، وأحضر آخرون لفافات الأقمشة البيضاء لصنع اللافتات ولم يكن عملهم هذا مقابل منفعة مادية أو خدمة متبادلة. على كل لم يكن لدي شيء أعطيه. بالمقابل جاءني اثنان فقط من «الفاجار»، الجناح اليساري ذي الخلفية التعليمية الإنكليزية، للمساعدة في كتابة العناوين على البيان الانتخابي.

واجهتنا مشكلة لوجستية كبيرة وهي إيجاد وسائط نقل المنتخبين لمراكز الاقتراع، بحيث يصوتون لمرشحينا، هذا الأسلوب ابتدعته الأحزاب الثرية المحابية للبريطانيين بسبب امتلاك أنصارها للسيارات. هنا اعتمدت على مختلف أنواع الاتصالات الشخصية لحل هذا الإشكال. فاتصلت بإخوتي وبعمتي، وجاري من الهاكا، وأصدقاء مثل هون سوي سن وأخيه. وقد قمت بتعيين دينس مسؤولاً عن تنظيم النقل يوم الانتخابات، وهي مهمة لا يحسد عليها، إذ كان عليه أولاً أن يضع أسس التنظيم، وآلية ترتيب السيارات وهو محاط بضجيج وضوضاء العربات المتجهة إلى أوكسلي رود من جميع أنحاء سنغافورة كما أن عليه مراجعة مقر القيادة الثاني الموجود في شارع بيرنام، وأخيراً التجوال في جميع أنحاء تانجونغ باجار لالتقاط المصوتين المشاركين. استطاع دينس إقناع بعض محطات الوقود باحترام توقيعه لاعتبارهم خدماتي السابقة لهم عندما كنت أعمل مع لايكوك وَاونغ. فالعلاقة الجيدة مع محطات الوقود كانت ضرورية لأن أصدقائي أعاروني سياراتهم وخزاناتها ملأى بالوقود، وعلي بالطبع أن أعيدها ملأى أيضاً، رغم أن ثمن الوقود كان يدفع من صناديق الانتخاب.

هذه الجهود لم تكن من أجلي فقط. وقد جاءني الوكلاء الانتخابيون لـ ليم تشن سيونغ وديفان ناير مطالبين بسيارات لحملتهما .وأصرّ شخص كريه من نقابة المعلمين اسمه كام سيو يي على أن أخصص ثلاثين سيارة لناير وحده. وبعد ثلاثة أسابيع من انتهاء الانتخابات وفي 21 نيسان (ابريل) كتبت تشو رسالة إلى

كينغ سو في إنجلترا اعترضها الفرع الخاص واستقرت ضمن ملفاته. كانت الرسالة توضح بجلاء السلوك الملتوي للنقابات والطلاب الصينيين في مسار الحملة الانتخابية وكذلك العلاقة مع المحرضين الانتخابيين ومشكلة السيارات.

«قام بمساعدة هاري المحرضون الانتخابيون والخطباء وكانوا جميعاً مندفعين ومخلصين، وفعالين في مساهمتهم، وكذلك كان سعاة البريد، والموظفون، وعمال المحال، والرجل الذي يدير مطعماً صغيراً في الشيناتاون، رئيس نقابة الطباعة، إلخ. قبل الأسبوع الأخير جاءنا ما يقارب العشرين من الشبان المشاكسين ليساعدوا في الحملة التحريضية، كانوا قد حضروا بين الساعة الثانية والساعة الخامسة بعد الظهر. أي عندما كان جميع الرجال يمارسون أعمالهم وغير موجودين في منازلهم، وهكذا لم يكن لمشاركتهم هذه أي تأثير يذكر. يمكنك مقارنة هذا مع المئات بل أكثر من الشبان الذين دفعهم لويس باتجاه فارير بارك طوال الشهر. في يوم الاقتراع جاء عدد من الصبية كي يساعدوا في تانجونغ باجار على حث الناس على الانتخاب، ولكن إن كان لديك أي شك في إخلاص هؤلاء الصبية ومؤازرتهم الحقيقية فإن هذه الانتخابات ستزيل كل الشكوك لديك.

«وفي صبحية يوم الاقتراع ارتكب ديفان خطأ بإيفاده كام إلى أوكسلي رود 38 لاستلام سيارات مخصصة لفارير بارك. فلجنة المواصلات لدينا كانت تعاني الأمرّين في تأمين سيارات (أكثر من مئة سيارة أعيرت لهاري) وإرسال هذه السيارات إلى بوكيت تيماه وفارير بارك، لأن أكثر الناس (أمثال جيراننا الهاكا) كانوا قد أعاروا سياراتهم إلى لي كوان يو شخصياً وليس لحزب العمل الشعبي. فكانوا يعارضون بشدة ذهاب السيارات إلى أي جهة باستثناء تانجونغ باجار. وعلى ذلك تم فرز السيارات بكل حذر. فتم إرسال بعض من لم يمانع في أن تذهب سيارته إلى المراكز الأخرى. عندما وصلت السيارات المخصصة

لفارير بارك كان الوقت قد أصبح متأخراً. ويأتي هذا الأحمق كام يطالب بكل وقاحة وصفاقة بالسيارات مرفقاً ذلك بأسلوب سوقي. من يحسب نفسه؟ فليذهب إلى الجحيم».

وفي يوم الانتخاب الثاني من نيسان (ابريل) 1955استطعت الفوز بـ6029 صوتاً مقابل 980 صوتاً و780 صوتاً على التوالي لمنافسيّ اللذين خسرا بالتالي مبلغ التأمين المودع. فزت بعدد كبير من الأصوات وأكثر مما ناله مرشح آخر بفارق كبير. وكنت مرتاحاً جداً لخسارتهما. لأنه بدون ناير لن يستطيع ليم لوحده أن يكون فعالاً بشكل كامل في مجلس تشريعي يتحدث باللغة الإنكليزية حصراً. ولما كان غير متمكن من اللغة الإنكليزية وبغياب ناير كعكازة لغوية، كان عليه أن يعتمد علي.

المفاجأة الكبرى في هذه الانتخابات كانت هزيمة الحزب التقدمي الذي كان يتوقع أن يشكل أكبر كتلة في المجلس. أما الجبهة العمالية فقد كسبت عشر مقاعد من بين سبعة عشر مرشحاً، ولدهشته الفائقة أصبح ديفيد مارشال الوزير الأول. فاز حزب العمل الشعبي بثلاث مقاعد من بين أربعة مرشحين، وفازت الأحزاب الصغيرة والمستقلون ببقية المقاعد الثمانية. إذن الحزب التقدمي فاز بأربع مقاعد من بين اثنين وعشرين مرشحاً، والحزب التقدمي فاز بمقعدين من بين عشرين مرشحاً، علماً بأن هذين الحزبين تمتعا بأفضل الإمكانات المادية والانتخابية. ما الذي حدث؟.

تأسس الحزب التقدمي في مطلع عام 1947 على يد مجموعة متقاربة (شلة) من أصحاب المهن ذوي التعليم الإنكليزي وبعض البريطانيين أمثال جون لايكوك ورفاقه هيمنتهم على الحزب الذي اكتسحه ذوو التعليم الصيني (الصينيون الأصلاء).

أما الحزب الديمقراطي فقد تأسس في آذار (مارس) 1955 بعد أن انتبهت غرفة التجارة الصينية إلى أن التسجيل الآلي الذي يتم وفق دستور راندل سوف يستقطب عدداً كبيراً من الناخبين الصينيين. يمكن القول إن هذين الحزبين

يمثلان الطبقتين الوسطى والعليا. واحد منهما يدور في فلك المؤسسة الاستعمارية البريطانية والثاني كان خارج هذه الدائرة السحرية، وأعضاؤه من الصينيين الميسورين العاملين في مجال الاستيراد والتصدير وتجارة المفرق، وأصحاب المحلات، والمصرفيون، وأقطاب تجارة المطاط والقصدير. كانوا زعماء المجموعات الصينية التقليدية، وهم أيضاً المشرفون على المدارس الصينية التي أنفقوا عليها وأداروها من خلال مجالس إدارتها، كما أنشأوا وأداروا المؤسسات الخيرية كالمستشفيات وغيرها من هيئات النفع العام. رأوا في هذه الانتخابات الفرصة السانحة التي ستنقلهم إلى قلب السلطة حيث يستطيعون من خلال ذلك توسيع دائرة أعمالهم. وأكثر من ذلك ظنوا أنهم يستطيعون تسخير طاقات طلاب المدارس المتوسطة الصينية لخدمة حزبهم لأن هؤلاء الطلاب كانوا من أبنائهم. وهم لا يبخلون بإظهار تعاطفهم مع قضية الطلاب وهي الدفاع عن التعليم الصيني.

أما الشرخ الثقافي بين الحزبين التقدمي والديمقراطي كان في العمق بحيث يصعب رأبه. وظهر هذا واضحاً في دوائر انتخابية كثيرة عندما ذهبت أصوات الجماعات اليمينية من متحدثي الإنكليزية والمالاوية إلى الحزب التقدمي، بينما ذهب صوت اليمين المتحدث بالصينية لصالح الحزب الديمقراطي. فلو وحدوا جهودهم وعملوا معاً لكان باستطاعتهم الفوز بنصف أصوات المنتخبين البالغ عددهم160، 000 صوت (سبعة أضعاف عدد المصوتين في انتخابات 1951).

ما إن تأكدت قياداتهم من خسارتهم السباق حتى تسللت خارج مركز التعداد في قاعة فكتوريا التذكارية، واختفت تحت جنح الظلام. ما فاتهم أنه عند الخسارة يجب أن يقف المرء متحدياً، لا مبالياً، محافظاً على الروح المعنوية لدى المؤيدين والأنصار استعداداً للمعارك القادمة في يوم آخر. فالشيوعيون عرفوا ذلك ونحن أيضاً في حزب العمل الشعبي سرعان ما تعلمناه أيضاً. لكن الحزبين التقدمي والديمقراطي قد تحطما نهائياً تحت وطأة ضربات حملتنا المركزة

عليهما والتي سددناها بعنف في هذه الحملة. فقد وصنفنا الحزب التقدمي بأنه صنيعة من صنائع السلطة الاستعمارية، ووصنفنا الحزب الديمقراطي على أنه حزب الرأسماليين ومستغلي الشعب، والواقع أن هدفنا الرئيسي من هجومنا كان سلطة العرق الأبيض التي قلت عنها في بياني الانتخابي: (إن الدور الاستعماري البريطاني في الملايو هو المسبب الرئيس لكثير من الشرور الاجتماعية والاقتصادية في هذه البلاد).

انتقد السياسي الساذج مارشال حزب العمل الشعبي لكونه يغالي في المطالبة بالحكم المستقل الفوري: (يبدو أنهم قد ركزوا على معاداة البريطانيين والهجوم عليهم. لكن بياناتهم ضد البريطانيين لا مبرر لها). ربما كانت هذه هي المشاعر الحقيقية للمتحدثين بالإنكليزية أبناء الطبقة الوسطى وهذه المشاعر على تناقض كامل مع مشاعر الجماهير المتحدثة بالصينية.

كان للفونيكس بارك، وهي المقر العام للمندوب البريطاني، تقديراتها الاستخبارية حول الانتخابات، وقد اقتبست بعض فقرات من خطاب ألقيته خلال الحملة:

«إني حسب ما أرى، وخلافاً لهؤلاء الذين هم فوق سن الأربعين فإن جميع الصينيين يفخرون إلى أبعد الحدود بإنجازات حكومة ماوتسي تونغ. هذه الحكومة التي استطاعت خلال خمس سنوات تحويل الإدارة الفاسدة والبائدة إلى أخرى،استطاعت أن تجابه القدرة العسكرية الأمريكية الهائلة في كوريا وهي تستحق منا كل تقدير: إن الجنرال شاينغ وحكومة الكومنتانغ قد انتهوا ـ إلا بالنسبة لبعض المضلّلين المؤيدين له والذين يتحدثون عن إعادة غزو بلاد الصين الأصلية. لكنني أؤمن أنه ينمو في الملايو جيل من الصينيين من الذين وُلدوا وترعرعوا في هذا البلد، والذين تعلموا الثقافة الصينية وتقاليدها، ولكنهم في الواقع مالاويون في تطلعاتهم. إنهم يعتبرون الملايو وطنهم الوحيد، إنهم فخورون بالصين كما

يفخر الفرنسي بمقاطعة كيبك الكندية بفرنسا. بالطبع هناك من يظن أن بناء الأمة المالاوية شيء غير مجدٍ. هؤلاء هم الطلبة الشباب الذين يعودون إلى الصين ليندمجوا في تيار الحياة الصيني. أما من يبقى هنا فهم المالاويون وسيزدادون أكثر وأكثر مع مرور السنين».

ظنت الاستخبارات البريطانية أن كلماتي هذه تستحق الدراسة ليتمكنوا من فهم موقفي الحقيقي. وقبل ذلك وفي كانون الثاني (يناير) كان راجا قد تقدم بمشروع مسودة إلى الحزب وقمت بتبنيه وهو يقترح عفواً عاماً يطال الحزب الشيوعي المالاوي.

الاقتراح بدا للوهلة الأولى منطقياً ومعقولاً، ولكن تبين لي فيما بعد لدى مراجعته والتأمل فيه أنه كان ساذجاً وغير عملي. يقول الاقتراح: «تبيّن أنه خلال الست سنوات ونصف السنة التي مضت، أن نظام الطوارئ في هذه البلاد إنما هو في جوهره موضوع سياسي وليس عسكرياً». وكلما أسرعنا في إنهاء العمل به كلما استطاع الشعب استعادة حقوقه الديمقراطية التي حُرم منها، ويمكن للأحزاب الديمقراطية أن تمارس أنشطتها بشكل فعال. يجب على الحكومة المالاوية أن تقدم ضمانات حقيقية بأنه في حال أوقف الحزب الشيوعي المالاوي عصيانه المسلح فلن تكون هناك أعمال انتقام أو اقتصاص. وإن قبل الحزب أن ينشط ضمن الأطر القانونية في الحياة السياسية فإنه يجب أن يسمح له بذلك كحزب شرعي.

كنت وراجا راديكاليين وثقافتنا غربية. لا نحمل فكرة حول ديناميكية انتفاضات العصابات المسلحة وعنف الثورات. أدركنا متأخرين أن الشيوعيين لن يتخلوا عن إمكانية استعمال القوة المسلحة عندما لا تحقق لهم الوسائل الإمساك بزمام السلطة. لكن بينما كانت مطالبنا التي لم تكن صائبة، تتسم بالبراءة، كانت أساليب الشيوعيين وأنصارهم تتسم، بشكل أوسع، بالمكر في احتواء التجمعات الشعبية وتسييرها في المنحى الذي يريدون. كانوا كمخرجي المسرح البارعين

يوجهون قادة مؤيديهم وينظمون التصفيق الطويل والمدوي في حال كان الخطيب يهاجم أنظمة الطوارئ. مما يجعل هذا الموضوع يبدو وكأنه الموضع الأهم، لأن إلغاء هذه الأنظمة سيسمح للحزب الشيوعي المالاوي بالعمل في العلن ويمكنه من ترتيب أوضاعه التنظيمية. في البداية لم أكن واعياً لما يجري، بل كنت مأخوذاً بما بدا لي أنه عفوي، ولكن بعد أن شاركت في أكثر من اجتماع شعبي خلال السنتين التاليتين بدأت أنتبه بالتدريج إلى أن قادة المؤيدين كانوا يندسون في صفوف المتجمهرين وينتظرون إشارة من زعيم لهم، ما إن تعطى حتى تنتقل إلى ثلاثين أو أربعين شخصاً حضروا خصيصاً لتنفيذ مشاهد التصفيق. وطبعاً عندما يصفقون تنتقل العدوى إلى بقية المتواجدين حولهم. هذا الإخراج كان يقدم بشكل مؤثر. كنت أرى في ذلك إعادة للعبة (محاكاة القائد) التي تجري خلال النزهات حيث يتجمع التلاميذ من 20 إلى 30 تلميذاً بشكل دائري ويقوم الجميع بأداء حركة واحدة كلمس الأنف. أو شد الأذن أو جذب كم القميص، كانت اللعبة تتلخص في معرفة الشخص الذي يقوم بتغيير الحركة أولاً ومن ثم يسارع الجميع وبشكل فوري وموحد تقريباً بتغييرها معه. رغم وجود الفريق الجيد لم يكن القيام بذلك سهلاً. هذه الإدارة المسرحية الماهرة، وكذلك التمكن من فن الخطابة هما السبب الذي أدى إلى ذيوع شهرة ليم تشين سيونغ خلال أسابيع الحملة الانتخابية.

عرفت فيما بعد، أنه لو قام الخطيب بقول شيء يخالف خط الحزب فإن أفراد مجموعة المصفقين المأجورة تتعامل معه ببرود بحيث تربكه في خطابه كما تصدر أصواتاً مربكة. وفحيحاً هامساً، وتظهر الاستخفاف بما يقال بحيث تشتت انتباه السامعين. طوّر الشيوعيون هذه التقنية في فهمهم لنفسية الجموع وارتقوا بها إلى درجة الفن الرفيع. وقد كانت تعطي نتائج كبيرة عند استخدامها بين الحشود من ذوي التعليم الصيني، ولكن بدا لي أنها لم تتمكن من التأثير في ذوي التعليم الإنكليزي. قلت في ذلك الوقت أشياء كثيرة أعتبرها

الآن ضرباً من الحماقة، وربما كان من حظنا أن حزب العمل الشعبي لم يقم بتشكيل الحكومة وإلا كان عليه تنفيذ الاقتراحات المطروحة، ورغم ذلك استطعنا في الوقت ذاته إثارة التوقعات بالتغيير الكبير. استطعنا أن نثير اهتمام الشعب إلى الدرجة التي شددناه معها إلينا واستمع إلى خطاباتنا التي ملأته بالأفكار المثيرة واستنهضنا فيه روح التحدي والتمرد. فالمعركة الانتخابية التي استمرت خمسَ أسابيع غيّرت بشكل قاطع المزاج الشعبي في سنغافورة. ولكن إذا اعتبرنا حفلات الشاي شيئاً من الماضي فإن كل ما جرى من تحريض وبلاغة لفظية سيترجم قريباً عنفاً دموياً.

11. الجولة الأولى للشيوعيين

لم يكن لا يكوك سعيداً بل كان يزداد تعاسة بسبب نشاطاتي السياسية ولكنه لم يَشْتَكِ لي مباشرة. وفي عام 1954، وبعد ثلاث سنوات من الخدمة، أعطاني عقد مشاركة أتعهد بموجبه بحد أدنى يزيد على ما أتقاضاه أنا وتشو معاً. لم يكن يرغب في استمرار العمل مع تشو، التي كانت سعيدة في البقاء في البيت لتعتني بشؤون لونغ – ثم بشؤون لينغ التي ولدت في كانون الثاني (يناير) 1955. كان يعلم أنني أقوم بعملي وفقاً لاتفاقنا وكان متسامحاً معي. ولكن هزيمة (الحزب التقدمي) واستبعاده من قبل المنتخبين في كاتونغ كانا ضربتين قاصمتين. ولعله ظن أن «التقدميين» سوف يشكلون الحكومة وسأكون أنا في صفوف المعارضة. لم يتحدث إلي ثانية، لأنه ظن أنني لم أعد مقبولاً مطلقاً. وأخيراً كتب إليّ رسالة يطالب فيها بإنهاء شراكتنا بأسرع وقت ممكن، مقترحاً تاريخ نهاية شهر آب(أغسطس) 1955 لتنفيذ ذلك. وافقته على الفور. وهكذا انتهى أحد فصول حياتي المهنية.

في السنوات الخمس التي تلت عودتي من إنكلترة حققت شيئاً من الممارسة الحقوقية كما بنيت قاعدة من التأييد والدعم السياسي أخل النقابات. ولكن الآن أمامي مهمتان: أن أشرع بعملي الحقوقي المهني الخاص وأن أوجد شكلاً تنظيمياً «لحزب العمل الشعبي» ـ PAP. لم يكن ثمة حاجة ملحة كثيراً. فلدي أربع أشهر قبل أن أغادر لايكوك وأونغ) وأربع سنوات لتأطير حزب عمل الشعب PAP قبل الانتخابات العامة المقبلة. فشكلت مع تشو وأخي دينيس مؤسسة «لي ولي» في شارع ملقه، القريب من (لايكوك وأونغ). ما لم أتوقعه هو تأثير الحملة الانتخابية على المناضلين والنقابيين. فالنشاط المسعور لأنصار الشيوعيين، وخطبهم العنيفة حول ليم تشين سيونغ وديفان نير قد ولّدت أجواء ساخنة. فكثير من أعضاء

الحزب الشيوعي المالاوي MCP كانوا في مركز ضعيف أو كانوا متوارين منذ إعلان حالة الطوارئ. وفي الأسابيع التي سبقت والتي واكبت الانتخابات ظهروا إلى العلن، مستخدمين استتارهم كعامل مساعد في الحملة لإثارة مشاعر مناهضة للسلطة بين العمال، وسكان الأرياف (معظمهم من الفلاحين الصينيين) وطلاب المدارس المتوسطة الصينيين. كانوا يختزنون كراهية الإمبرياليين والحكومة والشرطة الاستعماريتين، والرأسماليين البريطانيين، والتجار الوسطاء (الكومبرادور) المحليين الذين ساعدوا البريطانيين على استغلال الناس. خلقوا جواً محتدماً ـ حتى ظن كل من يحيط بهم أن الثورة الناجحة باتت وشيكة. وقد أثبتت الحالة النضالية أنها ناقلة للعدوى.

قبل قضية "فاجار" كنت أبحث عن نشطاء محتملين بين طلاب جامعة المالايو الذين يرغبون في العمل مع الاتحادات. كان عليّ القيام بكثير من العمل، وكنت بحاجة إلى مناوبين يعملون طوال الوقت. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. فالمتخرجون الجيدون كانوا يتطلعون إلى أعمال أو مهن جيدة. ولا أحد يرغب في أن يتقاضى راتباً يقل عن الرواتب التي تُعطى لمن يحمل مثل مؤهلاته، ويعمل مع الاتحادات. بمعنى آخر لم تكن ثمة حماسة. والقلة الذين جاؤوا كان دافعهم مثالية الشباب. أحد هؤلاء كان ساندرا سيغرام (أو سيدني) ودهال الذي عينته في «اتحاد عمال القاعدة البحرية» براتب ضئيل كأمين سر. وكان الآخر جاميت سينغ الذي أخفق في امتحاناته الأخيرة، ولكنه كان نشيطاً في العمل. وبتوصية مني مُنح راتب أمين سر «اتحاد هيئة موظفي ميناء سنغافورة».

شهد هذا الاتحاد إضراباً سلمياً من جانب الموظفين الهنود والصينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية. وكان جاميت هو الذي دعا إلى الاضراب لأن «هيئة الميناء» لم تفِ بوعدها بدفع قيمة ساعات العمل الإضافية، والعلاوات، والتقاعد، والحقيقة أنه يريد الشغب فحسب، وشدد الضغط حتى بعد أن عرضت «هيئة الميناء» زيادة الأجور. كان ذلك كله خطئي. كنت ساذجاً عندما أقمت صلة ما بين

النشطاء القلائل من ذوي الثقافة الإنكليزية مع كوادر الحزب الشيوعي MCP من الناطقين بالصينية. الآن حتى السيد جاميت سينغ سار في ركاب ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سيوان لأنهما كانا من الأكثر نشاطاً من جميع النقابيين. وراح يحث النقابات الناطقة بالصينية على أن تكون أكثر صرامة ومجابهة، كما حرّض الموظفين العاملين معه على ذلك. والأكثر من ذلك أنه انضم إلى ديفان نير وجيمس بوثو تشيري (وكانا قد احتجزا معاً في جزيرة سان جون) في «اتحاد عمال مصنع سنغافورة»، الذي قفز عدد أعضائه من بعض مئات في السنة الفائتة إلى أكثر من عشرة آلاف عضو، كما ساعداه على أن يعمل ضمن القانون ويدخل الناطقين بالصينية إلى الأوساط البيروقراطية الناطقة بالإنكليزية.

كانت الكوادر الموالية للشيوعية مبتهجة لما اكتسبته من معارك سياسية مع الناقلة السياسية الشرعية، وحزب العمل الشعبي، ومع الزعماء ذوي الثقافة الإنكليزية الذين يفهمون الدستورية. وهذه أعطتهم غطاء لعملهم. كما أن موقف ليم تشين سيونغ، عضوَ جمعية تشريعية قد أعطاه مركزاً واحتراماً لدى الحكومة ومسؤولي الشرطة. ثم جاءت الضجة التي نجمت عن الهزيمة الكاملة والشاملة للحزب الديمقراطي والشغب الذي حدث داخل الحزب التقدمي الذي يضم الاختصاصيين من ذوي الثقافة الإنكليزية. وفي مواجهة هذا التحدي كانت هناك حكومة «جبهة عمالية» تتشكل من انتهازيين ضعفاء وعلى رأسها رئيس وزراء جيد ولكنه غير محنك سياسياً هو ديفيد مارشال، الذي لم يكن يفهم لغة الناطقين بالصينية. ولكنه كان يتطلع بلهفة إلى أن يلعب الدور الذي يتطلع إليه كليبرالي واشتراكي وهو تحرير سنغافورة من الاستعمار.

جددت معرفتي في «الجمعية التشريعية» مع وليام غود Goode، السكرتير الأول. إذ قابلته أول مرة عام 1953 حول شكوى ثانوية لموظفي البريد. وغود الآن من المؤمنين بضرورة «أحكام الطوارئ» بسبب تفشي الجريمة وأعمال العنف والأذى التي باتت جزءاً من تطلع الشيوعيين للسلطة. إذ لم يقوموا

بأعمال الإرهاب ضد العسكريين فقط، بل وضد المدنيين أيضاً لإكراههم على مؤامرة الصمت. وكانت النتيجة أن بات الجميع يخشون الشهادة ضد أية جريمة لها صلة بأحد الشيوعيين حفاظاً على حياتهم. فهو مازال يذكر جريمة القتل التي وقعت في 17 نيسان لشاب صيني يانعٍ خرج من نادٍ للموسيقى وهو يعزف الهارمونيكا، فأطلق أحدهم النار عليه. كنت في ذلك الوقت في «اتحاد هاكا دابو» المجاور في حفل شاي أقيم على شرفي للاحتفال بانتصاري في الانتخابات، وسمعت صوت الطلقة الذي ما يزال يرن في أذني. حدثت الجريمة في وضح النهار، ولكن لم يتقدّم أحد ليُعرّف على المجرم أو ليساعدَ الشرطة، التي كانت عاجزة دوماً عندما يتعلق الأمر باعتقال شيوعيين أو بجلبهم إلى قاعة المحكمة.

كنت أعرف من خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في ممارسة المحاماة أن غود لا يخشى أحداً تجاه الإدلاء بالحقائق. ولكن ما كان بوسعي تأييد تمديد «أحكام الطوارئ» لأننا كنا قد انتقدناها في حملتنا الانتخابية بقوة. وكان موقفنا آنذاك مسألة مبدأ، مؤمنين بأننا عندما نحصل على الاستقلال يجب علينا أن نتخلص من تلك الأحكام. وفي نيسان بدأت تنتابني بعض الشكوك تجاه ذلك، ولكن الأمر كان يحتاج إلى عام آخر ونصف العام حتى أقتنع أنا، وراجا، وكينغ سوي، وتشين تشي وكيني بأننا كنا جميعاً على خطأ.

ولكن كان علي أن أقوم بدور في الجمعية من أجل تخفيف عبء الوضع الأمني ودفع جدول أعمالنا إلى الأمام. لهذا قلت بتهكمٍ، رداً على خطبة بيل غود: (تلك كانت النتيجة الرثة لعدم قدرة الشرطة والأمن السري على مواجهة الأمور). وأضفت بأنه (لا يوجد دليل بمقدار ذرة) على أن التلميذ قُتل في ظروف غامضة أو كان ضحية حملة إرهاب، والحقيقة الناصعة أنه قُتل، ووقف رفاقه مذعورين يرون أن من الحكمة الوقوف بعيداً عن الحادثة.

أضفت: لا إلغاء «الأحكام العرفية» ولا تمديد العمل بها يحلان المشكلة. إذا كنا نريد حلها فليكن لدينا الشجاعة على القول: (نحن نؤمن بالديمقراطية وسنقاتل من أجلها. وإذا فشلنا علينا أن نعترف، كما اعترف الفرنسيون في الهند الصينية بأنه لا يمكن أن ينجح أي شيء). واعتقدت آنذاك لو أن الفرنسيين أعطوا الفيتناميين استقلالهم الكامل لما تحول الفيتناميون إلى الشيوعية.

بعد اجتماع اليومين الأولين «للجمعية» كان من الواضح للصحفيين وللحاضرين أن اللاعبين الكبيرين كانا مارشال وأنا .فهو يتمتع بشخصية لافتة للنظر وبالموهبة اللغوية وبمقدرة مسرحية تجذب انتباه «المجلس». وكان لدي براعة اقتناص استعاراته وتفريغها من معناها والاستمتاع بذلك. ومع أن «حزب العمل الشعبي» كان لديه ثلاثة أعضاء فقط في «الجمعية» بالإضافة إلى أحمد إبراهيم فقد أجلسني السير جورج أويهليرز في المقعد الذي يجلس فيه عادة زعيم المعارضة في مواجهة رئيس الوزراء.

كان أويهليرز محامياً في أواخر الأربعينيات من عمره، شديد الدقة والتمحيص، يحرص على أن يكون عادلاً وغير منحاز لأي طرف. وقد عرف أن الجلسات التي سيديرها ستكون أكثر حرارة إذا ما جلست في مواجهة مارشال لأنني سأجابهه.

ما لم يكن يعلمه الرئيس بعد أن مارشال يغضب بسهولة ويقوم بالتهجم على خصمه ثم لا يلبث أن يعتذر. وكان عليه أن يواجه امتحاناً حيوياً لسلطته لأن مبادرة ليم تشين سيونغ ونشاطات فونغ أثناء الحملة الانتخابية كان من شأنها أن تحملها حتماً على صدام مع الشرطة.

نجح فونغ في جعل عمال شركة بايا ليبار للباصات ينضمون إلى اتحاده في شباط ضد رغبات أرباب عملهم، وكانوا يحاولون أن ينتصروا على الشركة. ولكن كويك سينغ ليونغ، المدير الإداري الصارم للشركة لم يكن ليتخلى عن عماله

وشركته إلى مجموعة من الشيوعيين الشباب، والأكثر من ذلك أن وزير العمل ليم هوك كان يدعمه، وكذلك كان يدعمه" مجلس نقابة سنغافورة" ومع هذا كان فونغ مصمماً على تلقين كويك وباقي شركات الباصات درساً.

بعد يوم من افتتاح الجمعية في نيسان 1955جعل مؤيدي «اتحاد عمال الباصات في سنغافورة» يحتفلون بالعيد السنوي الأول. وأعلن عن إضراب رسمي، وحثّ عمال جميع شركات الباصات على التضامن إذا لم يوافق كويك على أن يصبح هوك لي منضماً إلى اتحاد عمال الباصات (SBWU) بوصفه الاتحاد الأوحد والأسرع في حل النزاعات. وكان جواب كويك طرد 229 عاملاً يتبعون إلى «الاتحاد» مما دفع العمال إلى الإضراب عن الطعام وما لبثوا أن استعادوا أعمالهم في الليلة ذاتها.

شارك طلاب المدرسة الصينية المتوسطة في هذا النشاط. فقد عمد الطلاب والطالبات إلى تسلية المتظاهرين بأغانٍ ورقصات من أجل الدعم والتشجيع. نصحت فونغ ألا يدعو إلى الإضراب إلا بعد إعطاء مهلة 14 يوماً وانتهاء هذه المدة. وافق فونغ ولكن في خطبة له في الجمعية التشريعية في 27 نيسان اعترض ليم تشين سيونغ على الإعلان، والذي كان مطلوباً في ظل الأحكام العرفية.

لم يخفْ كويك من التهديد بالإضراب وأراد أن يحرك باصاته في اليوم التالي. ولكن 150 متظاهراً من جماعة فونغ شكلوا سداً بشرياً أمام البوابة الرئيسية لمحطة الباصات، ورفضوا أن يتحركوا على الرغم من تحذيرات الشرطة المتكررة. عندئذ استخدمت خراطيم المياه وتفرقوا. وادعى خمسة عشر متظاهراً أنهم هوجموا بوحشية، ولكن لم يكن هناك إلا بعض الكدمات السطحية. واستطاع كويك أن يشغل أربعين باصاً من حافلاته السبعين في الطرقات.

وفي الأسبوعين التاليين تلقيت درسي الأول في التاكنيكات التفاوضية مع CUF. كان كل تساهل معهم يؤدي إلى مطلب جديد. وكل رفض لأي مطلب يزيد من الحرارة والتوتر. وفي غضون ذلك كان الطلبة الصينيون مع مؤيدي مصنع ليم

تشين سيونغ و«اتحاد عمال المخازن» يستمرون في زيادة المضربين لإشعارهم بالتضامن معهم وبقناعتهم بأن النصر حتمي. ولم يكن ليم وفونغ يريدان ما هو أقل من السيطرة الكاملة على جميع عمال الباصات، بل وأن يكونا قادرين على شلِّ نظام المواصلات في المدينة كذلك.

في 29 نيسان تدخل مارشال وذهب إلى محطة هوك لي للباصات لرأب الصدع والتواصل إلى تسوية. وعرض كويك، تحت ضغط من رئيس الوزراء، أن يسترجع العمال المضربين في انتظار نتيجة تحقيق المحكمة الذي أمر به ليم يو هوك. حضَّيت فونغ على القبول بهذا. كان ف.أ. تشوا، القاضي الذي عالج قضية «فاجار» رئيس محكمة التحقيق. ولما كان رجلاً عملياً فقد سعى إلى حل عملي. فقد أعطى ثلثي الباصات لاتحاد فونغ وأعطى ثلثاً للاتحاد السكني على أن تعمل في طرق منفصلة، وأوصى بأن يعاد جميع العمال إلى أعمالهم. وفي اليوم التالي عادت الباصات إلى عملها.

ولكن الإضراب استؤنف في غضون ساعات عندما رفض مفتشو البطاقات من اتحاد فونغ أن يسجلوا أسماءهم في الشركة قبل أن يغادروا محطة الانطلاق، فيما ادعى آخرون أنهم كانوا عرضة للتمييز لأنه لم تُسلم إليهم إلا عربات في حالة سيئة. استمر العاملون في اتحاد هوك لي في تشغيل باصاتهم في الطرقات، ولكن المضربين مزقوا المقاعد وقرعوا الأجراس بقوة كي يزعجوا السائقين. وخرجت مفارز للطوارئ ثانية وكان على الشرطة أن تستخدم خراطيم المياه لتفرقتهم. كان ذلك مجرد بداية. وفي اليوم التالي دعا فونغ إلى أن تتوقف جميع شركات الباصات السبعة في سنغافورة لمدة يومين مما سيؤدي إلى توقف وسائل المواصلات العامة.

هدد عشرون اتحاداً بالإضراب العام ما لم تبدأ مفاوضات مباشرة بين شركة هوك لي للباصات وشركة SBWU في غضون 24 ساعة. وسرعان ما انضمت إلى الإضراب شركتان، وبذا خلت شوارع المدينة إلا من التاكسيات والسيارات الخاصة. كما توقف العمل في كثير من المناطق الأخرى.

وفي الصباح ذاته عادت مفارز الطوارئ إلى محطة انطلاق الباصات التابعة لهوك لي. وقد حثهم فونغ على الشجاعة بحيث يكونوا حازمين هذه المرة. وبعد الظهر انضم إليهم طلاب المدارس الصينية في 20 شاحنة، وانطلقوا إلى المحطة حيث نشبت معركة حامية الوطيس بين ألفي طالب و300 متظاهر وبين الشرطة. كانت الأسلحة الرئيسية هي الحجارة والزجاجات الفارغة من جهة، والغاز المسيل للدموع من جهة ثانية. وكان رجال الشرطة يستخدمون أسلحتهم النارية بين حين وآخر. وعندما حلَّ الظلام صارت أعمال العنف أكثر شدة.

وفي قرابة الساعة التاسعة اتجهت إلى شارع تانغلين وشارع جيرفيوس، اللذين كانا يُطلان على محطة باصات هوك لي. سمعت في الراديو عند الساعة 9.30 مارشال يتحدث على الهواء. كان حزيناً ومضطرباً. كان يعمل لصالح عمال المدينة ولكنهم مع هذا كانوا يضربون. ذكّرهم بتضحياتهم السابقة التي جعلت سنغافورة مزدهرة، وتوسل إليهم أن يمنحوه الوقت ليضع الأمور في نصابها. قال: «لدينا المزيد من المساعي، وما زلنا نتطلع إلى خدمات البروفيسور آرثر لويس من جامعة مانشستر من أجل أن يساعدنا في إعادة توجيه الاقتصاد في هذه المنطقة لصالح شعبها». لم أكن أصدق عيني.

حزنت من أجل مارشال ومن أجل سنغافورة. كان عليه أن يترك الحاكم كي يعالج هذه المشكلة، أو أن يتحمل مسؤوليته، وعندئذ سيكون عليه أن يخبر العمال المضربين أنهم ما لم يوقفوا هذا العنف فإن عليه أن يستخدم القوة كي يستعيد القانون والنظام. وفي 21 أيار أبلغ الحاكم آلان لينوكس لويد أن «رئيس الوزراء واقع تحت ضغط قوي من جانبي ومن جانب الآخرين، خاطب الجماهير عبر إذاعة الملايو في كلمة مطولة وغير مقنعة، واضعاً اللوم مرة أخرى على الاستعمار وعلى الاستغلال الاقتصادي للوضع».

استمر العنف في اليوم التالي. ففي الساعة الرابعة بعد الظهر كانت جماعات جماهيرية يبلغ تعدادها ما يقارب الألف شخص، تهاجم الشرطة التي جابهتها بالغاز المسيل للدموع. وبعد أن حلّ الظلام استمروا في ضرب مخافر الشرطة، والحواجز في الطرق، وأفراد من الشرطة، والسيارات التي تحمل مكبرات الصوت. واستمر النزال طوال الليل حتى الساعة الثالثة صباحاً أي عندما تفرقت الجماهير. ولكن ظلت مجموعات تتألف من عشر أو عشرين شخصاً تلقي بالحجارة على الشرطة الذين كانوا يمشطون الطرق ويبعدون العربات التالفة. قُتل اثنان من رجال الشرطة وجرح 14 شرطياً، بالإضافة إلى 17 مدنياً. فحيثما ينشب العنف كانت الجماهير تتوجه نحو أي أفراد من العرق الأبيض نظراً لأن مشاعر الكراهية نحوهم كانت في تصاعد. تعرض صحفي أمريكي يعمل في وكالة يونايتد بريس إلى الضرب حتى الموت، ونجا ثلاثة أوروبيون بمشقة.

بعد أحداث العنف في 13 أيار 1955 قررت الحكومة أن تلجأ إلى الصرامة فأغلقت ثلاث مدارس صينية. ولكن الطلاب استمروا في التظاهر وأيدتهم النقابات التي يسيطر عليها ليم تشينغ سيونغ وفونغ، وجرت مسيرات أكثر عبر المدينة واستمر إلقاء الحجارة على السيارات. ولكن الوضع المتوتر تراخى أخيراً بعد دفن طالب صيني في 15 أيار فمر بعدها النهار بدون حوادث. في تلك الليلة وبعد أربع ساعات من الوساطة أذاع مارشال بسعادة أنه تم التوصل إلى اتفاق "يمكن أن يؤدي إلى تسوية لجميع الإضرابات القائمة ذات الطابع الصناعي" في سنغافورة. وعُيّن تشارلز غامبا مُحكماً، وهو شخص يعرف عنه أنه متعاطف مع الاتحاد. أعطى غامبا حكمه النهائي في 28 أيار. وتضمن أن يعود أعضاء SBWU الذين طردوا في 23 نيسان إلى أعمالهم. وتضمن القرار حل «اتحاد مستخدمي هوك لي»، وفُصل 160 عضواً.

لم يكن كويك ليسلم بسهولة. فهو ما يزال يوفر أعمالاً لاتحاد هوك لي الذي كان وفياً له. كان كويك قاسياً وجريئاً. كانت شركة هوك لي للباصات شركة عائلية وكان واثقاً أنه يستطيع أن يقاتل ويربح لأن كثيراً من أعضاء الاتحاد كانوا

من عشيرته وكذلك كان الموظفون الرئيسيون مثل المشرفين والمسؤولين عن الدوام من أقربائه. ولكن حكومة غير خبيرة، غير عارفة بأسرار اللعبة، ساعدت الشيوعيين على كسر القبضة المحكمة لجميع شركات الباصات في سنغافورة.

كان نصراً شاملاً لفونغ ولاتحاد عمال باصات سنغافورة وأساليبهما، ولا يقل عن ذلك أنهم باتوا الآن يتمتعون بتأييد مارشال الكامل. عرفوا أن ثمة باباً دائرياً يمكنهم أن يدفعوا به. أما الطريقة التي قاتل بها SBWU وكسب، فقد أعطت جميع النقابات - من عمال وزعماء، من شيوعيين وغير شيوعيين - الثقة بأن لديهم الكثير مما يربحوه إذا أظهروا أيضاً القدرة على القتال.

12. مارشال يبرز الأزمة

اعتُقل فونغ سوي سيوان وأربعة آخرون من القادة النقابيين من قبل الحكومة بموجب «أحكام الطوارئ» في 11 حزيران (يونيو) من عام 1955. وخرج ستة آلاف من عمال الباصات في مظاهرة احتجاجاً على الاعتقال. وفي اليوم التالي، وبفضل ما وصفته السلطات «بإجبار الغوغاء على الطاعة»، اختفى سائقو التاكسي أيضاً من الشوارع. ولكن الحكومة أنزلت شاحنات خدمة مجانية احتياطية إلى الأجزاء المهمة من المدينة، وعاد مئة ألف عامل، و280 ألفاً آخرين إلى العمل كالمعتاد بدون حوادث. ورغم الشلل الذي أصاب المواصلات العامة فقد أخفق الإضراب في جعل المدينة في حالة جمود. فهذه المرة لم يتجاوب الناس مع الإضراب. فقد كان سياسي الطابع إلى حد بعيد ولا صلة له بمعاناتهم الاقتصادية. وبعد أربعة أيام دعا كل من ليم تشين سيونغ وديفان نير إلى إيقاف الإضراب، وعاد 13300 عامل من رجال ونساء من 90 مؤسسة صناعية وتجارية إلى أعمالهم. وأعلنت الحكومة انتصارها. ولم يطلق سراح فونغ حتى 25 تموز (يوليو).

قررت أن أخرج من مستشفى المجانين هذا وأن آخذ إجازتي السنوية. وركبت السيارة ومعي تشو وابنتنا لونغ وعمرها 3 سنوات متجهاً إلى "كاميرون هايلاندز" في الأول من شهر حزيران (يونيو) التي تقع على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر، وقضينا هناك ثلاثة أسابيع وكنا قد تركنا لينغ في البيت لأنها كانت صغيرة جداً لا يتجاوز عمرها 5 أشهر. كنت ألعب الغولف يومياً في تاناه راتا. وكنت أفكر ملياً في خطورة أحداث الأشهر القليلة الماضية. وشعرت في أعماقي أن الاستمرار في الطريق الذي شقه ليم تشين سيونغ وفونغ سوف ينتهي بنا إلى كارثة سياسية. فحزب «عمل الشعب» واتحادات «الطريق المتوسطة» (نسبة إلى المكان وليس إلى سياساتها) سوف تخضع للحظر. ولكن إذا كان مارشال سيحجم

عن اتخاذ إجراء غير شعبي، فإن الاقتصاد والمجتمع في سنغافورة كلاهما سيقعان في حالة من الفوضى مما سيجعل الحكومة البريطانية تُعلق الدستور. في 21 حزيران عدت إلى سنغافورة مع أسرتي. وكانت الصحف قد أشارت إلى أنني هربت بعيداً من تلك المتاعب، ولكنني أعرف أن حضوري لن يغير شيئاً. وعندما سألتني صحيفة «ستريتس تايمز» لماذا لم أعد من إجازتي؟ قلت: إن لجنتي التنفيذية لم تطلب مني ذلك، وأنا لي مطلق الثقة بها.

استخلص الحاكم البريطاني في 26 أيلول، السير روبرت بلاك في تقريره إلى آلان لينوكس ـ بويد ما يلي:

(انهيار هذا الإضراب العام يعني عدم الثقة بالعناصر المتطرفة في حزب العمل الشعبي PAP. كان لي كوان يو بعيداً عن سنغافورة في ذلك الوقت، وقد علمت أنه غادرها متعمداً حتى لا يكون له دور في العنف... من ذلك الحين كان ثمة تغييرات في تكتيكات الحزب. فمع الاستمرار في الإضرابات من أجل حملتهم الرامية إلى السيطرة على العمال، كانوا ملتزمين بالتقيد بالقانون).

بيد أن هذا الهدوء النسبي لم يستمر طويلاً. فبعد أشهر قليلة عاد الموالون للشيوعيين إلى أساليبهم القديمة، ولكنهم لم يقوموا بصدامات وأعمال عنف دموية ضد الشرطة، أو الإعلان عن إضراب عام لشل الاقتصاد. وكنت أعتقد أنهم مايزالون يظنون أن الاشتباكات مع الشرطة والحكومة هي الطريقة لإثارة الكراهية واستثارة الحماسة الثورية عند الجماهير. كان هناك أوقات يظهر كل من ليم وفونغ فيها أنهما يُصغيان إلى نصيحتي بالمحافظة على أساليب النضال الدستوري مع مفاوضات طويلة ومقاومة سلبية لتجنب سفك الدماء. ولكن كانت لهما تقاليد وخلفية سياسية مختلفة عني. كان لهما نموذج مختلف في التفكير.

كنت في وضع شديد الصعوبة. ففي الوقت الذي كنت لا أستطيع ولا أرغب في الدفاع عنهما، ما كنت أستطيع إدانتهما لأن من شأن ذلك أن يؤدي إلى انفراد جبهتنا. وكما شرحت لمراسل صحيفة «سيدني ديلي ميرور» في مقابلة

نُشرت في «ستريتس تايمز»: «لا يستطيع أي إنسان يريد أن يشد الناطقين بالصينية إلى جانبه أن يكون معادياً للشيوعية. فالصينيون فخورون جداً بالصين. وإذا كان لي أن أختار التصويت ما بين الكولونيالية والشيوعية، فإنني سأصوت للشيوعية وهكذا ستفعل الأكثرية». كنت آمل أن أستطيع أن أجلب ما يكفي من الصينيين للتصويت معنا ضد الشيوعيين ومع الاستقلال والديمقراطية. ولكنني لم أكن غافلاً أبداً عن صعوبة تحقيق ذلك إذا استمرت الصين الشيوعية الناجحة في أن تظل إلهامهم.

كنت واقعاً تحت ضغط. فالوزير الأول دعا إلى لقاء طارئ «للجمعية» في 16 أيار (مايو)، للتأكيد على جذب مشاعر الشعب ضد النقابات، وعزل حزب PAP وتقليص شعبيته وجعل غير الشيوعيين في الحزب منفصلين عن الشيوعيين. وقد قاد الهجوم هذه المرة، الأمين العام بيل غود Goode. إذ ألقى خطبة قوية مسترجعاً الأحداث بشكل واقعي ومؤثر. أبدى أسفه على الخسائر في الأرواح، وامتدح الشرطة، وأدان الأشرار الذين استغلوا العمال والطلبة. وإخفاق الصحف الصينية المناورة في دعم جانب القانون والنظام. وبيّن أن جميع الجهود التي بذلت لتحقيق تسوية قد أُفشلت، كما قال غود، من قبل «أناس لا يريدون بوضوح للمظالم أن تنمحي، وإنما استغلال مظالم العمال الأبرياء، من أجل مصالحهم الشريرة».

واستدار نحوي، وتابع قائلاً:

«في سعيهم الحثيث للوصول إلى السلطة... فإن «حزب العمل الشعبي» PAP وأنصاره من الشيوعيين المستترين كانوا يريدون العنف وسفك الدماء والاضطراب الصناعي... إذا كان العضو الشريف يعتقد بالتقدم المنتظم نحو الحكم الذاتي الديمقراطي، فعليه عندئذٍ أن يكون ضد الشيوعية. وإذا كان ذلك فعليه أن يعلنه بصراحة وبصوت عال، وبدون مراهنة. فقد نشر العنف وجعل الرجال يُقتلون... أسأله: ماذا فعل للحيلولة دون العنف قبل أن يقع؟ هل ضميره راضٍ؟ أم أنه فقد السيطرة على تيماه (ليم تشين سيونغ) الذي يجلس بجانبه ويقود الحزب؟».

وتلاه جون إيد Ede المغترب الذي فاز بوسام «التقدم». لقد جعل مهمتي أسهل. نهضت على الفور بعده وقلت: «لقد زان كلماته بكثير من العناية، والحذر، وبكثير من الفهم لصعوبات ومخاطر الوضع، وبكثير من الفهم لآمال الناس ومخاوفهم...

لم نأتِ إلى هنا كسجناء كي نتهم، ولا كسجناء ينبغي إدانتهم وتحميلهم عبء الذنوب. بل جئنا إلى هنا كممثلين للشعب وسنتكلم بصفتنا هذه».

(وقلت عن موقف حزب PAP) مكرراً: «تحطيم النظام الاستعماري بغير أساليب العنف. نحن نكره العنف وننبذه... نحن غير مستعدين للقتال، ولا لإطالة بقاء النظام الاستعماري. ولكن أعطونا حقوقنا ولسوف نقاتل الشيوعيين أو أية جماعات تهدد وجود مالايو مستقلة وديمقراطية وغير شيوعية». لم يعرف مارشال أنه بخطبته، بل والأسوأ من ذلك تعطشه إلى إنهاء النزاع أو تجنبه، قد فتح «صندوق باندورا» فكل عامل في سنغافورة، أو كل زعيم وكل عضو كان يعرف أن لديهم حكومة يستطيعون الاستفادة منها لتحقيق أهدافهم الخاصة، وحشر أصحاب العمل، والحصول على مكتسبات، وعلى امتيازات إدارية.

بدأت نجاحاتهم تتبخر. ففي آب (أغسطس) 1955 ارتفع عدد أعضاء «اتحاد عمال المصانع والمخازن في سنغافورة» (SFSWU) إلى 23 ألف شخص، معظمهم من الصينيين الشباب. وفي تلك الفترة ساعد أعوانه من ذوي الثقافة الإنكليزية، بمن فيهم نير، وودهل، وجيمس بوتشيري ذوي الثقافة الصينية على التخلص من النظام الاستعماري البريطاني. وكان أسلوبهم يجمع ما بين التغلغل في النقابات القائمة، وإنشاء نقابات جديدة وكان سلاحهم الإضراب المعنوي، بمعنى أنه في أية شركة، أو في أية قضية فإنهم يهددون بالتوقف عن جميع الأعمال. كما فعل الشيوعيون في الصين، كانت هذه جبهة متحدة تضم العمال والطلاب والفلاحين (كما كان الأمر في سنغافورة) لإثارة القلاقل وتحويل النزاعات العمالية إلى قضايا سياسية، وزيادة الكراهية الطبقية والعرقية (ضد الرجل الأبيض) وازدراء

السلطة. ما إن أصبح SFSWU نقابة اخطبوطية مختلفة بمن تضمهم من العمال الناطقين بالصينية حتى توجه ليم تشين سيونغ وفونغ إلى اتحاد موظفي ميناء سنغافورة، واتحاد عمال البحرية واتحاد عمال مجلس المدينة. وهي منظمات غير شيوعية حيث كان أعضاؤها من الهنود والمالاويين والصينيين الناطقين بالإنكليزية مستعدين لمواكبة SFSWU. لقد تأكدوا أنهم يستطيعون استخدام نضالية الاتحادات الصينية والتهديد بالإضرابات من أجل تحقيق مطالبهم.

اعترف السير روبرت بلاك أيضاً أن الوضع قد تحول نحو الأسوأ. ففي 26 أيلول (سبتمبر) كتب إلى لينوكس بويد يقول: «أثناء الانتخابات.. كان ثمة خطب متزايدة تهاجم الحكومة.. وحزب PAP بات يحظى بتأييد متزايد من جانب العمال والطلاب الصينيين، ومشاعر الناس فائرة. كل هذا أدى إلى فقدان السلطة الدستورية للاحترام، وازدياد الاحترام لأولئك الذين... كانوا يتحدون الحكومة علانية».

كانت سنغافورة في غمرة مهرجان من الاضطرابات ـ ففي فترة الشهور التسعة، أي ما بين 7 نيسان وشهر كانون الأول (ديسمبر) من عام 1955، كان هناك أكثر من 260 توقفاً عن العمل. هذه الحالة النضالية كانت في صالحي.

في 19 حزيران 1955 هدد «اتحاد عمال مجلس المدينة» بمسيرة تطالب بمدفوعات متخلفة من السنة الفائتة. وهدد «الاتحاد» بدوره باستعارات طرد، واستئجار عمال متعاقدين للقيام بالخدمات الضرورية إذا تقاعس اتحاد العمال. وأخفقت المباحثات لحل النزاع وبدأ الاضراب في 17 آب. وبعد ثلاثة أيام طلب مني الاتحاد أن أكون مستشارهم القانوني. كان الأعضاء من العمال المياومين الهنود بالدرجة الأولى، معظمهم يعمل في التنظيف وجمع القمامة. كانت نقابة كبيرة يبلغ تعداد أفرادها بضعة آلاف، وكان رئيسها هندي ذكي ولكنه غير متعلم يدعى سوبياه. وكانت قد وقعت بعض الأحداث المقيتة التي تطورت إلى عنف.أخبرتهم بأنه يشرفني أن أعمل معهم، ولكنني أصررت على أن يتم الإضراب بطريقة سلمية. ووافقوا على ذلك، وكانت المحادثات بناءة.

بعث الحاكم بتقرير في 8 أيلول إلى لينوكس بويد جاء فيه:

«حدث أن مرتْ فترات قلقة من المشاجرة بطريقة مألوفة ولكنها توقفت فجأة بعد أيام قليلة. ليس من المؤكد أن يعود الفضل في ذلك إلى لي كوان يو، ولكن قد يكون ذلك محتملاً» (كنا قد توصلنا إلى اتفاق في 7 أيلول). «خلافاً للتوقعات.. لم يفشل الإضراب وحصل الاتحاد على تنازلات أساسية... كان ثمة سببان لهذه النتيجة. أحدهما ضعف مجلس المدينة.. والسبب الثاني تدخل لي كوان يو أمين عام حزب العمل الشعبي، بوصفه المستشار القانوني للاتحاد. كان تدخله في الواقع مفيداً لكلا الجانبين، ولعله حسَّن موقفه الشخصي كنتيجة لهذه التسوية».

طريقتي في المعارضة الدستورية، والعمل ضمن القانون كانت على النقيض من عمل الشيوعيين، وقد حصلت على نتيجة مفيدة لذلك. ولكن لولا تجاوز الشيوعيين للقانون واستخدامهم للعنف لما كانت أساليبي ناجحة. وكان الخيار الوحيد غير المريح الذي أقدمت عليه أنني جعلتهم مقبولين لدى البريطانيين. وكما حدث في المالايو لم يكن ثمة إرهاب ضد البريطانيين، ولولا هذا لما حصل "التونكو" على الاستقلال. لقد كان البديل غير المقبول للشيوعيين هو ما جعل الأساليب الدستورية في الإزالة التدريجية والسلمية للسلطة الاستعمارية أمراً مُجدياً ومقبولاً لدى القوميين والاستعماريين. وفي الهند ما قبل الحرب، حيث لم يكن هناك تهديد شيوعي، استغرقت الأساليب الدستورية في المقاومة السلمية بضعة عقود إلى أن حققت النجاح.

وفيما كانت النقابات مستمرة في الهياج والغليان مزدادة قوة، كان مارشال يثير أزمة سياسية إثر أخرى، كان لديه براعة في إثارة الأزمات، ففي غضون الإضرابات والفوران النقابي في الأوساط العمالية اصطدم بالسير روبرت بلاك حول طلبه في إحداث أربع مناصب لوزراء من الدرجة الثانية، وعندما عرض الحاكم الموافقة على إحداث منصبين فقط، قرر مارشال أن ينقل النزاع إلى العلن. وادعى أن الحاكم ليس له الحق في تجاهل نصيحة الوزير الأول، وهدد

بالاستقالة إذا لم يُستشر قبل اتخاذ أي قرار. وطلب أيضاً أن تتمتع سنغافورة بحكم ذاتي كامل. وكانت إجراءات الطوارئ قد انتهى تاريخها في 21 تموز (يوليو)، ولكن الحاكم مددها ثلاثة أشهر أخرى، على أن يقترن ذلك بموافقة «الجمعية» في اجتماعها القادم: وكان الثمن الذي طلبه مارشال للموافقة على التمديد أن يمنح البريطانيون سنغافورة حكماً ذاتياً «في أقرب فرصة ممكنة».

اتسمت وقائع اجتماع «الجمعية» في 22 تموز بالطابع اللامسؤول الذي تناور به الأحزاب السياسية. إذ قال مارشال: إن إعطاء سنغافورة الحكم الذاتي مسألة مبدأ دستوري. وفي نهاية كلمته المثيرة ضد الحاكم والاستعمار، التفت إليّ طالباً مني الموافقة على تأييد خطوته. وما كان بوسعي بالطبع أن أرفض شرف هذه الموافقة!

انفض اجتماع «الجمعية» في 22 تموز. وعندما عادت إلى الاجتماع بعد ثلاثة أيام، قام عضو «الحزب التقدمي»، ليم كون تيك بمحاولة للالتفات حول مارشال وحولي، وقال: دعونا .. نطلب تحويلاً كاملاً للسلطة بحيث نستطيع نحن، ونحن فقط، أن نكون مسؤولين عن شؤوننا ومصيرنا، وألا تكون الحكومة البريطانية بعد اليوم مسؤولة عنا، وبالتالي قدم تعديلاً بإحلال «الاستقلال» محل «الحكم الذاتي». بمعنى آخر إنه كان يريد «الاستقلال» الفوري، وكان «التقدميون» عادة يمثلون الاعتدال، وسياسة الخطوة بخطوة وصولاً إلى الاستقلال. ولكن بهذه المناورة المفاجئة ظهروا بمظهر أكثر راديكالية من «الجبهة العمالية» و«حزب العمل الشعبي» ـ PAP وعلّقت على ذلك بقولي: لقد استمتعنا اليوم بمشهد «الفأر الذي تحول إلى أسد».

رُفض التعديل ولكن أجيز المشروع الأصلي بالحكم الذاتي الفوري، مما يشكل مجابهة للينوكس بويد، الذي كان من المقرر أن يصلَ بعد أسبوع لاحق. أما «الحزب التقدمي» فقد أظهر نفسه بمظهر الحزب الذي لا يُعول عليه. ولم يعد الآن في سنغافورة ما يسمى جناح يميني متماسك ومترابط منطقياً، أو حزب وسط.

وصل لينوكس بويد إلى سنغافورة، وقابل مارشال وغادر إلى الملايو. وفي 2 آب (أغسطس) قرأ رئيس المجلس أمام «الجمعية» رسالة من الحاكم تقول: إن وزير المستعمرات قد ناقش الأمور مع رئيس الوزراء، وإن المناقشة ستستمر عندما يعود من الملايو في 15 آب. وأما مارشال الذي تأثر عاطفياً بحديثه مع لينوكس بويد فقال: في الوقت الحاضر ربما ينبغي أن نتوقف هنا ونلتفت إلى أعمالنا العادية. لم أوقفه، وإنما أوضحت أنه لا يوجد في رسالة الحاكم ما يغير الموقف مادياً منذ اجتماعنا الأخير. ثم انتقلت إلى معارضة مارشال في شكر الحاكم، وأيدتني «الجمعية». وأصيب مارشال بالإحباط.

ولكن في 18 آب قرأ رئيس الجلسة رسالة أخرى من الحاكم، والتي تفيد بأنه سيعمل بالتنسيق مع مشورة رئيس الوزراء باستثناء تأجيل الجمعية أو حلها. وأفادت الرسالة أيضاً أن الحكومة البريطانية ستكون سعيدة بأن تستقبل في لندن في وقت مناسب وفداً يمثل سنغافورة لدرس المسائل الدستورية. وصرح مارشال: «هذا حقاً يوم سعيد لسنغافورة. إنه يضع حداً للمرحلة الأولى من نضالنا من أجل الحرية». وأضاف أيضاً: إن رئيس الجمعية «يطلب من الحاكم باسمهم أن يشكر وزير الخارجية على لفتته العاطفية تجاه أمانينا». لم أقبل هذا وهددت بالخروج ـ كنت أريد بعض الوقت للتفكير في التزامات رسالة الشكر هذه. غضب مارشال. وأخفقت خطوتي ضد الاقتراح.

كنت أمزح مع مارشال ولكن ثمة أمور جدية قيد البحث. فقد ظل مستقبل اللغة والثقافة والتربية الصينية مشكلة خطيرة. وكانت الحكومة، بالصدفة، قد شرعت بعملية مشاورات هادئة وفرت صيغة للعمل بدون اطلاع الجمهور. وإذا لم نفعل ذلك فإن أي نقص في أي حل ستتناوله الصحافة الصينية وستجعل موضوع الخلاف مادة للدعاية.

التوصيات التي صدرت عن اللجنة المختصة كانت تتضمن اجراءات جيدة بالنسبة للتربية الصينية على المدى الطويل، كما أنها جيدة لتحقيق التناسق في مجتمع متعدد الثقافات. ولكنها كانت تهدد مستقبل الشيوعيين. فقد كان ما

يقارب 90% من جميع الشباب اليافعين الصينيين من الناطقين بالصينية ـ هذا إذا كانوا متعلمين. ولكن عدد الأطفال الصينيين الذين يلتحقون بالمدارس الإنكليزية كان في ازدياد مستمر منذ عام 1948، أي عندما أُعلنت حالة الطوارئ. وفي عام 1950 كان 25 ألفاً من الطلاب الصينيين في المدارس الصينية والطلاب الصينيين في المدارس الإنكليزية، ولكن في عام 1955 تغيرت النسبة، حيث زاد عدد الطلاب الصينيين الذين يدرسون في المدارس الإنكليزية بمقدار 5 آلاف طالب عن عددهم في المدارس الصينية. وعلى الرغم من أن الشيوعيين لم يكونوا على اطلاع بالأرقام الدقيقة، ألا أنهم كانوا يَعون هذا التوجه، ولما كان هذا التوجه يزعزع أرضيتهم فقد كان عليهم أن يقفوا في وجهه. وهكذا أصبحت المعركة من أجل المحافظة على التربية الصينية أكثر حدة واحتداماً بالنسبة للحزب الشيوعي.

أما المشكلة بالنسبة للحكومة ولغير الشيوعيين في «حزب العمل الشعبي» (PAP) كانت معقدة، لأن الثقافة الصينية كانت مهمة وعزيزة على قلوب كثير من الآباء، لذلك لم يكونوا متحمسين لإدخال اللغة الإنكليزية في المدارس الصينية. كانت نفقات هذه المدارس الإدارية تدفعها الحكومة، وبالمقابل على هذه المدارس أن تنصاع لتعليمات الحكومة فيما يتعلق بالمناهج والنظام. وعلى أية حال كانوا يريدون أن يكون التعليم باللغة الصينية تماماً.

والحق أن نصفهم كان يريد أن يكون التعليم باللغتين. وكان كثير من زعماء اللجان الإدارية في المدارس الصينية قد سجلوا أولادهم في المدارس الإنكليزية، ووفروا لهم دروساً باللغة الصينية بعد الظهر، وذلك كي يتقنوا اللغتين. وفي الوقت نفسه حضّوا الآباء الآخرين على إرسال أولادهم إلى مدارس صينية من أجل المحافظة على تقليد المنح الصينية التقليدية. لم يكن ثمة سبيل لإرضاء كل واحد. لهذا كانت الحكومة بحاجة إلى تقرير من اللجنة، التي كنت أمثل فيها حزبي (PAP) والتي كانت تضم جميع الأطراف، وتشاورهم بحيث نكون ملتزمين

في مصافحة انتصار مع رئيس الوزراء ديفيد مارشال خارج مبنى «الجمعية» في تموز 1955، بعد أن أجازت «الجمعية التشريعية» اقتراحه الداعي إلى حكم ذاتي فوري ودستور جديد.

جميعاً بالتعهد بمهمة المحافظة على قاعدة «لغوية» بالصينية، وهذا ما منحني فرصة لصياغتها، ولكنه عرضني لحظر محاربة الحزب الشيوعي لي على مسألة تعتبر حيوية لبقائه.

وجدت، سواء أكان ذلك عملياً أم لا، أن النهج الذي يمكن الدفاع عنه سياسياً، وهو منهج ثلاثية اللغات: المالاوية كونها لغة قومية ومستقبلية للملايو، والإنكليزية كونها لغة التجارة العالمية والعلوم، ولغة الماندرين بوصفها اللغة الأم للصينيين والتاميل، والهندية أو البنجابية للهنود. وكان رئيس لجنة جميع الأحزاب تشيو سوي كي، وزير التربية، وكان أعضاء اللجنة السبعة الآخرين يضمون مالاوياً، عبد الحميد بن حاجي جمات، وزير الحكم المحلي. وقد عملت مع هذين الوزيرين على مدى تسعِ شهور، وكان كلاهما متفقاً مع آرائي، وقد وضعنا معاً تقريراً يمكن أن يقبل به الجميع. وقد تضمن التقرير توصية بإعادة كتابة الكتب المدرسية باللغة الصينية، والتي كانت حتى ذلك الحين مستخدمة، في حين كانت ما قبل الحرب تحت حكم «الكومينتانغ».

كان من الطبيعي أن يتحمس أنصار اللغة الصينية للغتهم لأسباب عدة أبرزها الأسباب السياسية. وقد حاول هؤلاء أن يُكتلوا الجمعيات والاتحادات والنقابات الصينية إلى جانبهم. وفي النهاية كان لا بد من عقد اجتماع يضم الأطراف المعنيين للوصول إلى نتيجة. وكانت الغاية من الاجتماع مناقشة مذكرة تُرفع إلى الحكومة، تدعو إلى المساواة ما بين المدارس التي تدرس الصينية والمدارس التي تدرس الإنكليزية. وكان يفترض مسبقاً ألا يكون هناك جدال أو حلول جديدة، بل التصويت على القرارات التي يتم الاتفاق عليها. وقدم ليم مذكرته التي لم يطالب فيها بالمساواة ما بين المدارس الصينية والمدارس الإنكليزية فحسب، بل طالب كذلك بمخصصات مالية حكومية لبناء مدارس صينية، وتعليم مجاني لمدة ست سنوات، وحق تشكيل جمعيات طلابية ذاتية (أي فروع «لاتحاد طلبة المدارس المتوسطة الصينية»). وبعد أخذ وجذب بين أنصار الصينية المتعصبين وبين المعتدلين الذين يمثلون ثقافة اللغات الأخرى، تمَّ التوصل إلى اقتراح.

كان الاقتراح بسيطاً: هو أن تقوم مدارس اللغة الإنكليزية بتدريس اللغة الأم كذلك ـ أي تدرس الصينية للصينيين، والمالوية للمالويين، والتاميل أو بعض اللغات الهندية الأخرى للهنود. والطلاب في المدارس الصينية يتعلمون أيضاً إما الإنكليزية أو المالاوية في المدارس الابتدائية، ويدرسون كلتا اللغتين في المدارس الثانوية. أما المدارس المالاوية فتدرس الإنكليزية أيضاً في المرحلة الابتدائية، وتدرس لغة ثالثة في المرحلة الثانوية إذا أراد الطلاب ذلك.

هذه المشادة حول اللغة والتعليم كانت صراعاً من أجل السلطة. فطبقات التجار الصينيين. وقادة العشائر وكبار أثرياء غرفة التجارة كانوا يريدون «جمعية تشريعية» يتحدث فيها ممثلوها إلى السكان الصينيين بلغة صينية سلمية وبطلاقة وليس بلغة إنكليزية ركيكة، وذلك من أجل زيادة نفوذهم وثرواتهم. وكانوا قد قدموا مذكرة من أجل تشريع متعدد اللغات إلى «لجنة رينديل» (والذي رفض) وأيّدنا تلك المقترحات في وقت مبكر يعود إلى تشرين الثاني (نوفمبر) 1954، قبل أن ينطلق «حزب العمل الشعبي» (PAP) رسمياً. الآن توصي «الغرفة الصينية» مرة أخرى بأن تكون الصينية إحدى اللغات الرسمية.

إحدى المشكلات التي لا يمكن تجنبها في مجتمع متعدد اللغات والأعراق، هي كيفية تنظيم تشريع عملي وحكومة بدون إيجاد «برج بابل» فكل جماعة عريقة لها لغة رئيسة، وأولئك الذين يهاجرون إلى أرضها عليهم أن يتعلموا تلك اللغة سواء أكانت الإنكليزية في الولايات المتحدة وكندا، أم الفرنسية في إقليم كيبك. ولكن عندما أسس ستامفورد رافيلز سنغافورة عام 1918، خطط في أول مخطط للمدينة عدة مناطق بحيث تعيش الأعراق المختلفة، وحتى أصحاب اللهجات الصينية المختلفة في مناطق متفرقة. ثم جلب البريطانيون أعداداً وفيرة من الصينيين، والهنود، والمالاويين، وكلهم يتحدثون بلغتهم الخاصة، وتركوهم يتدبروا شؤونهم.

تحت الضغط الشعبي أصدر مارشال قراراً في 9 شباط (فبراير)1956 ينص على أن «الجمعية ترى لأغراض النقاش العلني أن تكون لغات الجمعية هي الإنكليزية، والمالوية، والماندرين ولغة التأميل وأنه تم اختيار لجنة لدراسة

التقرير ولاتخاذ التوصيات الضرورية». عرف مارشال أنه بهذه الخطوة سيكون هامشياً. وتذكر ما قاله أحد الملاوين: «مع تعددِ اللغة فإنك تسلمنا إلى الصينيين. سوف يبتلعونا.. أجابه: «نعم يا سيدي، على الإنسان أن يحترم قاعدة الأكثرية. إن الصينيين يشكلون 76% من تعداد سكاننا. دعنا لا نتجنب هذه المسألة». وهذا ما كان يمثل شخصية مارشال فعلاً ـ نصف مثالي ونصف (أو ربما أكثر من النصف) انتهازي، يتطلع إلى أن يبرهن أنه أكثر صينية من الصينيين، وبالتالي يكون مقبولاً كبطل لهم، على الأقل لفترة ولاية أخرى. والهتافات الحماسية للمتحدثين الصينيين أثناء الانتخابات أظهرت بدون شك أن أي واحد يصوت ضد التعدد اللغوي من أجل أن يستبعد التعدد اللغوي من «الجمعية» سوف يخسر الأصوات بالتأكيد.

قلت في خطبتي: عندما نتخذ هذه الخطوة اليوم ينبغي أن نفهم أنه لا عودة عنها.. ينبغي أن نتذكر أن ثمة التزامات أعمق وأوسع..» كان هذا في شباط (فبراير) عام 1956، وتوقع كثيرون أن تزدهر اللغة الصينية والإندونيسيا وآدابهما، ونظراً لأن الدولتين ستصبحان قويتين وقادرتين في غضون فترة تتراوح بين 10 ـ 20 سنة. ولم يكن هذا ممكناً لا من الناحية السياسية ولا السيكولوجية، إذ غض الناس على هاتين اللغتين، ثم نقبل، بصيغة معادية للاستعمار، بأولوية اللغة الإنكليزية وتفوقها. كنت في الحقيقة أعي أن افتقاري إلى معرفة اللغة الصينية، فضلاً عن امتلاك ناصيتها، كان نقطة ضعف كبيرة لدي من الناحية السياسية. وأتذكر من تجربتي الشخصية:

«أرسلت إلى مدرسة بريطانية كي تهيئني للانتساب إلى جامعة بريطانية بحيث أصبح بعد ذلك رجلاً مثقفاً مكافئاً لأي رجل بريطاني، نموذج الكمال. لا أعرف إلى أي مدى نجحوا بذلك. كبرت وتخرجت أخيراً. وفي النهاية، أشعر ـ حتى قبل أن أدخل معترك السياسية بفترة طويلة... أن مجموعة القيم كلها كانت خاطئة جذرياً».

ثم اقتبست من نهرو قوله: إنه كان يبكي لأنه لم يكن يتحدث لغته الأم بمستوى تحدثه بالإنكليزية. «أنا رجل عاطفي بدرجة أقل. فأنا عادة لا أبكي أو أشد شعري أو أمزق قميصي، ولكن هذا لا يعني أن شعوري تجاه اللغة يقل عن شعور نهرو. لن يذهب ابني إلى مدرسة إنكليزية. ولن يكون انموذجاً لرجل بريطاني. ولكنني آمل بالطبع أن يعرف الإنكليزية معرفة كافية بحيث يتحدث مع أبيه في شؤون أخرى غير الطقس».

ذلك ما كنت أشعر به. وهذا ربما لا يوافق من يتحدثون الصينية. فعلى الرغم من أن ليم تشين سيونغ، والحزب الشيوعي الملاوي (MCP) لم يكونا راضيين عن التقرير نفسه، فإنهما لا يستطيعان أن يهاجماني بشكل مكشوف على تأييدي له (29 نعم وبدون أي اعتراض) بدون أن يثيرا استياء داخل «حزب العمل الشعبي» (PAP)

كان الحزب الشيوعي قلقاً تجاه النظام الذي قد تفرضه الحكومة على المدارس الصينية. كانوا يخشون أن «يساء استخدامهم من قبل مجموعات سياسية للإحاطة بحكومة دستورية بطريقة غير دستورية». والأسوأ من ذلك أن معرفة باللغة الإنكليزية سوف تفتح أمامهم عالماً مختلفاً تماماً من خلال الصحف والمجلات والأدب والأفلام. سوف يرون العالم بعينين، وبرؤية واضحة، بدلاً من أن يروه بعين واحدة من خلال مجهر صيني. كان عليَّ أن أتخذ موقفاً لا يسمح للشيوعيين بإدانتي أي بوصفي صيني غير مثقف. وإذا ما اتخذت خطوة خاطئة في هذا السبيل فسأخسر كل شيء. فإذا كانوا يستطيعون أن يظهروا أنني أفضّل الإنكليزية على الصينية كوسيلة أكثر أهمية للتعليم في المدارس، فسيكون من المستحيل بالنسبة لي أن أحافظ على احترام وتأييد الجماهير التي تتكلم الصينية.

في أواسط عام 1955 أرسلت لونغ، وكان عمره ثلاث سنوات ونصف، إلى مدرسة أطفال تدعى «نانيانغ» التي تُعلم باللغة الصينية. وعندما زرت المدرسة فيما بعد، مع جميع أفراد لجنة الحزب، صورته الصحف الصينية في المدرسة،

مما عرّف الناس جميعاً أنه يدرس اللغة الصينية. لقد أعطاني إصراري أن يلتحق أولادي الثلاثة بمدرسة يتعلمون فيها لغة وحضارة أجدادهم، مصداقية لم يستطع الشيوعيون أبداً أن يطعنوا بها. وبعدما أنهى أولادي مرحلة الحضانة والمرحلة الابتدائية، التحق اثنان منهما بالمدرسة الثانوية الكاثوليكية. فيما التحقت ابنتي لينغ بمدرسة نانيانغ الثانوية للبنات. كان تعليمهم بالصينية تماماً، ولكن لأنهم كانوا يتحدثون الإنكليزية في المنزل مع أمهم فقد باتوا متمكنين من اللغة الإنكليزية. وبتعلمهم للغة الملايو منذ سن السادسة فقد تمكنوا من امتلاك ناحية لغة ثالثة. وفيما كان الناس في سنغافورة مشغولين بترّهات مارشال وأزماته. وبالاضطرابات التي تحدث في المدارس والمصانع، كانت الأمور تجري في المالايو على نحو يعيق مستقبل الجزيرة.

13. إخفاق تام في لندن

كان تنكو عبد الرحمن زعيم الحزب الملاوي UMNO في اتحاد الملايو، معارضاً لديفيد مارشال. كان مستقيماً ثابتاً على المبدأ ورجلاً يُعتمد عليه وأهلاً للثقة. لم يكن يتظاهر بالذكاء ولكنه كان يفهم الناس جيداً. والأهم من ذلك كله أنه كان يفهم معنى السلطة. كان والده سلطان كيداه، وتعلم من خلال حكم أبيه كيف يسوس الناس وكيف يجعلهم يفعلون ما يريد. وكأمير ملكي لم يكن يحظى بتأييد كامل من جانب حكام ولايات المالايو التسعة في «الاتحاد» الذين كانوا يعارضون اقتراح الحكومة البريطانية بإقامة اتحاد الملايو عام 1946. كان موالياً للبريطانيين ومعادياً للشيوعيين. أمضى تسع سنوات من شبابه في إنكلترة في الدراسة، منها ثلاث سنوات في دراسة القانون في جامعة كيمبردج، حيث نال شهادة، واجتاز بعد عدة محاولات امتحانات الحقوق. كان يستمتع بحياته، وكثيراً ما حدثني عن الأوقات السعيدة التي أمضاها في بريطانيا. وقد وجد فيه البريطانيون زعيماً يتمتع بمساندة قوية من المالويين ودعماً جيداً من الصينيين والهنود.

في شهر تموز (يوليو) من عام 1955 أجرى «الاتحاد» انتخابات عامة حصل فيها تحالف UMNO واتحاد الصينيين المالاويين MCA، والمؤتمر المالاوي الهندي MIC على الأغلبية الساحقة. وأصبح التونكو وبعض زملائه أعضاء في «المجلس التنفيذي للبعثة البريطانية العليا»، وكما هو الحال في سنغافورة أصبح لديهم الآن حكم ذاتي محدود، ولكن خلافاً لوزرائنا كانوا سعداء بالتعاون مع المفوضين الاستعماريين. والفارق المهم الوحيد أنهم كانوا يحاربون أعمال التخريب، التي يقوم بها رجال حرب العصابات الشيوعيون، وهذا ما لا يتم تحقيقه بدون مساعدة القوات البريطانية، والأستراليا، وقوات نيوزيلاندة، وقد اشترط البريطانيون أن حالة الطوارئ لن تنتهي قبل أن يتم الاستقلال.

وفي كـانون الثـاني من عـام 1956 ذهب التنكو إلى بريطانيـا لحـضـور مـؤتمر دسـتـوري، وفي طريقـه من سنغـافـورة إلى إنكلتـرة على متن السـفـينة الإيطاليـة «آسـيـا» أعلم رجـال الصـحـافـة والإعـلام أنه لم يتـفق مع مـارشـال أن تحظى سنغافورة بوضع متساوٍ في أي تحالف بين البلدين. إذ لو حصلت سنغافورة على وضع متكافئ «فسوف تهدد الملاويين في عقر دارهم. لقد قسّم البريطانيون المنطقتين كي يمحوا بالدرجة الأولى مصالح الملاويين في الاتحاد». ولكنه وافق مع حزب (PAP) على فتح باب المباحثات بين زعماء سنغافورة و«الاتحاد» حول تحالف في المستقبل. وأوضح للصحافة بأن «التحالف في المستقبل» يعني «اندماجاً في المستقبل» كما ذكرت صحيفة «سنغافورة ستاندارد». ولكن راجا كان على خطأ.

ما كان يدور في ذهن تنكو كان أمراً مختلفاً، فهو لم يكن يفكر في اتحاد منطقتين، بل كان يفكر في «تحالف» أي ترتيب بين دولتين منفصلتين. لم يكن يريد سنغافورة كولاية في المالايو لأنها سوف تقلب التوازن العرقي في المالايو. كما أنه لم يكن يريد لسنغافورة أن تكون دولة مستقلة معادلة للملايو. كان يريد للبريطانيين أن يبقوا لمراقبة سنغافورة مع حكم ذاتي لها، ومع تحالف مع حكومة سنغافورية غير مستقلة. ولسوء الحظ أن الأمور كانت تجري في اتجاه آخر، والبريطانيون كانوا يعرفونها، أما تنكو فلم يكن يعرفها.

زار ألان لينكوس ـ بويد كولا لامبور في آب (أغسطس) 1955 لتقويم الموقف ولتقييم شخصية تنكو نفسه. وقد وجد في تنكو رجلاً يمكن الوثوق به، وحدد له تاريخ الاستقلال، وهو 31 آب 1957. والأكثر من ذلك، كان من بين النتائج المباشرة للمؤتمر الدستوري الذي عقد في شباط 1956، أن تنكو حصل على جميع الحقائب الوزارية في «المجلس التنفيذي» من المسؤولين البريطانيين، وأصبحت الملايو عملياً ذات حكم ذاتي.

أعاق التقدم السياسي للاتحاد تطلعات سنغافورة. فحتى ذلك الحين كانت هناك ثمة فرصة بأن لا تحصل الملايو على الاستقلال قبل أن تحصل عليه سنغافورة أولاً. الآن أصبحت سنغافورة خارج اللعبة. كانت خطة البريطانيين إيجاد مالايو مستقلة يكون الملاويون هم المسؤولون فيها. فالمالايو ستظل بحاجة إليهم لبعض الوقت لمساعدتهم في حكم البلاد ومحاربة الشيوعيين. في حين أنهم احتفظوا بسنغافورة كمستعمرة بسبب أهميتها الاستراتيجية لبريطانيا، ولكل من أستراليا ونيوزيلانده. وكان من المتوقع أن تحصل سنغافورة على حكم ذاتي مع شكليات الاستقلال كافة، ولكن بدون سيادة حقيقية، وستظل الكلمة الأخيرة في شؤون الدفاع والأمن والسياسة الخارجية بيد البريطانيين.

كان رد فعل مارشال على هذا متوقعاً: كان متحفزاً للضغط حتى أقصى حد ممكن في المباحثات الدستورية المقرر عقدها في لندن في شهر نيسان (إبريل). وإذا أتيحت له الفرصة فسيسعى للحصول على سيادة كاملة. إنه يريد استقلالاً كاملاً عن البريطانيين وبذا يتساوى مع تنكو. ولكن سنغافورة ستوقع اتفاقية تضمن للبريطانيين قواعدهم، وتعطيهم الكلمة الحاسمة في الشؤون الخارجية. إذ كان يريد تحقيق ذلك بطريقتين. وبقليل من التشجيع من أصدقائه، بمن فيهم أونغ اينغ غوان، مسؤول الشؤون المالية في حزب PAP، شرع بما يسمى "بأسبوع ميرديكا" ليجمع تواقيع من الجمهور ويعرض التأييد الشامل من جانب الجمهور للاستقلال (ميريديكا في المالايو) وله شخصياً بوصفه زعيماً لهذا الاستقلال. ولكن لما كانت حكومته ضعيفة، كما هو معروف، فقد قرر أن يأخذ معه إلى لندن وفداً يتألف من ممثلي جميع الأحزاب ليظهر وحدتهم بشأن هذه المسألة.

وصل إلى هناك في شهر كانون الأول (ديسمبر) 1955، وقد كان متشجعاً للغاية بعد لقاءاته مع أعضاء البرلمان البريطاني والوزراء، حتى إنه أخبر الصحافة أنه لن يكون هناك «سذج استعماريون»، وهو أمر ظن أنه يستحق التكرار في «الجمعية التشريعية» عند عودته إلى سنغافورة. كذلك حثّ جميع

الأحزاب على الموافقة على دعوة وفد من أعضاء البرلمان من حزبي المحافظين والعمال إلى زيارة سنغافورة أثناء «أسبوع ميريديكا» الذي كان مقرر أن يبدأ يوم الأحد، 18 آذار (مارس) عام 1956 في مطار كالانغ. وكان قد تمّ جمع 170 ألف توقيع حتى ذلك الحين، وإعداد استقبال حافل لأعضاء وفد «مجلس العموم» كبرهان على رغبة سنغافورة في الاستقلال.

جاء ستة بريطانيين من أعضاء حزب العمل يترأسهم هربرت موريسون، الذي كان وزيراً للداخلية في أول حكومة عمالية في 1945 ـ 1950 والشخص الثاني بعد رئيس الوزراء كليمينت أتلي. قابلناهم بصورة غير رسمية، وأمضيت ليلة واحدة معهم في نادٍ ليلي في بناء الكابيتول. أما الحدث الرئيسي فإنه كان يشبه رقص الستوبيتز، وهو ما لا يناسب وفداً جاء لغرض مهم يتعلق بتقدير نضجنا، ورغبتنا التواقة إلى الاستقلال وقدرتنا على تحقيقه. ولكن لدهشتي كان موريسون يمتع نفسه. لم يكن مقتنعاً بوجود رغبة عارمة في الاستقلال لدى جماهير سنغافورة، ولكنه لاحظ بذكاء وجود مجموعة سرية قوية حسنة التنظيم تناور النقابات والطلاب وغيرهم. لعله كان يريدني أن أحتج ولكنني لم أحرره من أوهام أفكاره.

وعندما حلّ يوم احتفال ميريدكا، انتقلت إلى مكان الاحتفال بالسيارة مع تشو، وأوقفت السيارة على مسافة من بناء المطار، ومشينا إلى المنصة. حيث كنت أقف ويقف معي تشين شي وأونغ اينغ غوان. وكان هناك جمهور غفير من المنتظرين وصل تعداده إلى 25 ألفاً. وعندما وصل مارشال توجه مباشرة إلى المنصة مع بعض وزرائه. واندفع الجمهور نحوه، واقترب بعضهم من المنصة، وحدث نوع من الفوضى والهرج والمرج. ولم نستطع أنا وليم تشين سيونغ تهدئة الموقف. لم يكن باستطاعة أحد أن يسيطر على الجمهور، الذي راح يقذف نوافذ المطار الزجاجية بما تصل إليه أيديه.

كذلك ذهبت جهود رجال الشرطة عبثاً في السيطرة على الفوضى وهياج الغوغاء. لم تحدث خسائر في الأرواح أو أضراراً جسيمة في الممتلكات. ولكن المشهد أعطى فكرة لأعضاء مجلس العموم الستة الزائرين حول هشاشة الوضع السياسي في سنغافورة، وأقنعهم أن الحكومة، حتى مع وجود أمين عام بريطاني، ورئيس للشرطة بريطاني، لم تكن ذات سلطة محكمة. ولم يكن هذا الوضع مجانباً للحقيقة، فسنغافورة تحت قيادة مارشال لم تكن مثل المالايو تحت قيادة تنكو. لم تكن «حكومة جبهة العمال» تتمتع بتأييد قوي. كانت كما كتب روبرت بلاك إلى لينكوس بويد «إنها أشبه بالفطر له رأس وجسم نحيل ولا جذور له». وصفت رسالة بلاك التهديد الشيوعي في الجزيرة بأنه لا يشكل خطراً كبيراً لأنه ظاهري أكثر مما هو واقعي، أما الإجراءات التي اتخذت للمجابهة - اعتقال بدون محاكمة، غاز مسيل للدموع، خراطيم المياه، عدم تسجيل النقابات، حظر الجمعيات التي تستخدم لأغراض تخريبية ـ كانت تعالج أعراض المرض ولا تشفي المرض نفسه. كتب بلاك أنه على الرغم من أن قوات الأمن تستطيع أن تحول دون انهيار الخدمات العامة أو الاضطرابات الكبيرة فإن أساليبها أفرزت في الوقت نفسه شبيبة أكثر عداوة للحكومة والبريطانيين تنضم إلى منظمات (CUF الجبهة الشيوعية الموحدة).

كنت قد ناقشت عدة مرات سابقاً مع مارشال بشكل خاص قبل أن يضع على جدول الأعمال القرار الذي يتضمن أنه طالما أن بريطانيا لها الحق في الإملاء على سنغافورة ما ينبغي عمله في شؤون الدفاع، فإن سنغافورة لن تكون مستقلة مهما كانت الترتيبات. ولكنه لم يستطع التخلص من هدفه ـ المظهر والشعور بالاستقلال. قلت: إن القرار كما اتُخذ كان «تأكيداً بأننا متأكدين أن البريطانيين لن يمنحونا استقلالاً كاملاً لأن هذا من شأنه بعدئذٍ أن يعني قلب الترتيبات الدولية والقواعد الدولية في استراتيجية الدفاع العالمي».

حاولت جهدي أمام المؤتمر في لندن أن أؤكد على أن الوضع القادم لن يفتح الأبواب أمام استلام الشيوعيين للسلطة، بل سوف يعطينا فترة أوسع للعمل من أجل مصلحة الشعب، وأن نجعل البريطانيين ظهيراً لنا إذا ما حاول الشيوعيون أن يكون لهم اليد العليا في السلطة. وأن ليم تشين سيونغ لم يفهم أن ما يقرب من الاستقلال بدون سيادة يعني أن السيادة ستكون للحكومة البريطانية. ما كان يريده هو ببساطة أن يحصل على وضع يمكن الشيوعيين من أن ينمو أو يزدادوا قوة.

كانت بريطانيا قد بدأت تنهض من فترة ما بعد الحرب القائمة. وبدت لي لندن أكثر نظافة وأناقة عما كانت عليه عندما غادرتها عام 1950. كان هناك الكثير من السيارات في الطرقات. كما لاحظت نوعاً من المساواة العرقية الجديدة. إذ لم أجد إلا القليل جداً من زنوج غرب الهند يعملون في الحافلات، ولم يعد يشار في الصحف إلى الآسيويين بهذه الصفة، وباتوا يحظون باحترام. لم أفهم لماذا تحسن وضعهم. أمضيت كثيراً من الوقت مع كينغ سوي وحاشيته من الملازمين، وهم طلاب ساعدوه سابقاً في صراعه وهزيمته لجون ايبر ومجموعته الشيوعية في «منتدى المالايو». وكان من بينهم جو بيلاي، الذي أصبح مدير طيران سنغافورة، وتشوا سيان تشين الذي أصبح وزيراً للداخلية. وقد شجعني كينغ سوي بحصوله على رجال جيدين يستطيعون أن يخدمونا عندما يعودون إلى سنغافورة.

كما قام بعدة اتصالات مع «الجمعية الفابية» و«حزب العمال». وقد رتب لي كينغ سوي غداء عمل مع عدد من شخصيات حزب العمال البارزة، كما رتب لي لقاء مع أنورين بيفان، الوزير السابق والخطيب العظيم. وأتيحت لي الفرصة أن ألتقي في كيمبريدج ببعض أصدقائي وأصدقاء تشو ممن أصبح كثير منهم يعمل الآن في المحاماة. وأعطوني فكرة عن مزاج المجتمع البريطاني بعد فترة الحرب القائمة، وهو المزاج الذي سيؤدي إلى قفزة الستينيات. واستطعت من خلال لقاءاتي الكثيرة أن ألاحظ بسرعة كيف تحول الساسة البريطانيون في تفكيرهم ومواقفهم.

ترأس مارشال وفد الحزب المؤلف من 13 عضواً، والذي يتضمن خمسة وزراء واثنين من مؤيدي حكومة الجبهة العمالية، وأربعة اشتراكيين أحرار (كان التقدميون والديمقراطيون قد اندمجوا في شباط) واثنين من حزبنا. طرنا في مجموعات متفرقة بطائرة شركة الطيران البريطانية BOAC التي استغرقت رحلتها ليلتين وثلاثة أيام للوصول من سنغافورة إلى لندن مع توقف ليلي في كولومبو وكراتشي.

غادرت في بداية نيسان كي أعطي نفسي الوقت لمقابلة كينغ سوي وتقويم الموقف من وجهة نظر بريطانية. سافر معي ليم تشين سيونغ الذي كان يشعر بشيء من الضياع. فقد كانت هذه أول مرة يغادر فيها البلاد. ولكنه كان أكثر خوفاً أن يكون بعيداً عن المخلصين له من أن يكون في بلد غريب.

قبل أن أغادر أنا وليم أصدرت بياناً رسمياً باسم حزب العمال PAP لشرح لماذا غيّرنا سياستنا: فقد أردنا الاندماج حتى قبل أن نصل إلى دولة ذات حكم ذاتي... ولسوء الحظ أن وزير الاتحاد الأول لم يوافق على اقتراحنا... الآن نسعى إلى أن التقدم السياسي الأقصى الذي نستطيع أن نحققه هو في سنغافورة وحدها، لكننا سنسعى إلى الاندماج ضمن الاتحاد.

أما الرحلات الجوية الوحيدة التي قمت بها قبل ذلك كانت إلى كولا لامبور والعودة في طائرة داكوتا ذات محركين. في تلك الأيام كان السفر جوياً متاحاً لقلة من القمة وهو لا يخلو من المخاطر. وكل رحلة كانت حافلة بتوديع الأصدقاء والأقرباء أو مؤيدي الحزب. كان جمهور من بضع مئات يأتي لوداعي ووداع ليم، وكنا نحييهم من سلمنا المتحرك قبل الدخول إلى الطائرة. أوضحت تماماً أن هدف الوفد «لم يكن تحقيق الاستقلال التام، بل تحقيق 75% من الحكم الذاتي مع حكم ذاتي كامل بعد خمس سنوات». كان ليم يقف بجانبي وكان متأكداً أن الصحافة قد فهمت ذلك جيداً ولن تسيء إلى موقف حزبنا.

كان صديقي وشريكي في الوفد ليم تشين سيونغ، خلافاً لأعضاء الوفد الآخرين الذين كانوا شبه منغلقين على أنفسهم، منفتحاً وواضحاً، ويحسن التصرف، وقد كرس نفسه لقضيته وهذا ما جعله يحظى باحترام وإعجاب الجميع.

كان المؤتمر بالنسبة لمارشال مسألة قانونية قبل كل شيء. أما أنا فقد اعتبرته مؤتمراً سياسياً بالدرجة الأولى. وقد لاحظ ليم أنني كنت أركز على الجوانب الأساسية، مثل مسألة السيادة. والمسؤولية عن الأمن والشؤون الخارجية، والدفاع، و«المجلس الأمني» ورئاسة هذا المجلس. لم أكن أنا وليم صديقين حميمين. ولكن كان ثمة احترام متبادل. كان يعرف أنني لست شيوعياً، وكنت أعرف أنه شيوعي. وهو يثق بي في شؤون المال، ويعرف أنني لا أكذب عليه. ولكنه لم يكن يثق بي في الأمور السياسية. تلك كانت طبيعة علاقتنا. لم يكن أحدنا يخدع الآخر. لم تكن لغته الإنكليزية قوية بحيث يستطيع التدقيق في وثائق المؤتمر ذات اللغة الرصينة. ولكنه كان يكتب تقارير مفصلة لا يعلم إلا الله لمن يكتبها. لعلها كانت انطباعاته عن بعض الأفراد وتقويمه لمواقفهم تجاه المسائل المهمة.

كنت ألتقي وأتناول طعام الغداء مع بعض أعضاء البرلمان البريطاني، من المحافظين والعمال. كان المحافظون يميلون إلى أن يكونوا أكثر مغامرة وأكثر اهتماماً بالعالم ككل، ومختلفين تماماً عن النواب العماليين الذين كانوا واضحين وجديين ولكنهم ضيقو الأفق. من بين دعوات الغداء التي ما زلت أذكرها، غدائي مع فيتز روي ماك لين Maclean وجوليان أميري AMERY. كان ماك لين مشهوراً بمآثره البطولية الحربية في يوغسلافيا التي احتلها الألمان، وكتب عن تجاربه وخبراته في كتاب بعنوان "متاريس المقاومة"، وهو كتاب ممتع، وكان أميري أيضاً يتمتع بشخصية متميزة. وقد تطورت معرفتنا إلى صداقة.

وكان هذان الصديقان مفيدين لي كثيراً في الستينيات عندما كان علينا أن نحارب الشيوعيين في سنغافورة، وكذلك عندما أصبحنا جزءاً من ماليزيا ومهددين بالقمع الجماعي من قبل المالاويين «الكبار». كانت إقامتي في لندن مبهجة ومفيدة. ولكن لا يمكن وصف المؤتمر نفسه بهاتين الصفتين.

قرأ مارشال، الذي كان مايزال في لندن، البيان الذي أصدرته حول التخلي عن سنغافورة، وظن أنني أنسف موقفه. هاجمني بمرارة وهو يخاطب 200 طالب مالاوي، محذراً إياهم من أنني أدعو الشيوعيين إلى الحزب (PAP) وأهيّء الطريق أمام الشيوعيين لاستلام السلطة في عام 1959 ولكنني لم أكن الشخص الوحيد الذي عاداه. ففي الجلسة الافتتاحية للمؤتمر تحدث وزير المستعمرات لينوكس بويد بخطبة قوية وهادئة وأوضح من خلالها موقف بريطانيا. وأشار إلى زيارة مارشال إلى لندن في شهر كانون الأول (ديسمبر) السابق وقال: إن رئيس الوزراء قد ابتعد عن التفاهم الذي تمّ التوصل إليه وهو أن سنغافورة ستحصل على حكم ذاتي داخلي فقط. «وبدلاً من ذلك نراه يسعى الآن إلى استقلال كامل. إن حكومة جلالتها لم تُستشر وهي لا توافق على مناقشات مفتوحة من نقطة البداية هذه».

لم يلتقط مارشال الإشارة الخفية. بل كان منغمساً جداً بسلوكياته العاطفية. وقبل أن يغادر سنغافورة كان قد صرح رسمياً أنه سيستقيل إذا أخفق في تحقيق الاستقلال. وبعد بضعة أيام وصلت إلى لندن، وتلقيت مذكرة منه بتاريخ 21 نيسان، اطلع عليها جميع الأعضاء، والحكومة البريطانية. طالب مارشال باستقلال فوري (ميركادا). وقال إن الاستقلال من شأنه أن يعزز مواجهة الشعب للشيوعية.

لم يلقِ لينوكس بويد بالاً إلى هذا الكلام وقال في 25 نيسان (ابريل): إنه في حين تستعد حكومة جلالتها لتقديم تنازلات أساسية لتحقيق مطامح سنغافورة، فإنها تنوي الاحتفاظ بـ «الكلمة النهائية» فيما يتعلق بالأمن الداخلي من خلال مجلس دفاعي يرأسه مستشار بريطاني رفيع المستوى.

لم يفهم مارشال مغزى الإشارات، واستمر في هرطقاته، وقرر أن يُبحر بعيداً. فقد وزع مذكرة جديدة في الأول من شهر أيار (مايو) مع مسودة لقانون استقلال سنغافورة. إذ لما كانت مقترحاته الأولى لم تحظ بالقبول، فقد أصر على طلب

الاستقلال التام، مقترحاً هذه المرة «مجلساً للدفاع والأمن» يكون له «صفة استشارية فقط»، ولا يستمر إلا «لفترة انتقالية». وخلال هذه الفترة الانتقالية يمكن لبريطانيا أن تتدخل وتعلق الدستور، ولكن سنغافورة سيكون لها «الاستقلال التام» في «الأوقات العادية». وكان اقتراح مارشال الجديد يسمح للإنكليز بالتدخل في «الأوقات غير العادية» فقط، أي بعبارة أخرى تتدخل فقط عند حدوث فترة فوضى أو بعد أن يستولي الشيوعيون على السلطة بطريقة دستورية ويهددون القواعد البريطانية.

كان جواب مارشال على لينوكس بويد مشابهاً لجوابه عندما صدّه الحاكم روبرت بلاك بشأن مسألة الوزراء الأربعة الصغار. لقد سخن الموقف، ولم يكن يدري أنه كان يعمل ضد المبدأ نفسه. وفي الجلسة التالية، أي في الرابع من أيار (مايو) علّق لينوكس بويد بجفاء حول نقطة «الأوقات العادية» التي أثارها مارشال بقوله «من الصعب اعتبار الأوقات الراهنة أوقاتاً عادية» واستمرت المناقشة بين أخذ ورد، إذ كان يزداد خلالها توتر مارشال فيما ظل لينوكس بويد محافظاً على هدوئه البارد.

وما يزال حدث ما راسخاً في ذاكرتي. ففي أثناء: تدفق مارشال في حديثه الممل اقترب سكرتير خاص من كرسي لينوكس بويد ووضع أمامه برقية. قرأ لينوكس البرقية وراح يكتب شيئاً ما فوقها. اغتاظ مارشال. وقطع كلامه، وقال بصوت أجش يدل على الغضب: «نحن نعلم، يا وزير الخارجية، أن لديك أشغالاً كثيرة في أماكن شتى من العالم، ولكننا سافرنا 8 آلاف ميل للمجيء إلى لندن كي نعرض قضيتنا ونحن نطالب بأن تولينا انتباهك».

استمر لينوكس بكتابة عبارات فوق ورقة البرقية وقال دون أن يرفع عينيه عنها: «دعني أؤكد لك يا رئيس الوزراء أن من بين جميع ممتلكاتنا في أرجاء العالم تعتبر سنغافورة الأثمن قيمة. إنها جوهرة ثمينة في التاج البريطاني. كلي

آذان صاغية. كنت تقول: يا رئيس الوزراء...» وأعاد حرفياً الجمل الثلاث الأخيرة التي نطق بها مارشال. كان مشهداً مؤثراً يدل على حنكة بريطانية تقليدية. أصيب مارشال بالذهول ولم يتابع كلامه، فقد كان أمام موقف لم يعتد عليه.

ولكن كانت كل الجهود هباء، وكان من الواضح أنها لا تقودنا إلى شيء، على الرغم من الاجتماعات المستقطعة والمناقشات الهادئة. كان مارشال يسعى وراء سراب «شيء أكثر من حكم ذاتي داخلي وأقل من استقلال كامل» كما قال لي عندما سألته: ماذا يريد تماماً؟. استمرت الجلسات ما ينوف عن عشر جلسات، إلى أن وصلنا في الجلسة الحادية عشرة، في 12 أيار (مايو) إلى مسألة رئيس «مجلس الدفاع والأمن». اقترح مارشال في البداية أن يكون الرئيس شخصاً تعينه الأمم المتحدة، وهو اقتراح كان من المؤكد أن ترفضه بريطانيا. وبعد ثلاثة أيام، وبناء على نصيحة من لجنته التنفيذية في سنغافورة. اقترح أن يكون الرئيس مالاوياً تعينه الحكومة الاتحادية. اعترض لينوكس بويد فبوجود ثلاثة بريطانيين، وثلاثة من سنغافورة وواحد مالاوي، فإن التصويت سيتوقف على الأخير، وسيكون البريطانيون أقلية. وبعد ظهر ذلك اليوم اقترح أن تكون «مسؤولية الدفاع لرجل بريطاني، وبما أن الأمر كذلك فإن بريطانيا سيكون لها الكلمة النهائية في رئاسة مجلس الدفاع والأمن».

وصلت المباحثات إلى طريق مسدود. وقرر لينوكس بويد أنه لا فائدة من استمرار المؤتمر أكثر من ذلك، وأوضح أن هذا يعني نهاية المحادثات. صعق مارشال، وشحب وجهه من شدة التأثر.

كان جميع أعضاء المؤتمر وأنا من بينهم، باستثناء مارشال وليم تشين سيونغ، موافقاً على ما عرضه البريطانيون. وضع حكم ذاتي مع حكومة سنغافورية مسؤولة عن الأمن الداخلي، مع احتفاظ بريطانيا بحق الاعتراض من خلال «مجلس الدفاع والأمن». حيث يتمتع البريطانيون بأكثرية الأصوات.

نصحت مارشال بألا يرفض هذا، بل بأن «يعود إلى الجمعية وأن يناقش المسألة ثم نتخذ الخطوة التالية». ولكنه رفض هذا الاقتراح قطعياً ـ لم يكن رجل حسابات الباردة الهادئة عندما يُحشر في زاوية كما هو حاله الآن.

أجرينا في تلك الأمسية معاً مقابلة مع محطة «التلفزيون المستقل». كلانا أنحى باللائمة على لينوكس بويد، ولكن مارشال استخدم لغة أكثر استعراضية، محتجاً بأن وزير الخارجية عرض «كعكة عيد الميلاد بصلصة الزرنيخ» وبات عليه الآن أن يحافظ على وعده بالاستقالة.

وفي قرابة الساعة 5.54 بعد الظهر، اتصل أمين سر الوفد بالهاتف ليخبرنا أن مارشال يدعونا إلى اجتماع طارئ لمناقشة إعادة فتح المباحثات، أيقظت ليم تشين سيونغ وأخبرته بذلك. لم يصدق ذلك. وقال بالإنكليزية بلكنته المحلية: «لي، اغرب عن وجهي، ولا تعبث معي».

أجبته: «ليم، أنا لا أعبث. هناك اجتماع في الساعة السادسة».

ما بين الشك واليقين لم يتحول موقف مارشال نحوي فقط، بل تحول موقفه تجاه الاشتراكيين الليبراليين، ومن أعضاء حزب «جبهة العمل» التابعة له. كانت رغبته في إعادة بدء المباحثات لإنقاذ نفسه قوية جداً بالنسبة له ولأعضاء حزبه. قال أحد أعضاء: الحزب الاشتراكي الليبرالي بلهجته المحلية (الهوكين): «لا تستطيع أن تأكل ما تقيأته». قبل نصف ساعة من الاجتماع عرف مارشال أنه إذا حاول استئناف المفاوضات، فعليه أن يفعل ذلك على حسابه الشخصي. كان معزولاً.

في تلك الليلة ذهب إلى عرض مسرحية «مدام بيترفلاي» (Madam Butterfly) مع السيد لينوكس ـ بويد والسيدة باتريشيا لويد، ثم غادرا المسرح بعد ذلك لتناول العشاء في مطعم إسباني على ألحان الغيتار وإيقاعات راقصي الفلامينكو*. في

(*) رقصة إسبانية تقليدية ـ المترجم.

غضون ذلك قررت أن أوقفه عن تقديم أي تراجع. وفي مؤتمر صحفي عُقد في «قاعة الملايو» أعلن بوضوح أن «حزب العمل الشعبي» (PAP) لا شأن له بإعادة افتتاح المؤتمر. قلت: «لقد كانت محاولة أخيرة يائسة للتعلق بالسلطة، علامة حماقة سياسية لا تصدق»، وأكملت ذلك بقولي: «لم يحدث في تاريخ النهوض الاستعماري مثل هذا الخداع خلال فترة قصيرة من قبل قيادة شاذة غريبة الأطوار».

عرفت أنني بدعوتي إلى هذا المؤتمر الصحفي في تلك الليلة بالذات، رغم الوقت المتأخر، فإنه سينشر وسيعزز موقف جميع أعضاء الوفد. وهذا ما حدث بالفعل.

غادرت لندن مع ليم تشين سيونغ في 21 أيار (مايو). وقد تبين أن المؤتمر كان فاشلاً. ولكنه لم يكن بلا معنى، لأنه أطلع سنغافورة على الحماسية الفارغة لمارشال. كان على مارشال أن يستقيل، ورجحت أن يكون ليم يوهوك رئيس الوزراء القادم المحتمل لحكومة «جبهة العمل». سندخل في مرحلة جديدة. لم أكن متأكداً مما كان يفكر فيه ليم تشين سيونغ. ربما كان يحسب نتائج اندفاع مارشال الذي عمل على تشجيعه. كنا نميل إلى أن يكون لدينا حكومة أقل محاباة لـ CUF، وأن يكون ليم يوهوك في موقع مختلف. في المراحل الأخيرة من المؤتمر وجدت مارشال واقعاً تحت تأثير ليم تشين سيونغ كلياً. ولقد كانت نصيحة ليم الخرقاء هي التي أدت إلى رفض عرض لينوكس ـ بويد الأخير.

14. مارشال يخرج وليم هوك يدخل

عندما عاد مارشال إلى سنغافورة في 25 أيار عام 1956 كان ما يزال غاضباً مني. وقد طردني من الغرفة عندما ذهبت إلى المطار لأحييه ولحضور مؤتمر صحفي. وهو ينظر إلي بطرف عينيه، مبيناً أن المؤتمر للأصدقاء فقط. وبعدها غادرت المكان.

وفي كلمته الأخيرة، كرئيس للوزراء في 6 ـ7 حزيران كان ما يزال عليه أن يظهر بمظهر المنتصر الذي حقق مجداً، وطلب من «الجمعية» أن تصادق على موقف وفده في مؤتمر لندن. ولكن الاشتراكيين الليبراليين وبَّخوه بشدة على إخفاقاته، وعلى حماقاته لرفضه ثلاثة أرباع الرغيف، والعودة خالي الوفاض. قررت ألا أنتقد مارشال، بل أن أشكل جبهة متحدة ضد البريطانيين «الأشرار». كان يسود الاجتماع شعور بأن اللعبة انتهت، ولم أرَ من جانبي أي مكسب يذكر في الحط من شأن مارشال. وفي نهاية نقاش دام يومين استقال مارشال وأدى ليم يوهوك اليمين كرئيس للوزراء.

كنت مقتنعاً أن ليم يوهوك سيحكم بطريقة مختلفة. لم يكن يتمتع بشخصية مارشال أو حبه للظهور. ولا يستطيع أن ينتقل من أزمة إلى أخرى. لقد برز في عمله لأنه كان حساساً، عقلانياً ويُعتمد عليه ومفيداً لمن يخدمه. وكان لدي شعور أكيد أنه سيقبل بتحليل العاملين معه، ولاسيما خبراء «الفرع الخاص»، وأنه سيعمل بنصيحتهم في كيفية التعامل مع تخريب «الجبهة الشيوعية المتحدة» (CUF) الذي كان له مسالك كثيرة، ومؤيدون هنا وهناك. والمشكلة هي كيفية محاربته لها دون أن يتعرض لفقدان شعبيته. فهو إن هاجم الثقافة واللغة الصينيتين فسيخسر أصوات الناطقين باللغة الصينية. وإذا سجن زعماءهم لم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى الإضراب والمظاهرات. فلسوف يخسر أصوات العمال بمن في ذلك العمال المالاويين والهنود الذين سيطالبون بإطلاق سراحهم.

ومع هذا فإن وضع CUF أصبح أكثر خطورة بوجود ليم يوهوك رئيساً للوزراء. لذا كنت مندهشاً أن ليم تشين سيونغ وجماعته قرروا أن يلعبوا دوراً أكثر أهمية وبروزاً. ففي انتخابات اللجنة التنفيذية الجديدة لحزب العمال الشعبي (PAP) استطاعوا أن يحصلوا على خمسِ مقاعدَ من أصل 12 مقعداً لجماعتهم. واستطاع ليم تشين سيونغ أن يحصد لنفسه 1537 صوتاً (أكبر عدد من الأصوات) مقابل 1488 صوتاً لي. وبذلك ترك المعتدلين يحتفظون بأغلبية ضئيلة، ولكنه جعل من الواضح أنه حين يحتاج الأمر إلى الدعم الجماهيري، فإن الموالين للشيوعيين سيمسكون بزمام الأمور. كانت سطوتهم كبيرة وكان بوسعهم أن يضعوا أيديهم على الحزب بسهولة عندما يريدون.

قررت أن آخذ إجازتي السنوية لمدة أسبوعين. واتجهت نحو مرتفعات الكاميرون مع تشو ولونغ، وتوقفنا في الطريق عند «فندق المحطة» في كولا لامبور. وقد اخترناه لأن لونغ كان مفتوناً بالقطارات وقد أخذناه إلى رصيف المحطة ليشاهد القطارات وهي تنطلق وتعود. ولكن ثمة سبب أكثر أهمية للبقاء في كوالا لامبور. فقد جاء أونغ بانغ بون، استجابة لرسالة كنت أرسلتها إليه، ليراني في الفندق.

لم تكن لغتي الصينية جيدة. أما بانغ بون فكان يتحدث لغة الماندرين، والهوكين، واللغة الكانمتونية، ومثقفاً ثقافة صينية وإنكليزية. كان قد تخرج لتوه من جامعة المالاوية، ويعمل في كوالا لامبور، لصالح «جمعية بورينو للبناء» المالاوية. كان راتبه 700 دولار في الشهر. ساعدني في تانغونغ باجار أثناء الحملة الانتخابية عام 1955، وقد طلبت منه أن يكون أمين السر التنظيمي لحزب العمل الشعبي (PAP)، ولكن لم يكن بوسعي أن أعطيه أكثر من 450 دولاراً في الشهر. أجابني أنه سيأتي إلى سنغافورة. «إذا كان الحزب يأمرني بذلك». قلت له إنني لا أستطيع أن آمره بشيء يسبب له خسارة 250 دولاراً من راتبه، وترك مدينته التي يسكن بها، فضلاً عن أن من كان يعمل لديهم عرضوا عليه السفر إلى إنكلترة

للتدريب. فطلب مني بعض الوقت للتفكير. وبعد فترة أسبوعين وافق وقبل أن يبدأ العمل في منتصف شهر آب. شعرت بالارتياح والامتنان له. فقد كان من العسير أن أجد شخصاً يعتمد عليه مثله. كان يتمتع بحساسية سياسية وتفهم لطلاب المدارس المتوسطة الصينيين، والعقائد غير الشيوعية.والأهم من ذلك كله أنني شعرت بالثقة تجاهه.

لم يكن عمله سهلاً. فقد كان من الصعوبة بمكان إدارة حزب متعدد اللغات والأعراق في سنغافورة.وكان نشطاء حزبنا ممن يتكلمون الصينية،وزعماؤهم من ذوي الثقافة الصينية. وهذا ما جعل الصينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية والمالاويين والهنود، يأتون في المرتبة الثانية رغم أكثريتهم لأن ذوي الثقافة الصينية هم الذين كانوا يديرون كل شيئ. وكانت قيادة الحزب المركزية قد عقدت اجتماعات مخصصة لهم بالتحديد، لأن ذلك كان يتطلب إمكانات كبيرة مكلفة بالنسبة إلى حزب فقير.

بدون رجل مثل بانغ بون ما كان بوسعي أن أشرف على نشاطات الحزب، وكانت فروع الحزب تعكس مزاج «الجناح الوسط». حيث يضغط ليم تشين سيونغ وديفان نير لاتخاذ موقف ضد السياسات المعادية للشيوعية بشكل حازم من جانب حكومة تنكو في كوالا لامبور، والتي لم تدع مجالاً للشيوعيين للعمل بشكل دستوري. ولهذا فقد أصدر الحزب بياناً ندد فيه بحكومة التحالف في «الاتحاد». كان ذلك قراراً مهماً جداً. فلأول مرة كنا نمسّ قضايا حساسة في المالايو.

قلنا إن سياسة تنكو من شأنها أن تضع «طائفة تجاه طائفة وطبقة تجاه طبقة»، وإن بناء قوة من نصف مليون رجل لتشديد القبضة على الشيوعيين ومحاربتهم، ستبين بوضوح أن «الجيش وقوات الشرطة سيكون معظم أفراده إذا لم يكن جميعهم من المالاويين. وإن هذه القوات سوف تستخدم ضد الأحياء الصينية والعمال». كانت مخاطر الانقسام العرقي ما بين المالاويين والصينيين واضحة. والموقف المعادي للشيوعية من شأنه أن يحشد العمال من جميع الأعراق

ضد «أصحاب العمل الهنود والصينيين والأوروبيين الذين يساندهم الإقطاعيون المالاويون في الحكومة الاتحادية». لقد كانت هيمنة استعمارية خفيفة، إذ بعد أن استلم «تونكو» السلطة في شؤون الدفاع، والأمن الداخلي والمالية، أخفى البريطانيون أنفسهم بدهاء وراء وزراء التحالف» من ممارستهم للقوة الفعلية الممثلة بقواتهم المسلحة وإدارة الشرطة.

وفي اليوم التالي تراجع تونكو. وأوضح أنه لن ينسجم مع الشيوعيين أو حزب العمل الشعبي (PAP) وأن سياسته لم تكن تعتمد النظر إلى «شعبية زائفة» من خلال إثارة المشاعر المعادية لبريطانيا. وقال «أنا مصمم على أن أرى حكومتي بُحرية، بعيداً عن تدخل العناصر المخربة. ولهذا فأنا مصمم على حماية القانون والنظام في بلادي». ولكن الجواب الوافي جاء من تان سيوسين، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمالية: لا بد أنهم عرفوا أن التطهير قادم. ومع هذا اتخذوا موقفاً واضحاً من حزبنا وكانوا يضغطون على غير الشيوعيين لتبني موقف عدائي يزيد فرص اتخاذ الإجراءات الصارمة. استنتجت أن زعماء الحزب الشيوعي تحت زعامة ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سوان لم يكونوا متأكدين أي سبيل سيسلك ليم يوهوك، وقرروا استخدامهم لاختبار الموقف. كانت كوادرهم الرئيسة مخفية، كما أن أرض المعركة الرئيسية بالنسبة لهم لم تكن سنغافورة بل المالايو، حيث كان التونكو وقاعدته الأساسية من المؤيدين هم عددهم الأكبر. ما كانوا يريدونه في سنغافورة هو الملاذ الآمن حيث يستطيعون بناء قوتهم للقتال عبر «كوزواي». كان اهتمامي الفوري أن أكتشف ماذا يخطط ليم يوهوك وصبيانه المستترين في «الفرع الخاص» ومكتب أمانة السر الرئيس ـ كما أوضح في 6 أيلول في الجمعية ـ «من أجل المصلحة الفضلى لسنغافورة».

لم يكن لدي الكثير من الوقت قبل أن تتحرك الحكومة. ففي 19 أيلول قامت بحل «اتحاد نساء سنغافورة» الموالي للشيوعيين، و«الجمعية الموسيقية الصينية»، واعتقلت 6 من زعماء «اتحاد العمال» ـ CUF، بمن في ذلك رئيس «اتحاد عمال

المخازن والمصانع في سنغافورة»، وثلاثة من الصينيين البارزين في ميدان التربية والتعليم. وأعلن ليم يوهوك في جريدة «ستريتس تايمز»: «قررنا أن نجابه بحزم الحظر المتزايد من جانب المنظمات الجبهوية الشيوعية. قررنا أن نضبط «التغلغل المستتر» إلى اتحادات محترمة من جانب الشيوعيين والمتعاطفين معهم». وصرحت في بيان لي: «العمل المفاجئ والتعسفي ملفت جداً للاهتمام. نحن نحقق في الموضوع». لم يكن ليم تشين سيونغ وفونغ راضيين عن بياني لافتقاره إلى الغضب والتعاطف. كانا يريدان إدانة ومعارضة بكل السبل الممكنة. لكنني لم أكن في عجلة من أمري.

في 24 أيلول (سبتمبر) ألغت الحكومة تسجيل «اتحاد طلاب المدارس المتوسطة الصينيين» في سنغافورة وخرج خمسة آلاف طالب من مدارسهم احتجاجاً، وراحت سيارة الشرطة تجوب الشوارع داعية أهالي الأولاد إلى إعادتهم. وذكرت الصحف أن الأساتذة كانوا عاجزين عن فعل أي شيء. أحد المسؤولين وهو صيني شوفيني وصف الطلاب بأنه «لا يمكن السيطرة عليهم». ولكن عندما أخبرهم وزير التربية تشيو سوي كي أن عليهم مواجهة العواقب إذا لم يلتحقوا بصفوفهم بطريقة منتظمة، قرر بعضهم العودة إلى البيت. وكان من الحكمة أن الحكومة لم تدع مجالاً للشك بأنها ستسيطر على الموقف، أما وليم تشين سيونغ وفونغ ما كان بوسعهما إلا أن يستوعبا هذه الإشارة على أنها نهاية فصل من فصول هجومهم الجبهي الموحد.

وفي اليوم التالي تم حظر أربع منظمات ذات صلة بالطلاب الصينيين. وبعد أسبوع اعتقلت الشرطة رئيس اتحاد الطلاب المحظور روبرت سون لوه بون الذي كان رئيساً لاتحاد الطلاب المحظور.

في اجتماع الجمعية التشريعية الذي انعقد في الثاني من شهر تشرين الأول (أكتوبر) انعقدت الحكومة على ما قامت به من اعتقالات وعمليات الطرد،.كانت عملية شكلية، كنت أعرف أن ليم يوهوك يريد أن يقوم بعملية تطهير. ولم يكن

سيارة محترقة نتيجة أعمال شغب أثناء صدامات حرض عليها الشيوعيون
في تشرين الأول 1956.

باستطاعته أن يسلك السبيل الذي سلكه مارشال بدون أن يواجه المصاعب. واتخذ تشيو طابع الهجوم، وأنحى باللائمة على أولياء الأمور وغيرهم ممن حرضوا الطلاب على الإضراب.

استمرت الحكومة بالضغط دون أن تتعظ بما آلت إليه الأمور. ففي 10 تشرين الأول (أكتوبر) اعتقلت الشرطة أربعة من قادة الطلاب من «اتحاد طلاب المدارس المتوسطة الصينيين» (scmssu)، وبعد ثلاثة أيام «المدرسة الصينية العليا» ومدرسة «تشونغ تشينغ» الثانوية، وفي 16 تشرين الأول فتحت الحكومة طوارئ لأربع مئة طالب كي يكملوا دراستهم، وانضم إليهم آخرون في الأيام التي تلت. وبعد أسبوع لوح وفد يمثل ما يدعى «الطلاب السنغافوريين المحبين للحرية من المدارس الصينية المتوسطة» بالعلم الأحمر أمام ليم يوهوك، وفي اليوم التالي مباشرة أعلن رئيس الوزراء بنفسه إنذاراً عبر الإذاعة للطلاب الذين ما يزالون معتصمين في مدرستين بإخلائهما في الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي.

وفي مساء 24 تشرين الأول (أكتوبر) عقد حزبنا مهرجاناً في ساحة مفتوحة تدعى «العالم الجميل» في شارع بوكت تيماه للاحتجاج بطريقة سليمة على عمليات الاعتقال، وكنت مع ليم تشين سيونغ، ونير تشين تشيه في المنطقة ذاتها. وعندما انفض الاجتماع توجه ليم تشين سيونغ ومؤيدوه في قافلة من الشاحنات نحو «المدرسة الصينية الثانوية». وعندما اتجهت بسيارتي إلى هناك رأيت بوابات المدرسة محاطة برجال الشرطة وبمئات الآباء والأقرباء يحيطون بهم. كان الشيوعيون يريدون أن يرى هذا المشهد أكبر عدد من الناس، في تلك الأمسية. وانتابني إحساس باحتمال وقوع أعمال قمع وعنف.

ما حدث أن أعمال العنف والشغب بدأت خارج مدرسة «تشونغ تشينغ» الثانوية في شارع غودمان، حيث اصطدمت مجموعة من 400 ـ 500 طالب مع الشرطة، وهاجمت مركز البريد في «تانجونغ كاتونغ» ومخفراً للشرطة في «جيلانغ». ثم قام المتظاهرون، وعددهم قرابة أربعة آلاف من المدرسة الصينية

الثانوية بقلب ثلاث من سيارات الشرطة. وعندما حاولت الشرطة تفريقهم بالغاز المسيل للدموع تفرقوا، ولكن أعمال الشغب والعنف انتقلت إلى وسط المدينة في شارع روكور وأماكن أخرى من مدينة سنغافورة، وعند منتصف الليل فرضت الحكومة منع التجول. واستمرت أعمال الشغب في اليوم التالي. وأعلن عمال مصنع «ميدل رود للباصات» الإضراب، ولكن الحكومة استطاعت بواسطة قوات الشرطة والجيش، وبالحوّامات وبالآليات التي تطلب إلى الجمهور وقف أعمال التظاهر والشغب، أن تسيطر على الموقف.

كانت الشرطة والجيش مستعدين تماماً وكان بينهما تنسيق كامل. وكانت الحوامات والسيارات المدرعة تجول في المدينة منذ الفجر. ووُضعت قوات مكافحة الشغب في حالة تأهب ونُصبت المتاريس. لم يكن ثمة تهديد حقيقي للأمن. ولكن أعمال الشغب والعنف أعطت مبرراً للحكومة لاعتقال 219 شخصاً، بمن فيهم زعيم مجموعة «ميدل رود» ـ ليم تشين سيونغ وفونغ، وكذلك بعض أصحاب الثقافة الانكليزية من أمثال نير، دود هايك، وبوتو تشيري.

خلفت أعمال الشغب 13 قتيلاً، 123 جريحاً، واحتراق وتخريب 70 سيارة، وتدمير مدرستين ومخفرين للشرطة، واعتقلت الشرطة ألف شخص، من بينهم 256 شخصاً من رجال العصابات. وفي الأمسية التالية أعلن ليم يوهوك عبر الإذاعة: «حررنا النقابات، والفلاحين، والأساتذة، والاتحادات الصينية من الاستغلال السياسي». وأطلقت صحيفة «ستريتس تايمز» على هذه العملية في عنوان صفحتها الأولى اسم «عملية التحرير».

وضع رئيس الوزراء الجديد نفسه في موضع الخاسر. كنت أعتقد منذ البداية أن الحكومة قد ارتكبت خطأ استراتيجياً بالتركيز على المدارس المتوسطة، ولاسيما «المدرسة الثانوية الصينية» ومدرسة «تشونغ تشينغ» الثانوية، اللتين تعتبران من أرقى المدارس التي تدرس بالصينية، والتي يفخر الآباء بإرسال أولادهم إليها. لماذا تصرف «الفرع الخاص» بهذه الطريقة؟ فبتركيزهم على

الطلاب، جعلوا الناس يعتقدون أن ليم يوهوك كان يحارب نظام التعليم الصيني بكامله. وتلك الفكرة كانت وبالاً عليه. لم يكن دستور ريندل يعطيه صلاحية السيطرة على الأمن الداخلي، فهذا كان من صلاحيات السكرتير الأول والحاكم. ولكن السكرتير الأول رفض لأسباب سياسية أن يحارب الشيوعيين. وبدلاً من ذلك ليم يوهوك لنفسه مع بعض مسؤولي الأمن لديه أن يتحمل مسؤولية التطهير. وبالنتيجة كان من السهل على الشيوعيين أن يصوروه كأداة «للإمبرياليين الاستعماريين». وحاول البريطانيون والأمريكيون مساعدته في موقفه الضعيف بمدح شجاعته وصلابته. وكان أول من فعل ذلك لينوكس بويد الذي قال: «لقد جُرت الأفعى الشيوعية ولكنها لم تقتل... يوجد في سنغافورة وزراء قادرون وشجعان يستطيعون مواجهة مشاكلهم في هذه البقعة المهمة من بقاع العالم الحر».

كما امتدحه أيضاً وزير الخارجية الأميركية ومسؤولون أوستراليون. ولكن ليم يوهوك لم يدرك كم تضررت شعبيته لدى القاعدة الجماهيرية الناطقة بالصينية. كما ارتكب خطأً آخر عندما حاول أن يكسب تأييد بعض الاتحادات والمنظمات، ولكن هذه كانت من الضعف بحيث لا تستطيع أن تقدم له شيئاً. وعندما حاول بعض المسؤولين البريطانيين من أمثال رئيس اتحاد المتقاعدين، ورئيس غرفة التجارة في سنغافورة البريطاني، وأسقف سنغافورة البريطاني تأييده كان ذلك في غير صالحه لأنه رسخ الاعتقاد بأنه كان يعمل لصالح الغرب.

استخلصت أنه لو واجهت حكومة حزبنا (PAP) مثل هذه المشكلة فإنني لن أرتكب الأخطاء نفسها مطلقاً. كنت سألزم الآباء أنفسهم بسحب أولادهم من المدارس وأخذهم إلى البيوت. وكان بوسع «الفرع الخاص» أن يعتقل المسؤولين عن الإضرابات بعد أن يتفرق الطلاب. كان من الأفضل بالنسبة لليم يوهوك أن يعتقل الناشطين في النقابات والجمعيات الثقافية.

علمني مارشال ألا أكون رقيقاً وضعيفاً عند التعامل مع الشيوعيين. أما ليم يوهوك فقد علمني ألا أكون فظاً وغير متحفظ. ولكن لم يكن كافياً استخدام القوى الإدارية والشرعية لقمعهم. لم يدرك ليم أن لعبة الشيوعيين بأن يجعلوه يخسر تأييد الجماهير الناطقة بالصينية لتدمير مصداقيته كزعيم كان يعمل لصالحهم. لقد كانوا قادرين بهذا على جعله يظهر بمظهر الانتهازي، وبمظهر الدمية في يد «الإمبرياليين الاستعماريين». تعلمت من ليم يوهوك ألا أجعل الشيوعيين يدفعون ثمناً باهظاً من أجل أن أكبح جماحهم.

وبعد أن انجلى الغبار عن تطهير الحكومة لزعماء الفتنة الشيوعيين تصدت لزعماء الصف الثاني ممن لم يلتقطهم «الفرع الخاص» من سراديبهم. جازفوا بالظهور كي يروا ما إذا كانوا سيعتقلون. ولكنهم لم يعتقلوا. جاء كثيرون ليروني في مكتبي في شارع ملقا، وطلبت من دينيس أن يرافقهم إلى فروعهم المختلفة ليأخذ بياناً مفصلاً بالأضرار، ويستعيد أية ممتلكات ما تزال هناك ويحدد المتهمين. ذهب دينيس إلى «بوكتي تيماه» «وبوكتي بانجينغ» حيث حدد المباني المخربة. كانت رائحة الغاز المسيل للدموع ما تزال تفوح وسط فوضى الأثاث المخرب والقرطاسية، والأحذية المبعثرة المفقودة في غمرة العراك أثناء حملة الاعتقالات.

اعترف أحد القادة بأنه شديد القلق ـ فقد اختفى مبلغ 120 ألف دولار من صناديق الاتحاد كانت محفوظة في صندوق في غرفة خلفية في مقر القيادة الكائن في شارع «ميدل رود». كان المبلغ قد سُحب من المصرف في آخر لحظة. كنت أعتقد أنه أخذ للحيلولة دون وقوعه في أيدي أمين سر الجمعيات. وما هي إلا بضعة أيام حتى يشرع «الفرع الخاص» في تفقد حسابات النقابات ويجد النقود الضائعة، وقررت بوصفي مستشاراً قانونياً للاتحاد بالإعلام عن فقدان المبلغ فوراً.

اقترف ليم تشين سيونغ جريمة بسحب معظم المبلغ تقريباً لأغراض لا تتوافق مع قواعد الاتحاد، وعدم قدرته على المحافظة عليها. ولكن عندما ذهبت لأراه في مخفر الشرطة الرئيسي حيث استدعى للتحقيق، ادعى أنه لا علم له. قال: إن النقود كانت في الغرفة الخلفية قبل ثلاث ساعات من الهجوم على المباني في الساعات الأولى من 27 تشرين الأول.

والشخص الآخر الوحيد الذي كان يعلم به هو أمين صندوق الاتحاد. قابلته في «سجن تشانغي» قبل أن ألتقي ليم. قال: إنه لا يوجد إلا مفتاحين للغرفة المقفلة، أحدهما معه والآخر مع ليم. وبحسب ظنه فإن المال كان موجوداً في الغرفة في الوقت الذي قامت به الشرطة بالمداهمة.

جرت جميع التحقيقات مع المدانين بموجب أحكام الطوارئ بحضور ضابط الفرع الخاص. لم أستطع أن أفهم لماذا لم يحرر «الفرع الخاص» سجلات التحقيق إلى المدعي العام بحيث يمكن أن يدان المقترفون بجريمة انتهاك الأمانة. لقد سحبوا 120 ألف دولار، وأنفقوا 20 ألفاً على مواد لا يستطيعون تقدير قيمتها بدقة، و«خسروا» الباقي. كان على الحكومة أن تُظهر ليم تشين سيونغ، ومسؤوله المالي ورئيسه على أنهم لصوص، وليس كشهداء ثوريين اتهموا بقضية سياسية.

بدلاً من ذلك، طلب منهم أمين سجل النقابات في 21 تشرين الثاني (نوفمبر) أن يبينوا السبب في عدم تسجيل SFSWU بسبب أنه كان «لا يستخدم لأغراض لا تتناسب مع أهدافه وقواعده» فحسب، بل أيضاً بسبب أنه «أرصدة الاتحاد لم تنفق على أغراض تجيزها القواعد». في بيانه أمام أمين السجل قال ليم: إنه وجد أن اعتمادات الاتحاد، البالغة آنذاك حوالي 150 ألف دولار ينبغي ألا تسلم إلى الحكومة بل أن يحتفظ بها كي تستخدم فيما بعد لمصلحة العمال. الإفادة التي رواها آنذاك كانت مختلفة تماماً عما ذكره لي أمام ضابط الفرع الخاص، ولكن الاستنتاج في صميمه كان واحداً: وضعنا النقود في صندوق حديدي في غرفة تقع خلف مباني الاتحاد في الشارع المتوسط. كان ذلك آخر ما علمته حول

النقود. لا بد أن أحداً قد سرق النقود من تلك الغرفة منذ اعتقالي في الساعة الثانية بعد الظهر. وهذا يعني عدم وجود جرم بسوء الائتمان. ولكن الحكومة اختارت أن تدينه بموجب أحكام الطوارئ.

كنت أقل اهتماماً بالخسائر الأخيرة «للجبهة الشيوعية المتحدة» (CUF) من اهتمامي بكيفية إعادة تجمعها وتنظيمها في المستقبل. كان الحزب الشيوعي الملاوي يحتاج إلى فريق ثان من الزعماء، ممن ينبغي أن يقرروا الآن نهجَ الطريق الذي رسمه الفريق الأول. فإذا استطاعوا إيجاد رجالٍ قادرين على أن يقوموا بذلك بين مجموعة النشاطات المكشوفة، فقد يضحون ببعض كوادرهم الخفية. انتظرت حتى أرى كيف سيلعبون اللعبة. لقد لعبوها بأمان. قرروا أن يُنزلوا الشقيق الأصغر لليم تشين سيونغ، ليم تشين جو، كبديل يقوم بحمل العلم الذي خلّفه وراءه في شارع ميدل. كان ليم تشين جو طالباً في المدرسة الثانوية الصينية. لم يكن لديه وجه أخيه الطفولي، بل كان أعرض منه وأقل شبهاً ولكنه ألمع وأشد. ولم يكن لديه لسان ليم تشين سيونغ. ولكنه كان الاختيار المنطقي. كان يجسد ليم تشين سيونغ الذي أراد الحزب الشيوعي أن يُذكر كزعيم كبير كان محتجزاً الآن مؤقتاً من قبل حكومة تُعد غير عادلة ومدعاة للسخرية.

فاوض الزعماء الجدد، متوقعين عدم التسجيل في SFSWU، في 14 شباط 1957، نقابة قائمة ولكنها غير فعالة، مستخدمين إياها كمطية. كان لدى اتحاد سنغافورة العام للعاملين 2000 منتسب إلى عضويته. وقد تدنا عدد الموالين للشيوعية فيه من 18 مقعداً إلى 21 مقعداً في اللجنة المركزية المشتركة، وقد نقل ليم تشين جو الحزب إلى مقر القيادة القديم في «الشارع المتوسط» وفي غضون شهور ارتفع عدد الأعضاء إلى 20 ألف عضو.

كذلك عادت الفروع إلى الحياة، ولكنها لم تكن في الحالة ذاتها من النشاط الجم. فبعض الكوادر الجديدة كانت من الهواة، وبعض الذين عملوا مع الزعماء المسجونين قد أصابهم الخوف، وكانوا عازفين عن توريط أنفسهم، غير عارفين

أنه سيكون هناك فريد من التطهير. وهكذا فإن النقابات لم تستعد الاندفاع والهمة اللتين حصلت عليهما منذ أواسط عام 1954 حتى نهاية 1956. ولكن لم يكن لدي شك في أن المدارس الصينية المتوسطة طالما كانت تخرّج طلاباً أذكياء وطموحين، كان يحرمهم النظام السياسي من الوظائف الجيدة في القطاعين العام والخاص فسيكون الإحباط لدى القادرين والموهوبين في أوساط ذوي الثقافة الصينية الذين لم يكن لديهم منفس لطاقاتهم ومثاليتهم، والذين كانوا في الوقت نفسه متأثرين بإنموذج الكوادر الشيوعية الشابة في الصين. ولكن بعد الأخبار عن إفراط الثورة الثقافية خلال السبعينات بدأ الشيوعيون يضعفون.

في تلك الأثناء أُضيف العرض الفخور بالتضحية بالذات من جانب الكوادر القيادية إلى الأسطورة. وبعد العمل طيلة النهار في الأنشطة الخطابية، والتفاوض مع أصحاب الأعمال الخبثاء، وصل ليم تشين سيونغ وفونغ إلى مقاعد القمة في قيادات النقابات. كان لأسلوب حياتها ذي الطابع الإسبارطي تأثير كبير على أتباعهم، الذين حاولوا أن يحتذوا بهما متنافسين فيما بينهم بروح أفكار الذات نفسها. حتى الطلاب الشباب الأغنياء، أرادوا أن يتشبهوا بليم وفونغ. أحد أبناء مالك شركة للباصات أمضى معظم وقته يعمل سائقاً بدون أجر من أجلهما، مستخدماً سيارة العائلة. كانت تلك مساهمة منه من أجل القضية. كان فخوراً بالانتساب إلى الكوادر الثورية ذات الملابس البسيطة والذين لا يتركون إلا اليسير من رواتبهم لأنفسهم لأن كل ما يأخذونه من أرباب العمل هو من حق العمال. لم أكن أعرف كم كانوا يوفرون من أجل أن يطعموا الثوريين، وربما لم يكونوا يوفرون شيئاً لأنفسهم - من المؤكد أنهم لم يكونوا يعيشون بالمستوى الذي كانوا عليه.

كان ثمة عرض تنافسي لأفكار الذات عمَّ جيلاً بأكمله، فبقدر ما تكون ناكراً للذات بقدر ما تؤثر في الجماهير أكثر،ويكون من المرجح أن تتأهل إلى الانتقال من الجماعة المعادية لبريطانيا إلى الحزب الشيوعي المالاوي، الحزب القائم وسط الثورة. وبمثل هؤلاء المؤيدين يستطيع الشيوعيون أن يخوضوا الانتخابات،

إذ لا يوجد نقص في العمال أو الملتمسين للأصوات، وكان المتطوعون يحظون بملابس من قبل المؤيدين المتحمسين. وكنت أجد أصحاب المطابع يوزعون الكراسات مجاناً أو يحولون أثمانها إلى حسابات النقابات. كذلك كانت الفتيات يشاركن بحماسة ويتوددن إلى ليم وفونغ ناظرات إليهما كوالدين لهن. أما الفتيات الأقل جاذبية فكن يعملن مع القادة الفرعيين في مختلف النقابات.

وعلى النقيض من ذلك، أي عندما كان علينا أن نجد عمالاً واجهتنا مشكلة حقيقية. فقد شغّلنا متطوعين من النقابات ومن الأصدقاء، ولكنهم كانوا يريدون جميعاً العودة إلى البيت في وقت الغداء لغرض أو لآخر أو بسبب التزام خاص. لم يكن هناك التزام كامل، أو تفان في العمل كما لدى الجانب الآخر. كان أحد المتحمسين يقوم بعمل ثلاثة أو أربعة من المتطوعين لدينا. اعتدت أن أكون محبطاً بسبب تورطي الطويل بكل هذا. أخفقت في التأكد آنذاك أنهم لا يمكن أن يستمروا في ذلك طويلاً. فالحماسة الثورية سوف لن تحملهم بعيداً. ففي النهاية كان عليهم أن يعيشوا ويبنوا أسراً، والأسر تتطلب نقوداً ومنازل، وعناية صحية وإنجاباً ومطالب الحياة الطيبة الأخرى.

وكان من بين الأشياء الغريبة لديهم أنهم عندما تخلوا عن الشيوعية، كما فعل بعض زعماء طلاب المدارس المتوسطة الصينيين، غالباً ما أصبحوا جشعين للغاية كي يعوضوا الوقت الضائع. بدوا وكأنهم يشعرون أنهم حُرموا من أجمل سنوات حياتهم وعليهم أن يعوضوا ما خسروه. كانت هذه رؤية مسبقة لما شاهدته فيما بعد في الصين وفيتنام. فعندما لم تقدم الثورة الدنيا المثالية (اليوتوبيا) وتحول الاقتصاد إلى سوق حرة كانت الكوادر القادرة على إصدار تراخيص أو الوصول إلى البضائع والخدمات بأسعار رسمية، أول الفاسدين والمستغلين للجماهير.

15. ثلاثة أرباع استقلال

بعد أحد عشر شهراً من انهيار المباحثات الدستورية الأولى. عدنا إلى لندن من أجل جولة ثانية. هذا المؤتمر الثاني انعقد في جو مختلف تماماً. فالخلافات التي كانت قائمة داخل الحزب قد استبعدت تماماً، وكان هناك اتفاق مبدئي بشأن الحلول. ففي 7 شباط من عام 1957 دعا رئيس الوزراء ليم يوهوك إلى اجتماع جميع الأحزاب لوضع المخطط التمهيدي لدستور جديد، وبعد شهر قدمت مشروعات مختلفة «للجمعية». كان تحرك ليم واقعياً وبسيطاً وهو: «أن نضمن من حكومة جلالتها وضع دولة ذات حكم ذاتي تتمتع بجميع الحقوق والسلطات والامتيازات المتعلقة بالشؤون الداخلية، والتجارة، والعلاقات التجارية والثقافية على الصعيد الخارجي».

لم يكن هناك محاولة لإخفاء الحقيقة الكريهة وهي أن هذا ليس استقلالاً، وأن السيادة ظلت بيد البريطانيين. وكما بيّنت فيما بعد أن هذا يعني أنهم سيكونون قادرين على إلغاء الدستور عندما يريدون، وستكون هناك قوات بريطانية كافية في البلاد لجعل مثل هذا الإلغاء ممكناً. كان الجدل عملية سهلة لا سيما وأن ديفيد مارشال كان غائباً في بورنيو في مهمة قانونية. وأعلم تونكو السيد ليم يوهوك أنه يرغب في أن يكون له ممثل في «مجلس للأمن الداخلي» ثلاثي الأعضاء، وأن لينوكس بويد بات الآن راغباً بقبول ذلك، وفقاً للتعريف الدقيق لما يستطيع المجلس أن يقوم به وما لا يستطيع.

بيد أن ليم يوهوك لم يكن موفقاً بإلزام نفسه باقتراعات مبكرة في شهر آب (أغسطس) عام 1957. إذ لا يمكن إلقاء الفرد ثانية في انتخابات عامة إلا بعد تحضيرات جيدة، لا سيما أن المراهنات ستكون شديدة. وافقت اللجنة التي تمثل جميع الأحزاب على أن تكون «الجمعية»، التي ستشكل بموجب الدستور الجديد،

متعددة اللغات. كما ينبغي أن يكون هناك قانون جديد للجنسية يمنح حق الاقتراع لعدد لا يقل عن مئتي أو ثلاث مئة ألف شخص معظمهم من الصينيين الذين أقاموا في سنغافورة ثماني سنوات على الأقل من السنوات العشرة الأخيرة. وعندما تحدثت في «الجمعية» في 5 أيار (مايو)، أوضحت موقف حزب العمل الشعبي: (PAP) يجب إقرار هذا القانون وأن يُعطى للمواطنين الجدد حق الاقتراع والترشيح قبل أن تجري الانتخابات العامة، ومع هذا فإن العملية ستستغرق سنة على الأقل، أو ربما أكثر من ذلك بثلاثة أشهر.

بعد تجربة مارشال بالذهاب إلى المفاوضات بوفد من 13 عضواً، خفض ليم يوهوك وفده إلى خمسة أفراد ـ اثنان من «جبهة العمل» وواحد من UMNO، وواحد من «الاشتراكيين الليبراليين»، وأنا ممثلاً حزبي (PAP). هذا المؤتمر كان مؤتمر التفاصيل العملية. فقدم الدستور المقترح «للجمعية التشريعية» المؤلفة من 51 عضواً منتخباً من بينهم رئيس الوزراء والوزراء الآخرين. ويحق "للجمعية" التشريع في الشؤون كافة باستثناء الشؤون الخارجية، والدفاع، ولكن في حال اضطراب الدفاع والأمن الداخلي يستلم السلطة «مجلس الأمن الداخلي». وهذا المجلس يتألف من ثلاث أعضاء بريطانيين، أحدهم رئيس المجلس، وثلاث أعضاء من سنغافورة، أحدهم رئيس الوزراء، وعضو واحد من اتحاد المالايو. وسيكون لسنغافورة رئيس يدعى يانغ دي ـ بيرتوان نيغارا، بدلاً من الحاكم البريطاني.

ترك ليم يوهوك مسودة الدستور المقترح لولتر رايبورن QC، ولكن كان عليّ أن أطلع على الوثائق للتأكد من أنه في حال تشكيل حزبنا للحكومة سنكون قادرين على العمل به. وكانت هناك مسألة واحدة مثيرة للنزاع، ففي الجلسة الخامسة عشر المكتملة قال لينوكس ـ بويد: إن حكومة جلالتها لا تسمح لسنغافورة أن تصبح تحت سيطرة الشيوعيين، وإنه شعر بصورة مؤكدة أن الوفد السنغافوري لا يريد أن تكون هناك مثل هذه السيطرة في جميع الأحوال. ولهذا فقد اقترح شرطاً غير قابل للتفاوض بوضع حظر على جميع الأشخاص المعروفين بأنهم

تورطوا أو اتهموا بنشاطات تخريبية يحول دون ترشيحهم بالانتخابات الأولى التي ستجري بموجب الدستور الجديد. اعترضت على هذا قائلاً: «إن هذا الشرط معيق لسببين أولاً لأنه يخالف الممارسة الديمقراطية، وثانياً لأنه لا توجد ضمانة تحول دون أن تلجأ الحكومة التي تملك السلطة لا إلى منع الشيوعيين فقط، بل ومنع الخصوم الديمقراطيين الذين يعارضون سياستها من حق المشاركة في الانتخابات».

كنت أتحدث كي يُسجل ذلك في محضر. والحق أن ليم يو هوك كان قد أثار معي هذه المسألة بهدوء مرة أخرى في سنغافورة بعد أن اجتمع بلينوكس ـ بويد في لندن في شهر كانون الأول (ديسمبر)، وبعد أن دعاني هذا الأخير إلى تناول الشاي معه منفرداً في منزله في «حي إيتون» لمناقشة المسألة. وبعد بعض المجاملات الاجتماعية سألني: ماذا سيحدث عندما يشارك رفاقي الذين كانوا في السجن، مثل ليم تشين سيونغ، في الانتخابات القادمة؟ قلت: إنه سينجح وسيخسر خصومه في منطقة «بوكيت تيماه» الانتخابية. فعبّر عن دهشته.

قال: «في بلادنا عندما نعتقل شخصاً بموجب المادة 18 و(التي تعادل في زمن الحرب إجراءات الطوارئ عندنا) يخسر الثقة في أية انتخابات. لقد كان أزولد موسلي ـ زعيم الحزب الفاشي البريطاني الموالي للنازية ـ عضواً في البرلمان. وبعدما اعتقل وأُدين. لم يكسب في أية انتخابات بعد ذلك».

نظرت إليه بأسى وقلت: «في بلادكم، مثل هؤلاء الناس يُعتبرون خونة ومتعاونين مع العدو. أما في سنغافورة فعندما تعتقلك حكومة ذات حاكم بريطاني. ورئيس للوزراء بريطاني بتهمة ما، فإنك تُعتبر شهيداً، أو بطلاً شعبياً. وشعبيتك ستزداد».

سألني: «هل توافق إذا أدخلت هذه المادة، وهي استبعاد أمثال هؤلاء من الانتخابات الأولى لإعطاء فرصة لأول حكومة منتخبة في ظل حكم ذاتي داخلي كامل الصورة وأكثر نظافة تبدأ بها؟».

أجبته: سأشجب ذلك. وستتحمل أنت المسؤولية.

قال: إن كتفيّ مُثقلان بما فيه الكفاية.

لقد كانتا كذلك جسدياً ومجازياً. أخبرته أنني سأحتج، ولكنني أكدت له أن هذا لا يعني بالضرورة نهاية الحديث. وقلت في نفسي: إن تقدمَ سنغافورة الدستوري لا يمكن أن يُبقي في الأسر ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سوان وجماعة «الطريق الوسط».

أتيح لي أن أتبع لينوكس ـ بويد طوال مدة شهر في المؤتمر الأول الذي انعقد عام 1956. كان رجلاً يترك انطباعاً مؤثراً في النفس. كان من الناحية البدنية عملاقاً يزيد طوله على ستة أقدام. ضخم الجثة. وتتجلى حيويته الفائقة من خلال صوته وتعبيرات وجهه وحركات جسمه كان أنيقاً يضع دوماً زهرة في عروة سترته. كان يتحدث بلهجة طالب مدرسة ثانوية عامة، ولكن بطريقته الرفيعة جداً كان ودياً واجتماعياً وشغوفاً في جعل الآخرين يشعرون بالراحة. كنت أحترم ذكاءه وصراحته. في ذلك الوقت كانت وزارة المستعمرات واقعة تحت ضغط شديد، إذ كانت مستعمرة إثر مستعمرة تطالب بالاستقلال. ومع هذا، خصص وقتاً لاستقبال الوفد السنغافوري يوم الأحد في تشيكرز، البيت الريفي لرئيس الوزراء، الذي وضعه تحت تصرفه. وكان قد اشترى كاميرة من نوع «بولارويد»، التي كانت حديثة جداً آنذاك، فقد كان يستمتع بالتقاط الصور وإعطائنا نسخاً عنها على الفور. وقد أعطاني صورة تجمعنا كلنا عند بوابة «تشيكرز» مع جون بروفومو، الذي كان وزيراً ثانوياً مثله.

لذا عندما قابلته في منزله في ذلك المساء كنت واثقاً أنني سأقول كل ما يجول في خاطري. وإذا وجدته حاداً في تعامله فإن جوابي سيكون متحفظاً، تحدثت إليه بصراحة وفهم مني أنني لن أنسف المؤتمر بسبب أي إجراء ضد موقف المعتقلين كمرشحين في الانتخابات. ما عرفناه بعد 38 سنة من الوثائق أن ليم يوهوك قد أخبر حاكم سنغافورة أنه «لا يستطيع لا هو ولا لي كوان يو أن

بعد غداء يوم أحد في تشيكرز مع آلان لينوكس بويد (يواجه الكاميرا) وزير الدولة لشؤون المستعمرات، عام 1957، إلى يمينه جون برفومو وزير الحرب، في مواجهة ليم يوهوك.

يأخذا ذلك على عاتقهما، أثناء مباحثات شهر آذار، ولكنه هو ولي كوان يو لن يعترضا إذا تخلى وزير الدولة عن هذا الشرط»، ونقل هذا إلى لندن. ولذا عندما أعلن لينوكس بويد هذا الشرط في جلسة 10 نيسان، لم يكن ذلك مفاجئاً لي أو لليم أو لأعضاء وفد الحزب جميعاً الذين كانوا قد اجتمع بهم على انفراد.

بعد خمسة أسابيع من المباحثات انتهى المؤتمر بصورة ناجحة ولكن ببيان معتدل هادئ. وعدنا إلى الوطن مجتمعين هذه المرة، وليس فرادى كما في المرة السابقة، وعندما طرنا إلى سنغافورة في الساعة الثالثة عصراً في يوم 14 نيسان، لم نكن مبتهجين ولكن جادين في التحفظ على النتائج المتواضعة التي حصلنا عليها. كان الجمهور الضئيل الذي استقبلنا في المطار هادئاً، وعلقت الصحافة على غياب صيحات «ميرديكا» (انتصار) علماً بأنه أمر طبيعي في مثل هذه المناسبات. خرج ليم يوهوك من الطائرة أولاً وتبعه باقي أعضاء الوفد، وكان آخرهم السيد لي كوان يو الذي خرج عابساً واتجه على الفور إلى مؤتمر خاص مع دكتور توه تشين تشيه. وفقاً لما ذكرته صحيفة «ستريتس تايمز».

عقد ليم مؤتمراً صحفياً، ثم غادر الوفد إلى «باونغ» في موكب ومعهم رئيس الوزراء. اصطفت الجماهير على طرفي الطريق، ولكنها كانت صامتة صمتاً غريباً. وانفجر ألفا نقابي، كانوا ينتظرون عند جسر «ميرديكا» فوق نهر كالانغ، بالصياح، والمفرقعات، أما «مجلس اتحاد نقابات سنغافورة» فقد استقبلوا رئيس الوزراء بصورة مؤطرة وبعلم صيني علامة للتهنئة. ولكن عندما وصلت السيارات إلى «ستي هول»، حيث كانت الحشود أكثر كثافة على طول الطريق، لم تكن هناك علامات ترحيب. وعندما صعدنا إلى المنصة المزينة، صاح بضع مئات من الطلبة «أومباه ميرديكا» لعدة دقائق. ولم تكن صيحات تأييد للوفد، بل لأولئك الذين ما يزالون معتقلين في سجن تشانغي.

ألقى رئيس الوزراء وبعض أعضاء الوفد خطبهم، كلٌّ بدوره وقد خلت من الحماسة. وعندما جاء دوري قررت أن أتحدث بالمالاوية. قلت: إننا لم نستطع الحصول إلا على «ثلاثة أرباع انتصار»، ولكن أولئك الذين يعتقدون أن بلداً

صغيراً مثل سنغافورة يمكن أن تحصل على الاستقلال الكامل من تلقاء أولئك الذين يعتقدون أن بلداً صغيراً مثل سنغافورة يمكن أن تحصل على الاستقلال الكامل من تلقاء نفسها لا بد أنهم مجانين، فالسبيل الوحيد إليه لا يتم إلا عبر الاندماج مع المالايو. كنت أتحدث عن الموالين للشيوعيين، الذين وصلوا بالباصات والشاحنات وتابعوا سيرهم إلى باونغ كي يحتلوا أماكنهم إلى يمين المنصة مباشرة، وبدأوا يطلقون شعارات إطلاق سراح ليم تشين سيونغ، وفونغ، وبقية المعتقلين من جماعة «الطريق الوسط». وكانوا يصرخون من وقت لآخر، ولكنهم سكتوا بإشارة من زعمائهم. كان هذا الاستعراض بمثابة تذكير بالقوة التي ما يزالون يحتفظون بها على الأرض على الرغم من خسارتهم لزعمائهم.

في غيابي قامت نقابات ليم تشين جو بممارسة الضغط على تشين تشي كي يأمرني باتخاذ موقف أصلب في لندن، والمطالبة بانتخابات مبكرة بحيث يتمكنون من الإحاطة بحكومة ليم يوهوك، وتحرير الفريق الأول من زعمائهم. وكان الحزب الشيوعي يعرف أن الصف الثاني ليس على مستوى المهمة، كما أنه كان عازفاً عن كشف كوادره الخبيرة السرية. ولم أكن أنوي إرغامهم على ذلك، وكذلك كان شأن تشين تشي. وعندما كنت في لندن تشابك ممثلو النقابات الموالون للشيوعيين مع اللجنة المركزية لحزبنا (PAP) بطريقة ماراثونية واستمرت المجابهة سبع ساعات، وانتهت في الساعة الثالثة صباحاً. كان لديهم ثلاث مطالب: رفض «مجلس الأمن الداخلي»، والاستقلال الفوري ـ والأهم من ذلك الانتخابات المبكرة التي كان ليم يوهوك مخططاً حين وعدَ بها في آب (أغسطس) عام 1957.

عارض ذلك تشين تشي وبانغ بون. لم يكن الشيوعيون راضين كثيراً. واجهت بعض الاعتراضات من أشخاص داخل حزبنا. واتُهمنا بأننا نريد أن نحرم الجناح اليساري في الحزب من أخذ فرصته. وكان الهجوم والاعتراضات من جانب مارشال الذي كان يريد انتخابات مبكرة لعله يستطيع أن يعود إلى السلطة. وأثناء

المباحثات في لندن كان يسعى إلى منازلة، معتقداً أن الطلاب الشباب الموالين للشيوعيين سيقفون إلى جانبه. كان منزعجاً من «ثلاثة أرباع استقلال»، لأنه «لا يحقق الكرامة الإنسانية والاستقلال». وشجب الدستور ووصفه بأنه مشوه.

عندما جاء دوري في الكلام رديت له الصاع صاعين، وذكرته بمواقف المهادنة من لينوكس ـ بويد ومحاباته. وأوضحت بأن حزبنا لن يستلم السلطة حتى لو كسب الانتخابات ما لم يُفرج عن الزعماء المسجونين أولاً. وبيّنت أن قاعدتنا من الناطقين بالصينية لن تثق بنا إذا استلمنا السلطة وفرّطنا برفاقنا القدامى. نحن نفهم القيم والقواعد الأخلاقية لشعبنا وينبغي أن نبدو أمامهم أننا نعمل بأمانة.

أصغى مارشال إلى كل كلمة قلتها محاولاً أن يجد ثغرة. واتهم حزبنا بالخداع في المحادثات حول الدستور. ثم صاح من منبره موجهاً كلامه إلي: «سيدي، أريد أن نعود إلى شعب سنغافورة. سأعود إلى دائرته الانتخابية إذا كان سيعود إلى دائرته الانتخابية، وسأتحداه هناك».

ابتعدت النقابات عن اجتماع باونغ لتظهر عدم رضائها، ولكنني لم أقلق. فقد كانت تلوح آفاق معركة جديدة مع الفريق الثاني هذه المرة، ولكنني شعرت أن من الأسهل التعامل معها. كان جاميت سينغ ينصح ليم تشين جو كيف يعمل بشكل شرعي ضمن النظام، ولكن بينما كان جاميت يمتلك صوتاً جهورياً وأسلوباً خطابياً ـ جماهيرياً قوياً إلا أنه لم يكن يمتلك حساً استراتيجياً. كانا يغازلان مارشال. كانا يعلمان أنهما يتطلعان بشدة إلى انتخابات مبكرة بحيث يستطيع العودة، وقد قررا أن يستخدماه لفرض حل «الجمعية». وأثناء التداول حول مؤتمر لندن كان يتطلع إلى مجابهة، وهو يعلم أنه يملك هذه المرة الطلاب الشباب والنقابات الموالية للشيوعيين. كان يزدري (ثلاثة أرباع استقلال) إذ لا نستطيع من خلاله أن نحقق «الاستقلال والكرامة الإنسانية"، وشجب الدستور واصفاً إياه بأنه «هذا الشيء المشوه أمامنا».

اختار بعد ذلك شعار مجابهة التخريب. «كان حزب العمل الشعبي تواقاً جداً إلى حرمان جناحه اليساري من الأفراد الذي كان يدعي أنه يصادقهم. قبّلنا ديفان نير على وجنتيه وانتظرنا لينوكس بويد أن يشنقه من الخلف!» واستطرد بحماقة يقول: إن خطر المخربين كان «تدبيراً وقائياً طبيعياً وذكياً وعقلانياً... لماذا ينبغي ألا نمنع شخصاً من الاشتراك في الانتخابات يقول ثلاثة من قادتنا: إنه رجل يسعى إلى تدمير أسلوب الحياة الديمقراطية الذي نسعى إلى إقامته؟» قال هذا من أجل أن يرضي أصدقاءه الجدد، ولكنه لم يدرك أبداً أنهم كانوا يريدونه أن يطالب بانتخابات مبكرة لأن هذا من شأنه على وجه الدقة أن يمنح رجال الصف الأول في السجن فرصته لكسب بعض المقاعد، سواء كمرشحين أو من خلال وثائق تفويض لأشخاص لم يحتجزوا.

وعندما انفض اجتماع «المجلس» في الساعة الرابعة بعد الظهر، دعوت على الفور إلى مؤتمر صحفي أعلنت فيه أنني سأرسل استقالتي في نهاية الجلسة الحالية «للجمعية»، وأنني أتوقع إجراء انتخابات فرعية في غضون خمس أسابيع. وكشفت أن الحزب، في اجتماع لجنته التنفيذية في اليوم السابق، قد قرر تحدي مارشال لأننا كنا نعرف الخط الذي يسير فيه. وإنها «لمسألة حاسمة أن يكون شعب سنغافورة مستعداً لقبول الدستور ويرفض لغة التهديد والتخريب، أم يفضل تلك اللغة ويرفض الدستور». الخيار الأول كان خيارنا، والخيار الثاني فهو خيار مارشال.

في اليوم التالي، 27 نيسان أعلنت: سيدي رئيس المجلس، في نهاية هذا الاقتراح، عندما تتخذ الأصوات، سوف أتقدم باستقالتي كممثل عن منطقة تانجونغ باجار. وسأنتظر الانتخابات الفرعية في هذه المنطقة كي أكون مرشح حزبنا (PAP)

وفي أقل من 48 ساعة، أي بعد الجلسة الصباحية للجمعية، أعلن مارشال بوجه مكفهر أنه سيهجر السياسة «بصورة دائمة». وقال للصحفيين: إنه لن يشترك في الانتخابات الفرعية لأنه يخشى «أن يحدث إضراب إذا ما جرى

والدي يجذب المصوتين إلى الاقتراع في الانتخابات الفرعية في تانجونغ عام 1957، في سيارته «موريس ماينور»، السيارة التي قدتها لمقابلة «بلين».

صراع حول الدستور في ظل الإدارة الاستعمارية.لا أريد أن أتحمل نتائج هذه اللعبة غير الشريفة. هناك الآن إجماع على أن يختار شعب سنغافورة الدستور باطمئنان إذا كان يريده... سوف أستقيل بعد الجلسة الحالية».

أجبته بسرعة «طالما أن الحزب يريد ذلك فإن الموقف من الانتخابات الفرعية لن يتغير. سأستقيل في نهاية هذا النقاش الدائر حول دستور جديد».

أخذ ليم تشين جو والنقابات في التراجع وقد نشر أحدهم بياناً موجهاً إلى مارشال جاء فيه: هجماتك المستمرة على الحزب (PAP) قد سببت انزعاجاً شديداً للسيد لي كوان يو، ولمسؤولين ومؤيدين للحزب". وطلب الاتحاد من مارشال أن يمتنع عن مهاجمتي في دائرة تانجونغ باجار، وأن يحارب الزعيم الاشتراكي الليبرالي سي-سي تان في منطقة كيرنهيل. بدلاً من ذلك. لم يكن أمام ليم تشين جو خيارات. فالشيوعيون لم يكونوا راغبين في أن يستقيل مارشال، كما أنهم لم يكونوا يريدون أن يهاجم أحدنا الآخر أو أن يطيح به. وإنما كانوا يريدوننا كلينا في «الجمعية»، على أن يستمر مارشال في مناكفتي وإجباري على اتخاذ موقف يناسب قضيتهم. فمع غياب مارشال عن المسرح لن يكون لديهم من يناكفني، ولكن مع وجودي خارج المسرح فسيصبحون مضطرين للتعامل مع مارشال غير المستقر أو المتزن. ولقد تأكد له في الساعات الثماني والأربعين ما بين تحديه واستقالته، لم يحظ خلال ذلك الوقت بأي تأييد. وكان يعرف أنه إذا لم يهاجمني، فقد يتعرض للإهانة وهذا يعني تعرضه لهزيمة شنعاء. وقد قرر الانسحاب كلياً.

أُعلنت أسماء المرشحين للانتخابات الفرعية في 18 أيار (مايو) 1957. كان هناك مرشحان ضدي، أحدهما اشتراكي ليبرالي ومستقل. وكان غير الشيوعيين في اللجنة التنفيذية المركزية لحزبنا مصممين على جعل هذه الانتخابات بمثابة امتحان لقوتنا. كنا نريد أن نعرف مدى التأييد الشعبي المتوفر لنا في «تانجونغ باجار» بدون تأييد الشيوعيين أو حتى الوقوف ضدهم. وعندما حاول طلاب

المدارس المتوسطة الصينيين أن يناصروني منعهم بانغ بون من ذلك. أما نقابات ليم تشين جو فقد قررت استغلال الموقف بحثٍّ أعضائها على التصويت لي، ولكن تشين تشي أوضح أننا لا نحتاجهم. إذا كانوا يريدون تأييدي فهذا شأنهم. كنا نريد أن نناضل ونكسب بقوتنا. وفي 29 حزيران (يونيو) حققنا هذا النجاح بكسب نسبة 67.5% من الأصوات. ولقد دافعنا عن سياستنا، وحصلنا على تأييد قوي لها. قلت: «لقد حصلنا على نسبة عالية من الأصوات في عام 1955 لأن لدينا كل شيء، لكل الناس، والآن يعرف جميع الرجال والنساء على وجه الدقة ما نسعى إلى تحقيقه وقد صوتت لنا أغلبية حاسمة».

ما كان نذير سوء بالنسبة إلى ليم يوهوك هو نتيجة الانتخابات الفرعية في كيرنهيل أي في التنافس على مقعد مارشال الشاغر. إذ لم يخسر مرشح «جبهة العمل» تجاه الاشتراكيين الليبراليين فحسب، بل حصل على أصوات أقل من المرشح الثالث، وهو عضو سابق في «جبهة العمل» الذي رشح نفسه كمستقل. لم يكن هذا بالفأل الحسن لرئيس الوزراء

16. كشف الشيوعيين

بعد أن انتصر «حزب العمل الشعبي» (PAP) في انتخابات تانجونغ باجار الفرعية، قررت أنا وتشين تشي وبانغ بون أن نعزز المراقبة الدستورية للحزب بحيث لا يستطيع الجناح اليساري الإمساك بزمامه أو أن يستخدمنا. ولكن ليم تشين جو قرر، بدلاً من القبول بالتراجع والعمل ضمن الظرف المتغير حتى تصبح الظروف أكثر ملائمة له، أن يراهن بوضع يده على الحزب بنفسه. وكان أحد أمناء السر الفرعيين قد أخبر بانغ بون أن الموالين للشيوعيين كانوا يخططون لوضع يدهم على ثماني مقاعد من أصل 12 مقعداً تشكل اللجنة التنفيذية المركزية.

تلك كانت مغامرة أو ما يسميه الماركسيون ـ اللينيون «الطفولية اليسارية» فالموالون للشيوعيين كانوا يريدون استعراض حلمهم الثوري، غير متيقنين من أنهم يحتاجون المكانة المحترمة التي يحظى بها حزبنا أكثر مما نحتاج نحن إلى تأييد جماهيرهم. لقد رسخ في عقول الناس أن حزبنا (حزب العمل الشعبي) قد أُسس كحزب عمالي راديكالي متماسك. وإذا لم نخطئ في التصرف فسنحظى دوماً بتعاطفهم وتأييدهم الطيب من أجل الصالح الذي حققناه حتى الآن. ولا بد من أن نفقد السيطرة على الحزب ونبدأ العمل من البداية، كنا نفضل ابتعاد الموالين للشيوعيين عنا، وتشكيل حزب آخر مستخدمين ديفيد مارشال كغطاء. كان اعتزال مارشال للسياسة قصيراً، فقد كان يستعد لتشكيل حزب جديد، باسم حزب العمال. ولكن لم يكن لديه المهارات السياسية للحفاظ على التوازن ما بين الأساليب المتماسكة والأساليب غير المتماسكة، وسرعان ما سيجعل حزبه الجديد يخفق.

ناقشت هذا مع كينغ سوي، وراجا تشين وبانغ بون وقررنا أن نُسرب إلى صحيفة «ستريتس تايمز» خبراً مفاده أننا ننوي في المؤتمر القادم في آب أن نتخذ سلسلة من القرارات التي ستعيد تنظيم الحزب بصورة فعالة، ونجعله يعبر

بوضوح عن «ملايو مستقلة، ديمقراطية، اشتراكية غير شيوعية». ومن أجل تنفيذ هذه السياسة، سوف نكون كتلة من ثماني مرشحين، تاركين أربع مقاعد فقط للتصويت المفتوح. وكان هذا إنذارنا النهائي ـ فنحن مستعدون لمحاربة أنصار الشيوعيين وجعلهم يفارقون الحزب. وقامت الصحيفة بنشر القصة. ولكن أنصار الشيوعيين كان لديهم الرغبة الشديدة بالتمسك بالحزب لأنهم يعرفون أن مارشال لم يكن البديل الذي يُعتمد عليه. قد يكون مفيداً لأعمال متفرقة جانبية أي لجعل الحزب يسير في سكتهم، ولكنه لن يكون قادراً على الثبات على المدى الطويل. وكان من الأسهل بالنسبة لهم أن يركزوا هجومهم على اللجنة التنفيذية المركزية.

ولكن الأمور لم تسر كما نشتهي. ويبدو أننا كنا ما نزال نفتقر إلى الحنكة في إدارة اللعبة السياسية. فكثير من الأعضاء كانوا أوفياء لنقاباتهم أكثر من الوفاء للحزب. واستطاعت هذه النقابات والاتحادات أن تتضامن وتحقق نتيجة مهمة. ففي مؤتمر الحزب الذي انعقد في يوم الأحد 4 آب (أغسطس) زاد عدد مؤيديهم على عدد مؤيدينا، وانتهى التصويت إلى مناصفة الأصوات، حيث حصل أنصار الشيوعيين على ست مقاعد وحصل غير الشيوعيين على ست مقاعد.

كنا أمام معضلة. فالسيطرة على الحزب ستضعنا أمام ورطة، لأننا لا نملك من الأصوات ما يجعلنا ننفذ سياستنا. وعدم سيطرتنا على الحزب يعني فقدان سيطرتنا على الشيوعيين، وإعادة تنظيم الحزب في غير صالحنا. وقدرت أن ليم يوهوك من غير المحتمل أن يُبقي هؤلاء في موقع قوة طويلاً، وبالتأكيد ليس قبل الانتخابات العامة القادمة، ولكن هذا سيعطي CUF الوقت لإعادة بناء قوته داخل النقابات والحزب. وبعد المداولة أصدرت بياناً موقعاً من الأعضاء الستة غير الشيوعيين، أي منا: «بسبب عدم انتخاب ثلاثِ أعضاء من الأعضاء الثمانية المستقلين (وكان أحدهم غير شيوعي) نحن لا نعتبر أن لنا الحق الأخلاقي في الاستيلاء على منصب الرئيس، والأمين العام والمسؤول المالي ونوابهم».

كان الموالون للشيوعيين في حيرة من أمرهم. فهم لم يفكروا في تكتيكاتهم جيداً. فقد توقعوا منا أن نستمر في مجابهتهم في اللجنة التنفيذية المركزية، ولا سيما إذا ما نحّونا جانباً، وأمسكوا بالمناصب الرئيسة مثل الرئيس ووزير المال. ولكنا قررنا أن نحملهم المسؤولية بحيث إنهم إذا اتخذوا أي إجراء يناسب الشيوعيين فسيكون على حسابهم تماماً. كنت متأكداً أن ليم يوهوك لن يسمح لهم أبداً أن يصبحوا تهديداً له، بل سيتحرك ضدهم حتى لو اتخذوا من مارشال غطاء لهم: لذا كنا سعداء لو وضعوا أيديهم على المناصب العليا. ولكنهم لم يفعلوا. ساومونا على أن يستمر تشين تشي رئيساً وأن أستمر أنا أميناً عاماً، وأكدوا لنا أنهم يعرضون علينا أن يكون لنا عضوان في اللجنة، ويكون لهم عضو واحد، مما يعطينا أكثرية تكتيكية. وعندما رفضنا انتابهم الغضب، لأنهم يعرفون مدى هشاشتهم بدون أن نكون نحن في الطليعة. وبعد بعض التردد شغلوا المكاتب الأساسية وعينوا تان تشونغ كين رئيساً، وت.ت راجا، وهو محام يساري، أميناً عاماً. أعطيتهم ما بين ست أشهر وسنة حتى يقعوا في مشكلة. ولكنني كنت على خطأ.

كان لدى ليم تشين جو خططاً أخرى بعيدة المدى. كان جاميت سينغ ولجنته العاملة قد افتتحا المناقشات مع مجلس غرفة سنغافورة التجارية (STUS) للتفاوض حول اندماج مع SGOU وفروعه في «ميدل رود». وهذا من شأنه أن يؤدي إلى أن يسيطر الموالون للشيوعيين على القاعدة الجماهيرية التابعة إلى ليم يوهوك في الحركة النقابية.

كنا نأمل من وراء ذلك إلى إرباكهم وإظهار ضعفهم. ولكن الخطة لم تنجح تماماً. إذ كان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت. ولكن لم تلبث الأمور أن تغيرت. ففي ليلة 22 آب اعتقل «الفرع الخاص» 35 شخصاً ـ ليم تشين جو و12 نقابياً آخر، وأربع صحفيين و18 عضواً في حزبنا (PAP) بمن في ذلك جميع الموالين للشيوعيين في اللجنة التنفيذية المركزية، ما عدا ت.ت. راجاه. كانوا في

مناصبهم منذ عشرة أيام فقط. شعر راجاه بالخوف والمرض والاضطراب فقدم استقالته بسرعة في 3 أيلول. ولم يكن زعماء الصف الثاني في الحزب CUF يفتقرون إلى الطموح. فقد أرادوا ما لا يقل عن جبهة متحدة تتألف من حزبنا، و«الجبهة العمالية»، ومشروع حزب العمال الذي يُحضر له مارشال، بالإضافة إلى اندماج يعطيهم هيمنة كاملة على النقابات. وبدلاً من ذلك تلقوا درساً بسبب حماقة حب المغامرة لدى اليساريين.

وكان ليم يوهوك وضعنا، بتحركه السريع، بعد أن سيطر الشيوعيون على الحزب، في الوحل. فقد ظهرنا بمظهر من خان أنصار الشيوعيين، بإبعاد أنفسنا عن تصرفاتهم وتركهم مكشوفين على نحو مريع. وفي 23 آب أصدرت الحكومة كتاباً أبيض يتضمن فصلاً عن «تغلغل الشيوعيين في حزبنا». ومن أجل أن نُبرئ أنفسنا من لحظة هذه الاعتقالات، اقترحت على «الجمعية» في 12 أيلول (سبتمبر) أن تعلن عدم علاقتها بهذه الترهات. وأشرت إلى أن المشكلة تكمن في رئيس الوزراء بالدرجة الأولى، لأن قاعدته الشعبية باتت في قبضة ليم تشين جو. وهو لم يتصرف على هذه المشكلة ليقدم خدمة لحزبنا (حزب العمل الشعبي)، بل لينقذ موقفه في الوقت المناسب كي يسبب لنا أقصى إحراج سياسي.

إذا كان الشيوعيون قد تلقوا درساً بسبب الحماقة، فإن حزبنا قد فعل مثلهم. ارتكب حماقة تبني دستور ديمقراطي جعله عرضة للخضوع إلى السيطرة من خلال تسلسل فروعه. ناقشنا عدة تغييرات محتملة كي لا يتكرر ذلك ثانية. ولكن حتى مع قيامي مع بانغ بون بالشروع بتطهير الفروع، كنا مشغولين بالتحضير لانتخابات مجلس المدينة المقررة في شهر كانون الأول. بعد عمليتي التطهير اللتين قام بهما ليم يوهوك في عامي 1956 و1957، فإن هذه الانتخابات ستكون الامتحان الأول للرأي العام.وقد ازدادت الهيئة الانتخابية بمقدار 10 مرات منذ عام 1951 لتصل إلى خمسمائة ألف بعد أن أُقرّ قانون المواطنة في تشرين الأول عام 1957 كي يمكن أولئك الذين أقاموا في سنغافورة لمدة 8 سنوات، بدلاً من العشر سنوات التي كانت مقررة، أن يُسجلوا كمواطنين حتى ولو لم يولدوا هناك.

كان اهتمامي الأساسي أن أتجنب الاصطدام مع ليم يوهوك وجبهته العمالية، لأن هذا من شأنه أن يزيد من كراهية الناطقين بالصينية تجاهه، ويُضعف موقفه السياسي ويجعله يتخذ مواقفَ تُضعف حزبنا. وبالعمل صمتاً من خلال زعيم «منظمة الملايو الوطنية المتحدة» (UMNO)، حامد جُمعات الذي كان الرجل الثاني فعلياً في الحكومة، تفاوضت حول تفاهم انتخابي بحيث لا يختلف أو يتعارض كل من حزبنا و «المنظمة» المذكورة و«الجبهة العمالية»، بل يتشاركون المقاعد الاثنين والثلاثين في المجلس ـ 14 عضواً لحزبنا، وعضوان للمنظمة، و16 عضواً «للجبهة العمالية». وقد تعاهدنا على ألا يهاجم أحدنا الآخر، بل أن نوجه هجومنا نحو الاشتراكيين «الليبراليين»، ونلقي على أسلافهم أوجه القصور السابقة «لمجلس المدينة القديم»، وهم «التقدميون»، الذين كانوا مسؤولين عن ذلك المجلس منذ بداية الخمسينيات، عندما جرت الانتخابات لأول مرة وقرابة نهاية الحملة، حوّلنا انتقاداتنا إزاء سوء الإدارة البلدية إلى هجوم سياسي واسع، وأظهرنا الصراع بأنه مجابهة ما بين عمال حزبنا في مواجهة الرأسماليين (الاشتراكيين الليبراليين).

كان يوم الاقتراع هو يوم الثاني والعشرين من كانون الأول 1957. في تلك الليلة كنت أقف في حقل أمام «قاعة فكتوريا التذكارية» حيث كان يجري إحصاء الأصوات. كان ثمة جمهور غفير من الشباب الصينيين اليافعين من طلاب المدارس والعمال جالسين فوق العشب، وخلفهم صف من رجال الشرطة. وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً رأيت رجلاً طويلاً يندفع عبر الحشود إلى القاعة. كان بيل غود الحاكم. كان رجلاً شجاعاً. وكان في منصب الأمين العام الأول عندما جرت موجة الاعتقالات الأولى في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وفي منصب الحاكم عندما جرت عملية التطهير الثانية لأنصار الشيوعيين. لم يُظهر أي خوف. وقد ازداد إعجابي به.

كانت نتائج الانتخابات كارثية بالنسبة إلى ليم يوهوك. إذ لم تحصل «جبهة العمل» على أربعٍ مقاعد من أصل المقاعد الستة عشر التي كانوا يطمحون إليها. وحصل حزبنا على 13 مقعداً من أصل 14 مقعداً، وحصلت منظمة (UMNO) على مقعدين، وحزب العمال على أربع مقاعد من أصل خمسة، وقد ذهب مقعدان إلى المستقلين. حصل حزبنا على أكبر عدد من المقاعد، مما يعادل 30% من مجموع الأصوات، وأعلى رقم من الناخبين للمرشح الواحد.

كانت المنافسة الأكثر أهمية في جالان بيسار حيث كان مرشح الحزب تشان تشي سينغ، وهو غير شيوعي ناطق بالصينية، يحمل حزام «الجيدو» الأسود، قوي البنيان، غير مثقف، ولكنه وفيٌّ ونشيط ويجيد العمل في الحملات. طرح الموالون للشيوعيين ضده مرشحاً يعمل تحت غطاء حزب العمال الجديد التابع لمارشال (الذي تسللوا إليه في حينه كما توقعت) كي يثبتوا أنهم يستطيعون أن يهزمونا إذا أرادوا ذلك. وبالرغم أنهم خسروا بهامش واضح حاصلين على 1600 صوت مقابل 2400 صوت لنا، فإن هزيمتهم لم تكن حاسمة، كانت قوتهم المستترة جلية، لم يهاجمونا علانية لكوننا ليّنين في علاقتنا مع ليم يوهوك والاستعماريين البريطانيين، أو لفشلنا في النضال من أجل رفاقنا الحزبيين المحتجزين، ولكنهم كانوا يلوحون بذلك في كلامهم. كانوا قادرين على حشد أصوات كثيرة عن طريق طوافهم من منزل إلى آخر.

في ذروة هذه النتائج قررنا أن نراهن على منصب رئاسة «مجلس المدينة» بالتحالف مع عضوي منظمة (UMNO) وهذا قد أعطانا 15 مقعداً من أصل 32 مقعداً، وكنا على ثقة أن الباقين لن يكونوا قادرين على التحالف ضدنا. وظن ليم يوهوك بأننا قد نجامله بضم مستشاريه الأربعة إلى التحالف، ولكن هذا يمكن أن يكون عبئاً سياسياً ثقيلاً بالنسبة لنا. كما أن التحالف مع شخص مثله يمكن أن يثير الشكوك حول وجود تواطؤ بينه وبيني عندما قام باعتقال أعضاء اللجنة التنفيذية الموالين للشيوعيين في حزبنا.

ولكن الخطر على حزبنا قد ازداد. فقبل هذا الامتحان الانتخابي كان ليم يوهوك يعلق الآمال على أن حملته القاسية ضد الشيوعيين قد أكسبته على الأقل تأييد نصف السكان ـ من مالاويين. وهنود، وصينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية وبعض المعادين للشيوعية من السكان الصينيين.

لم تكن إدارة أونغ لمجلس المدينة إدارة حكيمة. إذا أتسمت بالصلف مما جعل معظم موظفيه يستاؤون منه. كانت إدارته بيروقراطية، وكان يعطي الأوامر عن طريق صيغة له في مدينة باتوباهات، لا يقبل أية مناقشة.ومن حسن حظه أنه لم يكمل مدة خدمته التي تستمر ثلاث سنوات، وبذا نجا من المحاسبة على الأضرار التي ألحقها بالنظام. وإذا كان قد أجرى بعض الأعمال الجيدة من أعمال البلديات كإنارة الشوارع وجلب الكهرباء، إلى مناطق نائية وتخفيض أسعار استهلاك الكهرباء.

كما أن وجوده في هذا المنصب أدخل السرور على قلوب الناطقين بالصينية.فطوال حياتهم كانوا مبعدين عن السلطة. والآن لديهم من يتحدث لغة الهوكين، لغتهم، ويحيي آمالهم. ولكن أونغ خلق من الصعاب والمشاكل ما يحتاج إلى سنوات لإصلاحه. كان يتيه إعجاباً بنفسه ويتمسك بالسلطة ويحاول استرضاء الجمهور ليحتل عناوين الصحف.

كنت أعلم أنه سيلحق أضراراً بالبلاد وبحزبنا، ولكنني ارتأيت أن أدعه يركب الموجة في الوقت الحاضر ثم أسوي الأمور بعد الانتخابات العامة، لقد أفقدنا من شعبية الناطقين بالإنكليزية أكثر بكثير من أكسبنا من الشعبية لدى الناطقين بالصينية.

لم يكن ذلك قلقي الوحيد. كان مرشحنا لمنصب محافظ هو أونغ اينغ جيوان الذي كان ظهوره كجامع للأصوات من أجل حزبنا تطوراً مهماً أثناء الحملة الانتخابية. كان أونغ، كشأن ليم تشين سيونغ، من الهوكين ويتحدث اللغة الدارجة كمواطن. صحيح أنه لم يكن يملك جدية ليم وسلوكه الصادق، ولكن كان لديه

صوت جهوري، وكان وجهه لا يدل على قوة. ولكن من خلال الخطب التي ألقاها طوال تلك الأسابيع الخمسة، أصبح عنصراً جيداً بالنسبة إلى ليم تشين سيونغ. ومن دواعي دهشتي أنه أخذ يبدي أمارات جنون العظمة. فالهتافات المدوية التي كانت تصفق لخطبه بلغة الهوكين في الحملات الانتخابية جعلته يحس بالفخر. وأضاف حصوله على منصب محافظ من أوهام القوة لديه. ففي الطريق إلى الاجتماع الافتتاحي لـ «مجلس المدينة» الجديد في 23 كانون الأول اصطدم مع جمهور من مؤيدي حزبنا الشبان الذين كانوا قد أطلقوا أسهماً نارية خارج «قاعة المدينة». تعرض ضابط صيني للشباب ولكن أونغ الذي كان واقفاً هناك تدخل في الأمر. في تلك المعمعة اعتقل هو واثنان من المستشارين في حزبنا، وسيقوا إلى مخفر الشرطة المركزي ومن ثم أفرج عنهم بعد أن أُخذت أقوالهم. فكان لا بد من تأجيل الاجتماع إلى الغد.

في اليوم التالي ظهر أونغ كشخصية جماهيرية. سمح لمئات من الآلاف الذين تجمعوا خارج «سيتي هول» أن يتجمعوا في البناء وحتى في قاعة المجمع نفسها، بما في ذلك الطلاب والشبيبة الذين كان كثيرون منهم حفاة أو عراة الصدر من الأولاد الفقراء الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والثامنة من العمر. وسرعان ما وقفت الحشود على طاولات بيع الصحف. بل إنها اندفعت إلى مكاتب المستشارين الجالسين خلف مكاتبهم. لقد أتوا كي يصيحوا ويهتفوا ويكونوا جزءاً من الإثارة رغم أنهم لم يكونوا يفهمون أي شيء مما يجري.

وهذا ما جعل محافظ المدينة البارز ج.ت.ريا، وهو ضابط بريطاني محترف، يحتاج إلى 15 دقيقة كي يشق طريقه إلى القاعة عبر باب خلفي بحيث يستطيع أن يفتتح الاجتماع. كان موظفو المجلس في حالة صدمة.

بات المستشارون الجدد الآن يستطيعون ممارسة الامتياز المكتسب حديثاً، وهو التحدث بلغة الماندرين أو الملايو أو التاميل، وعندما قام عضو اشتراكي ليبرالي بإلقاء خطبته الأولى بالإنكليزية، استاء الجمهور، رغم أنه كان يهنئ «أونغ»

بانتخابه رئيس بلدية. استاء أونغ مما لقيه من تزلف. وأعلن أنه لن يرتدي لباس المحافظ أو يقيم في قصره. إنه لم يكن يؤمن بزخارف المنصب هذه. بل سيعيش ويلبس مثل أي مواطن عادي. لم يكن يرتاد حفلات الكوكتيل. كما لم يكن يدخن أو يشرب الخمر أو يذهب إلى السباق.

سمح لكل مستشار من المستشارين الواحد والثلاثين أن يتحدث لمدة دقيقتين، ثم يصوت من غير إشعار سابق على سلطة رئيس البلدية. وأمر أونغ أن تكون "من صلاحيات مجلس مدينة سنغافورة". ثم شق طريقه عبر المتفرجين إلى الشرفة، حيث رُكِّبت مكبرات الصوت بناء على طلبه، وتوجه بالحديث إلى الجمهور في الخارج بلغة الماندرين لمدة عشر دقائق. ومن ثم أنهى حديثه بثلاث صيحات «ميرديكا»! فهتفت الجماهير ورددت بانسجام. وفي اليوم التالي كان العنوان الرئيسي لصحيفة «ستريتس تايمز» في عيد ميلادها «ليحمِ الله سنغافورة».

كتب «غود» مستاء إلى لينوكس بويد في تقريره بتاريخ 27 كانون الأول (ديسمبر): «الكرامة المعتادة للأحداث قد تلاشت». وكان موظفو مجلس المدينة من البيض والآسيويين فزعين. والمغتربون كانوا خائفين على مستقبلهم. ولكن، كما أضاف، لم يكن ثمة انتقاد لعمل الشرطة كما لا توجد ضغينة من جانب الشرطة تجاه حزب العمل الشعبي (PAP) ولي كوان يو بعيداً يتمتع بعطلة عيد الميلاد!. الحق أنني كنت في الخارج. في الليلة التي جرت فيها الاقتراعات كان حلقي جافاً للغاية من جراء تدخين السجائر أثناء الحملة الانتخابية بحيث لم أعد قادراً على شكر الجمهور لتأييدهم. وفي صباح اليوم التالي حملت أسرتي في سيارتي الستوبيكر وتوجهت نحو هضبة فراسير لقضاء إجازة مدتها عشرة أيام.

في الأشهر الستة عشرة التالية ترأس أونغ مجلس المدينة بوصفه محافظاً، يخرج مشهداً بعد آخر، فسلوكه المتعجرف أحبط موظفيه وأخاف الكتبة والموظفين الناطقين بالإنكليزية. كان يلهو كما يروق له، ويعطي الأوامر عبر صديق من بلده باتوفاهات الذي جعله يقوم بكل الأعمال التي يطلبها منه ويطلبها

بدون أي سؤال. وكان من حسن طالعه أنه لم يستمر فترة السنوات الثلاثة، وهكذا لم يُستدع للمحاسبة على ما ألحقه من ضرر بالنظام. إذ كان من المقرر أن تجري انتخابات عامة في أيار من عام 1959، أي في نهاية فترة حكومة ليم يوهوك، لذا لم يتسن فضح ضعفه. وأكثر من ذلك أنه كان قادراً على تنفيذ برامج شعبية غير مكلفة ولا سيما في مناطق سنغافورة المحرومة. لقد أمر بإنارة الشوارع وتركيب المواسير، وجلب مصارف المياه والطاقة الكهربائية إلى القرى، وخفض كلفة الكهرباء من 20 إلى 12 سنتاً للوحدة في المناطق الفقيرة. وأوجد «مكتب استعلامات المدينة» لكي يعمم هذه الانجازات، كما فتح مكتباً للشكاوى العامة، وعقد جلسات «لقاء مع الجماهير».

كان الناطقون بالإنكليزية خائفين ولكن غرائب أونغ أدخلت السرور على قلوب الناطقين بالصينية. فطوال حياتهم كانوا مبعدين عن السلطة، أما الآن أصبح لديهم هوكين يتحدث لغتهم ويوجد منفساً لخيبات أملهم. ولكن أونغ خلق مشكلات تفسد الأمور لسنوات. فقد سمح على سبيل المثال للباعة المتجولين أن يجوبوا في كثير من الشوارع الرئيسية في المدينة، ولا سيما في «تشاينا تاون»، حيث كانوا يبقون في الأطراف، كما ويسمح لهم بالتجول بعد ساعات الدوام الرسمي فقط. كان أشبه برجل تحتوذ عليه السلطة والتحلق. كان يريد اسمه أن يحتل عناوين الأخبار في الصحف كل يوم. استمر في إثارة التوقعات ذات الطابع الدرامي، وكأنه لن يأتي غد ينبغي أن تسدد فيه الفواتير. كنت أعرف أنه يلحق ضرراً فادحاً بالبلاد وبحزبنا، ولكنني رأيت أن من الأفضل أن أدعه يركب الموجة في الوقت الحاضر وأن أوضح الأشياء بعد الانتخابات العامة.

فالشعبية التي خسرها في أوساط الناطقين بالإنكليزية عوضها بأرباح في أوساط الناطقين بالصينية.

17. موعد مع المفوض

أذكر عام 1958 بوصفه العام الذي همد فيه الضغط الكثيف الذي صعّده الشيوعيون منذ عام 1954. كانت الأمور هادئة نسبياً، ولم تكن الإضرابات والمظاهرات والمسيرات تحدث إلا القليل من الإثارة. وكان لدي وقت للتفكير والتأمل ملياً والتخطيط للتحركات المهمة التالية قبل أن تأتي الانتخابات العامة التي كانت مقررة في أواخر أيار (مايو) عام 1959 وكان السؤال الأول ما إذا كان من الأفضل لنا أن نربح الانتخابات ونشكل الحكومة أم أن نبقى في صفوف المعارضة، ولكن بعدد أكبر من المقاعد، وأن ننتظر دورة أخرى كي نعزز مكانتنا لدى الجمهور.

وبعد التجربة في تانجونغ باجار وجالان بيسار، بت واثقاً، أنه إذا عارضنا الشيوعيون في الانتخابات، لن يكونوا قادرين على دحرنا إلا إذا تمكنوا من إعادة بناء تنظيمهم إلى ما كان عليه عام 1956. ومن أجل أن يفعلوا ذلك كان عليهم أن يبدأوا أحزاباً جديدة، من جبهات جديدة، ثم يبنون جسور الثقة مع الجماهير. وكل هذا سيستغرق وقتاً. فكوادرهم ومؤيدوهم الغوريون ـ وهم بضعة آلاف ـ يستطيعون القيام بأعمال المناورة المعتادة لـ «الجبهة الشيوعية المتحدة». (CUF)، ولكن ليس من الجمهور برمته.

وسواء شكلنا نحن الحكومة القادمة أم لا، علينا أن نبقى في قيادة «حزب العمل الشعبي» (PAP) وأن نحول دون تسرب أفراده أو وضع اليد عليه ثانية. كيف كان بوسعنا أن نستغل هذه الفترة من الهدوء، في الوقت الذي يطأطئ الشيوعيون رؤوسهم، لتحقيق ذلك؟ ما زال بوسعهم استعادة الفروع، ولكن ينبغي أن نمنعهم بأية وسيلة من أن يسيطروا على الحزب ككل. في بلد نصف متعلم ومتعدد اللغات يعتبر شعار المرشح أمراً حاسماً أشبه بشعار المُنتج، ودائرة حزبنا

الزرقاء بالعلامات الحمراء اللامعة التي تخترقها قد اكتسبت شهرة. تلك كانت مشكلة آنية. ولكن إذا افترضنا أن المشكلة ستصبح أكثر حدة، لأنه ينبغي علينا التخلص من ليم تشين سيونغ، وفونغ وأعوانهما. كيف نستطيع عندئذ أن نوقفهم ـ فمكانتهم قد تزعزعت من خلال اعتقالهم ـ عن قلب وتهديد حكومة يشكلها حزبنا؟ كنت مقتنعاً بأننا لن ننجو إلا إذا كسبنا أرضية صلبة أولاً، بحيث لا يعود من الممكن مهاجمتنا أو إزاحتنا كما حدث مع «الجبهة العمالية». كان الجواب واضحاً. يجب أن نضم ليم تشين سيونغ إلى صفوفنا قبل أن نستلم السلطة.

كان ثمة مشاغل عديدة تشغلني. فقد بات ليم يوهوك الآن يعرف أن موقفه إزاء المُنتخبين قد تضرر كثيراً، وأنه هو تشيو و سوي كي سيجدان من الصعوبة بمكان أن ينجوا من الهجوم الشيوعي بسبب أعمال التطهير التي قام بها. كما أنهما استمرا في ارتكاب أخطاء جسيمة عدة. حاولت أن أبدد مخاوف ليم يوهوك بنهاية سياسية مفاجئة، وأكدت له أنني لن أضغط عليه من أجل الانتخابات المبكرة التي كان قد وعد بها بحماقة، وأن يترك للوقت أن يغير حظوظه السياسية. وأوجدت له عدة ذرائع من أجل تأجيل الاقتراع. وأقنعته أنه لن يكون من الحكمة أن يظل التصويت طوعياً اختيارياً، لأن الشيوعيين كانوا أكثر تنظيماً وأكثر قدرة على تحريك أنصارهم، وستجد الأحزاب الغنية نفسها أن كل ما ستفعله هو توفير المواصلات لمؤيديها من ذوي الاتجاه اليساري. كان الوقت بحاجة إلى وضع تفاصيل عملية ووضع تشريعات تقبلُ هذه الأفكار بامتنان لأنها أطالت من عمر حكومته.

لم أقل له إنني أيضاً بحاجة إلى وقت لتطهير حزبنا (PAP) وإعادة تنظيمه، ولاختيار كوادر شابة فاعلة من ذوي الثقافة الصينية يترشحون ميدانياً، ولكنهم غير ملتزمين بالشيوعية أو الماركسية. فنحن نحتاج إلى قائمة مرشحين متعددة الأعراق. وفي حين أننا نستطيع أن نجد صينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية، وماليزيين وهنوداً ممن يمكن الاعتماد عليهم كلياً وغير شيوعيين، يصعب أن نحدد المرشحين الصينيين المثقفين الذين سيظلون أوفياء عندما يفتح الشيوعيون النار علينا.

شرعت بتدريب كوادر الناطقين بالصينية الموهوبين من ذوي القناعات السياسية غير اليسارية، ولكننا كنا نصطاد في البركة نفسها كالشيوعيين الذين استغلوا القومية الصينية والأفكار الماركسية ـ الماوية القائلة بالمساواة. فمعظم الصينيين النشطين والمخلصين كانوا مُشربين بهذه الأفكار المثالية من قبل. وكان عليّ أن أُحولهم إلى الاشتراكية الديمقراطية، وأن أُكسبهم مفاهيمنا السياسية بلغة الماندرين التي لا أتقنها ـ ثم أقرأ التي كتبوها بالصينية والتي كانت من أصعب الكتابات المطبوعة في فك مغالقها.

أعتقد أن الخبرة علمتني أكثر مما علمتهم. فمصطلحاتهم الفكرية كانت تعود إلى التاريخ الصيني، والعادات والأمثال الصينية، والنجاح الأسطوري للثورة الشيوعية الصينية في مقابل حياتنا المخيبة للآمال في سنغافورة. ولكن أياً من هذه العوامل لم يساعدهم على فهم ما كنت أقترحه عليهم ـ من مجتمع برلماني، ديمقراطي، اشتراكي غير شيوعي في سنغافورة المتعددة الأعراق والتي قامت بوسائل سلمية، غير عنيفة ودستورية. كانت خلفيتهم تقودهم إلى الاعتقاد بأن المجتمع الشيوعي يجب أن يأتي بالإقناع المنفتح والقوة الثورية. ولقد اكتشفت مؤخراً، وهو ما أفزعني، أنه لا يوجد إلا قلة من الشيوعيين الذين تحولوا جدياً حتى ضمن المجموعة التي اخترتها، ولم يكن ثمة طريقة لغربلتهم. كانوا كالغبار المشبع بالمواد المشعة.

وذات يوم من أيام شهر آذار (مارس) 1958 جاءني شاب في أواخر العشرينيات من العمر إلى شركتي القانونية (لي ولي) في شارع ملقا، وأخبر تشو أنه يريد أن يتحدث إلي شخصياً. كانت الساعة قرابة الحادية عشرة قبل الظهر، أي في أكثر أوقات الدوام انشغالاً حيث يأتي كثير من الناس. وبعد أن تشاورت معي تشو سمحت له بالدخول. قال: إن لديه طلباً مُلحّاً. هل أستطيع أن أقابل رجلاً يمثل منظمته؟ وهو ما يعني مقابلة شيوعي يعمل بصورة سرية، ـ بالتأكيد هو لم يفصح عن ذلك ـ. أجبته بالإيجاب. وألحّ على أن يكون اللقاء سرياً.

فاقترحت موعداً في الطريق ما بين مقر مكاتب الحكومة في «امبريس بلاس»، ومسرح فكتوريا. فهذا مكان أكثر أماناً بالنسبة لي. أستطيع أن آخذه إلى غرفة لجنة الانتقاء في «مقر الجمعية» على بعد عدة ياردات. كنت أعلم أنها لن تُستخدم لأي اجتماع في اليوم الذي اقترحته للقاء، بل لن يكون هناك أي عضو من أعضاء «المجلس» لعدم وجود جلسات في ذلك الصباح.

وعندما حل يوم اللقاء غادرت مكتبي إلى مكان المقابلة، فوجدت أمامي رجلاً نحيلاً فاتح اللون يضع نظارة في جيب قميصه العلوي ويمسك بجريدة صينية. كان أقصر مني وأكثر نحافة. تبادلنا بعض الكلمات ثم دخلنا إلى «مجلس الجمعية» حسب الاتفاق. كان مظهره يدل على عصبيةٍ وتحفزٍ كرجل في السباق. شعرت من خلال تأملي في ملامحه وكأنه لم يرَ نور الشمس منذ عدة شهور، وأنني أتعامل مع شخص يعمل «تحت الأرض» فعلاً. كانت جبهته عريضة، ووجهه حليق، وأنفه دقيق طويل وشعره أسود وطويل، تسريحته إلى الخلف على طريقة طلاب المدارس الصينيين من الطبقة المتوسطة. كان وسيماً جداً وقدرت أنه لا يمكن أن يكون من الهوكين، بل ربما من «الهاكا» أو «التيوتشيو». وسرعان ما لفت نظري بصرامته. تحدث إلي بلغة الماندرين، وأجبته باللغة ذاتها، ولكنني كررت الأجزاء المهمة من حديثنا بلغة إنكليزية بسيطة كي أتأكد من استيعابه لما قلت. وأدركت من خلال تعبيرات وجهه أنه يفهمني.

قال، إنه يمثل الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) في سنغافورة وأراد أن يقابلني شخصياً من أجل إقامة تعاون مع الشيوعيين وغير الشيوعيين في حزبنا. وأبدى أسفه الشديد لأن كوادر الشيوعيين حاولت السيطرة على الحزب عام 1957. وأكد لي أن تلك المحاولة لم تكن سياسة شيوعية. بل كانوا مجموعة من الشباب المتحمسين ممن أرادوا أن يحدثوا ثورة في الملايو. طلب مني أن أثق به، وبأن عرضه للتعاون في جبهة واحدة معادية للاستعمار عرض صادق.

كان ما اقترحه يعني أن ليم تشين سيونغ وفونغ كانا حُرين في فعل ما أرادا قبل أن يعتقلا عام 1956 ـ لحشد العمال والطلبة والأساتذة والمثقفين والبورجوازية الصغيرة والقوميين الأصدقاء لتشكيل جبهة قوية موحدة يقودها الحزب الشيوعي ويضبطها من خلال كوادره المزروعة في منظماتهم.

فكرت سريعاً وقلت له: إنني لا أعرف من هو، ولا أستطيع أن أعرف ما إذا كان ما يقوله حقيقة. قال: إنني يجب أن أثق به. فطلبت منه بصراحة أن يأتي ببرهان، ليس عن شخصه، بل عن سلطته على الشيوعيين والكوادر الموالية لهم في سنغافورة كممثل حقيقي للحزب الشيوعي المالاوي (MCP)، ابتسم بثقة ونظر في عيني وقال ثانية: إنه ينبغي أن آخذ كلامه على محمل الجد.

ذكرت أمامه اسم تشانغ يوين تونغ الذي كان قد فاز بمقعد «مجلس المدينة» في كالانغ. كان تشانغ نائب رئيس حزب العمال الذي يرأسه مارشال، ورئيس «اتحاد عمال الكهرباء واللاسلكي». كان من الكوادر الموالية للحزب الشيوعي، كما دل على ذلك سلوكه وخطبه في «مجلس المدينة». نظرت مباشرة في عينيه وقلت: أعتقد أن الشيوعيين يستخدمون مارشال وحزبه العمالي لمحاربة حزبنا. فهم لم يكتفوا بتنصيب «تشانغ في كالانغ»، بل حاربوا مرشح حزبنا في جالان بيسار في انتخابات مجلس المدينة في كانون الأول (ديسمبر). (ولم أذكره بأن مرشح حزب العمال قد خسر). قلت: إنه يستطيع أن يثبت بأنه ممثل حقيقي للقيادة الشيوعية في سنغافورة وأنه يتحدث بصدق عندما قال: إن الحزب الشيوعي MCP لم يكن يرغب في مهاجمة حزبنا، عن طريق إكراه تشانغ على الاستقالة من «حزب العمال» ومن «مجلس المدينة».

قال بدون تردد: «حسناً، أعطني بعض الوقت، سأرى ما يمكن عمله. إذا لكان عضواً في منظمتنا فسأفعل ذلك». تحدثنا طوال ساعة من الزمن. كان يقدر شخصيتي وموقفي السياسي، وكنت أجامله بدوري. كانت مقابلته لي مخاطرة، وكذلك كانت مخاطرة بالنسبة لي. إذ لو كان حقاً زعيماً شيوعياً وشوهدت معه

كان علي أن أقدم تفسيراً. ولكنني كنت مستعداً لذلك. وكان لدي ما يبرر موقفي. ودّعته دون أن أتابع أي طريق سلك. اعتقدت أنني لن أقابله ثانية، إذ أنني لم أعرف من هو ولم أرغب في أن أعرف. ينبغي أن أحمي موقفي كزعيم للمعارضة.

أخبرت كينغ سوي فقط حول هذا الاجتماع، كان مهتماً بمعرفة ما سينجم عن ذلك مثلي تماماً. وأطلقنا على الرجل تعبير «the plen» ـ اختصار كلمة «المفوض» بالإنكليزية. عرفنا أنه لا بد أن يكون شخصاً ذا شأن في الحزب الشيوعي MCP ولكن إلى أية درجة من الأهمية؟ وما هي مقاصدهم الحقيقية؟.

كان ارتباطي المهم الثاني في شهر أيار (مايو) 1958، وهو المؤتمر الدستوري الثالث. طرت إلى لندن واتجهت مباشرة إلى «مجلس العموم» لمقابلة لينوكس بويد. وفيما كنا نتجه معاً إلى المؤتمر سألني عن تقديري للتطورات المستقبلية في سنغافورة وعن فرص ليم يوهوك في الانتخابات القادمة. قلت له: إن ليم يوهوك لديه فريق ضعيف وهناك عدد من وزرائه يفتقر إلى الشهرة والأمانة والاستقامة. وهذا ما جعله عُرضة للحملات العنيفة التي شنها الشيوعيون ضده وضد تشيو سوي كي. أتوقع أن ينجح حزبنا، ولما كان قد دافع عن الدستور المقترح في الانتخابات الفرعية في تانجونغ باغار في حزيران من العام الماضي، فأنا لم أطلب أكثر مما تم الاتفاق عليه. وأشرت بشكل خاص إلى «مجلس الأمن الداخلي»، على أنه شبكة الأمان التي ستضمن عدم هيمنة الشيوعيين. ومع وجود ممثل من الملايو يملك الصوت المرجح فإن أي أمر بالاعتقال أصدرته يمكن الدفاع عنه سياسياً.

كل ما تبقى للمجلس أن يفعله هو إنهاء التفاصيل السياسية بهدوء، فقد كان لدى كلٍ من الجانب السنغافوري والبريطاني قناعة صامتة بأن حزبنا يحتمل أن يكسب الانتخابات القادمة، لذا فإن ما قلته كان أكثر أهمية من آراء رئيس الوزراء. وكان علي أن أدقق في التفاصيل بعناية للتأكد من صياغة الدستور الذي كان يفتقر إلى لغة قانونية. ولكنني أتذكر موضوعاً واحداً حساساً قد يجعلنا عرضة للهجوم في سنغافورة.

كانت الحكومة البريطانية مع ضمان قيمة التقاعد للموظفين المعنيين من قبل حكومة جلالتها، من محليين أو غرباء وضد أي تخفيض للعملة المحلية في المستقبل. وقد فهمت فيما بعد أن الغاية من ذلك الإصرار على الضمان المذكور هي المحافظة على الروح المعنوية للموظفين المعنيين من قبل الإدارة الاستعمارية، وفي المناطق الأخرى التي كانت تتطلع إلى الاستقلال. ولكن من دواعي السخرية أن الجنيه الاسترليني هو الذي انخفضت قيمته إذ وصلت في عام 1995 إلى 2.20 دولار سنغافوري، أي إلى ربع قيمته في عام 1958 . والضباط الذين كانوا يطالبون باستلام تقاعدهم بالجينيه الاسترليني لم يكونوا محظوظين. ولكن من أين لهم أن يعرفوا أن سنغافورة ستشق طريقاً يختلف عن باقي المستعمرات السابقة؟.

وفي ظهر أحد الأيام، وكنت ما أزال في لندن، قرأت في الصفحة الأولى من صحيفة «ستريت تايمز» أن تشانغ يون تونغ، نائب رئيس حزب العمال، مستشار المدينة، ورئيس اتحاد مستخدمي الكهرباء واللاسلكي «قد استقال» لأن متطلبات العمل جعلت من المستحيل بالنسبة إليه إيجاد وقت كافٍ لعمل المجلس.

أعطى المستشار أوامره التي أُطيعت. وأثبت جدارته في تحمل المسؤولية التي وجدتها مثيرة للأعصاب، واعتقدت أنها ستتحقق ولكن ليس بسرعة شديدة. فقد كان ثمة رجل فار مطلوباً من الشرطة، ربما كان مختفياً في مهجع ما في سنغافورة. اتصل بي عبر أحدهم وأعطاني بطاقة عمله مع عنوان مخزن للدراجات في «شارع روكور» كي أتصل به إذا شئت. كنت واثقاً أن الوسيط لن يكون قادراً على إرشاد الشرطة إليه. ومع هذا فإن أوامره نقلت إلى تشانغ في غضون ثماني أسابيع ونُفذت بأمانة. كانت عرضاً مؤثراً لنظام منظمة «الحزب الشيوعي المالاوي».

لم يكونوا رجالاً يستهان بهم. فقد كان يناصرهم الكثيرون، لأن الناس كانوا يتوقعون أنهم سيكسبون ولديهم الحظ الأوفر. إذاً كان التاريخ إلى جانبهم، فلمَ نرتكب حماقة محاربتهم؟ ومع هذا فقد كنت أنا وبعض الأصدقاء من الناطقين بالانكليزية جاهلين بتورطنا في التهجم على حركة أوجدت مصداقيتها من خلال ثوارت ناجحة في روسيا والصين.

لم أُرد أن أظهر قلقي أو اهتمامي، ولأنني لم أزر روما أبداً من قبل، فقد قررت أن أقوم برحلة إليها لمدة أربع أيام، لقد كانت روما مليئة بدراجات فيسبا، قبل أن تزدحم بالسيارات ويعلوها الدخان. أمضيت معظم وقتي أتجول في المدينة القديمة وأزور «الساحة العامة» ونصب فيكتور إيما نويل التذكاري بقاعدته البرونزية التي تُبين توسع الهيمنة الرومانية عبر أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط. ذكرتني بأن جميع الإمبراطوريات تزدهر ثم تندثر، وأن الإمبراطورية البريطانية كانت في طريقها إلى الاندثار كشأن الإمبراطورية الرومانية قبلها.

خرجت بانطباع آخر مؤثر فقد مشيت ذات صباح إلى كاتدرائية سان بطرس، وكنت مندهشاً بسرور عندما ظهر البابا يحيط به حراسه السويسريون. وسرعان ما راح يهتف المتحلقون حوله من الجمهور «عاش البابا» والراهبات الواقفات قرب المحفة يرددن بمرح. بعد تجربتي مع اجتماعات الشيوعيين الحاشدة كنت أتوق إلى الهتاف للقادة. كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تستخدم مثل هذه الأساليب في حشد الجماهير قبل الشيوعيين بوقت طويل. لا بد أن الكنيسة قد قامت بأشياء كثيرة سليمة مما جعلها تستمر ألفي سنة تقريباً. تذكرت ما قرأته عن بابا جديد انتخبه قرابة مئة كاردينال كان البابا قد عيّنهم من قبل.

وعندما عدت إلى سنغافورة، كان علينا أن نقرر مرشحاً لانتخابات كالانغ الفرعية، والتي كنت واثقاً من انتصارنا فيها. رشحنا نقابياً نشيطاً، هو بوانغ بن عمر جنيد، وقبل الانتخابات الفرعية بقليل أرسل إلي «المفوض» قاموساً إنكليزياً - صينياً مطبوعاً في الصين، وضمنه ورقة كتب عليها: «إلى المحترم السيد لي كوان يو أتمنى النجاح لحزب العمل الشعبي (PAP) في انتخابات كالانغ الفرعية». وقع الورقة باسم «جون لي، تموز 1958». وكان مراسله قد أخبرني بعد ذلك أن هذا اسمه المستعار. وكانت هذه الرسالة تعني أن الشيوعيين لم يتخلوا فقط عن مارشال، بل طلبوا من أنصارهم أن يؤيدوا حزبنا.

في يوم الانتخابات حصلنا على 4278 صوتاً، وحصلت «جبهة العمل» على 3566 صوتاً. فيما حصل حزب العمال على 304 أصوات فقط. وكان ذلك درساً مُهيناً لمارشال، فقد دلت النتائج على أنه بدون الشيوعيين ستكون هذه هي قوته الحقيقية. أما بالنسبة لنا فإننا لو رشحنا مرشحاً صينياً بدلاً من مرشحٍ مالاويٍ عن حزبنا لكانت النتيجة أفضل. شعرت بالثقة بأننا نستطيع أن نهزم تحالفاً ما بين «جبهة العمل» و«الحزب الاشتراكي الليبرالي» في الانتخابات العامة. ولكننا لم نكن خارج المتاعب بعد. فالقانون الخاص بحفظ الأمن العام (PPSO) الذي أعطى الحكومة صلاحيات السجن بدون محاكمة، كان من المقرر أن يمدد من قبل الجمعية لفترة ثلاث سنوات. كانت فرصة مهمة لجعل موقفنا واضحاً، ولكنه يتطلب معالجة شديدة التدقيق نظراً لأننا سنراجع موقفنا الأول. وبعد مناقشات حامية مع زملائي المقربين، حضرت نصاً للخطبة. شرحت فيها للمجلس أن حزبنا لا يستطيع أن يصوت لصالح القانون المذكور في هذه المناسبة، لأن هذا من شأنه التراجع عن وعدنا في انتخابات عام 1955 وشطبه. ولكنني تابعت قائلاً: إن ذلك لن يكون موقفنا في انتخابات 1959.

نحدد موقفنا الآن حول مسألة قوانين الطوارئ، وهو: طالما أنها ضرورية لحماية «أمن الاتحاد» فإنها ستكون ضرورية لسنغافورة... أولئك الذين أسقطوا قوانين الطوارئ في سنغافورة، عليهم أن يساعدوا في ترسيخ شروط الأمن والسلام في الاتحاد بحيث لا تكون لها حاجة.أوضحت ذلك سياستنا بدون محاولة لمجابهة الشيوعيين. وكان علينا تالياً أن نحمي حزبنا ضد أي سيطرة من جانب الجناح اليساري في الحزب.

وعند عودتي من روما اقترحت أن تكون انتخابات الحزب للجنة التنفيذية المركزية على غرار انتخاب البابا. وفيما كنا نبحث في التفاصيل، توفي البابا بيوس الثاني عشر في 9 تشرين الأول (أكتوبر). واجتمع الكرادلة في كنيسة سان بطرس لانتخاب البابا الجديد، وفي غضون ثلاث أسابيع أعلنوا عن انتخاب

البابا يوحنا الثالث والعشرين. وقد لاحظنا قوة هذا النظام، وفي المؤتمر الخاص للحزب في 23 تشرين الثاني (نوفمبر) أجرينا التعديلات الضرورية. فتضمن الدستور المعدل درجتين من عضوية الحزب: الأعضاء العاديون الذين يستطيعون أن ينضموا مباشرة إلى قيادة الحزب أو عبر الفروع، والأعضاء والكوادر، وهم أعضاء مختارون لا يتجاوزون بضعة مئات حصلوا على مصادقة اللجنة التنفيذية المركزية CEC فقط يستطيعون بدورهم أن يترشحوا لهذه اللجنة، تماماً كما يختار الكرادلة الذين يسميهم البابا، فهم الذين يحق لهم أن ينتخبوا البابا الجديد. وهذا ما يغلق الدائرة. إذ لما كانت اللجنة CEC تشكل جوهر الحزب، فإن الحزب لا يصبح تحت هيمنة شخص واحد.

في شهر كانون الأول (ديسمبر) أعلنا في مقالة نُشرت في صحيفة الحزب، «بيتر» نؤكد فيها أن حزبنا ليس حزباً شيوعياً وأن «قانون المحافظة على الأمن العام» (PPSO) سيظل ساري المفعول إذا ما استلمنا السلطة. وليس عندي أي شك أن «المفوض» قد قرأ كل كلمة قلتها في نقاش «الجمعية» حول هذا القانون، ومحاضر مؤتمر الحزب التي تلت ذلك، كما أنه اطلع على تلك الافتتاحية التي نشرت ثانية في الصحافة الصينية. لهذا لم أكن مندهشاً عندما اقترب مني رجل من دكان لبيع الدراجات يطلب اجتماعاً آخر.

بعد ذلك جرى اجتماع بيني وبين «المفوض»، بناء على طلبه، في منزل صغير في منطقة سكنية خارج شارع تومسون. أمضيت معه قرابة ساعتين. أكد لي أنه لا ينبغي أن أكون كثير الشكوك في نوايا الشيوعيين. أما المشكلة التي كنت أعاني منها مع ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سيوان، وليم تشين جو هي صعوبة اتصال منظمتهم مع كوادرها. أما وأني أتعامل الآن مباشرة مع القيادة العليا فلن يكون بعد الآن أي سوء تفاهم. أصغيت إليه بانتباه وتمنيت أن تكون الأمور كما قال. شعرت أن خياراته محدودة. فمهما كانت وعوده كنت أعرف أن علينا أن نحافظ على قاعدتنا الشعبية بالتمسك بمواقفنا قبل الانتخابات. فإذا بقي الموالون

للشيوعيين في حزبنا ولم يبتعدوا أو يتخلوا عن تلك المواقف، فسيكون من الصعب عليهم بصورة أكبر أن يهاجمونا عندما نصبح نحن الحكومة. ولكنني كنت متأكداً أن تعاوننا إذا ما استمر لسنة أو سنتين أو ثلاث سنوات فنحن مصممون على ألا تكون هناك مالايو شيوعية، وهم قد يصممون من جانبهم أن تكون المالايو شيوعية، وبالتالي لا بد من الافتراق في النهاية. لم أكن أدري ما هي خططه، ولكن كان بوسعه أن يرى أنني تبنيت علناً سياسات من شأنها أن تتخذ إجراءات حاسمة ضد الشيوعيين إذا اقتضت الضرورة. وكنت أعتقد أنه كان واثقاً كل الثقة أنه عندما يُطلق سراح ليم تشين سيونغ وفونغ والمئة والخمسين معتقلاً من كوادرهم، سيكونون قادرين على إعادة بناء قوتهم في غضون 12 ـ 18 شهراً ليصلوا إلى المستوى الذي كانوا عليه في تشرين الأول عام 1956، عندما تم التخلص منهم. وعندئذٍ سوف يملي شروطه. وإذا ما تحركت عند ذاك ضد ليم تشين سيونغ وفونغ وأفواجهما في النقابات والمدارس المتوسطة الصينية والمنظمات الثقافية، فسوف أُدمَّر انتخابياً كما جرى لكل من ليم يوهوك وتشيو سوي كي. لم يلعب معي لعبة الأقراص والكأس. كان يحاول أن يلعب معي ما يسمى باللعبة الصينية [1]. ولكنني في الوقت الحاضر في الوضع الأقوى. إنه يحاول بصبر أن يحاصرني بقواته الأرضية المتفوقة. وكي لا أخسر عليّ أن أتخذ مواقف قوية تعطيني مزايا في الدفاع، حتى ولو كان لديه عدد أكبر من المهاجمين. أما إذا ارتكب حركة خاطئة من خلال المبالغة بالثقة، فإن المائدة ستنقلب عليه وستتاح لي الفرصة كي أحاصره.

---

(1) لعبة يضع فيها اللاعبان بذوراً على لوحة مربعة حتى يحيط أحدهما ببذور الآخر، إنها لعبة حاصرة.

18. انتخابات 1959- نناضل كي نكسب

كنت ألتقي بديفان نير، وليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سيوان، وودهول وبوتشيري مرة كل ثلاثٍ أو أربعٍ أسابيع طوال الفترة ما بين 1958 ـ 1959، وذلك في معسكر اعتقالهم الذي يقع خارج سجن تشانغي. وكنت أحضر لهم معي بعض أنواع الطعام والشراب. وأثناء لقاءاتنا ألمحت إلى شكوكي بكسب الانتخابات القادمة، لأن حكومة حزبنا سرعان ما ستجد نفسها في صدام مع الحزب الشيوعي المالاوي (MCP)

وقد أزعجهم هذا، فإذا لم نكسب الانتخابات ونمسك بزمام الحكم فإن فترة اعتقالهم ستطول بضع سنوات أخرى. وقد كانوا يلتفون حولي ويعدون بمنح الحزب تأييدهم المطلق. ولكنني كنت أعلم أن هذه الوعود الشفوية لا قيمة لها، لذا طلبت منهم أن يسجلوا وعودهم بتأييدنا كتابياً. وكتب نير مسودة هذا التعهد وراحوا يتشاورون حولها.

كان نير، المعتقل منذ 1956 قد بدأ يفقد إيمانه بقضيته. وذات يوم رتب كوريدون لقاء بيني وبينه على انفراد في بيت ريفي في جزيرة سان جون حيث أمضيت معظم النهار معه. حدثني عن خيبات أمله وعن نيته في اعتزال السياسة. حاولت أن أواسيه ونصحته ألا يرتكب أي فعل متهور. شعرت أنه، كهندي، لن يرتاح أبداً في حركة تهيمن عليها مشاعر شوفينية صينية. ولكنه كان في موقف صعب. كان عضواً في «الرابطة المناهضة لبريطانيا»، ومرشحاً بالتالي لعضوية كاملة في الحزب الشيوعي. وكان لدى هذا الحزب حفنته من الهنود والناطقين بالإنكليزية ممن يثق بهم. وارتداده ـ وربما خيانته ـ ستكون ضربة قاصمة لهم، ورد فعلهم يمكن أن يكون شديداً. كان يعرف هذا ويتحسب من فرقة الإبادة لديهم.

لم تكن مسودة نير الأولى تتناسب مع سياسة حزبنا التي كنا ننوي أن نعلنها قبل بضعة شهور من الانتخابات، لذا طلبت منه أن يعيد كتابتها. وقلت له: إن راجا، وكينغ سوي، وتشين تشي وأنا كنا نُعد وثيقة بعنوان «المهمات التي أمامنا» والتي ينص الفصل الأول منها على قاعدتنا السياسية الأولى ـ استقلال سنغافورة من خلال الاندماج مع مالايو ديمقراطية، اشتراكية، ولكن غير شيوعية. وكان حائراً ما بين موقفنا الصلب الذي لا يقبل المساومة وبين رفض رفاقه الموالين للشيوعيين المعتقلين لها.

في بداية عام 1959 كان بيان نير السياسي جاهزاً للتوقيع من قبل رفاقه المعتقلين. وكان البيان تأييداً مطلقاً لموقف الحزب، بأن سنغافورة سوف تكسب الاستقلال من خلال الاندماج مع مالايو ديمقراطية، اشتراكية، وغير شيوعية. كان هذا أمراً جوهرياً. فبدون مثل هذا الالتزام كنت أراهم يتوجهون إلى تحقيق حركتهم خارج «الاتحاد». ولم يكن أمامهم خيار آخر، فالمالايو كان لديها حكومة معادية للشيوعية وتتمتع بقاعدة شعبية واسعة وجيش قوي يدعمه البريطانيون. وأخيراً وقّع الرفاق البيان واستلمت نسخة منه قبل بضعة أسابيع من يوم الترشيح في 25 نيسان (إبريل). وكان البيان يتضمن أنه عندما يتم إطلاق سراحهم فسوف يعلنون على الفور موقفهم، ويذيعون نص الوثيقة في مؤتمر صحفي.

مالذي جعل ليم تشين سيونغ يوقع؟ لعله وضع في حسابه أنه بدون التأكيد على تعاوننا لن نكسب الانتخابات. والحق أنها كانت مهمة قعساء. كنت أعرف المشكلات التي تواجه الحكومة القادمة. فقد كانت نسبة البطالة 12%، وفي كل سنة يولد 62 ألف طفل. ومع تزايد عدد السكان سنوياً بنسبة 4% فإن آفاق الاقتصاد مظلمة. لم يكن لدينا مناطق تزودنا بالمؤمن، ولا أسواق داخلية واسعة من أجل صناعات جديدة، بالإضافة إلى القلاقل العمالية. ولم أكن واثقاً البتة من أننا سنستطيع مواجهة الهجمات الشيوعية التي ستتبع ذلك.

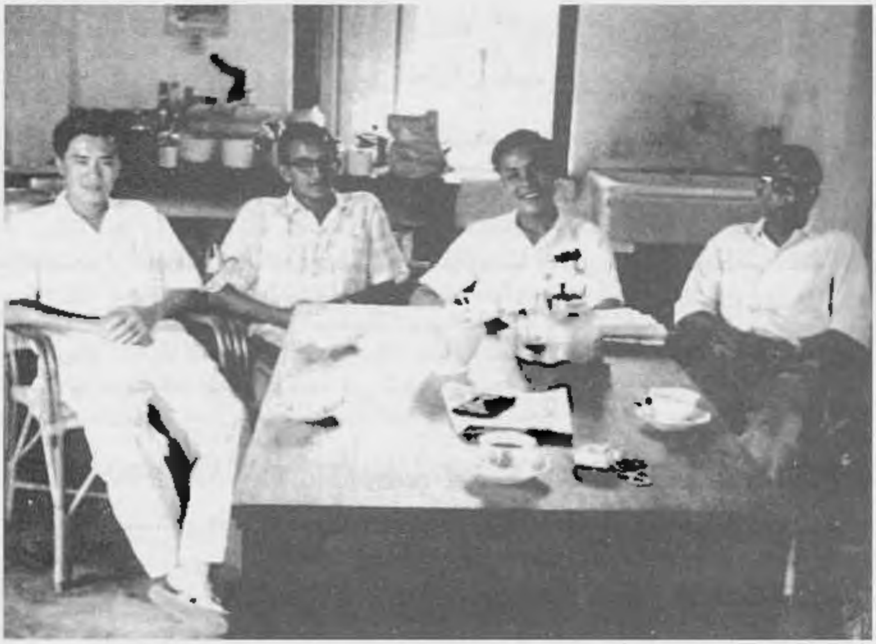

أخذت هذه الصورة في زيارة (من اليسار إلى اليمين) ليم تشين سيونغ، سيدني وودهول، فونغ سوي سوان، ديفان نير في معسكر الاعتقال تشانغي عام 1958.

كان راجا، المثالي والعقائدي يميل إلى أن نشكل معارضة قوية. أما كينغ سوي وكيني، وكلاهما إداريان؛ فقد كانا مقتنعين بأن علينا أن نشكل الحكومة. وقالا: إن الفساد سوف ينتقل من الوزراء إلى الخدمة المدنية نفسها، وإذا بقينا فترة خمس سنوات أخرى تحت حكم ليم يوهوك، فلن تكون هناك إدارة فعالة لتنفيذ سياساتنا، وخلافاً للشيوعيين لم يكن لدينا كادر خاص بنا نستبدله. وفي شهر شباط (فبراير) قررنا أن نناضل من أجل أن نكسب، واستعداداً لذلك استقال كل من كينغ سوي وكيني من منصبيهما الرسميين، بموجب قانون خاص يسمح للموظفين السابقين ذوي المراتب العليا أن يستقيلوا كي يشتركوا في الانتخابات مع استمرار تقاضي تقاعدهم. وكان منافسنا الأول «تحالف شعب سنغافورة (SPA) وهو تحالف ما بين «الجبهة العمالية» و«الاشتراكيين الليبراليين» اللذين كان ليم يوهوك قد ضمهما معاً في شهر نوفمبر الماضي.

وضعنا مسودات أوراق تتعلق بالاقتصاد، والتربية، والإسكان، والصحة، والتنمية الريفية، والعمل، وحقوق المرأة، نشرناها في سلسلة من الكتيبات تحت عنوان «المهمات التي أمامنا».

انطلقنا بحملتنا الانتخابية يوم الأحد 15 شباط (فبراير)، بعقد اجتماع حاشد سبق الانتخابات في «هونغ ليم غرين»، حيث كشف تشين تشي أن الأمريكيين قد أعطوا نصف مليون دولار إلى حزب «تحالف شعب سنغافورة» وكان ذلك بمثابة قنبلة.

استطعنا إثبات ذلك من خلال التحقيقات التي جرت. وكانت تلك ضربة سياسية قاصمة لهذا الحزب أفادتنا شعبياً وسياسياً إلى حد كبير.

أنكر حزب «تحالف شعب سنغافورة» (SPA) الاتهام ووصفه بأنه أكذوبة. ونشرت القنصلية العامة الأمريكية بياناً ينفي أن تكون الحكومة الأمريكية قد قدمت أية معونة للحزب المذكور ـ إذ ليس من سياسة الولايات المتحدة التدخل

في الشؤون السياسية للدول الأخرى. وفي 18 شباط قدمت مذكرة إلى «الجمعية» ذكرت فيها اسم تشيو سوي كي بوصفه الشخص الذي استلم المبلغ، وطالبت بلجنة تحقيق.

ولما كان الموضوع سيثار في 4 آذار فقد قدم تشيو من منصبه كوزير للتربية كما استقال من «الجمعية» وقال في مذكرة رسمية: «أريد أن أنظف اسم الحزب (SPA) ليس لدي ما أخفيه».

أثناء المداولة قلت: إن تشيو قد تلقى في عام 1957 مبلغ 300 ألف دولار لحزبه، بعضها من أجل انتخابات «مجلس المدينة» في عام 1958، كما تلقى 500 ألف أخرى لأغراض سياسية. وكشفت بأنني حصلت على موافقة فرانسيس توماس بأنه هو الذي أخبرني بأن تشو قد تلقى مبلغ 300 ألف دولار، وفيما كنت أتكلم غادر توماس مقاعد الحكومة واتجه إلى الجلوس مع المعارضة.وشرح للصحافة أنه لم يكشف المسألة آنذاك لأن ذلك كان من شأنه أن يحطم الحزب، وربما الحكومة. وفي أواسط عام 1958 بات من الواضح له أن الجبهة لن تحقق ربحاً، وأنه أخبرني بشأن المبلغ، طالباً مني أن أبقي الأمر سراً (وهذا ما لم أفعله) في ذلك الحين كان قد استقال من الوزارة.

ولما كنت قد حققت هدفنا السياسي بتعرية الحزب (SPA) بسبب أخذه أموالاً من الأمريكيين، طلبت أن أسحب اقتراحي. ولكن ليم يوهوك رفض الاقتراح بدون تروٍ. وصرح بأن الحكومة ليس لديها ما تخفيه، وأنه أراد لجنة تحقيق لا من أجل التأكد من الاتهامات، ولكن من أجل معرفة كيف تسربت المعلومات من دائرة ضريبة الدخل. وفتحت اللجنة تحقيقها في 6 نيسان برئاسة المحقق موراي باتروس، وهو أسترالي عمل في القوات البريطانية المسلحة في الحرب، وقمت أنا بالادعاء ضد كيني وتشين تشي. والتفاصيل التي كشفت فيما بعد ألحقت مزيداً من الضرر بحكومة حزب التحالف (SPA).

اعترف تشيو أنه اشترى بمبلغ 800 ألف دولار، موضوع الدعوة، منزلاً في إبوه باسم زوجته بمبلغ 51 ألف دولار، واستثمر مبلغ 250 ألفاً في شركة «بيرال ماينغ» باسم السيد تشونغ العضو الموثوق في حزبه، كما استثمر مبلغ 30 ألف دولار في شركة إبوه للتعدين باسم تشونغ. كما أعطى أسهماً بقيمة 50 ألفاً في شركة التعدين إلى السيدة هاميد جومات زوجة وزير الحكم المحلي. رفض ممثل «ناشيونال سيتي بانك» في نيويورك أن يعلن اسم المتبرع، بل كتب اسمه على ورقة سلمها للمفوض الذي لم يكشف عنه.

وقد أكدت ما اكتشفته اللجنة في 25 أيار بالتفصيل ما كشف عنه تشين تشي في خطبته. ونشر التقرير في الصحافة في 27 أيار، أي قبل يومين من إجراء الاقتراع. وقد أكد التقرير ما عرفه المصوتون من قبل ـ إن حكومة ليم يوهوك كانت فاسدة، والأسوأ من ذلك أنها أصبحت ألعوبة في يد الأمريكيين.

كانت أحزاب المعارضة في حيص بيص، كما توقعت، عندما اقترب يوم الترشيح. كنت أعلم أن ليم يوهوك أراد أن تكون منظمة الملايو المتحدة وMCA مع جبهة العمل والحزب الاشتراكي الليبرالي. كان قلقاً من تكرار الانقسام الذي جرى في انتخابات «مجلس المدينة». ولكن الأمور لم تجرِ كما يشاء. فمصيبة تشيو سوي كي والنتيجة التي توصلت إليها لجنة التحقيق قد أبعدت أصوات التأييد. وفي غضون ذلك أدى الإنشقاق العام في صفوف الاشتراكيين الليبراليين إلى اضطراب عارم، لأن كثيراً من «الجمعية» ومن الأعضاء العاديين غادروا الحزب. وبدلاً من أن يندمجوا مع حزب التحالف، كما تمّ الاتفاق من قبل، فإنهم ذهبوا إلى الانتخابات منفردين.

في يوم الاقتراع، 25 نيسان (إبريل) 1959 طرح الحزب المذكور SPA (39) مرشحاً، وطرح «الاشتراكيون الليبراليون» 32 مرشحاً، وكان هناك 34 مرشحاً مستقلاً، أما حزبنا فقد طرح 51 مرشحاً، منهم 34 صينياً، و10 مالاويين، و6 هنود وواحد أوروبي ـ آسيوي. كانت نسبة مرشحينا من الملاويين والهنود أكثر من نسبتهم السكانية، ولكننا وجدنا أن ذلك اختيار جيد من أجل معنويات الأقليات.

عقدنا ست اجتماعات جماهيرية حاشدة، وما بين 60 ـ 100 لقاء في الشوارع خلال الحملة التي استمرت 33 يوماً. حيث كانت مؤشرات المراهنات تميل منذ البداية لصالحنا، وهذه كانت علامة طيبة. علمت الأحزاب الأخرى بذلك الأمر الذي أحبط من معنوياتها، ولم تقم بحملات معاكسات شديدة. ومن ناحية ثانية أظهر العاملون في حملة حزبنا طاقة هائلة من النشاط. كان كثير من مرشحينا دون سن الثلاثين، وقد أثارت خطبهم الكثير من الحماسة في أوساط الشباب.

في وسط هذه المعمعة شعرت أن التونكو وزملاءه في كوالا لامبور لم يرحبوا باحتمال فوز حزبنا غير الشيوعي في سنغافورة. وفي اليوم التالي وصفني حامد جومات بأنني معاد للشيوعية بشكل واضح. كنت أعتقد أنه صلب موقفه برسائل وصلته من كوالا لامبور. كان من الواضح أي جانب اختار «التونكو».

وفي يوم الأحد 22 آذار (مارس) ألقى كينغ سوي خطبته حول «السياسة الاقتصادية» ضمن نشاطاتنا تحت عنوان «المهمات التي تواجهنا». وشرح في خطبته ضرورة التعاون بين سنغافورة والملايو. وقال: «بالعودة إلى سوق مشتركة نستطيع أن نعرض على «الاتحاد» إشرافاً مشتركاً على مينائنا، الذي يسهل كثيراً من تجارتنا الخارجية». ولكن تان سيوسين، الوزير الاتحادي الحالي للتجارة والصناعة، رد قائلاً: «إن حزب العمل الشعبي لا يعرف عما يتحدث. إن فكرة سوق مشتركة ليست فكرة عملية. ينبغي أن يتأكد هذا الحزب أنه لا يمكن إقامة ميناء حر وسوق مشتركة في الوقت نفسه. ينبغي أن تختاروا واحداً من هذين الخيارين».

ظننت في ذلك الوقت أنه يريد أن يساعد الجانب الآخر فحسب في الانتخابات. ولكن تأكد لي بعد وقت طويل أنه شديد الإيمان بتلك الآراء. كان كينغ سوي ابن عم تان، ولكن الأخير لم يكن يريد أن يعطي سنغافورة أي شيء، كما تبين لنا فيما بعد. كانت الأجواء في كولا لامبور معادية بصورة عامة لحزبنا. أنعم التونكو على ليم يوهوك بلقب «تون» وهذا أعلى مكافأة في المالايو. وقال:

بالرغم من أنه لن يشارك في الحملة الانتخابية فإنه سيساعد UMNO من وراء ستار. كان معادياً لحزبنا وقد حذر أنصارنا في منظمة UMNO بأنهم سيطردون إذا وقفوا على الحياد.

لم تكن الحكومة الأمريكية تحبذ حزبنا أيضاً. فقد ذكرت صحيفة «ستريتس تايمز» أن وزارة التجارة الأمريكية تتنبأ بأن تنحرف سنغافورة إلى اليسار وأن تتخلى عن تقاليدها في التجارة الحرة... ومثل هذا الاحتمال يجعل من المستحيل تقدير النظرة الاقتصادية للمدينة وآفاق التجارة فيها". وتابعت الصحيفة نقلاً عن المصادر الرسمية الأمريكية... «..أن المناخ الاستثماري في سنغافورة مستمر في التدهور رغم أن الحكومة قد أعلنت رغبتها في جذب الاستثمارات الأجنبية».

كانت الصحافة الصادرة بالإنكليزية معادية لنا بشدة، خلافاً للصحافة الصادرة بالصينية أو الملاوية التي كانت ودية معنا. تلك العداوة أشعلت معركة عندما أطلقت طلقتي الأولى في 15 نيسان: «إن الأمر معروف (أنه إذا ما فاز حزبنا) أن يغادر طاقم تحرير ستريتس تايمز ـ Straits Times إلى كوالا لامبور مسرعاً. وأولئك الذين يؤمنون بآراء الجريدة سوف يغادرون معها. إذا قرأتم ما تكتبه الجريدة ستظنون أننا متطرفون ومتوحشون».

جرى ذلك في اجتماع حاشد وقت الظهيرة في «ميدان فوليرتون» في قلب المدينة، بالقرب من المصارف البريطانية حول «منطقة رافيلز». كان معظم الجمهور من العمال المتحدثين بالإنكليزية.

وقلت: «إنه تحيز صريح» وحذرت قائلاً: «إذا كان هناك أناس يريدون أن يؤذوننا فسنكيل لهم الصاع صاعين».

في الاجتماع الثاني تابع «راجا» هجومه على صحيفة «سنغافورة ستاندارد» قال: «تحدثوا عن حرية الصحافة ولكنهم حطّوا من شأن آراء أولئك الذين لا يتفقون معهم». كان ضليعاً في الحديث. طلبوا منه، وهو رئيس تحرير الجريدة من 1950 ـ 1952 أن يُغير سياسته أو أن يتخلى عن العمل. وتخلى بالفعل عن

عمله وتحولت الجريدة إلى صحيفة معادية لحزبنا. وبعد أسبوع عاد إلى صحيفة ستريتس تايمز التي كان يعمل فيها قبل انتقاله إلى «ستاندارد». كان يعرف من يدير الجريدة، وسمّى أربعة أشخاص، منهم أ.س. سيمونز الذي كان يشرف على الجريدة يومياً. كان سيمونز متيقناً أنني وراجا لم نكن نمزح عندما قلنا إننا إذا شكلنا الحكومة فسنبعدهم. وكانوا يستعدون بالفعل إلى مغادرة الشركة هم والموظفون الأساسيون إلى كوالا لامبور، لأنهم كانوا يخشون من انتصار حزبنا. لم يكن لدي أية شكوك أنهم كانوا عازمين على محاربتنا من العاصمة الاتحادية. كتبت إليهم:

«إذا كانت الصحف المحلية تنتقدنا فإننا نعلم أن انتقادها، سواء أكان على خطأ أم على صواب، هو انتقاد مخلص، لأن عليهم أن يتابعوا نتائج أية سياسات حمقاء أو قضايا ربما كانوا قد دافعوا عنها. ليس شأنهم كشأن صحيفة «ستريتس تايمز» عليهم أن يتابعوا «الاتحاد» الذي يقولون إنه من أجل المحافظة عليه سيموتون من أجل حرية سنغافورة».

رد علي رئيس التحرير لينرلي هوفمان في اليوم نفسه:

«أنا لست طائراً عابراً. أنا المسؤول عن سياسة هذه الصحيفة ومحتوى افتتاحياتها. أنوي الإقامة في سنغافورة، حتى لو وصل السيد لي وجريدة «حزب العمل الشعبي» إلى السلطة، وحتى لو استخدما قانون الطوارئ ضدي.. ستظل سنغافورة وطني».

ولكنه غادر إلى كوالا لامبور قبل أن تنتهي الانتخابات. أي قبل خمس أيام من الاقتراع أعلم هوفمان معهد الصحافة الدولية، في اجتماعه السنوي في برلين الغربية الصحفيين ورؤساء التحرير والناشرين أن تهديداتنا يمكن أن تفهم على أنها «ما تفيض به مجموعة من السياسيين المتعطشين للسلطة». ومن جهة أخرى فإن «ستريتس تايمز» كانت تحرر ويسيطر عليها المالاويون الذين ولدوا هنا وبقوا في المالايو طوال حياتهم أوفياء لبلدهم. ولم يعترف بأن سادته البريطانيين هم الذين كانوا يملكون الصحيفة ويوجهون سياستها.

كان سايمون يعرف أنه ضعيف، لذا وكّل هوفمان بعرض قضيته على IPI «كانت حالة فريدة تعطي لهذه الجمعية فرصة لتمنح حزباً ما تأييداً شعبياً وتدافع عن نيته المعلنة في قمع حرية الصحافة». ولكن كان ذلك ما نوى حزبنا أن يفعله ـ الحصول على تأييد شعبي لسياستنا بأن الصحافة ينبغي ألا يمتلكها أجانب كي لا يوجهوا خطّها. استشهد هوفمان بمقطع مما قلته في 18 أيار:

> أية جريدة تحاول أن تنتقد أو تهاجم العلاقات بين اتحاد الملايو وسنغافورة بعد 30 أيار فإنها تسعى إلى التخريب. وأي رئيس تحرير أو كاتب بارز أو مساعد له أو صحفي يتبع مثل هذه السياسة فسوف يحاسب بموجب «قانون المحافظة على الأمن العام».

كان موقف صحيفة «ستريتس تايمز» غير مبرر لأننا نحن، معشر غير الشيوعيين في الحزب كنا نراقب الحملة الانتخابية بدقة، وهذا كان من دواعي سروري. لم تُجلب جماهير منظمة إلى صفوفنا، جماهير من قبل رؤساء النقابات اليسارية. وعلى الرغم من أن أنصار الشيوعيين كانوا يحومون حول فروع الحزب وبعضهم من المرشحين، ولكنني قمت مع بانغ بون بتقليص خطر اختيار مرشحينا بانتقاء المرشحين من ذوي الثقافة الصينية بكثير من العناية والحرص. لم يكن هناك ليم تشين سيونغ كي يهيمن على الجماهير.

لم يكن أونغ إينغ غوان بديلاً سيئاً لليم تشين سيونغ كناطق بلغة الهوكين أمام اجتماعاتنا الحاشدة. ولكن بانغ بونغ كان ضليعاً بلغة الهوكين أيضاً بوصفه من الماندرين. وكانت لغتي الماندرين قد تحسنت وإن لم تكن جيدة للخطابة. كانت كافية للتعبير عن أفكاري بدون نص. قد أكرر ما قلته بالإنكليزية أو لغة المالايو وبدرجة أقل بلغة الماندرين، ولكنني كنت أكسب احترام الناطقين بالصينية لجهدي في التحدث بلغتهم. وهذا يصح على تشين تشي أيضاً، الرجل القصير حيث لا يتجاوز طوله خمسة أقدام ولكنه حيوي على المنصة. كانت لغته أضعف من لغتي ولكن الجماهير كانت تهتف لنا لأننا كنا نقوم بجهد من أجل التواصل معهم.

كان وزراؤنا القادمون، بعد كسب الأصوات، مزيجاً غريباً. تحول راجا إلى تلميذ نجيب، يتحدث الإنكليزية بطلاقة. كما كان يتحدث لغة السوق المالاوية ويصل إلى مقصده من خلال صوته الجهوري ولغة جسده المعبرة. من ناحية أخرى كان كينغ سوي مرعباً، فبعقلية رجل في الصف الأول كان يحضر خطبه بتدقيق شديد في التفاصيل، ويلقيها بطريقة مملة، وهو يقرأ النص مكتوباً. كان مملاً.

في مجتمع خليط كان لدينا مشكلة لا مفر منها. فبعض خطبائنا كانوا خطباء جيدين ولكن لم يكن بعضهم قادراً على تحريك الجمهور كله. كان جزء من الجمهور يستطيع أن يفهمه، لذا كان عليه أن يتواصل مع الآخرين بالإشارات وتعابير الوجه ونبرة الصوت.

كانت لغة السوق المالاوية هي الأبسط والأكثر استيعاباً، وكان أفضل الناطقين بها يعقوب بن محمد حيث كان يتمتع بالقدرة على إيصال ما يريد إلى الجمهور بطريقة درامية ذكية بحيث إنه كان يصل حتى إلى غير المالاويين. وكان يستشهد بمثل مالاوي من تيرمانغانو، الأرض التي جاء منها، يقول: «الدجاجة تضع بيضة واحدة فتسمع القرية كلها صوت نقيقها، أما السلحفاة فتضع بيوضاً كثيرة بدون أن يسمع لها صوت». بعبارة أخرى لقد أعطى حزبنا الكثير من الفوائد، ولكنه لم يتشدق بها أبداً. وهذا ما جلب كثيراً من التأييد من جانب الجمهور. كان ذلك قبل استخدام التلفاز عندما كان الصوت الجهوري القوي والحضور الجماهيري مزايا بيّنة.

كان يعقوب من أصل متواضع. ولد في شمال المالايو، وتعلم في مدرسة دينية محلية، كان يقود جراراً للجيش الهندي أثناء الحرب، وعندما جاء إلى سنغافورة في بداية الخمسينيات عمل حلاقاً قبل أن يصبح أستاذ ديانة. انضم إلى حزب مالاوي قومي متطرف، وتحول إلى UMNO عام 1954، ولما وجده حزباً محافظاً جداً ولا يتبنى المساواة، فقد تحول إلى حزبنا (حزب العمل الشعبي) عام 1957. عينته فيما بعد سكرتيراً في البرلمان، ثم وزير دولة. كان ذخراً كبيراً مع

الملاويين. كان نهوضه من قاع السلّم إحدى أمارات تلك الفترات الثورية. كان النظام القديم قد فقدَ قوته، والمجتمع في حالة تغير مستمر، واستنتج كثير من الرجال والنساء غير المتعلمين والمتعلمات من الطبقة العاملة الفرصة كي يصعدوا إلى القمة بفضل المقدرة والطاقة والحظ.

كانت غالبية الشعب من الفقراء، وكثير منهم كانوا يسكنون الأكواخ، ولما كنا حزباً عمالياً فقد كنا لا نتلقى إلا القليل من التبرعات من الأغنياء تساعدنا على متابعة حملتنا الانتخابية بشكل حسن. ولكن اعتمادنا الأساسي كان على التعاطف الحقيقي من جانب الجماهير. وكان المرشحون القادرون منا ينفقون من جيوبهم على الحملة الانتخابية. وكانت المنشورات الدعائية التي يوزعها الحزب متساوية بين الجميع. وبالإضافة إلى ذلك كان الحزب يستأجر بعض الشاحنات أو العربات الخفيفة المكشوفة لاستخدامها كمنصات للخطباء. هذا بالإضافة إلى الشاحنات والعربات التي يملكها بعض مؤيدي الحزب والتي كانوا يقدمونها لأغراض الحملة مجاناً. حتى مكبرات الصوت كنا نستعيرها من بعض مؤيدينا.

وكانت الحملة الانتخابية تقتضي التوغل في زوايا مظلمة من سنغافورة لا يتحدث سكانها الإنكليزية عادة. وكانت تصادفنا أكوام الزبالة، والمجاري الفائضة ذات الرائحة الكريهة، والفئران. وفي الليل كانت تخرج الصقور من أوكارها وتطير فوق أماكن تجمعنا وتجمهرنا. أما في المناطق الريفية مثل بانغول، وسيمبا وانغ ويوتشو فكانت رائحة روث الخنازير تزكم الأنوف. كانت حملة ساخنة ومنهكة. كان عليّ أن ألقي ثلاث أو أربع خطب في ليلة واحدة، متنقلاً من منطقة إلى أخرى، وأن أحضر اجتماعات تمتد لبضع ساعات. ولحسن الحظ أنني أقلعت عن التدخين ولم أفقد صوتي. ولكن في الليالي الحارة كنت أتصبب عرقاً وأنا أتحدث وأخطب بلغتين وأحياناً بثلاث لغات (الملاوية، ولغة الماندرين، والإنكليزية). وعندما يكون الجمهور كبيراً ودافئاً ومتجاوباً كنت أطيل فترة خطبتي لأكثر من 30 دقيقة. وكنت أجعل كلمتي غالباً في نهاية الاجتماع

الجماهيري لأن الجمهور يبدأ بالمغادرة عادة بعد أن يلقي المتحدث الرئيسي كلمته. وكانت زوجتي تشو تزودني بالملابس النظيفة بعد كل اجتماع. وأصبحت الآن أسافر بشعور من التباهي. إذ ما إن قررنا في شباط 1959 أن نناضل كي نكسب حتى اشترت سيارة مرسيدس بنز 220 لتحل محل سيارتنا الستوديبيكر العتيقة. وكانت تريد أن يعرف الجميع أننا نستطيع أن نقتني سيارة مرسيدس حتى قبل أن أصبح رئيساً للوزراء، وكانت ترافقني في المسيرات واللقاءات الجماهيرية وتقود السيارة بنفسها أحياناً.

كانت حشود تجمعات حزبي «تحالف شعب سنغافورة» و«الاشتراكي الليبرالي» محبطة وغير مشجعة. كانا يجذبان الجماهير الفقيرة جداً، ولم يعقدا أية تجمعات كبيرة. لم يكن المتحدثون بالإنكليزية يهتمون كثيراً بمثل هذه التجمعات والحشود الانتخابية، ولا بالوقوف طويلاً لسماع الخطب. أما العمال الذين يتحدثون الصينية فقد كانوا يمضون معظم أوقاتهم في الشوارع على أية حال لأن بيوتهم فقيرة وغير مريحة، وغالباً ما تكون عبارة عن أكواخ بائسة شديدة الحرارة. وكانت الاجتماعات الانتخابية التي تجري في الهواء الطلق بالنسبة لهم، حيث يجري الحديث باللغة الصينية أو لغة الماندرين، متعة مجانية فضلاً عما تُحييه من آمال في مستقبلهم.

هذه الحشود الضخمة كانت ذات طابع متنوع وألوان زاهية. فالانتخابات تجذب أناساً من ذوي العادات الثقافية المختلفة والممارسات التي تعكس اختلاف أعراقنا في تقاليدهم. فالصينيون كانوا يعبرون عن تأيدهم لمرشحيهم بتقديمهم رايات حريرية لهم بأنفسهم. وبعد أن يستلم المرشح الراية مع انحناءة شخصية علامة للترحيب، يأتي دور الصور التذكارية. والمرشح الشعبي يستطيع أن يجمع ما بين 50 إلى مئة راية صينية. وكل راية تحمل اسم المانح سواء أكان فرداً أم جمعية أم أي اتحاد آخر.

أما الهنود فكانوا يقدمون باقات من الزهور الحقيقية ضمن باقة بيضاء أو موشحة بالألوان. وفي بعض المناسبات كنت أتلقى ما بين ست باقات إلى اثنتي عشرة باقة ضمن إطار مدور يوشحون بها عنقي حتى أكاد لا أرى شيئاً حولي. ومن حسن الحظ أنني لم أكن حساساً تجاه الزهور التي كانوا يستخدمونها (إذ يمكن أن تحدث أسوأ الأشياء. وينبغي ألا ننسى أن راجيف غاندي، رئيس وزراء الهند، قد اغتيل على يد امرأة اقتربت منه في حشد انتخابي لا لتطوق عنقه بالزهور فقط، بل ولترميه بالمتفجرات التي كانت تخفيها في جسدها).

أما المالاويون فكانوا يقدمون «الطانجق» وهو لباس للرأس من الحرير المطرز بخيوط من الفضة أو الذهب، يرتديه أصحابه عادة، وهم من أثرياء القوم، في المناسبات الاحتفالية. وقد كان هذا اللباس نادراً ومكلفاً.

في خطابي أمام ما يقارب ألفي عامل في ساحة مكشوفة خارج القاعدة البحرية في سيمباوانغ في 17 أيار، أكدت على ألا يخافوا على أعمالهم عندما نستلم السلطة. نحن لا نسعى إلى استقلال منفصل لسنغافورة، ولهذا وافقنا على أن يحتفظ البريطانيون بالسيادة على قواعدهم حتى نندمج مع اتحاد المالايو. وهذا ما طمأن 45 ألف عامل مدني يعملون في الخدمات العسكرية. فمعظمهم من الهنود الذين جاؤوا من الهند مع القوات البريطانية، ولهم حق التصويت.

في حشد جرى وقت الغداء في «كليفورد بير» شرحت لماذا سنحافظ على «قانون المحافظة على الأمن العام» إذا ما استلمنا السلطة، مؤكداً على أن الصراع الآن بات بين حزبنا و"الحزب الشيوعي المالاوي» (MCP).

وأعدت إلى الأذهان كيف تعرض مارشال من قبل، وكذلك ليم يوهوك لمظاهرات الشيوعيين وإهاناتهم واستخدام السلاح ضدهما، إلى أن تدخلت القوات البريطانية وسيطرت على الموقف. قلت بجرأة: «حكومة حزبنا لن تقع في مثل هذه الأخطاء، ولن نتعرض للإهانة والضرب، كما لن نستخدم القمع كوسيلة للحكم. سنحكم بإرادة الشعب وتأييده، بقوة وحكمة وعدالة». كنت أريد أن أتجنب أية تهمة بكسب الانتخابات عن طريق إدعاءات زائفة.

حافظ غود على التواصل معي بعد المؤتمر الدستوري في لندن، في أيار من عام 1958، وكان يعطيني دوماً الفرص، في القضايا التي تهم مستقبل الحكومة، للتعبير عن وجهات نظري. فقد طلب مني على سبيل المثال ما هو رأيي في اختيار جون وياث كمسؤول أول عن العدالة لسد الثغرة حتى فترة ما بعد الانتخابات حيث ستصبح التعيينات في يد رئيس الوزراء الجديد. لم يكن البريطانيون يريدون القيام بأية تعيينات قد نلغيها فيما بعد. لم أعترض على واحد منها. وسوف تهتف أمينة سره، باميلا هيكلي، لتشو لتسأل ما إذا كان من المناسب بالنسبة لي أن أقابل الحاكم في وقت شرب الشاي عادة. سأقابله في جناح المكتب في مقر الحكومة في الطابق الثاني (الذي شغلته منذ 1971) سوف يتحدث لمدة ساعة أثناء شرب الشاي الذي يُصب عادة من إبريق ذي طابع بريطاني فضي اللون، ويُخلط مع الحليب والسكر. استمرت اللقاءات حتى أثناء الحملة الانتخابية. عندما أغاظني مرة بسحب تأييده لليم يوهوك والآخرين كمن يأخذ لعبة من يد طفل؛ حذرته فيما كانت الحملة تزداد سخونة أنه من المستحيل بالنسبة لنا أن نحافظ على بياناتنا السياسة في «المهمات القادمة» أكدت له أننا سنبقى ملتزمين بقوة ببرنامجنا.

يوم الانتخابات هو السبت 30 أيار 1959 كان هادئاً ومنضبطاً، خلافاً لانتخابات نيسان 1955. لم ألجأ إلى التشريع الذي أجازه ليم يوهوك بجعل التصويت إلزامياً، إذ من غير الجائز قانونياً حمل المُنتخبين بالسيارات إلى مراكز الاقتراع. ولم نسمح باستخدام النفوذ في غير محله، أو الإكراه، أو الرشوة أو الفساد. انتهت عملية الانتخابات في الساعة الثامنة مساء. وبدأت عملية فرز الأصوات في سبع مراكز من الساعة التاسعة مساء، وانتهت في الساعة 2.25 صباحاً.

فزنا بثلاثة وأربعين مقعداً من أصل 51مقعداً، أي 53.4% من أصوات 90% ممن مارسوا الانتخاب. وكسب حزب «تحالف شعب سنغافورة» (SPA) أربع مقاعد، و«المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» ـ UMNO ثلاث مقاعد، والمستقلون

صوتاً واحداً (أ.ب. راجاه) وفاز ليم يوهوك في كيرنهيل (ضد مارشال) وفاز حميد جومات في غيلانغ سيراي. وقلت في مؤتمر صحفي: «اختيار الشعب واضح وحاسم. إنه انتصار للحق ضد الظلم.، والخير ضد الشر». وكان المرشح الذي فاز بأكبر عدد من الأصوات هو أونغ إينغ غوان، المحافظ السابق. وبرهن ناخبوه في تشاينا تاون على تجاوزه للآخرين وهذا ما زاد من شعوره بالزهو والغرور.

19. استلام السلطة

كان انتصاراً لنا ولكنني لم أكن فرحاً. بدأت أتحقق من عبء المشكلات التي سنواجهها ـ كالبطالة والتوقعات العالية لنتائج سريعة، وإزعاج الشيوعيين، ومزيد من التخريب في المدارس والنقابات والاتحادات، ومزيد من الإضرابات، وقلة الاستثمارات، وارتفاع البطالة، ومزيد من الاضرابات.

أما ليم تشينغ سيونغ وفونغ سوي سوان فسرعان ما سيعملان على أرضية الناطقين بالصينية ثانية للإطاحة بنا. وعندما أرسل إلي لينوكس. بويد تهانيه، أجبته:

«قلة من الناس تعرف مخاطر الرحلة التي شرعت بها الآن دولة سنغافورة. النتيجة التي سنصل إليها بعد خمس سنوات ستعتمد على كيفية تخطيطنا وعملنا الدؤوب، وعلى حسن فهم حكومة المملكة المتحدة لما يجري ولماذا، وعلى الآلهة الذين يوجد الكثير منهم في هذه الجزيرة الصغيرة ذات الـ 220 ميلاً مربعاً. العامل الأول أن نصمم، والعامل الثاني يعتمد عليكم، أما العامل الثالث فأتركه لشعب سنغافورة لاتخاذ التعويذات وطلب البركات الإلهية لنا».

كان ثمة عامل رابع ـ موقف جيراننا في الشمال. كان أول من هنأني علانية رئيس وزراء الملايو. «شعب سنغافورة كان اختياره واضحاً. أهنئ «حزب العمل الشعبي» على كسبه هذه الأغلبية الكبيرة» ولكن هذا لم يكن تونكو، بل داتو عبد الرزاق بن حسين، الذي يحل محل التونكو عندما يغيب. كان أقل دبلوماسية إذ قال:

«انتصارهم كان متوقعاً. فالأحزاب الأخرى كانت مشتتة وغير قادرة على تشكيل معارضة «لحزب العمل الشعبي». أنا سعيد بنجاح صديقي تون ليم هوك. فهو على الأقل سيشكل معارضة قوية للحكومة. ومن جهة ثانية فإن المعارضة ينبغي أن تكون فعالة، وأن تتوحد ولو خارج المجلس وإلا فإن الموقف سيظل على حاله».

تلقيت كثيراً من رسائل التهاني من أناس كانوا يتعاطفون معي، بمن في ذلك البطلة البارزة في مقارعة الاستعمار في «الجمعية الفابية»، السيدة هيلدا سيلوين كلارك التي أخبرت ضابط «الفرع الخاص» في سنغافورة، ريتشارد كوريدون، أنني اشتراكي جيد، ولست شيوعياً. وقد بعث إلي جيمس كلاهان، عضو حزب العمال البريطاني، وفيما بعد رئيس الوزراء، الصديق الذي زار سنغافورة في الخمسينيات وكان يعرف المنطقة، برسالة تهنئة يحذرني فيها: «أعرف أن من خلال اتصالاتي هنا كم هي حكومة الاتحاد حساسة، وعليك أن تكون حاسماً. فرد فعل الصحافة هنا متنوع. وثمة مخاوف من أولئك الذين لا يفهمون الوضع».

كنا قد فكرنا ملياً قبل الانتخابات في موضوع ليم تشين سيونغ ورفاقه، واستخلصنا أنه ينبغي العمل على إطلاق سراحهم من السجن قبل أن نستلم السلطة، وإلا فسنخسر مصداقيتنا.

ولكن بعد أن ناضلنا وكسبنا الانتخابات، قررنا أن نشكل الحكومة أولاً لتأكيد انتصارنا قبل أن نعمل على تحريرهم واستئناف الصراع.

قررنا أن نشكلها في بادانغ في يوم الأربعاء، 3حزيران. وقد طلبت من الحاكم أن يُطلق سراح المعتقلين الثمانية في اليوم الذي يلي الاجتماع الجماهيري، ولكن قبل أن نؤدي اليمين القانونية لاستلام الحكم. وكان غود (الحاكم) يريد أن نستنتج الفرصة على الفور، ولكن اهتمامي كان محصوراً بمعالجة الأمور، وجعل البريطانيين يوافقون على إطلاق سراحهم، وتشكيل حكومتي، وعقد الاجتماع

الجماهيري أولاً. واحتج غود بأنه يجب أن يشاور لندن بشأن إطلاق سراحهم، مما كان سيعني وجود ثغرة في حكومتي لأن ليم يوهوك استقال في اللحظة التي خسر فيها الانتخابات. لم يكن سعيداً بالتأخير، ولكنني ألحيت عليه بأن يعطيني الوقت الذي أحتاجه لأجعل غير الشيوعيين في موقف أقوى قبل أن تبدأ الجولة الثانية. لم أكن أتوقع أية أزمة فورية. ففي اليوم التالي أخبرني أن لندن وافقت على إطلاق سراح الموقوفين، ولكنه عندما كرر رغبته في تشكيل الحكومة بسرعة قلت له: إن علي أن أتشاور مع زملائي.

التقيت أعضاء اللجنة التنفيذية المركزية في مقر قيادة الحزب بعد ظهر ذلك اليوم لمدة ساعة، وعدت إلى مقر الحكومة في الساعة الرابعة بعد الظهر. وبعد ذلك أصدر جورج طومسون، مدير خدمات الاستعلامات بياناً للصحافة جاء فيه بعد لقاءين استمرا ساعتين «وبعد مشاورات مع حكومة جلالتها في بريطانيا، ومن أجل إصدار إفراج سريع وسهل للدستور الجديد، قرر الحاكم بالتشاور مع أعضاء المجلس السابقين الإفراج عن المحتجزين المعنيين». وكان غود قد أخبرني أنه لا يستطيع الانتظار حتى يحدث ذلك، وأنه سينشر ويضع الدستور الجديد موضع التنفيذ في 3حزيران. وأكدت ثانية أنه ينبغي أن نقسم.

جرى الاجتماع الحاشد أمام سيتي هول مساء يوم 3 حزيران بدون حضور الموالين للشيوعيين. كان على المنصة 43 عضواً من أعضاء البرلمان المنتخبين، وكان جميعهم يرتدون الملابس البيضاء.

وفي الخامس من حزيران، بعد أن يُحرر ليم تشين سيونغ وفونغ والستة الآخرون الموالون للشيوعيين وأن يصدروا بياناً يقر علانية أهداف غير الشيوعيين من حزبنا (PAP) أردت لذلك التأكيد أن يحظى بتغطية كاملة في الصحافة، ولهذا سوف نستلم السلطة بعد الظهر الساعة الخامسة. لم يوافق غود، ولكنني أصريت على موقفي وحققت منالي.

قدمت للجمهور حكومتي المؤلفة من تسع أعضاء وأنا من بينهم. وألقيت

خطبة جدية صارمة بعض الشيء. كان هناك حشد من الجماهير ينوف على خمسين ألفاً من بادانغ. لن يكون هناك فساد كما كان عليه الحال في الماضي في سنغافورة وفي كثير من البلدان الجديدة. لخصت موقف حكومتنا على الشكل التالي:

«سنبدأ فصلاً جديداً. وستكون سلطات شعبنا من خلال حكومته المنتخبة، مقتصرة على الشؤون الداخلية. وليس هذا ما نريده حقاً، ولكنه خطوة نحو الاندماج و«ميرديكا»... فالأشياء الجيدة في الحياة لا تهبط من السماء. وإنما تأتي بجهودنا على مدى طويل. الحكومة لا تستطيع أن تعطي نتائج إلا إذا ساندها الشعب واستمر في العمل معها.. يمكن أن تأتي أوقات تتخذ فيها قرارات غير شعبية بالنسبة لجانب من الجمهور، ولكنها في مصلحة المجتمع ككل. في مثل هذه المناسبات، تذكروا أن المبدأ الذي يرشد أفعالنا هو الصالح العام للمجتمع كله وهذا ما يجب أن يسود».

ووجهت إلى الجماعة البريطانية هذا التحذير:

«تعلمون أننا أردنا أن نستخدم هذا المكان (بادانغ) من أجل مهرجاناتنا الانتخابية ليلاً، ولكن مجموعة صغيرة من الأوروبيين الذين مُنحت لهم هذه الأرض من قبل الحكومة الاستعمارية السابقة رفضت ذلك، رغم أنها لا تستخدم هذا الميدان إلا في النهار من أجل أن يلعب فيه قلة من الأفراد! حسناً الظروف تغيرت وستظل تتغير».

استغليت الفرصة كي أُثبط آمالهم وأُحضّر دفاعي ضد الهجمات التي كنت أعرف أنها ستأتي من جانب الشيوعيين. كانوا يضغطون من أجل مزيد من الحرية لكي يخربوا سنغافورة ويستخدموا قوتهم في الجزيرة لمساعدة الثورة في المالايو.

في أمسية المهرجان الجماهيري ذهب دينيس إلى شانغي ليُخبر المعتقلين بأنه سيتم الإفراج عنهم يوم الخميس الساعة 8.30 بعد الظهر في 4 حزيران، خرج ليم تشين سيونغ، وفونغ، ونير، وودهال، وبوتو تشيري وثلاثة آخرون إلى خارج السجن ليجدوا قرابة ألفي شخص من حزبنا ومن النقابات، الذين كانوا ينتظرون خارجاً لتحيتهم والتلويح لهم بالرايات. ثم نقلوا إلى قيادة الحزب حيث التقوا باللجنة التنفيذية المركزية الجديدة. كما واجهوا رجال الصحافة في الساعة 11 صباحاً وألقى نير باسمهم بياناً يؤيد وحدة سنغافورة والمالايو.

في خطبة مهمة قال كينغ سوي الناطق بالإنكليزية: إنهم تقيدوا كثيراً بالصحف الناطقة بالإنكليزية، وبالكنائس، ولا سيما الكنيسة الكاثوليكية. الذين صوتوا كطبقة ضد حزبنا، ولكنهم كانوا قلة، وحذرهم أنهم سيخسرون مع الوقت امتيازاتهم التي تمتعوا بها في ظل الحكم البريطاني وعليهم أن ينافسوا ضمن شروط متكافئة مع كل شخص في سنغافورة. ومن أجل البقاء عليهم أن يحاولوا فهم أن التغييرات الجارية التي كانت رداً على قوى اجتماعية هائلة تكمن تحت السطح، وليست مكائد السياسيين.

لم تنشر «ستريت تايمز» ولا «ستاندارد سنغافورة» تقارير صحيحة حول تحليلنا لأسباب الاضطراب السياسي، وبالتالي كنا غير قادرين أبداً على جعل الناطقين بالإنكليزية يفهمون أن المظالم الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية العميقة كانت تقود الناطقين بالصينية إلى تأييد الشيوعيين ومساعدتهم على الإطاحة بالنظام القائم. الآن وقد أصبحنا في الحكم عليهم أن يصغوا، وعلى الصحافة البريطانية أن تنشر ما قلناه. وهكذا بدأنا ننفذ سياستنا، وهي عملية بدأت تلك الليلة بخطبة كينغ سوي.

وفي اليوم التالي نشرت الصحف بيانهم:

«من أجل تحقيق تطابق كامل مع هدف دولة مالاوية موحدة، والنضال بوسائل سلمية وديمقراطية ودستورية من أجل الهدف الأسمى لدولة مالايو موحدة ومستقلة وديمقراطية وغير شيوعية أو اشتراكية... سيكون

ليم تشين سيونغ (جالساً) وفونغ سوي سوان في مقر قيادة حزب العمل الشعبي، يدليا بتصريحهما للصحافة بعد أن حرر في 4 حزيران 1959

من الخطأ اعتبار عدم انضمام سنغافورة إلى اتحاد المالايو المستقل يعود فقط إلى الخداع البريطاني. فالبريطانيون بالطبع لا يستطيعون التهرب من نصيبهم من المسؤولية عن هذا البتر القاسي.. وتبقى الحقيقة أن استبعاد سنغافورة هو أيضاً انعكاس للخوف الحقيقي للغالبية المالاوية في الاتحاد بأن الغالبية الصينية في سنغافورة غير قادرة على الولاء لمالايو مركزية، ولا تستطيع أن تُستوعب داخل قومية ذات تمركز مالاوي... ويعود إلينا في سنغافورة أن نبرهن أن المخاوف والشكوك لدى إخوتنا المالاويين لا أساس لها».

عندما سُئل نير ما إذا كانوا يؤيدون «استخدام قانون الأمن العام» أجاب نير: «موقفنا هو مثل موقف حزب العمل الشعبي» أي أنهم سيحافظون على القوانين القائمة طالما أن اتحاد المالايو لديه قوانين تجيز الاعتقال بدون محاكمة. وكما توقعت من نير كانت تقارير الصحافة واضحة وغير قابلة للدحض. ولكنني كنت أعلم أن ليم تشين سيونغ لم يكن صادقاً. فهذا كان بالنسبة إليه مجرد مناورة تكتيكية. كنت آمل ألا يعود فونغ إلى ليم. ولكن لم يكن بوسعي أن أتأكد. حاولت أن أُحيّدهم بإعطائهم مراكز بارزة ولكن لا فعالية لها ـ إذ عينت بوتيو شيري مديراً لهيئة الترويج الصناعي «الجديدة»، وعيّنت الأربعة الآخرين كأمناء سر سياسيين لوزراء مختلفين.

كان البريطانيون يراقبون هذه التطورات عن كثب، وكانوا تواقين إلى معرفة كيف سيكون عمل وزراء حزبنا المنتخبين حديثاً. بعث بيل غود إلى لينوكس بويد، في 12 حزيران 1959، بتقرير عن الانتخابات الذي كانت قراءته تثير الاهتمام بعد أربعين سنة:

«.. ركز حزب العمل الشعبي (PAP) على إظهار نفسه حزباً اشتراكياً ديمقراطياً لديه أفكار بناءة يتحلى بالأمانة، والطاقة والقدرة على الحكم. أكد برنامج الحزب كثيراً على الحاجة إلى العمل على الاستقلال من خلال

الاندماج مع اتحاد المالايو والحاجة إلى التنسيق بين جميع الجماعات العرقية في سنغافورة. اعتبروا المالاوية لغة عامة لكسر القيود الفئوية وعينوا تسع مرشحين مالاويين. والسمة المميزة في برنامجهم هي التأكيد على الحاجة إلى إعادة تنظيم جهاز الحكومة والمؤسسات العامة الأخرى، وإلغاء «مجلس المدينة» بشكل خاص من أجل التخلص من «بيروقراطية الاستقبالات الرسمية والتكرار غير الضروري للمهمات». وفي خطب الحزب، طور المرشحون الكثير من هذه الموضوعات كي تناسب الجمهور. ولذا كانت هناك غالباً إشارات إلى تقصير أحزاب أخرى وإلى الكراهية المفترضة للصحف الصادرة بالإنكليزية. وللسكان الناطقين بالإنكليزية، ولرجال الأعمال «البيض» ولم يكن هناك أية إدانة للدول الغربية أو الحكومة البريطانية في أي موضع...

«أفقد انقسام الصوت المعتدل المعارضة، بلا شك، الكثير من المقاعد في 13 دائرة انتخابية، إذ تحول مرشحو حزبنا إلى أقلية.. وبعد الانتخابات أقر حزبنا علانية أنه لم ينجح في كسب أصوات المالاويين أو أصوات الناطقين بالإنكليزية. فقد كان المالاويون بصورة عامة فزعين من حزبنا كونهم أكثرية صينية ولم يرتاحوا لتعهد حزبنا الجريء بجعل المالاوية لغة قومية ولفرضه تسع مرشحين مالاويين.

وفي المنافسات الانتخابية قام زعماء حزبنا بأكبر جهد ممكن للفوز ضد موظفي المدينة من الناطقين بالإنكليزية. ومع هذا فإن معظم المناطق الريفية والمأهولة الرئيسية قد تحولت إلى التصويت لحزب SPA وبعض منها قد كسبها حزبنا نظراً لأن الأصوات قد انقسمت ما بين SPA أو الاشتراكيين الليبراليين أو المستقلين..

«معظم نواب حزبنا (PAP) من الشباب، معظمهم في عشرينيات العمر. المعدل الوسطي للأعمار في «الجمعية» هو 35 سنة، وأصغر عضو في حزبنا عمره 22 عاماً. وقد هُزم ثلاثة وزراء سابقين هم: ج. م. جامبهوي

على يد فتاة في الخامسة والعشرين من العمر، مساعدة الأمين العام المساعد في القسم النسائي من حزبنا...

«وهكذا فإن الجمعية التشريعية الجديدة ستكون تحت سيطرة غالبية حزبنا. وكان من بينهم خمسة أساتذة، وأربعة صحفيين، وثمانية نقابيين، وحلاقين ومزارع. والتبدل المهم الآخر أن الوزراء الثلاثة الأوائل قد أثثوا مكاتبهم في سيتي هول».

كنا نريد فعلاً أن نقطع الصلة بالماضي بنقل مقر الحكومة من «امبريس بليس» Empress Place إلى «سيتي هول» ـ City Hall. إنه كان المكان الذي استهل فيه أونغ إنغ جوان ولايته بوصفه محافظ وسط أجواء من الشغب والاضطرابات ـ ولكنه منح فقراء سنغافورة الأمل بأن حكومة حزبنا ستعطي مصالحهم موقع الصدارة وستكون صادقة في محاولة تحسين أحوالهم.

أديت أنا وزملائي اليمين القانوني يوم الجمعة بعد الظهر في الخامس من حزيران 1959، في قاعة سيتي هول حيث قبل مونتباتين استسلام اليابانيين من القادة العسكريين اليابانيين في جنوب شرق آسيا في عام 1945 ـ وحيث ألقى المحافظ بعد اثنتي عشرة سنة من ذلك التاريخ برمز السلطة الاستعمارية البريطانية، الصولجان. أردت أن أعطي انطباعاً مشابهاً للحكومة الجديدة. فقد كان البروتوكول حتى هذا التاريخ يقضي أن يقدم الوزراء أنفسهم في «مبنى الحكومة» كي يؤدوا اليمين القانوني أمام الحاكم باللباس الرسمي الأبيض والقبضة البيضاء. أما مؤيدي الحزب الذين عملوا بدأب أثناء الحملة الانتخابية، وكانوا بدورهم يلبسون ملابس بيضاء. ولكن لم تحضر الزوجات. وقد غضبت مني زوجتي تشو في ذلك اليوم. ذلك أنها تعبت كثيراً بدورها أثناء الحملة وتوقعت أن تحضر هذا الاحتفال. حاولت أن أراضيها، ولكنها لم تكن راضية. وبقيت مصراً على موقفي.

قيادة حكومة حزبنا (PAP) بعد أن أقسمت اليمين في «سيتي هول» في حزيران 1959.

بعد أن استمع غود (بوصفه رئيس الدولة) وآخر حاكم لسنغافورة لأداء القسم، قدم تهانيه إلينا. وأجبته قائلاً: «من حسن حظنا في الأيام القليلة الأخيرة أن تتاح لنا فرصة للتعامل مع شخص شديد التعاطف مع آمال ومطامح شعبنا وصعوبات وضعنا.. آمل في الأشهر الستة التالية من ولايتكم أن تساعدنا في تولي زمام أمور الحكم في سنغافورة بفعالية وسلاسة».

وبعد أداء اليمين كان كل واحد منا متحمساً للعمل ولتحمل مسؤولياته بمصداقية، وذلك قبل أن تفتر الحماسة. كنا نخشى أن يسارع الشيوعيون إلى تقليص التأييد الشعبي لنا من خلال حض ليم تشين سيونغ وفونغ على إثارة القلاقل والإضرابات. كنت أعرف من خلال التجربة أن الحماسة وحدها لا تكفي.

ومن أجل أن يقدم الوزراء أفضل ما عندهم، لا بد من توفير بعض الرفاهية لهم كأن يكون لديهم مكاتب ذات تهوية مركزية. قد يبدو هذا غريباً، ولكن العمل في مناخ سنغافورة المداري بدون تهوية عسير للغاية. فالحرارة الشديدة المصحوبة بالرطوبة العالية تنهك القوى وتُضعف الإنتاج وتسبب الكثير من الأخطاء. وأذكر أن شرائي أنا وزوجتي تشو لجهاز تكييف عام 1954 لغرفة نومنا كان بمثابة نقطة تحول في حياتي. ولهذا شجعت على توفير أجهزة التكييف في جميع مكاتب الحكومة.

شغلت مكتب المحافظ في الطابق الثاني من بناء "سيتي هول" وقد شاركني فيه تشين تشي بوصفه نائب رئيس مجلس الوزراء. كان المكتب واسعاً مع غرفة استقبال وغرفة للمؤتمرات، وشغلت سكرتيرتي الغرفة الوسطى أي ما بين غرفة مكتبي وغرفة نائبي.

ولكن أونغ إينغ غوان لم يشأ أن يبقى معنا في «سيتي هول» فاختار بدلاً من ذلك بناء عاماً في دائرة هونغ ليم واتخذه مقراً لوزارته الخاصة بالتنمية الوطنية. لم أدقق في أسباب ذلك، ولذا وافقت. لم أكن أعرف أن البناء غير صالح مطلقاً كمكتب حكومي ويحتاج إلى تجديد واسع النطاق، إذ كان لا بد من

هدم الحيطان، وتغيير الأسلاك الكهربائية والمكاتب. ولكن هذه كانت بمثابة اعتبارات بسيطة بالنسبة إلى أونغ، إنها تفاصيل إدارية تجاهلها من أجل سعيه إلى مركز منفصل للسلطة. لم يكن يرغب في أن يتشارك مجد «سيتي هول» مع تشين تشي ومعي. وبعد بضعة شهور فقط تأكد لي أن جنون العظمة لديه لا حد له. كان يريد أن يفوق أي شخص آخر في الحكومة، وأن يجعل نفسه في أعين الجمهور على النحو الذي كان عليه عندما شغل منصب محافظ. ومن أجل هذه الغاية أعلن عن خطط لإنفاق واسع بدون أن يراجع ذلك مع وزير المالية أو الحكومة، وأثار ذعر باقي الوزراء.

أما كينغ سوي الذي شغل منصب وزير المالية فقد انتقل إلى بناء «فوليرتون». كان خبيراً بشؤون الخدمات المدنية. ولما كانت المالية أهم وزاراتنا فقد سمحت له أن ينتقي موظفيه. وقد اختار معاوناً دائماً له هون سيوي سين، وهو صديق مخلص لي منذ أيام الاحتلال الياباني. ولقد كنا محظوظين باختيار أشخاص من أمثال سيوسن ممن يعتبرون كتلة من النشاط. فقد كان أمامنا كثير من العمل، وقليل من الموارد، وقليل من الوقت. لماذا قليل من الوقت؟ لأنني كنت أتوقع سنة واحدة على الأكثر من شهر العسل قبل أن يعيد الشيوعيون صفوفهم ويعودون إلى الهجوم علينا.

بعد أيام أخبرنا وزير المالية كينغ سوي أن الحكومة السابقة قد غرفت الاحتياطيات واستخدمت ما يصل إلى 20 مليون دولار. وقد توقع عجزاً في الميزانية يزيد على 14 مليون دولار في عام 1959. سيكون هناك بعض الوفورات القليلة ولكنها لن تزيد على خمسة ملايين دولار. لذا ينبغي تنبيه الوزراء أنه لا سبيل إلى تمويل أية خطط تنموية فوق ما هو مسموح به، وحتى هذه ينبغي تخفيضها. فالخطوات التي تتخذ لتحقيق التوازن في الموازنة لا تحظى بالشعبية سواء لدى الجمهور أم لدى الوزراء. ولكن كان من الملح ألا نصل إلى الخط الأحمر في السنة الأولى من حكمنا.

وافقت الوزير على سياسة التقشف وأخبرته أن من الأفضل اتخاذ الخطوات غير المرغوبة في وقت مبكر من ولايتنا. وفي 12حزيران نشرت الصحف أن وزير المالية قد أمر بعدم السماح لأي نفقات إضافية من أن تتمّ بدون موافقته. وكان من بين البنود التي طالها التقشف أيضاًالمعونات التي تقدم للموظفين لشراء سيارات، ونفقات المنح والدورات التدريبية في الخارج. ولكن جميع هذه الإجراءات لم تكن توفر كثيراً. اقترح وزير المالية كينغ سوي تخفيض رواتب الوزراء من 2600 دولار إلى ألفي دولار في الشهر كي يعطوا مثلاً للآخرين، وكذلك تخفيض علاوات الموظفين، وافقت على ذلك. ناقشنا هذه الإجراءات في المجلس وقررنا المضي قدماً مهما كلف الأمر. وأعلنت الحكومة أن العلاوات ستخفض ابتداءً من الأول من تموز (يوليو)، ولكنها ستقبل مراجعات حول الموضوع من جانب النقابات والاتحادات.

كانت الوفورات جيدة ولكنها ليست قاسية، إذ أنها لم تشمل إلا ستة آلاف موظف من بين موظفي الحكومة البالغ عددهم 14 ألف موظف. فإن جميع الموظفين الذين يتقاضون 2200 دولاراً في الشهر وما فوق سيفقدون جزءاً من علاواتهم الفعلية، ولكن 10% منهم فقط سيعانون من اقتطاع جزء من علاواتهم تزيد على 250 دولاراً في الشهر، وقلة قليلة ستفقد 400 دولار كحد أقصى. فقد أُعفي 8 آلاف موظف من موظفي الدرجات الدنيا من أية استقطاعات. كان علينا أن نتصرف بسرعة إذا أردنا لأمورنا المالية أن تنتظم منذ البداية. كان هناك استياء كبير ولاسيما في أوساط كبار الموظفين. اعتقد أصحاب الثقافة الإنكليزية أننا فعلنا ذلك لمعاقبتهم لأنهم لم يؤيدونا في الانتخابات. لم يكن ذلك قصدنا. بل أردنا أن نبين لكل فرد في سنغافورة، ولاسيما الأكثرية الناطقة بالصينية أن ما نفعله لصالح الشعب. وقد كان الناطقون بالإنكليزية مستعدين للقيام بتضحيات يتزعمها الوزراء. ووجدت من المعقول أن يقوموا بمثل هذه التضحية كي يساعدونا في إيصال الرسالة، ففي هذه المرحلة الجديدة علينا أن نتقاسم الأتراح والأفراح على حد سواء.

كان ثمة سبب آخر وجيه للاستقطاعات. فمنذ 1952 ضغطت باسم النقابات، فيما ضغط كينغ سوي وكيني باسم الموظفين، على الحكومة من أجل دفع مزيد من العلاوات دون اهتمام يذكر بالوضع الاقتصادي. ولو فعلت النقابات ذلك لكنا وقعنا في ورطة. ولكن من حسن الحظ أن تلك السنوات قد مضت.

وصل التوفير السنوي إلى 12 مليون دولار. ودحض كينغ سوي تقديرات الصحف بأن الوفورات وصلت إلى ما يتراوح بين 20 و25 مليون دولار، وذكرها بأن الوفورات بالنسبة للأشهر الستة الباقية من 1959 ستكون فقط بحدود 6 مليون دولار، مما يُخفض العجز من 14 مليون دولار إلى 8 ملايين دولار.

وبعد بضعة أيام أعلن الوزير تجميد التعيينات، مما كان يعني حصول شواغر في الحكومة لا يمكن إشغالها بدون موافقة الوزير.

تكاتفت ضدنا نقابات الخدمات المدنية. ونظمت مجلساً للعمل المشترك لمجابهتنا، تماماً كما جابهنا الإدارة الاستعمارية البريطانية من قبل، وللنضال من أجل إعادة العلاوات كاملة. ولكننا لم نكن حكومة استعمارية في موقف دفاع، في هذه اللحظة على الأقل، فالأغلبية الناطقة بالصينية كانت تقف وراءنا بصلابة. ولم يستطع مجلسهم أن يفعل شيئاً. كانت البلاد تجابه صعوبات ومخاطر أكبر، وكان علينا أن نقنع شعبنا أن هذه الحكومة تحكم لصالح الجميع. وعندئذ فقط نكون قادرين على معالجة نقص الوعي المالاوي بين الصينيين، وجعلهم يتشربون فكرة الولاء، والالتزام تجاه الدولة التي تبنتهم، وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية، إذ عليهم أن يغيروا موقفهم قبل أن يوافق الزعماء المالاويين في كوالا لامبور على الاندماج ويمكنوا سنغافورة من تحقيق استقلالها كجزء من المالايو.

وعندما ألقيت أول خطبة لي في الجمعية بوصفي رئيساً للوزراء في 22 تموز قلت محذراً: «إذا أخفقت حكومة حزبنا فلا يمكن للمعارضة أن تعود إلى السلطة. بل سيكون ثمة انفلات للأمور في البلاد. إذ لا يوجد بديل لنا مستعد للعمل وفقاً للنظام الديمقراطي. وفي التحليل الأخير إذا فشلنا ستعود القوى المتوحشة». وقلت: لهذا نريد أن نتعاون مع الموظفين من أجل أن نقدم للشعب ما وعدناه به.

لماذا نؤذي الشعب الذي ينبغي أن يعمل معنا؟ فمبوجب نظام ديمقراطي هناك خدمة مدنية تعطي الإيحاء للحزب الذي لديه الوصاية على الشعب... وإذا لم يحدث ما هو أسوأ من فقدان العلاوات... فعلى موظفي الحكومة أن ينحنوا ويشكروا الله إذ أنهم ما زالوا أحياء.

وأضفت قائلاً: بسبب التاريخ فإن ذوي الثقافة البريطانية يستطيعون أن يلعبوا دوراً كبيراً. وإنهم يستطيعون مساعدتنا في جَسْرِ الهوة ما بين الماضي الاستعماري والحاضر الذي يعمل على تحقيق المساواة. وإذا فشلنا في ردم الهوة ما بين الناطقين بالصينية والناطقين بالإنكليزية فستكون النتيجة مؤلمة. إذ لو استلم المثقفون الصينيون السلطة فإن الناطقين بالإنكليزية سيجدون أنفسهم فجأة المنبوذين الجدد تحت حكم إدارة صينية.

ومن وقت إلى آخر كنت أتابع توبيخ الناطقين بالإنكليزية وأطلب منهم أن يتغيروا لمواجهة المستقبل.

كنا ـ كينغ سوي وكيني وراجا، وأنا ـ من ذوي الثقافة الإنكليزية قادتهم الطبيعيين. لم نكن نريد لهم أن يكونوا هامدين، ولكننا في الوقت نفسه سنستعين بالصينيين إذا كانوا يريدون التخلص منا. ولكن الناطقين بالإنكليزية كانوا على درجة كبيرة من عدم التسيّس بحيث إنهم لم يفهموا الخطر الذي يحيط بهم. ورغم استعادة الاستقطاعات كلياً عام 1961 فقد ظل الموظفون الكبار ناقمين لفترة طويلة، وكانوا ينتظرون الفرصة للإطاحة بنا. فقد صوتوا بقوة ضد حزبنا في انتخابات 1963. ولكن التهديد من جانب الشيوعيين كان آنذاك واضحاً للغاية، بحيث لم يكن بوسعهم إلا تأييدنا.

في نهاية العام كنا قادرين على تحقيق التوازن في الميزانية ولم تعد العائدات تتناقص كما كان يخشى كينغ سوي. لقد أظهرت الأحداث بأن الناطقين بالإنكليزية ينقصهم الوعي السياسي وأنهم يحتاجون إلى إعادة توجيه لجعلهم يعون المخاطر والصعوبات أمامهم. وهذا ما أكد ضرورة القرار الذي قد اتخذته

أنا وكينغ سوي وكيني، قبل استلام السلطة، بإنشاء مركز للدراسات السياسية لتعليم وتأهيل كبار الموظفين المدنيين وتوعيتهم بالتهديد الشيوعي وبمشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية. ولكي ننجح كان علينا أن نكسب ثقتهم أولاً وندرك أنهم ليسوا مجرد أشخاص لا يفكرون.

اخترنا جورج طومسون لإدارة المركز، وهو رجل في الأربعينيات من العمر، يتمتع بذهن صاف، ومتحدث ممتاز كان محاضراً في التاريخ، دؤوباً ومتحمساً للعمل، فهذا ما كنا نرمي إليه وسرعان ما عرف ما أنيط به. وتم اختيار موقع المركز في بناء يقع في غودوود هيل. وقمت بافتتاحه في 15 آب (أغسطس)، وشرحت أهدافه على النحو التالي:

«ليست الأهداف فقط أن نحث أذهانكم، بل لنحيطكم علماً بالمشكلات الحادة التي تواجه أية حكومة منتخبة شعبياً في وضع ثوري... وعندما تواجهكم مثل هذه المشكلات ستكونون أكثر قدرة على مساعدتنا في إيجاد الحلول لها، بجعل الإدارة أكثر حساسية واستجابة، لحاجات الناس وأمزجتهم».

كنت وبعض الوزراء نتردد على المركز لتحقيق أهداف عملية من خلال مناقشة الأوضاع الحقيقية وإيجاد حلول فورية لها. وفي البداية كان الموظفون الذين يدرسون في المعهد متشككين بعض الشيء. ولكنهم سرعان ما تجاوبوا معنا وفهموا حقيقة المشكلات التي تواجهنا وكيفية إيجاد الحلول لها وتنفيذها. وفهموا ماذا يجري في العالم الأوسع وأسباب الثورات في جنوب شرق آسيا، والحاجة إلى اتخاذ تحول أساسي في المواقف والسياسات لمواجهة التحديات. ولكن ظلت علاقتنا بهم عسيرة.

ثمة مشكلة توقعتها وهي أن أتعود على السلطة. فقد رأيت ما حدث لأونغ إينغ غوان في «مجلس المدينة» وكيف أنه أخطأ الموظف الأدنى عندما أصبح الموظف الأعلى. فحذرتُ وزرائي وأمناء سر المجلس وأعضاءه الذين عُينوا

لمساعدة الوزراء في التعامل مع شكاوى الجمهور، من ألا ينتشوا بالسلطة وألا يسيئوا استعمالها. وكم من الأسهل أن تقول ولا تفعل، فقد كنا كثير من المناسبات نزعج الموظفين.

كنا مصممين على أن نضرب والحديد ساخن وأن نستفيد من شعبيتنا بعد الانتخابات. فقمنا بحملات واسعة لتنظيف الشوارع، واقتلاع الأماكن القذرة. وكنا نحض الجميع حتى الوزراء على أن يعملوا بأيديهم حتى ولو اتسخت ملابسهم، وذلك من أجل خدمة الشعب. استفدنا من بعض تكتيكات الشيوعيين في هذا الصدد، وحرضنا الجماهير على الانخراط في الأعمال الجماعية التطوعية كالتنظيفات والمحافظة على الأملاك العامة. وفي ذات يوم أحد كان على أونغ إينغ غوان أن يجند موظفي الحكومة لتنظيف شاطئ تشانغي. وفي مناسبة أخرى كان علي أن أنظف شوارع المدينة مع مسؤولي التنظيفات. وكان في أذهاننا أشياء أخرى نقوم بها. وقد خططت أنا وكينغ سوي وشكلنا «اتحادات شعبية» تضم كل المنظمات الاجتماعية التطوعية المهمة، والأندية، والاتحادات الرياضية، والموسيقية وغيرها. وبنينا عشرات المراكز الاجتماعية: أي مراكز كبيرة في المدن وأخرى صغيرة في المناطق الريفية ـ وأماكن للتعليم وإعادة إحياء المواهب. كنا نريد أن نقدم للناس أشياء إيجابية نقوم بها ضمن إطار النظام العام والقانون. ولكن كان علينا أيضاً أن ننظم صفوف العاملين، لأننا كنا بحاجة ماسة لإحكام قبضتنا على النقابات الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين كي نوقف إضراباتهم السياسية. لذا أوجدنا محكمة تحكيم. وفي الخمسينيات كان لدى الأوستراليين علاقات صناعية جيدة بفضل إجراءات التحكيم الإجبارية التي تضبط الانفعالات. وبناءً على طلبنا أرسلوا إلينا الأمين العام الدائم لوزارة العمل لديهم، هاري بلاند، كي يساعدنا. وبعد أن تأسست المحكمة، بات بوسع الوزير أن يحيل أي إضراب واسع النطاق، ولاسيما إذا كان يشمل الخدمات الضرورية مثل النقل العام أو المرافق العامة، إلى التحكيم. وإذا جرى ذلك سيكون من غير

عرض مثال لتنظيف سنغافورة بعد فوز حزبنا بالسلطة مباشرة.

الشرعي أن تستمر نقابة في الإضراب. وإذا أصرت على ذلك فستواجه إلغاء التسجيل. وقبل الإضراب كان لا بد من اقتراع سري، ليس برفع الأيدي في نهاية خطبة حماسية، كما كنت أشاهد قبلاً.

من ناحية أخرى، فقد شاركنا الشيوعيين وجهة نظرهم في أن أحد أسباب تخلف الصين وبقية آسيا، باستثناء اليابان، يعود لكون أن النسوة لم يتحررن بعد. إذ لا بد من أن يتساوين مع الرجال وأن يُمكّنّ من المساهمة الكاملة في المجتمع. ففي أثناء الحملة الانتخابية اعتدنا أن نستخدم إحدى إذاعاتنا المتخصصة بأربع لغات ـ الإنكليزية، ولغة المالايو، والماندرين، والتاميل ـ كي نتناول سياستنا تجاه حقوق المرأة. ولكننا لم نستطع إيجاد عضوة في حزبنا يمكن أن تتحدث الإنكليزية بطلاقة لعرض البرنامج. فبعد أن أجرتْ تشو امتحاناً لزوجتي مرشحين في مكتب «لي ولي» جاءت إلى غرفتي لتخبرني أن صوتهما رقيق جداً ولا تفيان بالغرض. ولكن بعد خروجها اقترح صديقاي أن عليها هي أن تقوم بذلك. فطلبت رأيها، وبعد برهة من التردد وافقت. كتب راجا المسودة الأولى التي عدلتها بحيث تبدو أنها هي التي كتبتها. نُقحت من قبل اللجنة التنفيذية المركزية وترجمت إلى اللغات الأخرى، وقدمتها بالإنكليزية في إذاعة المالايو. أحد المقاطع كان حاسماً:

«ما يزال مجتمعنا قائماً على افتراض أن النساء هن أدنى منزلة من الرجال. هذه الأسطورة أعدت كي تبرر استغلال المرأة العاملة. فكثير من النسوة يقمن بنفس عمل الرجل ولكنهن لا يتلقين الأجر نفسه... رشحن خمس نساء مرشحات في الانتخابات... دعون نريهم (أي الأحزاب الأخرى) أن نساء سنغافورة قد تعبن من التمثيل والتهريج. أناشد النساء أن يصوتن لحزبنا. إنه الحزب الوحيد الذي يتحلى بالمثالية والأمانة والقدرة على تنفيذ برنامجه الانتخابي»

كان ذلك تعليقاً خطيراً، أو لعلي ما كنت أوافق على أن تذيعه زوجتي. كنت أريد تنفيذه في وقت مبكر رغم أنه كان عملاً حثيثاً لواضعي الخطط الشرعيين في غرف المدعي العام. فقد بحثوا عن سوابق في تشريعات الدول الأخرى، واستخلصوا «ميثاق النساء» الذي حولناه إلى قانون في غضون سنة.

لقد أقر الزواج من امرأة واحدة كوضع زوجي شرعي وحيد، واعتبر الزواج من أكثر من امرأة، والذي كان آنذاك مشروعاً، جريمة ـ باستثناء المسلمين الذين كان دينهم يسمح للرجل بالزواج من أربع نسوة. كان النص مقبولاً وقد حسَّن من وضع النسوة، ولكن لم يعدل الآباء عادتهم في تفضيل الذكور على الإناث. كانت هذه حالة لم تجد حلاً بعد.

كان ثمة عدة نقاط تتضمن سلسلة من الممنوعات المفروضة من قبل بانغ بون ـ وزير الشؤون الداخلية ـ بوصفها «ضد الحضارة الصفراء». و«الحضارة الصفراء» ترجمة حرفية لعبارة في لغة الماندرين تشير لسلوك منحط ومنحرف جعل الصين تركع في القرن التاسع عشر تحت: المقامرة، وتدخين الأفيون، والإباحية الجنسية، وتعدد الزوجات، والتسرّي، وبيع الفتيات للدعارة، والفساد ومحاربة الأقارب. هذا البغض الشديد «للحضارة الصفراء» قد استورده أساتذة المدارس من الصين الذين بثوا في طلابنا وآبائهم روح الانتعاش الوطني الذي كان بادياً في كل فصل من الكتب التي أتوا بها معهم، سواء أكانت كتب أدب، أم تاريخ، أم جغرافيا. وقد تعززت بمقالات من قبل صحفيين عن الصين النظيفة والأمينة والدينامية والثورية.

تحرك بانغ بون بسرعة، محاطاً بالشيوعيين وبحماسة بيوريتانية. وقد أمر بتطهير رجال العصابات السرية الصينية وتحريم الدعارة والعروض الخلاعية، وألعاب القمار وحتى الأغاني المبتذلة. ولا بأس من زيادة البطالة قليلاً وجعل سنغافورة أقل جاذبية للسواح. ولكن البحارة الذين كانوا دوماً جزءاً من سكان سنغافورة العابرين سرعان ما وجدوا طريقهم إلى أسباب المتعة التي ما تزال

تقدم في الزوايا الخفية من الجزيرة التي كنا نتغاضى عنها. واستمر البغاء سراً، وقد تركناه جانباً لأننا لا نستطيع أن نحظره بدون اتخاذ خطوات سخيفة وإجراءات غير فعالة.

وكان أهم برنامج لدينا هو أن نوفر لكل طفل مقعد في المدرسة في غضون سنة، وهذا ما استطاع أن يحققه صهري يونغ نيوك لين، وزير التربية الآن، ففي 12 شهراً ضاعف عدد الطلاب المقبولين وذلك بجعل كل مدرسة تعمل ورديتين:صباحية ومسائية. ووضع برنامجاً لتدريب الأساتذة الذين يحتاجهم المشروع. وشجع كثيراً من الراشدين على العمل كموجهين وموجهات. كما افتتح صفوفاً لتعليم اللغة المالاوية، اللغة القومية الآن، وشن حملة تثقيف صينية، مستخدماً لغة الماندرين بوصفها لغة عامة للمجموعات الصينية كافة ذات اللهجات المختلفة. كان الناس يريدون أن يُحسّنوا أنفسهم وأوضاعهم، وقد وفرنا لهم الوسائل لذلك. فقد تبنينا الأساليب الحسنة لخصومنا الشيوعيين. ومع الحملات الشعبية، لم نرَ موجباً كي نعطي الحزب الشيوعي المالاوي MCP الفرصة لاحتكار مثل هذه الأساليب.

20. لمحات متاعب مقبلة

كنت قلقاً بسبب استلامي السلطة في سن الخامسة والثلاثين. إذ لم يكن لدي خبرة في الشؤون الإدارية ـ ولا حتى في شؤون مكتبي القانونية، التي تركت تدبيرها لتشو ودينيس. ولكن قررت أن أتكيف مع شؤون الحكومة والإشراف على الوزراء. أردت أن اطلع على مشاعر كبار الموظفين، وطبيعة عملهم ومواقفهم حتى أعرف ما ينبغي تغيره إذا كنا نريد أن نحل مشكلاتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كما أردت أن أقدر موارد كل وزارة وتوزيع هذه الموارد على الوجه الأفضل.

وقد كانت وزارة المالية أول وزارة أقوم بزيارتها، فبدون موارد مالية لا يمكن أن يتحقق أي شيء، والوزارة التالية كانت وزارة الداخلية. إذ كنا بحاجة إلى مخابرات جيدة تراقب الشيوعيين، بحيث تكون حساسة وفعالة في التعامل معهم، وتعلم مسبقاً، إذا أمكن بتحركاتهم. كنت أريد أن أعرف ما إذا كان لدينا رجال أكفاء يمكن أن يمدونا بالمعلومات والتحليل، والتفكير والتخطيط، وهي العناصر الضرورية لوضع استراجية معاكسة لإحباط مخططاتهم. وعلى مستوى الشارع كنت أريد أن تكون الشرطة منضبطة. ولكن في الوقت نفسه قوية وحازمة إذا ما أردنا إحباط مظاهرة أو أعمال شغب أولية. وكنت مصمماً على ألا تتصرف الشرطة بطريقة فجة غبية كما كان شأنها في ظل ليم يوهوك، عندما كانوا يدربون أفراد الشرطة على القيام بأفعال سيئة ويسمحون للشيوعيين أن يقتحموا جميع مواقع الناطقين بالصينية.

زرت وزارة الداخلية في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، أي بعد مدة أربع أشهر من تولي منصبي، وتحدثت أولاً إلى ضباط الشرطة لأرفع معنوياتهم. قلت لهم: إنني أتوقع إثارة اضطرابات من جانب الشيوعيين في غضون سنة، بعد أن أعادوا

ترتيب صفوفهم. وطلبت منهم أن يكونوا مستعدين لذلك. كان مفوض الشرطة، ألان بليدس، رجلاً طويلاً قليل الكلام ذا لحية قصيرة بيضاء ويضع نظارتين على عينيه. كان مديراً سابقاً لـ (الفرع الخاص)، ولم يعمل طويلاً كضابط شرطة، وكان يعي جيداً الخطر الذي يمثله الشيوعيون، ولعله ظن أنني قريب جداً منهم لمصلحتي ـ وهذه فكرة كان يشاركه فيها عدد من كبار ضباطه. لا أعرف متى أدرك حقيقة وضعي، وعرف أنني جاد كلياً عندما قلت: إن علينا أن نجابههم بدون أن نخسر الناطقين بالصينية جماهيرياً.

وانتقلت إلى مقر قيادة الشرطة في (بيرلز هيل) أي إلى (دائرة التحقيق الجنائي) ثم إلى «الفرع الخاص» لمقابلة مدير معين حديثاً هو جون لينسيل. وكان هذا الرجل قد أمضى معظم حياته المهنية كضابط شرطة نظامي فكان أكثر خبرة بأعمال الشغب من عمليات التحري وجمع المعلومات. ولم يلفت نظري بوصفه رجلاً يتمتع بذكاء حاد، وهي صفة ضرورية لفهم تكتيكات الشيوعيين واستراتيجيتهم. لذلك قررت أن أراه مع كبار موظفيه في اجتماعات أسبوعية منتظمة، بحيث اسمع مباشرة من الضباط الذين كانوا خبراء في شؤون الأمن بدون أن يلخص لينسيل الفروق المهمة، وقد كان لهذا نتائجه المفيدة. فقد أظهر ضابطان هما ريتشارد كوريدون وأحمد خان أنهما مفيدان جداً، فبدون تحليلهما الذكي والعميق للمعلومات حول الشيوعيين، ومعالجتهما التي تتميز بالخبرة العالية للأوضاع الحساسة، فإن الحكومة ستخسر الشيء الكثير وسيسوء وضعها.

كانت زيارتي للفرع الخاص مفيدة للغاية. ففي أحد أيام تشرين الأول اطلعت على ملفات ذات غطاء كتب عليه بخط عريض: (الاعتقال مخفوراً). كانت هذه الملفات تحتوي على صور لقادة بارزين في الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) مرفقة بتقرير يفصح عن تفاصيل مهمة. وكما توقعت كانت بين هذه الصور صورة إيو تشوي يب. وكان هذا رجلاً متمرساً يجيد اللغتين الإنكليزية والصينية.

وهو من خريجي (كلية رافيلز) معاصر لهون سوي سين الذي زار سوي سين في بيتي أثناء الاحتلال الياباني. كان يسارياً متطرفاً في ذلك الحين، وكما علمت مؤخراً صار من الزعماء البارزين في «حزب بلين».

وبعد عدة صفحات خفق قلبي وكنت آمل ألا يظهر ذلك على وجهي. كنت أنظر إلى «البلين» نفسه. لم أتوقف طويلاً ولكنني توقفت بما يكفي من الوقت كي استوعب الحقائق الأساسية. كان «فانغ تشوانغ بي». قد درس في الثانوية الصينية وعمل في «نان تشيا نيوز» وهي جريدة موالية للشيوعيين سرعان ما أغلقت بعد أن بدأت حالة الطوارئ. تيقنت في الحال أن اسمه لا بد أن يكون الأخ الأكبر لفونغ ينغ تشين. فونغ (فانغ بلغة الماندارين) كانت في الخامسة والعشرين من العمر، فتاة بريئة المظهر نشيطة، في مدرسة متوسطة للبنات أنشأناها في فترة الانتخابات. أصبحت الآن عضوة ممثلة لحزبنا في الجمعية عن ستامفورد.

وفي غضون أسبوعين من استلامي السلطة، وصل يونغ بونغ هاو إلى بيتي باكراً ذات صباح دون إعلام مسبق فيما كنت استحم. ظنت الخادمة أنه طالب صيني وأخبرته أن عليه أن يذهب إلى المكتب. في تلك اللحظة رأته تشو في الشرفة ودعته إلى الانتظار في غرفة الجلوس. رفض تناول الإفطار ولكن أخذ يتحدث فيما كنت أتناول إفطاري. جاء من كوالا لامبور ليسألني ما إذا كنت سأدلي ببيان يتعاطف مع MCA حول مشكلاتهم مع «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو» (UMNO)، شريكتهم الملاوية في التحالف الحاكم؟. وكان قد انتخب لتوه رئيساً للجنة الدعاية MCA في فترة توتر متصاعد داخل «الاتحاد» حول مسألة التعليم الصيني. شعر الصينيون أنهم مهددون لأن زعماء «المنظمة الوطنية» بدوا وكأنهم عزموا على أن يتسلموا ويمارسوا سلطة واسعة في البلاد، مع مشاركة اسمية من قبل الشيوعيين غير الملاويين. ولما كان يونغ يعرفني جيداً فإن زعيم

MCA اقترح عليه أن يطلب مني دَعْمَ قضيتهم. فبظنهم أنني رئيساً للوزراء في سنغافورة وزعيماً "لحزب العمل الشعبي" أملك نفوذاً في أوساط الصينيين في المالايو، حيث شعرت منظمة MCA نفسها بأنها ضعيفة بشكل محزن.

كنت منزعجاً ومضطرباً إلى حد كبير بحيث أرادني الصديق القديم أن اتخذ موقفاً عدائياً ضد «التونكو» و«المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو». وقد قلت له: إنني إذا كنت أتعاطف مع MCA فإنه لا يخطر لي أبداً أن أغضب «التونكو» «والمنظمة»، نظراً لأن هدف سنغافورة الأول كان الاندماج مع المالايو. فبعد 36 سنة تذكر يونغ الواقعة بوضوح. وقال: إنني كنت أؤكد باستمرار «علي أن أفكر في سنغافورة أولاً». لم يكن خائب الأمل كثيراً، لأنه توقع رد فعلي. كان يعرف أنني مباشر ومنفتح تجاهه. ولكن كان علي أن أصغي إليه بعناية أوفر، بدلاً من اعتبار طلبه تدخلاً غير مرغوب فيه بخططي. كان علي أن أرى أهمية مثل هذه المواقف الطائفية القوية بالنسبة إلى سنغافورة إذا كانت ستصبح جزءاً من ماليزيا. لو سئلت عن خلفية مشكلة التعليم، لكنت حذرت مبكراً من نوعية التنازلات الكبيرة التي سينبغي أن نستعد لتقديمها إذا كنا ننوي العمل مع زعماء المالايو في الاتحاد.

وفيما كان خطر تغلغل الشيوعيين في الحكومة والإدارة ماثلاً دوماً، كان اهتمامنا الرئيسي في تلك الفترة هم أولئك الذين لا يستطيعون الانضمام إليهما- المثقفون الصينيون من (جامعة نانيانغ).

طوال سنوات كانت الفكرة عن أية جامعة صينية هي أنها من منجزات جمهورية الصين الشعبية التي تفخر بلغتها وثقافتها. وكانت الطبقة المثقفة، بتشجيع من الصحافة الصينية، تتقدم بطلبات للالتحاق بجامعة تدرس بالصينية. وخلال الفترة الاستعمارية أدان الصينيون الحدود المصطنعة المفروضة من قبل الأسياد البيض في معظم جنوب شرق آسيا، وكانوا يطلقون على المنطقة

كلها اسم «نانيانغ» أو «البحار الجنوبية». ولما كان غالبية سكان سنغافورة من الصينيين، فقد أصبحت مركزاً للتعليم الصيني. ولكن لم يكن هناك جامعة صينية في ذلك الحين.

جعلت فورة المطاط أثناء الحرب الكورية في أوائل الخمسينيات من تجارنا أثرياء. وعندما اقترح تان لارك سي، بارون المطاط ورئيس جمعية الناطقين بالصينية في سنغافورة (هيوكين هيواي كيوان)، في ك 2 (يناير) عام 1953، إنشاء جامعة صينية كان هناك تأييد واسع وفوري. وقد خصصت الجمعية المذكورة مساحة 500 فدان من أرض فقيرة في جورونغ، وهي منطقة ريفية غرب الجريدة. وتبرع كثير من مختلف العمال الصينيين براتب يوم من أجل هذا المشروع.

وفي آذار 1956 افتتحت «جامعة نانيانغ» بعد أن انضم إليها 584 طالباً سنتسبون إلى ثلاث كليات تدرس العلوم والفنون والتجارة بالصينية. وكان هذا يعني مزيداً من المشكلات السياسية، إذ بدون الإنكليزية لم يجد المتخرجون عملاً. وكنا نعرف أيضاً أن الجامعة سوف تقع بعد بعض الوقت، بموظفيها وطلابها، تحت سيطرة الشيوعيين، كما حصل بالنسبة إلى المدارس المتوسطة.

عيّن ليم يوهوك في الأشهر الأخيرة من وجوده رئيساً للوزراء لجنة برئاسة د.س.ل. بريسكوت من «جامعة أستراليا الغربية» رئيساً للجامعة. وقد زودتنا اللجنة بتقرير يوصي بعدم اعتراف الحكومة بشهادات «جامعة نانيانغ» لأن المستويات والمعايير العلمية متدنية جداً. وسرعان ما أثار هذا التقرير غضب الجماعة الناطقة بالصينية التي اعتبر زعماؤها هذا التقرير بمثابة ازدراء بكفاءاتهم، والحق أنهم كانوا يتدخلون في عمل الأكاديميين الذي كان ينبغي أن يُترك إلى مجلس الجامعة.

كان رئيس «مجلس الجامعة» تان لارك سي، بشكل خاص شديد الغضب علينا. وإمعاناً في التحدي قام بتعيين د. نشوانغ تشولين، المدير السابق الموالي للشيوعيين، لمدرسة تشونغ تشينغ الثانوية، والذي طرد من عمله، نائباً لرئيس

الجامعة. وكان يعلم أن هذا من شأنه أن يعطي الحزب الشيوعي المالاوي MCP حرية أكبر في استخدام الجامعة كأرض خصبة له. ولكننا لم نكن آنذاك في وضع يمكننا من التدخل بدون دفع ثمن سياسي غال. وقد أرسلت مذكرة متعقلة كي أتفاهم مع تان في وقت لاحق.

كانت درسي الأول حول الفرق بين السلطة الدستورية الرسمية والقوة السياسية المطلوبة لتحقيقها. رفع نيوك لين مذكرة إلى المجلس المخصص لتجريد تان من قدرته في التدخل مع الإدارة لإعطاء الحكومة السلطة على نانتاه (اختصار صيني لعبارة جامعة نانيانغ) كما كان يفعل بالنسبة إلى جامعة المالايو في سنغافورة. انفجرنا ضاحكين بسبب بساطة هذا الحل. كان نيوك قد جاء مباشرة إلى الحكومة بعد 20 سنة من العمل في التأمين، ومع أنه أثبت جدارته بكونه وزيراً نشيطاً، لم يكن لديه فكرة عن أهمية ما يعالج.

لن أنسى أبداً يوم الأحد، 30 آذار 1958، عندما أصبح الطريق الذي يبلغ طوله 14 ميلاً من نانتاه إلى شارع بوكيت تيماه والمدينة. صفاً طويلاً من السيارات، متجهة جميعها إلى الافتتاح الاحتفالي للجامعة.

أشعر بالالتزام العاطفي الهائل لشعبنا الناطق بالصينية تجاه المشروع. وجد أن مذكرة نيوك لين من شأنها أن تسبب الشغب في المدارس الصينية المتوسطة.

وهكذا وضعنا المشكلة على الرف، وقبل نهاية الستينيات، بعد أن انفصلنا عن ماليزيا، بات لدينا من القوة ما يمكننا من فرض نظام إداري على حسابات الجامعة المالية، وتعيين الموظفين وإدارة شؤون الطلاب. ولتخفيف حدة التوتر وكسب بعض الوقت في غضون ذلك، عيّنا لجنة ثانية من الأكاديميين المحليين لمراجعة تقرير بريسكوت، ووجدنا في شباط عام 1960 أنها توصلت إلى الاستنتاجات ذاتها. ولكن لم يكن من المقبول سياسياً أن نترك الدفعة الأولى من خريجي نانتاه بدون أمل باعتراف الحكومة والتوظيف. وناقشنا هذه المسألة بعناية في مجلس الوزراء وقررنا أن نسمح لبعضهم بالعمل في الخدمة العامة، ولكن بدرجة أدنى من خريجي جامعة الملايو.

SINGAPORE POLICE

$2,000 REWARD

The above reward will be paid by the Commissioner of Police, Singapore, to any person or divided amongst persons giving information leading to the arrest of the undermentioned Chinese.

FANG CHUANG PI alias
FONG CHONG PEK

English and Chinese speaking male Teochiu, age about 24 years, Height 5 5. Slim build. One time reporter of "Nan Chiao Jit Pao".

The information may be given at any time and any place either verbally or in writing, to any Police Officer or by letter addressed to P.O. Box 5000. The identity of the informant will not be disclosed.

This offer of reward is valid until 30th October, 1951.

Dated 17th July, 1951
Ref: No. SSB/P/6949

Reward Notice No. 12/51

شرطة سينغافورة

جائزة 2000 دولار

ستدفع الجائزة أعلاه من قبل مفوض الشرطة في سينغافورة لأي شخص بمفره أو مع آخرين يعطي معلومات تقود إلى اعتقال الصيني المذكور اسمه أدناه.

فانغ شوانغ بي المعروف باسم فونغ تشونغ بيك

يمكن أن تقدم المعلومات في أي وقت أو أي مكان شفهياً أو كتابياً إلى ضابط شرطة أو برسالة إلى ص.ب 5000. لن يكشف عن هوية المخبر.

عرض هذه الجائزة سارٍ حتى 30 تشرين أول (أكتوبر)، 1951

كنت قد اتجهت إلى الجامعة في شارع جورونغ، في تشرين الأول من عام 1959 كي أتحدث إلى طلابها الألف. كانت الدفعة الأولى المؤلفة من 400 شخص تريد العمل. قلت لهم: إن الحكومة سوف تستوعب 70 خريجاً ـ خمسين منهم في التربية و20 في الدوائر الأخرى. وأداء هؤلاء السبعين سيقرر مستقبل من سيتبعهم. «إذا أثبتت الدفعة الأولى أنكم قادرون على أن تكونوا عاملين ملتزمين، مستعدين للمنافسة على قدم المساواة مع خريجي الجامعات التي تدرس بالإنكليزية، وقدمتم إسهاماً في خدمة المجتمع عندئذ ستنالون الاعتراف الذي تستحقونه». كذلك قدمنا للمرشحين المناسبين منحاً دراسية لفترة ما بعد التخرج للدراسة في جامعات خارج البلاد، ولاسيما في مجال العلوم والهندسة. وكنا نعتقد أن هذا سوف يُحفز اللامعين ويختبر قدراتهم. كنا راضين، ولكن لبعض الوقت. فقد استمر الشيوعيون في التحريض بطاقةٍ لا تعرف الكلل واستطاعوا أن يكسبوا مجندين كل يوم.

في الوقت الذي كان فيه التأييد الجماهيري لنا في أوساط الثقافة الصينية مُهدداً من قبل الشيوعيين، كان تأييد ذوي الثقافة البريطانية من الموظفين (ذوي الياقات البيضاء) فاتراً طوال الوقت. وضعت تشين تشي في إدارة معهد البوليتكنيك في سنغافورة لأنه كان مهتماً بشكل خاص بالثقافة التقنية. وقد أثبت ذلك أنه سلاح ذو حدين. في اكتشافه أن مناهجه غير ملائمة لحاجاتنا المتوقعة، كما أنهى خدمة هيئة الحكام والرئيس، وعندما أبعد الحكام من غير إبطاء استقال الرئيس. أثار هذا ذهولاً وخوفاً، لأن الطاقم لم يكن لديهم شعور بالأمن في البقاء، وشرع الأساتذة ومعظمهم من المغتربين البيض، بالبحث عن أعمال في أماكن أخرى. وكذلك فعل موظفو «صندوق سنغافورة للتحسين» والسلطة السكنية في الحكومة السابقة، حيث كان أونغ إينغ غوان يتصرف بطريقة الانفرادية. إذ كان أونغ ينتقد ويزعج الموظفين البيض. كنت أعلم كينغ سوي «كيف يتصرف» إزاء الخبراء الذين كانوا يريدون أعلى المراكز في مجلس المدينة،

والذي كان تحت سيطرته بوصفه وزيراً للتنمية الوطنية. وفي الذروة كانوا يواجهون مقاومة من موظفيه الموثوقين، أما بالنسبة للموظفين الأدنى فقد كان يزعجهم كي يجعل حياتهم صعبة. آجلاً أم عاجلاً سوف يقررون مغادرة العمل بدون تعويض.

كان لدى أونغ أمين سر يدعى فال ميدوز، موظف مقتدر وحازم له سجل عسكري متميز. وكان ميدوز أميناً لسر حامد جمعة، عندما كان وزيراً للحكم المحلي، وكان يُعد أجوبة حامد إلى أونغ عندما حدثت بينهما مشادة تفاقمت بتشكيكه بصلاحيات المحافظ. أثار أونغ حفيظة ميدوز.

يذكر ميدوز بعد 36 سنة أنه «لم يكن مستعداً تماماً لدرجة الكراهية» التي واجهها. إذ كان مبعداً إلى الجزر الجنوبية ليرى ما يمكن عمله من أجل تحسينها وتطويرها. ولما أعد خططاً من أجل عيادات وممرات ومدارس ومراكز اجتماعية وتعاونيات لصيد السمك، عندما كان مع حامد، فقد تم ذلك بسرعة ونشاط. ولكن بدل أن ينال الشكر أبعد من منصبه في الوزارة أثناء غيابه. وعندما عاد في أحد أيام السبت صباحاً كي يكتب تقاريره وجد لدهشته أنها اختفت.

فالإطارات الخشبية والأبواب والنوافذ والمكيف والمكتب وأدواته ـ جميعها اختفت بدون أثر. أعلمه أمين السر الدائم أنه تصرف بموجب أوامر وزارية. وفي صبيحة يوم الاثنين التالي قدم استقالته، وأخبره رئيس مكتب المؤسسة أن «يتريث» كإجراء وقائي. سحبت المنصب من أونغ وأبلغت فال ميدوز أن يقوم بواجباته من مكتبي.

ارتكب أونغ عدة أخطاء أخرى، وقد استنتجت الحكومة وعدد كبير من أعضاء الجمعية أنه سيكون عائقاً وليس مكسباً للحكومة. وكان كينغ سوي قد اشتكى لي كتابياً أنه كان قد طلب 415 مليون دولار للإسكان العام بدون تقديم أية خطط مفصلة أو كيف سيتم إنجازها. ولهذا أبعدته عن مجلس المدينة وجعلته يوزع أقسامه الرئيسية على وزراء الحكومة المقتدرين. ومن دواعي السخرية أن المبرر الذي قدم للجمهور هو أنه كان يحتاج إلى التركيز على الإسكان العام.

جعلت فال ميدوز أمين سري وكلفته بتقسيم مجلس المدينة، وأن يشكل هيئة للإشراف على دوائره الخاصة بالخدمات العامة، والمياه، والكهرباء، والغاز، والتفكير بما ينبغي عمله بالنسبة للدوائر الأخرى. أردت أن أُبين للموظفين عموماً أنني لم أوافق على ما حدث.

كنت عازفاً عن التصرف ضد أونغ، ولكن ليس بسبب الخوف من أن يحل محلي. لم أكن أتمنى عملي رئيساً للوزراء، فكل من سيستلم هذا المنصب سيكون هدفاً رئيساً عندما يفتح الشيوعيون النار، وأنا لم أستمتع بذلك. كنت أعرف أن أونغ ليس لديه الشجاعة لمجابهتهم. رأيته يبهت لونه عندما اتخذوه هدفاً في آب 1957 في مؤتمر الحزب وصوتوا ضده في اللجنة التنفيذية. رفض التمديد لقانون الأمن العام المحلي كما كانت تريده الحكومة، وعُهد لتشين تشي أن يبين رأينا. ومع هذا فقد ظل أفضل متحدث بلغة الهوكين لدينا. وإذا خفضنا من منزلته، فسنضعف موقفه الجماهيري ومن الصعب إيجاد بديل له.

كنا نواجه صعوبات على الصعيدين. وكان أونغ بأسلوبه المعتاد يثير الموظفين المدنيين.

كانت تصرفات أونغ، والاقتصاد، والموظفون المدنيون، والشيوعيون وصعوبات اللغة ـ كلها مشكلات راهنة وفورية لم تسمح لنا إلا بالقليل من الوقت كي نرجع إلى الوراء ونقوّم أداءنا. ولكن كان هناك شخص واحد مهتماً بعمق بمتابعة وضعنا وتقييمه في الأشهر الستة الأولى من وجودنا في السلطة، وهو بيل غود، الحاكم السابق، الذي ظل لمدة ستة أشهر الرئيس المؤقت للدولة. لقد قوّم الأيام الأولى من حكم حزبنا في ثلاث تقارير بعث بها إلى وزير خارجيته. جاء تقريره الأول في 26 حزيران. وقد بدأ الخطاب بلهجة متفائلة:

«الوزراء الجدد أذكياء. قدموا كثيراً من الأفكار في برنامجهم السياسي الذي قُدم للناخبين من خلال خطب معدة جيداً. إنهم اشتراكيون متطرفون بقناعاتهم، ولكنهم كانوا يعرفون القيود العملية المفروضة بحكم

ظروف سنغافورة الخاصة كونها مركزاً تجارياً دولياً. كما كانوا يعون خطورة المشكلة الاقتصادية المتجسمة بتزايد سكاني سريع يتوقع مستوى عالياً من المعيشة في مدينة تعتمد في دخلها على الأعمال التجارية الرابحة في مواجهة منافسة حادة. وقبل كل شيء كان يستحوذ عليهم الخوف من الشيوعية.

من أجل أن ينجحوا عليهم أن يكتسبوا تأييد طبقات الطلاب والعاملين الصينيين. وهنا يكمن ضعفهم، إذ لما كانوا مضطرين أن ينغمسوا في إيحاءات شعبية تعادي العمل الحر والطبقة التجارية التي يعتمدون عليها من أجل التقدم الاقتصادي فإن تعلقهم بالنضال السياسي والعقائدي لكسب عقول الجماهير لصالح اشتراكية ديمقراطية تفضيلاً لها على الشيوعية يمكن أن يلحق الضرر بمعالجة وافية بالغرض للمشكلات الأخرى لجعل اقتصاد سنغافورة ينجح...

ولقد قرر الوزراء أيضاً الحد من العناية بالوظائف الاجتماعية. أما الانطباع العام الذي يحاولون إبرازه هو تكريس الحكم لصالح الجماهير.

(ولهذا) فهم يدعون أنفسهم غير شيوعيين ويحرصون على أن يبيّنوا أنهم ليسوا دُمى في يد الغرب. إنهم يتحسسون حتى من المديح من جانب الغرب، لأنهم يعتقدون أنه يضر بالتأييد الشعبي للسكان الصينيين اليساريين في سنغافورة الذين يجب أن يتحفظوا بشدة تجاه القيادة البديلة للشيوعيين.

كان من غير المتوقع لفترة من الوقت أن يتحدى الحزب الشيوعي المالاوي MCP حكومة تحظى بدون شك بالدعم الحماسي من جانب السكان الناطقين بالصينية. ويقدر السيد لي كوان يو نفسه هذه الفترة من الامتياز أن تدوم مدة سنة أو أكثر».

وبعد شهرين ونصف أي في 7 أيلول، كان ما يزال متفائلاً رغم أنه سجل نقائص حكومتي:

«من الصعب أن ندرك أن حزب العمل الشعبي (PAP) قد تسلل إليه في السنوات الأربع الأخيرة الشيوعيون، ووصلوا إلى السلطة بتأييد من الجمهور اكتسبوه باستغلال مصاعب العمال والفلاحين وطلاب المدارس المتوسطة الصينيين والمثقفين الشباب. ولكن سيكون من الخطأ أن تظن أن مسؤوليات الحكومة قد غيرت هؤلاء الشباب.

«كان لدي لقاء أسبوعي مع لي كوان يوم الخميس بعد الظهر في مقر الحكومة حيث كنا نتحدث بحرية وصراحة. وجدته شديد النضج. وما يزال لديه بعض التحامل، ولكنه بصورة عامة حساس جداً وسريع وذكي دوماً. حدثته مراراً عن سلوك حكومته محذراً إياه بصراحة من العواقب التي أتنبأ بها. وكان في بعض الأحيان يصحح معلوماتي أو يطرحها بشكل آخر. وغالباً ما يكون هناك سبب معقول لما تقوم به الحكومة. وهو يوافق عموماً على انتقادي، ولا سيما ما يتعلق بمعالجة الخدمة العامة. وكان جوابه أن على الوزراء أن يتعلموا الطريقة الصعبة في رؤية نتائج أخطائهم. وأنه ينبغي ألا يعترضهم، وأن عليهم أن يتعلموا.

«وبينما نراهم في الأمور الكبيرة أقوياء ومسؤولين، نجدهم في الأمور الصغيرة عاطفيين ومملين. سنواجه صعوبات وقلاقل دائمة في التعامل معهم، أما اعتدالنا وتفهمنا سيكونان متكلفين. ولكن لديهم القدرة على تحقيق الكثير، ولا بديل لغير التعاون معهم. وأحزاب المعارضة غير موثوقة وربما محتضرة».

وفي 23 تشرين الثاني كتب تقريره الأخير.

وداع آخر حاكم بريطاني، سير وليام غود وزوجته في كانون الأول 1959.

مع الرئيس سوكارنو في قصر ميرديكا، جاكارتا، كانون الثاني، 1960.

«من غير المتوقع أن تلزم القيادة الحالية لحزب العمل الشعبي (PAP) نفسها علانية بأنها معادية للشيوعية. فموقف الحكومة تجاه الشيوعية قوي، ولهذا السبب نحن نشعر بالامتنان لها. ما زلت مقتنعاً بأن اعتبار قادة الحزب الحاليين شيوعيين مستترين هو خطأ فادح. وأن نصفهم معادون مستترون للشيوعيين هو أقرب للحقيقة.

«على الرغم من كل جهود وزراء سنغافورة لكسب رضى وزراء الاتحاد فإن موقف الاتحاد يظل غير موثوق. فرئيس الوزراء متأكد الآن أن ليس هناك أمل في الاندماج أثناء فترة الحكومة الحالية وهو يرى أيضاً أن التأكيد العلني على الاندماج في سنغافورة يسبب حرجاً سياسياً وعدم ثقة الجمهور بالاتحاد. ولكنه مهتم بإبقاء سنغافورة في وضعها الدستوري المؤقت الحالي والاحتفاظ بهدف الاندماج كونه نفوذاً حاسماً لسياسة سنغافورة. إنه يعتقد بصدق أنه سيكون مدمراً لكل من سنغافورة والاتحاد إذا أصبح الاتحاد غير قابل للتحقيق وإذا استدارت سنغافورة إلى اتجاه آخر في مستقبلها. فمن الأهمية بمكان لنا جميعاً ألا يحدث ذلك.

«وهكذا فإن الموقف اليوم أن السيد «لي كوان يو» ما يزال ماسكاً زمام الأمور في الحكومة، والحكومة متحدة بشكل جيد. لقد ارتكبوا أخطاء وهذا أمر كان متوقعاً، وباستثناء رئيس الوزراء فإن الوزراء لم يكونوا بالمستوى ذاته الذي بدأوا به. إنهم يجدون صعوبة في إدارة الحكومة بالمقارنة مع إدارة حزب سياسي ناجح. ولكن بصورة عامة قاموا ببداية طيبة من حيث الاستمرار في سياستهم المعلنة. يقول لي رئيس الوزراء أن أؤجل الحكم على أدائهم حتى يكملوا سنة في الحكم. وقد ثبت أن كل ما كان يقوله صحيح.

«ينبغي أن تستمر سياستنا في تأييد حكومة «حزب العمل الشعبي» وأن نفعل كل ما في وسعنا لنضمن سلامتها وثقتها. وبذا سنكون قادرين على المساعدة في منح سنغافورة حكومة موثوقة مستقرة. وبهذه الطريقة فحسب نستطيع أن نتجاوز الصعوبات الصغيرة الدائمة والاستفزازات التي تواجهها».

ومثل أستاذي في «معهد رافيلز» وصفني غود بتقرير جيد. يبدو أنه لم يكن يدري المتاعب التي كانت تنتظرني أنا ورفاقي، وكم ستتغير الأمور فيما بعد. كان لتقرير غود تأثير قوي على المفوض البريطاني الوافد حديثاً لورد سيلكيرك، أو بصورة أدق على نائبه فيليب مور، وهو موظف في الإدارة المدنية البريطانية، الذي كان أمين السر الخاص له عندما كان اللورد الأول في الأدميرالية.

قبل أن يغادر غود في الثاني من شهر كانون الأول (ديسمبر) قلت: إنه فعل كل ما في وسعه لخدمة الملكة وبلاده، كما أنه خدم شعب سنغافورة. قال لي مرة أثناء تناول الشاي في جلسة ما «نحن هنا لتحقيق بعض الكسب. ولو لم يكن ثمة ما نكسبه لغادرنا البلاد». لم يكن يتبجح أو يدعي، وقد ازداد احترامي له من أجل ذلك. وعندما قرر أن يغادر بحراً، لا جواً، كانت الحكومة في وداعه.

مع مغادرة آخر حاكم بريطاني كان علينا أن نعين رئيسنا الخاص بنا. وقد اخترنا يوسف بن اسحاق المدير الإداري لـ «أوتوسان ميلايو» ليكون خليفته. كنا نريد مالاوياً متميزاً لنظهر للاتحاد أن السنغافوريين يقبلون بأن يكون مالاوي زعيماً لهم. وكنت أعرف أنه رجل طيب يتميز بالتواضع والكرامة. وكانت زوجته شخصية اجتماعية حيوية ومحببة. وأدى اليمين في 3 ك 1 (ديسمبر) في «سيتي هول» وجرى احتفال رسمي في هذه المناسبة حضره عدد كبير من المسؤولين والجمهور.

جرى خلاف حول العلم الرسمي للبلاد بين الجماعات المختلفة، وأخيراً تم الاتفاق على علم يتضمن رسم الهلال وخمس نجوم بيضاء. تمثل المُثل الخمس للبلاد: الديمقراطية، والسلام، والتقدم، والعدالة، والمساواة. وبهذا وفقنا ما بين الرمز والمثل العريقة المختلفة.

كما اتفقنا أخيراً على رمز سلاح الدولة الذي يحمل صورة الأسد والنمر على وجهي الدرع الذي يحتوي على هلال مع خمس نجوم، وتحته عبارة «ماجولاه سينغابورا» التي تعني «لتزدهر سنغافورة». كما تم اختيار النشيد الوطني إذ كان

ذلك أسهل الأمور فالموسيقار المالاوي الحاج زبير وضع لحناً مناسباً. لم يكن لحناً عسكرياً كالمارسيليه الفرنسي أو النشيد الوطني الصيني. كان النشيد يتناسب مع منطقتنا وشعارنا «ماجولاه سينغابورا».

وعلى الرغم من العثرات في الشهور الستة الأولى في الحكم استطعنا وضع أسس عدة سياسات حكومية مهمة، بما في ذلك مشروع بناء لتطوير سنغافورة وإعمارها.

وفي شباط 1960 حلّينا «اتحاد تحسين سنغافورة» ووزعنا مهماته بين «هيئة الإسكان والتطوير»، التي كانت تحت إشراف وزير التنمية الوطنية، و«سلطة التخطيط» التي كانت تحت إشراف رئيس الوزراء. وعيّنا ليم كين سان رئيساً لهيئة الإسكان وكان ذلك عملاً حاسماً. فقد كان ليم رجل أعمال، وشخصاً عملياً ومبتكراً. كان يدير أعمال والده التجارية بالإضافة إلى عمله مديراً لأحد أكبر المصارف المحلية. كان رجلاً متعدد المواهب. وكان كينغ سوي حريصاً على أن تنفق أية اعتمادات على الإسكان الشعبي بصورة سليمة أما أونغ إينغ غوان فلم يكن يسمح بهدر الأموال العامة.

بعد فترة قصيرة من تعيين كيم سان جاء ليراني. كان أونغ قد أمره أن يستأجر عمال بناء مباشرة وبهذا يُبعد متعهدي البناء الوسطاء الذين «يستغلون العمال». أراد أن تكون «هيئة الإسكان والتنمية» (HDB) نموذجاً للتنفيذ. كان كيم سان مرتبكاً. سألني: «هل تريدني أن أبني بيوتاً أم تريدني أن أكون متعهد عمال بناء؟». إذا كنت تريد شققاً فأنا أعرف كيف تبنى الشقق، ودع ذلك لي، سأبني لك هذه الشقق. أما إذا كنت تريدني أن أستأجر العمال مباشرة، فمن الأفضل أن تجد مسؤولاً آخر. فكل متعهد لديه مشرفوه وأقرباؤه ومن يثق بهم من المشرفين على العمل. وبالمقابل فإن لديهم جماعاتهم من العمال وهم يعرفون كل شخص في مجموعاتهم ويدفعون لهم بقدر ما يقدمون».

كانت هذه إحدى حيل أونغ السياسية كي يجعل نفسه تحت الأضواء. فمنعته من ذلك وطلبت من كيم سان أن يتبع الأسلوب الذي يراه مناسباً. فبنى الشقق فعلاً. وقد حدثت حريق كبير جرى في حزيران 1960 فأصبح ما يقارب من 30 ألف شخص في منطقة تعرف باسم «بوكيت هو سوي» بدون مأوى. وفي غضون 18 شهراً وفر لهم كيم سان شققاً. كما وضع سداً في مقر إقامتي على طول شارع كانتونمنت، في موقع ظاهر. ولو أنه لم يكن على وشك الإنجاز في وقت الانتخابات القادمة لما انتخبت من جديد.

جميع الحكومات الجديدة تريد أن تبرهن على قدرتها من خلال إصدار قوانين جديدة والشروع بكثير من المشروعات الجديدة. كنا في عجلة من أمرنا. ففي شباط 1960 أعلنت عن خطط لإعادة تنظيم «هيئة ميناء سنغافورة» وأوكلت ذلك إلى «سلطة ميناء سنغافورة». وبعد ذلك قمنا بالقراءة الأولى لـ «قانون المرأة» لجعل سنغافورة من الدول التي تتمتع النساء فيها بحقوق المساواة ومنع تعدد الزوجات. وأوجدنا «محكمة للعلاقات الصناعية» وفقاً للنموذج الأوسترالي، وعيّنا رئيساً لها تشارلز غامبا، أستاذ الاقتصاد في جامعة ملايا. كان معروفاً بوصفه محكماً في إضراب هوك لي للباصات، بالتعاطف مع العمال، ولكنه لم يكن متحاملاً على أصحاب العمل. كما أطلقنا برنامجاً لتخطيط الأسرة بوجود ألف متطوع كانوا متدربين على ترويجه في أوساط الجمهور، وحريصين على تخفيض نسبة الزيادة السنوية في تعداد السكان والبالغة 4%. والأهم من ذلك وضع مشروع قانون يمنحنا صلاحيات أوسع لمحاربة الفساد. إذ كان من الأولويات أن نعزز القانون بحيث يمكن اتهام الفاسدين ومحاكمتهم أمام القضاء. وهذا ما أدى إلى تشكيل وكالة جديدة وهي «مكتب التحقيق في ممارسات الفساد» الذي ساعد على جعل سنغافورة نظيفة.

أعلنا أننا سنقدم مساعدة مادية متكافئة لكل من «جامعة مالايا» (في سنغافورة) وجامعة نانيانغ بمعايير متساوية. وقد طالب «اتحاد طلاب جامعة نانيانغ» في صحيفتهم (يونيفيرستي تريبيون) بعد أن عبروا عن سعادتهم

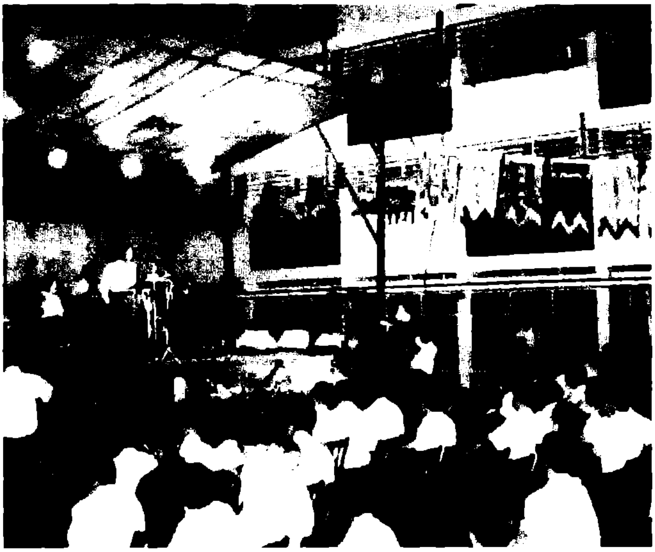

رئيس هيئة الإسكان والتنمية (HDB) ليم كيم سان يتحدث في حفل إنجاز الشقق التي بنتها «الهيئة» في شارع كانتومين في العاشر من نيسان 1964. كنت أجلس خلفه

أنا وكيم سان داخل شقة سكنية جديدة مكونة من ثلاث غرف مساء العاشر من إبريل، حيث كانت سنغافورة أفقر حالاً حينئذٍ

بالمعاملة المتساوية، بأن تكون المساعدة غير مشروطة. وكنا قد طورنا آفاق الطلاب الناطقين بالصينية بالسماح لهم بالالتحاق «بجامعة مالايا». وقد بدأنا بدورات ما قبل جامعية في ثلاث كليات هي الفنون، والحقوق، والعلوم بالنسبة للطلاب غير المؤهلين باللغة الإنكليزية كي نعدّهم «لجامعة الملايا».

بيد أن خططنا الاقتصادية لم تحقق إلا تقدماً يسيراً. وكنا تحدثنا في شهر أيلول مع المالاويين حول تشكيل سوق مشتركة محدودة، ولكننا وجدناهم أقل استعداداً من ذي قبل. كانت الأمور في غاية السوء بحيث أن أحد الصناعيين عندما خطط لتوسيع مصنعه لغزل القطن اعتبر هذا حدثاً مهماً لأن من شأنه أن يستوعب 300 عامل. كانوا في حالة يأس بسبب فرص العمل.

كانت السياحة في ذلك الحين صناعة ناشئة في آسيا لأن معظم السواح كانوا يزورون الدول المتقدمة. فجعلنا من عام 1961 عام «زيارة الشرق» مع عرض جوي، ومعرض للتلفزة والراديو، ومعرض سيارات، ومعرض صور واحتفالات يوم الاستقلال في 3 حزيران، تلاها احتفال ثقافي لمدة أسبوعين. ولكن البرنامج لم يلق إقبالاً واسعاً.

علقنا آمالنا على وفد «هيئة المساعدة التقنية» التابع للأمم المتحدة، الذي جاء إلى البلاد لمسح الموقع السياحي المقترح «لجوردنغ»، وتقديم المشورة لأنماط الصناعة المناسبة له. وكنا موفقين في اختيار رئيس الفريق د. ألبرت دينسميوس، وهو خبير صناعي هولاندي أمضى 3 أشهر في سنغافورة، وقدم عدة إسهامات من أجل تطويرها. كان رجل أعمال عملياً قوي الإرادة وعلى اطلاع واسع على اقتصاديات ما بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا وأمريكا. واستطاع أن يضطلع بدور مهم في تخطيطنا الاقتصادي فيما بعد.

كنا نعتمد أشد الاعتماد على التجارة، ولا سيما مراكز توزيع السلع. وفي الشهر الماضي صل وفد إندونيسي لمناقشة كيفية التخلص من «التجارة غير النظامية"، وتحسن عائدات التبادل. كانوا يريدون منا أن نقرض الهند الصينية

بالعملة الصعبة بنسبة مئوية مرتفعة من قيمة صادراتهم إلى سنغافورة، وفي مقابل ذلك سيشترون كمية من البضائع يتفق عليها من خلالنا. ولكن سيكون من الصعوبة بمكان أن نحصل على موافقة القطاع الخاص، إذ لا أحد يصرح بقيمة مستورداته من إندونيسية أو صادراته إليها، وبكم اشتراها أو باعها فعلاً، فالشاحنون الأندونيسيون سوف يقللون من قيمة بضائعهم، وسيستخدمون غالباً إجازة التصدير نفسها لإرسال وجبة أخرى من البضائع، وهكذا.

كان تهديد الشيوعيين، بتأثير وضع البطالة، أكبر من أي وقت مضى. وكان «مجلس الأمن الداخلي» منزعجاً بشكل زائد من نمو قوتهم في النقابات، ويطالب حكومة سنغافورة بالتحرك ضدهم. فرفضت ذلك. إذ لو فعلنا هذا فستنتهي بنا الأمور كما انتهت بليم يوهوك، أي باعتقال النشطاء مما سيزيد الأمر سوءاً بدلاً من إصلاحه. كان غود قد سمح بذلك قبل أن يستلم السلطة، ولكنني كنت تحت ضغط دائم من جانب المالاويين كي أفعل شيئاً.

عقد غود، مرتدياً قبعته الأخرى بوصفه قوميسياراً بريطانياً ورئيساً «لمجلس الأمن الداخلي»، اجتماعه الأول في شهر آب. وقد مثلتُ أنا وأونغ إينغ غوان، وبانغ بون سنغافورة، ومثل حكومة المالايو د. إسماعيل بن داتو عبد الرحمن، وزير الشؤون الخارجية. كان إسماعيل، الطبيب، قصيراً وبديناً بعض الشيء وشديد السمرة، وذا شعر أشعث وشائب، ويلبس نظارات، والغليون في فمه طوال الوقت. كان هادئاً ومتحفظاً ولاعب غولف ماهر. ومن أجل أن أجاريه عدت إلى لعب الغولف بعد أن أهملته. شعرت نحوه بالود والاحترام بسبب سلوكه المباشر والمستقيم، كان يعرف ماهية عمله ـ أي أمن مالايو. كان يصغي إلى نصائح ضباطه الخبيرين بالشيوعية والتخريب، وكان مصمماً على ألا يكسب الشيوعيون الصينيون المالاويون. كان ملتزماً بسياسة «حزب العمل الشعبي» وأساليبه ضد الشيوعيين، وقد احتجت إلى بعض الوقت لإقناعه أننا تبنينا أسلوباً آخر، لأن قاعدتنا الشعبية كانت من الغالبية الناطقة بالصينية التي كانت عرضة للضغط الشيوعي.

ومع تعرفي على الوزراء المالاويين على نحو أفضل، أضحى الرجل الذي أثق به ثقة مطلقة. كان أميناً ومخلصاً في تعامله معي، وأعتقد أنه كان يقدر صداقتي واحترامي له. كان الرجل الثالث في قيادة «منظمة مالايو الوطنية المتحدة» ـ UMNO بعد «التونكو» ونائب رئيس الوزراء عبد الرزاق الحاد، ولكن اسماعيل كان الزعيم الأبرز والأكثر حزماً. وعندما استقال تونكو، عين رزاق، بوصفه رئيساً للوزراء، نائباً للرئيس. كان بوسعه أن يكون رئيس وزراء جيدا للغاية لو لم يعاجله الموت وهو صغير السن نتيجة أزمة قلبية.

في اللقاء الأول قدمت سنغافورة ورقتي عمل: واحدة من قبل المختصين في الفرع الخاص، والأخرى من الوزراء الذين يسعون لتحرير أولئك المعتقلين من حزبنا والذين تربطهم به صلة وثيقة. أشار غود إلى أن خبراء «الفرع الخاص» قد أفادوا بأن الأحداث السابقة تكرر نفسها ـ فقوة الشيوعيين في تحدي الحكومة تتزايد ـ وتساءل ما إذا كان من الحكمة الآن التدخل لسحق الوحش قبل أن يكبر ويصبح أكثر خطراً. اعترضت على ذلك. فألح غود عليّ لشرح سياستنا. قلت: إن سياستنا بالمعنى الواسع ألا ننخدع بمناورات الشيوعيين. إذا لم نهيء الأرضية بحيث يفهم العمال الناطقون بالصينية أن زعماءهم اعتقلوا لأنهم ألحقوا ضرراً بالاقتصاد، وبالتالي عرضوا أعمالهم للخطر، فلسوف نخسرهم. يجب ألا نجعلهم يعتقدون أن قادتهم اعتقلوا لأنهم كانوا نقابيين جيدين وموالين للشيوعيين.

لم يفهم إسماعيل هذه المقاربة. وشرح كيف أن سياسة التشدد في «الاتحاد» قد أحبطت التخريب الشيوعي. قلت له: إن المالايو تختلف عن سنغافورة. إذ تستطيع حكومة المالايو أن تستخدم الشدة ضد الشيوعيين دون أن تخسر تأييد الجماهير ذلك أن الغالبية من المالاويين. بيد أن حكومة سنغافورة لا بد أن تحاول كسب قاعدتها الجماهيرية ـ الصينيين غير الحزبيين. ولاسيما المثقفون منهم الذين يستطيعون التأثير على الآخرين. كان غود يتفهم موقفنا، ولكنه مال إلى رأي إسماعيل.

كنا بحاجة إلى أعصاب هادئة كي نتشبث بموقفنا. ففي نهاية الشهور الستة الأولى كان بناء الجبهة الشيوعية المتحدة ما يزال مستمراً. وكان ليم تشين سيونغ ورفاقه يجذبون مزيداً من النقابات إلى صفوفهم، وما إن أصبحوا الأكثرية، فإن «المؤتمر النقابي» (TUC) الذي تنتمي إليه النقابات الشيوعية وغير الشيوعية، سوف يتخلص من وصاية «الاتحاد الدولي للنقابات الحرة» (ICFTU) الذي يرعاه الغرب. وكان هذا «الاتحاد» قد أسس لمواجهة «الاتحاد العالمي للنقابات» الذي ترعاه موسكو. وكان الموالون للشيوعيين يتذرعون بأن «الاتحاد» المذكور يرتبط بسياسة القوة.

في غضون ذلك كانوا يعملون بدأب من أجل فونغ سوي سوان وإعادته إلى الطوق. كان فونغ من الناطقين بالصينية، خلافاً لنير، وأسيراً لأساطير الحركة الثورية في الصين، ولا يتحلى بالفضائل التي تجعله يتقبل مفهوم التغيير الاقتصادي والاجتماعي الثوري بالوسائل السلمية. كانت الثورة بالنسبة لذوي الثقافة الصينية من أمثال فونغ، تتطلب العنف. لأنها بدون عنف ستكون، بحسب الديالكتيك الماركسي «مجرد إصلاح» وعلى أية حال ما كان يستطيع أن يقاوم الانجذاب العاطفي للصداقات القديمة والولاءات التقليدية. سرعان ما مال وودهولُ وبوثو تشيري نحو الجانب الأقوى الذي لا يهزم كما يبدو. فعزلوا نير الذي استقال، بموافقتي، من منصبه «أمين سر سياسي» في شباط كي ينشغل بدراسة جدية وكتابات مخصصة «للإسهام في دعم الأسس الإيديولوجية والنظرية لحزبنا (PAP)».

تنقل ليم تشين سيونغ وفونغ من قوة إلى أخرى، منتصرين لصالح المعسكر الموالي للشيوعية (TUS) ليس فقط على الزعماء النقابيين الناطقين بالإنكليزية بل وقليل من الناطقين بالمالاوية. وقاما، مُعززين بالنجاح، بنشر عدة بيانات تنتقد موقف الحكومة تجاه المحتجزين والنقابات، بحيث كان عليّ في الأول من آب أن

أحذر في «الجمعية» أنهم إذا تحدوا السلطة فسوف يُواجهون برد خطير. بعد ذلك صرح رسمياً ثلاثة من الأمناء العامين السياسيين ـ ليم تشين سيونغ، وفونغ، وودهول ـ أن موقفهم ما زال على حاله كما كان عندما تحرروا من الاعتقال في حزيران 1959: لكي يؤيدوا حزبنا وسياسته القائلة بأن الاستقلال ينبغي أن يتحقق من خلال الاندماج بالاتحاد.

في ذلك الوقت كانوا يظنون أن الاندماج كان في مستقبل غير محدد. وكذلك أنا ـ ولكنهم مع هذا كانوا يشجعون مطالب باستقلال سنغافورة بدون اندماج.

21. مهزوم في هونغ ليم

كنت أعرف أن أونغ إنغ كان يتآمر مع بعض أعضاء الجمعية ولكنه لم يقلقني كثيراً، لأنني كنت واثقاً أنه لا يستطيع مطلقاً أن يحصل على أغلبية تؤيده. ولكنه أصبح متهوراً. فهو إذ فقد السلطة بات مستعداً للإضرار بنا حتى لصالح الحزب الشيوعي. وفي مؤتمر الحزب في حزيران 1960 طرح فرع هونغ ليم 16قراراً، أربعة منها طرحت من أجل منحه تأييد الشيوعيين.

ومن أجل تبديد شكوكي، كان ليم تشين سيونغ ورفاقه قد احتجوا قبل ذلك بأنهم لن يكونوا على صلة مع أونغ. وأصدر (المجلس النقابي) بياناً جاء فيه على الرغم من أن الحزب (حزبنا) قد ارتكب أخطاء فإنهم لن يؤيدوه. ولكنني كنت أعتقد أنه بوسع المجلس الضغط على أصدقائه لمنعه من ذلك. دعت القرارات إلى سياسة أشد معاداة للكولونيالية، والإفراج الفوري عن جميع المعتقلين، والمراجعة الفورية للدستور. بمعنى آخر ظهر أن الحكم الذاتي الداخلي لم يكن جيداً بما فيه الكفاية.وهكذا أراد أونغ أيضاً الاستقلال. كنا نريد حسم النزاع. كان معزولا في الحزب، وبعد يومين من المداولات، فصله المؤتمر مع اثنين من الجمعية سانداه ـ هما س. ف لينغمان ونغ تينغ كيان، وكلاهما من الهوكين الذين يتحدثون الصينية مثل أونغ. وقد غادر ثلاثتهم المنصة ليجلسوا في صفوف المعارضة.

أصيب أونغ بالإحباط. فقد أفل نجمه، ولم يعد موضع اهتمام في الصحافة لذا لجأ إلى لفت الانتباه باللجوء إلى أمور غير متوقعة. ففي شهر أيلول دعا رئيس الوزراء إلى منازلة في (مجلس الأمن الداخلي) من أجل إفراج غير مشروط عن جميع المعتقلين السياسيين. ولم يكن هذا ليفيده. مرة أخرى إنه سيفيد الشيوعيين فقط على الرغم من أنهم لا يثقون به ولا يحترمونه. ولكن تصرفه من شأنه إرباك الحكومة. إذ من غير المتوقع أن تقوم حكومة الاتحاد،

ذات الأغلبية في (مجلس الأمن الداخلي) على إطلاق سراح أشخاص مقتنعة بأنهم كانوا يشجعون الحزب الشيوعي المالاوي mcp. ولما كانت الحكومة تعمل لصالح شعب سنغافورة من خلال الاندماج في الاتحاد، فليس لديها نية لاتخاذ إجراء في غير صالحه .

كانت استراتيجية يونغ أن يظهرنا كتابعين للإمبرياليين، وهو قد اتخذ الآن خطوة أبعد. في تشرين الأول قال: ادعى أنني قد أصبحت دمية يحركها جورج تومبسون «مدير دوائر الاستعلامات»، والذي أصبح الآن مرشدي وفيلسوفي. أراد أن يضعف موقفي أمام الناطقين بالصينية بتصويري على أني الناطق باسم كاتب الخطب والناصح الاستعماري. وزعم أن فال ميدوز وآلان بليدز قومسيار الشرطة، كانا يتلاعبان بي. وعندما تحديته أن يكرر هذه الأقوال خارج «الجمعية» ظل صامتاً.

وفي اجتماع الجمعية التالي في شهر كانون الأول (ديسمبر) اتهمني أونغ بمحاباة الأقارب، زاعماً أنني عينت كوا سون تشوان نائباً للمسؤول (عن دائرة العائدات الداخلية) لأنه كان صهري. ومرة أخرى طلبت منه أن يقول ذلك خارج البرلمان. وعندما لم يفعل، قدم تشين شي، بوصفه رئيساً للمجلس، اقتراحاً بتوجيه اللوم إليه بسبب تصرفه غير المشرف، وتعليق عضويته حتى يقدم الاعتذار للمجلس.

كان جديراً بأونغ أن يصمت ولكنه ادعى أن «الجمعية» ليس لها صلاحية إدانة عضو. وتحداني أن أستقيل وأن أنازله في انتخابات فرعية تجري في دائرتينا الانتخابيتين، وجدد اتهاماته ضد حزبنا وقال: إنه يساند (لجنة الخدمة العامة). وقَبِل بالتحقيق في الاتهامات من قبل لجنة يشكلها «المجلس»، ولكن قبل أن تعقد الجمعية اجتماعها في اليوم المحدد قدم استقالته. وأعلنا أن لجنة للتحقيق سوف تشكل برئاسة قاض من المحكمة العليا للتحقيق في المزاعم. وأنه بعد تقديم التقرير إلى المجلس ومناقشته ستجري انتخابات فرعية في هونغ ليم.

في 3 كانون الثاني (يناير) عام 1961 عيّن وزير العدل ف.أ. تشوا رئيساً للجنة التي عقدت مابين 17 كانون الثاني والأول من شهر شباط. كان هدفي الرئيسي من التحقيق أن أضغط عليه كي يثبت جميع التهم التي وجهها إلي. وجاء في تقرير تشوا، الذي صدر في شباط، أن لا صحة لأي من المزاعم التي ذكرها وأن أونغ رجل غير صادق (ولا يوثق بكلامه) وناقشنا المسألة في «الجمعية» وأدنّا تصرف أونغ غير الشريف. فقد استطعت أن أكشفه كرجل كذاب وشرير. وتأملت أن تهتز مكانته لدى الناطقين بالصينية في هونغ ليم. ولكنني كنت مخطئاً في ظني.

كانت حملتنا الانتخابية طويلة فقد امتدت 9 أسابيع من 11 آذار إلى 29 نيسان. رشحنا جيك يون ثونغ الصحفي الذي كتب خطبتي الأولى بلغة الماندرين.

وبعد اللقاءين الأولين للشارع الأولين في هونغ ليم عرفنا أن الجو فاتر. ولم تكن شعبية أونغ الشخصية قد تأثرت. كان قد قدم للناس الكثير جداً من الأفعال الطيبة. فقد نصب الأعمدة ومصابيح إضاءة الشوارع وتحدث عن توزيع إجازات سيارات الأجرة مجاناً. كان الجمهور راغباً في تجاوز أكاذيبه وكثير من إخفاقاته. كانوا مستائين لأننا لم نعط إجازات هجرة إلى أقاربهم في الصين. والتي أثارها الآن بوصفها قضية مهمة، على الرغم من أنه لم يفعل ذلك من قبل أبداً عندما كان وزيراً. كان يعرف أننا إذا وافقنا على ذلك فلسوف يسبب ذلك اضطراباً كبيراً مع الأعراق الأخرى، بما في ذلك الصينيون الناطقون باللغة الإنكليزية، كما سيثير بالتأكيد عداوة الملايو. لم يكن الناخبون مهتمين بحلوله الأربعة المناسبة للشيوعيين. فقد اكتشفنا ذلك ونحن نشق طريقنا بصعوبة. ثم قمت بجولة حول هونغ ليم وهي منطقة مزدحمة في وسط «تشاينا تاون» صعوداً وهبوطاً عبر الأدراج الخشبية المتداعية للمخازن الخربة لأطوف فيها جميعاً، وأزور أحياناً الأماكن ذاتها مرتين أو حتى ثلاث مرات.

الناس كانوا مهذبين ولكنهم غير مستجيبين. حاولنا جهدنا، ولكننا عرفنا أنهم كانوا شديدي الولاء لأونغ، وكان علينا أن نلجأ إلى ليم تشين سيونغ، الذي لم يكن راضياً لأننا غيرنا القانون من أجل إعطاء سيطرة أفضل على النقابات الموالية للشيوعيين والجمعيات الثقافية.

كان ليم تشين سيونغ يريد الإطاحة (بمجلس الأمن الداخلي) لأنه كان يعرف أنه إذا تخطى بعض الحدود فإن المجلس سيتصرف، وإذا أمر باعتقال وإدانة الزعماء الشيوعيين، فإن حكومة سنغافورة لن تعتبر مسؤولة وستوسم بأنها أداة للاستعمار. إذا أن ممثل الحكومة المالاوية، وليس الحاكم البريطاني، هو الذي سيشد الزناد. عندما رفضنا أن نتزحزح، خطبَ ليم في اجتماع ضم الآف النقابيين في قاعة فكتوريا التذكارية أثناء الحملة حول هذه الأمور وأوعز إلى هونغ ليم ألا يساعد حزبنا. وعندما تم إحصاء الأصوات هزم أونغ مرشحنا بـ 7747 صوتاً مقابل 2820 صوتاً.

كانت هذه هزيمة نكراء ولكنني صممت على متابعة الصراع. قلت: «النتائج تجعل من المحتم علينا أن نبني موقف الثقة بأنفسنا».

أحد عوامل العزاء في هذه التجربة المريرة أنني اكتسبت ثقة كمتحدث بلغة الهوكين. فبخسارة أونغ في حزيران عام 1960، كنا قد خسرنا متحدثاً فعالاً بلغة الهوكين ينافس ليم تشين سيونغ. وكان كينغ سوي قد اقترح أن أقوم أنا بجهد كي أحلّ محله بدلاً من أن نختار شخصاً آخر يمكن أن يسبب لنا المتاعب ثانية. وهكذا بدأت أتعلم العامية مقتنصاً ساعة من الوقت عند الغداء أو في المساء لثلاث مرات وأحياناً لخمس مرات في الأسبوع. كان لدي معلمان جيدان كلاهما من إذاعتنا، كان عليهما أن يعلماني نصاً جديداً روماني الطابع كي التقط اللفظ بالهوكين ذات الخصائص الصينية. إذ لا تشبه لغة الهوكين لغة الماندرين مطلقاً، فلا نجد فيها سبع نبرات بدلاً من أربع كما أنها تستخدم مزيجاً مختلفاً من الأفعال والأسماء والصفات. ولكن كلتاهما تنبثقان من الصينية، ومن حسن الحظ

أن لغة الماندرين قد وصلت إلى مستوى متقدم بشكل كاف بالنسبة لي كي أتحدث بهـا، أي ليس عن قـرب فـقـط بل من المسـتوى الثـاني أو الثـالث من بناء ذي 25 طابقـاً. ومع هذا فإنني عندمـا ألقيت أول خطبـة لي بلغـة الهوكين في هـونغ ليم. ضحك الأولاد المتجمهرون وسط الجماهير على أخطائي، والتي شـملت ألفاظاً ونبرات خاطئة، وأخطاء في تركيب الجملة، بل أخطاء في كل شيء تقريباً. ولكنني لم أخجل أو أشعر بالحرج. كـانت مسألة حياة أو موت. لم تكن مجرد مسألة صـراع مع أونغ. فـقـد كنت أسـتـعـد للمنازلة الحـتـمـيـة مع ليم تشين سـيـونغ والشيوعيين. وسوف أخسر بالتخلف إذا لم أستطع التحدث بالعامية جيداً بحيث أوصل أفكاري إلى الصينيين الأميين أو محدودي التعليم الذين كانوا آنذاك يشكلون الأكثرية والذي ما كان بوسعي أن أتواصل معهم عن طريق لغة الماندرين. في نهاية الحملة وبعد خطب لا حصر لها كنت أتحدث الهوكين بصورة مفهومة.

فيتعلم المرء لغة جديدة في أواخر الثلاثينيات من العمر، وهو يقع تحت ركام من الأوراق التي كتبت علها عبارة فوري، أو ملح أو سري جداً، وأضابير ضخمة، كان يتطلب تركيزاً وجهداً فوق قدرة الإنسان. وما كان بوسعي أن أفعل ذلك بدون دافع قوي للدراسة.فعندما بدأت كان الأمر في منتهى الصعوبة، أشبه بحمل مرجل من النحاس أمام المعبد كما يقول المثل الصيني. حتى عندما كنت أتجه بالسيارة إلى اجتماعات، كنت أتمتم ببعض الكلمات في السيارة، وأكرر تعبيرات جديدة. وفي بعض الأحيان يكون أستاذي إلى جانبي لتصحيح أخطائي على الفور بعد خطبتي الأولى وقبل أن أشرع بالثانية. كنت أمضي كل دقيقة ضائعة في المراجعة كي يكون لفظي سليماً، وأتذكر كلمات جديدة كي ترسخ في ذهني بحيث أستطيع أن ألفظها بدون العودة إلى النص. كان علي أن أتعلم بسرعة.

ومن خلال التمرين والإعادة على مدى الأشهر القليلة التالية، كنت أتكلم بدون العودة إلى النص، وأرتكب الأخطاء وأصححها مرة بعد أخرى. وفي النهاية تمكنت من اللهجة المحلية وبات بوسعي أن أقوم بخطبة لمدة نصف ساعة بدون تلمس الكلمات والتعابير أو البحث عنها بقلق في نصي الخفي. كان الجمهور

يراقب كل هذا وقد كسبت احترامه. فعندما بدأت كنت خجولاً ومتلعثماً ومضحكاً، وها أنا اليوم أمامهم قادر على مخاطبتهم بطلاقة بلهجتهم. ربما كنت أخطئ في استخدام المصطلحات والقواعد اللغوية، ولكن لم يكن هناك خطأ في المعاني التي أقصدها وأطلقها بجرأة وشعور بالقناعة وأحث بعضهم في النهاية على أن يوافقني.

فأصبحت انتقي كلماتي. لم يكن لدى حزبنا ليم تشين سيونغ أو أونغ إينغ غوان، وكلاهما يتحدثان بلغة الهوكين القومية بالنسبة إليهما. كان الناس يعرفون أنني بدأت من الصفر عام 1961 ولم يكن لديهم شك في تصميمي ومثابرتي. «أنا من الهاكا» وهذه أقلية تعيش وسط متحدثين بلهجات أخرى يفترض أنهم لغويون ممتازون. وهذا ما زاد من شهرتي. لقد ظنوا أنه أمر طبيعي بالنسبة لي أن أتعلم اللغات بسهولة. ولكن تشو كانت تعلم كم تجشمت من الصعاب كي أتعلم الهوكين بإتقان.

بعد الهزيمة في هونغ ليم بوقت قصير (واجهتنا هزيمة أخرى). فقبل التصويت لهونغ ليم بتسعة أيام توفي بهار الدين بن محمد عارف، عضو جمعيتنا، بأزمة قلبية. كان شاباً مالاوياً في الثلاثينيات من العمر يعمل صحفياً في صحيفة «أوتوسان ميلايو»، ومستشاراً في حزبنا، نشيطاً وذكياً وواعداً. كانت وفاته صدمة، وتعني إجراء انتخابات فرعية. كنت أعرف أن الشيوعيين سوف يحاولون الآن تعقبنا. وسيرون في هونغ ليم إشارة إلى أن الناطقين بالصينية الذين كسبناهم في الانتخابات العامة كانوا أكثر تأييداً لأونغ منا وأننا نحن الناطقين بالإنكليزية لم يكن لدينا نصير حقيقي في أوساط جماهير الناطقين بلغة الهوكين.

في ذلك اليوم من أيام شهر أيار، بعد أن ذهبت إلى المؤتمر النقابي الحاشد في ملعب جالان بيسار، قررت أن أترك بصماتي. مستشهداً بالتعبير الشيوعي لليم تشين سيونغ «ابحث عن اتفاق وحافظ على الخلافات»، وهو شعار

ماوزيدونغ إذ كان كثيراً مايردده عندما يدعو إلى جبهة متحدة حول موضوعات معينة. ولكي أوضح أن حزبنا لن يطالب بإلغاء «مجلس الأمن الداخلي» عندما يراجع الدستور عام 1963 قلت: «ابحثوا عن اتفاق إذا كنتم ترغبون، ولكن موقف هو حزبنا: حافظوا على خلافاتكم، وابحثوا عن اتفاق إذا وجدتم حزبنا ضد مصالحكم». كنا نعتقد أن المسائل الأساسية حول التغيير الدستوري ينبغي أن تظل مفتوحة حتى عام 1963، ولكن بسبب التطورات قبل وبعد وأثناء انتخاب هونغ ليم الفرعي، قررت أن أعالجها مبكراً.

بعد بضعة أيام جاءت فتاة صينية مرافقة للسواح لترى تشو في المكتب ومعها رسالة لي. وكانت الفتاة نفسها قد حملت إلي في وقت مبكر من ذلك العام مذكرة من «بلين» يطلب مني فيها أن أحدد الاسم المستعار الذي سأستخدمه عندما أتواصل معه. فقررت أن أستخدم كنيته «فانغ» وأن أستخدم الاسم الأول «بينغ أن» الذي يعني «السلام والسكينة» سألني هذه المرة ما إذا كنت سأقابله، وإذا كان الأمر كذلك فلأطلب رقم الهاتف التابع لمخزن روتشور رود لبيع العجلات.

ترددت. فعندما تقابلنا أول مرة كنت مجرد عضو جمعية. أما الآن فقد أصبحت رئيس الوزراء. وإذا اكتشف أنني أتصل بعدو فسيكون الأمر في غاية الإحراج. فأنا سأذهب إلى لقاءه في موقع سري ما وحدي. إذا كنت أشكل تهديداً لخططهم فإن الشيوعيين سيتخلصون مني بهدوء . قررت أن أقوم بمخاطرة محسوبة لأعرف ماذا يدور في خلده. قد يكون ذلك خطراً عليهم أيضاً. فربما أذهب إلى الاجتماع وقد أعلمت الشرطة مسبقاً بذلك. قد يعدون له كميناً. ولكن باختيار اسم مستعار يتضمن اسمه الأول، فسأقول إنني أعرفه، بوصفه شقيق عضوة البرلمان في حزبنا فونغ ين تشينغ. ولو أنني كنت أريده أن يعتقل لما تصرفت هكذا، وهذا ما يجعله متأكدا من أنني مخلص له. وعلي أن أنتهز الفرصة بأنه هو أيضاً لا يخدعني أو يستغل موقفي الهش.

عندما حادثته بالهاتف تأكدت أن الصوت الذي أجاب هو صوت الشخص الذي اتصل بي أول مرة عام 1958. ووافقنا على الموعد نفسه في الساعة الثامنة مساءً. مرة أخرى استخدمت سيارة أبي الصغيرة من نوع «موريس ماينور». وبعد جولة في الطريق انتهى بنا الأمر إلى «أملاك سان ميشيل»، وهي مجمع نصف مبني من شقق «هيئة الإسكان والتنمية» بعيداً عن شارع سيرانغون.

نالت قدرة وإبداع المنظمة الشيوعية إعجابي. فلا أحد يتورط في هذا الاجتماع إلا، HDB . مشيت إلى بناء غير مكتمل في الظلام. كانت مواد البناء مبعثرة في المكان ولا يوجد ماء ولا كهرباء. وعندما دخلت الغرفة المضاءة بالشموع أشارت الفتاة إلى أن «بلين» ينتظر. كان أساس الغرفة كرسيين وبينهما طاولة . كان يعرف أنني أحب الجعة، وقدم لي جعة «أنكور» الساخنة. فتح الزجاجة وصب لي كوزاً وملأ كوزه. شرب أولاً. كنت آمل ألا أبدي أي تردد قبل أن أشرب كأسي. كان علينا أن يثق أحدنا بالآخر حتى نتحدث بصراحة.

بدا لي أشد نحولاً وهزالاً من لقائنا الأخير أي قبل ما يزيد على سنتين. سألته عن أحواله. فقال: إنها حياة صعبة ومنهكة. قلت: إن ذلك لم يكن يبدو عليه، فقد بدا لي في حالة جيدة. ثم شكرني على مساعدة شقيقته. (فقد أصيبت بحرق عندما كانت طفلة تعرضت ساقاها لحرق شديد مما جعلها ترتدي البنطال دوماً. وفي عام 1960 طلبت زوجتي من يوه تشيم سينغ، الأستاذ في الجراحة، وصديقي منذ أيام الدراسة في لندن، أن يجري لها تطعيماً جلدياً جراحياً). وعندما عاد إلى موضوع السياسة، كان ثمة قلق في صوته. قال: إنه ينبغي أن أتضامن معه بسرعة، مما يعني أنني إذا لم أوافق على وجهة نظره فسنجد نفسينا عرضة لهجوم كما في الأيام الخوالي فشعرت بجو من الراحة. لم أكن قلقاً تجاه عقد صفقة معه. بل كنت أود أن استرضيه ولكن بدون التزام. ولكنني كنت مهتماً بمعرفة ما يريد أن يقوله لي.

استغرقت جلستنا قرابة أربع ساعات من الساعة 8.15 حتى ما بعد منتصف الليل تناولنا خلالها عدة موضوعات. ولكن كان يكرر العودة إلى «إعطاء الشعب حقوقه الديمقراطية وحريته الثقافية، ومزيداً من الحرية في استيراد الكتب من الصين، وإجراءات هجرة أكثر حرية». باختصار كان يريد فرصاً أكبر للنشاطات الشيوعية، وللتوسع الشيوعي. كان يريدنا أن نعمل معاً، لا لأجل الاستقلال أو استعادة القواعد البريطانية ـ فهم يستطيعون الاحتفاظ بها لبضع سنوات ـ بل من أجل الإطاحة «بمجلس الأمن الداخلي».

كان مهتماً بحديثي مع حكومة «حزب العمل الشعبي» وأراد أن يعرف مقاصدي. قلت: إنني إذا استخلصت أن الوضع الحالي سيكون أسوأ من السنوات القادمة فإن الانتظار لفترة الخمس سنوات حتى تنتهي لن يكون ذا فائدة. «حزب العمل الشعبي» (PAP) سيخفق. ولكن بوسعي الاستمرار فقط إذا كان ثمة أمل بنجاح سياساته. شرحت بأن الكثير يعتمد على موافقة «الاتحاد» على سوق حرة بحيث يمكن أن تتوفر فرصة أفضل لنا كي نقوم بالتصنيع وخلق مزيد من فرص العمل. سألني، ما إذا كنت أتوقع الحصول على اندماج من «التونكو» سريعاً. أجبت بأنه لا يوجد احتمال فوري لهذا. فالتونكو قد توجه ضد سنغافورة. فنحن صينيون جداً، وقد كان الصينيون موالين للشيوعيين كثيراً.

ضغط علي تكراراً كي أوافق على أن يكون الهدف الفوري لمباحثات عام 1963 الدستورية هو إزاحة «مجلس الأمن الداخلي». وبعد ملاحظة لغة جسده، ونبرة صوته، وركبه كان يريد لحزبنا أن يستمر، ولكن عباراته كانت توحي بأنني سأكون أحمق إذا ما وافقته. أوضح أنه يريد أن يلزمنا بأن نعطي مزيداً من الفرص للشيوعيين من أجل توسيع جبهتهم المتحدة من عام 1961 إلى عام 1963. ثم إزاحة مجلس الأمن القومي وأي شيء يمكن للبريطانيين أن يعرضوه.

وجـدت أنـه لا يمكن إلا كـسـب القليل عن طـريق المراوغـة. كنت عـضــواً في الحكومة. وإذا وافقتـه الآن فإنه سيرى من أعمالي القادمة أنني كنت أكذب عليه. فلم أجبـه بـ «لا» مباشـرة، ولكنـي قلت: إن من الأفضل له أن يفتـرض أن حـزبنا سيـفعل مـا كان قد أعلن أنه سيفعله. بعبارة أخرى، إن بياناتي العلنية ما تزال تعبـر عن سياسـاتي في المستقبل. ودع أحدنا الآخر بمصافحة. لم يبد ضغينة أو عـداوة. لـعله كـان مندهشــاً لأنني رفـضت أن ألزم نـفسي، فـي الوقت الذي كنت استطيع أن أقول ما يبدو ملائماً ثم أتراجع عن كلمتي فيما بعد.

شـعـرت في ذلـك الوقت أنـه لم يكن يفـهم الوضع تمامـاً، وأنه طـالما لم تـعط بريطانيا الاستقلال لسنغافورة فإن لديها القوة لإلغاء الدستور. فطالما أن السيادة والقواعد ما تزال في يد الإنكليز، فمن الحماقة من جانبه أن يعتقد أن بالإمكان إزاحـة «مـجلس الأمن القومـي» وبناء قـوة شـيـوعـية فـي سنغـافـورة من أجل نـسف الاتحـاد. لقـد فهم الأمور خطأ. فالشيوعيون لا يستطيعون أبداً أن يسيطروا على سنغـافـورة بدون أن يسـيطروا أولاً على المالايو، ومع هذا فـقـد كـان يأمل أن يسـتخدم سنغـافـورة لقلب الحكومـة في كوالا لامبـور. كيف يمكن أن يتصـور أن البـريطانيين سيوافقـون على ذلك؟ في الواقع إنني أخبرت سيلكيرك في اجتماع لمجلس الأمـن القومـي أن الشيـوعيين يريدون بـأي وسـيلة جـعل الجـزيـرة قـاعـدة ينطلقون منهـا لتحـرير كل «الاتحـاد» وكانوا يريدون تشـجيع الشـوفينية الصـينية بالعزف على وتر مخاوف الصينيين من السيطرة المالاوية إذا حدث اندماج.

أخبـرت سيلكيـرك ومور أن الشـيـوعيين كانوا يعتقدون أنه لا حـاجـة لاتخـاذ عمل ضـد القـواعـد البـريطانيـة في الوقت الحـاضـر لأنها لـم تكن مـفـيـدة وقت الحـرب. كمـا لم يوافقـوا على الآراء الاقتصـادية التي كانت في صالح الاندمـاج، واعـتقـدوا أنهم يسـتطيـعـون الاعـتـمـاد على المساعدة الـصـينيـة الشـاملة كمـا هـو الحــال بين الروس وكـوبا. إذا لم تـنضم سنغــافــورة إلـى «الاتحــاد» بســرعــة، فسيخرج الأمر عن نطاق القدرة على التصرف، ولكن إذا طرح اقتراح بالاندماج

على الشعب في غضون تسعة أشهر إلى سنة، فمن المحتمل أن ينفذ. وبعد ذلك سيكون الوقت متأخراً جداً. أكدت لمور أننا في وضع عصيب وإذا سمح البريطانيون للشيوعيين بالاعتقاد بأنه ستكون هناك سنغافورة موالية للشيوعية فسيجلبون الاضطراب إلى كلٍ من سنغافورة والمالايو. كنت متأكداً بشكل مطلق أنه حتى إذا وافق البريطانيون على البناء الآن، فسيعلقون الدستور لأن الأمور لن تكون تحت التصرف. سيكون هناك أعمال شغب وعنف، وحمامات دم وسيقاوم الشيوعيون القوات البريطانية التي ما تزال موجودة في الجزيرة كحق من حقوق الاستقلال.

ولكن لم يكن من شأني أن أنقل هذا إلى «البلين».

22. مفاجأة التونكو المذهلة بشأن الاندماج

وصل صدامنا مع الشيوعيين إلى الذروة، ولكن في مسألة الاندماج مع المالايو التي كنا نعد لها لم نحقق أي تقدم. كان موقف التونكو تجاه سنغافورة غير مشجع إلى حد بعيد، وكان يرد أو يعرقل أي اقتراح للإتحاد يقدم إليه. كان عنيداً في رفضه للإتحاد تحت أية ظروف، وينتهز كل فرصة ممكنة ليعبر عن ذلك بوضوح. وفي أيار عام 1960 أعلم الطلاب المالاويين في لندن أن التفكير السياسي في سنغافورة له طابع عرقي، ولا يتفق مع أي اتحاد وإضافة 1.3 مليون صيني إلى الجزيرة سيقلق المالاويين، ويخرب الجو الهادئ السائد هناك.

وقال: (كثير من ذوي الثقافة الصينية والمهاجرين الجدد إلى البلاد سيكونون موالين للصين وأقل ميلاً لسكان المالايو). كانت تعليقاته مطابقة لتوجهات «التونكو».

لم يكن باستطاعته أن يكون صريحاً ومنفتحاً على الرأي العام. وعندما سئلت في حزيران 1960 في برنامج إذاعي حول آفاق الاندماج، قلصت الآمال بآفاق الاندماج قريباً وأوضحت أن الشيوعيين سيضعون مختلف العقبات في وجه الاندماج. كما أوضحت أن كثيرين من شيوعيي سنغافورة لديهم انتماءات شيوعية، وعلينا أن نبين بصورة واضحة، وأن نقرر بطرق عملية وملموسة أن ولاءهم هو للملايو أساساً.

ما كان يقلقنا على وجه خاص أن «التونكو» لم يكن متحمساً للاندماج، وكان يشعرنا بألا نتعلق بآمال كبيرة كذلك. وهذا ما كان يتسرب إلى الصحافة باستمرار، وهذا كان يعني أنه كان يريد سنغافورة مستقلة. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر)، أعلن ليم يوهوك و(تحالف شعب سنغافورة) أنهما يؤيدان إقامة

سنغافورة كدولة مستقلة أولاً، وأن تحقق الاندماج مع ماليزيا فيما بعد. ولكنني كنت قد أوضحت لسيلكيرك من قبل أن هذا مجرد هراء. فإن سنغافورة المستقلة الواقعة تحت نفوذ الشيوعيين سوف تعارض إلى أقصى حد قبل أن تسلم استقلالها إلى الاتحاد.

كان سيلكيرك، الابن الثاني لدوق اسكتلندي، طويلاً، نحيلاً، منحنياً قليلاً ويبدو ارستقراطيا. شعره أشعث طويل، وله وجه كالح ذو تعبير خبيث في أغلب الأحيان، ومظهر محير عندما تحاصره مشكلة. لم يكن يتمتع بذهن حاد، ولكن كان ذا ذكاء اجتماعي قوي وسحر رجل نبيل لا يريح الرجل العادي. تعاملنا جيداً ولكن نائبه، فيليب مور، لا بد أنه شعر بنفاد صبري من وقت إلى آخر، ويشك في أنني لا أقدره كرجل ذي شأن. ولهذا فإنه من أجل أن يؤكد أهميته كان يذكرني باستمرار أن سيلكيريك كان وزيراً في الحكومة وما يزال على صلة مباشرة برئيس الوزراء.

بعد ثلاثة أشهر أخبرني جيوفري توري، المبعوث الخاص لبريطانيا في اتحاد الملايو، أن التونكو أسر له بأنه وجد من المحرج تماماً عندما أعلنت أنا، أو أي متحدث رسمي آخر في صورة بيان رسمي أن الاتحاد احتمال ممكن، وذلك يعود لسبب واحد وهو أنه يريح ويشجع معارضيه، الاشتراكيين، ومعظمهم من الصينيين بصورة خاصة، الذين كانوا يتطلعون إلى ممارسة السلطة مع حزبنا، ومن خلال استلام السلطة ضمن السبل المقبولة. كما أن فكرة أي تقارب مع سنغافورة سوف تزيد من المخاوف من أن سياسته سوف تسمح لأهالي سنغافورة أن تزداد مخاوفهم بأن سياساته سوف تتيح للصينيين أن يسيطروا على المالاويين. وبالرغم من كل الجهود التي بذلت لم يرغب كل من التونكو أو رزاق أو إسماعيل أن يجلسوا معي وأن نتحدث بصراحة حول المستقبل البعيد لسنغافورة والملايو. لم يريدوا أن يفكروا بالمخاطر التي تحيط بالملايو وسنغافورة إذا ما استقلتا تحت هيمنة الشيوعيين.

وأخيراً من أجل أن أبقي آمالي منتعشة كنت أظن أن البريطانيين يشجعوني على وضع صيغة أوسع، لصياغة اتحاد لايضم سنغافورة فقط ولكن مايتبعها في بورنيو (شمال بورنيو، وبروناي، وساراواك) بحيث لا تثير الاعتبارات العرقية الأغلبية الانتخابية المالاوية. وكان اقترح سيلكيرك ومور أن أعد ورقة لأرفعها إلى «التونكو» الذي كان الموضوع لا يعود إليه بل إلى رزاق. كنت افترض أنهم تحدثوا إلى رزاق عن طريق جيفروي توري، وقد أعددت الورقة في أوائل أيار 1961 لأعطيها إلى إسماعيل من أجله.

البريطانيون يعملون بحماسة لتأييد روبرت تومبسون، وهو مسؤول مدني مالاوي كان مسؤولاً عن شؤون الدفاع في المالايو، وكان على صلة وثيقة مع عبد الرزاق بوصفه وزيراً.

على أن الرجل الذي كان له الدور الفعال لدى التونكو، هو دانكان سانديز، وزير الدولة لشؤون الكومونولث. وكان قد جاء إلى سنغافورة في كانون الثاني (يناير) 1961 من أجل أن يخبر الحكومتين أن بريطانيا تسعى إلى أن تنضم إلى (السوق الأوربية المشتركة). وانتهزت هذه الفرصة لأخبره بالخطر الذي نواجهه إذا لم يحدث اندماج في عام 1963، فعندما تأخذ المباحثات مجراها بأن سنغافورة مستقلة ستكون شيوعية بنتيجة حتمية. كان علي أن أترك تأثيراً لديه، وقد أخبرني مور فيما بعد أن سايدنز قال: إنه لم يجد قائداً قوياً يضطلع بهذه المهمة. وقد دلت السجلات البريطانية أن سايدنز تحدث إلى «التونكو» وأن سيلكيرك ذكر أن سيدني قال له: إن المباحثات جرت بسهولة رغم عدم توفر تفاصيل لديه. وقد أتيح لي فيما بعد أن أتعرف على سانديز عن قرب. كان صريحاً للغاية. وكان واثقاً من نفسه بحكم قرابته لوينستون تشرشل، كان يتمتع بالتصميم والشجاعة. وكنت سعيداً بمعرفته، فقد عمل بجد على اندماج «ماليزيا» الكبرى، وكان لابد أن يحصل على تأييد هارولد ماكيلان، رئيس الوزراء البريطاني، لحث التونكو على ذلك.

في 27 أيار 1961، اعترف التونكو في مؤتمر صحفي مع مراسلين أجانب من جنوب شرق آسيا في سنغافورة أن الملايو:

«سوف تتفاهم آجلاً أم عاجلاً مع الإنكليز وشعب سنغافورة، وشمال بورنيو، وبروناي، وساراواك. ومن السابق لأوانه التنبؤ بالمستقبل، ولكن من المؤكد أنه ينبغي أن نتطلع إلى الهدف حيث تتوحد هذه المناطق في إطار تعاون سياسي واقتصادي».

قال: إن الصينيين يميلون بشكل طبيعي في سنغافورة لجعل الجزيرة (الصين الصغيرة). ولكن من مصلحة الجميع إذا استطاع شعب سنغافورة و«الاتحاد» أن يجعلا من الملايو ما كانت عليه ـ وطننا الوحيد والمتحد. كانت تلك بمثابة مفاجأة مذهلة. إذ لم يكن ثمة إشارة سابقة تدل على أي تغيير في موقفه الراسخ بأن الملايو لن تضم سنغافورة. وفي اللحظة التي قرأت فيها ما قاله التونكو عرفت أنه ربما ظن في شهر أيار عندما اجتمعنا أن الاندماج، كما قلت له، غير متوقع قبل عدة سنوات لأن «التونكو» لا يثق بالصينيين في سنغافورة.

لم يفسر التونكو آنذاك لماذا غير رأيه. وفيما بعد، في شهر تشرين الأول أخبر المجلس النيابي (البرلمان) في كوالا لامبور، أنه لم يكن يفضل الاندماج لأنه يشكل خطراً على أمن الملايو، ولكن الظروف تغيرت. ولم يفسر لماذا تغيرت. أستطيع أن أخمن فقط أن البريطانيين أقنعوه بأن عليه أن يضبط الأمن في سنغافورة من أجل حماية المالايو نفسها، نظراً لأن الغالبية الناطقة بالصينية في الجزيرة عرضة لإغراءات الشيوعيين. وكنت أعتقد أن إسماعيل قد فهم أن مشكلات التخريب في الإقليمين وثيقة الارتباط فيما بينهما. فقد رأى بأم عينه على سبيل المثال على أنه بالرغم من أن نصف طلاب (جامعة نانيانغ) كانوا من الملايا، إلا أنهم كانوا يشكلون أكثرية الزعماء اليسارين و مثيري المتاعب، وبوسعهم أن يثيروا مزيداً من الاضطرابات بعد تخرجهم وعودتهم إلى «الاتحاد».

حتى سيلكيريك ومور لم يتوقعا (المفاجأة السعيدة) للتونكو. وكان البريطانيون قد ناقشوا مطولاً مفهوم (ماليزيا الكبرى) حلاً لهدفهم بعيد المدى لجعل مستعمراتهم في المنطقة في اتحاد واحد قبل أن تمنح الاستقلال. ولكن المسألة الحاسمة أنهم ظنوا أن حزبنا (PAP) في سنغافورة قد يتحول إلى حزب تحت إدارة الشيوعيين؟! وقد أجبت عن هذه المخاوف علناً، مظهراً إصراري على الاندماج لتحقيق الاستقلال لسنغافورة، وهذا ما سيمنع الحزب الشيوعي المالاوي MCP من الوصول إلى السلطة. وعندئذٍ فقط بدأوا يفكرون بالمشروع جدياً.

في أيار عام 1961 بدا التونكو مستعداً على الأقل لأخذ التحالف مع سنغافورة بعين الاعتبار ضمن «اتحاد ماليزيا» الأوسع ولكن طوال الأشهر الستة التالية ظل هذا مجرد أمل يداعب الخيال. ومن حسن الحظ أنني استطعت خلال هذه الفترة أن أكسب موافقة معظم أعضاء البعثة البريطانية، ولاسيما فيليب مور.

وفي عام 1961 كنا في التيار ذاته. وجد البريطانيون صعوبات تواجه حكومتنا عندما تتعامل مع الشيوعيين، وأنها بدت تدفع ماليزيا وتخلق إحساساً بحتميتها. ثم جاء جوابهم عن اقتراح التونكو بعد أسبوعين في سلسلة متناسقة من البيانات الإيجابية. في البداية وصفها سيلكيرك في 13 حزيران بأنها «خطة قوية طويلة الأجل»، وبعد أسبوع قال ماكميلان؛ جواباً عن سؤال من فينر بروكواي في مجلس العموم:

«لاحظت باهتمام الاقتراح الأخير الملفت للنظر لرئيس وزراء اتحاد المالايا الذي يفيد بأن الاتحاد سيحظى عاجلاً أم آجلاً بتفهم الحكومة البريطانية وتفهم سنغافورة وشمال بورنيو، وساراواك وبروناي في خطة ستجعل هذه البلدان تجتمع في اتحاد اقتصادي وسياسي أوثق. وكان بيان تونكو عبد الرحمن قد حث على مناقشة بين هذه البلدان، والحكومة ستكون راغبة في أخذ ردود أفعالها في أخذ الاقتراح بعين الاعتبار.... أعتقد أنه لأمر جيد أن هذه المسألة أثارت المناقشة وحثت عليها».

بعد ذلك دعا سيلكيريك إلى اجتماع في 27 حزيران للحاكمين البريطانيين في ساراواك وبورنيو الشمالية والمفوض السامي للملايو والمفوض السامي لبروناي. تحدث غود، حاكم بورنيو الشمالية عن الحاجة إلى التقاط البرهة الصحيحة لدفع خطة التونكو بشأن ماليزيا القادرة «لضمان نجاحها». وفي 30 حزيران بعد الاجتماع بفترة قصيرة طار سيلكيرك إلى لندن لمناقشة الخطة مع الحكومة.

هذا العرض العلني للتأييد البريطاني للاندماج وماليزيا لابد أنه قد أثار حذر الشيوعيين. فمبادرة تونكو كانت تشق طريقها، ولا بد أن «بلين» يأخذها في حساباته. ولكن تحريضهم سرعان ماخف عندما عاد ليم تشين سيونغ بسلسة من التصريحات ضد الاندماج.

وفي 2 حزيران نشر زعماء النقابات «الستة الكبرى» ـ وأصدر ليم تشين سيونغ ونونغ سوي سيوان مع سيدني وودهال، وجاميت سينغ، وس.ت باني ودومينيس بيوتشيري، بياناً يدعو إلى «حكومة ذاتية داخلية حقيقية وليست اسمية فقط» تسيطر على الأمن الداخلي وتحل «مجلس الأمن الداخلي». ودعوا دائرة «أنسون» الانتخابية للتصويت إلى حزبنا (PAP) من أجل الانتصار في المباحثات الدستورية والتحقيق المبكر لمطالبهم. ثم آثار ليم قلق الجبهة الشيوعية المتحدة بإعلانه بوجود 42 نقابة تؤيد حزب العمل الشعبي اليساري والمعادي للاستعمار في الانتخابات القادمة. وبكلمة أخرى لو أن حزبنا لم يكن يسارياً ومعادياً للاستعمار بدرجة كافية بالنسبة إلى هذه النقابات لما كان قد حصل على تأييدها بوصفها ممثلة «لرغبات الشعب».

كان هذا بمثابة تحذير لي لألعب بطريقتهم. فأجبت «إن الاستقلال الآن من خلال الاندماج في وحدة سيكون أوسع أمامنا بشكل واضح وسيتحقق ذلك بأسرع مما تخيل أي واحد قبل سنتين». وأوضحت أننا لن نسعى إلى إزالة «مجلس الأمن الداخلي حتى نضمن أمننا ضمن الاتحاد من خلال الوزن الانتخابي لقاعدة مالايو الجماهيرية ويعود إلى «بلين» ماذا سيفعل بعد ذلك.

في 10 حزيران، يوم الاقتراع لانتخابات «أنسون» الفرعية، رشح حزبنا المالاوي محمد بن أوانغ. والذي كان رئيساً لمجلس «اتحاد النقابات»، ولكن الترشيح لم يرق للشيوعيين. وكان قد اعتقل لفترة قصيرة ثم أطلق سراحه. كان مع ديفان نير ولهذا كان واحداً منا. إذ سيواجه ديفيد مارشال، الذي كان «مرشح حزب العمال»، والذي كنت متأكداً أن ليم تشين سيونغ وفونغ قد حرضاه على الترشيح. وفي 14 حزيران أفادت الصحف أن مارشال زار «الاتحاد» بعد إعلان تونكو أمام «اتحاد المراسلين الأجانب» وأنه كان مقتنعاً أنه لن يكون هناك اندماج في غضون عشر سنوات. ودافع عن استقلال سنغافورة (الأمر الذي يتطلب آلياً إبعاد مجلس الأمن الداخلي)، وقال: ما إن تحصل سنغافورة على الاستقلال حتى يكون الاندماج أسهل.

وفي أعقاب انطلاق الحملة مباشرة أفاد جون لينسيل، مدير الفرع الخاص أن جماعة شيوعية ما أرادت أن تغتالني. إذ سيكون الخطر أكبر في أحد اللقاءات الانتخابية التي ستعقد في العراء، حيث سيكون من السهل على من سيقوم بالاغتيال أن يصيب المتكلم على المنصة ويلوذ بالفرار. وتركوا لي أن أقرر درجة الأمن المطلوبة، وما إذا كنت سأقوم بالظهور علانية أصلاً. لم يكن لدي خيار. فالاختفاء عن الأنظار أثناء حملة انتخابية فرعية بسبب تهديد بالاغتيال فحسب سيكون مدمراً سياسياً. ومن ناحية أخرى، فإن الاستمرار بدون تغطية أمنية سيكون حماقة، في حين أن الأمن المكثف سيبدو دفاعياً. طلبت من «الفرع الخاص» أن يكون مختفياً قدر الإمكان ولكن مع اتخاذ أقصى الاحتياطات.

في تلك الأمسية تحدثت في دائرتي. كان جواً مألوفاً وودياً تجاهي. وشعرت بالأمان. ولكن كان هناك مقابلات عامة أخرى في مناطق مجاورة أقل ودية. شعرت بعدم الراحة، ولكنني قبلت بالوضع بوصفه جزءاً من الحياة السياسية في ظروف مالايو و سنغافورة المبتليتين بالإرهاب في تلك الأيام.

كنت ميالاً إلى الاعتقاد أن الشيوعيين كانوا يريدون أن يزرعوا الخوف في نفسي ليروا ردة فعلي. ووجدت أنه لن يكون في مصلحتهم أن يغتالوني في حين أن موقفي الشعبي قوي. ولم أكن عدواً للشعب كما كان ليم يوهوك عام 1956. كما انهم لم يكونوا يرغبون بالقيام بعملية تطهير واسعة ضد الجبهة المتحدة ـ حزبنا والنقابات والمؤسسات الثقافية ـ فإذا خسرت في معركة الدعاية من أجل تصويري «دمية للإمبرياليين» فسيكون الأمر مختلفاً.

وكما حدث فقد شنت «دائرة التحقيقات الجنائية» و«الفرع الخاص» سلسة من الغارات في 18 حزيران لاعتقال المبتزين وغيرهم، ووجدت ثلاث قنابل يدوية مخفية في مقر إقامتهم. ولكن التحقيقات أظهرت أن مخبراً قد «فبرك» مؤامرة الاغتيال وزرع القنابل اليدوية بعلم عنصر من عناصر «دائرة التحقيقات الجنائية». ومع هذا، إلى أن تبين أن التهديد كان قصة ملفقة، كانت تواجهني مشكلة حقيقية وهي كيف أرد عليه؟.

فقبل الاقتراع بثلاث أيام قلت: إنه سواء انضمت إلينا ولايات شمال برونيو أم لا فعلينا أن نناضل من أجل الاندماج بين سنغافورة والاتحاد بشرطين لازمين ـ الحرية في سياستنا التربوية والعمالية ـ كنت أعلم أنني إن لم أستثن هذين من الإشراف الاتحادي فلن نحصل على تأييد الأغلبية في سنغافورة. كانت سياسة مالايو التربوية تنفذ ضد احتجاجات «المدارس الصينية» وغرفة «التجارة الصينية» لأنها كانت تريد إحلال التعليم بالمالوية بدلاً من الصينية والإنكليزية لتكسب مساعدة الحكومة. وكان هذا غير مقبول على الإطلاق بالنسبة إلى غير المالويين في سنغافورة. حتى ذوي الثقافة الإنكليزية يرفضون الاندماج على هذا الأساس، أما الناطقون بالصينية فسيلجأون إلى العنف.

وفيما يتعلق بالعمل كانت سياسة المالايو قاسية تجاه النقابات لأنها كانت تجابه التخريب الشيوعي، كما أنها لم تكن تؤمن بالنقابات المناضلة. وإذا كان لوزارة العمل ووزارة الداخلية في كوالا لامبور سيطرة على تسجيل وصل النقابات، فإن العمال وزعماء الاتحادات في سنغافورة سوف يعارضون ماليزيا بالتأكيد.

وفجأة، قبل يومين من الاقتراع، وقّع ثمانية من أعضاء الجمعية في حزبنا رسالة مفتوحة يطلبون فيها من تشين تشي، بوصفه زعيم حزب (PAP) أن يعلن تأييد الحزب لبيان «الستة الكبار» وأن يدعو إلى مؤتمر لفروع الحزب الواحدة والخمسين لتفحص دورها الراهن في الوضع السياسي الحالي. ومن أجل استبعاد نسف الثقة الشعبية بالقيادة والتأثير في التصويت، فقد كرروا مطالب ليم تشين سيونغ: وهي تحرير المعتقلين السياسيين وحل «مجلس الأمن الداخلي» وتحقيق حكم ذاتي داخلي كامل. ولما كنت لا أتساهل فقد قرر «بلين» أن يجعل حزبنا يخسر أنسون.

وفي عشية الانتخابات طلبت علانية من أمناء السر الثلاثة ـ ليم تشين سيونغ، وفونغ، وودهال أن يستقيلوا. قلت: إن هؤلاء الثلاثة وأعضاء الجمعية الثمانية يريدون أن يرغموا حزبنا على القبول بنهجهم، وإلا فإنهم سينقلبون على القيادة ويسيطرون على الحزب من أجل استخدامه لأغراضهم.. وما هو واضح فمن أجل منع الاندماج فإن النقابيين الستة مستعدون لفعل أي شيء، حتى لتدمير حزبهم المرتبطين به. وفي جهد اللحظة الأخيرة لتحويل الأصوات عن حزبنا (PAP) نحو مارشال كانوا مستعدين لسحب العقبات كافة.حتى سكرتير فرعي انقلب علي، ولما كان يعمل في «هيئة ميناء سنغافورة» ولديه نفوذ في أنسون القريبة من الميناء فقد كلفنا الكثير من الأصوات في أوساط عمال حوض السفن الصينيين. وفي ليلة التصويت، 15 تموز؛ كسب مارشال بأغلبية ضئيلة تقدر بـ 3.598 صوتاً (43.3%) أمام محمود بـ 3052 صوتاً (36.7%) وحصل SPA على 17.8 % من الأصوات.وفي ذروة انتصاره أشار إلى مارشال في خطبة انتصاره قائلاً:

«استقل، ولعل في اعتزالك تتعلم التواضع والصفات البشرية بحيث تكون قدرتك التي لاشك فيها في السنوات القادمة غير أنانية وأمينة في خدمة شعبنا».

كنت شديد الانهماك بالمعركة القادمة كي أرد عليه. فقد أظهر الشيوعيون ثانية أنهم تغلغلوا في المراتب العليا للنقابات والحزب بحيث بات بإمكانهم شق الحزب، محولين الأصوات إلى شخص لا يعتمد عليه. وفي رسالة إلى تشين تشيو بوصفه رئيساً لحزبنا في 17 تموز عرضت أن أستقيل كوني رئيساً للوزراء. وقلت: إن ليم تشين سيونغ ورفاقه سوف يحاولون إخضاع الحزب والحكومة وإكراههما على التخلي عن ماليزيا، في حين أن الحزب بحاجة إلى أن يكون موحداً وراء قائده.

في اليوم نفسه أجاب تشين تشي بأن اللجنة التنفيذية المركزية مجمعه على اختياري رئيساً للوزراء بعد الانتخابات العامة.

«أن الدعوة إلى استقالتك ـ كرئيس للوزراء ــ من قبل خصومك ما هي إلا من أجل إرباك الشعب بشأن قضية الاندماج الحيوية بين سنغافورة و«الاتحاد»، وهو الهدف الذي تأسس من أجله حزبنا والذي لا نستطيع أن نحيد عنه. عرضت اقتراحات بأنني ينبغي أن أكون رئيساً للوزراء في مكانك. دعنا لا ننخدع بهذه المحاولة لشق وحدة الحزب وقيادته».

كنا نعلم أننا مقبلون على معركة. فبعد خسارة «أنسون» كان ينبغي علي أن أتأكد أن كل عضو في «الجمعية» (البرلمان) من أعضاء الحزب يعرف هذا وينبغي أن يساندنا. أصبحت المعركة الآن سارية. وقد وصلنا إلى مفترق الطرق مع جناحنا اليساري في الحزب. كنا نريد تطهير الحزب من أي متذبذبين أو مترددين في «الجمعية»، وإرغام الشيوعيين على مواجهتنا بشكل مكشوف. وقررنا أن نطلب التصويت على الثقة وأن نفرض معركة مكشوفة قبل أن يتاح لهم الوقت لإعادة التفكير في استراتيجيتهم.

23 . حفلة شاي في صالة عدن

قدمت طلب الثقة في الحكومة في 2 تموز (يوليو) عام 1961 كي أميز ما بين الأنصار وغير الأنصار في «الجمعية».

في 18 تموز، وقبل يومين من التصويت على الثقة أعلمني «الفرع الخاص» أن ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سيوان، وسدني وودهال وجيمس بوتوتشيري كانوا يتناولون الشاي مع سيلكيرك في «قاعة عدن». وكان هذا أمراً غريباً. ففي مواجهة أزمة وانقطاع وشيك في العلاقات مع الأعضاء غير الشيوعيين في الحزب، كان ليم وفونغ يتقابلان بانسجام مع عدوهما الرئيس ـ البريطانيين ـ. واستنتجت أنهما يحاولان اكتشاف ما إذا توصل مفوضوهم الموالون للشيوعية في «الجمعية» إلى الأغلبية، فسيكون بوسعهم تشكيل الحكومة والاستيلاء على السلطة. وارتأيت أنا وكينغ سوي، وتشين تشي، وراجا أن البريطانيين سوف يرحبون بهذه الفرصة لتوسيع الهوة بيننا بحيث تستميل أية مصالحة، أو إعادة تجميع الجبهة الموحدة مابين غير الشيوعيين والموالين للشيوعية في حزبنا في المستقبل.كان هذا يناسبنا فالموالون للشيوعية كانوا كالطوق حول أعناقنا. ولكن علينا أن نكون حذرين في التخلص منهم، أو تجنبهم. فإذا بدونا كالانتهازيين بإسقاطهم بعد أن استفدنا منهم،فسوف نخسر قاعدتنا الشعبية من الناطقين بالصينية. وكان الاندماج المسألة الكاملة التي ينبغي أن نعمل عليها.

فمنذ بيانهم الأول في 4 حزيران 1959، الذي يعلنون فيه تأييدهم المطلق لملايو مستقلة وديموقرطية غير شيوعية وتحقق استقلال سنغافورة عبر الاندماج، كانوا قد أكدوا التزامهم بسياستهم هذه مرة بعد مرة. والآن سوف ينتهكون التفاهم الواضح بين حزبنا وبين (الجبهة الشيوعية المتحدة ـ GUF) الذي ناضلنا من أجله وكسبنا الانتخابات. وإذا لم نتجاوز مثل هذا الانشقاق حول هذه المسألة الحاسمة

كان هناك الكثير من النشاط في قاعة الأعضاء وغرفة اللجنة وقاعة الاجتماع ذاتها .فقد كان الموالون للشيوعيين يعملون بدأب محاولين الحصول على أكبر عدد ممكن من أعضاء «الجمعية» في حزبنا للتصويت لصالحهم. كان لديهم ثمانية. وقد توقعنا أن يهزم عدد أكبر، وكان السؤال كم سيبلغ عددهم؟. كنا بحاجة إلى 26 صوتاً كي نحكم بدون ائتلاف. فحكومة ائتلاف ستكون كارثة. إذا كانت تعني أن تضم أشخاصاً من تحالف شعب «سنغافورة» (SPA) أو من المنظمة الوطنية لاتحاد المالاويين (UMNO) وكلاهما ملوث بالفساد. سنخسر عند ذاك أثمن ذخيرة لدينا وهي عدم الفساد.

قررنا أن نترك الحزب يشق طريقه ونجعل الجميع يصوتون كما يشاؤون. فقد كنا نحتاج إلى متطوعين وليس إلى مجندين من أجل خوض الصراع الكريه. سرعان ما تخلى الموالون للشيوعيين عن محاولة اكتساب أعضاء جمعية مالاويين أو من الهنود، وركزوا على المتحدثين بلغتين وذوي الثقافة الصينية. ولكنهم كانوا يحتاجون إلى وقت، وطلب كثيرون تأجيل التصويت حتى اليوم التالي. رفضنا ذلك. وهذا ما جعلهم يلجأ ون إلى إضاعة الوقت وإلقاء خطب مطولة مكرورة.

بين أولئك الذين كانوا يعملون، ثلاثة أعضاء متميزين من الناطقين بالصينية لم يتورطوا في شرك الشيوعيين. كان أشجعهم تشوريوك إنغ. الذي كان يعيش في منطقة بوكيت تيماه الريفية، وهي منطقة زراعية تابعة للشيوعيين.وقد كان يواجه خطر الإيذاء الجسدي ولكنه ظل ثابتاً. وكذلك فعل تشان تشي سينغ، وهو لاعب «جودو» يحمل النطاق الأسود وعمره 26 سنة، إذ كان يتحلى بشجاعة كبيرة كما كان موالياً شخصياً لبانغ بون و لي. وبالمقابل كان هناك لي تيك هيم وهو في الخامسة والخمسين من العمر عمل أميناً للسر في «غرفة التجارة الصينية»، وهو من جيل المهاجرين الأوائل، وموجود في فوجيان. وقف معنا بثبات. لسبب ما لم يكن يشارك طلاب المدارس الصينية الشباب في تطلعهم إلى الصين الجديدة. لعله استخلص العبر مما حدث لأقاربه هناك. ومهما كان الأمر فقد كنت متشجعاً لأنه وقف معنا.

لم نكن متأكدين من مجرى التصويت، وكنا نظن أنه قد يكون النهاية. كنت أنا وتشان تشي سينغ متأكدين من الحصول على 25% من الأغلبية. وهذا ما اعتقدت به سحورة بنت أحمد، وكانت هذه سيدة في السادسة والثلاثين من العمر، وخطيبة مفوهة في الملايو، وهي امرأة بدينة ومتواضعة، تتصف بالاستقامة والبساطة. كانت مريضة في الفراش في (مستشفى سنغافورة العام). وكان قد زارها عدد من أعضاء الجمعية وأخبروها أنها فازت على منافسيها. ولكن في اجتماع للأعضاء في غرفة الاستراحة، قال تشي سينغ: إنه زار سحورة قبل يوم واحد وإنه كان واثقاً من مجيئها إلى الجمعية للتصويت لنا. لم أهتم بالموضوع كثيراً وقلت له: ألا يضيع الوقت، ولكن تشين تشي اعترض بأنه لا ضرر من المحاولة.

كانت سحورة مترددة في المجيء، وأخبرت تشي سينغ بأن زملاءها الملاويين لا يؤيدون الحكومة. ولكنه حثهم على أن يؤيدوها. ووافقت تشي سينغ على الحضور. عبر سيارة الإسعاف وجاءت في الوقت المناسب إلى المجلس.

صوت 26 من أعضاء حزبنا في «الجمعية» مع الاقتراح، وهذا ما أعطانا أغلبية 26 صوتاً من أصوات أعضاء الجمعية الـ 51 عضواً. ولو أننا خسرنا التصويت لكان على الحكومة أن تستقيل. وإلا كان على أنصار الشيوعيين أن يشكلوا الحكومة مع بعض المتسربين من حزبنا، أو ستجري انتخابات عامة، كانوا يعتقدون أنهم سيكسبونها.

كان هدف ليم تشين سيونغ الأول أن يكسب أكبر عدد ممكن من أعضاء (الجمعية) إلى جانبه كي يشكل الحكومة الجديدة. وعندما أخفق حاول بعدة وسائل وأساليب أن يحول دون استمرار الحكومة في التفاوض للاندماج مع «التونكو». وشكل حزباً جديداً باسم «باريسان سوسياليس» (الجبهة الاشتراكية). كان تعاطف تشين سيونغ مع البريطانيين ظاهراً. فقد حاول أن يدافع عن نفسه وأن ينفي تهمة التعاون معهم. ولكن العمال كانوا خائفين من أن يضعه

كان هناك الكثير من النشاط في قاعة الأعضاء وغرفة اللجنة وقاعة الاجتماع ذاتها.فقد كان الموالون للشيوعيين يعملون بدأب محاولين الحصول على أكبر عدد ممكن من أعضاء «الجمعية» في حزبنا للتصويت لصالحهم. كان لديهم ثمانية. وقد توقعنا أن يهزم عدد أكبر، وكان السؤال كم سيبلغ عددهم؟. كنا بحاجة إلى 26 صوتاً كي نحكم بدون ائتلاف. فحكومة ائتلاف ستكون كارثة. إذا كانت تعني أن تضم أشخاصاً من تحالف شعب «سنغافورة» (SPA) أو من المنظمة الوطنية لاتحاد المالاويين (UMNO) وكلاهما ملوث بالفساد. سنخسر عند ذاك أثمن ذخيرة لدينا وهي عدم الفساد.

قررنا أن نترك الحزب يشق طريقه ونجعل الجميع يصوتون كما يشاؤون. فقد كنا نحتاج إلى متطوعين وليس إلى مجندين من أجل خوض الصراع الكريه. سرعان ما تخلى الموالون للشيوعيين عن محاولة اكتساب أعضاء جمعية مالاويين أو من الهنود، وركزوا على المتحدثين بلغتين وذوي الثقافة الصينية. ولكنهم كانوا يحتاجون إلى وقت، وطلب كثيرون تأجيل التصويت حتى اليوم التالي. رفضنا ذلك. وهذا ما جعلهم يلجأ ون إلى إضاعة الوقت وإلقاء خطب مطولة مكرورة.

بين أولئك الذين كانوا يعملون، ثلاثة أعضاء متميزين من الناطقين بالصينية لم يتورطوا في شرك الشيوعيين. كان أشجعهم تشوريوك إنغ. الذي كان يعيش في منطقة بوكيت تيماه الريفية، وهي منطقة زراعية تابعة للشيوعيين.وقد كان يواجه خطر الإيذاء الجسدي ولكنه ظل ثابتاً. وكذلك فعل تشان تشي سينغ، وهو لاعب «جودو» يحمل النطاق الأسود وعمره 26 سنة، إذ كان يتحلى بشجاعة كبيرة كما كان موالياً شخصياً لبانغ بون و لي. وبالمقابل كان هناك لي تيك هيم وهو في الخامسة والخمسين من العمر عمل أميناً للسر في «غرفة التجارة الصينية»، وهو من جيل المهاجرين الأوائل، وموجود في فوجيان. وقف معنا بثبات. لسبب ما لم يكن يشارك طلاب المدارس الصينية الشباب في تطلعهم إلى الصين الجديدة. لعله استخلص العبر مما حدث لأقاربه هناك. ومهما كان الأمر فقد كنت متشجعاً لأنه وقف معنا.

لم نكن متأكدين من مجرى التصويت، وكنا نظن أنه قد يكون النهاية. كنت أنا وتشان تشي سينغ متأكدين من الحصول على 25% من الأغلبية. وهذا ما اعتقدت به سحورة بنت أحمد، وكانت هذه سيدة في السادسة والثلاثين من العمر، وخطيبة مفوهة في الملايو، وهي امرأة بدينة ومتواضعة، تتصف بالاستقامة والبساطة. كانت مريضة في الفراش في (مستشفى سنغافورة العام). وكان قد زارها عدد من أعضاء الجمعية وأخبروها أنها فازت على منافسيها. ولكن في اجتماع للأعضاء في غرفة الاستراحة، قال تشي سينغ: إنه زار سحورة قبل يوم واحد وإنه كان واثقاً من مجيئها إلى الجمعية للتصويت لنا. لم أهتم بالموضوع كثيراً وقلت له: ألا يضيع الوقت، ولكن تشين تشي اعترض بأنه لا ضرر من المحاولة.

كانت سحورة مترددة في المجيء، وأخبرت تشي سينغ بأن زملاءها الملاويين لا يؤيدون الحكومة. ولكنه حثهم على أن يؤيدوها. ووافقت تشي سينغ على الحضور. عبر سيارة الإسعاف وجاءت في الوقت المناسب إلى المجلس.

صوت 26 من أعضاء حزبنا في «الجمعية» مع الاقتراح، وهذا ما أعطانا أغلبية 26 صوتاً من أصوات أعضاء الجمعية الـ 51 عضواً. ولو أننا خسرنا التصويت لكان على الحكومة أن تستقيل. وإلا كان على أنصار الشيوعيين أن يشكلوا الحكومة مع بعض المتسربين من حزبنا، أو ستجري انتخابات عامة، كانوا يعتقدون أنهم سيكسبونها.

كان هدف ليم تشين سيونغ الأول أن يكسب أكبر عدد ممكن من أعضاء (الجمعية) إلى جانبه كي يشكل الحكومة الجديدة. وعندما أخفق حاول بعدة وسائل وأساليب أن يحول دون استمرار الحكومة في التفاوض للاندماج مع «التونكو». وشكل حزباً جديداً باسم «باريسان سوسياليس» (الجبهة الاشتراكية). كان تعاطف تشين سيونغ مع البريطانيين ظاهراً. فقد حاول أن يدافع عن نفسه وأن ينفي تهمة التعاون معهم. ولكن العمال كانوا خائفين من أن يضعه

البريطانيون تحت إبطهم.لقد أصبح هو الآن ورفاقه الموالون للشيوعيين مكشوفين ومعزولين بدون تغطية شيوعية مضمونة. وقد بعثت في الرابع من آب (أغسطس) برسالة مفصلة إلى (ستريتس تايمز) أشرح فيها رأيي به بوصفي أميناً عاماً (لحزب العمل الشعبي) (PAP).

ورغم جميع محاولات المعارضين التقرب من البريطانيين والاجتماع مع المسؤولين منهم، فقد أوضح سيلكيرك أنه لا بديل (لحزب العمل الشعبي)، ولا يوجد حكومة شعبية يمكن أن تكون بديلاً عنه، وأنها المجموعة الوحيدة التي يسمح البريطانيون لها بتقلد زمام السلطة. وقد أوضح سيلكيريك ذلك بجلاء عندما اجتمع مع المعارضين. وأفهمهم أن الدستور لم يوضع من أجل إرضاء السيد كيوان يو. وأوصاهم بلهجة شديدة أن يلتزموا بالدستور وألا يخرجوا عنه.

لم أكن مقتنعاً بأنهم كانوا يناورون. لم يكن سيلكيرك بالسياسي غير المحنك. كان يعرف معنى البروتوكول. واستقباله بوصفه ممثلاً لحكومة جلالتها في سنغافورة، لكلٍ من ليم تشين سيونغ وفونغ شخصياً أثناء الأزمة التي كان مصير الحكومة خلالها في خطر كان دليلاً على أمر مهم. وقد فسر أنصار الشيوعيين هذه الخطوة على أنها إشارة من البريطانيين باستعدادهم للتعاون مع ليم، المعتقل سابقاً، والمحروم بموجب دستور 1958 من المشاركة في الانتخابات. بالإضافة إلى ذلك فإن أياً من الأربعة الذين قابلوا سيلكيرك كانوا أعضاء في الجمعية التشريعية وبالتالي هم غير مفوضين بإجراء أية مفاوضات حول تشكيل الحكومة. لم أقبل تفسير سيلكيرك بأنه قابلهم خارج إطار المجاملة الدبلوماسية، بل لمجرد إعطائهم الجواب الدستوري الصحيح. لقد أصبحنا على أية حال أكثر حرية.

كان د.لي سيوه تشوه السكرتير البرلماني لوزير الشؤون الداخلية، ومؤيدوه يعتقدون أن الشيوعيين سوف يكسبون على المدى البعيد. ولما كانوا قد أغروه بالوعود لجعله زعيمهم ورئيساً للوزراء، فقد تمسك بفرصته الكبيرة. كان مقامراً مدمناً منذ أيامه في كلية الطب. كان يتحلى بطاقة جسدية وصوت جهوري متباه

ومتبجح قليلاً. وكان كينغ سوي، الذي كان يلعب معه الشطرنج قد وجده جريئاً إلى حد التهور. كان يبدأ عادة بمناورة مكشوفة كي يهزم خصمه، ناسياً أن اللاعب الخبير لا يجازف بالمخاطر عندما يستطيع أن يحقق تقدماً ضد مغامر. وفي هذه المرة كان قد شرع بمغامراته الكبرى ـ رئيساً للوزراء أو لا شيء.

صوت حلاقان من أعضاء الجمعية ضد الاقتراح. لم يكونا شيوعيين، ولكن قبل عدة شهور من انتخاب أنسون العربي تقربت منهما كوادر شيوعية، وقاما بكتابة خطب ومقالات لهم. وعندما وبختهما بعد أن سمعت خطبهما في «الجمعية» اعتذرا، ولكن بعد هزيمة حزبنا في انتخابات هونغ ليم الفرعية، فشعرا كالآخرين الذين هزموا، أن مستقبلهما مع النقابات والجماهير.

كان هدف ليم تشين سيونغ الأول أن يكسب أكبر عدد ممكن من «أعضاء الجمعية» إلى جانبه كي يشكل الحكومة الجديدة. وعندما أخفق ذلك جرب عدة خطط ليحول دون تفاوض الحكومة مع «تونكو». وقد شكل حزباً جديداً باسم «باريسان سوسياليس» (الجبهة الاشتراكية). ثم دعا رئيسها د.لي سيوكوه إلى انتخابات جديدة.

ظل ليم تشين سيونغ صامتاً لمدة أسبوع بعد المداولة بشأن الثقة. ثم نشرت صحيفة «سترتس تايمز» في 28 تموز رسالة منه تحمل طابع وودهول وبوتوتشيري. وقد أعلن فيها «دعوني أوضح مرة واحدة وأخيرةً أنني لست شيوعياً أو عضو جبهة شيوعية...» لم يكن يريد أن يعود ثانية إلى المسرح السياسي، وقال حول تعيينه سكرتيراً سياسياً في وزارة المالية «لم أكن عازفاً عن قبول هذا المركز فحسب، بل عرضت أن أنسحب من السياسة إذا رغب (لي كيوان يو) في ذلك. لم يكن يرغب في ذلك بل كان يرغب أن يبين للناس أنني عينت في الحكومة».

أما الاستنتاجات التي استخلصتها من شربه الشاي مع سيلكيريك هي أنه كان لا يبالي بالهستريا المعادية للشيوعية:

«في غضبهم بدأوا يتحدثون بصياح عن الشيوعية والفوضى، متوقعين أن يخيفوا بعض الناس كي يصدقوهم. فاليسار الشيوعي قد سار أشواطاً مع الإنكليز الآن، كما بلغني. يا للسخرية! كانت لقاءاتي مع سيلكيريك قليلة ومتباعدة. وإذا كان اللقاء مع سيلكيريك يجعل المرء متآمراً عندئذ يكون السيد لي أكبر المتآمرين جميعاً لأنه يتعامل مع اللورد سيلكيريك أكثر من أي شخص آخر في سنغافورة».

في ذلك اليوم نفسه ألقى خطاباً لمدة ساعتين في اجتماع نقابي تحدث في نهايته مرة أخرى وبإيجاز عن حفلة الشاي:

«فيما يخص شرب ليم تشين سيونغ الشاي وتناول الطعام مع البريطانيين فهو أمر عادي جداً. والسؤال هو ما إذا كان الموقف قوياً أم لا؟. إذ لا نستطيع القول: إننا نشرب الشاي معهم مما يعني أننا نحالفهم». لا بد أنه شعر أن العمال كانوا خائفين من أن يكون البريطانيون قد استقطبوه إلى جانبهم. لأنه ورفاقه الموالون للشيوعية أصبحوا الآن مكشوفين ومعزولين بدون غطاء غير شيوعي ذي مصداقية. ولكن ما كان ليتخلى عن مراوغاته. لو كان عازفاً عن الرجوع إلى السياسة والقبول بموقف الحكومة، فلماذا يقابل سيلكيريك؟

بعث في 4 آب رسالة إلى «ستريتس تايمز» بوصفي أميناً عاما لحزب (PAP) جاء فيها:

«نحن.. كنا مهتمين جداً بالمشكلات الجسيمة التي ستتجمع بعد الانتخابات. فإحدى هذه المشكلات كانت ماذا سيفعل هو وأصدقاؤه بعد أن تخلصنا منهم. عرض أن يعتزل السياسة ويذهب إلى إندونيسية. في البداية لم يكن هذا عرضاً جدياً. وثانياً، لم نرَ من الصواب والملائم أن نجعل من هذا شرطاً بحيث ينبغي أن يعتزل السياسة قبل أن نقرر دخول الانتخابات كي نربح. كان علينا أن نواجه التحدي الشيوعي سواء أكان السيد ليم موجوداً شخصياً على مسرح سنغافورة السياسي أم لا...

(أما بالنسبة إلى حفلة الشاي) «فإنه لم يفسر بعد لماذا ذهب إلى مقابلة اللورد سيلكيرك؟... ففي تفسير نُشر في الصحافة الصينية في29 تموز أقر بأنه قابل اللورد سيلكيرك لأغراض اجتماعية تاركاً الانطباع بأن مباحثاته مع المفوض البريطاني كانت اجتماعية بحتة. لم يكن ثمة مناسبة اجتماعية يوم الثلاثاء 18 تموز. كما لم يكن هناك ضيوف آخرون إلى جانب ليم وأصدقائه».

جاء التفسير فيما بعد، ولكن ليس من جانب ليم تشين سيونغ. ففي رسالة إلى «ستريتس تايمز» نشرت بعد 9 أيام في 13 آب، استشهد وودهول بمحادثة أجراها بوثيتشيري مع كينغ سوي بعد انتخابات أنسون الفرعية. كان الأخير قد أخبر بوثيتشيري أن التدخل البريطاني كان ضرورياً، وأنهم لن يجلسوا جانباً ويشاهدوا الموالين للشيوعيين يدمرون حزب العمل الشعبي (PAP)، وإذا عارضت القيادة غير الشيوعية ذلك علناً، فإن الحزب من جانبه سيتنحى تاركاً البريطانيين يقضون على الموالين للشيوعية.

وفي اليوم التالي بعث كينغ سوي برسالة يتحدث فيها عن عدة مباحثات أجراها بوثيتشيري معه:

«...بعد أنسون أصبح بوثيتشيري أكثر احتجاجاً. إذ طلب إلي من باب التعقل أن نراجع سياستنا وأن نكيف ليم تشين سيونغ وجماعته. والاسيكون البديل تدمير حزب PAP بوصفه قوة سياسية. بيّن ذلك بكثير من الخوف...»

«عند هذا المنعطف دخلت في سلسة من المناقشات الودية الجدية مع السيد بوثيتشيري حول مستقبل الحزب والبلاد. قلت: إنني كنت أعرف أن ليم تشين سيونغ قد ألقى بكل ثقل منظمته النقابية لهزيمة حزبنا في أنسون. وقلت أيضاً: إن ثقل كوادر نقابة ليم تشين سيونغ قد انتشر ضد أمناء سرنا المنظمين وأعضاء اللجنة الفرعية، الأمر الذي أدى إلى إخفاق

بعضهم. وأوضحت أن الوضع لم يكن جديداً. فقد حدث الشيء نفسه عام 1957، عندما شنت الكوادر النقابية الموالية للشيوعيين هجوماً على حزبنا وأصبحوا قيد شعرة من السيطرة على لجنة حزبنا المركزية. قلت، عام 1957،: إن نتيجة هذا الهجوم الموالي للشيوعيين ضدنا قد وضحت بجلاء الفارق الأساسي بين الموالين للشيوعيين والجماعات غير الموالية لهم في الحزب. هذه المغامرة قد أعطت للبريطانيين مبرراً للقيام بالضربة الكبرى».

ظن كينغ سوي أن الموالين للشيوعيين أرادوا أن يرد سيلكيرك لأنهم اعتبروا هذا إشارة إلى أن البريطانيين كانوا على وشك تنفيذ "ضربة كبيرة" أخرى ضدهم الآن. وفي جواب نُشر في 21 آب أعطى بوثيتشيري تفسيراً آخر، مكرراً ما كان قاله وودهول من قبل: ما سعوا إليه مع سيلكيرك هو توضيح لافتراض كان عرضه حزبنا. ولا سيما أنه لا توجد حكومة بديلة لزعماء حزبنا (PAP) الحاليين، فقد كانوا المجموعة الوحيدة التي يمكن للبريطانيين أن يسمحوا لها بتسلم السلطة. ولكن المضامين كانت في الواقع واحدة: إذ كانوا يريدون تأكيداً من البريطانيين بأن يتقبلوا خططهم بحصانة.

وبعد مضي سنوات، أي في عام 1982، أخبر سيلكيريك أحد الصحفيين أن بوثيتشيري هاتَفَهُ، في صباح يوم الثلاثاء، 18 تموز، ليسأل ما إذا كان يستطيع أن يقابله مع صديق أو اثنين. فاقترح سيلكيرك وقت الظهيرة في اليوم التالي. قال بوثيتشيري: إن الأمر ملح وإنه يود أن يرى المفوض بأسرع وقت ممكن. ودعاهم سيلكيرك «على مضض إلى شرب الشاي» في الساعة الرابعة بعد الظهر. قال سيلكيرك: إن جوهر ما طلبوه منه كان:

«هل كان الدستور المكتوب من أجل المصلحة الخاصة للسيد لي كيوان يو أم أنه كان دستوراً حراً؟. قلت ببساطة مايلي: إنه دستور حر، التزموا به بدون أعمال عنف، هل تفهمون؟ كان ذلك خلاصة الأمر. حسناً، ذهبوا وقمت بإعلام لي كيوان يو، قبل المناقشة، أنني رأيتهم».

كنت مقتنعاً أنهم خدعوا. إذ لم يكن سيلكيرك سياسياً عديم الخبرة. وإنما كان يعرف معنى البرتوكول. فالنسبة لممثل رفيع المستوى لحكومة جلالتها في سنغافورة أن يستقبل ليم تشين سيونغ وفونغ شخصياً في غضون أزمة كان مستقبل الحكومة فيها في خطر ما كان ليتم إذا لم يكن الأمر مهماً.

فالموالون للشيوعيين كانوا يريدون تفسير ذلك إشارة إلى أن البريطانيين كانوا مستعدين لأن ينظروا في العمل مع ليم، المدان سابقاً الذي منع، بموجب دستور 1958، من المشاركة بالانتخابات. والأكثر من ذلك أن أيا من الأربعة الذين قابلو سيلكيرك لم يكن من أعضاء «الجمعية التشريعية» ولهذا لم يكن لديهم ما يبرر أية مناقشة حول تشكيل حكومة جديدة. ما كان بوسعي أن أقبل تفسير سيلكيرك بأنه قابلهم خارج نطاق الاستقبال الدبلوماسي، وأنه أعطاهم الجواب الصحيح دستورياً. كنت مسروراً في سري لأنه قابلهم. فقد أصبحنا أحراراً الآن.

أعتقدت أنا وكينغ سوي أن العقل المدبر وراء هذه الحركة لم يكن سيلكيرك بل مستشاره المساعد فيليب مور، الذي يبلغ طوله ستة أقدام، ويتمتع بذهن وقاد. كان طويلاً ممشوق القوام، ذا وجه ودود وعينين ضاحكتين. كان هناك شيء ما يجذب إليه. كان بريطانياً من طبقة متوسطة وقد درس في مدرسة عامة. عمل ملاحاً في قاذفة لانكاستير أثناء الحرب العالمية الثانية، وأسقط فوق ألمانيا في كانون الأول 1942، حيث بقي أسير حرب حتى عام 1945. بعد ذلك ذهب إلى أكسفورد.

كان مور وأعضاء البعثة البريطانية الآخرون يجدون صعوبة في التعرف على زعماء حزبنا بسبب القاعدة المتبعة لدينا وهي أن على الوزراء أن لا يجروا مقابلات غير رسمية. رأينا كيف خسر الوزيران مارشال وليم يوهوك مكانتهما لدى الجمهور لأنه اعتبرهما يتوسلان اللقاءات الاجتماعية. دار مور حول المشكلة بلعب الغولف مع كينغ سوي ومعي بعد كل اجتماع لمجلس الأمن الداخلي على أمل إجراء مناقشات مطولة أثناء الشراب بعد انتهاء اللعب. بعد 34 سنة، إثر استقالته، أخبرني مور أنه في نهاية سنة واحدة استنتج أن غود كان على صواب

عندما كتب في تقريره بإنني لم أكن شيوعياً مستتراً بل كنت معادياً للشيوعية. كان تقرير غود حاسماً بالنسبة إلى رسم السياسة البريطانية لأن السير إيان ولاس، الذي كان الأمين العام المساعد الدائم في وزارة المستعمرات في لندن، كان مور يرسل إليه تقاريره بعد أن كان يتحدث معي قرابة ثلاث ساعات عام 1961، وقد وافق أيضا على تقديم غود.

وجدت في الأرشيف البريطاني الدعم الوثائقي لاستنتاجنا بأن البريطانيين كانوا يخططون لفصل الموالين للشيوعية من حزبنا، وذلك في تقرير يعود تاريخه إلى تشرين الأول 1961 مرفوع من فيليب مور إلى إيان سميث يشرح فيه مشكلة سنغافورة والاندماج:

«ما إن أصبح ليم تشين سيونغ مقتنعاً أن شعب سنغافورة سيؤيد الاندماج، حتى أصبحت أشك في أنه سيعود إلى السياسة الأصلية بعيدة المدى للحزب الشيوعي المالاوي ـ MCP ـ أي حكومة اشتراكية في كل المالايو. ففرصة الإطاحة بلي كيوان يو وإيجاد حكومة شيوعية بطريقة ملتوية في سنغافورة بدت في شهر تموز فرصة ذهبية بالنسبة إلى ليم تشين سيونغ لا يمكن رفضها».

«إن الفرصة الذهبية جداً» التي أشار إليها مور في تقريره كانت تصويتاً على الثقة الذي جرى في تموز. وكان تأكيد سيلكيرك إنه دستور حر التزموا به، ولا تلجأوا إلى الشغب هل تفهمون؟» هو على وجه الدقة السياسة نفسها التي اتبعها البريطانيون مع التونكو. ورأى مور في السياسة ذاتها المؤرخة في 18 تشرين الأول «كان علينا أن نشرح للاتحاد أنه إذا افترضنا أن باريسان سوسياليس قد تصرف بطريقة دستورية، فلا مجال لوضع زعمائهم في السجن أو الشك في دستور سنغافورة». بكلمة أخرى اتخذ البريطانيون موقفاً يفيد بأنه إذا كان الباريسان قد تصرفوا بطريقة دستورية فقد كانوا أحراراً تماماً في تسليم السلطة بموجب الدستور.

تلقى ليم تشين سيونغ ورفاقه دعوة الشاي من قبل القوميسيار البريطاني وما قاله لهم على أنه إشارة تفيد بأن البريطانيين راغبين في التعامل معهم، وأنهم لم يكونوا حائلاً دون استلامهم السلطة. ما قاله سيلكيرك كان يعبر عن الموقف الدستوري السليم ولكنهم فسروا مضامين قوله لصالحهم وقاموا بالانسحاب من حزبنا وحاولوا إبعاده من الحكومة.

حقق الموقف الدستوري الذي يبدو بسيطاً والذي اتخذه سيليكرك ثلاثة أهداف. أولها أنه كان على حكومة (PAP) أن تتخذ إجراء ضد ليم تشين سيونغ ورفاقه الشيوعيين و أن تواجه خطر إبعادها من قبلهم. وثانيها أنها وفرت لليم ورفاقه الفرصة لاستلام السلطة دستورياً. وثالثها أنها أظهرت للتونكو أن الإجراءات بالنسبة إلى ماليزيا ستكون مؤلمة إذا رفض أن يضم سنغافورة. وعندما أعلن "التونكو" خطته بالنسبة إلى سنغافورة وأراضي بورنيو رفضت الاستسلام إلى دعوة ليم تشين سيونغ لإلغاء «مجلس الأمن الداخلي» و «حريات ديمقراطية» أوفر، فقد كان «بلين» يريد أن يدمر حزبنا ويدمرني لأن الاندماج كان لا بد من الحيلولة دونه بشتى الوسائل. وهذا ما انعكس بعد سنوات من قبل كو يونغ الذي كان تابعاً إلى ليم في منظمة «الجبهة الشيوعية الموحدة» ـ CUF، وأكده ليم تشين سيونغ عام 1984 عندما أعلم «دائرة الأمن الداخلي» أنه قابل بلين ثلاث مرات بين أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات وأنه في أحد هذه اللقاءات أخبر الشيوعيين بأن ينشقوا عن حزبنا. ظن «بلين» على ما يبدو أننا سنخاف من قوة الموالين للشيوعيين، وكان هذا صحيحاً.

ظن أننا طبقة متوسطة رقيقة، بورجوازية، ناطقة بالإنكليزية، محبة للمسراتْ، نحتسي البيرة، ونلعب الغولف، ونعمل، وننام في غرفة مكيفة ونركب سيارات مكيفة. لم يرَ أن لديه ما يكفي من البرجوازيين والمثقفين الناطقين بالإنكليزية قد يقاومون الضرر الذي يريد أن يلحقه بنا.

24. انكشاف الشيوعيين

كان الضغط في الأسابيع التي تلت الانفصال عن الشيوعيين كثيفاً وكنا نصدر بيانات للصحافة كل يوم. ففي 30 تموز 1961، أعلن أعضاء الجمعية الثلاثة عشر المنفصلون تشكيل (باريسان سوسياليس) والذي يحمل أهداف حزبنا ذاتها: (ملايو ديمقراطية، مستقلة، اشتراكية غير شيوعية، تقيم اتحاداً مع سنغافورة). وفي الوقت ذاته كانت تجري معارك مشابهة بين النقابات. وفي 3 آب (أغسطس) أعلن أمين سجل الجمعيات حل (المجلس النقابي) بعد أن أشار وزير العمل أنه لم يعد من الممكن أن تتعايش النقابات غير الشيوعية والنقابات الموالية للشيوعيين في منظمة واحدة، حيث جمع ليم تشين سيونغ الزعماء الموالين له ــ وهم الآن ــ 82 لمناقشة تشكيل (اتحاد سنغافورة الجديد للنقابات) (SATU).

أردت أن أختبر موقفنا، لأرى ما إذا كنا في وضع يائس مثل وضع ليم يوهوك، عندما جمع شتات الشيوعيين في أعمال العنف في تشرين الأول 1956. وهكذا استقلت أنا وبانغ بون، وأحمد إبراهيم من مناصبنا الوزارية لنعود إلى منظمتنا الأساسية ونراقب ردود أفعال الناس على هذا التحول المفاجئ في الأحداث.

عدت إلى دائرتي الانتخابية في تانجونغ باجار، وقابلت وجهاء المنطقة من رجال ونساء. وتحدثت إلى الأعضاء البارزين والأعضاء العاديين، وزرت أصحاب المحلات، وفي المساء كنت أزورهم في بيوتهم أو في المقاهي لتبادل الأحاديث معهم. كما زرت أماكن تجمع كبيرة في دوائر انتخابية أخرى، بالإضافة إلى عدد من النقابات غير الشيوعية التي كنت على صلة بها. وجدت الزعماء والأعضاء غير مستائين. وأولئك الذين كانوا في السابق متكاتفين معي

ما يزالون ودين ومؤيدين. فمعظمهم كان في حيرة من الأمر، وبعضهم كان خائفاً. إذ لم يحاول أحد أن يتجنبني أو يظن أنني خائن. لم أكن في وضع خطير كما كان ليم يوهوك.

وفي غضون أيام نقل إلى يانغ بون وأحمد مشاعر مشابهة. لم تتحول المواقف ضدنا ولم تهتز الأرض من تحتنا ونشطاؤنا ما يزالون موالين لنا. لكن كثيراً من الجمهور قد تراجع بسبب التطورات الأخيرة والتخوف من المستقبل. لم أزر أية نقابة موالية للشيوعيين لأنها قد تكون معادية أو غاضبة.

بعد أن تحررت من شؤون الإدارة وتفاصيلها صار عندي من الوقت ما يجعلني أجس نبض الجمهور وأن أضع خطة للعمل في المرحلة القادمة.وتعلمت أنني عندما أجابه بالانتقادات الشديدة من الأفضل أن أتفاداها وأن أبقى هادئاً وأعيد التفكير في الأمور الجوهرية الأساسية. كان الحظ عاثراً عندما جرى التصويت على الثقة في 21 تموز. والشقاق مع الشيوعيين كان مكشوفاً، والمواجهة مستمرة.

لا يمكن أن نسمح لأنفسنا أن ننسى. فقد ألحق بنا ليم تشين سيونغ أقصى ما يستطيع من الضرر. فبعد أن جرى التصويت اكتشف أنصار الشيوعيين أنهم لا يستطيعون وضع يدهم على السلطة، فقاموا بسلسة من أعمال التخريب وإلحاق الأضرار بفروع حزبنا، وتعرض 25 فرعاً من فروع حزبنا لأعمال السلب والنهب والتخريب. ولكننا الآن نملك كادراً قوياً من الأعضاء بحيثلا يستطيعون السيطرة على الحزب. وقمت مع بانغ بون بجولة على فروع الحزب لإحياء المعنويات، لنبين أننا خلافاً لحزب العمل لا نرتكب مثل هذه الأعمال. واستطعنا استعادة بعض المسروقات. وعمل تشان تشي سيونغ بطل الكاراتيه درعاً لنا. كان لا يخشى التهديد وولاؤه وشجاعته سجل تقدير لدينا. وفي الأوساط النقابية عمل ليم تشين سيونغ وأتباعه الصغار كل ما في وسعهم لإثارة الاضطرابات وخلق حالة من القلق والغضب، مُقدمةً لعمل جماعي واسع النطاق، من خلال استخدام النشطاء من ذوي الثقافة الصينية ممن زرعوا في عقولهم الولاء للشيوعية. وكان

علينا أن نواجه هذه التحركات من خلال نشاطاتنا في الأوساط الصينية نفسها. وحشدنا بدورنا رجالنا والموالين لنا. ولكننا لم نجاريهم في أعمال التخريب والنهب بل حرضنا السلطة والنقابات على قمع هذه الأعمال الجائرة وكان لابد من الاستعانة بالقوات المسلحة في سنغافورة لفرض سلطة النظام والقانون.

كان كيني متخوفاً من عرض فونغ للقوة، ومع أنني طردت فونغ بوصفه سكرتيراً سياسياً له، كان كيني خائفاً من اتخاذ إجراء ضده وضد نقاباته و«فوج الأعمال». لم يكن كيني يخاف من مواجهة البريطانيين، بل كان يخشى من مواجهة الشيوعيين . ناقشت المسألة مع تشين تشي، وكينغ سوي، وراجا، ويانغ بون ووجدنا أننا بحاجة إلى وزير قوي يتعامل مع الشيوعيين. أجريت مبادلة مابين وظيفتي كيني وأحمد إبراهيم. فذهب كيني إلى وزارة الصحة حيث الأمور أهدأ، وانتقل أحمد من وزارة الصحة إلى وزارة العمل، حيث سرعان ما أظهر أنه لا يخاف. فقد ألغى تسجيل «المجلس النقابي» واتخذ إجراءات ضد العاملين البارزين الموالين للشيوعية في «فرقة الأعمال».

وقد أثار هذا ثورة. ففي شهر تشرين الثاني قام مناضلون من «فرقة الأعمال» بالاعتراض على تشكيل نقابة، وأحاط 150 منهم بمكتب رئيس المعسكر. وقد قدموا إلى المدير سلسلة من المطالب تتضمن إبعاد مكتب الرئاسة، وفي 24 تشرين الثاني أشعلوا النار في دراجة ودراجتين آخرين ممن اعتبروهما من أنصار حزبنا. اتهمنا 7 أعضاء بالتسبب بإلحاق الأذى. ثم شكلوا لجنة عمل وعقدوا اجتماعات احتجاج وألحقوا الأذى بمراكز مراقبة فرق العمل، وفي شهر كانون الأول، بعد طرد ثلاثة من زعمائهم تحصن 180 منهم في معسكر «باياليبار». حيث كانوا مجموعة شبه عسكرية لها نظام متماسك ويمكن أن تكون مخربة إذا ما ثارت، لذا قررنا أن نرسل قوات عسكرية سنغافورية، كان لديها كتيبتان فقط كي تستولي على المعسكر وتفرض النظام والقانون.

كنت أريدهم أن يتجنبوا أي إطلاق للنار أو القيام بعمل عنيف يمكن أن يسبب خسائر قد يستغلها الشيوعيون لكسب تعاطف شعبي. لذا طلبت من الضابط البريطاني المفوض بأن يظهر قوة سيطرة لا يجرؤ مثيرو الشغب على مقاومتها. قلت: لو كان لدينا قوات «غوركا» كي نرسلها لكنت واثقاً أنه لن يكون هناك استخفاف ولسوف تذوب «فرقة الأعمال». ولكنني لم أكن متأكداً ما إذا كان لديهم التقدير الايجابي لجنوده السنغافوريين. قال الضابط: بأنه لا توجد مشكلة، وأمر رجاله بالإحاطة بالمعسكر وهم يحملون الحراب. وبمجابهتهم بعرض القوة هذا تفرق أعضاء كتيبة الأربع مئة بدون إبداء معارضة وعندئذٍ قمنا بطردهم جميعاً.

شكلوا مرة ثانية لجنة عمل وطالبوا بلجنة تحقيق. ولكنها كانت محاولات ضعيفة لإثارة الفوضى بالمقارنة مع أعمال الشغب الشيوعية في عامي 1955 و1956. كان هناك عاملا ن يدعوانهم للتراجع: الأول أن الرأي العام يمكن أن يكون ضدهم إذا خططوا لاستخدام العنف دون أن يشعر الشعب أولاً بالغضب بسبب مظلمة ما مثل تهديد الثقافة الصينية، وثانيهما أن العنف يمكن أن يدفع الحكومة إلى اتخاذ إجراءات أمن ضدهم.

وعلى صعيد الجبهة الصناعية توقعت أن ينظم ليم تشين سيونغ قلاقل واسعة النطاق ويحذر في مؤتمر صحفي من أننا قد نواجه إعادة لأحداث 1955 - 1956. وفي عام 1961 كان هناك 116 إضراباً، 84 منها بعد انقسام حزبنا في 21 تموز، وخلال الخمسة عشر شهراً، من تموز 1961 حتى أيلول 1962 جرى 153 إضراباً، سجل لسنغافورة ما بعد الحرب.

قمت بزيارة إلى كوالا لامبور لإجراء مناقشة مع «التونكو» حول الاندماج، وعند عودتي فوجئت بعدة مجموعات من المتظاهرين. وقررت ألا نجابه هذه الأعمال الصغيرة حتى نهزم الشيوعيين في معركة الاندماج. وشعرت بالاطمئنان بعد أن التقيت مع أنصارنا بعد عدة أيام في دائرتي الانتخابية وفي مراكز

الجمعيات والنقابات. فلم يعد الشيوعيون يمسكون بنا من خناقنا. بل نحن أحرار الآن ونستطيع أن نعمل بتصميم وثقة لتعزيز مواقعنا دون الخشية من وقع انقسام في صفوفنا. فقد أبعد ليم تشين سيونغ وأنصاره من الشيوعيين وعزلوا. كان لتنظيمهم القدرة على إلحاق أذى كبير بنا من خلال نقاباتهم القوية ومن خلال الطلاب الصينيين، ولكنهم إذا تجاوزوا حداً معيناً فإن ممثلي البريطانيين والمالاويين في «مجلس الأمن الداخلي» سوف يدفعونا إلى القضاء على منظماتهم البارزة واعتقالهم.

لم أكن ميالاً إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات قبل الاندماج. بل كنت أريد أن يقوم «التونكو» بهذه المهمة بعد أن نصبح جزءاً من «الاتحاد». ولكن «الفرع الخاص» كان يفضل العمل على الفور. وعندما اجتمع «مجلس الأمن الداخلي» في «مرتفعات كاميرون» في شهر آب (أغسطس) افتتح سيلكيرك النقاش بدعوتي إلى إبداء رأيي حول (رغبة الصينيين في المقاومة)، وهي ورقة قدمت من قبل المختصين في «الفرع الخاص» تؤكد على الحاجة إلى اعتقال القادة في وسط التنظيم الشيوعي. كان لدي وجهة نظر مختلفة. كنت أريد أن نجبر الشيوعيين على شرح التزامهم الأخير بالاندماج كي نهزمهم في نقاش مفتوح وهو ما كنت واثقاً منه. فقد كنت أرى أن الاعتبارات السياسية، أكثر من الاعتبارات الأمنية، هي التي تقرر أي جانب سيكسب المعركة.

والفائز سيحظى بكل شيء. فالناطقون بالصينية في سنغافورة، كشأن الناطقين بالصينية في كل مكان في جنوب شرق آسيا يَفضلون تقليدياً. أن يقفوا جانباً حتى يروا بوضوح في أي اتجاه تجري الرياح. ففي الوقت الحاضر ليس لديهم ثقة بنجاح حزبنا بدون الشيوعيين. لذا فهم يفضلون حتى حكومة يعرفون أنها تناور الشيوعيين، إذا كان الشيوعيون سينتصرون على المدى البعيد. وفي رأيهم أنهم سوف ينتصرون. لأنهم كانوا يرون أن العملاء السياسيين للصين الناهضة المستعيدة لنشاطها، سوف يصل نفوذها إلى سنغافورة في غضون عشر سنوات.

سيلكيرك يناولني مضرباً في ملعب الغولف في «مرتفعات كاميرون» عام 1961. وبيننا وقف داتو عبد الرحمن، الوزير المالاوي، وشقيقه وزير الداخلية المالاوي د.إسماعيل. أما غوه كينغ سوي فقد أعطى ظهره لآلة التصوير.

ناقشت القضية مع أربعة من العاملين في حقل التربية المتطوعين بالعمل مع «الفرع الخاص». كانوا يشعرون الآن أن المستقبل يدعو للقلق أنه محفوفاً بعدم الاستقرار، وأن أي تحول في مجرى الأحداث قد يزيد من مخاطر الوضع ويجعلهم في الجانب الخاطئ. كما رفضوا التعيينات. أكدت أن البريطانيين أنفسهم هم الذين خلقوا هذا الوضع. فكلما ازداد سيلكيريك وبعثته البريطانية تودداً إلى الشيوعيين ومؤيدي المليونير الصيني الشوفيني، تان لارك سي، الذي ينتمي إليهم ازداد الناطقون بالصينية اقتناعاً بأن هذا يعني أنه قد يسمح للشيوعيين باستلام السلطة.

كان هناك تحول ملحوظ في أكبر صحيفتين صينيتين في سنغافورة، فقد غطت وفاة تان كاه كي وجنازته صفحتين في جريدة «نانيا نغ سيانغ بو». وإذا كانت اللجنة البريطانية قد أخطأت الحساب، فسيكون لدينا حكومة جبهة شيوعية في غضون ستة أشهر أو أقل. وسيصبح البريطانيون قادرين فيما بعد على معالجة الوضع ببنادقهم ولكن حتى ذلك الحين تكون إرادة الناطقين بالصينية على مواجهة الشيوعيين قد تبخرت. لهذا كانت تحتاج القاعدة الصينية الجماهيرية إلى مرتكز مالاوي ملح.

رد سيلكيرك على هذا بسرعة: أنه بموجب الدستور يقع على عاتق حكومة سنغافورة أن تحكم، ولكن الحكومة عملت على تحويل مسؤولية الأمن الداخلي إلى «مجلس الأمن الداخلي». وكان ردي عليه أن الدستور قد أوضح بحكمة أن على البريطانيين المناطة بهم المسؤولية الأخيرة أن يستخدموا السلاح. تلك المناقشات كانت تلخص الأزمة التي تواجهها الحكومات الثلاثة. كل واحدة منها تريد أن تلقيْ بالعبء على الأخرى. وكان كل من ممثلي بريطانيا والملايو يريدون من حكومة سنغافورة أن تتخذ إجراءات ضد الشيوعيين، ولكن تلك الحكومة كانت مقتنعة أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك دون إلحاق ضرر كبير بشعبيتها لدى جمهور الناطقين بالصينية. وما كان مهماً الآن أن نبين أن الشيوعيين ليسوا سادة

المستقبل في سنغافورة. وعندئذٍ فقط يمكن طرح الاندماج على التصويت. وقد استخلصت أن هذا أمر جوهري للغاية، يربط سنغافورة مع ماليزيا بدون أن يسبب ذلك أي ضرر، وحتى لا يكون ذلك برهاناً على أننا بعنا أنفسنا للحكومة التي يسيطر عليها المالاويون في كوالا لامبور.

فضلت الاستفتاء على انتخابات عامة، لا تقرر نتيجتها مسألة الاندماج فقط. ولكنه من أجل كسب الأكثرية لماليزيا، إذ كنت أريد من الناطقين بالصينية الحياديين أن يعرفوا أننا نحن ـ وليس الشيوعيون ـ الجانب الرابح. لا يمكن أن نجعلهم يعتقدون بوجود فرصة للخسارة، وإلا فإن كثيراً منهم سيصوتون ضد الاندماج أو يمتنعون عن التصويت. من جهة ثانية إذا استطعنا إقناع الناس بأن الاندماج أمر حتمي، وأن الشيوعيين لا يملكون الغالبية لإحباط ذلك، فسوف يستنتج الناس أن من يؤيدون الشيوعيين سيخاطرون بالتعرض إلى المعاقبة من قبل الحكومة الاتحادية. لذلك كنت أريد أن يشعر الناس أن المد قوي جداً وضخم جداً بحيث لا يستطيع الشيوعيين ولا أي طرف آخر الوقوف في وجهه. ومن المؤكد أننا إذا استطعنا إيصال هذه الرسالة فإن زعماء الناطقين بالصينية في غرف التجارة، والاتحاد الثقافي والمدارس لن يسيروا مع ليم تشين سيونغ، فهم في أسوأ الحالات سيبقون على الحياد، وفي أحسن الحالات سيؤيدون الاندماج بهدوء.

والطريقة المؤكدة لتوليد هذا الإحساس بحتمية ماليزيا، هي أن نجعل الناس يرون أن ليم تشين سيونغ، وفونغ، والكوادر الموالية للشيوعيين نفسها تخوض معركة خاسرة، وأن من الأفضل عدم الانضمام إليهم. ولتعزيز هذا الانطباع رأيت من الضروري اطلاع كل فرد على الصورة الكبيرة على خلفية تشكيل حزبنا وحزب الشيوعيين جبهة متحدة، ولماذا خرق ليم تشين سيونغ وفونغ تعهدهما بالقتال من أجل الاستقلال من خلال الاندماج مع المالايو، ولماذا ينبغي أن يخسر الشيوعيون؟ ومن أجل التفكير في كل هذا كنت بحاجة إلى السكينة والهدوء،

وهما لا يتحققان في سنغافورة. في الحادي عشر من آب (أغسطس) غادرت ليلاً بالقطار متجهاً إلى كوالا لامبور، ثم تابعت في السيارة إلى «كلانغ لودج»، وهو منزل ريفي للضيافة تابع لحكومة سنغافورة في منطقة كاميرون الجبلية على ارتفاع خمسة آلاف قدم عن سطح البحر، وأخذت معي زوجتي تشو وأولادنا الثلاثة. كما أخذت معي مساعدي الشخصي تيو يك كوي، لأنني كنت أريد أن أملي عليه مسودة سلسلة من الخطب تتراوح في طولها مابين 20 ـ 30 دقيقة لأسلمها إلى إذاعة سنغافورة لأروي للشعب القصة بكاملها.

كانت منطقة الكاميرون باردة وهادئة ونائية، وبعيدة عن أجزاء سنغافورة السياسية الحارة. في ذلك الوقت لم تكن هناك آلات فاكس، ولا هواتف مباشرة فضلاً على أن الخط الهاتفي لم يكن نقي الصوت. وأعطيت تعليمات بألا يزعجني أحد إلا لحدث بالغ الضرورة. وهكذا بقيت طوال قرابة أسبوعين في سكينة وهدوء. وخلال تلك الفترة أنجزت ثماني أحاديث، وكان علي أن أنجز الأربعة الباقية في سنغافورة، حيث سيتم تسجيل الأحاديث الأولى. وطوال فترة شهر بدءاً من 13 أيلول وحتى 9 تشرين الأول (أكتوبر) كنت أذيع ثلاث أحاديث في الأسبوع، بثلاث لغات في كل مرة، اثنان منها باللغة المالاوية ولغة الماندارين. وأنا استخدم عادة اللغة العامية في حياتي العملية كانت تجربة مرهقة أتعبتني جسدياً، حتى أنني سقطت على الأرض في إحدى المرات بسبب الإرهاق الشديد.

في تلك الأحاديث التي وصلت إلى 12 حديثاً أو حلقة، لخصت خلفية جبهتنا المتحدة مع الشيوعيين منذ عام 1954 عندما تأسس حزبنا ـ حزب العمل الشعبي ـ وماذا حدث منذ ذلك حدث الانفصال ولماذا وقع الانفصال، وصولاً إلى الصراع الراهن حول الاندماج. وأردت أن استبعد أي شك بأن ما أقوله هو بمثابة حملة ضد الشيوعيين أو تخريب. فقد وصفت الشيوعيين بالقوة والشجاعة وصدقية قناعاتهم. وشرحت للمستمعين في أحد أحاديثي الإذاعية مايلي:

«تجاوزنا الفجوة وصولاً إلى عالم الثقافة الصينية، فهو عالم حافل بالحيوية والدينامية والثورة، عالم كان يعمل فيه الشيوعيون طوال السنوات الثلاثين الماضية بنجاح كبير... نحن معشر الثوريين الناطقين بالإنكليزية. تأخرنا في محاولة الضخ من بئر النفط نفسه. كنا في نظر الشيوعيين نسرح في مناطقهم الخاصة بهم. في هذا العالم تعرفنا على ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سوان. اللذين انضما إلينا في الحزب. وفي عام 1955 دخلنا الانتخابات. ومع وصولنا نشطت المنظمات الشيوعية الخفية في النقابات والاتحادات الثقافية.

إنه عمل غريب في هذا العالم. فعندما تقابل زعيماً نقابياً عليك أن تقرر بسرعة في أي جانب هو وما إذا كان شيوعياً أم لا؟. إذ تستطيع أن تكتشف من خلال اللغة التي يستخدمها وسلوكه ما إذا كان ينتمي إلى الدائرة العميقة التي تتخذ القرارات... تعرفت على عشرات منهم. لم يكونوا من المحتالين والانتهازيين... بل كثيرون منهم مستعدون لدفع الثمن من أجل قضيتهم الشيوعية على حساب تضحيتهم وحريتهم الشخصية. يعرفون أنهم يخاطرون بأنفسهم إذا ما كشف أمرهم واعتقلوا. وفي النهاية كثيراً منهم دخلوا السجون في انتفاضات عام 1956 و1957. تعودت أن أراهم هناك يناقشون الاستئناف. كثيرون منهم أبعدوا إلى الصين. وبعضهم كان من أصدقائي الشخصيين.كانوا يعتقدون أنني ينبغي أن أنضم إليهم، وأنني في النهاية سأقر لزاماً بأن ما يدعونه بالنظام الديمقراطي «البرجوازي» لن يفرز مجتمعاً عادلاً ومتساوياً وأنني سأقر بأنهم كانوا على صواب».

«من ناحية أخرى كنت امضي ساعات أتجادل مع بعضهم محاولاً أن اثبت لهم أنه مهما حدث في الصين أو روسيا فنحن نعيش في المالايو، وبعيداً عن الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية، إذا كنا نريد مجتمعاً أكثر

الكشف عن الشيوعيين في 12 محطة إذاعية خفية كل واحدة منها
تذيع باللغة الماندرين والمالايو، 1961

عدلاً ومساواة في المالايو، علينا أن نتخذ بعض القرارات الأساسية، مثل أن نكون مالاويين، نجمع الصينيين والهنود والآخرين مع المالاويين. ونبني وحدة قومية وولاء وطنياً. ونجمع مابين العروق كافة من خلال لغة قومية واحدة».

وشرحت لماذا المالايو وسنغافورة لا يتفصلان:

وكل واحد يعرف أن الاتحاد مهم لسنغافورة. إنها الأرض التي تنتج المطاط والقصدير اللذين يُشغلا اقتصادنا. إنه الأساس الذي جعل سنغافورة العاصمة. وبدون هذه القاعدة الاقتصادية لا تحيا سنغافورة. وبدون اندماج، وإعادة توحيد حكومتينا وتكامل اقتصادنا فإن اقتصادنا سيسوء ببطء واستمرارية. وستسوء حياتكم المعيشية. وبدلاً من وجود تنمية اقتصادية واحدة للمالايو، سيكون هناك تنميتان، فالاتحاد سيدفع سنغافورة إلى التوسع الرأسمالي الصناعي وفي هذا التنافس سيعاني كلاهما».

في حديثي الإذاعي الأخير أعدت التأكيد على هذه النقطة: «حيث انه لا يوجد قحط في جوهور ونقص في المياه في سنغافورة في الأشهر الثلاثة الأخيرة، فربما يغير الشيوعيين خططهم... نحو استقلال سنغافورة وحدها. ولكن الطبيعة ذكرتهم بالحماقة الكاملة لمثل هذا التحرك». لقد كانت سنة جافة بشكل استثنائي، فأمطار قليلة مع انعدام الأمطار كلياً منذ حزيران . وفي نهاية آب انخفض ضغط الماء بشكل مفاجئ مسبباً لكثير من المصانع الإغلاقَ مؤقتاً والتي ستؤثر بشكل سيء على الفنادق الكبيرة، وكانت خزاناتنا الثلاثة الكبيرة خالية تقريباً. فحدد وقت توفر المياه بست ساعات في اليوم. لم يكن ثمة حاجة لتذكير الناس أن سنغافورة اضطرت إلى الاستسلام عام 1942 لأن اليابانيين قد وضعوا أيديهم على الخزانات في جوهور.وتقنين المياه عام 1961 ما كان ليلغي حتى نهاية كانون الثاني من العام التالي. كانت العوامل تتجمع من أجل إقناع الناس بأن الاندماج هو الحل العقلاني لمشكلات سنغافورة.

لم يكن ثمة تلفزة في سنغافورة في ذلك الوقت. وقد وصلت تلك الأحاديث الإذاعية إلى جمهور من المستمعين، وفي نهاية هذه الحلقات كنت مقتنعاً بأن معظم الناس قد تفهموا جيداً الحقيقة عن الماضي ـ الاقتتال الداخلي، والخيانات.. إلخ، كما تفهموا نظرتي الواقعية إلى المستقبل . استطعت أن أستقطب انتباههم. فأخبرتهم عن قصة تجربتهم مؤخراً ـ عن أعمال العنف والإضرابات، والمقاطعات، والتي ما تزال حية في أذهانهم. وفسرت لهم ما كانوا لا يعرفونه. كنت الساحر الذي يظهر على المسرح ليعرض ألعابه السحرية، ويلقي الضوء على أمور غامضة لم تكن بادية لهم. وقد كان لتلك الأحاديث تأثير عميق ولاسيما لدى الناطقين بالإنكليزية الذين كانت أحاديثي معهم بمثابة كشف عن حقائق لا يعرفونها. وكان بين المستمعين آنذاك شاب يدعى تشيونغ يب سينغ، أصبح فيما بعد رئيس تحرير «ستريتس تايمز». يتذكر فيقول:

«الإذاعات هي التي كانت تفتح عين الطالب في سنته الأخيرة في كمبريدج الذي يتعطش إلى عمل من أجل أن يريح والديه الفقيرين. كانت الأحاديث الإذاعية تصوغ المستقبل بشكل واضح. كنت أندهش من تأثير اللغة البسيطة الحية، والأكثر من ذلك، كنت أتأثر بالقصة الداخلية للصراع بين الجبهة المتحدة والاستعماريين البريطانيين.

«كانت الإذاعات تجربة لا سابق لها. كانت تتضمن تجارب حية، تجري عبر الأثير. «بلين» كان حقيقة. كل إذاعة تترك المستمع في شك ومتطلعاً باهتمام إلى الحلقة التالية. فالقاص المبدع كان يعمل. ولكن هذه المرة بدون خيال. كان هذا مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى أهالي سنغافورة».

وبعد وقت قصير من حديثي في 10 تشرين الأول دعا جون دوكلوس، رئيس قسم الإذاعة، ليم تشين سيونغ إلى أن ينضم إلى الاشتراك في واحد من 12 حلقة إذاعية أسوة بالحلقات التي قدمتها. كما دعي كثيرون ممن ورد ذكرهم في حلقاتي مثل فونغ سوي سيوان، وسيدني وودهول وجيمس بوتيشري ود.لي سيوه

كوه ود شينغ نام تشين. كتب دوكلوس: «أي بيان يدلي به رئيس الوزراء على الهواء ولا يكون صادقاً أو يضر بسمعة أي أحد يمكن أن يجابه بتحد». في اليوم التالي نشر ليم وودهول بياناً صحافياً يقولان فيه: إنهما يريدان وقتاً مماثلاً على الهواء لإذاعاتهما الاثنتي عشر. لم يكونا راغبين في أية مجابهة وجهاً لوجه، وبهذا جعلتهما في موقف دفاعي.

هؤلاء الناطقون بالصينية كانوا ملتزمين بالقضية الشيوعية وقد أظهروا كراهية وحقد ضدي عندما تناولت بالحديث نقابتهم أو افتراضاتهم الاجتماعية، حتى رجال الصحافة الصينيين الذين كانوا إلى جانبهم كانوا متضايقين من تغطية مؤتمري الصحفي. فقد كشفت شخصياتهم وأساليبهم ومقاصدهم الخائنة واعتبرت ذلك دليلاً على فعالية كشفي لهم.

أما التقدير الرفيع فقد جاءني من جيمس بوثتشيري. إذ جاء لمقابلتي في مكتبي في «سيتي هول». بعد أن نشرت الحلقات الإذاعية في كتيب. قال: إنني كنت متألقاً وطلب مني نسخة من الكتيب وسألته ما إذا كان مستعداً لأن يشارك في مقابلة إذاعية معي؟. نظر إلي وحك رأسه وقال: بعد أن اكتسحت الساحة لن يكون لدي فرصة.

وأقر ضمناً أنني كشفت أمر بلين Plen والشيوعيين وأغرقتهم. كنت راضياً لأنني نسفت قناعة الناس بفرص الشيوعيين، وشعرت بثقة بأننا نستطيع أن نحشرهم في زاوية وأن نهيئ الأرضية لجولة تالية ضدهم، ويفضل أن يكون ذلك بعد الاندماج. إذ لم تعد الأمور ساكنة باتجاه الاندماج بثبات بعد. ففي مؤتمر، (هيئة الكومونولث البرلمانية) الذي انعقد في سنغافورة بحضور ممثلين عن ساوراك، وبروناي وبروني الشمالية والملايو، انتهى ببيان نشر في 24 تموز أكد فيه جميع المشاركين على (ضرورة وحتمية ولايات ماليزيا المتحدة). ولما كان الشكل النهائي لهذه الوحدة يتطلب مزيداً من المناقشة، وافق على إنشاء «اللجنة الاستشارية لتضامن ماليزيا» ليضمن استمرار الزخم نحو تحقيق هذا الهدف.

وبعد عشرة أيام أعلنت حكومة الملايو وسنغافورة، بعد اجتماع انعقد في كوالا لامبور، وحضره كينغ سوي بوصفه وزيراً للمالية والذي سيسعى لطلب مساعدة الأمم المتحدة لدراسة كيفية إقامة سوق مشتركة.

وفي آب عقدت أنا وكينغ سوي مؤتمراً لمدة ثلاث ساعات مع التونكو ورزاق لوضع بنود الاندماج. وحضر الاجتماع غزالي بن شفيع الأمين العام الدائم لوزارة الشؤون الخارجية، وكان يحضر بصفته المسؤول عن تفاصيل الاندماج.

في الشهر التالي أمضيت ثلاثة أيام في كوالا لامبور مع التونكو لمناقشة التفاصيل. وفي عودتي إلى سنغافورة في منتصف شهر أيلول عقدت مؤتمراً صحفياً أعلنت فيه أن الاندماج في مراحل دراسته الأخيرة وأن التطورات الأخيرة جعلته في موقع الصدارة، وسيكون شهر حزيران 1963 هو الوعد المفترض». وأوضحت على الصعيد المالي أنه بموجب دستور الاتحاد، كل دولة تفوض السلطة فيما يتعلق بالجمارك وفرض الضرائب إلى الحكومة المركزية، ولكن لما كانت سنغافورة تسيطر على التعليم والعمل والصحة والخدمات الاجتماعية، فإننا سنتلقى حصة أكبر من الاعتمادات لإنفاقها على هذه المسؤوليات. وكان لا بد من تعديل عدد من ممثلينا في البرلمان الاتحادي «وإلا سنكون ممثلين لأنفسنا مرتين». طلب تشين تشي من زعماء أحزاب المعارضة في «الجمعية» أن يحددوا موقفهم من نقطتين أساسيتين جاءتا في الاتفاقية أساساً (لاسيما الدفاع والشؤون الخارجية والأمن) فهذه يجب أن تبقى في يد الحكومة الاتحادية في كوالا لامبور، في حين تبقى التربية وسياسات العمل في يد حكومة سنغافورة. وفي 29 آب، في اليوم الذي نشرت فيه الرسائل في الصحف، أعلن د.لي سيوي تشو في بيان موقع أن 13عضواً في الجمعية سيوافقون على:

1. الاندماج الكامل والناجز مع سنغافورة كاثنتي عشرة ولاية في الاتحاد

2. وفي المرحلة النهائية من الاندماج تضم سنغافورة إلى الاتحاد كونها وحدة ذات استقلال ذاتي. وفي الاندماج سيسعى الحزب إلى دخول

سنغافورة فوراً في الاتحاد باعتبارها دولة أساسية، مع مواطنة مالاوية كاملة لمواطني سنغافورة، وتمثيل نسبي في البرلمان، وإجراء انتخابات عامة في سنغافورة قبل الاندماج. وفي الاتحاد الكونفدرالي ستسعى إلى استقلال ذاتي كامل لسنغافورة في الشؤون الداخلية، بما في ذلك الأمن، أما الشؤون الخارجية والدفاع ففي أيدي الحكومة الاتحادية.

الباريسان صادق على اقتراح جيمس بوثتشيري بأن يوافقوا على الاندماج الكامل اعتقاداً منه بأن التونكو لن يوافق عليه. كنت أنا وكينغ سوي، وراجا، وتشين تشي وبانغ بون فرحين. التونكو والباريسان فلم يرفضا الاندماج بل، كانوا مطالبين باندماج أوسع وأوثق . وكان السؤال الرئيسي في إطار الاستفتاء أي نوع من الاندماج كان الشعب يريده؟.

25. التحرك نحو الاندماج

ألزمنا أنفسنا بأن نجري استفتاء في شهر أيلول حول الاندماج مع ماليزيا. فالاكتفاء بالمصادقة على الاندماج بالأكثرية في «الجمعية التشريعية» مسألة لم تكن مطرحة، إذ يعتقد الناس أننا بعناهم، وسواء أكانت الشروط مناسبة أم لا. يجب أن يطلعوا على الحقائق، ونشرح لهم البدائل، ثم يختارون بأنفسهم. وفوق هذا فإن «التونكو» لن يثق بنا.

والأمر الآخر، ينبغي أن يبقى حزبنا ـ حزب العمل الشعبي ـ بوصفه الحكومة التي ستحقق هذا. من هنا ثمة حاجة ماسة للحصول على الأغلبية في البرلمان. ومع أن الأغلبية كانت ثمة 26 فقط مقابل 25، فقد كنت أعتقد أنه عندما يجد الجد فإن غير الشيوعيين في المعارضة عدا مارشال وربما أونغ إينغ غوان وتابعاه، لن يصوتوا للباريسان. وعندما أوضحت خلفية النزاع الحالي في أحاديث إذاعية كنت في وضع أفضل لطرح آرائي.

كان علينا الآن أن نضغط على الشيوعيين وأن لا ندعهم يتملصون أو يطالبون ثانية بسنغافورة مستقلة. ولكنهم تملصوا، وراحوا يراوغون لبضعة أسابيع، مستخدمين أسلوب التأخير وحث الناس على التركيز أولاً على النضال ضد الاستعمار. وفي مسيرة حاشدة جرت في 13 أب وضمت قرابة 10 آلاف شخص، أعلن ليم تشين سيونغ أن الاستعمار كان العقبة الكبرى أمام اندماج سنغافورة و«الاتحاد». لقد كانت بريطانيا هي التي قسمت الملايو إلى كيانين منفصلين.. وأضاف: (إذا كان الاندماج يعني إعادة الوحدة سنكون سعداء بتأييده). وقد صفق الكثيرون لليم عند هذا المقطع عندما تكلم بالمالاوية ولغة الهوكين. ولكنني لم أكن متأكداً كثيراً أن مستمعيه كانوا يؤيدون ذلك الجزء من الخطبة. فإعادة الوحدة فعلياً أو غير ذلك، ستضعف أغلبيتهم الصينية وتجعلهم عرضة لتصرف أمني.

لم يكن «الباريسان» العامل الوحيد غير المؤكد. فالبريطانيون هم اللاعبون الأساسيون في هذه اللعبة ذلك أن كل شيء يعتمد على توصلهم إلى تفاهم مع التونكو، وما إذا كان سيلعب دوراً حاسماً في مستقبل سنغافورة، وما إذا كان هذا مجرد «اتحاد» أو اندماج كامل. وفي 18 تشرين الأول كتب فيليب مور في تقريره إلى إيان والاس في وزارة المستعمرات في بريطانيا يقول:

(كنا مستعدين بالطبع لبحث مشكلة سنغافورة مع الشيوعيين على المدى القصير، ولكن ينبغي أن نؤكد للتونكو أنه هو وحده،في المناخ الحالي للرأي العام الدولي،الذي يستطيع التعامل مع سنغافورة على المدى الطويل.. كما ينبغي أن نحرره من أوهامه بأن سنغافورة ستترك للبريطانيين بدون أساس محدد).

كنت أعتقد أننا بعد أن خسرنا هونغ ليم وأنسون في الانتخابات الفرعية، وعمل الشيوعيون على إزاحتنا من الحكم ينبغي أن يرى التونكو أنه ليس لديه خيار آخر إلا أن يضم سنغافورة إلى المالايو بشروط خاصة بحيث لا يغضب الأغلبية المالاوية الانتخابية في الاتحاد. فلا بد أنه يريد السيطرة على الأمن الداخلي، والدفاع، والخارجية. وكان التونكو قد أعلن في 27 تشرين الأول عام 1961 أنه في عام 1963 (من المحتمل جداً أن تمنح بريطانيا الاستقلال لسنغافورة. وتقيم علاقات دبلوماسية مع الدول التي نعارضها. فتنشأ سفارات لدول مثل الصين وروسيا ويوغوسلافيا وباقي أعضاء الكتلة الشيوعية. عندئذٍ سيصبح الشيوعيين على بابنا).

ولكن «التونكو» لديه ثمن لضم سنغافورة. فإلى وقت يعود إلى شهر آب كانت حكومته قد أعطت البريطانيين مهلة ستة أشهر للانسحاب من «مجلس الأمن الداخلي». واستنتج البريطانيون أنهم لما كانوا يريدون لحكومة المالايو أن تهيمن على سنغافورة لضبط الشيوعيين، فإن على التونكو أن يعمل على تكامل أراضي بورنيو وإدخالها في «الاتحاد» أولاً. تأكدت بالطبع من أنه ستكون ثمة مشكلة

توقيت. ومن خلال زياراتي لتلك المناطق لمتابعة دعاوى في محاكمها عرفت أن مستوى وعي سكانها السياسي ليس عالياً وقيادتها لم تتشكل بعد. وقد تركت الموضوع للبريطانيين كي يتصرفوا، وأظن أنهم حلوا هذه المسألة مع «التونكو».

في 16 تشرين الثاني غادر «التونكو» إلى لندن لإجراء مباحثات حول ماليزيا مع الحكومة البريطانية. كان سعيداً وقد أخبر الصحفيين أنه من الصواب الافتراض أن ماليزيا كانت «في الجيب» ـ أي أن مناطق بورينو الثلاثة وسنغافورة ستنضم جميعاً إلى الاتحاد. وسرعان ما أضاف بابتسامة، كما نقلت «ستريتس تايمز» مايلي:

«أود أن أكون أميناً تماماً . أريده أن يحصل في وقت واحد وإلا فإن شعب «الاتحاد» سيكون غاضباً. تعتبر سنغافورة في الاتحاد» ولداً مشاكساً... والمقترحات الدستورية ليست اندماجاً كاملاً. «فمن الأوضح أن نقول: إن صيغة قريبة جداً من الاتحاد».

وقد جعلت هذه الملاحظة عملي أكثر صعوبة.

وفي لندن بعد مباحثاته مع ماكميلان لمدة 80 دقيقة، كان سعيداً وهو يخبر الصحفيين: «ليس علينا الانتظار حتى عام 1963». وفي بيان مشترك في 22 تشرين الثاني، قالت الحكومتان البريطانية والمالاوية: «اطلع الوزراء برضى على نقاط الاتفاق الرئيسية التي جرى التفاوض عليها مؤخراً بين حكومتي المالايو وسنغافورة لضم الأخيرة إلى الاتحاد». لماذا التف «التونكو»؟ لقد سحره ماكميلان ووعده فعلاً بجزر بورنيو، على أن تكون موضع بحث من قبل لجنة تحقق رغبات الشعب. وفي سنغافورة عرضنا أمام «الجمعية التشريعية» النقاط الرئيسية لاتفاقية الاندماج:

«ستحصل سنغافورة على 15 مقعداً في الجمعية التشريعية للنواب وعلى مقعدين في مجلس الشيوخ». لن يخسر مواطنو سنغافورة البالغ عددهم 624 ألف مواطن حقوقهم بوصفهم مواطنين في الدولة، والتي

مقابلة زعماء من ساراواك وبورنيو الشمالية لمناقشة الخطة الماليزية في تشرين الأول 1961. من اليسار: يونغ نيوك لين، توه تشين تشي، أونغ كي هيو (الوزير فيما بعد في الحكومة الاتحادية، ساراواك)، أنا. دونالد ستيفنز (شمال بورنيو البريطانية، ثم رئيس الوزراء في صباح)، راجا راتنام وتيون مصطفى هارون (شمال بورنيو البريطانية وقد أصبح فيما بعد أيضاً وزيراً أول، صباح).

يتمتعون بجوازات السفر نفسها للاتحاد أيضاً. كما سيتمتعون بحقوق متساوية، والحماية ذاتها ونلقي على عاتقهم واجبات ومسؤوليات متكافئة. (وسيظل وضع ميناء سنغافورة الحر على حاله). وسيظل الاتجاه العام والإشراف على حكومة سنغافورة كما هما قائمان الآن، وتتألف من رئيس للوزراء ووزراء يعينون بمشورته... وستستمر (الجمعية التشريعية) في سنغافورة على أنها «جمعية ولاية»، ولكن لن يكون لها الحق في إصدار القوانين المتعلقة بالدفاع، والشؤون الخارجية، والأمن، والشؤون الاتحادية.

(سيكون لسنغافورة استقلال ذاتي في التربية وسياسات العمل وبصورة عامة ستحصل على مقاييس أوسع من صلاحيات الدولة الاحتياطية بالمقارنة مع الولايات الأخرى في الاتحاد). (ستحصل سنغافورة على عائدات كبيرة جداً من عائدات الدولة). (أما الوضع الخاص للمالاويين الذين يعتبرون مواطنين، فسيظل محفوظاً). كان من الطبيعي أن تثار عدة اعتراضات ومناقشات من جانب الأطراف الأخرى الداخلة في الاتحاد.

وفي 20 تشرين الثاني أوضح إبراهيم بأن «هذا المجلس يؤكد أن الهدف الأول لجميع الوطنيين الصادقين في المالايو هو تحقيق الوحدة بين هاتين المنطقتين في اندماج لسنغافورة مع اتحاد المالايو». كان الباريسان في مأزق. فقد وجدوا أن التحرك نحو ماليزيا يبدو غير قابل للتوقف لذا حاولوا تأخير الإجراءات بإضاعة الوقت. تحدث د.لي سيو مدة 7ساعات ونصف على مدى يومين. وبعد نصف الساعة الأول راح يتحدث بشكل غير مفهوم. فقد كان لديه فريق من الكتاب المأجورين في قاعة أعضاء المعارضة يتكلمون بحماقة عن أن أعضاء الجمعية من الباريسان كانوا يؤتى بهم إليه. وغالباً ما كان لا يستطيع حتى أن يقرأ ما يكتبونه له. تساءلنا عن المكسب الذي يمكنه الحصول عليه بإعاقة الإجراءات لمدة يوم أو اثنين إذا كنا لن نواجه أي موعد نهائي. وأخيراً طلبت أنا وتشين تشي ووزراء آخرون من رئيس الهيئة التشريعية، السير جورج أويهلرز، ما

إذا كان سيسمح للدكتور لي أن يكرر نفسه مراراً. ولكن أويهلرز كان ضعيفاً. كنا نخشى أن يزرع الشيوعيون فيه مثل هذا الخوف بحيث يتجاوز القواعد كافة من أجل أن يسيطرة الباريسان على المناقشات. وقررنا إذا كسبنا الانتخابات القادمة، فينبغي أن يكون لدينا رئيس للهيئة التشريعية أكثر شجاعة.

وهكذا استمر د.لي يثرثر حتى حجب كثيراً من النقاط المهمة. وكان من بين أهم هذه النقاط أن سنغافورة لن تحصل على تمثيل في المجلس البرلماني الاتحادي يتلاءم مع عدد أصوات ناخبيها. ينبغي أن تحصل سنغافورة على 25 ـ 30 مقعداً من أصل 100 مقعد كما قال. شرحت أنني طلبت 19مقعداً ولكن «التونكو» لم يرغب بمنح أكثر من 15مقعداً وهو الرقم المخصص للمناطق الريفية من كوالا لامبور ومالاقا.

لم تكن الصعوبة الرئيسية التي تواجهني هي في هذا أو في الاندماج الكامل الذي لم يكن شعب سنغافورة يريده. بل كانت الصعوبة مع مشكلة المواطنة. فقد وصف د.لي «الاتحاد» مثل اتخاذ ثلاث زوجات في بورنيو، في حين لن تكون الزوجة الرابعة، إلا عشيقة. وأولاد العشيقة سيعاملون على أنهم غير شيوعيين محرومين من حق المواطنة الاتحادية. سبب التشكيك بأن «القوميين الماليزيين» «قد يثيروا اضطراباً كبيراً» فوضى كبيرة وأعطى الباريسان مبرراً نموذجياً كي يكثفوا من حملتهم الرامية إلى إثارة الاضطراب والتي كانوا قد شرعوا بها من قبل. وكما شرحت في مؤتمر صحفي في 15 تشرين الأول، بأن المواطنين المولودين في سنغافورة سيصبحون بصورة آلية مواطنين اتحاديين في ظل اندماج كامل، فإن آخرين ـ يقدر تعدادهم بما يقارب 327 ألفاً منهم، أي أولئك المولودون في الصين، والهند كذلك ماليزيا ـ عليهم أولاً أن يحصلوا على مؤهلات الإقامة الاتحادية، وأن يجتازوا امتحان اللغة المالاوية قبل أن يصبحوا مواطنين اتحاديين كان الخلاف أنه بموجب اتفاقنا مع «التونكو» سيصبح جميع مواطني سنغافورة «مواطنين اتحاديين». كان ذلك أفضل «اتفاق خاص» حصلت عليه من «التونكو».

قام الشيوعيون بهجوم معاكس قوي رغم موقفهم الضعيف أساساً منطلقين من دعوتهم إلى اندماج كامل كي يؤكدوا على أن سكان سنغافورة سيصبحون من الدرجة الثانية. وعلى الرغم من أن كينغ سوي قد رد معترضاً على د.لي سي كوه حول ذلك مشيراً إلى أنهم سيكونون قادرين على التصويت لاختيار ممثليهم في البرلمان الاتحادي، وكذلك الانتخاب، فقد كان يخشى من تأثير هذه الدعاية في مؤيدينا.

بعد 13 يوماً من المداولات المملة والمكرورة جاء التصويت في 6 كانون الأول. وفيه 33 صوتاً مؤيداً ربما في ذلك (صوتان من UMNO وثلاثة من SPA وصوت مستقل واحد) مع غياب 18 صوتاً. واختار الباريسان أن يحجبوا أنفسهم بدلاً من التصويت ضد «رؤوس الاتفاقية» بعد أن ألزموا أنفسهم بالاندماج. وفي 24 كانون الثاني 1992 كانت النقلة الثانية المداولة من أجل تأييد الخطة المقترحة من «التونكو» مبدئياً من أجل تأسيس «اتحاد ماليزيا» الذي يضم 11مقعداً لمالايا ومقاعد سنغافورة وبورني، ومقاطعات ساراواك وبورنيو الشمالية . ولدى التصويت في 30 كانون الثاني جاءت النتيجة 35 بنعم (أصوات حزبنا والمنظمة الوطنية لاتحاد المالايو UMNO والفرع الخاص SPA) و13 صوتاً «بلا» (الباريسان) وامتناع ثلاثة عن التصويت وغياب ثلاثة. ولم يعارض أونغ إينغ غوان ومارشال. فقد كانا يريدان معارضة الاقتراح، ولكنهما خشيا أن يعاملا مثل الشيوعيين إذا ما انضمت ماليزيا واستلم «تونكو» السلطة لذا فقد امتنعا عن التصويت أو تخلفا كي يتجنبا اصطداماً مع «تونكو».

توقفت المداولات نفسها بسبب مقاطعة طلا ب المدارس المتوسطة الصينية للامتحانات. وفي 29 تشرين الثاني حالت ظروف دون التحاق لي كهون تشي، السكرتير البرلماني لوزارة التربية والحكومة من المجيء إلى «الجمعية التشريعية». وسرعان ما قدم راجا اقتراحاً إلى «المجلس» لدعوة الشرطة إلى التأكد من أن أولئك المسؤولين عن اعتراضه قد جرى التعامل معهم وفقاً للقانون. جرى

التصويت بنتيجة 43 مقابل 3 وقد أمر «الباريسان» «مفارز الطوارئ أن تتفرق بهدوء. كانت مشكلة الامتحانات عسيرة منذ حزيران، فعندما اقترح وزير التربية أن يكون نظام الامتحانات موحداً في المدارس الإنكليزية والمالاوية، والتاميل، وكان ذلك يعني تغييراً بالنسبة إلى الطلاب الصينيين. فبينما كانوا في الماضي يستطعونالإخفاق في امتحانات المرحلة المتوسطة ومع هذا يتابعون في المدرسة المتوسطة العليا، فأصبحنا نطلب منهم الآن أن يجتازوا شهادة المدرسة المتوسطة قبل الوصول إلى شهادة المدرسة العليا. عارض الموالون للشيوعيين النظام الجديد، وصعدوا الموقف كثيراً عندما قام 300 منهم بمحاصرة مراكز الامتحانات وشكلوا سلاسل بشرية للحيلولة دون أن يقدم الطلاب امتحاناتهم في 27–28 تشرين الثاني.

كان ذلك جانب من الاضطراب العام الذي سعى الشيوعيون إلى خلقه. كانوا يريدون أن يشارك طلاب المدارس الصينية في المعمعة كما فعلوا ضد ليم يوهوك. ولكننا رفضنا أن نستخدم الشرطة ضدهم للسيطرة على أعمالهم. بدلاً من ذلك أعلمنا آبائهم أنه إذا لم يحضر أبناؤهم الامتحانات فسوف يخسرون السنة بكاملها قبل أن يعودوا ثانية، وعرضنا حماية الشرطة لهم. وكانت النتيجة أن 60% حضروا الامتحانات. والتقطت الصحف، بما في ذلك الصحف الصينية، صور آباء وأبناء تحرسهم الشرطة التي كانت تدفع بالمشاغبين جانباً والذين غطوا نصف وجوههم بمناديل أشبه برجال العصابات، تجنباً لالتقاط «الفرع الخاص» صوراً لهم.

لم أسمح أبداً للشيوعيين أن يستغلوا اللغة الصينية والتعليم والثقافة الصينية، وبهذا حصلت على تأييد أولادي الذين تعلموا الصينية. قد ينتقدون خلفيتي البرجوازية بصفتي من الطبقة المتوسطة. ولكنهم ما كان يمكنهم أن يعاملوني مثل ليم يوهوك، أي كعدو دمر الثقافة الصينية.

خلافاً لمقر إقامة عبد الناصر، مع بوابات حديدية تفتح إلكترونياً وبدون صوت عند وصولنا. جئت ماليزيين، ولكنه لم يطلق هذا الوصف على مواطني سنغافورة.

وعندما سألني مود لينغ عن متاعبي مع التونكو، قلت له: التونكو يعتقد أنني ذكي، ولكنني لست نفسه كانت نسبة الحضور مائة بالمائة في 19 مدرسة من أصل 25 مدرسة صباحية. وقام 100 طالب بلصق الإعلانات على الجدران ولمبات الإنارة وإشارات السير، ولكن في الساعة الخامسة صباحاً توقفوا عن ذلك. لم يكونوا يخشون أن يراقبهم أحد أو يصورهم.

على الرغم من أن «الباريسان» كان يطوف المدينة كل يوم أحد فإن الأرض لم تهتز تحت أقدامنا.

26. التعرف على «التونكو»

عاد التونكو من رحلته إلى لندن سعيداً. فقد استطاع أن يوسع رقعة بلاده. وهو الآن سيضع يده على سنغافورة بشروط تمكنه من المحافظة على الأغلبية المالاوية ونظام سيطرة المالايو الذي أسسه «الاتحاد». وتجاوز مخاوفه الدفينة من استيعاب مزيد من الصينيين. في منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) أمضيت أربعة أيام في كوالا لامبور، حيث بقيت مع «التونكو» أربعة أيام في مقره الرسمي. كنت أتحدث معه مباشرة على انفراد بدون رسميين أو وزراء، أو أي فرد يسجل ملاحظات.وهذا ما جعل التونكو يشعر بالارتياح، لأنه غالباً ما يلجأ إلى المرونة عندما ينفذ أي اتفاق شرف. وبعد مناقشتنا أخبرت الصحافة أننا نود تشكيل دولة ماليزيا في شهر آب (أغسطس) عام 1962، بحيث يجري الاحتفال السنوي بهذه المناسبة في يوم ميمون . وكان رقم الحظ عنده هو الرقم 8، وهكذا اختير الشهر الثامن ـ آب ـ للإعلان عن قيام دولة مالايو المستقلة.

علمت فيما بعد من صديق قديم، تعود صداقتي معه إلى أيام ما قبل الحرب في كيمبريدج، وهو د.تشوا سين كاه، أنه كان يريدني أن أقيم في قصر الرئاسة لأنه كان يريد أن يعرفني عن كثب، ويعرف عاداتي ويفهم شخصيتي. وقد توصل إلى استنتاج بأنني (لست شخصاً سيئاً). فقد لعبت معه الغولف والبوكر، وشربنا الجعة وبعض أنواع الشراب الأخرى. واعتبرني شيوعياً غير خطير. والحق أنني رفيقاً وكنت دمثاً معه، كان لدي دائماً الكثير من الأفكار، وكل شيء على ما يرام. وترافقنا. وكان من بين مزاياي أنني أتحدث المالاوية، وكنت أشعر وكأنني في بيتي وأنا أتحدث إلى زوجته، بوان شريفه رودزياه، وهي امرأة عربية ـ مالاوية، يدعونها تحبباً باسم انجكوباه، وكانت أيضاً من ولاية «كيداه» وهي ولاية التونكو الأصلية. وكانت زوج تشو تتحدث المالاوية جيداً. وهذا ما أظهر له أننا مالاويين في الصميم ولسنا صينيين متعصبين.

التفاوض مع التونكو يحتاج إلى مزاج خاص. فلم يكن يحب الجلوس وجهاً لوجه بعد أن يقرأ الملفات التي لديه.كان يفضل أن يترك جميع التفاصيل المملة لنائبه رزاق ـ وهو رجل متمرس ودؤوب وشديد التدقيق في التفاصيل ـ ويتفرغ لاتخاذ القرارات الكبيرة، وإدارة مجرى الأحداث. وكنت في كل مرة أجابه طريقاً مسدوداً مع الرسميين المالاويين حول مسألة ما، ولا أجد الوزير المناسب أو رزاق لحلها، كنت أتجه إلى التونكو. وهذا يعني أن أحصل على كلمة مابين جلسات طويلة من الحديث المتقطع حول العالم، وفترات الطعام الذي كان يعده شخصياً في الغالب من اللحوم المشوية ـ كان يتمتع بالطبخ ويتقنه. وكان يأخذ فترة من النوم كنت خلالها أذهب لألعب الكرة منتظراً حتى يصحو. وعند الساعة 4.30 كنا نلعب الغولف، وأثناء اللعب أو قبل الغداء، عندما يكون مزاجه رائقاً، كنت أعرض المسألة عليه.

بهذه الطريقة كان كل موضوع يمكن أن يستغرق أربعة أيام من الطعام والشراب ولعب الغولف، والذهاب معه إلى حفلات العشاء أو الأعراس. وكنت أرافقه في كثير من المناسبات إلى (بينانغ) أو (إبوه) أو مرتفعات الكاميرون، منتظراً اللحظة المناسبة كي أعرض عليه ما أريد. كان مزاجه متزناً، ويظهر الهدوء والصفاء، ولكنه يستشار كثيراً عندما يشعر بالخطر. وأخبرني أنه لا يسمح لأحد أبداً أن يحاوره بخشونة أو يستحثه على اتخاذ قرار، لأنه إذا لم يكن مرتاحاً وهادئ الأعصاب قد يرتكب أخطاء فاحشة. ولذا فإنه عندما يشعر بالضغط يؤجل اتخاذ قراره . ولكنني كنت أعلم أنه ما إن يتخذ قراره فإنه لا يتراجع.

أما المفوضون رفيعو المستوى الذين كانوا يعملون في كوالا لامبور فقد كانوا يعرفون هذا، لاسيما مفوض أستراليا توم كريتشيلي، والمفوض البريطاني جيوفري توري. وكان التونكو يحب الربح أو بالأحرى لا يحب الخسارة. وهذا جانب من تربيته الملكية. ومع هذا كان هدفي الوصول إلى نقاط تفاهم وانسجام

بيني وبينه. وعندما خسرت ذات مرة مئتي دولاراً، بعد أن جاءني هاتف من سنغافورة قال: «كيوان يو اصرف انتباهك إلى اللعب. لا أود أن أربح منك، فعندما يكون ذهنك منصرفاً عن اللعب يمكن للعمل أن ينتظر إلى الغد». ضحكت متذكراً مباحثات لندن عام 1956 وكان لينوكس بويد يكتب جواباً على برقية فيما كان يصغي إلى مارشال. قلت: «تونكو عندما ذهبت لأرد على الهاتف كنت أعلم أن عرضك هو 15 دولاراً، تشككت في أن يكون لديك ثلاث ملوك، ولم يكن لدي أوراق كافية لمواجهتك، لذا كان علي أن ألقي أوراقي. في الحقيقة لم يكن يجامل. بل أراد أن يربح بعد أن أفعل أقصى ما في وسعي فقط. كان أصحابه يمزحون معه أثناء اللعب. وكان يعود إلى البيت وقد كسب بضعة مئات من الدولارات.

كان إنساناً رائعاً. كان أميراً يفهم معنى السلطة ويعرف كيف يستخدمها. لم يكن يحمل عصاً غليظة، ولكن كان لديه كثيرون يقومون عنه بالمهمة الخشنة فيما يتوجه هو إلى طريق آخر ويبدو لطيفاً كعادته . وإذا فقد الثقة بإنسان ما فهذا يعني نهاية علاقته به . ولكنه إذا ما وثق بك فلن يخيب ظنك ولسوف يجد دوماً ـ بتقليد ملكي ـ طريقة لمساعدتك،كما فعل مع ليم يوهوك . فعندما خرج هذا الأخير من الوزارة عينه «التونكو» مفوضاً سامياً في أستراليا، وعندما أساء التصرف هناك واضطر إلى الاستقالة، عينه «التونكو» مرة أخرى في عمل آخر، في منظمة إسلامية في جدة (وكان ليم قد تحول إلى الإسلام) . تلك كانت طريقته في مساعدة صديق إذا ما وقع في ضائقة.

ومن حسن الحظ أنه نظر إلى وضعي المحفوف بالمخاطر في سنغافورة بعين العطف. فلم تتوقف هجمات الشيوعيين علينا،وكان هناك الكثير من إضرابات العمل، ولكن لم يكن هناك أعمال عنف أو صدامات يبن العمال والشرطة . وفي 11 كانون الثاني 1962، طرحت المعارضة في (ديوان راكيات) ،مجلس الممثلين في كوالا لامبور، سؤالاً محيراً على التونكو عما سيحدث بعد الاندماج، نظراً لأن زعماء النقابات في سنغافورة لا يحبون نظائرهم من الموالين. فأجاب التونكو أن

سنغافورة تشهد إضرابات أكثر في الشهر الواحد مما تشهده المالايو في ثلاثة شهور، ومع هذا فسيحاول أن يقلص العدد ويشيع مزيداً من الارتياح للناس هناك، وأضاف ضاحكاً:

(لا أعرف كيف سنحقق هذا، ولكن وزيرنا لشؤون الأمن الداخلي يقول: إنه سيفعل ذلك. والبلاد كلها معه). كان ذلك سيفاً ذا حدين يظهر للمتمردين في سنغافورة أن التونكو واثقاً أن الاندماج قادم وأنه بعد الاندماج سوف يتعامل مع الشيوعيين عن طريق إسماعيل، ومن جهة أخرى حرض هذا (الباريسان) على أفعال يائسة لإيقاف الاندماج. كانوا يعلقون آمالهم على أن يرفض الناخبون الناطقون بالصينية الاندماج في أية صورة، بالعمل على إثارة مخاوفهم من أن يصبحوا (مواطنين من الدرجة الثانية).

ولمواجهة هذه المسألة اقترح القادة التقليديون للجماعة الصينية (بما في ذلك أعضاء غرفة التجارة الصينية). أن أتحدث إلى أعضائهم. ووافقت على ذلك، وفي 13كانون الثاني التقيت ألف مندوب يمثلون 1400 اتحاد جمعية في (قاعة فكتوريا التذكارية). تولى رئاسة الجلسة رئيس (الغرفة الصينية للتجارة والصناعة) في سنغافورة، وهو تاجر مطاط ناجح في الحادية والخمسين من العمر يدعى كو تيك كين، وكان معظم زملائه باستثناء تان لارك سي، لديه شكوك تجاه الشيوعيين، فقد كانت له مصلحة اقتصادية في الملايو حيث يستورد المطاط، ولم يكن يريد مساندة الشيوعيين. وبعد أن عرفته جيداً، وجدته إنساناً حساساً عاقلاً شديد الاهتمام بمستقبل الجماعة الصينية في سنغافورة والتي كان يعتبر أن من واجبه أن يرعى مصالحها.

أمضيت ثلاث ساعات أجيب عن الأسئلة. كان الجمهور غير معاد. والغالبية كانت من رجال الأعمال. ولم يكن بوسع الشيوعيين أن يساندوا الاجتماع أو يسيطروا عليه. كانت أجوبتي عن بعض الأسئلة تثير ضحك الجمهور. وعندما

حولت الاجتماع نحو الحديث عن التطور التاريخي للجماعات الصينية في جنوب شرق آسيا وكيف لعبت الارتباطات القبلية دوراً أساسياً لصالح المهاجرين الصينيين، كانت استجابة الجمهور كبيرة وقوبلت بالتصفيق.

كما توقعت كان السؤال الأول يتعلق بالمواطنة. كان هذا أمراً طبيعياً. وبوصفي عضواً بارزاً في الغرفة، ذكّرت المستمعين أنهم قاتلوا بمشقة من أجل المواطنة في سنغافورة، وتعدد اللغات والمعاملة المتساوية لذوي الثقافات المختلفة. لذا كانوا يتطلعون إلى معرفة كيف سيؤثر هذا على الاندماج.قلت لهم: إذا سعونا إلى اندماج كامل كما اقترح «الباريسان»، فهناك 330 ألف مواطن سنغافوري سيخسرون جميع حقوق المواطنة. ولكن لام تيان،خصمي القديم في الانتخابات العامة سنة 1955، عاد مؤخراً ليشكك في بديلنا. لماذا لا يستطيع 600 ألف مواطن سنغافوري التمتع بالحقوق ذاتها بعد انضمام ماليزيا وفقاً للشروط التي اتفقنا عليها مع «التونكو»؟.

ذلك الخلاف كان مشكلتي، ولم يكن عملي أسهل عندما نشر اللقاء الثالث (للجنة تضامن ماليزيا الاستشارية) بياناً قبل عدة أيام يفيد أن الموقف الخاص للمالاويين في «الاتحاد» سيكون مساوياً لموقف الشعب الأصيل لمناطق بورنيو، وبذا سيصبحون بصورة آلية «مواطنين أصلاً» لماليزيا بحكم القانون. وهذا ما عزز الموقف الأعلى «للمواطنين» على «المقيمين» في سنغافورة.

عندما قابلت السيد جون مارتن، وهو معاون دائم آخر في «دائرة المستعمرات» مع إيان دالاس وفيليب مور في «سري تيماسك» في 16 كانون الثاني 1962 لمناقشة مسألة ماليزيا، كانوا يظنون أن الرأي العام في مناطق شمال بورنيو يعاكس الافتراضات الموثوقة «للجنة تضامن ماليزيا الاستشارية». كان مارتن ووالاس في بورنيو قد وجدوا شكوكاً في كل مكان. إذ كان سكان أعلى النهر من البسطاء ولا يعرفون إلا القليل عن المشكلة ويحتاجون بعض الوقت للتفكير فيها. أما الصينيون فكانوا غير واثقين لأنهم كانوا يعرفون أن سياسة الحكومة المالاوية

هي أن تبقيهم في مكانهم. وفي بروناي، كان «أزهري» زعيم «بارتاي راكيات». والتي تحظى بتأييد كبير في أوساط المالاويين الشباب، معارضاً بشدة للانضمام إلى ماليزيا، وكان يدعو إلى استقلال تامٍ لمناطق بورنيو الثلاثة. أراد سلطان بروناي أن يعرف ما هي الفوائد التي ستعود عليه؟ وكان وما يحتاجه للتأكد من الحصول على شروط خاصة في مباحثات مباشرة مع الحكومة المالاوية.

قلت: إن هذه الشكوك ينبغي أن لا تؤخذ بكثير من الجدية. فزعماء مناطق بورنيو كانوا يحترمون السلطة. وهم ما إن يروا «تونكو» مصدراً وحيداً للسلطة في «الاتحاد» فسوف يكيفون أنفسهم مع ذلك. وما كان مهماً أن يتخذ البريطانيون موقفاً قوياً ويجعلهم يفهمون أن دعم بريطانيا لماليزيا دعم ثابت ونهائي.

استنتج مارتن أن شعب بورنيو سيوافق على الخطة مفترضاً أن «تونكو» كان من الحكمة بحيث يضمن لهم حماية معقولة، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت للاستعداد كي نضمن أن الإدارة لن تنهار بعد انتقال السيادة. أكدت أن علينا أن نحافظ على الزخم. كان «تونكو» يريد قيام ماليزيا في آب 1962. وكنت أريد أن يتم الاندماج بأسرع ما يمكن وبذا أضعف التهديد الشيوعي لدى عدد كبير من سكان ماليزيا. قلت لهم: يجب أن نسرع. «فالباريسان» قاموا بمناورة تكتيكية عندما أعلنوا أنهم مع الاندماج، وعندما يعرفون أنهم لن يكسبوا فإنهم قد يشنون حملة واسعة من الاضطرابات بدلاً من القبول بماليزيا، وبالتالي إزاحتهم من مركز الاهتمام. لا بل إنهم قد يلجأون إلى القتال.

لم تتناقص رغبة الباريسان في إثارة القلاقل لذا كنت تواقاً لتحريك الأمور، ولكنني بنفاذ صبري واختلاف مزاجي جعلت «التونكو» يغضب مني. لم أكن على درجة عالية من الحساسية كي أتأكد أنه ما إن قرر أن يضم سنغافورة إلى «الاتحاد» فإن موقفه مني سيتغير كثيراً. كان أمير بيت «كيداه» الملكي وبالتالي فالتسلسل في المراتب كان جزءاً من طبيعته. وفي الوقت الذي كانت فيه

سنغافورة خارج إطار سيطرته فقد كان يعاملني معاملة زعيم لبلد صديق مجاور، كزعيم أدنى يرغب في أن يجامله. ولكن الآن سأصبح جزءاً من «اتحاده». كان معتاداً على تقبل المجاملة ممن يحيطون به، ومن تابعيه المتواضعين والمخلصين له. كان ليم يوهوك واحداً منهم وكنت فظاً معه عندما قدم اقتراحاً إلى «الجمعية» في شهر آذار للتعبير عن قلقه الشديد بسبب تصاعد الشغب الصناعي في سنغافورة. وفي تبادل الكلام الذي أعقب ذلك. زجرته بقوة مشيراً إلى الخلافات بين موقفه في معالجته للنزاعات العمالية في عامي 1955 ـ 1956، والطريقة التي تعاملنا بها نحن.

ثم أثار كينغ سوي الغضب بإعلانه أن حكومة سنغافورة سوف تدفع أجراً متساوياً للرجال والنساء في الخدمة المدنية مما أغضب تان سيوسين، وزير مالية الحكومة الاتحادية غضباً شديداً ونقل غضبه إلى «التونكو». كان يعتقد أن هذا التبديل سيكون له مضاعفات مالية واجتماعية بالنسبة إلى ماليزيا لأن نساءها العاملات سوف يطالبن بأجر متساوٍ.

جاءت القشة الأخيرة التي أطفحت الكأس، فعندما أعلمت «التونكو» أنني كنت أخطط لجولة تشمل دلهي والقاهرة وبلغراد ولندن وموسكو وبكين. كان مذعوراً. وكنت أسلك طريقاً خطراً يتصل بالعدو. كنت أعطي انطباعاً بأن القادة الروس والصينيين رجال عظماء، في حين أنهم في الواقع «رفات أشرار» يريدون تدمير استقلال مالايو لم يفهم وجهة نظري، وهي أنني بعد أن أزور هذه البلدان واستقبل من قبلها سأكون مهيئاً على نحو أفضل لإعلام الناس بأنني أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى أن النظام الشيوعي غير مناسب لسنغافورة والمالايو. لم تكن هذه وجهة نظر تونكو. فهو لم يكن يريد لأي إنسان في ماليزيا أن يصادق العدو. كان غاضباً من نقاشي معه حول هذا الموضوع، واستخلصت في النهاية أن الموضوع لا يستحق الاصطدام معه.

تصاعد الغضب. في 25 آذار في سنغافورة إذ هاجم المتطرفين الذين ينظرون إلى الجزيرة على أنها «صين صغيرة» وعارض الاندماج، وقطع العلاقات مع حزبنا كي يحاربه. فإذا كانوا يريدون خلق المصاعب وإسالة الدماء فمن الأفضل أن لا نندمج مطلقاً، كما قال، وفي هذه الحالة سيغلق «كوزواي» من أجل سلامة المالايو. وأضاف أن الجماعات المتطرفة ليس لديها ما تخشاه بعد الاندماج طالما أنها تحترم القانون وتعمل في إطار الدستور الاتحادي ـ كان هناك الكثير منهم في المالايو، أكثر ممن هم موجودون في سنغافورة.

كان ذلك من سماته. قال في «مجلس الممثلين في كوالالامبور»: إن وزير داخليته سوف يتعامل مع الشيوعيين. والآن قال: سيكون الأمر على ما يرام إذا تصرفوا ضمن نطاق الدستور. وكان من الواضح أنه يريد التعامل معهم. كان ينغمس غالباً في مثل هذه الملابسات. فما قاله قراءة لما يفكر به «التونكو» ـ، ليس بالضرورة منطقياً ودقيقاً في عرضه ولكنه يترك مستمعيه يعرفون أين يقف. على أن مقاربته هذه المرة كانت أقرب إلى المساعدة منها إلى الإعاقة. لقد أكد على هشاشة سنغافورة، وتصميمه على الوصول إلى الاندماج. وبعد يومين فقط تحدث في حفل غداء قدمه كو تيك كين، وهذه المرة ترك شعره مرسلاً. قال: «إن انشقاقاً كاملاً بين سنغافورة ومالايا يمكن أن يعني الحرب ومذبحة ذات نتائج وخيمة على الشعب. ستنشب الحرب إذا سعت سنغافورة المعزولة إلى السلوان في صحبة قوى غير صديقة للاتحاد (يعني الصين)».

فبعث سيلكيريك بتقرير إلى لندن يقول فيه:

> «أشعر أن مذكرة أقرب إلى أن تكون هستيرية ومتغطرسة، ستكون مؤذية ورافعة حرارة في سياسة سنغافورة في وقت نحاول فيه إدخالها في الاندماج بهدوء وبصورة حتمية، فالتهديدات بإغلاق «كوزواي» وبحرب بين سنغافورة والاتحاد مدمرة وليس من شأنها إلا أن تساعد «الباريسان سوسيالس» على إثارة المشاعر الطائفية ضد المالاويين... ولكن لعل ما هو

أهم من التأثير في سنغافورة الإشارة إلى الحالة المضطربة لتفكير «تونكو» إنه في حيرة واضحة واستياء لأن عرضه على ماليزيا لم يكن موضع ترحيب بأذرع مفتوحة في كل من بورنيو وسنغافورة. ولعله يأسف إلى حد ما من جراء هذه الشراكة. ومع هذا أعتقد أنه ما يزال ينوي السير قدماً مع ماليزيا، ولعل المقاطع الأكثر تطرفاً في خطبه لا ينبغي أن تؤخذ كثيراً على محمل من الجد».

كان سيلكيرك مخطئاً بشأن تأثير كلمات «التونكو» فقد كان لها تأثير كبير في زعماء الباريسان الذين تأكد لهم أن «التونكو» كان يعني ذلك وأنه دخل الآن المعمعة. لقد رسم لوحة كئيبة عن مستقبل سنغافورة إذا لم تكن هناك ماليزيا. وقد تنّبه ليم تشين سيونغ كي يكتب إلى «التونكو» طالباً تأييد حزبه للاندماج مع ماليزيا. وقد سلمت الرسالة بهدوء في مجلس الاتحاد في سنغافورة، ولكن «التونكو» سرّب الحقيقة من خلال أحد مساعديه وخرجت صحيفة «ستريتس تايمز» تحمل عنواناً «رسالة سرية، إنها من ليم». وتحت ضغط الصحفيين أكد ليم تشين سيونغ أنه كتبها وأنه ممتنّ للتونكو لإرساله جواباً فيه كثير من الحفاوة وعندما سئل عما يحتويه رفض الإجابة.

تجاه توبيخ ساخر تلفظ به تشين تشي ـ هل هي صفقة سرية؟ ـ قدم د.لي سيوه أخيراً الرسالة وجواب التو نكو في 11 تموز. كتب ليم تشين سونغ أنه فكر كثيراً في أن مشاعر «تونكو» المحزنة تجاه سنغافورة ناجمة من الافتقار إلى فرص من أجل مناقشة حرة وصريحة «للمواقف المتباعدة» بينهما، والتي كان من شأنها أن تساهم إلى حد كبير بالتفاهم والوحدة الوطنية. رحب «التونكو» في جوابه بتأكيد ليم أنه كان متفقاً معه في الرغبة في الوحدة الوطنية. وكان عليه أن يغادر سنغافورة في اليوم التالي، ولكن سيكون سعيداً بلقائه في تاريخ لاحق وسيعلم ليم متى يمكن ترتيب ذلك ولكن «التو نكو» الذي كان يعرف أن «المواقف المختلفة ظاهرياً» لم تكن قابلة للحل ولذلك لم يعطِ موعداً.

ارتكب ليم تشين سيونغ خطأ كبيراً، فكتابة الرسالة وعدم نشرها بدا للناطقين بالصينية في المقام الأول ضعفاً وإقراراً بأنه كان في موقف ضعيف وأراد أن يجري مصالحة مع «التونكو». لقد فتحت الرسالة بدون كسب أي شي بالمقابل. وأقرت ضمناً بأن «التونكو» كان الشخص المتوقع أكثر من غيره لمسك زمام الأمور من الآن فصاعداً، وليس ليم تشين سيونغ والشيوعيون، وقد عرفت أن الصينيين سيأخذون ذلك بعين الاعتبار عندما يتخذون خياراتهم في المستقبل. و كان كل ما بوسع الباريسان أن يفعلوه في تلك الأثناء هو إشغال كوادرهم من أجل المحافظة على روحهم المعنوية ومنعهم من التفكير في موقفهم الذي لا أمل منه. وبالتالي فقد أعلن د.لي أن 1500 منهم سيخرجون يوم الأحد التالي ـ وكل يوم أحد لمدة ست أسابيع بعد ذلك ـ في حملة من منزل إلى منزل لرفض كتاب الحكومة الأبيض بشأن الاندماج.

بعد أسبوع من زيارة «التونكو» زار تان سيو سين سنغافورة لافتتاح فرع من MCA والذي أصبح رئيساً له. بدا أشد خشونة من «التونكو». فقد أصبحت سنغافورة الولد المشاغب بالنسبة إلى الملايا كما قال. ولكن إذا لم يحدث اندماج فلن يكون من الضروري إغلاق «كوزواي» لأن اقتصاد سنغافورة شديد الهشاشة. ففرض جمارك بسيطة على صادرات المطاط سيقلص سوق المطاط الأكبر في العالم. وإن جزيرة أصغر من محطة مالايو «أراضي الكاميرون» لا تستطيع أن تغطي الإنتاج المطلوب بمفردها. وأضاف بأن الحكومة المالاوية لم تكن تُحكم تماماً من قبل المالاويين وليس صحيحاً أن الصينيين لم يحصلوا على صفقة. وأنه لن يكون عضواً في حكومة كان يشعر أنها معادية للمصالح المشروعة للصينيين المالاويين.

التهديد بتثبيت سنغافورة من خلال إجراءات اقتصادية لم يقربه من الصينيين في أية منطقة. وبعد أيام قليلة رد «الباريسان» بتحذيره من استقلال المالايو وسنغافورة والذي كان حقيقة مقيتة له، فأي محاولة بفرض عقوبات اقتصادية

من أحد الجانبين ضد الآخر يعني الانتحار. وفي الوقت نفسه تحدى ليم تشين سيونغ «التونكو» ولو بشكل غير مباشر وقال: لما لم يعد بوسع البريطانيين أن يحكموا وفقا للنظام الاستعماري القديم فقد قرروا أن يستخدموا في ماليزيا القوى اليمينية المحلية بضبط وحماية مصالحهم في المنطقة.

رد «التونكو» بتكرار تحذيره بأن «كوزواي» سيغلق في نهاية السنة إذا رفضت سنغافورة الاندماج،وأكد على أنه يعني ما يقول. «وقال: إذا كان الشيوعيون يظنون أنهم يستطيعون تقليد الملاويين بسهولة فإنهم يخطئون كثيراً»و بعد أسبوع قال «الباريسان» إن من شأن مثل هذه التهديدات أن تزيد النقمة الشعبية تجاه السياسيين الاتحاديين الذين كانت مواقفهم غير معقولة «وغير عادلة وغير ديمقراطية البتة» وقيل: إن الاتحاد غمر سكان مناطق بورنيو بالتنازلات، أما بالنسبة إلى سنغافورة فقد كان حافلاً بالتهديدات والإكراه والتخويف.

قد يكون الأمر كذلك، ولكن التهديدات جعلت الشعب يتأكد أن عواقب المجابهة مع «تونكو» يمكن أن تكون وخيمة، ومهما كان الأمر فإن المالايو ستتحمل ذالك بصورة أفضل من سنغافورة. كانت جماعة رجال الأعمال البريطانية فزعة، وقد عبر عن ذلك رئيس غرفة التجارة المتقاعد في سنغافورة بوصف الوضع الصناعي بأنه غير مريح، وينطوي على خطر جدي من وجود العاصمة خارج الجزيرة، في حين أن التكاليف المتزايدة سوف تحد من التجارة القائمة وتخلق صعوبات مالية.

كان المزاج العام المدرك لهذه المخاطر ضد «الباريسان» بعد تراشق الأوصاف العدوانية والجدال الذي استمر خمس ساعات حتى منتصف الليل واستؤنف في اليوم التالي أقر المجلس اقتراحاً معدلاً يرحب بعرض مشروع استفتاء وطني في سنغافورة بـ 26 صوتاً مقابل 16 صوتاً.

ومن أجل التخلص من هذا النشاط المحموم ارتأيت أن الوقت قد حان لتجديد اتصالاتي مع الزعماء البريطانيين، ولقاء عدة زعماء أفريقيين وآسيويين في طريقي في شهر نيسان 1961 فطرت إلى لندن مروراً برانغون ونيودلهي والقاهرة وبلغراد.

أيدت رئيسة الوزراء الهندية بانديت نهرو اقتراحاتي باندماج سنغافورة والمالايو وتشكيل دولة ماليزيا. وترك هذا لدي انطباعاً حسناً. فقد أصبح تأييد رئيسة الوزراء مضموناً، وكتبت صحيفة «تايمز الهند» أن مشروع ماليزيا قد آثار الترحيب في الدوائر الرسمية.

وكانت محطة توقفي الثانية هي القاهرة، حيث نشرت الأمانة العامة «للجنة التضامن الأفرو آسيوية» بيانها الانتقادي لماليزيا. وفكرت بأنني إذا استطعت أن اكسب الرئيس ناصر إلى جانبي فسأحقق انتصاراً كبيراً. وصلت مطار القاهرة في الصباح حيث كان في استقبالي نائب الرئيس، ثم نقلت إلى أحد قصور الملك السابق فاروق، والذي أصبح بمثابة بيت للضيافة. وفي تلك الليلة استقبلني الرئيس عبد الناصر في بيته المتواضع. كان لقاءً جيداً والتفاهم كاملاً. فعندما وصلت كان في استقبالي عند الباب الأمامي وحولنا المصورون. شعرت أنه فعل ذلك مئات المرات من قبل، وكانت صورته لائقة في الصحف والتلفزيون. كان ودياً للغاية وقد رحب بي أجمل ترحيب. وكان قنصله العام في سنغافورة مؤيداً كبيراً لي ولماليزيا. كان يعرف أننا لا نريد لسنغافورة أن تكون إسرائيل أخرى في جنوب شرق آسيا، وقام بنقل هذه الرسالة إلى وزير خارجيته.

أمضى عبد الناصر ساعة من الوقت وهو يستمع إلي وأنا أتحدث عن مخاطر أن تبقى سنغافورة وحدها، وأن تكون الرجل الغريب خارج جنوب شرق آسيا، ضمن جودٍ صينيٍّ وسط أرخبيل مالاوي من حوالي مائة مليون إنسان. أنا لا أريد هذا، وكان الجواب إعادة توحيد سنغافورة وشبه الجزيرة التي حكمهما الإنكليز بوصفها وحدة واحدة لأكثر من مئة سنة، قبل أن تنفصلا. لم يكن يحتاج إلى من يذكره بأن ماليزيا لم تكن مؤامرة استعمار جديد، وأكد لي أنه سيؤيدها وأنني أستطيع أن أصرح بذلك. وطوال زيارتي التي دامت لمصر خمسة أيام كان المصريون يفرشون لي السجاد الأحمر. ودعيت إلى زيارة القاهرة ثانية كي ألقاه في أي وقت. وقال عبد الناصر إنها زيارة شخصية. فقد أحببت الرجل وأحببت

ابتسامة ترحيب كبيرة من رئيس مصر جمال عبد الناصر في نيسان 1962.

ابتسامته وأسلوب حياته البسيط، ورغبته الشديدة في تغيير كل ما هو سيء، وفاسد في أيام حكم فاروق. وقع ناصر مذكرة مشتركة معي، مخترقاً بذلك الأعراف الدبلوماسية لأن سنغافورة لم تكن بلداً مستقلاً.

وجاء في المذكرة أنه يؤيد ماليزيا و(اتحاد جميع الشعوب ذات الخلفيات السياسية والاجتماعية المشابهة... والسعي للتخلص من السيطرة الاستعمارية). كان نجاحاً سياسياً لسنغافورة أن تكون موضع تفهم وتأييد من جانب ناصر ونهرو، الزعيمين البارزين في كل من إفريقية وآسيا.

في عيد الأول من أيار توجهت بالطائرة إلى بلغراد. حيث استقبلني تيتو رسمياً. كان مقر إقامته مترفاً، خلافاً لمقر إقامة عبد الناصر، مع بوابات حديدية تفتح إلكترونياً وبدون صوت عند وصولنا. جئت لزيارته مع وزير يدعى سلافكو كومار. كان يرتدي حلة منزلية، وليس حلة رسمية. وفيما كان المصورون يلتقطون الصور كان ينظر إليهم بجمود وجدية ـ لا ابتسامات، لا حرارة استقبال، فقد كان مختلفاً تماماً عن ناصر. أصغى إلي. وقد انتهزت الفرصة كي أبين له أنني وطني ولست دمية استعمارية، وأنني لا اتفق مع الشيوعيين في سنغافورة الذين يتلقون الأوامر والإلهام من الصين، وهم لا يمكن أن ينجحوا في سنغافورة والملايو لأن توجههم الشيوعي أصيلاً نابعاً من البلاد، والمالاوية لا يمكن أن تنجح في جنوب شرق آسيا. شعرت من حركات جسمه أنني حركت فيه ساكناً. عندما ذكرتُ مقالة انتقادية لماليزيا نشرت في مطبوعات حزبهم، الشيوعي (Komunist). قال تيتو: إنها لا تمثل وجهة نظر الحكومة اليوغسلافية. فكسبت نقطة.

وعندما كنت أغادر متجهاً إلى المطار وعلى وشك مقابلة رجال الصحافة هناك سألت سلافاكو كومار ما إذا كنت أستطيع أن أعيد ما قاله تيتو لي. فقال: إن الرئيس رجل يحافظ على كلمته وعندما يقول شيئاً فإنه يعنيه. استشهدت ببيان تيتو والتفت إلى الوزير لأسأله ما إذا كنت على حق. هزّ برأسه وقال:

«نعم». وبعد مغادرتي نقلت وكالة رويترز عن ناطق باسم وزارة الخارجية يؤكد فيها (إن المقالة تمثل الرأي الشخصي للمؤلف. أما رئيس الوزراء، لي فقد أعلم الرئيس أثناء إقامته في بلغراد، كما أعلم القادة اليوغوسلاف عن الرغبة في تشكيل «الاتحاد الماليزي» وهو الأمر الذي لقي تفهماً من الجانب اليوغوسلافي).

كانت الرحلة إلى لندن هي الأولى بالنسبة إلى تشو منذ غادرتها عام 1950. ومع أنني زرت لندن ثلاث مرات منذ ذلك الحين فقد لفتت نظري بمخازنها ومطاعمها وسياراتها. وكان ماكميلان قد فاز على منافسه في انتخابات عام 1959، ويتمتع بشعبية واسعة. كنا في شهر أيار، والطقس رائع، كنا سعداء أن نجد العاصمة البريطانية منتعشة. وكانت تنتظرنا في مقر إقامتنا عدة سيارات فخمة من نوع هامر، ولكن برنامجي كان مقيداً ـ فمناقشات مع الوزراء، ومقابلات مع مؤيدي حزب العمل في البرلمان وإجراء مقابلات مع الصحف البريطانية.

كان ريغنالد مودلينغ، وزير الدولة الجديد لشؤون المستعمرات، ضخماً قوي البنية يضع نظارات على عينيه، ودوداً ويسهل التفاهم معه. استقبلني هو وزوجته بترحاب قبل مباحثاتنا الرسمية ليجعلنا نشعر بالترحيب. كما أنه جمع عدة وزراء كي يلتقوا بي على الغداء، وقد حضّرت لنا السيدة مودلينغ حفلة دجاج في فندق هايدبارك.

كانت المعضلة الرئيسية هي المشكلة القديمة ذاتها ـ هل ننظف الشيوعيين قبل الاندماج أم بعده. وقد كرر التونكو مطالبته بأن لا يتحرك «مجلس الأمن الداخلي» ضدهم قبل الأوان.

كما أوضح، أنه لا يريد اتخاذ إجراءات قمعية في اللحظة التي تولد فيها ماليزيا. فلن تكون عندئذٍ بداية ميمونة تبشر بالنجاح.

كنت مستعداً لاتخاذ إجراء قبل الاندماج ـ بشرطين مهمين مسبقين ـ. قلت لمودلينغ: إن العملية يجب أن تبدأ في الوقت الذي ما تزال المملكة المتحدة تتحمل فيه مسؤولية الأمن، أي تحت قيادة بريطاني، بوصفه رئيساً «لمجلس الأمن الداخلي». فموقفي الشعبي سيكون مؤسفاً للغاية، ولكن من خلال معرفتي الشخصية بالشيوعيين فإن هذه الخطوة ضرورية جداً. ثم أصريت على أن يظل الشيوعيون أحراراً أثناء الاستفتاء على ماليزيا، لأنني كنت أعتقد أنهم سيدعون لمقاطعته، وهذا ما لن يقبله الناس وسيكون بالتالي مسيئاً لمصداقيتهم. وسيكون من الخطأ الفادح اعتقالهم قبل الاستفتاء، فهذا سيقلل من شأنه ويعرضني لاتهامات بأنهم اعتقلوا كي يساعدونني لكي أسلم سنغافورة للتونكو. فسيكون هناك أعمال شغب احتجاجية وفوضى عارمة.

كانت بعثة خاصة في تلك الأثناء برئاسة لورد كوبولد تزور بورنيو الشمالية لتقرر المواقف هناك تجاه ماليزيا. وقد أكدت أنه مهما كانت توصيات بعثة كوبولد حول موضوع المواطنة لشعب بورنيو، فإنه لا ينبغي غلى سنغافورة أن تمنح شروطاً تفضيلية أقل. وعبارة «مواطن ماليزي» ستكون مقبولة. عندما تطبق على الجميع وفي جميع المناطق، ولكن التونكو أعلن أن مواطني بورنيو سيصبحون مواطنين ماليزيين، ولكنه لم يطلق هذا الوصف على مواطني سنغافورة.

وعندما سألني مود لينغ عن متاعبي مع التونكو، قلت له: (التونكو يعتقد أنني ذكي، ولكنني لست على صواب. كنت أكسب الجدال معه، وهذا ما يحرجه، ولكنه يشعر أن استنتاجاتي خاطئة رغم أنه لا يعرف لماذا). وقلت له: إذا كان يستطيع أن يقنع التونكو بأن ما كل صيني هو شيوعي محتمل فسيكون تأثيره عليه أكبر من تأثيري. التونكو يعتقد ببساطة، (السياسة للمالاويين والتجارة للصينيين). ربما كان هذا صحيحاً في زمن والده، ولكنه غير صحيح في عام 1962.

كما قابلت لبحث الخلاف حول المواطنة اللورد كوبولد في ذلك الصباح وناقشنا توصياته بشأن بورنيو، وقلت له: إنني أشعر بالسعادة الآن لأنهم عرفوا كيف يؤثرون في سنغافورة، وكيف يزيدون في قناعتي.

لم تكن زيارتي للندن عملاً كلها. فقد توجهنا إلى كمبريدج لمقابلة بيلي تاتشر لشرب الشاي في فندق «آرمز سيتي يونيفير». كان تاتشر مسروراً بما حققته منذ غادرت كمبريدج عام 1949، وسألنا عن أولادنا وأهداني نسخة من كتاب لويس كارول (أليس في بلاد العجائب) لأعطيها إلى لونغ. وقال: إنه ينبغي أن يحضر سريعاً إلى لندن كي أراه. لم يبد لنا ضعيفاً جداً، وكنت سعيداً بلقائه. ولكنه مات بعد سنة وحزنت عليه أنا وزوجتي.

كان قضاء عطلة الأسبوع في كمبريدج فرصة مريحة وسط برنامج رسمي مليء، تضمن رسالة إذاعية من محطة BBC إلى سنغافورة. شرحت فيها كيف أن زعماء دول عدم الانحياز ـ الهند ومصر ويوغسلافيا قد أعلنوا عن تأييدهم الصريح لماليزيا. ولم يكن هذا النبأ مريحاً لأنصار الشيوعيين.

فتقارير الصحافة والإذاعة ولقاءاتي مع نهرو وعبد الناصر وتيتو وما أذاعته في محطة BBC من لندن، كانت مفيدة لي لأن "الباريسان" هاجمني بشدة. وكان شرحي لهؤلاء الزعماء الأفرو ـ آسيويين بأن ماليزيا ليست دمية استعمارية قد أغضب أعدائي، وادعوا أنني كسبت تعاطفهم وتأييدهم بإعطائهم انطباعاً زائفاً. وزعموا أن نهرو وتيتو وني وين (خلافاً لعبد الناصر) لم يصدروا بيانات مشتركة مع رئيس وزراء غير موثوق. ولكنهم لم يستطيعوا أن ينكروا أنهم أيدوا ماليزيا. عدت إلى سنغافورة بشعور بالراحة بعد خمسة أسابيع بعيداً عن المنافسات اليومية الطاحنة وضغط إضرابات العمال. استعدت روحي المعنوية كي أواجه المناوشات مع الشيوعيين، وتبادل الانتقادات القاسية معهم في الصحف ومواجهة إضراباتهم في وقت كانت الأعمال فيه تعاني من الركود وفقدان فرص العمل وازدياد البطالة.

لم تكن الأمور شديدة السوء. ففي أيار تجمهر ثلاثة آلاف طالب في مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية بمناسبة الذكرى السنوية للمواجهات مع الشرطة عام 1954. أنشدو الأغاني وأدانوا الحكومة لتشكيلها لجنة للتحقيق في مقاطعة أربع

امتحانات في المدارس الثانوية، والدعوة إلى مقاطعة الصفوف لمدة يوم واحد في جميع المدارس الصينية في يوم 21 أيار، وهو اليوم الذي ستبدأ فيه اللجنة عملها. ولكن في اليوم نفسه كانت نسبة الحضور مئة بالمئة في 19 مدرسة من أصل 25 مدرسة صباحية. وقام 100 طالب بلصق الإعلانات على الجدران ولمبات الإنارة وإشارات السير،ولكن في الساعة الخامسة صباحاً توقفوا عن ذلك. إذ لم يكونوا يخشون أن يراقبهم أحد أو يصورهم.

على الرغم من أن «الباريسان» كان يطوف المدينة كل يوم أحد، فإن الأرض لم تهتز تحت أقدامنا.

27 . التصويت للاندماج

كان «الباريسان» يحقق مكاسب حول مسألة المواطنة. وكان ظنه أن أهالي سنغافورة سيكونون «مواطنين من الدرجة الثانية» في ماليزيا. فقد ضرب وتراً حساساً وأثار الذعر. عزمت على معالجة المشكلة مباشرة. لذا تحدثت في 3 حزيران عام 1962، في الذكرى الثالثة «ليوم سنغافورة الرسمي» إلى بضعة آلاف من الناس كانوا قد تجمعوا في بادانغ لمشاهدة مسيرة وحدات عسكرية،ومجموعات من طلاب المدارس، وعروض ثقافية. أكدت لهم أنه قبل أن تقوم ماليزيا سأوضح في الدستور أن مواطني سنغافورة سيكونون متساوين مع الجميع في الاتحاد.

رد عليّ ليم تشينغ سيونغ بسرعة مبيناً أن تعهدي ما هو إلا إقرار بأنه لا توجد مساواة بالنسبة لهم في الإندماج المقترح وترتيبات ماليزيا. لقد حصر الباريسان المسألة بهذه المشكلة فقط، وكنت مقتنعاً أنني إن استطعت إقناع التونكو بتغيير عبارة «سكان ماليزيا» وألا يثيروا عدم الموافقة وعدم رضاهم عن بعض الأمور الأخرى بالإضافة إلى اعتراضات زائفة. ولكنني لا أملك نفوذاً على التونكو، فالبريطانيون فقط من يملكون ذلك، نظراً لأنه كان يريد مناطق بورنيو. وقد وافق مور على أن قضيتنا مشروعة، وعرفت أنه سيفعل كل ما في وسعه لجعل الوزراء في بريطانيا يحثون التونكو على تغيير رأيه بشأن المواطنة. ولكننا كنا مختلفين أيضاً حول مسألة الاستفتاء.

وكان مور قلقاً لأن مشروع الاستفتاء الذي أجازته لجنة الاختيار،قد أوصى بأن يقدم أوراقاً بيضاء في الاقتراع، يشير إلى أن المصوتين المعنيين لا يرغبون في ممارسة حقهم في التصويت مع الاندماج أو ضده بأنفسهم، فإن القرار

سيتخذ بالأكثرية في الجمعية (مما يعني حزبنا). وكنت قد أدخلت هذه المادة لمواجهة الشيوعيين إفي أي ادعاء على التصويت بورقة بيضاء. وفكر مور بأنه إذا فكر الناس بالتصويت بورقة بيضاء احتجاجاً بأعداد كبيرة عندئذ يعتبر هذا تعبيراً عن اختيارهم. ورأى مور أن نعطيهم فرصتهم. وحاول أن يقنعني بالاستمرار في العملية، وأن نقول: إن الناس صوتوا بطريقة مشروعة وغير مزورة. وقد رفضت ذلك.

كتب مور في تقرير قدمه إلى وزير الخارجية، بصفته المفوض القائم على رأس عمله في 21 حزيران:

> «في جواب عن اقتراحاتنا المتكررة طوال الأشهر الستة الأخيرة بأنه لن يؤخر الاستفتاء،كان يقول دوماً: إنه ينبغي أن يفعل ذلك حتى لا يبدو كرجل صيني باع سنغافورة إلى الماليين... لذا يبدو أنه سيسير قدماً نحو استفتاء بشروطه، أي محسوب بعناية كي يضمن ألا يبقى وحيداً. ولعل الخطر الشديد الوحيد الآن أنه ستكون هناك مقاطعة واسعة للاستفتاء».

كان مصيباً في أمر واحد: كنت مصمماً على إجراء الاستفتاء، ومهمتي الفورية أن أجعل مشروع القانون يمر عبر الجمعية. وما إن نشر تقرير «لجنة كوبولد» حتى كان علي أن أقرر ما هي البدائل التي نقدمها إلى الشعب. كانت هناك مناقشات عامة لا تنتهي في الصحف، وفي الإذاعة،وفي ندوات عقدت في جامعة المالايو. ومع أن الجدل حول مشروع الاستفتاء نفسه استمر ما بين 27 حزيران حتى 11 تموز، في ثماني جلسات استمرت حتى منتصف الليل، كانت الخطب حارة ومكررة لأنه لا توجد مناقشات جديدة، بل تأكيدات حماسية ملتهبة لمواقف وآراء للفئات المتعارضة. وقدم تعديل حول المسألة الأساسية من قبل د.لي سيوي تشوه، وأيده كل من ديفيد مارشال وأونغ إينغ غوان باقتراح أن تكون الإجابة عن سؤال واحد في الاستفتاء ـ «نعم» أو «لا» للاندماج.

ثم تدخل ليم يوهوك مقترحاً طرح ثلاثة أسئلة: (آ) هل تريد اندماجاً وفقاً لما جاء في الورقة البيضاء. (ب) أم توافق على أن تكون سنغافورة دولة ضمن اتحاد المالايو. (ج) أم توافق على شروط لا تقل جودة عن تلك التي أعطيت لمناطق بورنيو الثلاثة؟ وسقط تعديل لي عند التصويت ووافق ليم يوهوك على ذلك. وكنت سعيداً بأن ليم قد اقترح ما كنت أنوي أن أفعله.

أثناء المداولات تلقى كل عضو في «الجمعية» رسالة تهديد مغلفة بغلاف رقيق،موقعة من الأولاد الكبار في النقابات، وطلاب الجامعة «النوادي الطلابية» التي يتزعمها «خريجو جامعة نانيانغ»، تدعوهم إلى التصويت على مشروع «الباريسان» ـ وإلا. في 29 حزيران حذرت الباريسان، أثناء مناقشة أحد الموضوعات في الجمعية، قائلاً : إذا كان الحديث الفاحش يؤدي إلى عمل فاحش فإن الرجال المتوحشين سيبعدون. وإذا وضعت القواعد جانباً لاستخدام الحجارة والقضبان الحديدية،عندئذ تتطلب المصالح العليا للسلام والأمن الناس استخدام القوة لقمعها. ومن أجل أن أشجعهم على السلوك السليم أكدت للدكتور لي بأن القوات العسكرية لن تستخدم طالما أن القواعد محفوظة.

بعد ظهر يوم 3 تموز 1962 أرسلت إلي هوي بواي،عضوة حزبنا في الجمعية التشريعية،رسالة استقالة من الحزب لأنها لم تُستشر بشأن القرارات السياسية المهمة. كان الشيوعيون قد ألحوا عليها ودفعوها إلى هذا في اللحظة الأخيرة.

أصبح لدى حزبنا الآن 25 مقعداً مقابل 26 مقعداً للمعارضين كافة. لقد أصبحنا حكومة أقلية. طلبت من مور الاجتماع معي ومع تشين تشي وكينغ سوي. وسأله كينغ سوي: هل إذا استقال حزبنا سيرى البريطانيون اندماجاً بعد استقالتنا؟ ورأى مور أن ذلك سيكون بالغ الصعوبة، نظراً لعدم وجود حكومة منتخبة تؤيده آنذاك. سألني مور أن أتصرف إذا كان ممكناً. فقلت له: سأحاول،ولكني طلبت منه أن يُخبر لندن أن الوقت الآن أصبح قصيراً جداً. كان علينا أن نناضل في «الجمعية» لمدة ثمانية أيام أخرى من المداولات والجدل قبل

أن يُتخذ قرار التصويت. قدمنا الاقتراح بـ 29 صوتاً منها 17 ـ 24 لحزبنا، وثلاثة «لمنظمة الاتحاد الوطني المالاوي» UNMO، واثنين للاشتراكيين مقابل 13 للباريسان، وصوت واحد لحزب العمال (ديفيد مارشال)، وثلاثة لـ UPP، (أونغ إينغ غوان). وامتنع هوي بوي تشو عن التصويت. واستطعنا تمرير المشروع بتأييد من حزب ليم يوهوك (SPA) ومنظمة UNMO التابعة لتونكو.

قبل شهر كان مور قد قدم لي فكرة عن المسودة الأخيرة لتقرير كوبولد ليختبر رد فعلي. كنت مهتماً بتوصياته. فجاء في كلمته «لا يوجد سبب من أجل مواطنة متفرقة في أراضي بورنيو، ووضع شروط تتضمن تنازلاً لفترة محدودة في امتحان اللغة بالنسبة لأشخاص فوق سن معينة». وبذا فإن جميع المولودين في الأراضي يمكن أن يحصلوا على الجنسية الماليزية. كانت هذه كارثة. سيصبح موقفي غير قابل للدفاع عنه وسيخفق الاستفتاء. سيكون هناك مقدار كبير من الامتناع عن التصويت أو عن الأوراق البيضاء.

أعطاني التقرير فسحة للتصرف. وبعد الجدل حول الاستفتاء مباشرة كتبت إلى مور لينغ لأشير إلى أن مواطني سنغافورة بوسعهم أن يصبحوا مواطنين ماليزيين بدون خلق أية مشكلات لأن «لجنة كوبولد» أوصت كذلك بأن الحقوق الانتخابية تمارس حيث يكون المواطنون مقيمين. بعبارة أخرى إن مواطني بورنيو سيصوتون في بورنيو ومواطنو سنغافورة سيصوتون في سنغافورة، لذا لا مبرر لخوف «التونكو» من أن يبتلعه صينيو سنغافورة بتصويتهم في مالايا. ثم كتبت إلى «التونكو» في 12 تموز كي أرسل إليه نسخة من هذه الرسالة ولكي أقترح أن حل المشكلة هو اتخاذ ترتيبات مماثلة بالنسبة إلى بورنيو وسنغافورة بدون أي إعاقة لمحتوى ما كنا اتفقنا عليه بشأن حقوق التصويت المحددة.

أرفقت مذكرة له ولساندي تضمنت أن الدافع الرئيسي للهجوم ضد الورقة البضاء من جانب الشيوعيين، كان ضد الصينيين: لأن % 70 من سكان الجزر هم من الصينيين، فإن «التونكو» لم يكن مستعداً لأن يقدم إلى سنغافورة ما كان يستعد لمنحه إلى مناطق بورنيو حيث % 70 السكان من غير الصينيين.

وهذا لايمكن دحضه إلا بإعطاء سنغافورة شروط بورنيو المفترض أنها أفضل. وقد بيّنت للبريطانيين أنهم إذا لم يضغطوا على «التونكو» كي يضمن لنا مواطنة متساوية، فإنني لن أكون مستعداً لطرح الاندماج أمام الجمعية البرلمانية. وما لم أقله ـ وهو أمر يدور في رؤوس تشين تشي وكينغ سوي و راجا وفي رأسي ـ أنه في تلك الحالة لن نرغب في المتابعة. وعلى «التونكو» والبريطانيين عندئذ أن يحصدوا النتائج.

بعد أن مرّ مشروع الاستفتاء قدم د.لي سيوي تشوه مشروع قانون يحجب الثقة عن الحكومة. وأجرى ليم يوهوك تعديلاً على هذا المشروع بإدانة الحكومة لعدم كبح شيوعيين معروفين وزعماء الجبهة الشيوعية لمنعهم من التلاعب والمناورة والسيطرة على منظمات مثل «باريسان سوسياليس». كان يتفاصح ويحرر نفسه من العبء. وكانت فرصة له كي يُبيّن كيف ضحى بكل شيء من أجل أن يعالج وضع الشيوعيين في فترة 1956 ـ 1957. لقد أراد الباريسان أن يقضوا على الاستفتاء والاندماج معاً عن طريق حجب الثقة، ولكن ليم يوهوك لم يشاركهم في ذلك ولم يوافقهم.

أصبح الناس أقل خوفاً من قوة الشيوعيين وتأكد لهم مدى ضعفهم وهشاشتهم بحيث بات المالاويون قادرين على معالجة أمرهم، وليس البريطانيون المستعمرين. هُزم تعديل ليم يوهوك بوصفه اقتراحاً بحجب الثقة أصلاً. وبعد أن خسر «الباريسان» المعركة حول مشروع قانون الاستفتاء وحجب الثقة، غادر التونكو إلى لندن في منتصف شهر تموز (يوليو) لإيجاد حل نهائي مع البريطانيين بشأن مناطق بورنيو. كان الوقت يمضي بسرعة والشيوعيون يبحثون يائسين عن وسيلة ما للحيلولة دون الاندماج.

وبعد يومين من خسارتهم التصويت أرسل 19 عضواً من أعضاء الجمعية بزعامة «باريسان سوسياليس» التماساً إلى «لجنة تصفية الاستعمار» التابعة للأمم المتحدة يعترضون فيها على الطريقة التي صيغت بها الأسئلة التي ستطرح

في الاستفتاء. وكان اثنان من أعضاء اللجنة، المؤلفة من 17 عضواً،من الكتلة الشيوعية، أما غالبية الأعضاء فكانت من الأفرو آسيويين ممن كان لحكوماتهم ممثلون في كوالا لامبور وسنغافورة ويعرفون ما كان يجري. ولما كان عملهم هذا لا يحقق أية نتيجة،فقد أبرقت إلى الأمين العام للأمم المتحدة يو ثانت أعلمه بأن الالتماس الذي قدمته المعارضة كان جزءاً من لعبة السياسة الداخلية في سنغافورة. وأن اللجنة إذا كانت تريد أن تأخذ الالتماس بعين الاعتبار فينبغي أن تسمع رأي الحكومة أولاً. وقد كنت مستعداً أن أضع بين يديها حقائق الوضع الذي يحتاج إلى دراسة عن قرب.

في البداية ساعدنا المندوب الهندي بقوة،تأكيداً لوجهة نظر نهرو التي جرى التأكيد عليها في دلهي في شهر نيسان من ذلك العام بأنه لا يوجد بديل لماليزيا. قال: إنه لما كانت سنغافورة، بالإضافة إلى كامبوديا وتونس ودول أفرو ـ آسيوية أخرى، لديها حكومة منتخبة بحرية، فإن أعمالها لن تُراجع من قبل اللجنة. ثم غيّر رأيه على نحو غير متوقع، ربما بسبب رغبتي في المشاركة. في اليوم التالي،قالت الأمم المتحدة: إن اللجنة التي صُوّت عليها بنسبة 20-10 من الأصوات من أجل العمل، قررت أن تقابل وفداً من جمعية سنغافورة التشريعية كان يعارض الاستفتاء ويطالب بمراقب من الأمم المتحدة. كان د. لي سيوه تشوه شديد الابتهاج. ولكنني لم أكن غير سعيد بالنتيجة،كنت واثقاً من أنني أستطيع أن أدحض جميع الباريسان ومارشال، وفي 20 تموز قدمت طلباً رسمياً إلى اللجنة للمثول أمامها.

وبعد يومين انتقلت أنا وكينغ سوي إلى نيويورك مع مساعدي الشخصي تيو يك كوي. أردت أن أتحدث إلى اللجنة أولاً، ثم أترك إلى لندن أن تضم «التونكو» وماكميلان بعد أن أنهيا مناقشتهما حول أراضي بورنيو. كانت طائرتنا من نوع سوبر كونستيليشن، ذات أربع محركات تيوربو وهي الطائرة الرئيسية العاملة لعبور المحيطات. استغرق الطيران قرابة يومين من سنغافورة إلى نيويورك عبر

سايغون وغوام وهاواي ولوس أنجيليس. كنت أنا وكينغ سوي نعمل أثناء الطيران على إعداد مدافعة نقطة بعد نقطة من المذكرة الطويلة المؤلفة من 19 نقطة التي ساعد مارشال الباريسان في وضع مسودتها. وما إن نقلت حقائبي إلى فندق مانهاتين حتى رحت أبحث عن تيو. إذ وجدته مضطجعاً على ظهره في السرير يغط في نومه بثيابه وحذائه وقد أنهكه التعب تماماً. كان يعكف على طبع مذكرات لا تنتهي لكينغ سوي ولي لمدة 48 ساعة.

كان البريطانيون ما يزالون مسؤولين عن شؤوننا الخارجية وقد جاء موظف من بعثتهم إلى الأمم المتحدة لمقابلتنا في المطار. كانوا حرفيين من الدرجة الأولى. فهم يعرفون كل خطوة إجرائية ينبغي اتخاذها، وقد قادوني إلى مقابلة الأناس المختصين من أجل مباحثات تمهيدية. وقد نصحوني ألا أجري أية مناقشة طويلة ومتعبة للجنة بل أن أعود إلى الموقف الذي اتخذ سابقاً من قبل الوفد الهندي القائل بوجود حكومة منتخبة في سنغافورة وألا تشغل اللجنة نفسها بما تم تقريره.

أثناء المناقشة سلمت المذكرة التي تبين دفاعنا في مواجهة اتهامات المعارضة بأن شروط المذكرة حرمت الشعب من حق المعارضة الديمقراطية، وخلال فترة ساعتين تمت مراجعة كل نقطة. قلت: إنهم كانوا مخطئين في سعيهم إلى الإبقاء على الاستعمار في سنغافورة من أجل مصالحهم الخاصة، وقد عملوا ضد حكومة منتخبة ودستورية،كانت تريد استقلالاً فورياً. يا له من موقف متناقض. وتفسير ذلك أن سنغافورة عندما تنضم «للاتحاد» فإن النضال لن يستمر ضد المستعمرين البريطانيين،بل ضد حكومة منتخبة شعبياً اكتسبت الاستقلال للبلاد. وفي غضون ذلك كان لدينا صلاحية كاملة لتنفيذ الاندماج بدون استفتاء على الإرطلاق.

بعد مدافعتي قام د.لي سيوه تشوه بمدافعته ثم طلبت الرد وتمت الموافقة على طلبي. قلت: إنه من دواعي السخرية أن كلا المتحدثين باسم المعارضة، د.لي وودهول، من مواليد مالايا،وليس سنغافورة، وإن وودهول المواطن المالاوي

قد سافر إلى نيويورك بجواز سفر مالاوي. والأكثر من ذلك أنهما لم يكونا يمثلان الأكثرية، لأنهما عندما تحديا الحكومة في اقتراح عدم الثقة لم يستطيعا الحصول إلا على 16 صوتاً فقط من أصل أصوات الجمعية الواحدة والخمسين. كنت أنا وكينغ سوي متعبين من رحلتنا،ولكن كنا مصممين على أن نطرح نفسينا كأفرو ـ آسيويين. وقد استطعنا بسلوكينا، ونبرات صوتينا وإيماءاتنا وطريقتنا في التأكيد المعبر اللتين عالجنا بهما جميع المسائل أن نتأكد أن اللجنة لا يمكن أن تخطئ معنا بسبب ترهات من جانب البريطانيين والمالاويين. كان السير هيوفوت، الممثل البريطاني الدائم في الأمم المتحدة مسروراً بجهودنا. قال: إن عضوي الجمعية لم يتركا مجالاً للشك في أن حزب العمل الشعبي (PAP) كان في وضع قوي بوجود رئيس وزراء مناضل، وليس بوجود دمية تابعة إلى المملكة المتحدة.

غادرنا في تلك الليلة ذاتها إلى لندن. فلم يكن لدي إلا القليل من الوقت. كان التونكو يجري محادثاته مع ماكميلان، وهذا هو الوقت المناسب للضغط عليه بحضور البريطانيين في مسألة المواطنة (الجنسية) وتسويتها. لذا لم أتوقف في نيويورك لأستمع إلى مطالعات مارشال. كان الانطباع الذي تركه لدى اللجنة أفضل من انطباع د.لي. ولكنه لم يستطع أن يمحو الانطباع الأعمق الذي تركته أنا على أعضائها. بيد أن اللجنة قررت ألا تتخذ أي قرار تجاه الالتماس.

وصلنا مطار هيثرو يوم الجمعة 27 تموز في الساعة 11.15 ليلاً. كنت أنا وكينغ سوي متعبين من عناء السفر الطويل، ولكن لم يكن لدينا وقت للراحة. فبعد أن وصلنا إلى فندق هايد بارك، حيث نزلنا توجهنا إلى غرفة الطعام في الوقت المحدد لتناول الغداء مع سيلكيريك، والذي لخص لنا ما حققه من تقدم في مباحثاته مع «التونكو» حول مناطق بورنيو، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر التقينا بدانكان سانديز في وزارة علاقات الكومونولث. كان علينا أن نتابع الأمور مهما بلغ بنا التعب والعناء.

وفي اليوم التالي تناولت الشاي أنا وأمين سري الخاص ستانلي ستيوارت، وكينغ سوي مع «التونكو» في فندق ريتز. وكالعادة لم نناقش موضوع الجنسية مع التونكو مباشرة. ولكنه كان في حالة مزاجية رائقة، فقد سوى تقريباً جميع المسائل العالقة مع البريطانيين حول بورنيو أخيراً. كانت المؤشرات جيدة. وبعد الظهر، فيما كان التونكو ينال قسطاً من الراحة مثله رزاق في اجتماع مع دانكان سانديز في وزارة علاقات الكومونويلث. لا أعرف ماذا دار بين ماكميلان والتونكو، ولكن سانديز أوضح بصراحة لرزاق أن هذه المسائل ينبغي أن تُحل قبل أن يوقع البريطانيون الاتفاقية المتعلقة بأراضي بورنيو. حوّل رزاق موضوع الجنسية الماليزية من حيث المبدأ لمصادقة التونكو. وهذه خطوة كبيرة إلى الأمام.

ما يزال لدي مخاوف. فبدون إقناع البريطانيين للتونكو لن أحصل على هذه الموافقة،وكنت أخشى أنه ما إن تُعلن دولة ماليزيا فإنهم لن يكونوا قادرين على التدخل بصورة أكبر لصالح سنغافورة. في تلك الأثناء لم نكن قد أرسينا قواعد علاقة عمل متينة ما بين «التونكو» ورزاق. لقد كانا شخصيتين مختلفتين تماماً. فرزاق تساوره الشكوك والتردد، ويفكر ملياً. ولا يوافق على بند من البنود إلا بعد جدل ومناقشات مطولة، ويرجئ قراره إلى اليوم التالي. وهو شغوف ومهتم جداً بالتفاصيل، وكان نائباً جيداً للتونكو، الذي لم يكن يُعنى بالتفاصيل. والذي استطاع أيام دراسته أن يبني شبكة من الأصدقاء والمؤيدين في أوساط الطلاب الملاويين في إنجلترة، ومن بينهم أولاد سلاطين الملايو التسعة.

في الساعة العاشرة صباحاً، 30 تموز،توجهت أنا وكينغ سوي إلى اجتماع رسمي مع «التونكو» ورزاق في فندق «ريتز»، وبقينا حتى وقت الغداء. صادق التونكو على ما وافق عليه رزاق. قلت: إنني سأبعث برسالة تسجل هذا وسألته أن يصادق على ما أكتب. وصادق التونكو بالفعل على أن سكان سنغافورة سيعتبرون مواطنين ماليزيين. عدت إلى هايد بارك وقدمت المسودة الأخيرة وهذا نصها:

«بعض الناس يجدون صعوبة في فهم عدم وجود فرق ما بين وصف سكان سينغافورة بـ «مواطنين» أو «مقيمين» في الاتحاد الجديد لماليزيا لذا وافقنا على أنه لما كانت هذه المسألة مسألة تسمية، وقد طال التفكير فيها من قبل بعض قطاعات الشعب على أن تعدل الفقرة 14 من الكتاب الأبيض بحيث يصبح «المقيمون» في سنغافورة «مقيمين» في دولة ماليزيا بدلاً من مواطني ماليزيا».

أرفقت بياناً مشتركاً للمدعي العام المالاوي والمحامي العام في سنغافورة، يؤكد الوضع الدستوري بالنسبة إلى حقوق التصويت،والتي تتضمن أن يصوت شعبنا في سنغافورة فقط،وأن يبقى هذا بدون تغيير.

أجاب «التونكو» في رسالة و(في اليوم التالي) من عنوانه في فندق ريتز في لندن:

«أؤكد أن ترتيبات المواطنة بالنسبة إلى سكان سينغافورة ستبقى بالصيغة التي تم الاتفاق عليها بين حكومتي اتحاد المالايو وسنغافورة في الفقرة 14 من «كتاب سنغافورة الأبيض» لعام 1961».

وقد كان ذلك ما أحتاجه. إذ لما كان الشيوعيون لم يخلقوا مشكلة من ذلك،فإنهم لن يجعلوا الأمر سهلاً بالنسبة إلي لأنني قلبت الطاولات عليهم. لم يعد لديهم إلا القليل من القلاقل لإزعاجي،وما كنت سأعطيهم الوقت قبل الاستفتاء كي يخلقوا متاعب جديدة يستغلونها.

لم أكتشف حتى الآن كيف أقنع البريطانيون ـ ربما بمساعدة الأوستراليين ـ «التونكو» أخيراً بتغيير رأيه. لعل سانديز،الذي كان صلباً في التفاوض، أخبره أنه إذا لم يكن ثمة جنسية واحدة لن تكون مناطق بورنيو له، ولن يكون هناك اندماج في تلك الأمسية. في الساعة السابعة عقد سانديز الاجتماع الأخير مع «تونكو» ورزاق، وكينغ سوي وأنا لنختتم الأمور. طلبت ألا تنشر اتفاقية الجنسية حتى تتاح لي الفرصة للإعلان عنها بصورة درامية في سنغافورة في الوقت المناسب.

بقيت مشكلة الشيوعيين. فقد علمت من سيلكيرك عند وصولي إلى لندن أن «التونكو» ما يزال مصراً على اعتقال جميع مثيري الشغب قبل أن تصبح سنغافورة عضواً في «الاتحاد». ولكنه كرر أن البريطانيين غير متحمسين لاتخاذ إجراء ضدهم وأنهم يفضلون أن تتم هذه العملية على يد الحكومة الماليزية بعد الاندماج. ارتحت كثيراً. بات البريطانيون الآن يحملون عبء معارضة «التونكو». عدلت موقفي عند ذاك لأوضح أنه ما إن يتم التوصل إلى الاستفتاء بنجاح،سأكون مستعداً لتأييد فكرة التطهير قبل تدشين دولة ماليزيا.

ولكن سيلكيرك كتب إلى سانديز في 27 تموز:

«ينبغي أن أُبين لك خطورة هذه السياسة للأسباب التالية:

1 ـ الاعتقال التعسفي بدون دليل قاطع مقنع سيعزز المعارضة في سنغافورة ويؤذي زملاء لي، مما قد يسبب إسقاطه.

2 ـ سيصبح من الواضح تماماً أن ماليزيا قد فرضت من قبل الإنكليز، دون اعتبار إرادة الشعب المعني ـ وعندئذ قد يبدو أن خططنا في الاحتفاظ بقواعدنا ستجعل التونكو يبدو وكأنه صنيعتنا.

3 ـ سيكون من الصعب جداً الدفاع عن موقف كهذا في البرلمان هنا أو في الأمم المتحدة،حيث يعمل الروس ضد ماليزيا.

«لا توجد أية حجة راسخة يمكن تفسير لماذا لا يتخذ هذا الإجراء الذي قد يكون ضرورياً للأمن من جانب الحكومة الماليزية بعد إعلان ماليزيا».

وما لم يقله سيلكيريك إنه قد تحدث أعمال عنف وشغب، يمكن أن تسبب وصمة عار على البريطانيين. وأكد سانديز أنه لا يستطيع أن يوافق مسبقاً،حتى من حيث المبدأ،على سلسلة من الاعتقالات في سنغافورة بدون أن تتاح له الفرصة للنظر في حالات الأفراد المعنيين. إذ لا بد من تقديم حالة معقولة،ولا يعني الحكومة البريطانية أن تبادر بهذه المسألة. ولكن إذا أبدى جميع المعنيين

استعداداً لتحمل نصيبهم من المسؤولية، فإن الحكومة البريطانية ستتحمل نصيبها، ولن تخزل الآخرين. وعلى «التونكو» أن يسوي هذا الموضوع في الوقت الحاضر.

كان «التونكو» يتحدث بصراحة غالباً عن أرقام وألوان وأحلام الحظ لديه. وكان يأخذ ذلك بجدية. وفي لندن رأى حلماً جميلاً يرتبط بالأبراج، قال: إنه يبشر بالنجاح. ولما كانت اتفاقية ماليزيا ستوقع في الأول من آب، وهو يوم حظه، فقد ذهب إلى بائع مجوهرات قرب «قوس بورلينغتون» كي يوصي على خاتم ذهبي برموز الأبراج بهذه المناسبة. وعندما استلمه أصيب بخيبة أمل لأنه يحمل رموزاً غريبة، وليست رموز الأبراج التي كان يعرفها. وجاء كينغ سوي لإنقاذه مؤكداً له أن الرموز تمثل تلك الأبراج.

ومع هذا فقد كان «التونكو» مسلماً حر التفكير غربي الثقافة من جيل ما قبل الحرب. كان محباً للحياة ومقبلاً عليها. وكشأن بقية المسلمين في بريطانيا من جيله كان يأكل ويشرب بحرية ويحب الخيول والنساء. اختير ذات مرة مساعد مدع عام في قضية طلاق في بريطانيا لمحام بريطاني كانت زوجته قد ارتكبت الزنى. وقد انتشرت أخبار القضية في المالايا قبل أن يصبح رئيساً للوزراء عام 1955، وزادت من تأييده الشعبي. وبعد اعتزاله السياسة في السبعينيات أصبح مسلماً صالحاً يكرس جلّ وقته لمتابعة قضية الوحدة الإسلامية بوصفه الأمين العام لـ «منظمة المؤتمر الإسلامي».

كان «التونكو» شخصاً محبباً على الطعام،لديه كثير من القصص القصيرة التي يرويها بطريقة ساحرة. وكان هدفه في الحياة السعادة،وكان يقيس بعصا القياس التي يحملها ما إذا كان وضع ما سيجعله سعيداً أو تعيساً. وعندما كان أمر ما يجري على ما يرام كان يقول بفخر: «أنا أسعد رئيس وزراء في العالم». وكان يضيف أن هدفه بالنسبة لمالايا ليس الثروة أو العظمة أو المجد، بل السعادة في بلد بدون كراهية أو قلاقل، وحين كان يسعى إلى أن يؤكد لشعوب بورنيو

مكانتهم في «الاتحاد» كان يخبر الصحافة أن هدفه سيتوسع الآن ليشمل ماليزيا كلها. ولكن الأمور لم تكن هكذا بالنسبة إلى شعبي بورنيو وسنغافورة اللذين لم يكونا معتادين على قياس سعادتهما بهذا المقياس.

لم يكن لديه ادعاءات بشأن قدراته ولا كوابح بشأن وصف قدرات رفاقه المالاويين. كان صريحاً للغاية في التواضع،معترفاً أن والده المالاوي، السلطان، كان ضعيفاً، وأن قوته جاءت من أمه التي تنتمي إلى «التاي». وكان يقول: إن المالاويين ليسوا نابهين جداً كما ليس لهم مطالب، ولهذا يسهل إرضاؤهم. فكل ما كان يحتاجه هو أن يقدم لهم ما هو أكثر قليلاً، وكانوا سعداء للغاية. هذه الآراء كانت مشابهة لتلك التي عبر عنها د. مخاتير محمد في كتابه «أزمة المالاي» المنشور عام 1971. كتب يقول: «مهما كان الذي يستطيع المالاويون تقديمه فإن الصينيين يستطيعون تقديمه بشكل أفضل وأرخص. إنهما من عرقين وبيئتين مختلفتين». وبعد بضع سنوات في عام 1997، أي عندما أصبح رئيس وزراء ماليزيا قال: د.مخاتير محمد «إنه غيّر موقفه ولم يعد يعتقد بما كتبه في (أزمة مالاي)».

ولكن في الستينيات،كان «التونكو» ينظر إلى المسؤولين والوزراء في غرفة مكتبه أو بعد الغداء ويقول: «هؤلاء الرفاق لا يستطيعون القيام بالأعمال التجارية. ليس لديهم فكرة حول كيفية صنع الثروة. أما الصينيون فيستطيعون ذلك. فهم يعرفون كيف يكسبون المال، ومن الضرائب المفروضة عليهم سوف ندفع للحكومة. ولأن المالاويين ليسوا أذكياء كثيراً وليسوا مهرة في شؤون الأعمال والتجارة فينبغي أن يعملوا في دوائر الحكومة، والشرطة والجيش». كان لديه فلسفة بسيطة تفيد: إن دور المالاويين هو ضبط جهاز الدولة، وإعطاء البراءات وجمع العوائد، والأهم من ذلك كله أن يضمنوا ألا يُعزلوا. فخلافاً للصينيين والهنود الذين لديهم الصين والهند للعودة إليهما، هم ليس لديهم أي مأوى آخر يذهبون إليه. بطريقته الناعمة والمهذبة في الحديث كان عارفاً بتصميمه على المحافظة على هيمنة المالاويين وأنهم وسلطانهم سيبقون سادة البلاد.

كان رزاق يقهقه بصعوبة عندما كان «التونكو» يتحدث عن آرائه المكررة والصريحة تجاه مواطنيه المالاويين. كانت تجعله قلقاً. كان يرى أن هذه الآراء تقلل من قدرتهم ولن تكون مقبولة لدى الجيل الأكثر شباباً ـ فهو نفسه قد أنهى امتحانات الحقوق في نصف الوقت الذي يمضيه كثير من الطلاب الصينيين. ربما يكون «التونكو» قد أمضى سنوات طويلة حتى أنهى دراسته، ولكن ذلك يعود ـ كما يقول عادة ـ إلى أنه أمضى كثيراً من الوقت مع النساء.

وعند الساعة السابعة مساءً في الأول من شهر آب وقع «التونكو» وماكميلان الاتفاقية التي ستخلق دولة ماليزيا، وقد تأخر الاحتفال يوماً واحداً كي يصادف الشهر الثامن «المحظوظ» من السنة بالنسبة للتونكو. ووقع حاكما شمال بورنيو وساراواك باسم أراضي بورنيو. وأشير إلى سنغافورة وبروناي في بيان مشترك بعد أن استغرق ذلك أسبوعين من المباحثات التي سبقت الاحتفال. كان سلطان بروناي يتطلع إلى شروط أفضل. وكذلك فعلنا نحن.

أكد تقرير لجنة كوبولد في الوقت نفسه أن الاتفاقية قد وقعت. وقد كانت مدونة بعناية وتعرض الوضع بوضوح كبير. وكان تقويم اللجنة لرغبات شعب بورنيو أن ثلثهم كان يؤيد ماليزيا بقوة، بدون اهتمام بالصيغ والشروط. وأيد ثلث آخر قيام ماليزيا ولكنه طالب بضمانات. وكان الثلث الثالث موزعاً ما بين تفضيل استمرار الحكم البريطاني لبضع سنوات،وبين فئة «ترفض قيام ماليزيا بأية شروط إلا إذا تحقق الاستقلال والحكم الذاتي أولاً»، بكلمات أخرى كان كوبولد يرفض من جانبه طلباً من «أراضي بورنيو» بحق الانسحاب أثناء فترة تجريبية. كان الأمر محسوماً.

قرر كينغ سوي العودة إلى سنغافورة قبلي ووصلها في 3 آب. وأعلم الصحفيين، وهو يشرب نخب ماليزيا،بمزاج رائق أن لدى الحكومة ورقة رابحة ستلعب بها في الوقت المناسب.

رغم أنني أنجزت عملي فقد بقيت في لندن كي أظل مع «التونكو»، الذي كان يعتقد بقوة أن الحياة لم تطمنه حتى خلال المناقشات. كان يحب تمضية بعض الوقت وهو يتمشى عند «قوس بارلينغتون» قرب ريتز كي يشتري حزامات الخصر أو محارم كما كان يفعل في شبابه في إنجلترة. كنت أرافقه، وفي إحدى المرات، انضممت إليه في شراء صدرية رمادية اللون لم أكن أحتاجها. وعلى غداء قدمه لنا ماكميلان وحضره سانديز التقطنا صوراً معهما خارج مبنى الأدميرالية وقد ارتدينا صدريتينا الجديدتين. ولما كنا بعيدين عن مسامع «التونكو» فقد شرحت لماكميلان مصاعبي في التعامل معه، وعلّق ماكميلان قائلاً «التونكو» مثل نبيل إسباني. ذلك هو عالمه». ما كان بوسعي إلا أن أوافق، فماكميلان نفسه كان يتصرف مثل نبيل إسباني ولكن بأسلوب عصري فهو يحسب فوائد كل خطوة قبل أن يتحرك. أما «التونكو» فقد كان نبيلاً إسبانياً يتوقع من العالم أن يسير وفق نمط تفكيره.

في الثامن من آب ـ وهو يوم فأل شديد آخر للتونكو ـ عدنا إلى سنغافورة على متن طائرة شركة كانتاس، ووصلنا في اليوم التالي. وفي اليوم الذي تلا وصولنا رافقته في رحلة جوية خاصة لشركة طيران المالايو إلى كولا لامبور حيث استقبل بحفاوة كبيرة في المطار. وشاركني بكرم بأكاليل الزهور التي قدمت إليه،وأعطاني الفرصة كي أتحدث إلى أول جمهور مالاوي يقابلني. ثم ركب السيارة المكشوفة بزهو باتجاه قصر الرئاسة وقد اصطف آلاف الناس على طول الطريق. وقد جعلني أشاركه المجد ثانية بوقوفي إلى جانبه في السيارة. كنت من المقربين إليه.

ولكن يبدو أن «الباريسان» عرفوا شيئاً مقدماً. فعند توقيع الاتفاقية في لندن، سمع مارشال في الأمم المتحدة في نيويورك أن التونكو وافق، تحت ضغط البريطانيين والأوستراليين على جنسية ماليزية مشتركة. لم أعرف من أعلمه بذلك،ولكنه لم يستطع أن يكتم الموضوع. فقد أعلم وكالات الأنباء بذلك على

مع رئيس الوزراء هارولد ماكميلان ووزير الخارجية دانكان سانديز خارج مقر الأدميرالية، تموز 1962 بعد غداء قدم لي وإلى التونكو وقد ارتدى كلانا صدرية رمادية اللون.

التونكو يشاركني بتواضع بحزامه الوردي عند وصولنا إلى مطار كوالا لامبور بعد محادثات لندن في شهر آب 1962.

الفور، وبذلك وصلت الأنباء إلى سنغافورة. وهذا ما حرمني من عنصر المفاجأة، ولكن لما كان الخبر لم يتأكد من قبل أية جهة رسمية لدينا فقد ظل الشك قائماً. فما قاله مارشال في نيويورك: ربما كان من أجل التخفيف من حدة موقفه ضد ماليزيا. ومهما كان الباعث فإن تأثيره كان عظيماً. فقد تأكد الآن أنه يحظى برضى الحكومات البريطانية والأسترالية والملاوية، وبات يخشى أنه إذا ما اتبع خط «الباريسان» المعادي لماليزيا فسيلقى المعاملة نفسها التي كان يمكن للتونكو أن يلقاها منهم.

لم يكن وحيداً في ذلك. بل كان ليم تشين سيونغ في مشكلة لأن جميع أنصاره لديهم أفكار أخرى. وقد حذره كثيرون من أن يطرح فكرة الأوراق البيضاء مجدداً. واستناداً إلى مصادر «الفرع الخاص» فإن ليم أجاب: أنه لا يوجد بديل. بعد خمسة أيام أخبره رئيس تحرير مجلة «نادي سنغافورة الاشتراكي» أنه لا يستطيع أن يدعو صراحة إلى أوراق بيضاء.

في 14 آب أعلنت عن أسبوعين من الحملات الفعالة لإجراء الاستفتاء يوم السبت في الأول من أيلول. أكدت أن جميع سكان سنغافورة سيصبحون مواطنين ماليزيين بصورة آلية. وقرأت مقاطع من رسالتي في 30 تموز إلى التونكو وجوابه عنها في 31 تموز مؤكداً أقوالي. وكان ذلك ضربة قاصمة للقوى المعارضة للاندماج.

أوقفت نقابات وجمعيات ليم الثقافية اليسارية جميع نشاطاتها من أجل حشد أعضائها لحملة الأوراق البيضاء في التصويت. ونشرت الصور والأعلام والمنشورات والملصقات في المدينة على أعمدة الإنارة والجدران. كما راحت تتجمع الحشود في كل ليلة، وكان أكبرها وأكثرها عدداً تلك التي نظمها الباريسان. ولكن في غضون 24 ساعة من إعلاني، تعهد كوتيك كين، رئيس غرفة التجارة الصينية عن تأييده للخيار (آ) صيغة الحكومة للاندماج. كان مصمماً على ألا يخسر صينيو سنغافورة جنسيتهم نتيجة للمناورات السياسية

«للباريسان». وكانت هذه نقطة تحول، فقد اختارت الجماهير الناطقة بالصينية، وغير الملتزمة باليسار الشيوعي والتي واجهت قراراً مهماً يتعلق بأوضاعها الشخصية ومواطنيتها، أن تصغي إلى زعمائها التقليديين.

في 14 آب سأل ليم أحد كوادره، وهو صحفي شيوعي يعمل في صحيفة «نانيانغ سيانغ باو»، لماذا لم ينشر بيانه حول الاندماج في صحيفته؟. وكان من الواضح أن إدارة الجريدة باتت أكثر خوفاً الآن من الحكومة من أي عقاب يمكن أن يلحقه الشيوعيون بهم إذا ما خسرنا الاستفتاء. وكان ليم أكثر يأساً في ذلك اليوم، وعمد «الباريسان» إلى اتهامي باتباع سياسة الأمر الواقع في الاستخفاف «بلجنة إزالة الاستعمار» التابعة للأمم المتحدة التي قيل إنها ستجتمع في شهر أيلول للنظر في طلبهم ضد الاستفتاء الباطل.

في الوقت نفسه كانت المعارضة تعاني من نكسة أخرى. فقد عززنا موقفنا في الجمعية عندما انشق س. ف. لينغام عن أونغ إينغ غوان في 17 آب وعن حزب الشعب الموحد (UPP) وطلب الانضمام إلى حزبنا. وقد عززت عودته أغلبية الحكومة بـ 26 صوتاً مقابل 25 صوتاً. (كان تصرف لينغام المتذبذب غريباً. ولم يتضح السر إلا بعد أن انضممنا إلى ماليزيا،عندما علم كينغ سوي أنه كان عميلاً مأجوراً للفرع المالاوي الخاص. أرادوا أن يعرفوا ماذا يريد أونغ أن يفعل، ولكنه وجه لينغام بالعودة إلى حزبنا عندما بدا وكأن حكومة سنغافورة في خطر. رشحنا لينغام في انتخابات عام 1963 العامة، ولكن عندما اكتشفناه أسقطناه من الترشيح).

كانت استفادتنا قصيرة الأجل فقد تدهورت صحة أحمد إبراهيم بشدةٍ. إذ كان يعاني من ألم في الكبد بسبب التهاب أُصيب به قبل سنوات. وقد أرسلناه إلى بريطانيا كي يجري عملية ولكن المرض كان يتطور بدون توقفٍ، وفي 21 آب توفي. كنت أقف إلى جانب زوجته وهو على فراش الموت. كانت روح أحمد المعنوية عاليةً، ويتحلى بصفات قيادية تجلت في التأثير الجيد في «اتحاد عمال

القاعدة البحرية». والأهم من ذلك أنه كانت لديه الشجاعة في أن يسحب وزارة العمل من كيني ليواجه الشيوعيين. كان موته خسارةً قاسيةً، وقد تركَنا بـ 25 صوتاً مقابل 26 صوتاً في الجمعية البرلمانية مرة أخرى.

لم يكن الوضع يائساً على أية حال فمارشال كان مضطرباً، ويريد الابتعاد عن الشيوعيين ليعزز موقفه عند «التونكو». دعوته إلى مقابلة إذاعية وجهاً لوجه. ووافق على ذلك. وأثناء عملية الأسئلة والأجوبة التي تلت افتتاح المناقشة اعترف بأنه لا فرق بين مواطني ماليزيا ومواطني سنغافورة، بل سيكون لهم حق العمل والملكية في جميع أرجاء الاتحاد،كما سيعملون في الخدمة المدنية الماليزية،وأن دستور دولة سنغافورة سيصاغ بالطريقة ذاتها للولايات الأخرى.

في اليوم نفسه قابل قيادة حزب العمال وجعلهم يرحبون بتغيير شروط المواطنة بالإجماع. ومع هذا ظلوا معارضين لأحكام الاستفتاء التي اعتبروها «غير أخلاقية البتة بحيث لا يوجد رجل شريف مهما كانت آراؤه يمكن أن يشارك فيه، إلا إذا أُرغم على ذلك بقوة القانون». مارشال يعرف أن التصويت كان إلزامياً بالطبع، ولهذا نصح الناس بأن يلقوا بأوراقٍ بيضاء احتجاجاً، نظراً لأنهم لا يستطيعون أن يتخلفوا. مرة أخرى كانت هذه مناورة تقليدية من محام. لم يكن مستعداً للمعارضة أو لإغضاب «التونكو»، ولكن في الوقت نفسه حاول أن يظهر أنه لم يخرق القواعد مع ليم تشين سيونغ.

بعد أيامٍ قليلةٍ استطعت أن أجعله يعلن في ندوة جرت في جامعة سنغافورة قائلاً: «لنكن دقيقين، إن حزب العمال لم يغير موقفه، فالاقتراحات الدستورية تغيرت بحيث تتوافق مع مطالب حزب العمال وفقاً للصيغة التي اقترحها الحزب تماماً». ومع هذا فقد طلب من الحكومة، في محاولةٍ يائسةٍ، أن تؤجل الاستفتاء حتى يُقدم مشروع الدستور الماليزي إلى «الجمعية». ورغم ما يحيط باقتراحه من شبهات حول دوافعه،كانت بمثابة صفعة على وجه الخط الدعائي «للباريسان».

كانت هناك ضرباتٌ أخرى قادمة. فبعد التعهد بالتأييد الذي قدمه كوتيك كين، وَقَّعَ قادة 12 نقابة بياناً في 23 آب داعين غرفة التجارة الصينية إلى عقد اجتماع لنصح الناس ألا يضعوا أوراقاً بيضاء،بل أن يصوتوا للخيار (2)، والأكثر من ذلك أنهم نشروا أسماءهم لسهولة التعريف مع أن تصرفهم كان يعارض مباشرةً الرسالة المفتوحة التي وضعها الحزب الشيوعي (MCP).

ومن أجل إبعادهم أكثر عن التوجه الشيوعي قررت أن أُثير مخاوف زعماء الطائفة الصينية بأن أعلمتهم أنهم إذا وَضَعوا أعداداً كبيرةً من الأوراق البيضاء فستُحتسب أصواتاً للخيار (ب) ـ الاندماج الكامل غير المشروط ـ لأن ذلك سيعني أن الأغلبية قد استجابت لدعوة «الباريسان» لهم. ولكن في تلك الحالة فإن جميع غير المولودين في سنغافورة يمكن أن يخسروا جنسيتهم. وبعد ثلاثة أيام وقّع أول 12 اتحاداً نقابياً بيانهم، وانضمت ثلاث منظمات أخرى لصالح الخيار (آ) من بينها «اتحاد معلمي مدرسة سنغافورة الصينية» الذي كان تحت سيطرة الشيوعيين.

في اليوم التالي جاء إلى مكتبي في «سيتي هول» وفد من «غرفة التجارة الصينية» برئاسة كو لاستيضاح بياني حول الخيار (ب)، فأجابه ليم تشين سيونغ بشيء من التهديد: إن الجماعة الصينية ستعرف كيف تتعامل مع من يعتبرون زعماءهم الذين خانوها. وندد بسير «الغرفة» في ركاب دعاية حزبنا. وأعلن بدون تخوف أن مجلس «الغرفة» نفسه طلب من أعضائه أن يصوتوا للخيار (آ)، وفي اليوم نفسه انضمت ست منظمات صينية.

من أجل مجابهة هذا التوجه جمع ليم تشينغ سيونغ 24 نقابة ثم 12 نقابة أخرى كي يضمن أن أعضاءها سيضعون أوراقاً بيضاء عند التصويت. ولكن رؤساء تلك النقابات لم يهتموا بما قاله، فقد اعتمدوا على مكانة ليم التي كانت تتدهور بسرعة. فقد لجأ غاضباً وقد فقد صوابه إلى مزيد من التهديدات،وأضحى غريب الأطوار في خطبه، وفي 27 آب ارتكب خطأً فادحاً،

ففي اجتماع حاشد في هونغ ليم غرين قال «إن الاندماج وماليزيا لهما معانٍ مختلفة بالنسبة إلى قوى مختلفة. في النضال ومن أجل استقلال مالايا وإندونيسية قامت القوى الوطنية في هذين البلدين بطرح فكرة «مالايا رايا» أي «مالايا الكبرى» أو ماليزيا متضمنة الهند الصينية...».

وقد أرعب هذا المصوتين الناطقين بالصينية الذين كانوا يعرفون أن الأندونيسيين كانوا أكثر عداوة للصينيين من المالاويين في مالايا.

كما لم يكن موقف أونغ إينغ غوان مساعداً عندما سُئل من قبل الصحافة ماذا سيفعل إذا ما فُسرت الأوراق البيضاء بأنها أصوات للاندماج الكامل، وقد رفض التعليق. وهذا ما عزز قناعة الزعماء التقليديين في أن الموالين للشيوعيين والجماعة المعارضة للاندماج قد حُشروا في زاوية. وهذا ما شجع «غرفة التجارة الصينية» على شراء مساحات في جميع الصحف الصينية على مدى يومين متتابعين لإعلان تأييد أعضائها للخيار (آ). لقد تم التغلب على خوفهم السابق من الشيوعيين إزاء خوفهم من أن 330 ألفاً من الناطقين بالصينية، والذين كانوا مصدر قوتهم سيخسرون المواطنة وبالتالي نفوذهم تجاه التطورات السياسية. كان استخفافهم العلني بالتهديدات الشيوعية ذا آثار سيئة. كما فقد بعض الزعماء خوفهم وراحوا يحثون أعضاءهم على التصويت للخيار (آ) مع 51 شركة تجارية ونقابة.

شهد الأسبوع الأخير قبل الاستفتاء اجتماعات في الشوارع وحشود جماهيرية، ولكنني لم أعتقد أن هذه النشاطات سيكون لها تأثير كبير بعد الآن. فالجدل حول شروط الاندماج استمر طوال السنة كما أن مسألة المواطنة من الدرجة الثانية والجنسية اللتين ركز عليهما «الباريسان» قد حُلّت. وفي 30 آب، عقدت الاجتماعات الحاشدة الأخيرة،وقد نظم حزبنا أوسعها في «هونغ ليم غرين» حيث جذبنا جمهوراً واسعاً بدون أن ننقلهم بالباصات كما فعل «باريسان» قبل ثلاثة أسابيع. عندما بدأت الحديث في الساعة 9.30 مساء، سرعان ما علا

صوت الموسيقى من ثلاثة مكبرات للصوت من شرفة في الطابق الرابع من بناء تابع لنقابة موالية لباريسان. قلت ساخراً: «هذه هي ديمقراطية باريسان سوسياليس. فقد أعطيناهم سنة قدموا فيها أسوأ ما عندهم. والآن هم خائفون من أن نقول الحقيقة». لقد رفعوا أصوات الموسيقى لمنعي من الكلام ولكنني استمريت. بعد بضع دقائق دخلت دورية من الشرطة إلى البناء. فوجدوا الأبواب مغلقة في الطابق الرابع، ولكن الموسيقى توقفت.

بدأ الاقتراع في الساعة الثامنة صباحاً من اليوم الأول في شهر أيلول وانتهى في الساعة الثامنة عندما بدأ الإحصاء. وفي الساعة الثالثة صباحاً كان من الواضح أن حملة الباريسان للأوراق البيضاء قد أخفقت. فقد وصل تعداد تلك الأوراق إلى أقل من 30٪، في حين حصل الخيار (آ) على 70٪، مع أصوات تبعثرت بين الخيارين (ب) و(ث). كانت حشود ضخمة خارج قاعة بادمينتون في شارع غوليمار، وكان الجو متوترا، إذ على الرغم من وجود 345 مركزاً للاقتراع منتشرة في كل سنغافورة، فقد جلبت صناديق الاقتراع جميعها إلى هذا المركز لإحصائها. كان «الباريسان» يريد أن يُجرى إحصاء الأصوات على انفراد في كل مركز ولكننا رفضنا ذلك. لم نكن نريدهم أن يعرفوا أية مراكز كانت نسبة الأوراق البيضاء فيها أعلى، وهذه معلومة مفيدة بالنسبة إلى الانتخابات القادمة. ولكنهم تفوقوا علينا بأن جلبوا مؤيديهم إلى إلقاء أوراق انتخابهم في صندوق الاقتراع إلى جانب أوراق الاقتراع. هذه البطاقات كانت تحدد بدقة المنطقة التي جاؤوا منها.

عند الساعة 6.45 صباحاً، قبل إعلان نتائج التصويت، بعث د.لي سيوه تشوه برسالة إلى المشرف على الاستفتاء يطالب بإعادة الإحصاء. انصاع المشرف إلى طلبه بعد ساعة، ولكن التأخير حفّز د.لي على أن يبعث برسالة أخرى في الساعة 7.45 ادعى فيها أن المشرف قد أخذ رسالته الأولى إلى رئيس الوزراء قبل الإجابة عنها، وبذا كان أكثر من خادم له. والأكثر من ذلك أنه لما كان الإحصاء

الأول غير نظامي، وكانت العملية كلها هزلية كالمذكرة نفسها فإنه لن يحصل على شيء. كان جواب المشرف جاهزاً بعد ساعة، ولكن بناء على نصيحتي طلبت أن يعلن ذلك عبر مكبرات الصوت لصالح الصحافة قبل أن يسلمه إلى د. لي.

قيل إن صناديق الاقتراع قد فتحت وأوراق الاقتراع قد خلطت وأحصيت أمام د.لي الذي كان حاضراً أثناء العملية كلها، ولكنه لم يبد اعتراضات عليها إلى أن تتجز ولا يبقى إلا إعلان النتائج. على أن المشرف أمر بإجراء إحصاء آخر كما طُلب.

أبدى د.لي احتجاجاً. وفيما كانت عملية الإحصاء تجري كان يشتعل غضباً في موقع الإحصاء وأخبر الصحافة «إنه عمل خسيس، إنها مهزلة». خرج ليم تشين سيونغ معه وعَبَرَ الشارع نحو مؤيديه الهاتفين ليقول لهم: «سوف نتابع نضالنا غير هيّابين من أجل حقوق متساوية لشعب سنغافورة». ولكن الإثارة ذهبت سدى. فقد خسروا وعادوا إلى بيتهم يجرون أذيال الخيبة غير راغبين في مواجهة الهزيمة.

في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح الأحد انتهت عملية إعادة الإحصاء: 71٪ اختاروا البديل (آ) و 25% وضعوا أوراقاً بيضاء. كنت مفعماً بالسرور عندما تحدثت إلى الجماهير المنتظرة، واغرورقت عيناي بالدموع. أُذيعت كلمتي على الهواء في محطة سنغافورة من «قاعة بادمينتون»:

> «حكم الشعب أمر مرعب بالنسبة إلى غير الشرفاء سياسياً. هذا الحكم أمر حاسم. إنه عهد الشعب وموافقة شعبية على الاندماج وماليزيا... لو لم نجرِ الاستفتاء لكان الأمر خطأً جسيماً، إذ كنا سمحنا للشيوعيين أن يجعلوا الشعب يعتقد أنالجماهير ضد الاندماج. ومع الوقت والتوضيح نستطيع أن نخمد تدريجياً بؤر التأييد التي حصلوا عليها عن طريق الكذب والخداع والتضليل».

•

«عاشت ماليزيا» هتافات النصر خارج قاعة بادمينتون في سنغافورة في 2 أيلول 1962، بعد كسب الاستفتاء حول ماليزيا. ويقف إلى يميني سياتشينغ تيت، أستاذي في لغة الهوكين.

28. أوروبا توحي إلى بريطانيا

غادرت إلى لندن في الخامس من شهر أيلول لألتحق بمؤتمر رؤساء وزراء دول الكومونولث الذي انعقد لمناقشة طلب بريطانيا في الانضمام إلى «الاتحاد الاقتصادي الأوروبي» (EEC) لم تكن سنغافورة مستقلة، بعدولكن لما كانت المستعمرات ذات صلة بهذا الاتحاد وتتأثر به، فقد دُعينا بوصفنا مستشارين لدونكان سانديز، ولم يكن لي حق الكلام. ولا أستطيع أن أُدلي بآرائي إلا من خلاله. وكان اللقاء مناسبة كي (أجدد علاقاتي مع «حزب العمال»). كنت قابلت السيد هيو غيتسكيل، زعيم المعارضة خلال زياراتي الأولى إلى لندن عن طريق وزير الظل لشؤون المستعمرات والكومونولث جون ستراتشي. وكان ستراتشي رجلاً مثقفاً ومهتماً بالنظريات الفلسفية. كان ودوداً ويريد للمستعمرات أن تحقق أهدافها. وكان كينغ سوي قد دعاه إلى سنغافورة ليشهد حملة الاستفتاء. وبعد أن استمع إلي على طعام الغداء في ساحة فوليرتون، أثنى على ثقافتي. أما غيتسكيل فكان ذا عقلية مختلفة. كان أقل اهتماماً بالنظريات وأكثر اهتماماً بالشؤون العملية، وحاداً في المناقشات.

عقد حزب العمال مؤتمر الوزراء العماليين والاشتراكيين لدول الكومونولث بمناسبة دخول بريطانيا في الاتحاد الاقتصادي الأوروبي (EEC). لم يحضر نهرو المؤتمر، ولكن الهنود، الذين كان تمثيلهم على مستوى رفيع،احتجوا بشدة لأنهم والمستعمرات السابقة قد أُهملوا. فامتيازات الكومونولث لصادراتهم إلى بريطانيا، ولاسيما المنسوجات،سوف تتعرض للخطر إذا ما انضمت بريطانيا إلى الاتحاد الأوروبي. وطلب جميع الزعماء الآخرين أن تستمر امتيازاتهم وروابطهم بالسوق البريطانية وبوضعهم الخاص بالنسبة إلى صادراتهم إذا ما دخلت بريطانيا «الاتحاد» EEC. كان ولتر ناش من نيوزيلاندة رئيس الوزراء الأبيض

الوحيد من دول «الدومينيون» ـ أما الآخرون فكانوا من دول غير بيضاء ومعظمها لم تستقل بعد. كان الجميع يطلبون من غيتسكيل الدعم والتأييد. لأنه كان ضد أوروبا ويفضل المحافظة على علاقات اقتصادية وثيقة معهم.

وفي خطابي في مؤتمر العمال قلت: إن المستقبل كان يتغير حتماً، ولكن المتغيرات ينبغي ألا تكون مبرراً لبريطانيا كي تتخلى عن مسؤولياتها التي ورثتها عن الإمبراطورية. وإذا ما فعلت ذلك فإن النتائج ستكون وخيمة وستهدد الدول الصغيرة مثل سنغافورة. فإن رباطنا الأوثق مع دولة صناعية كبرى هو مع بريطانيا. وإذا ما فقدنا هذا الارتباط فسوف نعاني من نكسة شديدة. وأضفت ببساطة وصدق أن بريطانيا والإمبراطورية التي كونتها هي ما عرفته طوال حياتي، عالم كان فيه البريطانيون محور حياتنا، وفي الوقت الذي أردنا فيه الحرية لنقرر شؤون أنفسنا، كنا نريد في الوقت نفسه لروابطنا التاريخية والثقافية والاقتصادية الطويلة أن تستمر. وكنا نقدر بشكل خاص ارتباطنا بحزب العمال الذي ساعدنا أثناء نضالنا من أجل الاستقلال. وقد ضربت على الوتر الحساس: فبعد أن ألقيت كلمتي، جاء إلي دينيس هيلي،سكرتير الحزب لشؤون العلاقات الدولية، وقال: «هاري،من علمك أن تتحدث هكذا؟ لقد كانت خطبة قوية».

كنت سعيداً بوجود أصدقاء لي بين الزعماء العماليين. كنت قد تعاملت من قبل بمودة مع سانديز، ومولدينغ ولينوكس ـ بويد (والذي كانت علاقتي معه الأفضل) ولكنهم كانوا من «المحافظين» ويمثلون مصالحهم الخاصة، ولم يتعاطفوا أبداً مع تلامذة المُستعمرات الذين كانوا يسعون إلى الاستقلال. كان حزب العمل يشاركنا في طموحاتنا وآمالنا. كان لديهم فلسفة أساسية مشابهة لدعم المضطهدين والمبادئ الأخلاقية للمساواة بين الناس من جميع الأعراق والأمم،مغروسة بالإيمان بالأخوة الاشتراكية. لم أكن في السلطة فترة كافية كي

أفهم أن عودة العمال إلى الحكم لا يعني أن تقتصر مسؤولياتهم على الشعب البريطاني فقط، بل وعلى التآخي مع البشر، وإنه ربما يؤذي ضمائرهم أن يتنازلوا عن مبادئهم.

أما مؤتمر الكومونولث في حد ذاته كان شيئاً ساحراً. فالزعماء من البلدان الصغيرة والكبيرة يجلسون حول مائدة بيضاوية في «مالبوروهاوس» ولهم حقوق متساوية في الكلام. كنت معجباً بشكل خاص بهارولد ماكميلان الذي كان يجلس مثل بطريرك. لقد حيا جميع رؤساء الوزراء عند دخولهم،حتى الذين جاؤوا لأغراض المجاملة مثلي. وعندما صافحني ابتسم بسرور وهنّأني على نجاح الاستفتاء.

ابتسمت له وقلت: «نعم، بمساعدة الحكومة البريطانية في الوصول إلى الغايات المرجوة لشعبنا». بدا هود ودنكان سانديز، الذي كان إلى جانبه، كلاهما مسروراً.

كانت الهند أكبر دولة ممثلة في المؤتمر، ولكن نهرو كان متعباً. لم يكن مقنعاً في معارضته لانضمام بريطانيا إلى السوق المشتركة. كانت الخطبة الأكثر تأثيراً هي خطبة روبرت مينزيس، رئيس وزراء أستراليا. فقد كان ضخم الجثة قوي البنيان له وجه عريض وصوت قوي عميق يرن في أرجاء القاعة. وكان حاجباه الكثيفان يضيفان تأكيداً على آرائه عندما يعبس. كان يتحدث بتعاطف وقناعة وقوة. لم يلق بالاً إلى كلام ماكميلان وتأكيداته حول استمرار العلاقات الوثيقة مع الكومونولث بعد انضمام بريطانيا إلى السوق المشتركة. قال: «إنني أحكم اتحاداً. وأعرف كيف تعمل الاتحادات». إنه أما أن تندفع نحو المركز بطريقة تجعل الولايات تقترب من بعضها أكثر فأكثر كما هو الحال في أستراليا، أو بعيدة عن المركز بحيث تبتعد الولايات عن بعضها أكثر فأكثر بحيث تتشتت في النهاية. إذا انضمت بريطانيا إلى «السوق المشتركة» فإن روابطها مع الكومونولث ستضعف وتتلاشى.

وقد أجلّ ماكميلان إلقاء كلمته إلى ما بعد نهاية عطلة الأسبوع حتى يلتقي بزعماء الكومونولث على انفراد في تشيكريز، ويحضّر جوابه. وفي يوم الاثنين ألقى ماكميلان كلمته. كان حزيناً لأن بريطانيا كان عليها أن تتخذ هذا الطريق، ولكن مجرى التاريخ قد تغير. فالثروة باتت تتواجد في القارات الكبرى مثل أمريكا وأوروبا. حيث تسهل الاتصالات الجديدة التجارة وأشكال التبادل الأخرى. إمبراطورية ما وراء البحار على غرار الإمبراطورية التي بنتها بريطانية لم تعد السبيل إلى الثروة... لابد من مواجهة المستقبل، ومهمته، غير البهيجة، أن يربط بعجلة النمو والتقدم هذه في القارة الأوربية. كان عرضاً رائعاً للواقع أثرّ في جميع الزعماء الحاضرين ولكنه أشعرهم بأنه كان على رئيس للوزراء واجب يؤديه، وهذا الواجب الإستجابة لأوروبا المغرية. فهو سيفعل ما في وسعه للمحافظة على الكومونولث والإمبراطورية إذا افترضنا أن الأوربيين (أو بالأحرى الرئيس ديغول) سمحوا له بذلك.

قررت العودة إلى سنغافورة عن طريق موسكو هذه المرة، رغم عدم سرور التونكو. غادرت لندن في 19 أيلول على الخطوط الجوية البريطانيا. كنت أعتبر زيارتي لموسكو ضرورية من أجل اطلاعي السياسي: وهو أن أشاهد عاصمة الاتحاد السوفييتي والروس. استقبلت في موسكو على مستوى نواب الرؤساء، ولاسيما نائب رئيس «لجنة العلاقات الثقافية والدول الأجنبية». كما كان في استقبالي دبلوماسيون وسفراء أجانب، ومن بينهم أرنولد سميث، الأمين العام للكومونولث.

أخبرت الصحفيين الغربيين أنني أردت العودة عن طريق موسكو من أجل أن أزور عاصمة واحدة من أكبر الدول في العالم. ولا يوجد سبب سياسي لهذه الزيارة. والحق أن أعلى مسؤول قابلته كان النائب الأول في وزارة الخارجية فاسيلي كوزينتسوف. ولكنني تعلمت كثيراً عند تناول الغداء الذي قدمه لنا أرنولد سميث حيث علمني عدة دبلوماسيين أجانب كيف أفسر ما أرى. كانت زيارة

موسكو تجربة مفيدة. كنت أشعر بالمراقبة حيثما ذهبت. وفي الفندق الفخم الذي نزلت فيه وجدت الكثير من النقائص والعيوب. والخدمة كانت سيئة رغم السخاء في تقديم الطعام. في صبيحة اليوم التالي تناولت إفطاراً غنياً تضمن الكافيار والسمك المدخن وخبز الجودار والقهوة والفودكا والكونياك، كل ذلك قدم لنا على طاولة مستديرة مغطاة بقماش من المخمل.خرجت من الفندق طيلة النهار وفي المساء أخذوني إلى مسرح البولشوي لمشاهدة رقص الباليه. وعندما عدت إلى غرفتي وجدت طعام الإفطار ما يزال على الطاولة. كنت مندهشاً واستنتجت أن في هذا الفردوس الشيوعي تعتبر الخدمة المقدمة من إنسان إلى آخر مهينة.

عندما عدت إلى سنغافورة في 29 أيلول كان في استقبالي جمهور من أنصار الحزب في المطار. قلت لهم: إن الروس عرفوني وهم مستعدون للتعامل معي والتجارة معنا. وقد ذهبت إلى هناك كي أتعلم.وموقفي لم يتغير. إنها مثل موقف الأمير سيهانوك والرئيس عبد الناصر. سندافع عن بلادنا وأفكارنا وطريقة حياتنا. سنكون على الحياد في أي نزاع بين القوى العظمى. ولكننا لن نكون محايدين فيما يتعلق بمصالحنا. ومن خلال تفهم ما يجري ولماذا يجري نستطيع أن نشق طريقنا. لا تستطيع أي دولة، حتى دولة كبيرة كبريطانيا،أن تدعي أن اتحاد أوروبا لن يؤثر فيها.لذا على دولة صغيرة كسنغافورة بشعبها الذي لا يتجاوز 1.8 مليون نسمة ألا تبقى وحيدة.

كنت أشرح كل هذا لمصلحة «التونكو» ولكنني لم أقنعه. كان علي أن أتعلم فيما بعد أنه لم يكن مسروراً حقاً من زيارتي إلى موسكو،ونشر بياناً في كوالا لامبور قال فيه: إن زيارتي كانت مفاجأة بالنسبة إليه. ومن الطبيعي ألا يشير إلى انتقادي للشيوعيين في بيانه. كان يراني وكأنني موظف غير مطيع جاء من منطقة مشاغبة على الحدود. لم يكن يوافق على ذهابي إلى دول شيوعية معادية،ومع ذلك فقد ذهبت.

29 . ضغط من جانب سوكارنو

لم يكن مزاج التونكو رائقاً. فقد حدث أمر ما مهم فيما كنت غائباً. فالحكومة الماليزية التي أعلنت في الأول من شهر آب واجهت ردود فعل معاكسة من إندونيسية والفيليبين اللتين كانتا تطمعان كلتاهما بأراضي بورنيو.

في 24 أيلول أنذر الأندونيسيين بأن يرفعوا أيديهم عن ماليزيا ـ «نتوقع ألا يتدخل الآخرون في شؤوننا». كان يرد على تصريح صدر عن علي ساستروأ مديجوجو، رئيس وزراء إندونيسيا السابق الذي جاء فيه: إن جا كارتا لن تقف مكتوفة الأيدي على قيام ماليزيا. وكانت هذه أول إشارة إلى أن المتاعب قادمة. بعد ذلك جاء وزير خارجية الفيلبين الذي ادعى أن بورنيو الشمالية تعود إلى جمهورية الفيلبين وهي الوريث الشرعي لسلطة سولو،التي تملكها، وأن بورنيو الشمالية لم يجري التخلي عنها للبريطانيين أبداً ـ بل هم استأجروها فقط.

رد التونكو على هذا بأن الإنكليز هم سادة هذه المنطقة منذ 1878، وأن حقهم فيها لم يجادل فيه أحد منذ 100 عام. ولكن ما قاله عنا كان مزعجاً يثير القلق. فقد قال أمام الحركة الشبيبية التابعة لـ «منظمة الإتحاد الوطني المالاوي UMNO» ـ إنه لا يريد سنغافورة، ولكنه ضم هذه الجزيرة إلى ماليزيا حتى لا يسيطر الشيوعيون عليها. وهو يخشى الآن إذا ما نجحوا في ذلك في المستقبل فإن سنغافورة سترفض التعامل مع «الاتحاد» وستحدث «مشكلة كبيرة». كانت أسباب قلقه مفهومة. فعندما كنت في موسكو، نشر «الباريسان» تحليلاً لنتائج الاستفتاء جاء فيه أن هدفهم الفوري هو الإطاحة بحكومة حزبنا الحالية في الانتخابات العامة القادمة. ثم نفوز بمقاعد سنغافورة في البرلمان الاتحادي.

وذهب ليم تشونغ سيونغ أبعد من ذالك، داعياً الحزب إلى حشد جميع قوى اليسار والقوى المعادية للاستعمار للسيطرة على الحكومة الاتحادية ودحر «محور التحالف البريطاني».

رد رزاق على ذلك بتحذير الشعب من أعداء الديمقراطية، وأن «الباريسان» لا يعملون من أجل مصالحهم الحقيقية، بل لصالح من يعود ولاؤهم إلى من هم خارج البلاد. ورد ليم تشين سيونغ بأنه إذا كان التحالف الحاكم يؤمن بالديمقراطية البرلمانية، فعليه أن يقبل بحق المعارضة في تغيير الحكومة من خلال الانتخابات. عزز كلام ليم قناعة التونكو، ورزاق وإسماعيل بضرورة السيطرة على الأوضاع بسرعة، بعد أن انتهى الاستفتاء وبات أمن سنغافورة من مسؤولية كوالالامبور.

في اجتماع «لمجلس الأمن الداخلي» عقد في 8 أيلول أوصى تقرير مشترك من مفوضي الشرطة في الإتحاد وسنغافورة وضعه «فرعنا الخاص» بعملية مرسومة ضد الشيوعيين وأنصارهم قبل الاندماج. وكان رزاق الذي يمثل ماليزيا وإسماعيل يريدان عملية سريعة بدون تأخير.

كان تشين تشي الذي مثلني عندما كنت في مؤتمر الكومونولث في لندن، ضد أي إجراء سريع. وأيد سيلكيريك البريطاني تشين تشي قائلاً: إذا كان ثمة تهديد فهو ليس بالتهديد الذي يستلزم القمع العنيف. ذهب رزاق الذي لم يكن راضياً إلى لندن كي يقنع دانكان سانديز، والذي أجابه بأنه يريد تأجيل أي عمل إلى ما بعد إصدار التشريع الخاص بماليزيا الذي ستجري مناقشته في مجلس العموم، وهذا لن يكون قبل شهر شباط من العام التالي. فعليه أن يأخذ بعين الاعتبار ردود الأفعال البريطانية، إذ أنه يعتقد أن الاعتقالات سوف تسبب بدون شك انتقاداً واسع النطاق.

بعد أن أعلم رزاق التونكو بذلك، دعا المالاويون إلى اجتماع آخر «لمجلس الأمن الداخلي» في شهر تشرين الأول. وتأجل مرة أخرى القرار بشأن مسألة الاعتقالات. كان اهتمام حزبنا الأول الآن أن يعزز مكاسبه، والتأكد من أن

سنغافورة لن تكون تحت سيطرة الزعماء الملاويين في كوالا لامبور. وقد أكدت لسيلكيرك أنه ينبغي أن نؤجل الاعتقالات إلى ما بعد الاندماج. كما أكدت لفيليب مور أنه لا ينبغي اتخاذ أي إجراء قبل انتخابات سنغافورة لاختيار أعضائها الخمسة عشر للمجلس النيابي الاتحاد. أردت أن يظل «الباريسان» أحراراً كي يحتووهم لأنه إذا لم يكن هناك خطر شيوعي واضح يستطيع التحالف أن يكسب عدداً جيداً من المقاعد. وفيما بعد أشار لورد لانسدون،وزير الدولة في سيدني، إلى «إخلاصي المدهش» في إخباره أنه كان من مصلحتي أن أبقي بقية الشيوعيين في المعارضة. وكان لدي أسباب في الطبع.

ذهبت إلى لقاء التونكو بعد عودتي من موسكو وأمضيت عدة أيام معه. فتفسيري لزيارة الاتحاد السوفييتي أراحه، ولكنني كنت أعلم أنه لم يكن راضياً. إنه لا يرتاح لشخص له وجهة نظره الخاصة، وتفكيره المستقل،وعنده الاستعداد للمناقشة، واتخاذ القرار المستقل إذا اقتضى الأمر. والحق أنني لم أعارضه بشدة، ولكنني لم أصغ إليه، أي أنني لم أطاوعه. كان يخطط هو ورزاق لفترة ما بعد ماليزيا، بمعنى من سيكون مسؤولاً عن سنغافورة لينفذ مآربهما. وشعرت أن التونكو كان يستبعدني أن أكون مسؤولاً. كان يريد شخصاً مطيعاً وموالياً مثل تان سيوسين أو ليم يوهوك. وكانا يميلان كلاهما إلى أن كينغ سوي لم يكن «مضموناً». فهو على درجة عالية من الثقافة ولا يقبل بالإغراء أو الإلحاح. ولهذا بعد زيارة ثانية لكوالا لامبور في منتصف شهر تشرين الثاني علمت أنه يريد أن يُسقطني بعد قيام دولة ماليزيا. والأكثر من ذلك أن التونكو طلب مني إطلاق سراح تشواهوي آن، زعيم أكبر جماعة صينية في الجزيرة، والذي كنا قد اعتقلناه بموجب أحكام القانون الجزائي المؤقت. وكان تشوا قد رتب عملية لصوصية ضد عمال فرع حزبنا في الانتخابات السابقة وكنت أخشى على سلامتهم في مناسبات قادمة لأن التونكو بعد الاندماج سيكون لديه صلاحية لإطلاق سراح مجرمين مثله.

كنت أحاول أن أكسب ثقة البريطانيين لأنني بحاجة إلى دعمهم وتأييدهم، أو على الأقل حيادهم، في سبيل أن أنفذ خطتي كي أبين للتونكو الخطأ الفادح لتنصيب حكومة ليم يوهوك التي يستطيع أن يسيطر عليها. وقلت لمور: إنني أستطيع أن ألحق هزيمة انتخابية بليم يوهوك و «التحالف» في سنغافورة لأبين للتونكو ورزاق أنهما ينبغي أن يتعاملا مع حزبنا وليس مع أية جهة أخرى. من أجل هذا نويت أن أُجري انتخابات لممثلينا الخمسة عشر في سنغافورة في المجلس النيابي الاتحادي على الفور، بعد توقيع معاهدة ماليزيا في لندن، المتوقع في شهر شباط. وقبل تنفيذها في شهر آب (أغسطس) عام 1963، عندما يسيطر التونكو على الشرطة. وكنت أعتقد أن «منظمة الاتحاد الوطني المالاوي ـ UMNO» ستحصل على مقعد واحد فقط، وأن حزبنا سيكتسح «الباريسان» بكسب ثمانية مقاعد أو ربما تسعة مقاعد.

أعلمت مور أن رزاق وتان سيو سين لم يحققا أي تقدم في بناء التحالف في سنغافورة. فقد كانا في حيرة من أمرهما، ولم يكن ثمة شك في أنهما يريدان تحجيم حزبنا. فعلى سبيل المثال كانت صحيفة «ستريتس تايمز» تنشر وجهات نظر تفيد أن محرريها كانوا يعرفون أنهم غير مقبولين لدى حكومة سنغافورة، وهذا لا يعني إلا أنهم يحظون بمساندة كاملة من «التونكو»، كان ذلك بمثابة إعلان حرب من جانبهم، وإنني سأرد عليها في الوقت المناسب. مرة أخرى كانت كوالا لامبور تريد السيطرة على الإذاعة والتلفزة المحليين رغم أنها كانت قد أقرّت بأن سنغافورة ستكون مسؤولة عن إدارتهما وبرامجهما اليومية. كان هدفهم الحد من القدرة السياسية للحكومة،ولا سيما خلال الانتخابات. في غضون ذلك عزم تان على أن يُبيّن من هو الزعيم في الشؤون المالية وطلب للحكومة الاتحادية نسبة أعلى بكثير من عائدات سنغافورة بالمقارنة مع ما تم الاتفاق عليه. وكان قد أظهر تشدداً في المفاوضات حول تشكيل سوق مشتركة، وقال: إن اتخاذ القرار بشأنها ينبغي أن يؤجل إلى أن يدرس الخبراء المسألة.

عندما التقيت لانسدون في 27 تشرين الثاني تحدثت معه بصراحة عن متاعبي مع الاندماج. ففيما يتعلق بجمع الضرائب كانت سنغافورة قد وافقت على أن الشؤون المالية هي من اختصاص الاتحاد،ولكن لم يكن بوسعنا أن نوافق على أن تجمع كوالا لامبور الضرائب ثم تعطي نصيب سنغافورة لنا. سنغافورة هي التي يجب أن تجبي الأموال وأن تعطي حصة الاتحاد إلى كوالا لامبور، وإلا سنجد أنفسنا خارج اللعبة. أما بالنسبة للإعلام والإذاعة فقد كان من الضروري لأية حكومة أن تتواصل مع مواطنيها. وفيما يتعلق بالمواطنين الصينيين ومعالجة مشكلاتهم فقد كانت هذه مشكلة حساسة وعولجت مع الأسف بطريقة خاطئة وباهظة التكاليف سياسياً.

تذكرت كيف خلق «التونكو» مشكلة لنفسه في الهند. عندما أوهم الصينيين بأنهم معتدون على حرب الحدود الصينية ـ الهندية عام 1962، في حين كان من غير المؤكد مطلقاً من الخاطئ. ولم يغير موقفه إلا بعد أن أشار أحدهم إلى التأثير السيئ لهذا في صينيي مالايا، وأشار إلى أن المسألة محصورة بين الشيوعيين الصينيين والديمقراطيين الهنود.

بعد ذكر نقاط أخرى من الخلاف أعلمت لانسدون أنه في الوقت الذي كانت فيه علاقتي الشخصية مع «التونكو» جيدة سياسياً كان يريد شخصاً ما أكثر أمانة في إدارة سنغافورة. شرحت عندئذ مقصدي من إجراء انتخابات لمقاعدنا الخمسة عشر في المجلس النيابي الاتحادي. كان قلقاً من تأثير هذا على «التونكو». وقلت: إنه قد يكون مسروراً، ولكن مهما بلغ استياؤه وانزعاجه عليه أن يعلم أن أزلامه في سنغافورة قد انتهى أمرهم سياسياً، وأنه لم يعد بوسعه أن يعتمد عليهم مهما قدم لهم من رعاية وتأييد. وحثني لانسدون على تحسين علاقاتنا بالتحدث بصراحة إلى التونكو حول هذه المسائل. فقلت: بأنني بقدر ما أرغب في ذلك فإن «التونكو» لم يكن من السهل التوصل معه إلى نتيجة، لأن المحادثات معه غالباً ما تنتهي إلى مزاح.

وكان التأثير الذي أحدثته لدى البريطانيين في هذا الوقت قد انعكس في تقرير مور في 5 كانون الأول إلى إيان دالاس في وزارة المستعمرات:

«كانت خطته لاندماج سنغافورة مع (لاتحاد) تقوم على افتراض أنه سيقوم بترتيب ناجح مع التونكو حيث تقوم حكومة التحالف بمهمة المحافظة على الأمن الداخلي في سنغافورة فيما يقوم «حزب العمل الشعبي» برئاسة حكومة سنغافورة. فقد افترضت الخطة أن التونكو سيكون راغباً في التعاون مع لي.

إنه يتطلع بلهفة إلى إجراء الانتخاب قبل قيام ماليزيا إذ سيظل لديه السيطرة على جهاز الحكومة، ولا سيما الشرطة والإذاعة... قال لي: إنه يفضل كثيراً أن يجري الانتخابات بموافقة التونكو. وهو لا يريد أن يكون هذا بمثابة إعلان حرب على التونكو ولكنه يعتبرها ضرورية جداً ليعزز موقفه السياسي ويبين أن التحالف لا يستطيع أن يأمل باكتساب السلطة في سنغافورة. إذا رفض التونكو أن يوافق على أن تجري انتخابات ماليزيا قبل 31 آب 1963، فسيقول لي إنه يستطيع أن يجري مثل هذه الانتخابات بموجب التشريع السنغافوري وسيكون لديهم التأثير السياسي الضروري مهما كانت سلطتهم الشرعية. سألنا لي أن نعتبر فكرته سرية للغاية وهي فكرة إجراء الانتخابات قبل 31 آب 1963، وبدون إعلام أي أحد عن ذلك في الاتحاد...

«قال لي وإنه كان سعيداً جداً بجهود لورد لانسدون، ولورد سيلكيرك وآخرين لإقناع التونكو أن من مصلحته التعامل مع حزبنا (PAP) وشعر أننا حققنا شيئاً يستحيل عليه أن يقوم به بمفرده... إنها لمهمة شاقة، ولا سيما في مواجهة عدم ثقة التونكو المعروفة بي، ولكن الأمل الأكبر بالاستقرار السياسي لسنغافورة ضمن ماليزيا ما يزال يعتمد على رئيس الوزراء المقبل على ترتيب ناجح فعال. والبدائل هي إما حكومة باريسان سوسياليس في

سنغافورة، أو إذا تفرقت قوة الباريسان عن طريق الاعتقالات والاضطهاد، فإن حكومة حزب العمل الشعبي مع لي كيوان يو ومع دعم شوفيني صيني في معارضة المالاويين في كوالا لامبور. أشك في أن ترحب حكومة الاتحاد بهذا الوضع الأخير الخطير. قد يجدون لي كيوان يو زميلاً خطيراً، كما يجد غيرهم ذلك، ولكنهم سيجدونه أكثر خطورة كونه خصماً».

كنت سعيداً بتفهم البريطانيين لي وبـ تعاطفهم مع وجهة نظري. لقد وجدوا أن الطريقة التي حكمت كوالا لامبور مواطنيها لا تصلح في سنغافورة. فصينيو سنغافورة لا يرهبهم شيء، فقد اعتادوا على ظروف الحكم البريطاني، ولم يكونوا أبداً تحت حكم المالايو، والإجراءات العنيفة ضدهم يمكن أن تثير مقاومة عنيفة. وكنت أريد دعم البريطانيين أن يكون لولاية سنغافورة وضع خاص في لندن مما لا يحول دون أن أُجري انتخابات من أجل 15 مقعداً.

وبعد ثلاثة أيام من إرسال مور لتقريره، أضيف بعد جديد للموقف. فقد نشب تمرد فجأة في بروناي في الثامن من شهر كانون الأول (ديسمبر). وقال الثائرون: إنهم الجيش الوطني لبورنيو الشمالية وزعموا أنهم يسيطرون على مدينة سيريا النفطية. وكان الرد البريطاني فورياً. فقد نقلت وحدتان من الغوركاس و 300 من القوات المحمولة جواً إلى بروناي ولحق بها كتيبتان من الجيش. وسرعان ما سيطرت هذه القوات على سيريا واستعادتها، وقتلت بعض المتمردين وأسرت 500 منهم. كما سيطرت قوات الشرطة على المجموعة الأولى من الثوار في مدينة بروناي. وتم إخماد التمرد في غضون 48 ساعة، وتمت السيطرة على سيريا، وبدأت عمليات التطهير. ثم أصدر باريسان بياناً قاصراً في اليوم الذي تلا الأخبار حول إخماد الثورة، معتبراً إياها انتفاضة شعبية ضد الاستعمار حظيت بتأييد جميع المعادين الحقيقيين للاستعمار، وصرح بأن حكومتي سنغافورة والاتحاد ستعتبر مدانتين إذا لم تجابها البريطانيين. فتأييد ثورة كهذه كان الخطأ الثاني الكبير من جانب ليم تشين سيونغ، فقد كان الأول

مقابلة زعيمهم أ.م. أزهري في سنغافورة قبل يومين من الثورة. إذ قام «الفرع المالاوي الخاص» تحسباً باعتقال 50 شخصاً معظمهم من الصينيين، بمن فيهم السكرتير التنظيمي «لبارتاي راكيات ـ مالايا»، واعتقلت سنغافورة ثلاثة أعضاء من بارتاي راكيات الموالي للباريسان. أردنا أن نتصرف بالتعاون مع المالاويين لإظهار التضامن.

بيد أن ثورة بروناي كان لها مضاعفات أوسع. ففي 11 كانون الأول أشار «التونكو» في البرلمان الاتحادي إلى الدعم المالي الذي تلقاه أزهري ليقوم بثورته، وأضاف أنه كان على علاقات وثيقة مع عدد من الأفراد في دول متاخمة لحدود ماليزيا. كان يُلمّح إلى إندونيسية، حيث أعلن وزير الدفاع الجنرال هاريس ناسويتون أن حكومته سوف تهتم أكثر بالمناطق المتاخمة لبورنيو الشمالية البريطانية بعد انتفاضة بروناي، وأن زعيم الحزب القومي قد عبر عن تأييده لحزب بارتاي راكيات البورني... وكان التأييد قد جاء من سكارنو بالذات.

كان البريطانيون يعون هذا الخطر. فالتعامل مع الأزهري أسهل كثيراً من التعامل مع من هم وراءه. وكان المفوض البريطاني في بروناي، السير دينيس وايت، مقتنعاً بأن هذه الثورات ما كانت لتحدث بدون مساعدة إندونيسية، وإلا لما كان قادتها هاجموا ليمبانغ (بقعة من الأرض تفصل بروناي إلى قسمين) لأنها جزء من مستعمرة ساراواك البريطانية، والتي يحرص البريطانيون عليها. كان مقتنعاً بأن الأندونيسيين يشجعونهم كونهم وسيلة لزعزعة ماليزيا. وخلافاً لما قالته الصحف من أنها ثورة تدعو للسخرية، أشار إلى أنها كانت ناجحة في البداية رغم أنها لم تستطع الوصول إلا إلى منتصف الطريق. وكان الثوار قد استولوا على بعض مخافر الشرطة واغتنموا أسلحة كثيرة، كما استولوا على محطة كهرباء وقطعوا التيار الكهربائي. كما أسروا أمين سر المفوض البريطاني، واعتقلوا المقيم البريطاني وزوجته مع عدد آخر من الأوروبيين. ولم ينقذ الموقف إلا الوصول السريع للقوات البريطانية وقوات جوركا.

بعد بضعة أيام من إفصاح «التونكو» عن شكوكه أكد سوكارنو هذه الشكوك بقوله: «ما حدث هناك (بورناي) لا يمكن فصله عن نضال «القوى الناهضة الجديدة». لقد وقفنا إلى جانب الشعب الذي يناضل». وبعد عدة أيام دعا في حديث مباشر من إذاعة جاكرتا الأندونيسيين إلى تأييد الثورة. وأولئك الذين لا يفعلون ذلك يخونون أنفسهم. فقد ولد الشعب الأندونيسي وسط النار وعانى من أجل استقلاله. ورد «التونكو» بأن الحكومة الأندونيسية وزعماءها يلقون الخطب الاستفزازية مع أن الثورة في بروناي قد همدت الآن. من الواضح أن هدفهم تحريض الشعب في أراضي بورنيو ضد حكوماتهم، وهذا ما سيؤدي إلى مآسٍ.

وتلا ذلك حرب كلامية مع استجابة الأندونيسيين مرة أخرى للكلام الخطابي لقائدهم ساحر الجماهير. كانت إثارة عواطف الجماهير عن طريق الخُطب ووسائل الإعلام للقيام بالتظاهرات جزءاً لا يتجزأ من استراتيجية سوركانو. ولقد أثبتت فعاليتها عندما طالبت جاكرتا باستعادة إيريان الغربية (غرب غينيا الجديدة)، ولكنه الآن يحتاج إلى قضية أخرى لجعل الجماهير طيعة ومنصرفة عن الوضع الاقتصادي السيء. في 23 كانون الأول تجمع بضعة آلاف من الناس في ساحة ميرديكا في جاكرتا لإحراق تمثالين، أحدهما لغربي والآخر لمالاوي يرتدي القبعة المالاوية ـ وهو التونكو. كان الأندونيسيون يشعلون حملة ضد ماليزيا، تأييداً مزعوماً لاستقلال بروناي، وساراواك وبورنيو الشمالية.

انضم ليم تشين سيونغ إلى هذا الكلام الأجوف قائلاً: إن حزبنا كان يسعى إلى إفساد العلاقات بين سنغافورة وإندونيسية عن طريق نشر دعايات كاذبة مدعياً أن جاكرتا هي التي تغذيها وكانت ضد الصينيين.

لم يقل أحد ذلك علانية من قبل،وهذا ما أفزع الناطقين بالصينية. كان الشعب يشعر أن ثمة قوى كبيرة تعمل، وأن خيار سنغافورة يقع ما بين الانضمام إلى ماليزيا والخضوع إلى «التونكو»، أو الانضمام إلى إندونيسية المعادية للصينيين تحت قيادة الحزب الشيوعي الاندونيسي، الشريك العقائدي للباريسان. والأكثر من ذلك أن الثورة قد أعطت «مجلس الأمن الداخلي» أرضية مشتركة للعمل.

30. بناء مرير لماليزيا

بعد خمسة أيام من الثورة في بروناي انعقد «مجلس الأمن الداخلي» في جلسة استثنائية بطلب من «التونكو». فالتطورات في بروناي جعلت من الضروري المبادرة لمواجهة الشيوعيين، وجاء بيان «الباريسان» بتأييد الثورة فرصة سانحة للعمل. قلت إنني أتفهم موقفه، ولكن من المهم أن تُعلن العملية على أنها دفاع عن جميع المناطق التي ستنضم إلى ماليزيا. كما لا يمكن أن أظهر بمظهر صنيعة لبريطانيا، ولكنني كنت مستعداً أن أكون مؤيداً للملايو.

نصحت بألا يعتقل د. لي تشوه، وأن يُمنح فرصة أخرى إذا لم يستمر في لعبة الشيوعيين. كما أنني لم أتحرك ضد النقابات الموالية للشيوعيين حتى لا يقال: إن سنغافورة لا تتمتع باستقلال ذاتي حقيقي في مجال العمل. وأكدت على أن يحرم حزب «راكيات ـ سنغافورة» من حماية القانون بحيث يتوجه ما تبقى من الشيوعيين إليه بدلاً من التوجه إلى حزب إينغ غوان الذي سيتخذ سياسة صينية شوفينية. وكان من المتفق عليه أن يُبعد جميع المعتقلين من أصل مالاوي إلى «الاتحاد» باستثناء ليم تشين سيونغ الذي سيبقى في سنغافورة رغم أنه مولود في جوهور. كان من المقرر أن تتم العملية في الساعات الأولى من 16 كانون الأول (ديسمبر). وأن يجتمع «مجلس الأمن الداخلي» في 15 ديسمبر في كوالا لامبور لاتخاذ العقوبة اللازمة.

ليلة 15 كانون الأول (ديسمبر) كانت أفواج الشرطة في مواقعها في سنغافورة وجوهور باهرو حيث تنضم إليهم قوات من «فرع الاتحاد الخاص» والشرطة الميدانية للمساعدة في العملية. وفي ذلك المساء في الساعة 6.30 تقريباً أخبرني كينغ سوي، الذي كان في كوالا لامبور منذ الصباح، على الهاتف أنه توصل إلى اتفاق حول نصين بيانيين، أحدهما يعده رزاق للبرلمان الاتحادي، والثاني كي يذاع

من قبلي عبر إذاعة سنغافورة، لتفسير الاعتقالات. من بين المعتقلين كان هناك تسعة من نوابنا في «الجمعية». قبل يوم من الجلسة أكد لي فيليب مور أن التونكو وافق على اعتقال اثنين مخربين في البرلمان الاتحادي كما طلبت. ولكن عندما وصلت إلى «المجلس الأمني الداخلي» في كوالا لامبور في الساعة العاشرة، قال لي كينغ سوي إن اسماعيل أخبره أن التونكو غير رأيه بشأن اعتقالهما. وعند سماعه ذلك اقترح سيلكيرك ـ ووافقته ـ أن نحثه جميعاً على ألا يعترض على القرار،وانطلقنا مع إسماعيل ومساعدينا إلى مقره،حيث كانت الأضواء مطفأة والبوابة الرئيسية مغلقة. فقد ذهب «التونكو» إلى النوم وظل نائماً ونحن نقرع بابه الأمامي. عدنا إلى سنغافورة بطائرة لسلاح الجو الملكي أقلتنا إلى كوالا لامبور. وقد ألغت الشرطة العملية.

ومن أجل إبعاد الملامة حول هذا عنا،كتبت إلى سيلكيرك لأبين موقفي:

«كل القضية كما أُظهرت في البيانين ستصبح بلا معنى عندما لا يتخذ أي إجراء ضد أعضاء بارزين في «الاتحاد» تعتبر مسؤوليتهم في تأييد ومباركة الانتفاضة المسلحة في مناطق بورنيو لا تقل عن مسؤولية المعتقلين في سنغافورة... كان ثمة مبرر في الأسبوع الماضي للعمل ضد منظمات الجبهة الشيوعية وزعمائها البارزين. وإذا اتخذ الإجراء ضد الشيوعيين بدم بارد فلن يكون هناك بديل بالنسبة إلينا إلا الذهاب إلى البريطانيين».

لم يكن ذلك نهاية القضية،فقد استمر زعماء الباريسان في إشعال النار. ففي رسائلهم للعام الجديد قال ليم تشين سيونغ: إن مالايا تتجه نحو إقامة دكتاتورية فاشية عسكرية، وقال د. لي سيوه تشوه: إن نضال بروناي سيستمر حتى يستعيد الشعب حريته. وقد علقوا آمامهم على الثورة وعلى معارضة اندونيسيا لخطة ماليزيا. وقد دفعت هذه البيانات التونكو للمطالبة بالعمل، فقد نفد صبره وأخبر البريطانيين أنه لن يعلن ماليزيا ما لم تسوَ الأمور. كان مور يلتقيني في عدة مناسبات ليحثني على التقدم وقال: إن ذلك هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى

الاندماج، كان لدي شكوكي، ولكن البريطانيين كانوا في وضع أفضل للحكم على نوايا «التونكو» الحقيقية،لذا بعد النقاش فيما بيننا استنتجت أننا لا نستطيع أن نتجاهل آراءه. وانطلقت العملية الأمنية التي تحمل الاسم الرمزي «المخزن البارد» في 2 شباط 1963.

شارك في الحملة حوالي 370 ضابط شرطة في سنغافورة و 133 ضابطاً آخر من الملاويين من قوة الشرطة الميدانية في جوهور. وكان «مجلس الأمن الداخلي» قد أقرّ الحملة في اجتماع عقده في كوالا لامبور في الليلة التي سبقت الحملة. (استبعدنا ستة من الباريسان من أعضاء الجمعية من القائمة بسبب اعتراض التونكو). وفي الساعة الثالثة صباحاً طافت 65 مجموعة إغارة في أنحاء سنغافورة لتعتقل 169 شخصاً. وجدوا 115 شخصاً فقط. أما الآخرون فقد تواروا عن الأنظار. كان من عادة الشيوعيين المقيمين الذين يعرفون أنهم عرضة للاعتقال أن يغيروا أماكن تواجدهم.

لم تحدث هذه المرة أعمال شغب أو سفك دماء، أو حظر تجول بعد الاعتقالات. كان كل شخص يعلم أن عملية التطهير قادمة وأن الشيوعيين هم المقصودون بها. كانت انتكاسة شديدة بالنسبة لهم. فقد أزاحت العملية أكثر كوادرهم خبرة من رجال الصف الأول،وكان بوسعهم أن يُحضّروا قياديين آخرين يحلون محلهم ممن يعملون سراً،هذا إذا أُتيح لهم الوقت لذلك. كنت أتابع الموضوع بتعلق في الأيام التالية لأرى ما إذا كانوا يستطيعون ملء الفراغات. ولكن لم يكن ثمة ما يدل على ذلك. كانوا غير راغبين أو غير قادرين على الزج بمزيد من الكوادر إلى العلن لإدارة الجبهة المتحدة.

وكان من بين المعتقلين سيدني وودهول الذي اعتبر في طليعة المنظمين الصلبين وجيمس بوثوتشيري، الذي جاء تصنيفه الثاني في قائمة قادة مدبري المؤامرة الشيوعية. وكان من بين عناصر الفئة الأولى جيمس فوتشياوسيان. وكان جيمس فو محرراً ومترجماً، وعضواً في عصبة العداء لبريطانيا، والذي عمل

لفترة من الوقت في صحيفة «سين بوا» الصينية الموالية للشيوعيين. وكانت مقالاته تتعاطف مع الطلاب المشاكسين والمتظاهرين كما كان متطوعاً لنشر ما يكتبه ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سيوان، وكلاهما كان من زملائه في المدرسة الصينية الثانوية. ولكن بعد أربعة أشهر أُطلق سراحه، فقد أظهرت التحقيقات أن علاقاته «بالمنظمة المعادية لبريطانيا» انقطعت في عام 1962. وقد انضم إلى إذاعة وتلفزة سنغافورة، وفي عام 1972 أصبح سكرتيري الصحفي، وبقي في هذا المنصب إلى أن استقال في عام 1993. كان مُجداً وفعالاً لأنه يمكن الاعتماد عليه كما أنه يتقن لغتين.

كان هناك قلة من أمثاله الذين انجذبوا إلى الحركة الشيوعية عندما كانوا شباباً، متأثرين بالمثالية والرغبة في تغيير المجتمع السيئ الذي يرونه حولهم. ولكن مع مرور الوقت كانوا يدركون الجانب التنظيمي القاسي للحزب الشيوعي المالاوي MCP. ـ وتتبين لهم حقيقة الاشتراكية الديمقراطية أو الديمقراطية الاشتراكية ـ أبطأ إصلاحية ولكنها أعدل وأقل وحشية. فبعضهم مثل شقيق ليم تشين سيونغ حصل على شهادته الجامعية أثناء الاعتقال. وعند إطلاق سراحه عمل في دائرة التسجيل وبعد ذلك أصبح محامياً ناجحاً.

بعد أن هدأت إثارة هذه الاعتقالات اقترح التونكو أن ينسحب حزبنا من انتخابات سيمباوانغ الفرعية وتشكيل تحالف جديد يضم عدة أحزاب، من بينها حزب تحالف سنغافورة SPA، والمنظمة الوطنية لاتحاد المالايوUMNO وغيرهما لمواجهة «الباريسان» بقوة. قلت له بأدب جم: هذا لن يتحقق، وانتصار «الباريسان» سيحيي الروح المعنوية للموالين للشيوعيين. وشعرت أنه اغتاظ من موقفي.

توصلت إلى استنتاج أن التونكو قد رفع من تطلعاته، وأنه أراد أن يجعل سنغافورة أسهل قيادة، وأن تتوفر لديه سطوة أكبر على الدولة وأن يمنح الاستقلال الذاتي لقضايا مثل التربية والعمل. وبات لدي اقتناع متزايد أنه بعد

أن تمت الاعتقالات وتلاشت وصاية الشيوعيين نسبياً، فإن «التونكو» سيتخذ خطاً أكثر صلابة تجاه الشروط المفصلة للاندماج عندما يفسر بعض بنود الدستور لصالحه. وكان نهجي أن أنذر البريطانيين بأنني لن أسير معه ما لم تحترم الشروط التي اتفقنا عليها والتي طرحت على شعب سنغافورة أثناء الاستفتاء. وإذا لم يحصل ذلك، فسأتخلى عنهم. فلن أكون طرفاً في خيانة كهذه، وإذا اقتضت الضرورة سأجري انتخابات عامة لحل المسألة. وهذا بالطبع من شأنه أن يضع خطة ماليزيا بكاملها في خطر إذا ما ربح الباريسان والشيوعيون.

في 12 شباط بعد عشرة أيام من الاعتقالات أعدت التأكيد على مخاوفي لسيلكيرك أن «الاتحاد»، بعدم فهمه لموقف الشيوعيين بشكل صحيح، قد يعتقد وهي أن «عملية المخزن البارد» قد أزالت الخطر، وأزالت معه عملية الاندماج. ففي مالايا كانت غالبية المقترعين من المالاويين والحزب الشيوعي المالاوي تعرف أنهم لا يستطيعون الحصول على السلطة عبر صناديق الاقتراع خلافاً لخصومهم في سنغافورة. ولما كان الإلحاح على الاندماج قد تلاشى من أذهان التونكو ووزرائه، ما زلت أواجه عدداً من الصعوبات مع كوالا لامبور، ولا سيما حول ترتيباتنا المالية والإشراف على الإذاعة. لقد حان وقت التشدد. وكما كتبت لسيلكيرك آنذاك «لا نبالغ في موقف سنغافورة إذا قلنا إنه ليس بالإمكان التهرب بأية طريقة من نصوص وشروط تم الاقتراع عليها شعبياً وصادق عليها الشعب في الاستفتاء في أواخر أيلول».

كان كل من مور وسيلكيرك إيجابيين. فقد كتب سيلكيرك إلى لندن في 13 شباط «أعتقد أنه ينبغي أن نأخذ لي على محمل الجد عندما يقول: إنه لن يوافق على أي انحراف عن شروط ورقة الاندماج البيضاء». ولكن مشكلتي في التعامل مع «التونكو» أنني كنت أريد الاندماج وهو لا يريده. فبيّنت نقاط ضعف سنغافورة بدونه من أجل أن أحث شعبنا على القبول به. اعتبر ذلك الحقيقة كاملة وأصبح في وضع عسير لأنه شعر أن لدينا كل شيء لنكسبه وكان لديه الكثير من المشكلات. وكانت النتيجة موقف مراهنة غير متعادل.

أرسل اثنين من كبار رجاله الصينيين، ممن يعادون حزبنا واللذين نظما «غرفة التجارة الصينية» والجماعة الصينية في مالايا من أجله، وهو الآن يريدهما أن يقوما بالشيء نفسه في سنغافورة. كان ت. هـ. تان رئيس تحرير سابق لصحيفة «سنغافورة ستاندارد» وقد انقلب إلى السياسة من أجل أن يكون زعيماً للمالاويين. وكان كهو كاي بوه مديراً سابقاً للفرع الخاص في سنغافورة. كان يريد اعتقالنا، ولا سيما أنا،وقد غادر إلى كوالا لامبور عندما فاز حزبنا في الانتخابات عام 1959. وقد عيّن التونكو وسط جماعتنا التجارية الصينية التي لم تكن معتادة على أن تدفع لترخيص أعمالهم كما كان الحال في مالايا.

كان الشيخان يعتقدان أن التحالف سوف يوفر لهما فرصة أفضل لكسب الانتخابات القادمة إذا سيطرت كوالا لامبور على أمورنا المالية، ولذا اتهماني علانية بأنني أريد أن أحتفظ بعوائد سنغافورة الفائضة أخبرا الصحافة أن عليّ جمع الضرائب في سنغافورة «وفق مبدأ أن الضرائب الاتحادية ينبغي أن تجمع من قبل دوائر اتحادية وسيعتبر العائد اتحادياً». بات يريد الآن 60% من عائدات سنغافورة الإجمالية، وكان عليّ أن أذكره بالرسائل المتبادلة التي أعطانا التونكو بموجبها تأكيداً بأن سنغافورة ستترك حرة فيما يتعلق بمواردها المالية. كان التونكو يريد أن يشرف على أمن سنغافورة وليس على اقتصادها. ولكن تان سيوسين ما كان ليستسلم، وناقش بعناد أن أي شيء أقل من ذلك سيكون غير كاف لدفع حصة سنغافورة من الإنفاق الاتحادي.

في سنوات أربعينياته المبكرة كان تان سيوسين مقتدراً حي الضمير نشيطاً وأميناً وبريئاً من أية شبهة فساد. كان والده داتوك سير تشينغ لوك تان شيخاً كبيراً من مستوطنات ستريتس وواحداً من أعرق عائلات مالاقا وأغناها،والرجل الذي سألته أن يخطب في يوم تولي حزبنا. ولكن الابن كان ضعيفاً شاحباً. كان يعرف أن كينغ سوي كان لديه تفكير أوسع ولكنه صمم على أن يكون له اليد الطولى بعد الاندماج، ولكن كينغ سوي وجد من المستحيل التفاوض معه. ولقد

علمت على أية حال أن التونكو هو الذي كان يقرر القضايا الكبيرة وما كنت أسمح لتان سيوسين أن يفرض نفسه علينا، على الأقل حتى نصبح جزءاً من ماليزيا، أو حتى حين نسيطر على الشؤون المالية لولايتنا. لقد ازدادت عداوته لكينغ سوي ولي من خلال تطلعه إلى تقسيم سنغافورة. كان يدعي البراءة علناً ويتكلف الابتسام إذا ما نجح.

رددت عليه بأجوبة قاسية، وعندما ضعف موقفه وخفّ، جاء سيد جعفر ألبار، وهو مالاوي عربي كان أميناً عاماً عضو في «المنظمة الوطنية لاتحاد مالايا» (UMNO) وخطيباً جماهيرياً مفوهاً جاء لنجدته. حذرني ألبار في الصحافة ألا أكشف عن أفكاري علانية إذا كنت أريد الوصول إلى تسوية. كما انضم رزاق إلى الدفاع عن تان سيوسين قائلاً: إن من الظلم أن يُظهر مسؤولاً عن مطالب الحكومة الاتحادية. وكان السؤال الذي طرحته على نفسي: أين كان موقف التونكو؟ في البداية ظننته محايداً،ولكن مع استمرار الضغط استنتجت أخيراً أنه كان يسمح لهما بدفعي إلى حدودي. كان تان صعباً بطبيعته واحتاج إلى التونكو كي يكبح جماحه ولكن التونكو لم يفعل.

اعتقدت آنذاك أن التونكو لم يخبر تان سيوسين أبداً أنه كان راغباً في أن يدع سنغافورة تسيطر سيطرة كاملة على مواردها المالية في مقابل أدنى حد من المشاركة في السياسة الاتحادية. كما أن تان لن يطالب بدوره بالسيطرة القصوى على مواردنا،لأنه كلما زادت السيطرة من جانب الحكومة في كوالا لامبور عليها أن تتوقع أن تشارك سنغافورة في سياسة ماليزيا من أجل أن تؤثر في سياساتها. كانت هذه مشكلة جوهرية لم تحل من قبل أو بعد أن انضمت سنغافورة إلى ماليزيا. ترك التونكو الأمر يتفاقم. وهذا ما كان في مصلحتي إلى حد ما. كان الباريسان قد وبخني بشدة لأنني بعت سنغافورة وقال: إن «اهتمامي المخجل» بموارد الولاية المالية لم يخدع الجمهور. ولكن مطالب تان سيوسين المتعجرفة،قد

أثارت قلق سنغافورة، وكانت إجاباتي التي أظهرت أنني لن أكون خصماً مريحا كثيراً لهم. وفيما كان التراشق مستمراً حتى شهر تموز، فقد كسبوا الكثير من الدعم مني. كان الشعب يريدني أن أدافع عن سنغافورة.

في منتصف حزيران تقدمت كولا لامبور إلى سنغافورة وبروناي بشروطها الأخيرة بشأن ماليزيا،حيث «لن يكون بعد ذلك مفاوضات». وقد تضمنت هذه الشروط اقتراحاً بسوق حرة، وتقديم ضمانة مقدارها 50 مليون دولار من سنغافورة لتطوير مناطق بورنيو. قلت: إن سنغافورة فقيرة ولا تستطيع أن تقوم بدور الكريم المعطاء وأن تدفع 50 مليون دولار ثمناً لدخولها الاتحاد. أما بشأن السوق المشتركة فإن الحكومة الاتحادية كانت قد أعلنت في شهر تشرين الأول 1962 أن فريقاً من خبراء «البنك الدولي» سوف يدرس مضامينها بإمعان، وفقاً لقرار اتخذ في لندن في شهر تموز من تلك السنة. وهذا ما أنعش الآمال بالاستفادة من المنافسة المهنية. ولكن على الرغم من أن توصيات البنك الدولي قد سُلمت منذ ذلك الحين إلى كينغ سوي وتان سيوي سين، ولم يتم الاتفاق على بنود أو شروط محددة لتنفيذها.

ثمة مسائل كبرى أخرى. أحدها طلبي، بعد أن تقوم دولة ماليزيا، وأن تُفوض بسلطة لاعتقال رجال العصابات السريين بدون محاكمة بموجب أحكام القانون الجنائي المؤقت لدينا إلى سنغافورة. أعتقد أنه من الخطورة بمكان ترك هذا في أيدي الحكومة الاتحادية إذا كنا نريد أن نوقف السفاحين من أن يعيثوا فساداً في الحياة السياسية للدولة. كان التونكو رافضاً الموافقة على ذلك، وكذلك بدا أن رزاق ساندە. كما أرادا أن يُغيرا الدستور لحصر حركة مواطنينا داخل ماليزيا من أجل إبعاد شيوعيي سنغافورة كونهم مواطنين سنغافوريين أصبحوا الآن مواطنين ماليزيين. في هذه الحالة أنا أُصر على التبادلية: فحكومة الولاية يجب أن يكون لها الحق ذاته في منع مواطنين ماليزيين من الملايو من المجيء، إلى سنغافورة.

كانت المسألة الأخرى اقتراحي بإجراء تعديل في دستور الدولة يقضي بأن أي عضو «جمعية» يُنتخب ثم يستقيل بعد ذلك أو يُطرد من الحزب يجب أن يُخلي مقعده في «الجمعية» وأن يخوض انتخابات جانبية. وكان الماليزيون الأشد رفضاً لهذا الاقتراح.

استمرت المناقشات طويلاً دون الوصول إلى اتفاق، إلى أن دعا دانكان سانديز إلى اجتماع نهائي في لندن لحل القضايا الكبيرة بصورة نهائية. لم يكن التونكو راضياً عني ورفض الالتحاق بالمؤتمر ولكنه أرسل رزاق مكانه ليمثله ويفاوضني وإعلامه عندما يتم التوصل إلى تسوية. وعندئذ سيحضر من أجل احتفال التوقيع. في تلك الأثناء كان صبر سانديز قد نفد. وجاء في مذكرة «مكتب علاقات الكومونولث» أنه عقد اجتماعاً قبل الشروع بالمناوشات لاتخاذ الإجراءات اللازمة إذا ما انتهت المفاوضات إلى طريق مسدود كما يُنتظر. وفي تلك الحالة ثمة ثلاث إجراءات يمكن أن تتخذ:

«1 ـ إجبار سنغافورة على الانضمام إلى ماليزيا بالقوة 2 ـ التخلي عن مشروع ماليزيا 3 ـ السماح لبورنيو وساراواك بالانضمام إلى ماليزيا مصغرة، مع ترك الباب مفتوحاً لعضوية سنغافورة لاحقاً. هناك دليل ضعيف على أن التونكو ربما يفكر في تطوير علاقات ودية أكثر مع إندونيسية، لأن هذا سيساعده في مواجهة النفوذ الصيني في سنغافورة أكثر من إقامة ماليزيا».

وصلت أنا وكينغ سوي إلى لندن وشرعنا الآن بما يسمى «محادثات عن قرب». بعبارة أخرى لم نلتق أولاً برزاق وتان سيوسين. كانا يقيمان في فندق منفصل عنا، وكان البريطانيون يتباحثون مع كل طرف على حدة لتضييق الخلافات بيننا. ثم تناولت طعام الغداء مع رزاق، وقابله كينغ سوي في اليوم التالي مباشرة. وأخيراً،جمعنا سانديز في لقاء ماراثوني حول الطاولة المستديرة

استمر طوال الليل. كان هذا أسلوبه في التعامل مع الفرقاء العنيدين، إذ يستخلص تنازلات من كل طرف حتى يصلوا أخيراً إلى اتفاق. وقد فعل ذلك من قبل مع وفد سنغافورة حيث يقدم مشروبات قوية وقليلاً من الطعام كي يرهقنا.

في تلك الليلة جلبنا معنا شطائر وزجاجات الجعة،متوقعين أن يتكرر ذلك الأسلوب، وكنا نلتهمها في فترات الراحة في غرفة منفصلة من أجل مداولات بين أعضاء وفدنا. وعندما كان ينفد طعامنا كان أمين سرنا الموثوق وونغ تشوي سين يهتف إلى تشو في فندق بارك لين كي يطلب مزيداً من الشطائر من غرفة الخدمات في الفندق. واستمرينا في ذلك إلى أن أخبرتنا تشو أنه لم يعد في غرفة خدمات الفندق المزيد من الشطائر. ومن أجل أن نبقى واعين كنا نخفف من مشروب ساندي القوي. هذا الاحتراس بالإضافة إلى الطعام الذي جلبناه حافظا على وعينا طوال تلك الليلة المرهقة.

أخيراً وقرب الفجر،تم الاتفاق على أن ندفع 40% من «ضرائبنا الوطنية». أو 28% من مجمل وارداتنا إلى الحكومة الاتحادية لمواجهة النفقات الدفاعية المتزايدة الضرورية «لمواجهة» إندونيسية. وبدلاً من 50 مليون دولار تُقَدَّمُ هدية إلى مناطق بورنيو،سيكون هناك قرض بقيمة /150/ مليون دولار، منها /100/ مليون دولار معفاة من الفوائد لمدة خمس سنوات. وسيجري تنفيذ السوق المشتركة على مدى 12 عاماً. وستظل سنغافورة معفاة من الضرائب بالنسبة لأهم السلع في تجارة توزيع السلع. وسوف تصدر لائحة خاصة تساوي بين التعريفات بالتدريج خلال هذه الفترة. ولكن لم تكن بروناي غنية بالنفط كي تغري التونكو بالصفقة. وكان السلطان العجوز الحذر غير راض عن التقسيم المقترح لعائدات النفط بينهم، وما كان أي ضغط أو تهديد من جانب سانديز ليحركه عن موقفه. رأيت السلطان في دارته عدة مرات في مناسبات مختلفة لتبادل الرأي حول تقدم مفاوضاتنا. كنت أفهم مخاوفه وتحفظاته. ولم أحاول إقناعه بما يخالف رغباته التي كانت تومئ إليه أن يظل تحت حماية البريطانيين، واثقاً من أنهم لن يتخلوا عنه من أجل الأندونيسيين.

وظل التونكو ينتظر قبل يومين من التوقيع، الذي كان مقرراً في 8 تموز (يوليو). ولكن الاتفاقية لم تنجز قبل أن أجعله يوافق أولاً على عدد من الشروط كانت موضوعاً للأخذ والعطاء والجدل. فقد سلّم بأن تكون قوات الشرطة التي تعتقل مجرمي المجتمع السري تابعة لحكومة سنغافورة،وعلى إحداث تغيير في الدستور يشترط على عضو الجمعية الذي ينتمي ويمثل حزباً معيناً، ويترك حزبه الذي ترشح باسمه أن يشغل مكانه. بالإضافة إلى ذلك أن يكون 50% من أجور العمال العاملين في مشروعات بورنيو، من قرض الـ 15.2 مليون دولار، من سنغافورة.

ولما كانت ذاكرة التونكو ضعيفة سجلت هذه النقاط على خلف ظرف مستعمل وجدته على طاولة جانبية في غرفة الجلوس في فندقه، مكتوب عليها «فندق ريتز» وجعلته يوقع عليها. الدقيقة الأخيرة في الجادلة، ومن ثم تناول العشاء مع ماكميلان، وقد أخّر الاحتفال في «مالبورو هاوس» إلى ساعة متأخرة من يوم 8 تموز. وإلى أن تم إلقاء كلمات ماكميلان، والتونكو، وكلمتي، وكلمات ممثلي ساراواك وبورنيو الشمالية، لم يجر توقيع الاتفاقية إلا بعد منتصف الليل، وبالتالي فهي لم توقع يوم 8 تموز، بل يوم 9 من الشهر المذكور ـ وهو يوم غير ميمون في روزنامة التونكو.

كان البريطانيون ـ مور، وسيلكيرك،وسانديز ـ في جانبي حقاً. كان بأيديهم أوراق كثيرة للضغط، في حين أنني لم أكن أملك شيئاً. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً سوى أن أهدد برفع يدي عن هذه المهمة وترك الشيوعيين يسيطرون على السلطة. في تلك الأشهر الستة كتبت الكثير من الرسائل إلى سيلكيريك في سنغافورة، وإلى سانديز في لندن، أحثهما على العمل. وبدون مساعدتهما ما كان بوسعي أن أحقق شعوري. ومع هذا كنت أتنبأ بوجود كثير من المتاعب عند وضع الدستور قبل «يوم ماليزيا» في 31 آب (أغسطس). في النهاية كان علي أن أقبل

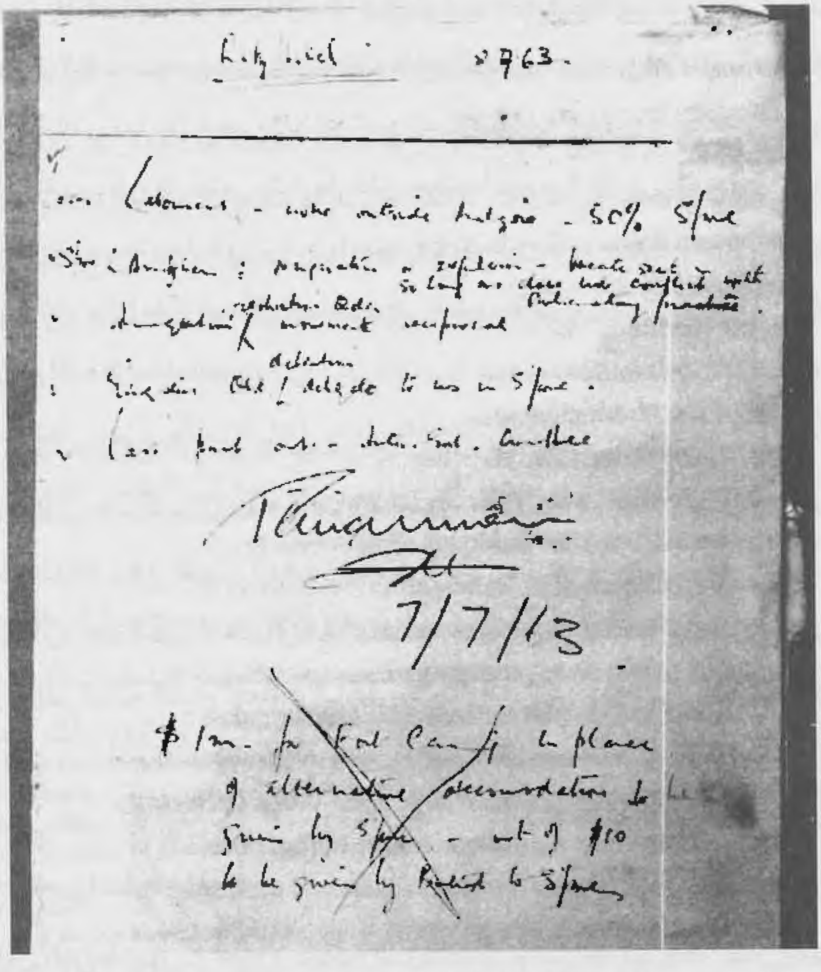

1963.

50% S/pore

7/7/63

$1m. for Fort Canning in place of alternative accommodation to be given by S/pore - out of $10 to be given by British to S/pore

نقاطي المنسوجة على خلفية ظرف التي وافق عليها «التونكو» ووقع على ذلك في 7 تموز 1963

القرض: العمال ـ عندما يكون خارج ماليزيا ـ 50% سينغافورة

أعضاء الجمعية في سينغافورة: بالاستقالة أو الطرد ـ

مقعد شاغر طالما أنه لا يتعارض مع الممارسة البرلمانية.

أمر بالهجرة أو فرض القيد، حركة تبادلية

مصلحة السجون لرجال العصابات، ممثل لنا في سينغافورة

ـ الجزء الأخير خارجاً ـ لجنة حكومية داخلية

بصيغة مرنة بشأن السوق المشتركة، والقوات التي ستعتقل المجرمين، بحيث يتم التوافق على ذلك من خلال رسائل متبادلة يسهل إلغاؤها أو تجميدها. وكان علينا أن ننضم إلى ماليزيا بدون هذه الضمانات.

وكما توقعت لم تنقص مشاكلي في سنغافورة مع توقيع الاتفاقية. فقد ظل الباريسان صعب القيادة، وأصبح ليم يوهوك وحزب «تحالف شعب سنغافورة» (SPA) أكثر جرأة. ليم يوهوك وقد ساعد الباريسان في معارضة «وثيقة الانتخابات الاتحادية» في 24 تموز لأنه أراد تأخير انتخابات مقاعد سنغافورة الخمسة عشر في المجلس النيابي الاتحادي إلى ما بعد أن يحكم «التونكو» سيطرته على الشرطة. وحتى اقتراح تبني وتأييد «اتفاقية ماليزيا»، امتنع SPA عن التصويت الذي كان من شأنه أن يزيد الأغلبية بمقدار 7 أصوات وبذا يظهر التضامن في قضية وطنية حيوية.

31. المد يتحول

كانت الأشهر العشرة من كانون الثاني 1962 حتى أيلول 1963 من أكثر الأشهر إثارة للقلق في حياتي. بالإضافة إلى المناوشات المستمرة مع تان سيو سين، ووزراء التونكو في كولا لامبور، ومع ليم يوهوك وحزبه والباريسان في سنغافورة، كان الخطر يتزايد من جانب إندونيسية. وكان علي أن أحشد التأييد للانتخابات القادمة التي لا يمكن تأجيلها إلى ما بعد الاندماج كما ارتأيت. كان الشيوعيون قد قصموا فروعنا عندما انفصلوا عنا، وقضوا على «اتحاد الشعب» و«كتائب العمل». ومن أجل إعادة بناء حزبنا بشكل قوي يحتاج الأمر إلى سنتين على الأقل، لذا قررت أنا وكينغ سوي استراتيجية بسيطة اعتقدنا أنها يمكن أن تؤدي إلى انتعاش سريع لقواعدنا.

حصلنا من جهاز «تسجيل الجمعيات» على أسماء وعناوين مديري ومؤسسي منظمات، واتحادات صينية وجمعيات موالية لغرفة التجارة الصينية وفروعها الإقليمية ومن جمعيات رياضية ومكتبات وأندية في القاعدة البحرية. استبعدنا المنظمات الموالية للشيوعيين مثل اتحادات اليافعين في المدارس الصينية والجمعيات الموسيقية الصينية.

وما إن انتهى الاستفتاء حتى بدأت سلسلة من الزيارات لدوائر انتخابية مُركزاً بشكل أساسي على تلك التي جمعت أكثر الأوراق البيضاء ـ المناطق الريفية (آنذاك) مثل جورونغ وثومسون، وكامبونغ كيمبانغان وجالان كايو. بكنت دأت بزيارة تستمر يوماً كاملاً لدائرة انتخابية واحدة كل شهر، ثم زدتها إلى زيارة واحدة كل أسبوعين، ثم بزيارة كل أسبوع، ومع اقتراب عيد ماليزيا زدتها إلى جولتين أو ثلاث أو أربع جولات في الأسبوع. وأخيراً،ولكي أكمل الدوائر الإحدى والخمسين جميعها، كنت أقوم بزيارة كل يوم، وأحياناً كنت أزور دائرتين أو ثلاث دوائر ريفية في يوم واحد حتى وقت متأخر من الليل.

قبل الزيارات كان موظفون حكوميون يصحبهم عضو جمعية في الدائرة الانتخابية (أو إذا كانت دائرة انتخابية معارضة يصحبهم أعضاء الجمعية من حزبنا أو من آخرين) يعملون على حشد أصحاب المحلات، وزعماء جمعيات وزعماء اتحادات محلية مختلفة ومساعدتهم على انتقاء برنامج. وكانوا يرحبون بي في الدائرة لمناقشة مشكلاتهم واحتياجاتهم معي. كنت أتنقل بسيارة «لاندروفر» مكشوفة، ومكبر الصوت في يدي ومضخمات الصوت مثبتة في العربة، وأتحدث إلى الجماهير التي كانت تتجمع وتنتظرني في محطات توقفي المقررة. وقد نجحت خطتنا. ولكن ما إن خسر الشيوعيين الاستفتاء وتأكد للناس أن كل ما استطاعوا فعله هو تقديم 25% من الأوراق البيضاء، حتى شعر كل فرد بالارتياح.

كان أصحاب المحلات والزعماء الريفيون يحيونني بأكاليل الزهور، أو الأزهار الورقية، إذا كانوا فقراء، أما الممثلون الصينيون فكانوا يقدمون إلي أعلاماً من الحرير أو المخمل تحمل أسماء المانحين مزينة بعبارات مكتوبة بلون ذهبي تعبيراً عن تضامنهم معنا. جمعت عشرات من هذه الأعلام التي كانت ترفرف حول مكان الاجتماع الأخير حيث كان يقدم لي الغداء في مكان مكشوف. وكان الطعام يقدم على موائد مستديرة يتراوح عددها بين 20 ـ 50 مائدة يقدم ثمنه من أصحاب المحلات لتكريم زعماء الدائرة الانتخابية وتكريمي.

فقد حققت الجولات نجاحاً كبيراً. وعندما انتقدت المطالب غير المعقولة لتان سيو ورزاق أيدني الناس. كانت الجماهير تزداد تعداداً وحرارة مع كل زيادة. كان الزعماء تواقين للمشاركة في الترحيب بي وتأييد حكومة حزبنا (PAP). وتابع الرسميون معي وهم يستمعون إلى مطالب الشعب من أجل طرق مرصوفة، وطاقة، وإضاءة الشوارع، ومواقف،وعيادات ومدارس ومراكز اجتماعية. وكانوا يعالجون الاحتياجات الأسهل بسرعة، أما المطالب الأصعب فقد كنت أعد بدراستها وتلبيتها إذا كانت عملية. كانت المراكز الاجتماعية مفيدة لنشر معلومات

تدحض الدعاية الشيوعية، وقد بدأنا ببنائها ـ أبنية خشبية بسيطة ذات أسقف من الأسبيستوس وأرضية من الأسمنت،مجهزة جميعها بمصابيح كهربائية ومراوح سقف،وطاولة لكرة المضرب ومائدة وجهاز تلفزيون أبيض وأسود.

كانت لجان الاستقبال تنتظرني لمدة ساعات إذا ما تأخرت على الطريق. وكانت النسوة العجائز والفتيات يقدمن إلي شكاويهن مُطالبات إياي بحل متاعبهن الشخصية. وكان الهنود يأخذونني إلى معابدهم، وينثرون الأزهار في طريقي ويضعون علامة حمراء على جبيني، وهي علامة احترام لضيف رفيع المقام. كذلك كان الصينيون يأخذونني إلى معابدهم أيضاً ويحيونني عند المدخل برقصات الأسد وصوت الطبول والمزامير ترحيباً بقدومي. كان من المفيد بالنسبة إلى تابعيهم أن يروا رئيس الوزراء يُشرف أماكن عبادتهم. أما المالاويين فكانوا يحيونني بأحزمة «الكومبانغ»، إذ يقوم اثنا عشر أو أربعة عشر رجلاً مع الأبواق والطبول، أما الأكبر سناً فكانوا يضعون «الطنجق» على رأسي.

كان مؤيدو «باريسان» يصطفون في بعض الشوارع كي يتصايحوا ضدي. وفيما كنت أمر بجانب المدرسة الصينية الثانوية كان قرابة 40 ـ 50 طالباً، وقد غطوا النصف السفلي من وجوههم، يعلقون الإعلانات التي تسيء إلي وتتهمني بأنني خائن لشعبي. وفي «وهامبوا» في بعد ظهر أحد الأيام حاول مشاكسون تابعون للباريسان أن يدفعوني في مصرف موسمي للمياه، ولكن ضابط الأمن الذي يرافقني سارع إلى التدخل للتعامل معهم مما سمح لي أن أقفز بأمان. وكان أعضاء النقابات الموالية للباريسان يهتفون ضدي من الطبقات العليا لمواقعهم، وذات ليلة في «هونغ ليم» تعرضوا لي بالتهديدات ولوحوا بشعارات الاحتجاج من على سقف إحدى الشقق. وعندما طلبت من مصور تلفزيوني أن يسلط أضواءه عليهم ويصورهم ملتبسين انحرفوا وابتعدوا عن الأنظار. دعوتهم إلى الهبوط والكشف عن أنفسهم ومناقشة قضيتهم معي. ولكن رفضوا ذلك، وهذا ما مكنني أن أقول للآلاف من حولي: إن الشيوعيين حين تجابههم «الجماهير» في العلن فإنهم يطفئون أنوارهم ويتسللون إلى الاختفاء في الظلام.

كانت الجولات مجهدة جسدياً، وتستنزف طاقتي العصبية. بحيث كنت أنطلق في الساعة الثامنة من صباح الأحد أو بعد الظهر مباشرة في كل يوم من أيام الأسبوع. كانت فترات ما بعد الظهر حارة دوماً، وكنت ألقي خطباً قصيرة تتراوح مدتها من 10 ـ 15 دقيقة عند كل توقف، يمكن أن تمتد إلى ما بين 30 دقيقة وساعة كل واحدة منها بلغة المالايو، والإنكليزية ولغة الهوكين أو الماندرين. كنت أعرق بشدة ولذا كنت أجلب معي ملابس داخلية وقمصاناً وأتسلل بهدوء إلى مكان خفي، من وقت إلى آخر كي أبدل ملابسي بملابس جافة، وكنت أحمل معي منشفة صغيرة لأمسح العرق عن وجهي. كما كنت أعود إلى البيت ويدي اليمين مصابة برضّ وألم من كثرة استخدام المحارم الورقية. كما كان يصاب ظهري برضوض وزرقة في اللون بسبب ارتطامه بالحاجز المعدني لسيارة «اللاندروفر». تعلمت أن أستخدم يدي اليسرى كي أريح يدي اليمنى، وأن أرفع أصابعي إلى أعلى كي أحميها من الرضوض كما كنت أضع بعض المناشف حول الحواجز كي تمص الصدمات.

ولكنني كنت ما أزال شاباً دون الأربعين. وكان الأدرينالين يتصاعد عندي،وكنت أحس بالنشوة والتجاوب الحار من جانب الجمهور. وخطبي التي كنت ألقيها بلغة الهوكين والماندرين قد أقنعت الصينيين أنني لم أكن صنيعة للبريطانيين، وأنني كنت أحارب من أجل مستقبلهم. وناصرني المالاويون لأنهم وجدوني أحارب الشيوعيين الصينيين. أما الهنود، وهم أقلية صغيرة، كانوا خائفين ولكنهم استعادوا الثقة عندما وجدوني مع كل الأعراق، وأتحدث بلغة المالايا والإنكليزية معهم، بل وببعض كلمات التحية القليلة بلغة التاميل.

انتشرت الأخبار حول نجاح كل جولة أكثر من سابقتها بسرعة في الأحاديث التي تدور في المقاهي وعبر الصحافة والتلفزة. وقد ولدت أرضية من الحماسة بين الناس ولا سيما عند قادة المجتمع. أصبحت مثل ممثل سياسي مشهور. فكثير من أصحاب المحلات كانوا ضد المشاكسين الشيوعيين الشبان، ولكنهم

وعندما أكون على المنصة لم يكونوا يحملون اللافتات والأعلام فقط، ولكنهم كانوا يحملون بعض الهدايا التذكارية ويحملون بطاقات حمراء تحمل أسماءهم وعناوينهم يتمنون فيها الخير لي. إحدى الهدايا التذكارية كانت نقشاً عاجياً من سفينة صينية إمبراطورية تقف في قاعدة تحت غطاء زجاجي. كان أثمن أثر فني لدى مالكها. الذي كان صاحب حانوت في حوالي الخمسين من العمر،وقد تمنى لي السعادة والحياة الطويلة بلغة الهوكين. وما تزال هذه التحفة تتصدر غرفة جلوسي، هدية أقدرها غالياً لأنها تذكرني بتلك اللحظة العظيمة عندما كنت أشعر بتعاطف الشعب معي كوني زعيمهم. إن الإيمان الذي وجدته عند أصحاب الحوانيت الصغيرة هؤلاء قد حمسني على متابعة النضال.

وقد حفز نجاح الجولات ليم يوهوك على السؤال في «الجمعية» عن تكاليفها بالنسبة للدولة. كنت قادراً على الإجابة بأنه لم يجر استخدام أموال عامة بطريقة سيئة، إذ لم ينفق دولار واحد على الاحتفالات والشراب المنعش ـ كل ما دفع جاء من الناس أنفسهم. فمنظموا الحملات يستحقون الثقة على هذا وكانوا فخورين بأنهم حصلوا على تأييد شعبي، لوجود زعماء محليين سعداء بأن يروا أنفسهم على شاشة التلفزة يحيونني أو يجلسون معي على منصة أو مائدة للطعام. كنت أشعر أن المد قد تحول.

الموظفون الذين رافقوني في هذه الجولات أظهروا روحاً جماعية قوية. و بعد خوض عدة جولات، والاستماع إلى شروحي وتبياني لكيفية تحسين أوضاع السنغافوريين، بدأوا يصفون إلى جانبي. وفي الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني 1962 واجهنا جماهير غير مسؤولة وأحياناً عدوانية، وكانوا يشعرون أن الحملة حملتهم كما هي حملتي. كانوا يختلفون عن سائقي المالاوي الذي يقود سيارة لاندروفر، والذي كان عليه أن يجلس ويصغي إلى المئات من خطبي بلغات لم يكن يفهمها، ويبتهج في كل مرة كنت أتحدث فيها بالمالاوية إلى موظفين يعملون في الخدمة البيطرية، ودائرة الأشغال العامة، الذين يمدوننا بالماء والكهرباء، وطاقم إذاعة وتلفزيون سنغافورة.

جميعهم كانوا يهتفون لي بمن في ذلك الشخصية القوية جودي بلود ورث في التلفزة الصينية. والتي اكتسبت من زوجها دينيس بلود ورث الذي كان مراسلاً لصحيفة «لندن أوبزرفر» من سنغافورة والذي أشادت به في أحد كتبها:

«نخوض في ظلام دامس أحياناً، ثم تُشعل الأضواء فجأة. ويهتف الجمهور وسط الجلبة ويشق طريقه وسطهم، ويضحك على رقصات الأسود من حوله غير عابئ بالألعاب النارية، دون أن يشعر بالخوف ـ لقد احترق بسبب تلك الألعاب ولكنه لم يبالِ. كنا نشعر حقاً أننا فريق، أشبه بوحدة عسكرية. كنا فخورين به. إنك لا تستطيع إلا أن تفخر به».

كان أهم شخص بالنسبة إلى نجاحي المذيع الرفيع سيا تشينغ تيت الذي كان يتكلم لغة الهوكين باقتدار. أصبح أستاذي المتطوع بعد أن لاحظ الأخطاء الكبيرة التي كنت أرتكبها في خطبي، وكان يجلس معي في اليوم التالي ليبين لي أخطائي ويعلمني التعبيرات الصحيحة كما كان يفعل الآخرون قبله. ولم تكن هذه الطريقة الوحيدة التي حسّن بها أدائي،فقد عودني على استعمال الجينسينغ الذي كنت أشتريه من صيدلية صينية قريبة لمعالجة حنجرتي بعد ما كنت أعاني من آلام بسبب خطبي المتعددة.

كان وقع خطبي يرتقي باستمرار عبر التلفزة. عندما كنت في لندن في شهر أيلول عام 1962 رتب لي أمين سري الصحفي، أليكس جوزي، لقاء مع هيو بورنيت من إذاعة BBC لإجراء مقابلة معي ثم مراجعة أدائي على الشاشة. كنت قد شاهدت قبل ذلك برنامجاً ظهرت به، وقد ذهلت للصورة الموحشة التي ظهرت بها. أكد لي بورنيت أنني كنت طبيعياً. فكل ما أحتاجه بعض النصائح: انظر إلى الكاميرة دوماً، لا تغطِ أبداً فمك أو أنفك بيدك وأنت تتحدث، اتجه بنظرك إلى الأمام ولا تمل إلى الخلف في كرسيك. وكانت نصيحته الأساسية: «كن طبيعياً، ومباشراً، وتصرف على طبيعتك». ظهر التلفزيون في سنغافورة في شباط 1963 وأثبت أنه سلاح فعال ولا سيما عندما انقلب على الشيوعيين.

زيارة إلى الجزر الشمالية عام 1963 كانت تعني بل القدمين. لم يكن ثمة أرصفة للقوارب، ليعقوب بن محمد، عضو البرلمان فيما بعد عن الجزر الجنوبية، هو الثالث على يساري يرتدي نظارتين ولا يضع قبعة

حشود حارة تستقبلني في غيلانغ سيراي (منطقة ملاوية) في 9 أيلول 1963. السيد رحمات يوساك تولى قيادة السيارة «اللاندروفر» هذه في كل بقعة من سنغافورة (1962 ـ 1963) بعد الاستماع إلى مئات الخطب من قبلي، أصبح صديقاً لي ومؤيداً قوياً.

فأساليبهم كانت أساليب خطب جماهيرية حيث يتكلم المتحدث بصوت عال أو يكشر أو يبالغ في حركاته حتى يراه الجمهور البعيد. كان خطباؤهم يبدون قبيحين ومزعجين. لم يكن لديهم خبير مثل هيو بورنيت كي ينصحهم، وبالتالي فقد ألحقوا بأنفسهم ضرراً كبيراً.

فيما كنت مشغولاً بجمع التأييد الشعبي كان ثمة تطورات متعلقة في المنطقة. ففي 20 كانون الثاني 1963 أعلن د.سوباندريو أن المجابهة ضد ماليزيا باتت ضرورية لأن المالايو جعلت نفسها أداة للاستعمار والإمبريالية.

وبعد عدة أيام، أدان الرئيس ماكا باغال، رئيس الفيلبين دولة ماليزيا بوصفها قوة استعمارية جديدة، وبعد ذلك بعشرة أيام أعلم سوباندريو المراسلين الصحفيين الأجانب أن أعمال ماليزيا الاستعمارية إذا امتدت إلى مناطق بورنيو، فسيكون هناك مجابهة فعلية. وفي اليوم التالي أعلن الرئيس جون كينيدي عن تأييده الكامل لماليزيا «بوصفها الأمل الأفضل للأمن في المنطقة»، ولكن سوكارنو استمر في تصعيد خطابه العدواني. وفي الأول من أيار وجه كل اهتمامه إلى بورنيو، وأصر على أنها يجب أن تحصل على الاستقلال أولاً، وأدان ماليزيا مرة أخرى بوصفها استعماراً بشكل جديد.

رد التونكو على هذه الهجمات باستدعاء سفيره من جاكرتا. وأعلنت المالايو استنفاراً فورياً لجيشها وبحريّتها وقواتها الجوية. في 3 أيار اتبع قائد القوات البريطانية المسؤول عن الشرق الأقصى ذلك بأن لديه من القوات والرجال والطائرات لمواجهة أي أمر طارئ في بورنيو. كان الوضع ينذر بالسوء على نحو متصاعد.

في 31 أيار (مايو) دعا رئيس وزراء اليابان التونكو والرئيس سوكارنو للقاء به في طوكيو. وانتهى اجتماع القمة هذا بالتأكيد ثانية على أن «معاهدة الصداقة» الموقعة بين البلدين في عام 1959 تلزمهما بحل الخلافات بحسن نية وجوار. شعر

التونكو بالارتياح، ولكن سوكارنو شعر بأن التونكو كان خائفاً منه. وقد شعرت بنفسي بهذا الخوف من خلال نبرة صوته عندما وصف هذا اللقاء لرزاق، وإسماعيل، وكينغ سوي، ولي بعد فترة قصيرة من عودته من طوكيو.

أدت قمة طوكيو إلى لقاء وزراء الخارجية في مانيلا حيث خُوّل رزاق بالقول إن رغبات شعب ماليزيا مستقبلاً سوف يتم التشاور حولها مرة أخرى. ولكن بعد أن وقع التونكو «اتفاقية ماليزيا» في شهر تموز، أدان سوكارنو هذه الاتفاقية واتهمه بخرق اتفاق مانيلا. عمل ماكابا غال على جمع الاثنين في لقاء آخر في مانيلا، وكانت النتيجة أن وافق التونكو في 6 آب (أغسطس) على تأجيل تاريخ تأسيس ماليزيا من أجل إعطاء وقت للجنة الاستكشاف المفوضة من الأمم المتحدة للتأكد ما إذا كان شعب بورنيو يريد الاتحاد.

وجد البريطانيون أنفسهم ملزمين بالموافقة على أن إندونيسية، والفيلبين، وبريطانيا، ينبغي أن يُسمّوا مراقبين لمتابعة عمل هذه اللجنة، ولكن سانديز كان غاضباً ومنفعلاً. وضغط على التونكو لتحديد يوم معين لماليزيا، من أجل وضع حد لمزيد من المضاعفات. واخترت عدداً من الشباب الملاويين من بروناي وبعض الصينيين الموالين للشيوعيين من ساراواك من أجل إجراء تدريبات عسكرية في الجانب الأندونيسي، ولم يكن يريد «للمراقبين» الأندونيسيين أن يتجولوا في مناطق بورنيو في الوقت الذي تتخذ فيه جاكرتا موقف المجابهة والتخريب.

كان الاجتماع شديد التوتر. وقد كتب سانديز في تقريره في 27 آب:

«كان (التونكو) في حالة عصبية شديدة وانتهى إلى القول: «لقد وصلت إلى نهاية الأمد، ولا أريد أن أناقش أي شيء مع أي أحد بعد ذلك... لقد تأكد أن ماليزيا ما هي إلا سمكة صغيرة جداً بالمقارنة مع إندونيسية وهو قلق على آفاق التعايش مع جار قوي وعدواني له يطمع في أراضيه»».

ولكن سانديز كان رجلاً عنيداً وجعل التونكو يوافق على الإعلان بأنه مهما حدث فسوف يعلن عن قيام دولة ماليزيا في 16 أيلول.

لم يكن التونكو مرتاحاً البتة تجاه جيرانه الأندونيسيين. فقد كان سوكارنو خطيباً مفوهاً في حين أن التونكو لم يكن كذلك. وكان سوكارنو يتمتع بشخصية قوية مسيطرة، في حين كان التونكو شخصية هادئة وساحرة. وكان سوكارنو يمثل 100 مليون أندونيسي، في حين كان يمثل التونكو 4 ملايين مالاوي وأقل من أربعة ملايين صيني،وهندي وآخرين. وكان الملاويون يعترفون عموماً بتفوق ثقافة جافا. لم أجد التونكو خائفاً كما أراه اليوم. ولعل سوكارنو لمس هذا وكان يستغل مخاوفه إلى أقصى حد، لم يكن سانديز يثق بأن التونكو يستطيع مواجهة وزير الخارجية الأندونيسي. وما حصل أن رزاق هو الذي قابل د.سوباندريو في سنغافورة لا لمناقشة موضوع ماليزيا بل لإعلامه بالتاريخ الجديد.

32. سنغافورة تعلن الاستقلال

مع اقتراب تاريخ الاندماج (ضغطت على «غرفة التجارة الصينية») لجعل اليابانيين يدفعون «ضريبة دمائهم». فقد أراد مديروها أن تحل هذه المسألة قبل أن تنتقل الشؤون الخارجية إلى أيدي الحكومة المركزية التي يغلب عليها الطابع المالاوي، وهذه ستكون أقل شعوراً بالمظالم التي لحقت بالصينيين بالدرجة الأولى. وكانت حكومة طوكيو أيضاً واعية لهذه المسألة التي تجر أقدامها.

وكانت الغرفة تريد أيضاً أرضاً لتقيم عليها نصباً تذكارياً لهؤلاء الضحايا. فخصصت لهم قطعة من الأرض بمساحة 4.5 هكتار تواجه «معهد رافيلز» التذكاري، ولكنني طلبت من البريطانيين أن يتابعوا مسألة ضحايا الدم مع اليابانيين، نظراً لأنها مسألة تتعلق بالشؤون الخارجية التي تقع تحت سلطتهم. وعندما كنت في طوكيو في نيسان 1962 لم يوافق رئيس الوزراء: «هاياتو إيكيدا إلا على النظر بعين الاعتبار إلى اتخاذ خطوات مناسبة للتعزية بأرواح الموتى». ولم تتخذ إجراءات خاصة.

لم أكن قلقاً إزاء حل هذه المسألة، ولكن المشكلة لم تكن في طريق الحل. وقررت «غرفة التجارة الصينية» أن تُصعّد الموضوع، وكنت أخطط لإجراء انتخابات قبل «يوم ماليزيا»، وكان علي أن أرفع طلباتها بقوة مهما كانت النتائج بشأن الاستثمارات اليابانية. وفي 5 آب طلبت الغرفة تعويضاً بمقدار 50 مليون دولار تخصص لمشروعات صحية وتربوية. وأجاب اليابانيون بعرض إقامة مركز للأشعة لمعالجة السرطان، وتجهيزات للمعاهد التربوية، ومنح دراسية لطلاب سنغافورة في اليابان، بكلفة تتراوح بين 5 ـ 10 مليون دولار.

اقترح كوتيك كين، بوصفه رئيساً لغرفة التجارة الصينية بترتيب حشد جماهيري في «بادانغ» أمام «قاعة المدينة» يوم الأحد في الخامس والعشرين من آب «للتعبير عن عدم إخلاص الحكومة اليابانية في تسوية مطلب سنغافورة في

التعويض». كان يعلم أن حكومة حزبنا لن تكون سعيدة بذلك، لأن هذا الموضوع كان مسألة صينية بحتة. ولذلك قام بتحريض غرف التجارة المالاوية والهندية والأوروبية ـ الآسيوية والجماعات السيلانية للانضمام إلى التجمع الجماهيري. وافقت على إلقاء كلمة. وكان تشين شي قد اتفق مع كو قبل ذلك بعدة أيام على القرارات التي ينبغي أن تتخذ. وكانت إحدى هذه الخطوات، أنه إذا لم يتوصل إلى تسوية، فسيقوم الشعب بحملة عدم تعاون ضد اليابانيين، وأن تقوم حكومة سنغافورة بمنع دخول المواطنين اليابانيين إلى سنغافورة.

رأى «الباريسان» والشيوعيون في هذا فرصة أخرى لإظهار قوتهم وإذلالي أمام «الجماهير». كان البادانغ يستطيع أن يجمع بسهولة 100 ألف شخص كما كانت تتوقع غرفة التجارة، وكان من المستحيل منع الجماعات الشيوعية من التسلل عبر الجماهير لإحداث بلبلة. وبعد أن التقيت بضباط من «الفرع الخاص» والشرطة قررت أن أواجه المخاطرة. كانوا متأكدين من أن الشيوعيين إذا أثاروا الفوضى وأعمال العنف فسيجري قمعهم بسرعة. وذلك بنشر قوات من الشرطة والقوات الأخرى بحدود 6 آلاف فرد قرب «البادانغ» بعيداً عن الأنظار، ولكن سيراهم بالتأكيد أنصار «الباريسان». كما قررنا أن نُركب كشافات ضوئية قوية لتركيزها فوراً على موقع الجماهير التي تباشر بالشغب، ولا سيما أولئك الذين يتواجدون في الصف الأمامي ممن يسعهم بسهولة أن يفسدوا الاجتماع. وعند تركيز الأضواء عليهم يستطيع المصورون الصحفيون ومصورو التلفزة أن يلتقطوا صوراً مقربة بحيث تستطيع الشرطة فيما بعد التعرف على مثيري الشغب.

في البداية كانت المسيرة المؤلفة من 100 ألف شخص منتظمة، وعلّق بعضهم لوحات تحمل صوراً لمشاهد التعذيب التي مارسها اليابانيون، على الأعمدة والأشجار. وعندما صعدت إلى المنصة أمام الميكروفون كان هناك الكثير من الصياح والهسيس وما أن بدأت بالكلام حتى بدأت ترتفع الشعارات المعادية لي.

حافظت على برودة أعصابي وانتظرت فرصة الحديث بدون مقاطعة. ولكن الضجيج استمر، وبعد الحديث لبضعة دقائق حتى أن أتأكد أن السلوك اللاعقلاني للمشاكسين بات جلياً للجميع،أشرت إلى أحد ضباط الشرطة.

وفجأة تركزت الأضواء على الجهات التي يصدر منها الضجيج، واندفع المصورون لتصويرهم. وجاءت النتيجة فورية ومشجعة. ذلك أنهم لم يخفوا وجوههم بمناديل هذه المرة. وعرفوا أن الضباط سوف يتعرفون عليهم من خلال تكبير صورهم، وستتخذ إجراءات جزائية ضدهم إذا ما استمروا في المشاغبة. فتوقفت الهتافات والأغاني. وتحولت المناسبة إلى مظاهرة من أجل إظهار سعة حيلتي واستعدادي لحل مشاكلهم، وأكدت على موقفي بوصفي قائداً مستعداً للمشي حتى آخر الطريق في نضالي. ولاحظ الآلاف في باندانغ وغيرهم ممن كانوا يشاهدون التلفزيون أنني كنت هادئ الأعصاب، ولم يكن حولي رجال مسلحون، وأنني كنت مستعداً لمجابهة الأخطار. فقد أوضحت وجهة نظري بهدوء وبلغة الهوكين ـ وكان امتلاكي لناصية الكلام رصيداً لي حماني من اتهامات «الباريسان» بأنني أخون الشعب. وشعر الناس بقوة قناعاتي.

بعد هذا الحشد الناجح ناقشت مع زملائي خطر تأجيل إعلان ماليزيا. فلم نكن نريد أن يستعيد الباريسان روحهم المعنوية. إذ قد يقررون عملاً مباشراً على أمل أن يتدخل سوكارنو ويخلع التونكو كلية. لذا قررنا أن نعقد مهرجان الاندماج في 31 آب كما كان مخططاً في الأصل، وأن نعلن استقلالنا الفوري.

كنت قد كتبت لدانكان سانديز في اليوم السابق أن سنغافورة، خلافاً لرأي كوالا لامبور، لن تؤجل إعلان الاندماج إلى يوم 16 أيلول، كما لفت نظره إلى تلكؤ رزاق والتونكو بالإجراءات التي اتفقنا عليها. وأعلمته برغبتي في إعلان استقلال سنغافورة ضمن دولة ماليزيا في 31 آب (أغسطس). وطلبت منه مساندة بلاده لنا على صعيد العلاقات الخارجية بحيث تستطيع الحكومة قبل هذا التاريخ (31 آب) أن تسوي مسألة التعويض مع اليابانيين عما ارتكبوه من فظائع أثناء

الاحتلال. وأضفت بأن الاتفاقيات التي وضعت جانباً من قبل المالاويين بحجة أو بأخرى كانت مقلقة. ولا يمكن التخلي عنها بصفة انفرادية. إذا لم أتلق تأكيداً صريحاً منه بأن سنغافورة لن ترغم على الاندماج في ماليزيا إلا إذا حُلّت البنود المهمة بتاريخ الثاني من أيلول،فإنني أنوي الاستقالة وأطلب ولاية جديدة من الشعب. وستكون هناك إذن قضايا حاسمة في الانتخابات وسيكون من الصعب إلغاء حقيقة أن سنغافورة لم توافق على الانضمام إلى ماليزيا في 16 أيلول.

ولم يُجب سانديز.

في 31 آب 1963، أعلنت في اجتماع حاشد في ميدان «سيتي هول»، استقلال سنغافورة من جانب واحد. وقد حاول البريطانيون أن ينصحوني بالعدول. أما سيدني الذي كان يُفترض أن ينسحب إذا ما تقرر الاندماج فإنه لم يفعل. كان في «موتيارا»، وهي مركب بحري مالاوي، يبتعد عن شاطئ مالايا منتظراً 16 أيلول. كذلك تغيب رزاق. فقلت للجماهير الحاشدة: إنه لما كانت هذه المناطق قد أعلنت الحكم الذاتي قبل الاندماج، مُسلّمين السلطة الاتحادية في الفترة الانتقالية لحكامهم، فإن جميع السلطات الاتحادية الخاصة بالدفاع والعلاقات الخارجية سوف يتوكل بها في سنغافورة حتى 16 أيلول يانغ دي ـ بيرتوان نيغارا باسم الحكومة المركزية. وكان تونكو و زملاؤه يعتقدون أنني أثرت الدفاع عن ولايات شمال بورنيو في وجه رغباته الواضحة، لأنني قبل أسبوع كنت قد قابلت زعيمي تحالف صباح وساراواك في جيسلتون. والحق أنني حرضتهما على القيام بشيء ما درامي في 31 آب للحيلولة دون أي تأجيل إضافي.

جاء سيلكيرك إلى العشاء في تلك الليلة ولكنه لم يبد أي احتجاج. لم أظهر فرحتي تجاه ذلك، ولكنني ما كنت لأسمح للدافع باتجاه ماليزيا أن يتداعى، ولا سيما أنني كنت قد قررت أن أعلن عن انتخابات عامة بعد ثلاثة أيام، مع يوم التسمية في 12 أيلول. لم يرتح «التونكو» لذلك، وفي 2 أيلول قامت حكومة ماليزيا باحتجاجات قوية ليس تجاه سنغافورة، بل تجاه البريطانيين. وأعلنت في

اليوم التالي «إذا كان لأحد أن يحتج فعليه أن يحتج تجاه بريطانيا وسنغافورة. ففي المحصلة نحن الذين نحكم هذا المكان». وأضفت أنه من المحزن بشأن مالايا اعتقادها الساذج بأن السلطة ستُقدم على طبق من فضة من قبل بريطانيا. كانت تلك لهجة غير مناسبة لم يوافق عليها «التونكو» ولكن كان من الضروري جداً بالنسبة لي بوصفي زعيماً سنغافورياً أن أبدو كمن لا يفعل إلا ما يرضي «التونكو». أجاب بأنني جرحت مشاعر شعب المالايو.

كانت ساراواك قد أعلنت قبل ذلك استقلالها واقعياً defacto، وأعلنت بورنيو الشمالية تأسيس دولة «صباح».

قلت لسيلكيريك في 4 أيلول: إنه إذا لم تحترم بنود الاتفاقية بين التونكو وبيني وتنفذ في اليوم المحدد، فسأخوض الانتخابات على أساس الاستقلال وسأطالب فوراً من عدد من الدول الاعتراف ابتداء من يوم 16 أيلول. إن مزيداً من المراوغة لا يعني بالنسبة إلي سوى أن زعماء المالايو ينوون اقتحام سنغافورة، وأنا أخجل أن أتحمل مسؤولية الاتحاد في دولة ماليزيا بمثل هذه الشروط. وكان رد سيلكيرك على ذلك رسالة بعث بها إلى سانديز يتهمني فيها بالعجرفة. وأضاف في اليوم التالي:

> «أعتقد أنه يمارس الآن سياسة حافة الهاوية. يعتقد أن موقفه منيع. بل إنه يعتقد إما أن ينضم إلى ماليزيا بشروطه وإما أن يعلن الاستقلال كما يستطيع أن يضع أية شروط يشاءها علينا لأنه يعرف أننا لا نستطيع في ظل أية ظروف أن نتخلى عن موقعنا العسكري في سنغافورة. إنه يعتقد، ربما كان على صواب، أنه يستطيع أن يكسب أية انتخابات تحت شعار «استقلال» مرصع بتعليقات مرة عن المالاويين وعنا والذي سيقوله عنا إننا نسعى إلى تدمير الموقف الذي اكتُسب بصعوبة والذي يحقق مزية للصينيين في سنغافورة... أعتقد أنه ما يزال يريد الانضمام إلى ماليزيا، لذا علينا أن نضغط على المالاويين كي نتوافق معه تماماً حول النقاط البسيطة نسبياً والتي ما تزال قائمة».

ثم صرحت علانية أنني منحت سانديز مهلة حتى 12 أيلول «لتسوية الأمور فيما يتعلق باتفاقية ماليزيا». كنت ألعب ورقتي الأخيرة للحصول على التعهدات التي وعدني بها «التونكو» في لندن والتي كانت مكتوبة في الدستور أو في وثيقة خاصة. أخذ البريطانيون تهديدي على محمل الجد. ولكن جيوفيري توري، بعد أن اجتمع برزاق وإسماعيل في كولا لامبور رفع تقريراً جاء فيه «لا خوف من عدم قيام ماليزيا مهما فعل لي». كان سانديز يخشى قبل كل شيء أن تسير الأمور على نحو سيء في اللحظة الأخيرة، وبعث بتقرير إلى رئيس وزرائه هارولد ماكميلان بعبارات غاضبة:

«إنه يدرك أن تصريحه ليس له سند قانوني وأن الحكومة البريطانية لن تتساهل إزاء أية محاولة من قبله لممارسة سلطات يوهم أنه يمتلكها. من ناحية ثانية، هذا التصرف من التحدي العلني تجاه بريطانيا ومالايا قد ساعد ولا شك على تعزيز الصورة الجماهيرية لشخصه والتي يرغب في خلقها.

«إنه ليس الرجل الذي يتراجع. فهو ما إن يعزم على سبيل معين ويقبل بالمخاطر المحسوبة جيداً، فإنه يسير قُدماً نحو الأفضل أو الأسوأ. لذا فإننا إذا كنا سنهينه علناً فأعتقد أنه سينتقم بتصرفات أخرى من التحدي بشكل أو بآخر وسنكون مضطرين بسرعة بالغة إلى توقيف الدستور مؤقتاً. وإذا كان تحويل السيادة إلى ماليزيا على سنغافورة سيتم في وقت يكون فيه الدستور معلقاً، فسنُتهم في العالم كله بإكراه شعب سنغافورة على أمر خلاف إرادته. و بذا يبدو لي، أنه رغم خطورة الظهور بمظهر الضعف فإن من مصلحتنا أن نقوم بكل شيئ ممكن.

«هدد لي في الأسابيع الأخيرة بأنه إذا لم تعطه الحكومة الملاوية ما طالب به فسيجري الانتخابات ويطلب الثقة من الشعب. وقد فعل ذلك الآن. فقد حُلّ برلمان سنغافورة. وحدد يوم الترشيح في 12 أيلول. بحيث يكون يوم الاقتراع بعد عشرة أيام تالية (أي بعد «يوم ماليزيا»).

«لم يعلن (لي) حتى الآن عن القضايا التي سيناضل من أجلها في الانتخابات. ولكنه يُهدد بأنه ما لم تُقدم له حكومة مالايا الموافقة على عدد من النقاط التي تتعلق «باتفاقية ماليزيا» فسيعلن الاستقلال في 12 أيلول وسيطلب من أهالي سنغافورة أن يصوتوا على ذلك.

«أكد لي تون رزاق أن الحكومة المالاوية ملتزمة قطعياً بماليزيا، وأنهم سيستمرون في هذا مهما حدث. أعتقد أنه يتحدث باسم معظم الوزراء ولكنني لست واثقاً تماماً تجاه موقف «التونكو» نفسه. كما أخبرتك في برقية سابقة أنه يعاني بحدة من برودة في القدمين، ومن الممكن أن يرفض في اللحظة الأخيرة، وإن كان ذلك غير متوقع،أن يتولى السلطة في سنغافورة... هذا ما سيجعلنا بوضوح نواجه أزمة خرقاء الأمر والتي لا أريد مناقشتها الآن.

«مع هذه الاحتمالات غير المريحة التي تدور في رأسي فإنه من الأهمية بمكان أن نتجنب أي تصادم ممكن مع «لي» من الآن حتى 16 أيلول. لذا حضّيت الحكومة المالاوية بشدة على التساهل قدر الإمكان تجاه المطالب التي عرضها «لي» بشأن دستور ماليزيا. فمعظمها مقبول، وكان التونكو قد تعهد بها إلى «لي» في لندن، وإن كان لي يحاول تفسيرها لصالحه على نحو متزايد.

«ولكن حتى إذا حصل على جميع النقاط فإنني لا أحسب إلا أن لي سيفكر في مجموعةجديدة من المطالب. لذا أعتقد أنه من الحكمة أن نفترض أننا سنواجه متاعب وأن نستعد للأسوأ.

«التنازلات التي آمل أن نحضّ الحكومة المالاوية عليها قد تغري «لي» بمشروع ماليزيا بهدوء. ولكن إذا لم أخطئ فإنه سيراوغ ويبتز حتى الساعة ما قبل الأخيرة. وبهذه الظروف يبدو لي من الضروري أن أظل متابعاً للأمور. وهذا كما آمل سيمكنني من :

(آ) أن أمنع الحكومة المالاوية من اتخاذ موقف استفزازي أو عنيد نحو «لي».

(ب) أن أحاول مساعدة كلا الطرفين من أجل الوصول إلى اتفاق.

(ث) أن أقوي موقف التونكو بالانضمام إلى ماليزيا إذا ما أبدى علامات تردد.

«وبالتالي، إذا كنت توافق، أقترح أن أبقى في هذه المنطقة حتى نضع سنغافورة بأمان في الجعبة في 16 أيلول. وفي تلك الحالة يمكن أن أبقى يومين إضافيين من أجل احتفالات ماليزيا. وهذا ما سيجعل من غير الضروري إيجاد زميل في الحكومة لمتابعة الأمر».

ولكن لم يكن لدي نية في إتلاف مشروع ماليزيا. لموا كنت قد تفاوضت في عدة مؤتمرات دستورية، فقد كنت أعرف الموقف القانوني جيداً جداً: ما إن تُعلن دولة ماليزيا حتى تضع الجيش والشرطة تحت إمرة كوالا لامبور، ولكن الأخيرة تستطيع أن تعلن حالة الطوارئ وتحكم بموجبها. لذا كنت أريد عدة نقاط حماية ضمن الدستور أو أن تسجل في وثائق رسمية في حال قررت الحكومة الاتحادية القيام بأي تصرف أحمق.

كان البريطانيون معي، وقد أثمر الضغط الذي مارسته عليهم. ففي 7 أيلول وافق المدعي العام البريطاني ورزاق على جميع المسائل والتي كانت قيد البحث ما عدا حق وفد سنغافورة في اعتقال رجال العصابات في المجتمع السري. فلم يريدا أن يرد ذلك في الدستور، بل عليّ أن أقتنع برسالة بسيطة من السلطة. وفي 11 أيلول أعلنت أن جميع الخلافات بيننا قد سويت. ويمكن القول إنه باستخدام السلطة الاستعمارية على إكراه الزعماء المالاويين استطعت اكتساب بعض الوقت وترك الإشكالات إلى المستقبل. ولكن تصريحي وحيد الجانب بالاستقلال كان ضرورياً كي أحذر البريطانيين بأنني أستطيع أن أجعل الأمور

صعبة بالنسبة إلى «التونكو» وإليهم إذا لم يفِ بوعوده. نجحت أساليبي ولكن بثمن. فقد كان التونكو ورزاق متشبثين برأيهما القائل: إنني رجل يصعب التعامل معه، وإنهما من الآن فصاعداً سيكونان حذرين عند التعامل معي.

في صبحية يوم الترشيح أنجزت جولتي الأخيرة لإلقاء الخطب في ماونتباتن بعد زيارة ثلاث دوائر انتخابية أثناء الليل. عدت إلى البيت في الساعة 7 صباحاً على صوت الألعاب النارية التي أطلقها جيراني في شارع أوكسلي. فقد كانوا يعرفون أن أمامي صراع حاد، وأرادوا أن يشجعوني. وبعد ست ساعات من إغلاق الترشيح أعلنت الحكومة أن التصويت سيكون في 21 أيلول، أو بعبارة أخرى بعد خمسة أيام من انضمامنا إلى ماليزيا. وإذا لم تتكون ماليزيا حتى ذلك الحين عندئذ ستكون سنغافورة والبريطانيون والمالاويون في مأزق. من المؤكد أن ذلك لن يسمح للتونكو بإيجاد طريق آخر يسلكه في السادس عشر من الشهر كما هو مقرر. وقد أردت أيضاً أن يجري معظم الحملة ونحن ما نزال نسيطر على الشرطة والجهاز الإداري للانتخابات، وحيث يكون معظم رجال العصابات ـ بمن فيهم تشوا هو آن، ومؤيدو وليم يوهوك الأول ـ قيد الاعتقال. وكنت قبل ذلك رفضت التماس «التونكو» بإطلاق سراح تشوا.

قبل يومين من «يوم ماليزيا» في 16 أيلول، أعلن الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت أنه وفقاً للمسح الذي أجرته الأمم المتحدة فإن الغالبية العظمى لشعب ساراواك والصباح تريد أن تنضم إلى ماليزيا. وفي اليوم التالي استدعت اندونيسيا والفيلبين سفيريهما من كوالا لامبور وأعلنتا أنهما لن تعترفا بماليزيا. وفي 16 أيلول احتشدت جماهير ضخمة في جاكرتا في عرض منظم «للغضب الشعبي» بموجب البروتوكول العالمي الثالث التقليدي للاحتجاج الدبلوماسي.

واقتحمت آلاف الجماهير،وهي تهتف «لتسقط ماليزيا»، السفارتين البريطانية والمالاوية. اندفعوا إلى الطابق الأول من السفارة البريطانية لتحطيم الأثاث، وراحوا يقذفون طوال 90 دقيقة بالحجارة والطوب من الخارج وقد حطموا كل

نافذة. ومشى مساعد الملحق العسكري البريطاني، والقذائف تسقط من حوله، بملابسه العسكرية وهو ينفث دخان سيجاره على مرأى من المتظاهرين المشاغبين. حاول رجال الشرطة شده إلى الخلف وراء عمود، ولكنه تملص منهم واستمر في الاستعراض. وعندما ظهر السفير البريطاني، أندرو غيلشريست، وأخبره ممثلو الحشود أنهم سيقاتلون من أجل التحرر من الإمبريالية لشعب بورنيو الشمالية. أجاب بعبارة: عاش يوثانت، وأشار بالأندونيسية إلى أن الأمم المتحدة قد اعترفت بماليزيا. أثارت علامات التحدي البريطاني هذه الأندونيسيين مما جعلهم يشعلون النار بالسفارة وينهبونها على مدى يومين، ويتعاملون بخشونة مع الموظفين بمن فيهم السفير نفسه. كما هاجم الأندونيسيون سفارة المالايا، ولكن السفير لم يكن موجوداً. ومن أجل رد التحية قامت الجماهير الغاضبة بنهب السفارة الأندونيسية في كوالا لامبور.

في 16 أيلول أقمنا احتفالاً آخر، هذه المرة مع سانديز ممثلاً بريطانيا، وإسماعيل ممثلاً مالايا، ووقفا إلى جانبي على أدراج «سيتي هول» فيما كنت أعلن أن سنغافورة باتت جزءاً من ماليزيا، كما أعلنت ولاء شعبها للحكومة الاتحادية. لم ينتبه التونكو أنه كان يوم ميلادي الأربعين. ولو كان موجوداً لغيّر التاريخ ـ فيوم مولدي لا يمكن أن يكون يوم حظ لديه. في الصباح التالي طرت إلى كوالا لامبور من أجل الاحتفال الرسمي في «ملعب ميرديكا». كان الجو مشبعاً بالخطر من مجابهة سوكارنو، كما أن خوف التونكو مما يمكن أن يفعله قد أحسّ به وزراؤه. وفي الطريق إلى الملعب، مررت على سيلكيرك الذي كان يرتدي بزة الاحتفال البيضاء، في فظهوره الأخير قوميساراً عاماً لجنوب شرق آسيا. بدا بدوره متوتراً بعض الشيء. وقد استعدت رباطة جأشي بوجوده فقد وجدته قوياً رابط الجأش. لم يكن لدي شك في أنهم سيهتمون بماليزيا على الرغم من أي شيء يستطيع سوكارنو أن يفعله.

انتهى الاحتفال وعدت بالطائرة إلى سنغافورة واستأنفت حملتي على مدى الأيام الأربعة التالية. طرح حزبنا مرشحين في جميع الدوائر الانتخابية الإحدى وخمسين، ورشح الباريسان وحزب UPP 46 ممثلاً، وتحالف سنغافورة 42 ممثلاً، ورشح «بارتاي راكيات» ثلاثة، وحزب العمال ثلاثة، والمستقلون 16 مرشحاً.

وتشاركت جميع الأحزاب في أوقات الإذاعة والتلفزة بحسب عدد المرشحين. كان من المدهش أن نرى مدينة هادئة نسبياً قد تحولت فجأة إلى مدينة تشتعل بالحيوية حيث يطوق حاملو الإعلانات والأعلام ويوزعون الكتيبات. وكانت حملة حزبنا الذروة لجولاتي الانتخابية في الأشهر العشرة الأخيرة، وقد أقنع كينغ سوي اللجنة الانتخابية بأن أكون مركز التوجه. كنت هدفاً لغضب الحزب الشيوعي الشديد، ومن أجل رد حزبنا لأن يكون أكثر درامية إذا ما تهجّموا عليّ شخصياً، وذلك كي يظهروا للناس أن الشيوعيين أخفقوا في القضاء عليّ. كان لدينا شعار حملة واحد،وهو صورة لي أثناء إحدى زياراتي لدائرتي الانتخابية، ويدي مرفوعة وأنا أبتسم وأحيي الجماهير.

علّق الباريسان صوراً دعائية لزعمائهم المسجونين لإثارة واكتساب العطف من أجل التصويت. وما إن احتدمت الحملة، حتى اشتط مؤيدوهم في اكتساب الأصوات، وظهرت منظماتهم الخفية وجماعات الجبهة المتحدة لترمي بكل شيء يمكن أن يحركوه. وقاموا بحملات كبيرة صبوا خلالها جام غضبهم عليّ وضد الرجعيين اليمينيين ولاسيما التونكو والإقطاعيين المالاويين. وقبل الاقتراع بأربعة أيام تراجع د.لي سيوه تشوه عن موقفه وأظهر معارضة لماليزيا وأخذ جانب الأندونيسيين ضد «التونكو». وهذا ما جعل تحذيرنا السابق بأن التصويت لباريسان يعني التصويت لسوكارنو أكثر مصداقية. وفي حشد ضخم عند الغداء توقعت أن يختفي الشيوعيون تحت الأرض بعد أن ربحنا. وكما هو متوقع كانت الانتخابات صراعاً بين «الباريسان» وحزبنا.

ركزت إذاعتي عشية الاقتراع على أبعاد التحالف كي أقلص من انشقاق الأصوات غير الشيوعية. وعرفت جماعة MCA الآن أنها لا تستطيع أن تربح وفضلت أن ينجح «الباريسان» بحيث تشيد كوالا لامبور بدستور الدولة. وكان ذلك حلاً بسيطاً إذا لم يكن ساذجاً لمشكلة معقدة جداً. فسيكون لحكومة سنغافورة الإشراف على ميزانية تعادل نصف ميزانية المركز، وعلى محطة إذاعة وتلفزة أقوى من محطة كوالا لامبور. وهي ستجلب تحت إشراف الشيوعيين المرتبطين مع الحزب الشيوعي الأندونيسي كارثة على ماليزيا. ووسائل الحماية الدستورية التي وافقنا عليها لا تسري إلا إذا تسلم حزبنا السلطة. كان الخيار أمام الشعب واضحاً وبسيطاً. وقد أرسل فيليب مور تقريراً إلى لندن جاء فيه:

«... ثمة قلة قليلة من المراقبين المستقلين الآن، ممن يستطيعون التنبؤ بثقة بأغلبية كاسحة «لحزب العمل الشعبي» في الجمعية التشريعية، أي الحصول على 26 مقعداً أو أكثر... قوة الحزب تتجلى في الحكومة القوية ذات الفعالية العالية والتي تجلت في سنغافورة على مدى الثمانية عشر شهراً الأخيرة... أما ضعف الحزب فيكمن بالدرجة الأولى في افتقاره إلى منظمات حزبية في الدوائر الانتخابية ولاسيما في أوساط الأعضاء الناطقين بالصينية الذين يشكلون 63%... ولكن لي نفسه كان واثقاً تماماً في حديثه الهاتفي بعد ظهر هذا اليوم. بيد أنه كان منزعجاً من التونكو بسبب مجيئه إلى سنغافورة البارحة (19أيلول) وتدخله في الحملة. مايزال توقعي أن حزب العمل الشعبي (PAP) سيحصل على أغلبية شاملة، ولكن معظم الناس الذين أحترم أحكامهم هم أقل تفاؤلاً ولم يعطوا الحزب أكثر من 20 ـ 24 مقعداً. وأكثرية حزب باريسان سوسياليس لا يمكن أن تسيطر ... ولكن حتى ولو انتهج هذا الحزب سياسات معتدلة في سنغافورة، فمن الصعب أن نرى كيف يمكن للحكومة المركزية أن تحتملهم في السلطة في سنغافورة طويلاً».

كان ظهور «التونكو» الشخصي كي يتحدث في الاجتماعات الحاشدة للتحالف التطور الأكثر خطورة. فمهما تكن رغباته الشخصية فإن قيادة «المنظمة الوطنية المالاوية المتحدة» (UMNO) وجذب مالاويين محليين قد جلباه إلى خضم سياسة

سنغافورة. وبالإضافة إلى ذلك كان رزاق قد تحدث إلى سيلكيرك منذ بضعة شهور عن إمكانية «انتخابات تطرح حكومة بديلة تحل مكان لي». كل ذلك يعني أن المنظمة الوطنية لم تكن تنوي أن تسمح للدولة بالاهتمام بشؤونها كما اتفقنا،وأننا عاجلاً وليس آجلاً سنصطدم مع السياسات المالاوية للدفاع عن مصالحنا. كنت آمل أن يتأجل ذلك الصراع لفترة انتخابية واحدة.

أحصيت الأصوات في 21 أيلول،وقد كانت ليلة مثيرة إذ أن الأصوات كانت في كثير من الدوائر الانتخابية متقاربة جداً. فقد هزم تشين تشي الدكتور لي سيوه تشوه بـ 89 صوتاً، ونجح راجا بأقل من 200 صوت. وخسر كيني أمام مرشح «الباريسان»، فقد خسر رصيده في أنسون. أما آمال ليم تشين سيونغ،وفونغ سوي سوان والمحتجزين الآخرين في شانغي الذين كانوا يتابعون نتائج التصويت عبر الإذاعة، فسرعان ما تحطمت بعد أن بات واضحاً أن حزبنا لن يهزم وأن جماهير الباريسان الحاشدة لم تعكس التأييد الشعبي الصحيح. فقد كسبنا 37 مقعداً، وكسب «الباريسان» 13 مقعداً، وكسب أونغ إينغ غوان من «حزب الشعب الموحد» مقعداً واحداً. وكما اعترف أحدهم فيما بعد فإن الباريسان قد صُعق تماماً.

كذلك تلاشى حلم التونكو في تشكيل تحالف من عدة أحزاب في سنغافورة. فقد أزيح جميع مرشحيهم. كنت على حق في عدم موافقتي على تطهير كامل لزعماء الجبهة الشيوعية المفتوحة، وإلا كان من الممكن أن يحصل التحالف على ما يكفي من المقاعد بحيث يحتفظ بقوة كامنة. ولكن الضربة الأشد قسوة للتونكو كانت فوز حزبنا على «المنظمة الوطنية المالاوية المتحدة» (UMNO) في جميع الدوائر الانتخابية المالاوية، والتي جاء لتشجيعها في سنغافورة عشية الانتخابات. فقد صوّت المالاويون، وقد جوبهوا بخيار بين تحالف ضعيف، وباريسان القوي وحزبنا الموثوق، لصالح حزبنا. كان لدينا مرشحون مالاويون أقوياء. وكان أفضلهم يعقوب بن محمد. هذه النتيجة كان من شأنها أن تترك

آثاراً هائلة. لم نكن نعرف حتى ما بعد الانتخابات الملاوية في نيسان 1964 كيف كانت «المنظمة الوطنية» (UMNO) تنظر بضغينة إلى نجاح حزبنا غير المتوقع، وكم كان هجومهم المعاكس ضارياً.

أخيراً أعلنت النتائج، وبعد منتصف الليل أوجزت على الإذاعة والتلفزة أربع سنوات ونصف من الصراع الحاد والقلق: «وصلنا هذا الصباح إلى ما يعتبر بالنسبة إلى الشيوعيين لحظة الحقيقة ـ وهي أن جماهيرهم كانت خرافية». ابتداءً من قادتهم المبتهجين، وشعاراتهم، وملصقاتهم، التي كانت موجودة في كل مكان كي تعطي انطباعاً مبالغاً فيه وتظهر قوتهم. وفي اليوم التالي، 22 أيلول بعث مور بتقرير إلى لندن يقول فيه:

«كان هذا انتصاراً كبيراً وإنجازاً عظيماً لمسيرة لي كيوان يو. إنه نصر أهم بكثير من انتصار عام 1959، عندما انتصر بتأييد من الشيوعيين ولكن في هذه المعركة جابه الشيوعيين بشكل مكشوف وهزمهم على نحو حازم ...

«كنا نقول في سنغافورة دوماً إن لي كيوان يو هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحكم هذه المدينة، وإن على الحكومة الماليزية أن تتفاهم معه أو تسجنه. الخيار الثاني غير وارد الآن، وعلينا أن نأمل أن يظهر الآن اعتدال كاف لدى كلا الجانبين من أجل جعل شراكة ناجحة أمراً ممكناً. تحدث لي معي على الهاتف هذا الصباح وانتهزت الفرصة كي أؤكد له أهمية عدم إبداء الشعور بالظفر كثيراً على هزيمة التحالف والتركيز على تحسين علاقته مع كوالا لامبور. فقد ارتكب الكثير من الأخطاء في هذا الصدد في الماضي ويعود إليه القيام بجهد كبير لبناء علاقة جديدة».

لعب ثلاثة رجال دوراً حاسماً في الصراع المكشوف من أجل هزيمة الشيوعيين. كان راجا الأول. فروحه النضالية لم تفتر أبداً. فبعد أن صعّد «الباريسان» هجماتهم علينا في منتصف عام 1961، أي عندما بدا كل شيء مظلماً، وكنا في قمة اليأس، كان راجا يزأر كالأسد. كانوا يصورون أن حزبنا قد

تأدية القسم كرئيس للوزراء أمام يوسف بن عشق في 1963م

باع الشعب، وقد تصدى لهم راجا بقوة. فاستخدم كل مهاراته الأدبية، وصلابته وعزز الروح المعنوية لدى كل فرد. كان مقتنعاً أننا كنا على صواب، وأن علينا أن نناضل، وأننا سنربح.

وكان الشخص الثاني بانغ بون ـ هادئ وناعم الحديث، موثوق ويُعتمد عليه، مصيب في تقديراته لمن يوالون قيادات الحزب وفروعه. حافظ على الموالين لنا بصلابة بحيث كان لدينا أعضاء من ذوي الثقافة الصينية أصبحوا يشكلون جوهر تنظيم للانتخابات. إلى جانب الزعماء الأصلاء، هذا ما مكّن الحزب من مجابهة مؤيدي «الباريسان» عندما انشق الحزب.

على أن أهم لاعب خفي لدي كان كينغ سوي، بذهنه الصافي وقلمه الحاد. ساعدني في اختيار التكتيكات التي هزت الشيوعيين. بحيث فقد كنا نجابههم في كل خطوة ذكية يتخذونها بخطوة مماثلة. طوال هذا الصراع والإحدى وعشرين سنة التالية حتى تقاعد عن منصبه «نائباً» لرئيس الوزراء عام 1984، كان صديقي الموثوق، الحاذق دوماً والذي يقلّب الاقتراح في ذهنه من أجل أن يساعدني على إعادة صياغته. كان مساعدي الذكي المقيم والمناضل الصلب. كان هناك عدة رجال شجعان آخرين، ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا الأبرز.

33. كونفرونتاسي

كانت انتخابات 1963 بمثابة حد فاصل للشيوعيين. فبعد إعلان النتائج مباشرة، اختفى اثنان من مرشحي «الباريسان» ـ تشان سون وينغ سكرتيري البرلماني السابق وونغ سون. فونغ لا بد أنهما توقعا أن يعتقلا إذا ما خسر «الباريسان». ولكننا قررنا أن نوجه أنظارنا الآن وجهة أخرى. فقد قررنا أن نجعل من بعض الشخصيات التي تكاتفت مع الشيوعيين، ممن اعتقدوا أن ثروتهم ووقوفهم إلى جانب الجماعة الناطقة بالصينية، يعطيهم الحصانة. وكان على رأس هذه القائمة تان لارك سي، الذي كان الرئيس الفخري لغرفة التجارة الصينية ومؤسس «جامعة نانيانغ». كنت أود التعاون معه عندما كان لدى الحكومة قوة سياسية. أما الآن لم نعد نحتاج إلى التساهل معه بدعمه للخط الشيوعي في الصحافة، مستغلاً مركزه في عالم الأعمال كدرع واقية.

وفي اليوم التالي للانتخابات شرعنا باتخاذ الإجراءات اللازمة لإلغاء جنسيته التي اكتسبها بالتسجيل وأصدر مكتبي بياناً بذلك:

> «قررت الحكومة أن لا أحد مهما كانت ثروته ومركزه وموقفه يمكن أن يكون أداة للشيوعيين ويعرض سلام سنغافورة ورخاءها للخطر علانية وبشكل مكشوف في هذه الانتخابات عن طريق توقيع بيانات أملاها هؤلاء الشيوعيون مثل مرشحي باريسان سوسياليس والتي تدين الحكومة، ويستخدم كغطاء ما يسمى حماية اللغة والثقافة والتربية الصينية غطاءً له».

مثل هذا الإجراء لم نكن فكر به من قبل. كنا نخشى إبعاد الناطقين بالصينية حتى لا تستغل الصحافة ذلك، وتعتبره إجراء معادياً لرجال الأعمال، الذين كانوا يؤيدون الثقافة الصينية. والآن جاء الحين للتعامل معه حيث لم يعد لديه أنصار

في الحزب أو الصحافة لإنقاذه. فقد استطعنا تحييده سياسياً، وعندما طُلب منه التعليق في اليوم التالي لم يكن لديه ما يقوله. لقد قامر وخسر. ولن يستعيد أبداً ما كان يتمتع به من امتياز.

بعد أيام قليلة، وفي لقاء غداء في ساحة فوليرتون أوضحت الطريق إلى ما بعد الانتخاب وبعد الاندماج: «أعطي «بلين» أسبوعين. إذا كان هنا فهل له أن يخرج. لم يعد الأمن في يدي بعد الآن». أضفت بأنه الآن أصبح تحت إشراف الحكومة المركزية، وسأجعل هويته معروفة لإسماعيل. من خلال استجواب الشيوعيين الذين فروا إلى جزر رياد المجاورة ثم عادوا، اكتشف الفرع الخاص بعد سنوات أن بلين قد غادر سنغافورة بعد الاستفتاء مباشرة. وبقي في جزر رياد الأندونيسية، حيث كان من هناك يوجه أتباعه في سنغافورة ممن ينشطون سراً. ولم أكن مبالغاً حين حذرت أن النضال ضد الحزب الشيوعي المالاوي لم ينته، وأنهم سوف يستمرون في قتال أعدائهم بوسائل سليمة أو غير سليمة، وسيكون من الصعب التعامل معهم. لم يتغير شيء ـ باستثناء شيء واحد وهو أنني لم أعد مسؤولاً عن الشرطة.

تجلى ذلك واضحاً عندما قام الفرع الخاص في اليوم التالي، تحت إمرة «الاتحاد»، باعتقال 20 طالباً من جامعة نانيانغ. قاتل ثلاثة منهم بدون نجاح في الانتخابات باعتبارهم مرشحين للباريسان. إذ قام الطلاب بأعمال الشغب وهاجمت مجموعة محتشدة منهم موكب الحراسة الذي ينقل السجناء إلى الخارج. كانت تنتظر خارج البوابات سيارتان لشرطة مكافحة الشغب. وأمرت الشرطة عبر مكبرات الصوت المتظاهرين بالتفرق. وعندما لم يفعلوا ذلك تحركت مفرزة مكافحة الشغب، وراح الطلاب يرشقونها بالحجارة وأصابوا السائقين.

لم يتعلموا بعد أن الفرع الخاص بات يتلقى أوامره من حكومة جديدة في كوالا لامبور، تقوم على عدم وجود حظر في تعامل الأكثرية المالاوية مع الطلاب الصينيين. كما اتجهت بضعة آلاف من نقابات SATU الكبرى بعقد اجتماعات

في حرم الجامعة تحملهم الباصات والشاحنات التي بلغ عددها مئة حافلة. إنهم ما يزالون يعتقدون أن الحشود الجماهيرية الكبيرة تخيف الحكومة. وقام أعضاء من اتحاد عمال القاعدة البحرية بإضراب تحت قيادة مؤيدي سيدني وودهول المعتقل الآن، بالإضافة إلى 500 من جامعة نانيانغ. وفي اليوم التالي قام عمال شركات الباصات وعمال بعض الشركات مع عمال نقابات SATU بالدعوة إلى إضراب عام يمتد يومين.

اتهمني د.لي سيو تشو بأنني أستخدم الشيوعيين ثانية كشبح كي أحول الأنظار عن مسائل راهنة بدلاً من التوجه إليها. ولكن العالم قد تغير. فقد أُطلق سراح وودهول وبوتشيري من السجن في 28 تشرين الثاني وأعلنا أنهما سيبتعدان عن النقابات والسياسة. وصرح وودهول: «أظهرت التجربة لي أن النشاط الشيوعي قد شوه الأمور أمام غير الشيوعيين». أما بوتشيري فقد أعلن «أنه لم يعد له علاقة بالشيوعية التي بات يعارضها الآن». وكان كلاهما من اليساريين الذين يفتخرون بأنهما ماركسيان. لم يكونا شيوعيين، ولم يُقبلا في الحزب الشيوعي. كانا يفتقران إلى الصمود الكافي ويمكن أن يكونا خطراً على أية خلية ينتسبان إليها. كانا هواة سياسة يستمتعان بالمحيط المختلط الذي يتصدرانه.

وجاء العنف من جهة أخرى أيضاً. فبعد عدة أيام من الانتخابات قام مخرب أندونيسي بتفجير قنبلتين في غضون 72 ساعة في الشاطئ الشرقي قرب «كاتونغ بارك». فقد باتت المواجهة الآن أمراً واقعاً. ولكن كان هناك تطور آخر ينذر بالشر قد بدأ. فبعد يوم من الانتخابات أعلن «التونكو» عن صدمته لأن المالاويين في سنغافورة والذين كانوا يؤيدون دوماً «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» (UMNO) قد صوتوا لحزب العمل الشعبي PAP ـ. وقال: «أعتقد بوجود قلة من الخونة الذين أحدثوا مثل هذا الانقلاب في مشاعر الناس، وتخلوا عن المنظمة الوطنية لصالح حزب PAP». وقال: «في المستقبل سوف ألعب دوراً مهماً في الانتخابات». ومضى يقول: إن السيطرة على سنغافورة ليست في يد السيد

لي أو حزبه بعد اليوم، بل في يد الحكومة المركزية في كوالا لامبور. وشارك التونكو في هذه الحملة سيد جعفر البار الذي حاول أن يؤكد أن المالاويين قد ضُللوا بالتصويت لنا وأنهم سيعودون إلى حلبتنا.

لم ألق بالاً إلى هذه الأمور في البداية. ظننت أنها إرهاصات ما بعد الانتخابات. لم أكن أفهم آنذاك الفوارق الدقيقة في حديث مالايو، وقد احتجت إلى تسعة أشهر أخرى حتى أدركت المضامين الحقيقية. كنت أعرف أن هذه كانت مقدمة لحملة أكثر مرارة من الكراهية،ستصل إلى قمتها في أعمال الشغب التي قام بها المالاويون الصينيون، وقلت مخاطباً الجماهير في حشد تجمع في ساحة فولتيرتون: أن الوقت سيشفي مشاعر الاستياء. كان علي أن أقول بعض الأشياء الصعبة قبل وبعد الانتخابات، ولكن مهمتي الآن أن أعيد بناء العلاقات الطيبة والثقة المتبادلة مع كوالا لامبور. كنت واثقاً أن سنغافورة ستشرع بنشاط صناعي وستكون المحور المنتج لماليزيا. ووعد بأن الحكومة سوف تتعاون مع الوسط على أساس عادل ومتساو، وليس كعلاقة الخادم بالسيد.

كنت ما أزال أتحدث عن المنظمة القومية للمالاويين المتحدين (UMNO) وحزبنا في صراعهما مع عدونا المشترك، الحزب الشيوعي المالاوي مع جبهة متحدة من مؤيديهم وسوكارنو الزعيم الأندونيسي الذي كان خاضعاً للنفوذ الشيوعي. لم أكن أعرف أن مساعدي «التونكو» مثل البار يفكرون بطريقة مختلفة. تركوا البريطانيين يحمونهم من الأندونيسيين. كان الأهم بالنسبة إليهم التعامل مع العدو الداخلي ـ حزبنا ـ الذي إذا لم يوقف عند حده فسيشرع بالفوز على المالاويين في مالايا نفسها.

تحدثت في سيتي هول في 29 أيلول وقلت: «نحن نفهم أنه في العقدين القادمين لا بد أن يكون رئيس الوزراء في ماليزيا مالاوياً. فهناك 43% من المالاويين من سكان البلاد و41% من الصينيين، و10% من الهنود و6% من الآخرين. لا نريد أن نمسك بزمام السلطة في كولا لامبور. بل نريد أن نتعاون

ونعمل من أجل المصلحة المشتركة لماليزيا». وأشرت إلى زعيمي الحزب الشيوعي المالاوي كوه كاي بوه وتان سيوسين بطريقة سلبية ولكن التونكو لم يوافق على هذا. في اليوم التالي رددت بقولي: إنه على الرغم من أن الحزب الشيوعي يمثل الجماعة الصينية، وهم لم ينصرفوا عن مصالحهم القومية، ولكن قدرتهم على الجمع بين الاثنين قد ساهمت كثيراً تجاه نجاح «التحالف» في الانتخابات. فلا بد أن تجتمع المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو (UMNO) والحزب الشيوعي MIC معاً. كان يقول: إنه لا يرغب في التخلي عن شركائه في التحالف. ولم أفهم إلا مؤخراً أنه إذا أراد حزبنا أن ينضم إلى التحالف بوصفه شريكاً في ائتلاف، فينبغي عليه أن يوافق على دور MCA ويجمع الصينيين حوله للتعاون من أجل المصلحة العامة «للمنظمة» (UMNO) وبرنامجها الذي يدعو أساساً إلى مساعدة الملاويين.

أما تلخيص تقويم جيوفري لهذه التوجهات السياسية في «الاتحاد» الجديد فنجده في تقريره في تشرين الأول 1963 المرفوع إلى دونكان سانديز:

«ولكن موقف التحالف على المدى الطويل ليس غبر قابل للاهتزاز بالتأكيد. فقد أظهر السيد لي كيوان يو في انتخابات سنغافورة الأخيرة أنه قادر على توحيد غير الشيوعيين في سنغافورة، بمن في ذلك المالاويين في جبهة مشتركة على حساب التحالف. (ولكن) كثيراً من نجاحه ينبغي أن يعزى إلى أدائه المدافع عن مصالح سنغافورة ضد مالايا. ولذا فإنه من غير المتوقع أن يجذب إليه كثيراً من الثقة في مكان آخر من الاتحاد. من جهة ثانية، إذا أصبح ذيل الشكاوى ضد السياسات المتطرفة لـ (UMNO) طويلاً جداً، أو إذا ضعُف الجناح الصيني في التحالف لسبب أو لآخر أكثر من ذلك فيمكن عندئذٍ أن تتطور معارضة فئوية خطيرة قرها ساحل مالايا الغربي. وإذا ما تصاعد ذلك فإن المالاويين لن يحال بينهم، وفقاً لأحكام الدستور،و بين حماية موقفهم، حتى لو كان الثمن استبدال ديمقراطيتهم المضنية نسبياً والمعتدلة بنوع من الديمقراطية الموجهة بشدة».

كان جيوفري توري ذا بصيرة. فقد تنبأ بدرجة أو بأخرى بما حدث عام 1965 عندما جمع ميثاق التضامن الماليزي أحزاب المعارضة معاً.

في بداية شهر تشرين الأول سافرت أنا وتشو إلى مرتفعات كاميرون في إجازة لمدة أسبوعين. فهواء الجبال والعزلة النسبية تساعدانني على التفكير في بوضعنا في ظل إدارة الحكم الجديد. وقد كنت ألعب على مدى أسبوعين الغولف وحدي غالباً. كنت أفكر في المشكلات التي ينبغي أن نعالجها الآن. فنحن نواجه خطراً من إندونيسية، ولكننا استطعنا احتواء الشيوعيين في الوقت الحاضر. فقد كانوا يشعرون بالخيبة وبهشاشة موقفهم، كما كانوا يعلمون أن كوالا لامبور على وشك أن تسحقهم.

كان علينا أيضاً أن نهيئ حكومة مركزية تستطيع القيام بمصالح مالايو. وهذا ما يمكن أن يتحقق إذا ما أعطانا الصينيون والهنود الآخرون ما يكفي من الفسحة. ومع هذا، فعندما التقيت بالتونكو في كوالا لامبور منذ خمسة أيام خلت وجدته في حالة نفسية مريحة، وبدا حل بعض المسائل ممكناً بمودة، رغم كل ما كان قد جرى. فقد تحدث عن إغلاق «بنك الصين» ومصرف نيغارا إندونيسية (البنك الوطني الأندونيسي) في سنغافورة، وأضاف بأنه لم يتخذ أي قرار نهائي بعد ويريد أن يناقش الموضوع مرة أخرى. كنت على وشك إعلام الصحافة أنه وعد بالسماح لهما بالبقاء مفتوحين لأنهما لا يداران من قبل مديرين حكوميين رفيعي المستوى من الصين أو إندونيسية.

وبعد عودتي إلى سنغافورة في 14 تشرين الأول. قابلت فيليب مور وقلت له: إنني اقترحت تعيين مالاوياً بوصفه واحداً من عضوي مجلس الشيوخ في الحكومة الاتحادية. سُر التونكو بذلك واقترح رئيس «المنظمة الوطنية الاتحادية» (UMNO) في سنغافورة، أحمد حاج طاف. وافقته على ذلك. أما الشيخ الآخر فكان من المقرر أن يُعين كوتيك كين.

كان التونكو يريد أيضاً أن نغلق لجنتنا التجارية في جاكارتا، ورغم أنني لم أكن متحمساً لذلك، فقد استدعينا مفوضنا وتركنا موظفاً برتبة صغيرة هناك. وكان مور يخشى أن تكون هناك مباحثات سرية ما بيننا وبين الأندونيسيين في سنغافورة لإيجاد سبيل لرفع الحظر الذي كانوا قد أعلنوا عنه. فأكدت له ما سارت عليه الأمور مع إسماعيل. كما تم تسوية الأمور الأمنية ما بين كوالا لامبور وسنغافورة على نحو جيد. وكان إسماعيل قد اتصل بي ليخبرني عن الاعتقال المخطط له لزعماء اتحاد (SATU) وطلب مني أن أؤكد له أن هذا الإجراء يحظى بموافقة سنغافورة. وأعطيته تأكيداً بذلك.

كانت فترة هدوء خادع. فالجمعية التشريعية قد أقسمت في 22 تشرين الأول، وكان مشروع القانون الأول الذي أُجيز هو انتخابات المجلس النيابي في كولا لامبور. ورشحنا 12 من أعضاء حزبنا وثلاثة من أعضاء الباريسان. وفيما كنت أتجه إلى الجلسة الافتتاحية في 3 تشرين الثاني، وصفت دور حزبنا في المجلس البرلماني الاتحادي على أنه صديق «مستقل» يمثل معارضة موالية، وليس مثل «الباريسان» أو «الجبهة الاشتراكية المالاوية» اللتين كانتا مخربتين وغير وفيتين. وفي كوالا لامبور اتفقت مع التونكو أن نستقبل زيارة رسمية من قبل يانغ دي ـ بيرتوان اغونغ، ملك ماليزيا، وعندما جاء كان موضع ترحيب بالغ، وكان «التونكو» مشجعاً للطقوس الملكية.

لم أكن سعيداً جداً أثناء وجودي في العاصمة الاتحادية. بينما كان التونكو مشغولاً جداً بحيث لا يستطيع أن يجري أية مناقشة فعالة معي حول علاقتنا. وفي غضون ذلك كان ثمة خلاف متجدد في تقرير يتضمن هجوماً مبطناً ضدي من قبل «البار». نشرت الصحافة المالاوية مقالاً لأليكس جوزيه يصورني على أنني زعيم لأربعة ملايين صيني في ماليزيا. وكان هذا إساءة لي. كما وصف رزاق حزبنا على أنه حزب مستقل، صديق ولكنه نقّاد ـ كيف يمكن أن نعمل معاً؟

في إجابتي على اعتراض رزاق على فكرتي تجاه استقلالية حزبنا،طلبت من «التونكو» أن يحدد أين ينبغي أن يجلس أعضاء حزبنا في «المجلس». فاقترح أن يجلس 12 من أعضاء حزبنا في جناح الحكومة ويجلس بعضهم الآخر في مقاعد المعارضة. كنا في وضع ملتبس. وعند عودتي إلى سنغافورة أخبرت مور أن علاقتنا مع «التونكو» و«UMNO» ينبغي أن تُسوّى بطريقة أو بأخرى في غضون سنتين أو ثلاثة من الانتخابات الاتحادية القادمة. وعلى التونكو أن يقرر الابتعاد عن MCA وأن يعمل مع حزبنا، أو يحارب حزبنا من أجل السيطرة على مدن ماليزيا.

ما كنا لننسى شؤون الأرياف. في 21 كانون الأول (ديسمبر) تحدثت لأول مرة في «مجلس النواب» خلال مناقشة الميزانية. انتقدت مشروع الميزانية لتقصيرها في استيعاب أوسع لمشكلات الاتحاد. كانت ميزانية للأعمال والمشروعات الكبيرة التي تنفذ في المدن ولكنها لا تفيد من لا يملكون شيئاً خارجها. أكدت على ضرورة توفير الرخاء للمناطق الريفية حيث تتجمع غالبية المالاويين من الفلاحين. لم يكن قادة المعارضة في المالايو قد تحدثوا بهذه الطريقة حول هذه الشؤون من قبل، لقد حملنا تفكيراً طوباوياً وجئنا لتنفيذه تجاه مشكلات ماليزيا واعتقدنا أن هذا هو الحل.

بعث مور بتقرير إلى لندن يفيد أن كينغ سوي الذي كان يشك سابقاً في آفاقنا في مالايا، قد بات مقتنعاً الآن أنه في غضون سنة أو ما يقارب ذلك سوف يكتسح حزبنا «الجبهة الاشتراكية» وMCA. وبعد أن أصبحت سنغافورة جزءاً من ماليزيا أصبحت تقارير مور تُرسل عبر المفوض السامي البريطاني الجديد في كوالا لامبور، الكونت هيد، الذي حل محل جيوفري توري. كان لأنطوني هيد رؤية مختلفة كلياً عن رؤية سلفه. كان سياسياً مخضرماً. ولما كان طالباً في «ساندهيرست» فقد منح وسام الصليب العسكري في الحرب العالمية الثانية، وكان رائداً عندما دخل «مجلس العموم» عام 1945. ثم أصبح وزيراً للدفاع في حكومة

فيليب مور (إلى اليسار) وأنطوني هيد في «قاعة عدن»، مقر إقامة نائب المستشار البريطاني، سنغافورة 1964.

أنطوني إيدن في فترة غزو السويس، وقد استقال حين أخفق الغزو. رُفع إلى رتبة كونت في «مجلس اللوردات» وكانت زوجته دوروثي شخصية عظيمة مهتمة بشؤون السياسة. أما هيد فقد كان مفوضاً رفيعاً في نيجيريا لمدة ثلاث سنوات،وكانت آنذاك مغرمة جداً بطيور إفريقية. أحببت كليهما ونشأت بيننا صداقة مستمرة. وكنت كلما أزور كوالا لامبور أتناول طعام الغداء مع أنطوني وزوجته الغريبة الأطوار.

كان الكونت أنطوني هيد متفهماً لتقلبات الناس والشعوب، ويفكر بالأمور من خلال ذلك. ولما كان البريطانيون يقفون بحزم ضد غزوات سوكارنو المتوقفة الآن في بورنيو فقد حذرني من أن البريطانيين والماليزيين ينبغي أن يديرا الأمور بحيث إذا انتهى كل هذا فسنكون قادرين على التعايش بسلام مع الأندونيسيين، وأننا إذا ما مرّغنا أنوفهم فإن العلاقات المستقبلية ستكون أكثر صعوبة. استطاع البريطانيون أن يحدوا من النزاع وأن يجعلوا المصالحة التالية أيسر: فعندما أُزيح سوكارنو من السلطة عام 1965، بعث الجنرال سوهارتو، الحاكم الفعلي آنذاك، مبعوثين إلى كوالا لامبور وسنغافورة لبناء علاقة وإعادة بناء الثقة في إندونيسية. كان هيد حكيماً عندما قال: إنه من الأفضل أن تتعلم من أخطاء الآخرين. كما كان يفهم أيضاً التونكو والبنية التراتبية الهرمية لمجتمع المالايو. كان الأمر مختلفاً هنا عما شاهده في شمال نيجيريا.

كان من دواعي الحظ السعيد بالنسبة لي أن يقرر رئيس الوزراء البريطاني أن يرسل سياسياً رفيع المستوى من المؤسسة إلى كوالا لامبور بدلاً من الدبلوماسي المحترف مثل توري. فتاريخ سنغافورة وماليزيا سيختلف عندئذ تماماً. كان لديه تجربة متنوعة لاسيما تلك التي اكتسبها في نيجيريا. فكان يعرف تماماً صعوبة التطور من حكم استعماري إلى حكم ذاتي وتكوّن الأمة. وفي السنتين اللتين مرتا قبل شهر آب من عام 1965 كنت على تماس مستمر معه. وكانت تقديراته

وتقاريره إلى لندن تختلف كثيراً عن نتيجة الصراع ما بين التونكو والمتطرفين حوله من جهة، وزملائي وأنا من جهة أخرى. كان المتطرفون يضغطون بأن يحكم المالاويون ماليزيا. أما نحن في سنغافورة ـ لاسيما أولئك الذين ولدوا في المالايو أو من كانوا شديدي الارتباط بها من أمثال تشين تشي وبانغ بون وراجا ـ فقد كنا مصممين على إقامة ماليزيا متعددة الأعراق. فذلك ما كان صلب المسألة.

كان لدى هيد شعور طيب تجاه إفريقية وتجاه الزعماء الأفارقة في «الكومونولث». وكان يعتقد أن زيارة لهم من جانب بعثة من الوزراء من الولايات الماليزية الجديدة ستكسب عواطفهم في المحافل الدولية كالأمم المتحدة. وقد ضحك عالياً عندما قلت: إن «التونكو» يعتقد أن الأفارقة بطيئون في فهمهم، ذلك أنه قابل كثيراً من الأفارقة ممن هم أذكى من "التونكو"،وقلة منهم كانوا الأوائل في أوكسفورد. شعر أنني كنت شخصاً دؤوباً فعالاً مستعداً لفعل شيء ما ضد هجوم سوكارنو العدائي المسيء. فاقترح أن يرسلني «التونكو» إلى إفريقية كي أكسب تأييدهم، الأمر الذي سيكون مفيداً على الصعيد النفسي في الوقت الذي يمسك فيه البريطانيون الجبهة العسكرية. كما رأى أن هذا من شأنه أن يجعلني معروفاً على نحو أفضل على الصعيد الدولي، مما يعني أنه إذا ساءت الأمور وأراد «التونكو» أن يتخلص مني فسيكون عليه أن يدفع ثمناً باهظاً.

طرحت الفكرة على «التونكو» ولدهشتي وافق على الفور. بعد أن اتخذت المجابهة طابعاً كئيباً. وقد ساعد على ذلك الانفجار الأول للإثارة وربما الحماسة التي حفزت قيام مظاهرات خارج السفارة الأندونيسية في كوالا لامبور. طاف «التونكو» في البلاد وألقى خطباً لإثارة النزعة القومية المالاوية،حيث كانت ماليزيا مفهوماً جديداً. ولكنني عرفت من الأحاديث الخاصة معه أنه كان خائفاً من أن تؤثر خطب سوكارنو الطنانة في المالاويين الماليزيين، ولا سيما المهاجرين الجدد، أي الجيل الأول أو الثاني من أحفاد أهالي سومطرة وجافا.

كان لدي إيمان كامل بمقدرة البريطانيين، ولم أكن أعِي أن معارضتهم الفعالة «للمجابهة» لا يمكن أن تستمر إذا ما اتخذت الحكومة الأمريكية خطأً معاكساً. ولم أعط اهتماماً كبيراً لما ذكرته تقارير الصحافة من أن ممثل الولايات المتحدة في احتفالات ماليزيا في 17 أيلول في كولا لامبور، قال: إن أمريكا محايدة ولن تنحاز إلى أي طرف في الصراع. ولكن الوثائق الدبلوماسية في المحفوظات البريطانية وفي تلك الفترة تكشف عن اهتمام كبير تجاه الموقف المتناقض للأمريكيين. وكان تقويم الولايات المتحدة العبء. وكانوا يخشون أيضاً من أن مناكفة بريطانيا لسوكارنو، قد تضعف حكومة غير شيوعية في جاكارتا، وبالتالي تحول إندونيسيا نحو الشيوعيين، الذين سيشكلون تهديداً للقواعد الأمريكية في الفيلبين. كان لا بد أن ينشط البريطانيون كثيراً كي يوقفوا على الأقل بعض أشكال المساعدة الاقتصادية لإندونيسيا وإيقاف امدادات الأسلحة الحديثة من شركة لوكهيد وقطع الغيار منها في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1963. ومن أجل إظهار تضامنهم الكامل أعلن البريطانيون في شهر كانون الأول أن قوات أستراليا ونيوزيلانده سوف تنضم إليهم في الدفاع عن ماليزيا ضد أي عمليات غزو عسكرية إندونيسية متصاعدة.

توقف التونكو بإلحاح من البريطانيين عن التذبذب في مواقفه حيال إندونيسيا في تلك الأثناء. وأعلن سوكارنو في خطاب له يوم 3 كانون الأول (ديسمبر) أن بعثة التحقق الأولى، التابعة للأمم المتحدة في «بورنيو الشمالية» لم تعمل وفقاً للإجراءات الديمقراطية. ووعد بأن يرحب بماليزيا إذا ما أظهرت بعثة تحقق أخرى أن شعبها يريد أن يكون جزءاً من «الاتحاد». وجاء تصريح ناطق رسمي باسم وزارة الخارجية الماليزية ليقلب العرض، ولكنه كان من الواضح أن «التونكو» نفسه هو الذي رفض. وبعد بضعة أيام انفجرت قنبلة كبيرة في «مقاطعة سنيت»، وهي ضاحية تسكنها الطبقة المتوسطة، ودمرت سيارة وقتلت رجلين. كانت تلك أولى خسائر «المجابهة» في سنغافورة، وكنا مستعدين لمزيد من الاضطرابات.

في 18 كانون الأول كشف التونكو مؤامرة إندونيسية لتفجير محطة «باسير بانجانغ» الكهربائية، التي تؤمن المياه ما بين الجزيرة وجوهور،والمؤسسات الحيوية الأخرى. وفي الوقت نفسه كشفت النقاب عن الملحق البحري الإندونيسي كان يدرب مخربين من سنغافورة، وأن الإندونيسيين قد اتخذوا إجراءات فعالة لاستيراد الأسلحة.

34. اكتساب أصدقاء في إفريقية

عارض سيد جعفر البار مهمتي الاستطلاعية إلى إفريقية. وقال في المجلس النيابي في 3 كانون الثاني (يناير) 1964: «بدلاً من جعل ماليزيا معروفة للأفارقة سيجعل نفسه معروفاً في الدول الأفريقية». وكان يريد أن يقوم بالزيارة وزير اتحادي. أجاب التونكو أنني طلبت موافقته كي أُعرّف أصدقاءنا في ذلك الجزء من العالم بماليزيا، وأنه يرى أن من الأفضل لشعبنا في المناطق الجديدة في الاتحاد أن يذهبوا إلى هناك بأنفسهم ليُعلموا الأفارقة أنهم انضموا إلى الاتحاد بمحض إرادتهم. إذا كانت الحكومة غير راضية عن نتائج البعثة، تستطيع أن ترسل وفداً آخر يكون البار عضواً فيه. وفي الوقت نفسه انتقدني التونكو لإجابتي عن رسالة من زهو إنالي، رغم أنني كتبت الرسالة قبل الاندماج. كان هذا خطأً كبيراً من جانبي كما قال. وكان علي أن أعرف أن مثل هذا التصرف غير مقبول في ماليزيا. فالاتحاد ينبغي ألا يكون له صلة بأي بلد شيوعي.

غادرت البعثة سنغافورة في أواخر كانون الثاني 1964 بطائرة توربو مستأجرة، مما أعطانا مرونة الحركة. كانت البعثة مؤلفة من رئيس وزراء ساراواك، وستيفان كالونغ ينخجكان (الذي انضم إلينا في لاغوس في شهر شباط) ونائبه جيمس دونغ، ووزير الدولة في صباح، وهاريس صالح، وأحد أعضاء برلمانه، ومن سنغافورة ديفان نير وسكرتيري البرلماني رحيم إسحاق. كنت أريد أن تتمثل في الوفد كل مجموعة عرقية كبيرة ـ المالاويون والصينيون والهنود والداياك، والكادازان، وكان معنا اثنان من كبار موظفي وزارة الخارجية، وفريق من الصحفيين الماليزيين.

خططنا لزيارة 17 أو 18 بلداً في جولة تمتد 35 يوماً وأن نبقى في القاهرة أو الإسكندرية ريثما يجري إعداد الترتيبات. لم تكن المهمة سهلة. فماليزيا لم يكن لها تمثيل في أي بلد في إفريقية السوداء،لذلك كانت الاتصالات صعبة تمر عبر

بعثات تلك الدول في لندن لدول الكومونولث، أو سفاراتها في مصر،أو عبر وفودها في الأمم المتحدة، وأحياناً بمساعدة وزارة الخارجية البريطانية. وهذا ما كان يجعل ماليزيا تبدو تابعة لبريطانيا، ولكن لم يكن أمامنا خيار آخر أحياناً. وكان البلد الأفريقي الوحيد الذي رفض استقبالنا هو ليبيا.

كانت القاهرة محطتنا الأولى. لم يغير عبد الناصر رأيه في ماليزيا منذ التقيته في نيسان 1962. وكانت وكالة «انتارا» الأندونيسية قد قالت: إن علاقة السفير الماليزي في القاهرة بالرئيس عبد الناصر فاترة وإنه رفض استلام أوراق اعتماده. ولكن وزير الخارجية المصري محمود فوزي نفى صحة ذلك. وقالت الوكالة أيضاً إن مصر تتعاطف مع أندونيسيا. (وكان الأندونيسيون قد طلبوا من السفارة المصرية في كوالا لامبور أن ترعى مصالحهم عندما سحبوا سفيرهم). ووصف فوزي هذا الكلام بأنه «عار عن الصحة» كان الوزير فوزي، وهو فوق السبعين، رجلاً مهذباً ذا خبرة عالية. شرح لي لماذا كان سوكارنو ضد ماليزيا وما يريد أن يكسبه، إنه يريد قضية كي يلهي شعبه بطموحات خارجية. وإذا استطاع أن يشق ماليزيا يصبح دمج صباح وساراواك مع جزيرة بورنيو الأندونيسية مسألة وقت. كان عبد الناصر دافئاً وودياً في لقائي الذي استمر ساعتين بعد الغداء. وفي البيان المشترك أكد قبوله الدعوة لزيارة ماليزيا. وهذا يعني أن مصر اعترفت بماليزيا ولم تعتبرها كولونيالية جديدة.

في تونس، محطتي الثانية، التقيت الرئيس الحبيب بورقيبة، عربي متفرنس، وخلافاً للمتوقع كانت سياسته معادية للكولونيالية. وافق بورقيبة على أن ماليزيا الدولة ذات العشرة ملايين نسمة وقواتها التي لا تزيد عن 10 آلاف، لها الحق أن تطلب المساعدة عندما تهاجمها دولة يبلغ تعداد سكانها 100 مليون نسمة وتعداد قواتها 400 ألف مقاتل. وكنت أكرر هذه المقولة أمام كل زعيم أقابله له تحفظات على روابط ماليزيا الدفاعية مع بريطانيا.

ومن تونس طرنا إلى الرباط، عاصمة مراكش. لم يستقبلنا الملك، أما رئيس وزرائه فلم يُبد كثيراً من الاهتمام، وجعل محادثاتنا غير مترابطة. لم يكن ضد ماليزيا، وبصورة عامة المراكشيون موالون للغرب، لذا لم يكن ثمة خطر في تأييدهم لسوكارنو.

ثم انتقلنا إلى الجزائر التي كنت قد زرتها في تموز 1962 في طريق عودتي من مؤتمر لندن بعد أن نال الجزائريون استقلالهم من فرنسا. ومع أنني طرت من باريس في وقت متأخر تلك الليلة فقد قدم لي رئيس الوزراء بن بيلا العشاء في الساعة الحادية عشر ليلاً. ربما كان قد نُصح هذه المرة من قبل وزير خارجيته أن «التونكو» لم يكن ثورياً معادياً للاستعمار، ولكنه كان يعرفني رجلاً قوياً وصديقاً. وقد كنت قادراً على أن أشرح له بمساعدة هاريس صالح من صباح وجيمس وونغ من ساراواك، أن من حقنا ألا نُبتلع من قبل أندونيسيا، بل أن نندمج مع المالاويين، الذين تقاسمنا معهم ماضياً استعمارياً بريطانياً مشتركاً. ثم دعوت أنا وجيمس وونغ إلى اجتماع ثان غير محدد معه. عبّر بن بيلا عن أمله بأن يعود السلام، وقال: إن الجزائر راغبة في تأييد أي جهد يجمع ما بين ماليزيا وأندونيسيا لحل خلافاتهما دوماً. وصدر بعد ذلك بيان صاغه الجزائريون خلا من أية تحفظات سابقة واعتبر زيارة الوفد الماليزي تعزيزاً للتفاهم المشترك والصداقة بين البلدين.

كانت محطتي التالية باماكو في دولة مالي، وهي دولة قاحلة يغلب عليها الطابع الصحراوي. دهشت لاكتشافي أن تيمبوكتو لم تكن مكاناً خيالياً. ففي المطار جرى الترحيب بي على الطريقة الفرنسية، أولاً من قبل حرس الشرف ثم من قبل فتاة نحيلة ذات بشرة غامقة نصف عربية ونصف أفريقية في ملابس غربية. قبلتني على وجنتي وقدمت لي باقة من الزهور. ثم استقبلنا الرئيس موديبو كيتا بثوب عربي في قصره الجديد الذي تتميز غرفه بأسقف عالية، وبأثاثها وتكيف هوائها. وبعد ذلك صدر بيان رسمي عن القصر الرئاسي يفيد

بأنه يؤكد على تمسك مالي بمبادئ عدم الانحياز، والتي تعارض تماماً وجود قواعد عسكرية أجنبية، وأضاف أن هذه المبادئ تطالب باحترام سيادة الدول. كما أشار البيان إلى دعوة لرئيس دولة مالي للقيام بزيارة رسمية إلى ماليزيا وليتأكد من تسلم جواب إيجابي. وأشار الرئيس كيتا، كشأن بن بيلا في الجزائر، أن بلاده تسحب تحفظاتها تجاه ماليزيا.

فيما كنت أتجه جنوباً رحت أفكر أن الأفارقة والعرب استطاعوا أن يلتقوا ويتمازجوا في القسم الشمالي من الصحارى، ممن ينتمي معظمهم إلى الإسلام. إن إفريقية السوداء عالم مختلف تماماً ولها مجموعة حضارات مختلفة.

وصلنا ليبيريا قبل الغسق. فبعد الهواء الجاف الصحراوي في باماكو، كانت مونروفيا حارة ورطبة مثل سنغافورة. ولكن ليبيريا كانت محاكاة ساخرة للدولة. فقد كان حرس الشرف ذا الطابع الأمريكي يتجول في المطار بلباسه غير الأنيق. حياني أفريقي طويل بلغة إنكليزية ذات لكنة أمريكية وقال فمعظم إنه كان وزيراً للخارجية. معظم مؤسساتهم كانت ذات أسماء أو طابع أمريكي. وقد أطلق حرس الشرف 18 طلقة من بنادقهم تحية.

وفيما كنا ننتظر في قاعة الشرف أخبرنا وزير الخارجية أننا سنذهب مباشرة إلى مزرعة الرئيس وليام تبمان،حيث كان ينتظر ليقدم لنا الغداء. استغرق إلى هناك الوصول قرابة ساعتين بالسيارة. كنت متعباً. فقد طرنا لمدة ثلاث ساعات واحتجنا إلى أن نغتسل ونرتاح. ولكن لم يكن ثمة مخرج. فقد كان هناك 7 من راكبي الدراجات النارية العسكرية حولنا مع حارس عسكري يجلس في المقعد الأمامي من سيارتنا الكاديلاك. وأثناء رحلتنا الطويلة التي دامت ثلاث ساعات خرجت درجاتان عن الطريق. ولم يهتم أحد بمصير الراكبين. وفهمت من رد فعل الوزير والمرافق أن مثل هذه الأمور تحدث عادة. وصلنا،والتقطت لنا الصور. وقدم لنا فيما بعد الطعام. ولم نستطع أن نغادر لمتابعة رحلتنا الطويلة إلى بيت الضيافة في مونروفيا.

أخرجت بيجامتي متعباً واتجهت إلى الحمام ووجدت المغطس مليئاً بالماء مع رواسب صدأ في القاع. وطلبت على الفور استبدال الماء. ولكن لم يكن ثمة مياه في الأنابيب. فاضطررت إلى الاستحمام بتلك المياه للتخلص من عناء السفر. بحثت عن زجاجة ماء فلم أجد، واستبدلتها بزجاجة فانتا. كانت حلوة المذاق ولكنها أفضل من لا شيء. بعد كل هذا القلق لم أستطع النوم. فأخرجت مادة للقراءة من جانب السرير. كانت أنشودة مديح للرئيس، نجم إفريقية ومنقذ البلاد. طويت الكتيب كي آخذه إلى البيت تذكاراً.

لم يكن ثمة حاجة إلى بيان مشترك في ليبيريا، إذ لما كان تابمان معروفاً بولائه لأمريكا، فقد كان يؤيد ماليزيا كما قَبِلَ دعوة «التونكو» لزيارة «الاتحاد». وفي اليوم التالي تجولت في مونروفيا كي أشاهد القصر الرئاسي الضخم وأحياء الفقراء البائسة حوله. كنت سعيداً بالانصراف.

وبعد مونروفيا كانت كوناكري في غينا، الدولة الأكثر عداء لفرنسا من بين جميع الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية. وكان الرئيس الفرنسي ديغول منزعجاً عندما صوتت غينا على الانسحاب من الرابطة الفرنسية. قالوا لنا: إن الفرنسيين سحبوا جميع أجهزة الهواتف وتجهيزات أخرى قبل أن يغدروا البلاد. ولكن حتى لو كان بقي كل شيء على حاله فإن السياسة الجامدة التي اتبعها الرئيس سيكوتوري ـ الاشتراكية ذات الطابع السوفييتي ـ كانت كافية لجعلها فقيرة. في عام 1964 لم تكن الآثار مدمرة بعد. نزل الوفد في شاليهات ذات مستوى فخم على الشاطئ تشبه أكواخ القش التي يسكنها زعماء القبائل الأفريقية، ولكنها مبنية من الآجر والملاط.

كان سيكوتوري نقابياً، شديد الذكاء. أمضينا وقتاً طويلاً نتحدث عن الاشتراكية بواسطة مترجم، وأعطاني عدة نسخ من كتابه «اشتراكية من أجل غينيا». كان معروفاً علانية بأنه ضد التدخل الإمبريالي في مستعمرات فرنسا القديمة لتأييد الزعماء الأفارقة الذين كانوا يفضلون السياسات الفرنسية، ورغم

معرفته الضئيلة عن ماليزيا كنت قادراً على جعله يفهم أن القوات البريطانية كانت ضرورية لإنقاذ بلد صغير مهدد من قبل جار كبير. ومهما كانت آراؤه الأساسية فقد تركته أكثر تقبلاً وانفتاحاً. كان بوسعه أن يرى جيمس وونغ، وهاريس صالح وأنا بأننا لم نكن دمى للاستعمار. استقبلنا بحفاوة، وقدم لنا غداء رسمياً، ولم ينتقد ماليزيا.

ثم توجهنا إلى أبيدجان في ساحل العاج. كان اختلافها عن كوناكري شديداً. كان الرئيس هوفيوت ـ بويغني، زنجياً فرنسياً، ووزيراً في الجمهورية الرابعة. رقيق الطبع، أنيق الملبس، استقبلني في قصر رائع يقع على منحدر هضبة، وتناولنا غداء فرنسياً مع الشامبانيا ومشروبات أخرى. كان متزوجاً من اثنتين كلتاهما حضرتا الغداء، وكلتاهما شابتان وجذابتان وشقيقتان!

لم يكن ثمة حاجة لإقناعه بقضيتنا. قال: إن أولئك الزعماء الأفارقة الذين ساروا في اتجاه آخر وأصبحوا معادين للاستعمار وموالين للشيوعية أو اشتراكيين سوف يعانون. وقد تأثرت بواقعيته.

قبل الرئيس دعوة التونكو لزيارة كوالا لامبور بدون تردد. كانت ساحل العاج في ذلك الوقت في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة،ممثلة للكتلة الأفريقية، وكان من المفيد أن نكسبها إلى جانب ماليزيا.

المحطة التالية كانت أكرا، عاصمة غانا. وكان من بين السفراء الذين حيوني في المطار سفراء ساحل العاج ومصر والجزائر. وقد أكد لي الأخير أن الجزائريين هم معنا الآن. كانت غانا، المعروفة باسم «ساحل الذهب» أول دولة أفريقية تحصل على الاستقلال (عام 1957) وكان رئيسها كوامي نيكروما من رؤساء إفريقية البارزين ودعاة الوحدة الأفريقية. وقد ضرب مثلاً للآخرين بزواجه من مصرية. أشارت إليه الصحف المحلية على أنه رجل العصر، كما كان مشهوراً بمعاداة الاستعمار ولديه رصيد يحافظ عليه. في يوم وصولي كتبت

صحيفة «أخبار المساء» في أكرا «إن الاتحاد الماليزي الحالي يحمل طابع الكولونيالية الجديدة». وشبهته «باتحاد إفريقية الوسطى» المنحل وانفصام عدن عن «الاتحاد الجنوبي العربي».

قابلت نكروما يوم الأحد في «قلعة كريستيان بورغاً التي تعود إلى القرن الثامن عشر، وهي مركز تجاري دانيماركي عتيق، والذي كان آنذاك مقر الحكومة. وفيما كنت أقترب من مقره الخاص كنت أسير بين مصابيح زيت ذات طراز هندي على جانبي البساط الأحمر. وجدته في حالة غريبة. كان قد نجا لتوه من انقلاب فاشل. ولكنه كان ودياً تجاهي، وقد تحاورنا لمدة ساعة. قال لي ـ وقد نقلت ذلك إلى الصحافة ـ لو أنك لم تأت لكنت أخطأت بسبب إهمالك». وفي اليوم التالي خففت الصحف المحلية من لهجتها تجاه ماليزيا. فالآن باتوا يقولون إنه قد يمكن استخدامها، ربما عن غير وعي، لأغراض الاستعمار الجديد. أمضيت النهار مسافراً مسافة 70 ميلاً كي أصل إلى سد «فولتا العليا» الذي كان قد بني من قبل تجمع شركات إيطالية وموّله البنك الدولي والحكومتان البريطانية والأمريكية. ولكن بعد أن رأيت كوناكري وأكرا والتقيت بزعماء يتحدثون بطابع اشتراكي حول توزيع الثروة، اعتقدت أنهم سيصبحون فقراء.

وفي لاغوس، نيجيريا، استقبلني رئيس الوزراء الحاج أبو بكر تافاوا باليواه صديق التونكو الحميم، في المطار استقبالاً رسمياً مع حرس الشرف. كان تأييده لماليزيا عظيماً وكذلك كانت مودة الشعب النيجيري. فعلى طول الطريق إلى المدينة الذي يمتد 15 ميلاً اصطفت الجماهير تُحيينا وترحب بنا. كانت لاغوس أفضل كثيراً من أكرا، فكثير من أبنيتها تشبه مباني الملايو وسنغافورة. وعند المغادرة كان بوسعي التحدث عن الدعم المعنوي الكبير لماليزيا من جانب رئيس الوزراء. وقد أرسلت نيجيريا ممثلاً خاصاً إلى كوالا لامبور لحضور الاحتفالات بعيد الاستقلال.

كانت لوساكا تقع في روديسيا الشمالية، وكانت على وشك الاستقلال وتغيير اسمها إلى زامبيا. كان رئيس الوزراء، كينيث كاوندا خارج البلاد، لذا فقد استقبلني نائبه كامانغا، نزلنا في فندق «ليفينغ ستون» وهو بناء مستدير من طابق واحد يشبه الفنادق الصغيرة في الريف الإنكليزي. كان الوزراء وديين، ولكنهم لا يعرفون إلا القليل عن جنوب شرق آسيا. ولكنهم كانوا مسرورين بزيارتنا وبطلب التأييد منهم. وقبلت الحكومة دعوة كاوندا لزيارة ماليزيا.

ثم انتقلنا إلى بلانتير مالاوي. حيث الرئيس الدكتور. هاستينغ باندا، الذي كان يُدعى من الجميع باسم «نغوازي» وهي تعني رجلاً ينظر إليه كأسد لسطوته وقوته. تخصص طبيبَ صحة في سكوتلاندة ومارس الطب هناك بسعادة لبضع سنوات. لم يكن بحاجة إلى أي إقناع، فقد كان ضد رهاب معاداة البيض.

ومن مالاوي إلى مدغشقر التي سُميت فيما بعد مالاغاسي، إلى عاصمتها تانانا ريف، حيث استقبلنا الرئيس تسيرنانا بكثير من الحفاوة وحسن الضيافة. كان رجلاً ملفتاً للانتباه وصريحاً ومستقيماً. تحدث بصراحة عن علاقات بلاده الوثيقة بفرنسا. وبعد أن استمع إلي قال: «إذا كان لا بد من الاستعمار، فمن الأفضل على الأقل أن يكون المستعمر أكثر حضارة بدلاً من أن يكون أقل حضارة». كانت مدغشقر بلداً غريباً، فهي جزيرة خارج الشاطئ الأفريقي، سكانها نصف أفارقة ونصف مالاويين أو بولونيز. ورقصاتهم تجمع ما بين الطابع الأفريقي والطابع البولونيزي لتحريك اليدين. كما توجد في لغتهم كلمات مالاوية. وبعد أن تناقشنا في مكتبه، سحب تسير نانا محفظة جلدية من درجه ونشر عدداً من الحجارة شبه الثمينة من مناجم مدغشقر. ثم دعا كل واحد منا أن يختار حجراً، فاخترت لوناً بحرياً من أجل تشو. واختار كل واحد من أفراد بعثتنا ما يروقه. شعر بسرور عظيم في رؤية البهجة على وجوهنا ونحن نختار الحجارة.

كانت دار السلام في تانغانيكا، والتي أصبحت فيما بعد تدعى تانزانيا، مختلفة. فيوليوس نيريري مسيحي، وإنساني، واشتراكي، وقد أعرب عن تأييده لماليزيا بدون أية قيود. ومن اللقاء الأول أحببت هذا الرجل لبساطة لباسه

وطباعه وطريقته في الحياة. فقد استضافني في قصر الرئاسة، الذي كان يستعمله الحاكم البريطاني قبل الحرب العالمية الأولى. أما هو فكان يفضل العيش في بيت صغير مجاور. كان وزراؤه الهنود على مائدة الغداء. وقد أشار هؤلاء أنه خلافاً لدول شرق إفريقية فقد كان لهم مكان في طانجانيقا. ولكن من دواعي الدهشة أن فلسفته الفابية والدولانية لم تأت من الماركسية بقدر ما جاءت من المناقشة مع زعماء آخرين معادين للاستعمار وكذلك من بعض الاشتراكيين البريطانيين المتفهمين الذين قابلهم في بريطانيا والتي سببت لبلاده فقراً لا ضرورة له.

عندما وصلت إلى كامبالا في أوغندا،كان رئيس الوزراء ميلتون أوبوت خارج البلاد، فاستقبلني وزراؤه. كانوا وديين ومتفهمين، فقد لعبت علاقاتنا المشتركة في الكومونولث دورها. كان هناك بعض التوتر بين الحكومة وكاباكا بوغاندا، أو «الملك فريدي» كما كان يدعى شعبياً، ولكن مع أن أوبوت قابل «التونكو» في مؤتمرات الكومونولث وكان ينظر إليه على أنه «الملك فريدي» آخر، فإن هذا لم يؤثر في تأييد أوغاندا لماليزيا. فقد كانا يتعاطفان مع ماليزيا،ولم يؤيدا أندونيسيا.

كانت الوقفة التالية في نيروبي مهمة. بحيث كان الرئيس جومو كينياتا معروفاً باسم رمزي (فري)، وهي عبارة تدل على الاحترام الشديد والتقدير لرجل كبير. كان مشهوراً في العالم بوصفه من أجل الحرية، والذي اعتقل أثناء ثورة الماوماو في الخمسينيات ضد الحكومة البريطانية والمستوطنين البيض. أما الحاكم العام مالكوم ماكدونالد، الذي كنت أعرفه عندما كان المفوض البريطاني العام في جنوب شرق آسيا فقد أعطى تعليمات لحكومة كينيان بشأن ماليزيا، وكل ما كنت أحتاج إليه هو مقابلة كينياتا والحصول على تأييده. ولسوء الحظ كان خارج مومباسا يفتتح مصفاة للنفط، ولكن مالكوم ماكدونالد كان حصيفاً وطلب من الحكومة أن تقابلني.

التقاني كينياتا في المطار واتجهنا معاً في سيارة مكشوفة إلى فندقي عبر حشود من الناس تصيح «أورومبي أورومبي». شجعني كينياتا على الانضمام إلى الأنشودة وأن أرفع أصابعي إلى السماء كما يفعلون،وهذه علامة كما شرح لي تعني «لنكن شعباً واحداً». وفي بيان مشترك أكد على صداقة كينيا مع ماليزيا، ورحب بزيارة البعثة كخطوة إلى الأمام نحو تعزيز التفاهم، وشكرني على مجيئي إلى مومباسا لرؤيته.

كانت محطتي الأخيرة أديس أبابا عاصمة أثيوبيا. بعد وصولي تجولت بالسيارة ظهراً، وتناولت العشاء في بيت الضيافة ثم نمت. وكنت أخشى أن أصاب بأزمة قلبية. فقد نمت نوماً عميقاً. وفي الصباح وعلى الفور سألت بعض أعضاء البعثة الآخرين ما إذا كان أحدهم قد انتابه مثل هذا الشعور الغريب. وكان الجواب بالنفي. فتمنيت لو أحضرنا معنا طبيباً. وعندما وصل الجانب الأكبر من الأعضاء من فندق في المدينة وارتحت كثيراً لأن أجد عدداً منهم قد انتابه هذا الشعور. كان ذلك دوار الجبال، فأديس أبابا ترتفع 8500 قدم فوق مستوى سطح البحر.

ومن أجل أن يستقبلني الإمبراطور هيلي سيلاسي كان عليّ أن أمر بين فهدين مربوطين إلى عمودين على جانبيه. بدا المشهد وكأنه من عصر الملك سليمان في العصر البابلي، باستثناء أن هيلي سيلاسي كان يرتدي حلة عسكرية ذات طراز إنكليزي. كان يصغي إليّ وكان واضحاً تماماً في تأييده لماليزيا. بيد أن حكمه لم يكن واحداً من الأنظمة الثورية في إفريقية. ذهلت بالفارق وبترحيب الجماهير في الشوارع والسيارة تقلّني وأعلامها ترفرف. كانوا يرفعون قبعاتهم وينحنون باحترام. كانت الأعلام تمثل السلطة سواء أكانت ترفرف للإمبراطور أم لضيوفه أم لأعوانه من المسؤولين، وكانوا يعرفون موقعهم المتواضع في أسفل السلّم. وخلافاً لبعض الأبنية الأنيقة أحياناً حولهم، فقد بدوا شاحبين وفقراء. عزوت ذلك إلى النظام الإقطاعي البالي الذي جعل الفلاحين فقراء وخصّ النبلاء بالثروة. لم أشعر بالتفاؤل تجاه مستقبل البلد.

الرئيس جومو كينياتا يستقبلني في مطار مومباسا، كانون الثاني، 1964.

شباط 1964: زيارة يوليوس نيريري (في الوسط) في دار السلام، تانزانيا.
وفي اليمين جلس ستيفن كالونغ، رئيس وزراء ساراواك.

ومن أديس أبابا طرت إلى عدن، في وقفة قصيرة من أجل وقود الطائرة، في طريقي إلى نيودلهي. كانت عدن تعاني من حروب أهلية فيما كان البريطانيون يستعدون للانسحاب. كانت هناك إجراءات أمنية مشددة حول المطار حيث كان الجنود يرابطون في أماكن استراتيجية، وفي حديثي مع ضباط سلاح الجو خلال الساعة التي أمضيناها هناك كنت أشعر بحالة الطوارئ.

في دلهي كنت مذهولاً أن أرى نهرو مهروماً منذ قابلته أول مرة في نيسان 1962 . بدا مُتعباً ضعيف التركيز. كانت حرب الحدود التي جرت في كانون الأول من عام 1962 بين القوات الهندية والصينية عبر الهيمالايا كارثة. فقد دمرت كل ما كان يأمل به ويعمل من أجله. وكان قد قدم زهو إينلاي إلى الزعماء الأفرو آسيويين في باندونغ عام 1955 لفتح عصر جديد من التضامن الأفرو ـ آسيوي، ولكن أحلامه تحولت إلى حطام. شعرت بالأسى من أجله. لقد فقد حيويته وتفاؤله. بينما استقبلنا وزراؤه ومسؤولوه بحرارة وترحيب.

كانت محطتي التالية كوالا لامبور، وليس سنغافورة كي أقدم تقريراً للتونكو. كان سعيداً لأنني جابهت دعاية سوكارنو في الجبهة الأفرو ـ آسيوية. غطى تلفزيون كوالا لامبور مؤتمري الصحفي. قلت: إن الأندونيسيين طوروا مهارات دعائية، كانوا يعرفون حساسيات القادة الأفارقة الذين كانت القواعد الأجنبية بالنسبة إليهم من المحرمات. كانت هناك مشكلة الصورة الدولية لسوكارنو الذي بدا من خلال الفصاحة الكلامية ثائراً عنيفاً ضد الاستعمار،في حين أن التونكو كان رجل الغرب المعتدل. لقد أخطأ الأندونيسيون في تمثيله في خصاله الحميدة على أنه صنيعة للبريطانيين.

في فورة اللحظة غفر لي «التونكو» بياناتي المتمردة أثناء الانتخابات واقترح أن أذهب إلى نيويورك وواشنطن لأبيّن للأمريكيين أنني أقنعت الأفارقة. كان بوسعي أن أغادر على الفور بعد أن ارتحت. في اليوم التالي، 27 شباط،طرت إلى سنغافورة لأُستقبل بآلاف المرحبين بي في المطار. ووصف جيمس وونغ،الذي

غادر إلى ساراواك بعد دار السلام، مهمتي بأنها حققت نجاحاً هائلاً عند توقفه في سنغافورة، وقال: «ضمنا التفاهم والتعاطف والدعم المعنوي من جانب جميع الزعماء الأفارقة والوزراء الذين قابلناهم». وفيما كنت أقود السيارة ومعي زوجتي تشو وأولادي الثلاثة كانت الجماهير تلوح لنا على طول الطريق. كانت رحلة مرهقة، ولكنها لا تقدر بثمن بالنسبة إلى ثقافتي السياسية. تعلمت مباشرة من العرب والأفارقة وفهمت ما هي العقبات التي ينبغي أن تتجاوزها الدول الأفريقية الجديدة كي تعلم شعوبها وتطور اقتصادياتها وحيدة الجانب.

طوال رحلتي التي دامت 35 يوماً لسبعة عشر عاصمة أفريقية،ساعدتني الحرفية المهنية للسفارات البريطانية. فقد كان دبلوماسيوهم على اطلاع حسن وتكيف جيد مع الحكومات المضيفة. وكانوا يمدونني بكثير من المعلومات المفيدة. فعند كل توقف كنت أتلقى تلخيصاً موجزاً عن الوضع في البلاد، وتعريفاً بوزرائها الذين يحتمل أن ألتقي بهم، مع وصف لبنية السلطة. كانت هذه المعلومات جيدة. كما أن صفات الدبلوماسيين البريطانيين كانت عالية. أما أنهم جلبوا لبلادهم فائدة اقتصادية فهذه مسألة أخرى.

كان من أبرز ذكرياتي مقر الحكومة في لوساكا، حيث أقمت ضيفاً على آخر حاكم بريطاني لروديسيا الشمالية، السير ايفلين هون. كان حسن الأثاث والصيانة ولكنه لم يكن فخماً. كانت التجهيزات الداخلية تشبه ما كنت أجده في بيوت الحكومة البريطانية في سنغافورة وساراواك وبورنيو الشمالية. إذ كانت جميعها ذات نظام واحد. تساءلت عن نمط الحياة التي سيعيشها الحاكم في بريطانيا، عندما يغادر وظيفته، بدون عدد كبير من الخدم الذين يرتدون ملابس رسمية. كان يقوم بواجباته على خير ما يرام. ومن نافذة غرفة قاعة الاستقبال كنت مسروراً بمشاهدة بعض الحيوانات الأليفة وبعض الطيور الأفريقية في الحديقة. كان مقر الحكومة أشبه بقصر بريطاني يقع في روابي إفريقية، مع كل ما يمكن جلبه كي يخفف من حنين الحكام إلى أوطانهم.

كان عليّ أن أعود إلى لوساكا عام 1970 من أجل حضور مؤتمر دول عدم الانحياز، ومؤتمر دول الكومونولث مرة أخرى عام 1979. وفي كل مرة كان ثمة تجربة مريرة. فقد تذكرت الأزهار والأشجار والخضرة على جانب الطريق وما يحيط بها عندما كنت أقود السيارة من المطار في عام 1964. إذ نمت الأزهار بسخاء. وبعد ست سنوات اختفت الأزهار والأعشاب، وكان الإسفلت يغطي الشوارع. وتناقص عدد الحيوانات والطيور في مقر الحكومة، والقصر الملكي الآن،تساءلت لماذا؟.

تعلمت درساً لا ينسى من إزالة الاستعمار. فَلَكم هو أمر حاسم أن يكون لدينا وعي اجتماعي وحكومة قادرة وفعالة لاستلام الحكم من السلطة الاستعمارية، ولاسيما في إفريقية. إذا لم يحافظ الزعيم على وحدة البلاد بإشراك زعماء قبائل الأقليات في السلطة أو يستبعدهم فسرعان ما سينهار النظام. والأسوأ من ذلك التطبيق السيئ لسياسات غير مستوعبة جيداً حول إعادة توزيع الثروة والاشتراكية. والمحصلة هي حصاد النتائج الوخيمة.

35. مغامرة في قلب المالايو

(دعوت) في يوم مغادرتي إلى إفريقيا لاجتماع طارئ «للجنة تنسيق الدعاية والنشر»، التي كنت رئيسها لمناقشة كيفية توفير الحماية لمصالح سنغافورة في كوالا لامبور. فتنميتنا الاقتصادية لا يمكن أن تكون رهينة التحامل السياسي لوزير المالية الماليزي تان سيوسين. و كنت أريد من اللجنة أن تهتم «برغبة حزبنا ـ PAP ـ في التقدم في الانتخابات القادمة في ماليزيا». بإدخال بعض المرشحين. وكان عليهم أن يتخذوا القرار بعد عودتي فقط.

ولكن عندما كنت في إفريقيا ألح راجا، وتشين تشي و بانغ بون ـ ثلاثة من وزراء سنغافورة نشأوا في المالايو ـ على اللجنة التنفيذية المركزية لحزبنا على الاشتراك والمنافسة في الانتخابات الماليزية العامة.

وفي اليوم التالي الذي تلا عودتي أعلنت الصحف أن الانتخابات سوف تجري في شهر نيسان. وسرعان ما أعلن تشين تشي أن حزبنا سيعلن عن عدد صغير من المرشحين. وأضاف بأن الحزب ليس لديه رغبة في مواجهة الحكومة المركزية أو «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو» ـ UMNO، وأن هدف الحزب هو التعاون معهما من أجل نجاح ماليزيا.

كان كينغ سوي ضد أية مساهمة على وجه الإطلاق. وكان يعتقد أن مثل هذه المساهمة ستضعف العلاقة بين كوالا لامبور وسنغافورة وتعرض خططه لتصنيع البلاد ضمن «الاتحاد»، وكان لدي تحفظات، إذ لما كان التونكو قد خرق تعهده الشفوي لي بعدم المشاركة في انتخابات سنغافورة، فإنني لم أعد ملتزماً بتعهدي وسرت مع قرار اللجنة التنفيذية المركزية.

جاء رد الفعل من UMNO فورياً وحاداً. فقد أعلن خير جوهري، وزير الزراعة والرجل المفضل عند «تونكو»، والذي طلب إليه إعادة بناء المنظمة في سنغافورة، أنه مستعد لمحاربة حزبنا لأن عقيدته مختلفة: فحزب العمل الشيوعي ـPAP قال: إنه حزب غير شيوعي في حين أن منظمتنا معادية للشيوعيين بشكل قاطع. وكان رد فعل سيوسين غاضباً. فبالنسبة إليه كان هذا بمثابة تحدٍ لـ MCA التي تمثل الصينيين في «الاتحاد». وقال تشين تشي: إن هدفه الرئيسي من المنافسة هو مواجهة الأحزاب المعادية لماليزيا، ولكن «التحالف» (الذي كانت فيه MCA عضواً) لديه نفس الهدف، ولذلك فإن مساهمة حزبنا ليس من شأنها إلا إحداث انشقاق في التصويت لصالح ماليزيا.

بقيت صامتاً. كنت أستعد للسفر إلى نيويورك و أن أعود في وقت الانتخابات فقط، ولكن التونكو لم يقل شيئاً. وبعد عدة أيام قال ليس «من المناسب سياسياً» لحزب PAP أن يمثل ماليزيا في الولايات المتحدة في الوقت الذي يتنافس مع «التحالف» في الانتخابات. رفض موقفنا القائل إن بعض المرشحين سوف يجابهون الحزب الشيوعي وليس «الاتحاد». كان حزبنا يحاول أن يزيح الحزب الشيوعي وليتحالف مع «الاتحاد». ونحن لا نريدهم كما قال. كنت أعرف ذلك ولكنني اعتقدت أن من الممكن أن يغير رأيه عندما رأى أن حزبنا، وليس الحزب الشيوعي، هو الذي نال تأييد أصوات الريف. قلت إن القيادة المالاوية الحالية للتونكو و«UMNO» كانت حيوية بالنسبة إلى ماليزيا، ولكن الحزب الشيوعي يمكن استبداله. فالتعاطف الشعبي تجاهه في المدن وصل إلى نسب جعلت «الجبهة الاشتراكية». (المالاوية) على الرغم من توجهاته الشيوعية الواضحة، يمكن أن تكسب في بعض الدوائر الانتخابية حيث لم تكن ثمة وسيلة أخرى لتسجيل تصويت معادٍ ضده. كان بيان حزبنا الانتخابي له هدفان: المساهمة في بناء ماليزيا اشتراكية ديمقراطية متحدة قائمة على مبادئ العدالة الاجتماعية والابتعاد عن الشيوعية، والهدف الثاني ضمان ألا تستفيد من أصوات الاحتجاج

الأساسية ضد MCA. الحزب الشيوعي، ونزلنا بأحد عشر مرشحاً للبرلمان فقط. وكان المهيؤون على نحو أفضل سياسياً هم المواطنون الاتحاديون من مواليد الملايو، الذين عملوا في سنغافورة وتحالفوا مع حزبنا. ومن أكثرهم شهرة ديفان نير الذي رافقته إلى دائرته بونغسار في ضواحي كوالا لامبور يوم الترشيح.

سحب حزبنا اثنين من المرشحين في جوهور عندما وجدنا أنهما ينافسان المنظمة الوطنية UMNO وليس مرشحي الحزب MCA الشيوعي، ولكن ذلك لم يخفف من قلق الزعماء المالاويين ـ فنحن مازلنا نتحدى شركاءهم الصينيين الموثوقين، وهم لا يريدوننا. لم أفهم أن اعتراضهم كان أمراً أساسياً. كانوا لا يريدون الصينيين أن يتمثلوا بقيادة قوية تقترح منهجاً سياسياً غير طائفي أو متعدد ولا تقتصر على الصينيين فقط.

في بداية الحملة، ليلة 22 آذار (مارس) اتجه جمهور حاشد إلى ساحة سليمان في كوالا لامبور كي يستمع إلينا، وملأت الحشود الساحة والشوارع المؤدية إليها. وكانت الحماسة التي أوجدها حزبنا هائلة. وأكدت في خطبتي أن مرشحي حزبنا إذا ما انتخبوا فسيحدثون ثورة اجتماعية تفوق كثيراً أهميتهم العددية. «إذا عبرتم إيجابياً عن أنكم في جانب شريك ذي سياسة اقتصادية واجتماعية وديناميكية عندئذٍ ستبدأ رياح التغير في اكتساح ماليزيا في كل مكان». قلت هذا مستعيراً كلمات هارولد ماكميلان الشهيرة. وأضفت بأن على المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو ـ UNMO، إذا كانت تريد الحصول على أصوات كثيرة، أن تعدل سياستها بحيث تأخذ في اعتبارها رغبة الشعب. ورد عليّ رزاق قائلاً: إن رياح التغيير المخيفة قد هبت على المالايو والشعب يستطيع أن يرعى ثورته الاجتماعية بنفسه.

طوال شهر من الحملات كنت أتجول في المالايو في المدن التي لدينا فيها مرشحون: بينانغ، وكوالا لامبور، وسيريمبان ومالاقا، وكلوانغ. وكانت الجماهير، تلتف حولنا في كل مكان نجري فيه مهرجانات خطابية. كان الناس يريدون أن

يرونا ويسمعونا. وكانوا يمدونني بكثير من الحماسة في كل مرة. كانوا يسمعون، ويقرأون، ويشاهدون ماذا فعلنا في سنغافورة وأننا قادرون على أن نقوم بالأشياء نفسها من أجلهم في المالايو.

كانت معركة حامية الوطيس بين جميع الأطراف المتنافسة. وإذا ما احتكمنا إلى الحشود الجماهيرية، فقد كانت حملتنا التي استمرت شهراً ناجحة إلى حد بعيد. وكنا على ثقة من كسب ست أو سبع مقاعد من أصل تسع مقاعد، وخضنا المعركة بقوة وجرأة.

ومن أجل تبيان الفرق بين الاثنين تحدثت في مالاقا عن كينغ سوي وتان سيوسين، وكلاهما من مواليد مالاقا، وقلت: «إنهما شريكان في جد واحد، وهنا تشابه الأهداف». لقد انتهج كينغ سوي بوصفه وزير مالية سنغافورة، سياسات أدت إلى فائضات مالية مما يعكس خلفيته المتشددة. فقد كان أستاذاً في علم الاقتصاد.

من جهة ثانية ورث تان ثروة العائلة وكان فاحش الثراء. ولما كان مديراً لعدة شركات فقد أدار وزارة المالية بوصفها واحدةً منها ـ بحصافة واقتصاد من أجل أن يقدم أفضل الإيرادات للمديرين. إنه رجل ولد وفي فمه معلقة من فضة، وقد وصل إلى مناصب سياسية رفيعة بسهولة تحت ظل شهرة والده. كان يمثل دائرة «مالاقا تيبغاه» المالوية الانتخابية لذا وجد من غير الضروري أن يتعلم الحديث أو الكتابة بالصينية. ومع هذا فقد ادعى أنه يقود الصينيين في ماليزيا.

كان تان سيوسين غاضباً، ولكن «التونكو» خف لنجدته. فقد كان اتحاده UMNO يقف مع الحزب الشيوعي في السراء والضراء، حتى لو لم يبق منه إلا خمسة أفراد فإنه لا يتخلى عن شركائه ـ خلافاً لحزبنا، الذي جاء إلى السلطة بمساعدة الشيوعيين وقد تخلى عنهم الآن، كما قال «التونكو». رد تان ومن خلفه «التونكو» بعبارات صارمة.

فقد كان حزب العمل الشعبي (PAP) قادراً على الطعن في الخلف، فالمبدأ والشرف لا يساويان كثيراً لدى قادته، «ولي» نفسه كان مثل الحرباء، وكانت فكرته عن الديمقراطية موضع شك، إذا ما نظرنا إلى افتقار حزبه إلى الديمقراطية.

فقد دعاني لأن أعطي تفاصيل كي أؤيد الأقوال التي ذكرتها بأن الحزب الشيوعي كان فاسداً، وهي ما يقرب من التشهير.

أجبت بأنني مستعد أن أفعل ذلك إذا كان يوافق على لجنة تحقيق لمتابعتها. ولكنه لم يجب.

فيما اتخذ رزاق و التونكو ووزراؤه الطريق العالي اتخذ جعفر البار الطرق المنخفض. ففي 25 أيار سألني ما إذا كنت أدافع عن الاختفاء النهائي للسلاطين وتأميم مزارع المطاط ومناجم القصدير عندما كنت أتحدث عن ثورة اجتماعية. كما أبقتني السلطة العسكرية البريطانية في السلطة، كذلك أنقذتني حكومة التحالف من أن يسحقني «الباريسان»، وأضاف قائلاً: إنني مازلت أعامل مالاويي سنغافورة كريبين وأعاديهم. وقال: «لي كيوان يو يزدري المالاويين كثيراً حتى إن حكومته رفضت أن تعين أي مالاوي ليخدم في سنغافورة كونه أصلاً». ثم اتهمني بأنني قلت في خطبة لي بالصينية في سيريمبان إن «التونكو» ليس سياسياً رفيع المستوى. مما يعني أن قيادته غير قديرة. وكان هذا كذباً صراحاً، ولكن التونكو غضب، ورد بأنه في الوقت الذي يؤيد فيه الثورة الاجتماعية، فإن ما أدعو إليه مفهوم لا يلائم سجية الشعب ولذا لا نرحب به.

أجبت في كلوانغ أن نصف مشكلات «التونكو» يخلقها أصدقاؤه القدامى الذين استغلوا بمهارة ودهاء ولاءه الشخصي لهم. بأنني لم ألوث سمعته عند قلت بالصينية في سيريمبان، بأن عليهم أن يثقوا بحزبنا بتفهم كاف كي يعرفوا أن اتخاذ سياستين مختلفتين بلغتين مختلفتين سيكون ذلك الطريق المضمون إلى عدم الثقة به. ولكن البار ظل يتهمني بأنني ذو وجهين، مضيفاً «لا أحد ينبغي أن

ازدحام شديد في الاحتفال الانتخابي الأول لحزبنا.

آذار 1964، في ساحة سليمان، كوالا لامبور.

يثق بلي كيوان يو لأنه رجل لا يحافظ على كلمته. لا مكان لرجال مثله في مالايا». وأنه تلقى مئات الرسائل من مالاويين في سنغافورة، بما في ذلك من موظفي حكومة، يشكون أوضاعهم تحت حكم حزبنا (PAP) كما قال. كان ذلك توجه عنصري خبيث كي يجعل المالاويين يكرهونني.

فقد ظهر بالاحتكام إلى رد الحشود الجماهيرية أنه كان شهراً من الحملة الناجحة لصالح حزبنا. حتى الذين يلتمسون الأصوات من جانبنا عادوا بتنبؤات متفائلة، لأنهم استقبلوا استقبالاً حسناً. كنا واثقين من كسب 6 أو 7 مقاعد من أصل 9 مقاعد، ودخلنا الحملة بجرأة، وسحبنا هجومنا على «الاتحاد» على الرغم من تهجمهم علينا ولا سيما من جانب البار. في نهاية المنافسة في سيلانغور عشية الاقتراع وصفت ماليزيا بأنها سفينة تتجه نحو مياه مضطربة وعلى رأسها «التونكو». وأن ما يحتاجه الحزب الشيوعي ليس وجوهاً جديدة بل أفكاراً جديدة.

أعلنت نتائج الانتخابات في الصباح الباكر من يوم 26 نيسان (أبريل) وجاءت مفاجأة. في الساعة الرابعة صباحاً، فقد كسب «التحالف» 89 مقعداً من أصل 104 مقاعد، مما كان يعني نتيجة أفضل من الانتخابات السابقة. عاد كل وزير في «التحالف» بأغلبية أكبر. ولم يكسب حزبنا إلا مقعداً فقد واحداً هو مقعد ديفان نير في بونغسار، وبغالبية 808 أصوات فقط.

أين خطأنا؟

أولاً لم يكن لدينا حزب من أهل البلاد له فروع وقادة محليون في المالايو. فقد جلبنا عاملين من سنغافورة ومع أن بعضهم من أصل مالاوي، فقد كانوا يفتقرون إلى القواعد الراسخة اللازمة لكسب الثقة.

وثانياً لم يكن لدينا خبرة في خوض حملة انتخابات داخل «الاتحاد». ففي سنغافورة كان كل شيء في متناول يدنا وطوع بنانا.

وفي نهاية الحملة كان الحزب مديناً بأكثر من 60 ألف دولار، بعد أن أنفقنا 40 ألف دولار من صندوقنا. وثالثاً فإن مساهمتنا لم تقنع الناس بالتحول عن حزب MCA إلى حزبنا. فقد كانوا يريدون المحافظة على روابطهم مع «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو» (UMNO) التي تديرها الحكومة والتي كانت مسؤولة عن إصدار الرخص التي يريدونها. لم نفهم حقيقة ميزان القوى، إذ كان 75% من سكان المالايو من الصينيين أو الهنود، و 25% فقط من المالاويين.

هل سببت مشاركة حزبنا في تدهور العلاقة ما بين كوالا لامبور وسنغافورة ؟ نعم، ولكن لم يكن لها تأثير في السبب الرئيسي للنزاع والانفصال النهائي ـ المحافظة على سيطرة (UMNO) على الملايو بكاملها.

بعد أن خسرنا لم تتدهور علاقتنا بوزراء (UMNO) بصورة شديدة، ولكنهم لم يعودوا متساهلين بسبب الفرق الجوهري بيننا. بل كانوا يريدوننا أن نقتصر على أصوات الناخبين الصينيين والتوقف عن التقرب من المالايو. ولن يتساهلوا أبداً تجاه أي تحد لقبضتهم على قاعدة مالايو السياسية. فالقاعدة المالاوية الانتخابية باتت خارج قبضة الأحزاب غير المالاوية كحزبنا. وقد قبل حزب MCA بهذا القيد. ولكننا لم نقبل نحن.

في استعادة لأحداث الماضي أعتقد أنه كان من الأسوأ لسنغافورة إذا ما أجلنا المشاركة في الانتخابات الماليزية حتى الانتخابات التالية عام 1969. إذ كانت ستنشب الخلافات ذاتها مع «الاتحاد»، ولكن مع انتهاء المجابهة فإن النفوذ البريطاني الباقي سيزول، لأن قواتهم لن تكون ذات فائدة بعد ذلك، كما أن الزعماء المالاويين سيكونون أقل اهتماماً بالتعامل مع حزبنا.

كانت المنظمة الوطنية المالاوية المتحدة (UMNO) راضية عن انتصارها، والحزب الشيوعي المالاوي (MCA) مرتاحاً، وكان الاضطراب ينتظر حزبنا. ومن أجل إظهار عدم رضى التحالف عن حزبنا قام رئيس المجلس ـ ربما بعد مشاورة التونكو لأنه كان عضواً في المنظمة ـ بإبعاد الأعضاء الوزاريين الخمسة في

حزبنا الذين يمثلون سنغافورة في البرلمان الاتحادي، والذين كانوا سابقاً بجانب الحكومة، إلى مقاعد المعارضة كي ينضموا إلى الأعضاء السبعة الموجودين هناك من قبل. من جهة أخرى بدا أن كينغ سوي يخشى من أن تخفق خططنا الخاصة بالتصنيع من التحالف.

في 17 نيسان فيما كنت أتحدث إلى غرف التجارة الأربعة في غداء على شرفي بعد مهمتي إلى إفريقية، كان لدي سبب جيد لمناقشة الانتخابات الاتحادية طالما أن الحزب الشيوعي يعتقد أنه يستطيع العودة إلى سنغافورة مستفيداً من موقفه الوزاري في الحكومة الاتحادية، فقد يغريهم التدخل في شؤون سنغافورة. وهذا من شأنه أن يؤدي حتماً إلى إعادة النزاع الحاد الذي أفسد المفاوضات المالية حول الاندماج.

ظلت الأمور هادئة نسبياً حتى منتصف تموز. من دواعي الدهشة أن تان سيو سين أظهر مهارة إدارية بالانتصار في دعوتي إلى غداء صيني في مقر الحكومة الاتحادية في هضبة فريسر. قبلت الدعوة على الفور. كان رجلاً مقتدراً وموثوقاً. لم تتراجع علاقتنا الشخصية إلى درجة تفقد معها أن نكون حضاريين واجتماعيين، وكنت مصمماً على ألا أجعلها تتدهور، وأن تبقى متوازنة. وكان والده طيباً معي بشكل خاص.

كانت مأساة تان مأساة كل جيل الصينيين المولودين في المضائق. إذ لم يفهموا أن القواعد قد اختلفت في المالايو المستقلة ـ ماليزيا فيما بعد ـ عن تلك الأمور التي اعتادوا عليها في ظل حكم الإنكليز. فالمالاويون هم الحكام الآن. و هم لا يشعرون بالأمن لأنهم اعتقدوا أنهم لا يستطيعون منافسة الصينيين والهنود. لذا قرروا أن يقبضوا على السلطة بغض النظر عما إذا كان ذلك عادلاً أو غير عادل للأعراق الأخرى. وكلما حاول الصينيون والهنود أن يكسبوا حيزاً أكبر لأنفسهم، كانوا يرون في ذلك تحدياً لموقعهم كونهم حكام. وبالتالي يزداد شعورهم بالخوف. وكان تان غير واعٍ لهذا تماماً وكذلك معظم صينيي المضائق. و خلافاً لذلك فإن

التجار الناطقين بالصينية كانوا سريعين في التخلص من هذه المخاطر في الوضع الجديد. فقد كانوا يشعرون أن ثمة نية في قتل الثقافة الصينية وانتهاج القادة الملاويين لسياسة تربوية تقلص من تعليم اللغة الصينية وتمويل الثقافة الصينية إلى المدارس الصينية.

كذلك كان لدى الهنود في ماليزيا، مثل شقيق «راجا» في سيريمبان، مخاوفهم المشابهة تجاه المستقبل ذلك أن أن اللغة الإنكليزية كانت تستبدل باللغة الملاوية. وكانوا يعلمون بأنهم أقلية ولا فرصة لهم في السلطة، وكان يسعدهم أن يسيروا مع أية مجموعة تترك لهم مساحة للعيش والتقدم، ولكنهم كانوا يخشون بأن يحرم أطفالهم من تعليم جيد وآفاق حسنة. لقد فقدوا احتكارهم للأعمال في السكك الحديدية الملاوية بعد أن ازداد توظيف الملاويين. والأسوأ من ذلك بأن مقاطعات المطاط الضخمة التي تملكها الشركات البريطانية قد بيعت إلى مؤسسات حكومية. وكانت هناك أعداد كبيرة من الهنود العاملين في صناعة المطاط ممن كانت لهم مدارسهم التي تعلم بلغة التاميل، غير مستعدة للعمل في حقول أخرى. لقد أصبحوا مشكلة.

وبالنسبة إلى الملاويين أيضاً كان ثمة تبدلات سياسية واجتماعية مشؤومة زادت من شعورهم بعدم الأمن. ولأول مرة وجد «التونكو» أنه مضطراً للدفاع عن نفسه في المجلس البرلماني لإعطائه بعض الموظفين المغتربين 10% زيادة. ولم يهاجمه حزبنا والجبهة الاشتراكية فقط، بل هاجمته أيضاً نقابات المستخدمين في الخدمات الخاصة والمدنية، وكذلك من موظفي الحكومة الكبار في مالايا. وبعد أسبوع تراجعت الحكومة المدنية وصدر بيان بعد اجتماع للحكومة يفيد أنها لم تكن عارفة بالأصداء الخطيرة المحتملة في الخدمة المدنية، وأبدت أسفها إزاء أية متاعب سببتها. واتخذت السياسة الملاوية موقفاً أكثر حدة.

جر التأييد الانتخابي المتزايد للتونكو رد فعل حاد من جانب سوكارنو. فبعد ست ساعات من الاجتماع مع الرئيس أعلن سوباندريو توجيهاته بشن حملة «سحق ماليزيا» في جميع الميادين. وفي حزيران اجتمع التونكو مع سوكارنو في

«ماكاباغال» في طوكيو. ولكن الاجتماع انهار. بسبب تكرار سوكارنو: «قلت ألف مرة إنني لا يمكن أن أقبل بماليزيا. قلت ألف مرة إن هذه «الماليزيا» ألعوبة في يد البريطانيين. ولا بد من سحقها». وقد جوبه هذا التهديد بالرفض من جانب رئيس الوزراء الأوسترالي سير روبرت منزيس، الذي أكد على تأييد بلاده لماليزيا. وفي 26 حزيران قال الرئيس جونسون: وإن الولايات المتحدة ستقف إلى جانب ANZUS، فاتفاقية الدفاع التي تربط كلاً من أستراليا ونيوزيلاندة بالولايات المتحدة. ولسوف تتدخل أمريكا في نزاع ماليزيا إذا وقع لحليفتها أية متاعب. لا بد من احتواء النزاع.

ولكن كان لدينا سبب آخر للقلق تجاه البار. لم نكن نعرف ماذا يخطط، ولم يتح لنا أن نعرف إلا في عيد مولد النبي محمد.

36. البار يدغدغ مشاعر المالاويين

كان سيد جعفر ألبار من أشد زعماء «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو ـ UMNO» عداوة لسنغافورة. كان أندونيسياً من أصل عربي، جريء وممتلئ حيوية، له وجه مستدير وشارب وصوت قوي. في بداية الخمسينيات كان ودياً. وأذكر في شباط عام 1955 عندما كنت أودع «التونكو» على السفينة التي ستقله إلى إنكلترا من أجل حضور المؤتمر الدستوري، أنه حضنني البار بالاقتراب أكثر من «التونكو» بحيث نتصور معاً أمام الصحافة قائلاً باللغة المالاوية «اكتسب الشهرة من رفقة الرجال الكبار». كان رجلاً مثيراً للمتاعب، ماهراً في تحريض واستثارة الجماهير، كانت لغته الإنكليزية غير ملائمة للخطابة، ولكن لغته المالاوية جيدة وأداءه قوي.

لم يكن بحاجة إلى التحدث إلى الصحافة البريطانية، التي قد تظهره كعنصري تجاه المتحدثين بالإنكليزية ليس في ماليزيا فقط، بل وعلى الصعيد الدولي. كان يركز على الصحافة المالاوية، ويخصص معظم تصريحاته الحادة لها، ولاسيما إلى صحيفة «أوتوسان ميلايو» التي كانت تطبع في حاوي بالعربية ولا تقرأ من قبل الصينيين والهنود والبريطانيين أو الأوروبيين الآخرين. وكانت سلاحه للخيار من أجل تأثير متعدد في خطبه.

كان البار والصحافة المالاوية يكرران الأكاذيب حول أنني صغرت من شأن «التونكو» بوصفه زعيماً قليل الشأن. وقد صعدا الآن حملتهما لإثارة المالاويين تجاه قضايا معينة حقيقية أو متخيلة، مستغلين حقيقة أنهم المجموعة الأقل نجاحاً والأفقر من بين الجماعات المختلفة في سنغافورة. والحقيقة أن حكومة حزبنا لم تقلل أبداً من شأن المالاويين. فعلى العكس، منحناهم التعليم المجاني وهذه مزية لم تمنح لأبناء الطوائف الأخرى، وعلى الرغم من عدم وجود حصة

مالاوية من تراخيص سيارات الأجرة والبائعين المتجولين فقد عملنا على توفير ذلك. ومع هذا فقد ذكرت صحيفة «أوتوسان» في 13 أيار 1964 أن هناك قلقاً وعدم ارتياح في أوساط المالاويين حول تخصيص المواقف في سوق «غيلانغ سيراي» الجديد، وادعت في شهر حزيران أن سياسة حزبنا بشأن المدارس قد جعلت التربية في مالايا متردية.

بدأ البار هجومه في 21 أيلول 1963، بعد انتخابات سنغافورة العامة مباشرة، عندما اتهمت «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» «UMNO» أعضاء حزبنا سنغافورة بإرعاب المالاويين في منطقة غيلانغ سيراي، في الجانب الشرقي من الجزيرة، بإلقاء المفرقعات النارية على بيوتهم بعد أن ربح حزبنا الدوائر الانتخابية المالاوية الثلاثة. لم أتأكد آنذاك من أن الاتهام الكاذب كان جزءاً من الحملة فيما إذا كان مؤيدونا قد ألقوا المفرقعات والاعتذارات، وقد فعلت ذلك على شاشة التلفزيون، ولكن تبين أثناء التحقيق أن الاتهامات لا أساس لها من الصحة، فقد كان لقادة «المنظمة الوطنية» ما يدفعهم لتشويه صورتي.

وبعد أسبوع. تلا ذلك مزيد من التشويش. فبعد أن أعلن تشين تشي، على سبيل المثال، في الأول من آذار 1964 أن حزبنا سيشارك في الانتخابات الاتحادية، نشرت صحيفة «أوتوسان» هذا العنوان الرئيسي: «1500 مالاوي مهددون بمذكرات إخلاء». والحق أن الأرض التي طلب منهم إخلاءها كانت ملكية خاصة. وكان من حق المالك أن يستصدر هذه المذكرات، وكان مستعداً للتغاضي مع القاطنين وأن يمنحهم تعويضاً. ولم يكن لحكومة سنغافورة شأن في هذا. وقد تجاهلت صحيفة «أوتوسان» هذه الحقيقة، وذكرت في 28 أيار أن ثلاثة آلاف مالاوي كانوا مهددين بالإخلاء من بيوتهم في «كراوفورد» و«روتشور» و«كامبونغ غلام».. فقمت بجولة في هذه المناطق كي أخبر السكان بأن مذكرات الإخلاء أرسلت إلى مالاويين وصينيين وهنود بدون تفريق، من أجل تنفيذ خطة أعدها خبير من الأمم المتحدة من أجل إعادة بناء المدينة، بدأ من الأطراف الخارجية

باتجاه الداخل. كان علينا أن نزيل الأبنية القديمة ولإعادة إسكان المتضررين عن طريق خطة التجديد هذه. وسوف نزودهم بمساكن مؤقتة قريبة، كما ستمنح كل عائلة مبلغ /300/ دولار لتغطية نفقات الانتقال، وإعطائهم الأولوية بالعودة ما إن يتم إنجاز الأبنية الجديدة.

كما كنا نتعرض للهجوم أيضاً تجاه قضايا أوسع. ففي 23 أيار جاء في افتتاحية لصحيفة «أوتوسان» أن حزبنا وأنا نحرض غير المالاويين على المطالبة بإلغاء الحقوق الخاصة للمالاويين. وادعت الصحيفة في 11 حزيران أن «المنظمة الوطنية لاتحاد المالاويين (UMNO) في سنغافورة قد وجهت لاتخاذ خطوات لإنقاذ ضحايا حزبنا (PAP)»، وفي اليوم التالي نشرت عنواناً رئيسياً آخر: «يواجه مالاويو سنغافورة اليوم التهديد والضغط والقمع من قبل الحكومة». وبعد أسبوع حرضت صحيفة أوتوسان جميع المالاويين على «الوقوف بقوة خلف UMNO للقيام باحتجاجات عنيفة وفعالة ضد حزب الحكومة (PAP)»، ودعوة كوالا لامبور لاتخاذ تصرف لحماية حقوقها الخاصة. عندئذٍ نشرت المنظمة الوطنية (UMNO) كتاباً أبيض يشرح «بالتفصيل معاناة المالاويين تحت حكم حزبنا الذي يقوده لي كيوان يو». ومرة أخرى اتهمونا بمعاملتهم كأطفال من أب آخر، قائلة: إن المالاويين الخونة لعرقهم الذين صوتوا لنا قد تحققوا من خطأهم، لأن الحكومة الآن قد نوت تحويل غيلانغ سيراي إلى مدينة «تشايناتاون» أخرى.

جميع هذه الأقوال الفظيعة المشهرة لم يكن لها علاقة بالموضوع، المهم أن تنجح في تحريض المالاويين.

والمثال الجيد على هذا المبدأ تجلى في 4 تموز عندما شوهت صحيفة «أوتوسان» خطبة ألقيتها في سيريمبان قلت فيها «إن 40% من المالاويين في ماليزيا لا يستطيعون أن يقودوا 60% من غير المالاويين». واعتبرت «أوتوسان» أن أولئك القادرين على قيادة الآخرين في ماليزيا هم الصينيون وغيرهم من اللامالويين، أما الذين يقادون فهم المالاويون لأن أعدادهم ضئيلة جداً. وكرروا

ذلك طوال الأيام القليلة التـاليـة، مـدعين ثانيـة أن حـزبنا على وشك أن يدمـر «الحقـوق الخـاصـة» للمـالاويين عنـدمـا أشـرنا إلـى أن الدسـتور السنغافـوري قد اعترف فقط «بوضعهم الخاص»..

قبل ذلك كنت قد قررت أن أجابه هذه الحملة بدعوة جميع الزعماء المالاويين إلى سنغافورة لمقابلتي في 17 تموز من أجل مناقشة وجهاً لوجه لكشف الأكاذيب والتلميحات الخبيثة وفي 30 حزيران، سبقتني «المنظمة الوطنية»، فقد أعلنت صحيفة «أوتوسان» أن المنظمة سوف تحضر مؤتمراً للأحزاب المالاوية في 12 تموز» لمناقشة مصير ومأزق المالاويين في سنغافورة تحت حكم حزب PAP». وقد التحق بهذا الاجتماع جميع الأحزاب المالاوية السياسية، على الرغم من أن ثلاثة منها كانت معادية لماليزيا ومؤيدة لأندونيسيا. لا شك أن هذه المسألة كانت تتطلب وحدة العرق المالاوي، وانطلق البار من أجل تحريك عواطفهم قائلاً: إن مصير المالاويين كان أسوأ مما كان من قبل أثناء الاحتلال الياباني. وهذا اقتباس دقيق لواحدة من خطبة:

«أنا سعيد جداً اليوم لأننا نحن معشر المالاويين والمسلمين في سنغافورة قد أظهرنا الوحدة ونحن مستعدون أن نعيش أو نموت معاً من أجل عرقنا وأجيالنا المستقبلية. وإذا كنا متحدين فلا توجد قوة في العالم تستطيع أن تقهرنا أو تذلنا، أو تقلل من شأننا. لا كيوان يو واحد بل آلاف من أمثاله... فقد أنهيناهم...» (تصفيق وصياح «اقتلوه... اقتلوه... عثمان ووك ولي كيوان يو... لي كيوان يو.. عثمان ووك»). «مهما تعرضنا للقمع والضغط ومهما ضيق الخناق علينا من قبل حكومة PAP وفقاً لمنطق لي كيوان يو: اخرسوا إنكم أقلية عرقية في هذه الجزيرة. هنا أقول للي كيوان يو: اخرس أنت ولا تقل لنا اخرسوا».

وقد عرضت التظاهرة بأكملها على شاشة تلفزيون ماليزيا في كولا لامبور في الأمسية ذاتها. ومن بين الحلول التي اتخذت دعوة إلى مقاطعة مؤتمر الحكومة في 17 تموز حيث كان علي أن أخاطب زعماء مالايو الأساسيين. فالإثارة العرقية

الأمين العام لمنظمة (UMNO) سيد جعفر البار، تموز 1965

الكثيفة في الصحف المالاوية أثارت عواطف المالاويين في جميع أرجاء الاتحاد. وفي 14 تموز أعلنت قيادات الشرطة الاتحادية أنه وقعت حوادث في بوكيت ميرتاجام في مقاطعة ويلسيلي، على بعد 500 ميل شمال سنغافورة حيث قتل شخصان وجرح 13 شخصاً. لقد حدثت صدامات مالاوية ـ صينية في عدة مناسبات في تلك المستعمرة السابقة في بينانغ بعد أن اندمجت في «الاتحاد المالاوي» عام 1948 وأصبحت الحقوق الخاصة المالاوية تنفذ هناك، بعد أن كانت لا تطبق من قبل.

رغم الدعوة إلى مقاطعة حضرت مؤتمر الحكومة 83 منظمة مالاوية و300 مختار. تحدثت باللغة المالاوية وناقشنا مشكلات التعليم في مالايا، وكذلك التوظيف والسكن. لم يثر أحد مسألة التسوية في كراوفورد، التي استخدمت للإثارة. وفي خمس ساعات من المناقشة الصريحة أوضحت أن الحكومة ستعمل كل ما في وسعها لتوجيه المالاويين إلى أعلى المراكز، ولكن لن تكون هناك حصة محددة للأعمال أو لمسألة شهادات الترخيص للسيارات العمومية والبائعين المتجولين.

عتمت إذاعة ومحطة التلفزة في كوالا لامبور على جميع مقررات هذا الاجتماع. وبدلاً من ذلك حملت «أوتوسان» في اليوم التالي عنواناً خطيراً ومؤذياً: «تحد لجميع المالاويين ـ ولشبيبة UMNO، لي كيوان يو مدان، أستاذ أرغم طالباً على أكل لحم الخنزير ـ احتجاج». هذا العنوان مثير للفتنة يرغم المسلمين على اتخاذ شيء مالا يحبونه، لا سيما عشية الاحتفال بمولد النبي محمد، وهو يوم له أهمية عظيمة عند جميع المسلمين.

كان يوم الاحتفال بعيد مولد الرسول محمد في 21 تموز، 1964، وهو يوم احتفال شعبي، وكان من عادة المالاويين أن يتجمعوا في مكان عام في المدينة ويتجهون إلى غيلانغ سراي بالطبول والزمور. وينشدون المدائح الدينية للاحتفال بهذه المناسبة سنوياً. هذه المرة انطلقت المسيرة من بارانغ، وبدلاً من إنشاد المدائح الدينية على جاري عادتهم، فقد راحوا يلقون الخطب السياسية التي تستثير مشاعر الكراهية عند المالاويين.

كان عثمان ووك، وزير الشؤون الاجتماعية حاضراً في بادانغ مع مجموعة من أعضاء حزبنا المالاويين المسلمين، كان يتوقع الاضطرابات، لأنه قبل تسعة أيام، في حشد جماهيري في سنغافورة، اتهم جميع أعضاء الجمعية المالاويين في حزبنا بأنهم غير مسلمين، ومعادين للإسلام ومعادين للمالاويين وخونة لجماعاتهم وفي بادانغ نفسها، شعر شيئاً ما سيحدث بعد ظهر ذلك اليوم، لأنه كانت تردد أثناء الخطب صيحات «الله أكبر»، معبرة عن الغضب، وليس عن عبادة وتقديس. وراح عيسى المنور، وهو محامي عربي ولكنه مسلم غير صالح يحرض الجماهير بآيات قرآنية ضد أعداء دينهم، وحاول أن يفسر الآيات بأن الله يمنع المسلمين من أن يتعاملوا بمودة مع غير المسلمين، ولكن أولئك غير المسلمين الذين يسيئون إلى ديننا ويطردوننا من بيوتنا فإن الإسلام يصف هؤلاء بالآثمين القساة.

أخبرتني الشرطة بعد أن أنهيت دوري في لعب الغولف في نادي سنغافورة الملكي للغولف أن أعمال شغب مالاوية ـ صينية قد نشبت أثناء الموكب وعكرات الأجواء. فعقدت اجتماعاً مع مسؤولين في الأمن والشرطة لتدارك الأمر، وكانت التقارير عن الخسائر والأحداث ما تزال تتوارد، أولاً عن وقوع ضحايا صينيين، ثم عن وقوع ضحايا مالاويين عندما رد الصينيون بالمثل. اجتمع لي كين مع قيادات الشرطة في كوالا لامبور وأمر بمنع التجول في الساعة 9.30 مساءً حتى الساعة 6 صباحاً. وصفت في حديث إذاعي الساعة 10.30 ليلاً كيف نشبت أعمال العنف.

«في وقت ما بعد الخامسة مساءً مر موكب يتألف من 25 ألف مسلم بالقرب من محطة كالانغ للوقود في منطقة يهيمن عليها الصينيون. فطلب عضو في وحدة الاحتياطي الاتحادي (شرطي أرسل من شبه جزر ماليزيا) من مجموعة تخلفت في المسير الالتحاق بالركب، وبدلاً من إطاعته فإن

المجموعة تعرضت له. وبعد ذلك حدثت سلسلة من القلاقل وانتشرت هذه القلاقل بسرعة في منطقة غيلانغ بأسرها. وفي الساعة 7.30 مساءً نشب الاضطراب في المدينة نفسها».

حضيت على العودة إلى السكينة، وقلت :

«الذي أشعل هذا الوضع ومن أوجده غير معروف الآن. فجميع المؤشرات تظهر أن هناك تنظيم وتخطيط وراء هذا الانفجار لتحويله إلى صدام طائفي بشع... حتى الآن مهمتنا أن نوقف هذه الحماقة.... الإشاعات والحديث العريض عن الانتقام والثأر ليس من شأنها إلا أن تلهب عقول الرجال».

ولكن المشاعر العرقية قد ثارت والإضرار المتعمد قد زاد حدة، والأنباء المشوهة والمبالغ فيها سرعان ما انتشرت بين الناس، وشرع المالاويون في جميع أنحاء الجزيرة في قتل الصينيين، وردَّ الصينيون على ذلك بأعمال انتقامية، ووصلت الخسائر في الأرواح إلى 23 ضحية، فيما بلغ عدد الجرحى والمصابين 454 شخصاً، وعندما جرى إحصاء عدد الوفيات كان عدد الضحايا متساوياً بين الطرفين، وعمل رجال العصابات على حماية الصينيين، والقيام بأعمال الانتقام، وذلك بسبب التصرفات الخشنة من قبل رجال «الفوج المالاوي» و«الوحدة الاحتياطية الفدرالية» واستمرت أعمال العنف بصورة متقطعة على مدى الأيام القليلة التالية، حيث جرى خلالها رفع منع التجول للسماح للناس بالذهاب للتسوق، وانتهت أعمال الشغب والعنف في الثاني من شهر آب (أغسطس).

وعلى الرغم من حمام الدم، استمرت صحيفة «أوتوسان» في حملتها التحريضية، ففي 26 تموز نشرت تقريراً عن جريدة أندونيسية يقول إن «لي مسؤول عن أعمال العنف في سنغافورة» مع أن حكومتي سنغافورة الاتحادية والمحلية كانتا تدعوان إلى الهدوء وإخماد نار الفتنة. وبعد ستة أيام قال البار: إن الأحداث وقعت بسبب

«وجود شيطان في سنغافورة حرض كلاً من الملاويين والصينيين ضد بعضهم بعضاً. ولماذا لم تقع مثل هذه الأحداث في ظل حكم البريطانيين واليابانيين، وديفيد مارشال، وليم يوهوك في سنغافورة؟، فقد وقعت لأن لي كيوان يو كان يحاول تحدي وفصم روحنا القومية... كيف سخر منا بالقول إننا حصلنا على استقلالنا على طبق من فضة. تستطيعون أن تروا بأنفسكم كيف تحدى التونكو بقوله إنه لا يعقل».

كان التونكو في أمريكا، بعد أن التحق «بمؤتمر رؤساء وزراء دول الكومونولث»، في لندن، وتحدث من «صوت ماليزيا» في الولايات المتحدة، حيث قال: إنه صدم بالأحداث، وقال في مقابلة تلفزيونية إن ما حدث «كان أسوأ يوم في حياته». وطار رزاق إلى سنغافورة حيث استقبلته في المطار وقد أخبر الصحافة بصفته رئيساً للوزراء، أن الوضع بات تحت السيطرة ولكنه خطير، ولسوف يستمر حظر التجول إلى فترة غير محدودة، وعزا سبب الاضطرابات إلى أن أحداً يثير الشغب فألقى بزجاجة على المسيرة. كان يعرف من تقارير الصحافيين، أن هذا غير صحيح، وكنت ما زلت آمل أن تضع الحكومة المركزية حداً لجميع هذه الأعمال العرقية ذات الطابع السياسي العرقي.

أعلنت في الإذاعة والتلفزة أنه تم وضع خطط للعودة بالأمور إلى وضعها الطبيعي، وقلت بجرأة: إن هذه الإجراءات ستشمل اعتقال أعضاء الجمعيات السرية ومرتكبي النشاطات ذات الطابع المتطرف. وفي الوقت نفسه إلى تشكيل لجان في جميع الدوائر الانتخابية وجميع الوجهاء الموثوقين من الصينيين والملاويين والأوربيين ـ الآسيويين لإعادة بناء الثقة فيما بينهم، وعدم التشجيع على تكرار الإشاعات. وتجولت في المناطق التي تأثرت بشدة في الأحداث كي أظهر حضور حكومة سنغافورة، وأحاول أن أعطي الانطباع أننا ما زلنا نستطيع أن نتصرف ونعيد السلام رغم أننا لم نعد مسؤولين عن الشرطة والجيش. وقد كنت أشعر في أعماقي بالأسف لأنني فقدت السيطرة على أدوات ضبط القانون.

استقبال رئيس وزراء ماليزيا تون عبد الرزاق في المطار في 22 تموز 1964، في اليوم الذي تلا أعمال الشغب. وعلى اليمين يسير جوه كينغ سوي.

حض الجماهير في هونغ ليم على الهدوء بعد صدامات عرقية، آب 1964.

فيما بعد نشرت الحكومة مذكرة تصف فيها المجريات التي قادت إلى أحداث العنف. يقول البيان:

«إن الخضوع إلى هذه المذكرة، خلافاً لما كان يجري في الماضي، قد سمح للزعماء السياسيين المتنفذين وللصحف أن تقوم بدعاية سياسية وطائفية مكشوفة لعدة شهور. فمتعهدو الدعاية الطائفية لم يكونوا متعصبين واضحين مع موارد وتسهيلات ضئيلة لنشر رسالتهم... هذه المرة كان الدعاة من ذوي الطائفية العدوانية يشملون أشخاصاً وصحفاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الحكومة المركزية والحزب الحاكم في ماليزيا».

استخلصت المذكرة أن أولئك الموجودين في السلطة في كوالا لامبور يكبحون أولئك الذين ينغمسون في دعاية عرقية مثيرة للفوضى والعصيان. لم يضع أحد حداً لها، ولم يحاكم أحد بسبب التحريض على الفتنة، والدليل الناتج بين بوضوح أن أعمال العنف لم تكن عفوية وعرضاً غير مرغوب فيه لعداوات حقيقية بين الأعراق. فالغرض من الحملة كان أساساً لإعادة بناء النفوذ السياسي للمنظمة القومية لاتحاد المالايو (UMNO) بين مالاويي سنغافورة. والهدف الأكثر أهمية كان استخدام مالاويين سنغافورة مخالباً لتفريز الدعم المالاوي للمنظمة (UMNO) في المالايو نفسها. بوضع اللوم بشأن أعمال الشغب على حكومتنا وتصويرها على أنها ضغط على مالاويي سنغافورة، كان مقترفو الشغب يأملون إخافة الآخرين في الاتحاد من أجل أن يلتفوا حول المنظمة من أجل الحماية.

بعد أسبوع من أعمال الشغب أخبر عثمان ووك، الذي كان نائب رئيس تحرير «أوتوسان مالايو»، من قبل مور كبير في «أوتوسان» في كوالا لامبور أنه في الساعة الثانية بعد الظهر في 21 تموز كان يعرف شيئاً عما حدث. سأل عثمان «ولكن أعمال الشغب لم تبدأ قبل الرابعة بعد الظهر فكيف عرفت مسبقاً أن أعمال العنف ستجري؟».

أجاب المحرر «نحن عرفنا مسبقاً. نحن لدينا مصادرنا».

أراد هؤلاء أن يحجزوا الصفحة الأولى للأخبار المهمة. دعا تشين تشي إلى لجنة للتحقيق للبحث في أسباب أعمال الشغب. ولكن في كوالا لامبور قال الوزير الاتحادي خير جوهري: إن الحكومة ستجري فحصاً حول القلاقل وليس تحقيقاً. فلم يريدوا أن يضعوا البار ودور «أوتوسان» تحت المجهر.

لم يكن ذلك إعادة تأكيد كما لم يكن الجو بين الشيوعيين. كان من المهم أن لا يروع السكان الصينيون، وإلا فإن القائمين في المنظمة والمتطرفين سيحققون أهدافهم ـ شعب طيع، وخاضع عندما يُعاملون مواطنين من الدرجة الثانية. بيد أن كثيراً من الصينيين قد أرعبوا نتيجة للانحراف المكشوف للقوات والشرطة المالاوية أثناء أعمال الشغب، وكان من بين نتائج العنف اللامعقول لعزل العرقين عن بعضهما بعضاً. شعر الصينيون أنهم مضطهدون ونظروا إلى جيرانهم المالاويين بارتياب وحذر، فيما كان أن المالاويون الذين عاشوا في الجزء الذي يسيطر عليه الصينيون من الجزيرة، خائفين من التعرض إلى عنف عنصري. أما العائلات الصينية التي كانت تشكل جيوباً من الأقليات في منطقة مالاوية فقد انتقلوا للإقامة مع أقربائهم في أماكن أخرى، حتى لو كان ذلك يعني أن يبيعوا بيوتهم للمالاويين الوافدين بسعر رخيص. وقد حدثت العملية ذاتها بشكل معكوس مع العائلات المالاوية التي انتقلت من المناطق الصينية بالدرجة الأولى لتبحث عن ملجأ في مدارس أو مراكز تجمع حماية الشرطة.

كانت الأحداث أمراً مخيفاً ونفياً لكل من آمنا به وعملنا على تحقيقه ـ التكامل التدريجي وإدانة التقسيم الطائفي، وبات من المستحيل تجاهل أو تجاوز عدم الثقة العميق الذي ينشأ بعد كل عملية اقتتال سواء أكان الضحايا من المالاويين أم الصينيين، وفي مركز جماعة ريفية زرتها، أمسكت امرأة مالوية مذعورة تبلغ من العمر 35 عاماً، بيدي وحكت لي كيف اعتدى عليها عدة رجال صينيين كانوا يريدون اغتصابها، في حين اشتكى رجل صيني خارج مخفر

الشـرطة أمـامي بأنه تعـرض للأذى من قـبل الشـرطة المالاوية، لأن بعـضـاً من الصينيين اغتصبوا امرأة مالاوية، وكان الناس يرتكبون فظائع تجاه بعضهم بعضاً متذرعين بأسباب عرقية.

في 14 آب عـاد التـونكو من أمـريكا، وقـد انفـجـر باكـيـاً وهو يتـحـدث أمـام الجـمـاهيـر الغـاضـبـة في سنغـافورة، قـال: كنت دائماً أطلب أن يكون الزعـمـاء حريصين في أقوالهم لتجنب أي خـلاف فيما بينهم، ولكن بعض اللامبالين منهم في أحاديثهم وخطبهم هم الذين خلقوا هذه الحوادث. وصاح بأعلى صوته: من الذي كان غير مبال أو حريص في خطبه: جعفر البار أم أنا؟ وقلت بدوري: إنني واثق من أن التونكو سيضع المتطرفين في ماليزيا تحت المراقبة، وأكدت على أن لا بديل للتعاون السلمي بين جميع الطوائف والجماعات.

وبعد بضعة أيام جاء التونكو إلى سنغافورة لدراسة الوضع وأكد للمالاويين في «غيلانغ سيري» أنه ستوضع خطط قريباً «لتحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية»، وهو تعبير ملطف يعني رفع سويتهم إلى مستوى الهنود والصينيين، كنت حاضراً وقلت: إن نجاح ماليزيا لا يقوم فقط على الحقوق والالتزامات الدستورية والقانونية، بل إنه يعتمد على الإيمان والثقة، وأنا أعتقد أن التونكو قادر على حل المشكلات التي تواجهه الآن، كنت أوحي له بأنني أثق بأنه سيتخذ الإجراء الصحيح، وكان علي أن أفعل ذلك، فالسلطة الآن في يده.

لم تكن الأحداث ضربة ضد ماليزيا وحدها، فقبل أن تنشب كان الرأي العام العالمي يتطور باتجاه تأييد ماليزيا، كان من الحماقة أن يسمح زعماء UMNO لألبار بأن يصعد الاصطدامات الطائفية في سنغافورة ويعطي لسوكارنو مكسباً دعائياً ـ دليل على أن ماليزيا ترتيب للاستعمار الجديد يحتوي على تهديدات ونزاعات طائفية خطيرة تهدد وحدتها وتضامنها، لقد كان ثمناً باهظاً دفعته الحكومة الماليزية لتعلم حزبنا درساً للمشاركة في الانتخابات المالاوية، وإعادة اكتساب القاعدة المالاوية التي فقدها في سنغافورة في انتخابات 1963م. لقد عرف زعماء المنظمة ماذا سيفعل ألبار بعد قراءة «أوتوسان ميلايو» سوى المتابعة.

بعث الدبلوماسيون في كل من سنغافورة وكوالا لامبور، بتقارير عما حدث إلى حكوماتهم، وأخبر «هيد» لندن «لاشك أن العنصر المتطرف UMNO» قد لعب دوراً كبيراً في إثارة أعمال العنف الطائفية والأولى من نوعها في سنغافورة. وجاء تقرير المفوضية البريطانية في كوالا لامبور:

«كانت أعمال الشغب ذات منشأ سياسي أكثر مما هي ذات طابع ديني، فقد حدثت أعمال شغب مماثلة ولكنها أقل خطورة في الأسبوع الماضي، وقد اشتد التوتر بين الجماعات المختلفة خلال الأشهر القليلة الماضية من خلال حملة دعائية (نظمتها بالدرجة الأولى الصحفية الملاوية البارزة أوتاسان ميلايو) متهمة حكومة حزب العمل الشعبي PAP في سنغافورة بالمعاملة المجحفة للمالاويين هناك. وكانت تلك الصحيفة لسان حال منظمة UMNO لاسيما أمينها العام المتطرف سيد جعفر ألبار.. فخسارة مقاعد مالايو في جمعية سنغافورة التشريعية في أيلول الماضي خسارة لحزبنا وقد ازدادت ضغينة المنظمة بسبب تدخل حزبنا في الانتخابات المالاوية العامة في نيسان (التي لم تكن ناجحة) وجهود حزبنا المثمرة لتشكيل قاعدة تنظيمية في جميع المدن المالاوية الرئيسة».

جاء في تقرير أعدته لجنة استخبارية مشتركة (الشرق الأقصى) من أجل لجنة رؤساء الأركان البريطانية «إن الحملة ضد حزب العمل الشعبي (PAP) قامت بها «المنظمة» وفروعها في سنغافورة وبتأييد من قيادة المنظمة في كوالا لامبور.

وجاء في تقرير القنصل الأمريكي العام آرثر هـ. روسين إلى وزارة الخارجية «إن أعمال العنف كانت ذات «إيحاء سياسي» وهي نتيجة طبيعية لفترة طويلة من الدعاية المضادة لحزب PAP مع تحريض طائفي شديد من زعماء المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو UMNO». وأيد هذا دونالد مك كيو القائم بالأعمال في السفارة الأمريكية في كوالا لامبور في تقريره إلى وزارة الخارجية:

«أخبرني داتو نيك داود (أمين السر الدائم لوزارة الداخلية) أن وزارته (كانت) مقتنعة أن أعمال العنف في سنغافورة قد تسبب بها المتطرفون الملايون. و أقر بأن اجتماع سيد جعفر في 12 تموز وخطبه في سنغافورة قد زادا من القلاقل الطائفية. وإذا كان هناك أي شك بشأن مسؤولية المتطرفين الملاويين عن أعمال الشغب في سنغافورة فإن داود قد عزز الشك».

وبعث و. ب. بريتشيت نائب المفوض السامي الأوسترالي في سنغافورة بتقرير إلى كانبيرا يقول فيه: «لا شك أن مسؤولية أعمال العنف تقع مباشرة على UMNO التي قاد أفرادها الحملة الطائفية أو أشرفوا عليها».

واستخلصت دائرة نيوزيلاندة للشؤون الخارجية:

«تبقى الحقيقة أن «المنظمة القومية لاتحاد الماليزيين» (UNMO) ولاسيما زعماءها ينبغي أن يتحملوا المسؤولية عن الانفجار الأخير في إثارة المشاعر العرقية الملاوية. ويبدو لنا أن رزاق وبعض زعماء «المنظمة» الآخرين لم يتصرفوا بالسرعة الكافية لكبح تجاوزات المتطرفين مثل جعفر ألبار كما كنا في شك إزاء رد فعل الحكومة الاتحادية تجاه أعمال العنف».

خصص سوكارنو إذاعة تخص صينيي سنغافورة على عدم تأييد ماليزيا، التي قامت من أجل قمعهم. ثم، في 17 آب أنزلت جاكارتا 30 ملسماً في الشاطئ الغربي من جوهر المقابل لسومطرة لإثارة الفتن ومن حسن الحظ أنه تم إيقافهم، وبعد أسبوعين أرسل الأندونيسيون، 30 رجلاً آخرين بعمليتي إسقاط جوي وتم اعتقال معظمهم، فقد كانوا من القوات شبه العسكرية وبالفعل لقد تجاوز سوكارنو الحد. وتقدمت ماليزيا بشكوى رسمية إلى مجلس الأمن الدولي، وعزز البريطانيون قواتهم بحاملتين مع دعم بحري وجوي إضافيين، وكان سوكارنو قد وعد بإيقاف مثل هذه العمليات.

في اليوم نفسه نشبت صدامات مالاوية ـ صينية في غيلانغ. فقُتل سائق عربة، كما هوجم سائق آخر. فرغم حظر التجول استمر العنف ثلاثة أيام قتل خلالها 13 شخصاً وجرح 109 أشخاص.

وفي الاحتفالات المئوية «للاشتراكية الدولية». قال تشين تشي رئيس الوزراء: إن عملاء أندونيسيا هم الذين سببوا أعمال الشغب. وقد أصبح الوضع دقيقاً للغاية بحيث إن أية محاولة من جانب المالاويين سيعقبها أعمال انتقامية من جانب الصينيين.

بعد هذا الانفجار الثاني لأعمال العنف أمر مجلس الوزراء الماليزي، بضغط متزايد من جانب سنغافورة، وذلك بتشكيل لجنة تحقيق برئاسة وزير العدل ف.أ. تشوا، للتحقيق في أسباب القلاقل هنا، وكذلك أحداث القلاقل هنا، وكذلك أحداث القلاقل التي جرت قبل ذلك في بوكيت ميرتاجام في محافظة ديلزي ويليسلي، وقد أخفت الحكومة الاتحادية ذلك عن الصحافة، ولم تبدأ اللجنة تحقيقاتها إلا في 20 نيسان عام 1965، أي بعد سبعة أشهر.

في الجلسة الافتتاحية قال مستشار الحكومة الماليزية: إنه سيبين أن واقعتي القلاقل وأحداث الشغب كانتا من صنع العملاء الإندونيسيين في سنغافورة وجاء بـ 85 شاهداً ليقدموا الدليل على ذلك، ولكن شهادة الشهود الخمسة الرئيسيين الذين جاء بهم لم يشهدوا بأن الأمر كان كذلك، فقد نفوا جميعهم بقوة أن يكون لإندونيسيا أية علاقة بالقلاقل وقد جرى حوار مع شاهد مهم على النحو التالي:

سؤال: إذا كنا شهدنا خلال أشهر أيار وحزيران وتموز جميع هذه الأشياء المختلفة التي أخبرتك عنها ـ هذه الدعاية المفتوحة والمستمرة، فهل توافق على أن مشاعر المالاويين ستتصاعد كثيراً؟

جواب: نعم.

سؤال: وهل كانت كذلك في يوم أحداث الشغب أم لا؟

جواب: نعم.

سؤال: هل توافق على أن هذه الدعاية الاتهامية ـ الشديدة كانت عاملاً من عوامل أعمال الشغب؟

جواب: نعم.

ومن الأهمية بمكان الضوء الذي ألقاه كينغ سوي على الأحداث، فقد قابل رزاق في كوالا لامبور في 28 ـ 29 تموز 1964، أي بعد أسبوع واحد من اندلاع أعمال العنف الأولي، وقد أخبره رزاق أنه وجد مخرجاً، كان راغباً في تشكيل حكومة وطنية في ماليزيا، يمثل فيها حزبنا في الوزارة الاتحادية ـ شريطة أن أستقيل من رئاسة وزراء سنغافورة، ويمكنني أن أحصل على مركز في الأمم المتحدة وأقوم بمساهمة ناشطة هناك. وبعد ثلاث سنوات يمكن مراجعة الموقف.

سأل كينغ سوي أن ألبار سيستبعد بوصفه بديلاً. أجاب رزاق، بلا. وقد كان رزاق متأكداً من كلامه عندما أخبر كينغ سوي أن ألبار و«أوتوسان ميلايو» هما تحت سيطرته تماماً وأعطى تعهداً واضحاً إلى كينغ سوي أنه يستطيع السيطرة على «أوتوسان». كتب كينغ سوي مذكرة بعد اللقاء مباشرة جاء فيها: «أقر رزاق أن رأيه كان مقصوداً سواء أنشب الاضطراب أو لم ينشب في سنغافورة، ورأى أن الاضطراب لن ينشب. واعترف بأنه ارتكب خطأً في الحكم على الأمور. ولو تنبأ بالأمر لاتخذ إجراء».

سجل كينغ في تاريخه الشفوي عام 1982 مايلي:

«الآن، يرقى هذا إلى اعتراف بأنه كان متورطاً في هذه الحملة الشاملة لإثارة المشاعر العرقية والدينية في سنغافورة. كما أن دخول ألبار إلى سنغافورة وحملاته فيها وتأييده («أوتوسان مالاوي») كان يحظى بتأييد كامل من رزاق، وإن اضطراب في رأيه لن ينشب فهذا يعني أنني لا أوافق بصراحة على ذلك. لا يمكن لعاقل أن يعتقد أن هذه الحملة الطائفية

الصاخبة ترافقت مع موكب منظم من المالاويين بحيث لجأت مجموعات «بيرسيلات» (الفنون العسكرية) إلى القوة، لا أحد يصدق ذلك. لابد أن تكون النتيجة أعمال عنف طائفي.

الحق أنه قبل بضعة أيام، ربما أكثر من أسبوع قبل نشوب أعمال العنف، أتذكر أن السيد لي كان قلقاً للغاية ويشعر في أعماقه أنه سيكون هناك اضطراب طائفي. فقد ناقش ذلك معي. وكنت منهمكاً جداً بالمسائل الاقتصادية والمالية. لم أكن على اطلاع حسن وبدوت متشككاً حيال ذلك. مرة أخرى، إنها مسألة إصدار حكم سياسي ـ معرفة الحدث ـ وهذا لم يكن متوفراً لي. وعندما سألت السيد «لي» عن قرب، تنهد وغير الموضوع. لا بد أنه ظن أنني جاهل جداً بهذه المسائل. وقد كنت كذلك بالفعل. ولكن مهما كانت النتائج فإن أعمال الشغب قد وقعت، وكان رزاق متورطاً فيها، وكان من الواضح أن قصده إزاحة السيد «لي» من الوزارة. فقد كان ذلك هدف حملة ألبار».

37. سنغافورة ـ قمة التوتر في كوالا لامبور

كنت في بروكسل لحضور احتفالات «الاشتراكية الدولية» عندما انفجرت موجة العنف الثانية في الثاني من أيلول. هل ينبغي أن أعود سريعاً للتعامل مع الوضع؟ قررت عدم الرجوع لأن عودتي قد لا تقدم كثيراً أو تؤخر في مجرى الأحداث. إذ ما إن ينشب العنف فثمة دينامية وزخم يتميز بها ويحتاج إلى قوة شرطة قوية لقمعه. وهكذا بقيت في بروكسل.

في يوم الأحد 6 أيلول عام 1964 كان هناك مسيرات للاشتراكية الدولية في أوربا. فوجئت بالعدد الكبير من المحاربين القدماء في لباس مدني، وكثير منهم كان يتزين بالنياشين وبمظهر الذين يعزفون الموسيقى العسكرية التي تزودهم بالحماسة. عاد ذهني إلى شهر شباط عام 1942، عندما كنت أشاهد العازفين من ساكني الجبال وهم يعبرون شارع «كوزواي» في سنغافورة.

لم يكن من المسموح لنا أن نستخدم فرقة موسيقى الشرطة في عرض «يوم دولة سنغافورة» في حزيران 1964. فالحكومة الاتحادية التي أصبحت الآن مسؤولة عن الشرطة قد قررت إغلاق الباب في وجهنا. كنا منزعجين ولكن لم يكن باليد حيلة. وعندما رأيت هذه الصفوف الكثيرة من الفرق الموسيقية من عدة أقطار في بروكسل، قررت أن أشكل مثلها في مدارسنا وفي «اتحاد الشعب». فعلي أن أحافظ على الروح المعنوية لشعبنا.

ولدى عودتي أخبرت مدير «اتحاد الشعب» أن يبحث عن أعضاء فرقة موسيقية متقاعدين من «فوج المشاة السنغافوري» وأن يأخذ منافسي في غرف الكمان في «كلية رافيلز» كوان سي كيونغ، السكرتير الدائم الآن في وزارة التربية، لتهيئة برنامج لعازفي الآلات النحاسية وفي جميع المدارس الثانوية. نجحت

خطتي. وفي اليوم الوطني لدولة سنغافورة في حزيران 1965 شاركت فرقتنا في العرض، كما شارك عازفون من بعض المدارس الثانوية. أظهرنا لكوالا لامبور أنهم لا يستطيعون أن ينتقصوا من قدر شعب مصمم وواسع الحيلة. وفيما بعد وسعنا البرنامج بحيث يشمل المدارس الابتدائية، ثم أن نرفعه ليشمل الجامعة. وسرعان ما صار لدينا فرقة موسيقية للشباب. كنت أعتقد أن الموسيقى جزء ضروري من بناء الأمة. إنها ترفع الروح المعنوية للشعب.

هناك الكثير مما يشاهده المرء في بروكسيل ويتابعه، وفي خطابي في المؤتمر أكدت للاشتراكيين الديمقراطيين في آسيا أنه ينبغي أن يكونوا على مستوى التحدي الذي تفرضه الأساليب الدعائية والتنظيمية للشيوعيين وتكتيكاتهم، وهم لا يستطيعون ذلك إلا إذا توفر الشرطان:

الأول: مستوى معقول من الحالة المعيشية، والثاني: الإدارة الفعالة. وخلاف ذلك فإنهم لا يستطيعون أن ينجحوا أو يحافظوا على بقائهم في الدول المستقلة حديثاً. استمع إلي بإصغاء ولي براندت، عمدة برلين وأحد أبرز الزعماء الاشتراكيين المعروفين الذي قابلتهم في بروكسل، وهنأني على خطابي. والرجل الذي تفاعل مع كلمتي بكثير من الحرارة كان أنطوني غرين وود، وزير الظل العمالي بشؤون المستعمرات والذي كان مسؤولاً في ذلك الوقت عن «الدائرة الدولية» في الحزب.

كان غرين وود رجلاً طويلاً في بداية الخمسينيات من عمره، حسن الهندام ويعتني بمظهره الخارجي، وكان بالإضافة إلى ذلك ودوداً وقريباً إلى القلب ولا يحاول الترفع. كان الرجل المناسب كي يكون ناطقاً باسم شؤون المستعمرات، لتعاطفه الحساس مع ضحايا الظلم والاضطهاد. فوالده أرثر غرين وود.

بدأ حياته نقابياً وانتهى في «مجلس اللوردات» وكان فخوراً بأسلافه. التحق هو نفسه بمدرسة عامة في أكسفورد مما جعله شخصية شعبية، ولم يكن يخجل أبداً من نشأته البروليتارية. بل كان رجلاً وودوداً له قلب طيب كبير. لقد أحببته.

أمضينا بعض الوقت نتحدث عن الثورات ذات الطابع العرقي في سنغافورة، وسألني لماذا لم أندفع عائداً إلى الوطن فنوهت بأن هناك المحرضين المالاويين من ذوي الاتصالات الرفيعة كانوا خلف هذه الاضطرابات. فهمني وعبر عن موافقته على الموقف الهادئ والمتعقل. ودعاني إلى مقابلة أعضاء آخرين في حزب العمال البريطاني، وأن أحضر دعوة إلى الغداء في مجلس العموم يوم الحادي عشر من أيلول، حيث سيتواجد أعضاء حزب العمال في البرلمان ومرشحو الحزب. إنه حفل الغداء السنوي للرابطة البرلمانية وسيجري عشية تسمية الأعضاء للانتخابات العامة، قبلت الدعوة وطرت إلى لندن.

كنت قد قابلت قبل ذلك، في شهر كانون الثاني (يناير) وزير الدفاع المحافظ بيتر ثورينكروفت في سنغافورة وأخبرته مهما كان موقف حكومته يبدو حازماً، فإن الإندونيسيين كانوا يعرفون أن حزب العمل قد يشكل الحكومة القادمة بعد الانتخابات العامة في الخريف. وقلت: إذا كان هارولد ويلسون بوصفه زعيماً للحزب قادراً على توضيح وتقدير التزامات بريطانية الدفاعية، فسيخمد أي أمل لسوكارنو بأن يتحدث إلى هارلد ويلسون عند عودته، وبموافقته كتبت إلى ويلسون كلمات بهذا المعنى.

حان وقت الجد. فقبل الغداء في 11 أيلول قابلت ويلسون في غرفةٍ في مجلس العموم بوصفه زعيم المعارضة. وتمشينا معاً لمدة 40 دقيقة. كان موضوع مجابهة إندونيسيا لماليزيا يشغله، وكذلك أعمال العنف المالاوية ـ الصينية في سنغافورة. فالقوات البريطانية موجودة للدفاع عن ماليزيا، وأراد أن يعرف ما إذا كان الاتحاد الجديد قادراً على الصمود على المدى البعيد. لقد تقابلنا من قبل عدة مرات، وجهاً لوجه، وكنت شديد الصراحة معه عند تحليل مشكلاتنا، أخبرته أنه بغض النظر عن المجابهة التي تزيد من شعور التونكو بانعدام الأمن، فإن التونكو ورفاقه يجدون صعوبة في التخلي عن سياستهم في المحافظة المالاوية الكاملة من أجل وضع متوازن مع الأعراق الأخرى، رغم ضرورة هذا الآن

لأن تركيب أو طبيعة تكوين الهيئة الانتخابية قد اختلف الآن بانضمام سنغافورة و ساراواك وصباح، قلت له: إنني وزملائي نوافق على أن هذا يحتاج إلى وقت كي يتغير، وإننا لا نتصور أن يستلم السلطة حزب ذو أكثرية غير مالاوية لمدة عشرين سنة على الأقل، فنحن لا نستطيع ولا نقبل في ماليزيا أن يحكمها المالاويون بحيث يكون فيها غير المالاويين في حالة معاناة. سيكون هذا معارضاً للدستور الذي اتفقنا عليه مع التونكو. وافقني، كما وافقني غرين وود من قبل على مقاربتي الموضوعية والعقلانية.

كان ويلسون في حالة معنوية عالية، ويتوقع الفوز في الانتخابات العامة، وأكد لي أن الحكومة العمالية ستستمر في دعم ماليزيا ضد المجابهة الأندونيسية. وكان يريد أن تقوم بريطانيا بنصيبها في احتواء التخريب السوفيتي في جنوب شرق آسيا، والمجابهة هي إحدى عناصر هذا التخريب الذي أوجده السوفيت من خلال إمداد أندونيسيا بالأسلحة. وهو يتطلع إلي وإلى حزبنا PAP، في سنغافورة لدعم سياسة حزب العمال في هذا الشأن. كان لقاءً دافئاً ودياً، وكانت أمسية لطيفة من أمسيات أيلول، فقد تمشينا، فيما الشمس ما تزال مضيئة في الشرفة المطلة على نهر التيمس. كان في حالة نفسية جيدة وتحدث بحيوية كيف ينوي أن يدير حكومته. كان لديه بعض الرجال المقتدرين من جيله في حكومة الظل. كان يريد لبريطانيا أن تستعيد مركز القيادة في العلم والتكنولوجيا.

كان ذاك اللقاء من أهم اللقاءات في حياتي، فإذا فاز حزب العمال في الانتخابات، وأصبح ويلسون رئيساً للوزراء، فسيعرف التونكو أن عليه أن يكون معتدلاً في سياسته العرقية ضد حزبنا. وبنجاح أليك دوغلاس هوم رئيساً للوزراء، شعر التونكو بصلة روحية بين اثنين من النبلاء، كان واثقاً أن دوغلاس هوم سوف يتفهم احتياجاته وأسلوبه في الحكم. ولكن التونكو سيشك في هارولد ويلسون وزمرته من النبلاء الراديكاليين من خريجي أوكسفورد والذين يعتبرونه مفارقة تاريخية، إذ يشبه زعماء إفريقية القبليين. لذا كنت مهتماً بنتائج الانتخابات التي ستجري في تشرين الأول.

كان هناك 600 من حزب العمال البريطاني من أعضاء مجلس العموم ومن المرشحين المحتملين على الغداء. طلب مني ويلسون، بعد أن شجعه غرين وود، أن أتحدث أثناء تناول الحلوى. فتحدثت عن مشكلات «مجابهة إندونيسيا لماليزيا» وكيف أن الاستقرار في المنطقة وبقاء ماليزيا كانا يعتمدان على حل بريطاني للحيلولة دون ابتلاع دولة كبيرة لجار أصغر بالقوة. وفي حال شكل «العمال» الحكومة القادمة فإنني آمل أن تحترم الالتزامات التي تعهدت بها حكومة المحافظين البريطانية. وقلت: إن الشعب في الوقت الحاضر في الدول النامية سوف يخلق مجتمعاً أفضل وأكثر عدالة كالشعب البريطاني الذي قرأوا عنه. لقي كلامي تجاوبا لدى النواب العماليين بعيدي النظر وعزز موقفي لدى ويلسون. وهذا ما حقق فرقاً حاسماً تجاه الأحداث في سنغافورة في السنة القادمة. وفي وقت متأخر من تلك الأمسية أخبرني غرين وود أن كلامي وجد صدى طيباً لدى الحاضرين وأنني ربحت تأييدهم لماليزيا.

عدت إلى سنغافورة في 13 أيلول متأكداً من تأييد حزب العمال البريطاني لي، فقد أصبح لدي أصدقاء فيه بالإضافة إلى صداقة بعضهم التي تعود إلى أيام دراستي في كيمبريدج، ولكن عندما حطت الطائرة في سنغافورة وجدت الجو مختلفاً تماماً، فقد كان المطار مزدحماً برجال شرطة مكافحة الشغب مدججين بأسلحتهم وبزجاجات الغاز المسيل للدموع، فيما ازدحمت جمهرة كبيرة خارج المطار. وكان «الباريسان» قد حاولوا في اليوم السابق القيام بمظاهرة قوامها 7 آلاف شخص خارج المطار، ولكن الشرطة قمعتهم قبل أن يتجمعوا، واتهم 77 شخصاً، بمن فيهم عضو البرلمان عن «الباريسان»، بتهمة إثارة الشغب. لقد خطط المتظاهرون لاستقبالي استقبالاً حاراً.

ولم يكن هذا كل شيء، فقد وجدت صعوبات داخل الوزارة نفسها، إذ جاءني عدة وزراء، على انفراد لرؤيتي وإعلامي عن عدم رضاهم عن الطريقة التي عولجت بها الاضطرابات في غيابي. وتشين تشي، بصفته رئيساً للوزراء، كان

عصبياً وفرض منع التجول فجأة، بدون فترة إهمال، في وقت كان الناس في أشغالهم ومحال عملهم والطلاب في المدارس، مما زاد في الإنذار وبسبب الذعر لأنه كان على كل فرد أن يهرع إلى بيته. اطلعت على تحفظات الوزراء، ولكنني قررت أن أترك الأمور كما هي، كنت محبطاً للغاية، ولكنني عزمت على ألا أجعله يسوء من خلال إظهار علامات اليأس، إذ لو أردنا أن نقاتل ونكسب هذه المعركة، فإن معنويات السكان ورغبتهم في المقاومة لهي ذات أهمية بالغة.

وبعد أسبوع من عودتي كان علي أن أفتتح رسمياً البناء الجديد «لغرفة التجارة الصينية في سنغافورة» في شارع هيل. إذ كانت معنويات التجار الصينيين منهارة، وقد جاء كوتيك كين ليراني ذات مساء في «سري تيماسيك» وقد بدا مذعوراً، إذ لما كان قد طلب من الناطقين بالصينية بأن يصوتوا للخيار «آ» في الاستفتاء من أجل الانضمام إلى ماليزيا، فهو يشعر نفسه مسؤولاً بمرارة عن مأساتهم الراهنة، وتعاستهم عندما وقعوا ما بين سندان المشاغبين والقائمين بأعمال العنف المالاويين، ومطرقة قوات الشرطة والجيش المالاوية والتي كانت معادية للصينيين بشكل مكشوف، ما الذي يمكن عمله؟.

نظر إلي بإمعان وقال: «لا نستطيع أن نتخلى عن الصينيين».

قلت له: إن حقوقنا مصونة بالدستور، ولن أسمح لأحد بأن يتجاهل ذلك. لقد كانت مهمتنا توحيد وحشد الناس لتأييد الدستور واحترامه، لن يكون هناك تمييز بين الأعراق، إلا ما ورد في الدستور، الذي أعطى المالاويين نسبة خاصة من التعليم والوظائف، وإجازات العقود في شبه جزيرة ماليزيا فقط.

قال لي: «لديك علاقات طيبة مع حزب العمل البريطاني، ألا تستطيع أن تجعلهم يساعدوننا في هذا الأمر الصعب؟ فمن الصعب أن نعيش هكذا».

شعر أن حزب العمل إذا شكل الحكومة فسيكون أكثر تعاطفاً تجاه حزب اشتراكي غير طائفي في سنغافورة من التعاطف مع حزب مالاوي طائفي ويميني في كوالا لامبور. كان يشعر بإحساس الجماعة الناطقة بالصينية التي وجدت أن

من الظلم أن تعيش في حالة دائمة من الخوف. فأعمال الشغب الطائفية الأولى قد تولدت نتيجة عواطف مكبوتة طوال شهور ثم فجرتها مجموعات (بيرسيلات) المالاوية في شبه الجزيرة. وعندما نشبت أعمال الضرب والقتل اللامعقولة لأناس أبرياء، كان من السهل إثارتها مرة أخرى. فقد أصبحت العلاقات متأزمة ولن يحتاج الأمر لوقت طويل لإثارتها ثانية.

وعندما افتتحت مبنى غرفة التجارة الصينية «الجديد أعطيتهم دفعة من الحماسة ورفع الروح المعنوية». كان عليّ أن أظهر الثقة بنفسي كي أشبع الثقة فيهم، وكنت واثقاً أن للصينيين مستقبلاً في ماليزيا. وقلت: «طالما نحن ماليزيون فهناك ماليزيا»، وقارنت ما بين أحداث الشغب في تموز وأحداث الشغب التالية التي جرت في أيلول. ففي الأحداث الأولى قد لا يكون زعماء كوالا لامبور قد عملوا بالتنسيق مع زعماء سنغافورة. ولكن في الأحداث الثانية عملنا معاً بانسجام كي نحارب الطائفية».

في اليوم نفسه تحدث التونكو في حفل استقبال إقامة «تحالف سنغافورة». وقد لمس الوتر الصحيح وحث زعماء سنغافورة جميعاً على نبذ الخلافات الطائفية، والائتلاف جميعاً، «كي ندافع عن أرضنا» ضد العدو المشترك، وقال: إنه سيشكل لجان سلام، نظراً لأن لجان النوايا الحسنة لم تعمل بكفاءة. وتساءلت عن الفارق بين هذا وتلك ـ لم أعرف ما إذا كان ما يريد أن يفعله سيكون مجدياً، إذا لم يتضمن اعتقال المتطرفين، ولكن هذه هي طريقة التونكو، إنه يحب أن يلعب دور أب الأمة، وكان علي أن أساعده بقدر ما أستطيع.

في 25 أيلول ذهبت إلى كوالا لامبور مع تشين تشي وكيم سان لرؤيته، اجتمعنا في الصباح كي نتحدث، وتابعنا مناقشاتنا ليلاً عندما دعانا التونكو إلى العشاء. قال تشين تشي: لا لجان النوايا الحسنة ولا لجان السلام ستكون مجدية في فرض القانون والنظام إذا استمرت مجموعات الشباب في الثورة، وأضاف: «وفي مثل هذا الوضع فإن تصرف الشرطة بفعالية أمر ضروري، نعتقد أنه يجب اتخاذ

إجراء ضد جميع هؤلاء الأشخاص المسؤولين عن اقتتال الطوائف فيما بينها»، ذلك هو لب المشكلة، فإذا عملت الشرطة بكفاءة وسرعة،بدون تفرقة عنصرية، فسيكون من الصعب على الثائرين والقائمين بأعمال الشغب أن يكسبوا زخماً.

في اليوم التالي أبلغ تشين تشي الصحافة أنه قد تم الوصول إلى تفاهم كامل بين الدولة والحكومات المركزية بعد سوء التفاهم الأخير، وقال: إن المناقشات قد ساعدت على إزالة الشكوك والمخاوف حول القدرة على العمل الجماعي من أجل نجاح ماليزيا، وأن الخلافات الحزبية سنلقيها جانباً، فمصالح ماليزيا لها المكان الأول. قلت: إن كلا الطرفين قد وعد بتجنب القضايا الحساسة المتعلقة بمواقف الطوائف في ماليزيا، وإن الجهد الأعظم سينصب على حشد الشعب ضد العدوان الإندونيسي. اقترحت ووافقني التونكو على وقف تدهور الموقف. وإننا سوف نمتنع عن توسيع فروع حزبنا ونشاطاته أملاً في بعض الإرجاء للعمل السياسي.

وفي قرابة الساعة الخامسة والنصف من صباح 17 تشرين الأول (أكتوبر) صحوت في كوالا لامبور لأستمع إلى محطة بي بي سي BBC فقد أغلقت نتائج الانتخابات البريطانية النهائية. وفاز حزب العمال. فشعرت بارتياح بالغ. لأن هارولد ويلسون كان سيتولى منصب رئيس الوزراء. وبذلك يتحسن وضعي، فالتونكو سوف يتعامل مع حكومة بريطانية عمالية لا تتعاطف مع الزعماء الإقطاعيين الذين ينتقصون من قدر المعارضة الديمقراطية الموالية التي تتجنب العنف.

بدت الأشياء وكأنها تسير سيراً حسناً، ولكن تفاؤلي سرعان ما تبخر. ففي اليوم نفسه قال تان سيو سين، في حفل غداء أُقيم على شرفه من قبل «اتحاد هوكين كلان»: إن سنغافورة لا تستطيع أن تنسحب، من ماليزيا لأن الدستور لا يسمح بذلك. كان واثقاً من أن الجزيرة ستتقدم وتزدهر، ولكنها لا يمكن أن تكون «الواحة الوحيدة للرخاء في صحراء من الفقر»، تنسحب؟ عندما عدت إلى سنغافورة تصديت لملاحظاته وقلت: إن شعب سنغافورة كان أكثر اهتماماً بجعل

إنشاء ماليزيا مشروعاً ناجحاً، وكان من سوء الحظ أنه تكلم عن انسحاب عندما وافق على سنتين من الهدنة لإيقاف الانشقاق الطائفي الذي يمكن أن يفجرها. رد تان بأن أعلن هذا البيان ليقضي على شائعات قوية تقول: إن سنغافورة تعتزم على أية حال الانفصال، ولم يكن هناك تلك الشائعات فقط،فقد كان علي أن أنفي شائعة أخرى وهي أنني اعتُقلت من قبل الحكومة الاتحادية في كوالا لامبور.

في الأسبوع التالي أعلن خير جوهري عن هزة كبرى في «تحالف سنغافورة» لإزاحة حكم حزبنا PAP في الانتخابات الرسمية القادمة التي يفترض أن تجري في 1967. وسارع تشين تشي إلى أن يطلب من «التحالف» أن يتحرر من موقف مهلة السنتين الذي لا ينطبق إلا على حزب PAP، وأنكر خير معرفته بالمهلة، وبعد اجتماع مع التونكو في اليوم التالي، أصدر «تحالف سنغافورة» بياناً يفيد أن التخلي عن السياسة الحزبية لسنتين يثير فقط المسائل الطائفية، ولا يعني أن التحالف لا ينبغي أن يعيد الانتظام في بنية فعالة، وكان التونكو يتوقع أن تفسر جميع الاتفاقيات لصالحه. كان تشين تشي غاضباً، ولكن لما كان خير والتونكو قد قالا: إننا أحرار في توسيع أحزابنا السياسية الخاصة، بدأ تشين تشي وراجا وبانغ بون وكون تشوي الاتصال بأصدقائهم في مدنهم لبناء تأييد واسع، وأعلن تشين تشي أن حزبنا سوف يعاد توجيهه بحيث يستطيع أن يحصل على مساندة شعبية في الملايو. فالحزب لديه أعضاء في كل البقع الرئيسية من البلاد وعندما يحين الوقت المناسب سيعيد تنظيمها في فروع.

شرعت المخابرات الإندونيسية تستفيد من هذه التوترات،وبعثت إلي بإشارات عبر تجار صينيين، تعد فيها بأن إندونيسيا سوف تستأنف التجارة مع سنغافورة إذا ما انسحبنا من ماليزيا. ومن أجل إيقاف مثل هذه المحاولات لتقسيمنا كشفت عن محاولة جاكارتا في الجمعية التشريعية في سنغافورة في 12ك 2 (نوفمبر) قائلاً: إن الإندونيسيين ينبغي أن يفهموا أخيراً أن ماليزيا ليس من السهل بلعها وعليهم أن يتعلموا العيش معها وتبادل التجارة معها.

ولكن الروح المعنوية في سنغافورة كانت راكدة، وبدت المدينة تعيسة، فمع ضعف قوة القانون، سمح الرعاة الهنود لقطعانهم من البقر والماعز أن ترعى في حقول الملاعب والأعشاب في المناطق المجاورة، وقد كنت أستطيع أن أرى من نافذة مكتبي القطعان ترعى في «إيسبلاند». وبعد انفجار أحداث العنف مرتين بات المكان قذراً مهملاً، مع مزيد من البقر والماعز تسرح في الشوارع، ومزيد من الكلاب الشاردة، والبعوض والذباب والحشرات، حتى جدران «مستشفى سنغافورة العام» شوهت وحفرت. صممت على أن أوقف هذا الانحدار، فدعوت إلى اجتماع في «مسرح فيكتوريا» طلبت فيه حضور جميع الموظفين المسؤولين عن الصحة العامة، بحضور ممثلي الإذاعة والتلفزة أيضاً، لحثهم على إعادة بناء معايير النظافة والأناقة، وأعطينا الرعاة مهلة لبضعة أيام لترحيل قطعانهم إلى أماكنها المعتادة، وحذرنا من أن هذه القطعان ستتعرض للذبح لصالح الجمعيات الخيرية، إذا ما تكرر نزولها إلى المدينة. وكان لهذا القرار فعل السحر، فقد عادت المدينة للتأنق والتألق.

أشعل تان سيوسين ثانية النار. ففي حديثه عن الميزانية في 25 ت 2 أعلن عن إجراءات جديدة وقاسية لزيادة العائدات، بما في ذلك ضريبة بنسبة 1.5% على الأرباح الإجمالية وضريبة بمقدار 2% على مجموع الرواتب في جميع المحلات التجارية. وهذا من شأنه أن يضر بسنغافورة كثيراً. إذ كنا بحاجة لإيجاد مزيد من العمال، وزيادة كلفة القوة العاملة من شأنه أن يثبط الصناعات ذات العمالة الكبيرة.

وقد أشرت إلى أن هذه الإجراءات لن تساعد على تصنيع ماليزيا، ومن شأنها أن توسع الفجوة بين من يملكون والذين لا يملكون. وفي هذه الخطبة الأولى في المجلس النيابي الاتحادي قال كينغ سوي أيضاً: إن الضرائب انكفائية وإن توقيعها غير مناسب. ستدفع بحيث إن سنغافورة 25% من ضريبة الدخل القومي مما لا يتناسب مع تعداد سكانها واقتصادها، وكذلك شأن نسبة الـ 40% من العائدات.

وعندما عارض مؤتمر النقابات في سنغافورة هذه الإجراءات ووصفها بأنها معادية للعمال، اتهم تان حكومتنا باستخدام جميع الوسائل التي في حوذتها لإثارة العواطف ضدهم.

قال تان: إنه أراد أن تُراجع ترتيباتنا المالية سريعاً، مدعياً أن الأعباء الضريبية في سنغافورة هي الأدنى في كل ماليزيا. فقد كان يتطلع إلى أن تدفع سنغافورة 60% بدلاً من 40% من عائداتها إلى الحكومة المركزية.

بدا «التونكو» نفسه عدوانياً في غداء لكلية الطب في سنغافورة في 9 ك 1، قائلاً: إن سنغافورة «مشغولة بالسياسة وستجد أن هناك تنافساً أقل من أي مكان آخر في ماليزيا، لهذا كنت قلقاً جداً إزاء انضمام سنغافورة إلى الاتحاد». فانتقاداته للضرائب الخاصة بالعائدات والرواتب لدينا قد أزعجتنا لأنه أضاف:

> «إذا وجدنا أن أي نوع من الضرائب يبدو غير قابل للتنفيذ أو موضع اعتراض عندئذ نستطيع أن نجري تغييرات... وإذا لم يوافق السياسيون من مختلف الألوان والميول والتطلعات في سنغافورة فإن الحل الوحيد هو الانفصال، ولكن أي كارثة هذه ستكون لسنغافورة وماليزيا».

38. إعادة ترتيبات دستورية ؟

لا بد أن التونكو قد شعر أن ماليزيا تسير نحو الاضطراب. عندما قابلته في كوالا لامبور في 19 كانون الأول (ديسمبر) إذ لم يكن في حالته المرتاحة الطبيعية. فقد تجاوز مداعباته ونكاته المعتادة ودخل مباشرة إلى شؤون العمل، وتحدث بصورة جادة لمدة نصف ساعة. كان مباشراً، واقترح لأول مرة «إعادة ترتيبات» دستورية. وكان قد تحدث حول ذلك ضمن دائرته الداخلية ـ رزاق، و إسماعيل وتان، وخير جوهري ـ حول هذا الموضوع بعد اجتماع مجلس الوزراء قبل يوم.

كرر التأكيد على أن الدفاع أمر حيوي بالنسبة له، وأن التجارة ستستمر كالمعتاد، ولكن يجب أن نتعاون كي نمول الدفاع. فسنغافورة من المقرر أن تكون «مشاركة، ومستقلة، ولكنها جزء من شبه الجزيرة». وأراد أن تكون كل من ماليزيا وسنغافورة عضوين في الأمم المتحدة، نستطيع أن نتبادل السفارات وربما ممثلياتنا في الأمم المتحدة. لم يكن واضحاً في فكره وبماذا يريد، ولكن قال: إن التاريخ المحدد لإنجاز هذه الأشياء سيكون قبل الميزانية التالية، وفي تلك الأثناء أستطيع التفكير في المشكلات. قلت له: طالما أنه على قيد الحياة يستطيع أن يمسك مختلف القوى.

أجاب: «يوجد كثير من الصينيين الشوفينين في سنغافورة، وكثير من الشيوعيين الصينيين، فعليك القيام بأشياء كثيرة للصينيين لأنها دولة صينية، ولكن هناك كثير من المضاعفات في الملايو. لي سيوك يو (نائب وزير التربية من اتحاد المالاوين الصينيين MCA) يريد الآن كلية صينية في الملايو، وإذا ما انفصلنا تستطيع أن تكون مختلفاً، تستطيع أن تعتبر بجامعة نانيانغ، كما أن سياساتك اللغوية يمكن أن تختلف بعد أن تتضح الأمور في أذهاننا ونستطيع أن نخبر البريطانيين».

أشـرت إلـى أن المصـالح البـريطانيـة يجب أن تحـفظ إذا كنا نريدهم أن يستمروا في البقاء في قواعدهم في سنغافورة والدفاع عن ماليزيا، وسألت هل ستكون سنغافورة مثل إيرلندة الشمالية أو إيرلندة الجنوبية، فأجاب: «في مكان ما بينهما».

في 31 كانون الأول (ديسمبر) التقيت بإسماعيل لمدة ساعة، كان أكثر تحديداً ومنطقية. «فالتونكو يشعر بهذه الأشياء بحدسه». أما إسماعيل فيريد أن يعود إلى الخطة الأصلية، أي أن ترعى سنغافورة من أجل «التونكو». وعندما سألته أن يشرح أكثر بالتفصيل، تهرب من الإجابة، وقال: من الأفضل أن تبقى صامتاً.

شعرت أنهم جميعاً يرتابون بي. فقد كنت أبعث إليهم دورياً بتقارير «الفرع الخاص» ولكنها لم تعد موضع اهتمامهم الآن، وباتوا يهتمون بتقارير مخابراتهم الخاصة، تقارير مخابرات «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ـ UMNO».

بعد التونكو سيكون هناك اضطرابات لأن المتطرفين والشوفنيين فعالون في جميع المعسكرات، وطالما أن التونكو حي، بشخصيته، فالناس سوف يصغون إليه، إنه فوق مجلس الوزراء، كما أن قواعد المسؤولية المشتركة للمجلس لا تطبق. وهذا أسهل للتونكو حيث نقوم بالأعمال القذرة، في حين إنه يستطيع أن يتبرأ منا إذا شاء.

وفيما كنت أهم بالخروج قال لي إسماعيل: «من الأفضل أن تبقي الأمور هادئة، وإلا ستكون هناك صدمة كبيرة للشعب، من فقدان للثقة، وهروب للمستثمرين، وسيكون سوكارنو هو المنتصر، وسيستمر في المجابهة. فمن الأفضل أن نبقي الأمور سراً وأن نتناقش، ومن الأفضل لي ألا أتكلم لأنهم لا يثقون بي. فهناك انقسام حاد الآن. «فالمنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ـ UMNO» لا تثق «باتحاد الملاويين الصينيين». MCA، والأخير ينافس «حزب العمل الشعبي» ـ PAP بخط أكثر شوفينية. وفي النهاية لا فرق بين الاثنين، إنهم المالاويون ضد الصينيين. وقبل الانتخابات اقترح تان سيوسين أن يندمج «التحالف» في حزب

واحد، أما الآن فهو يرفض ذلك لأنه يعرف أن الصينيين سيذهبون إلى حزبنا». كرر عدة مرات «تحدث مع توه وراجا إذ نستطيع أن نوافق على خطهم غير الاشتراكي من حيث المبدأ في الجيل القادم، أما الآن فإن الأجواء طائفية. دعنا نسير عبر خطوط متوازية لفترة 15 أو 20 عاماً، ثم ندمج المجتمعين. فسنغافورة و مالايا تاريخهما مختلفان وبنيتهما مختلفتان».

أكدت على أن العقبة الكبيرة أن تشين تشي وراجا، ونيك لين، وبانغ بون كانوا من الاتحاد و ماتزال عائلاتهم هناك. والروابط العاطفية جعلت من الصعب عليهم كثيراً أن ينسحبوا من مالايا. هز إسماعيل رأسه موافقاً.

بقدر ما حاولنا التكتم حول الترتيبات الدستورية الجديدة، والنزاعات المرة فيما بيننا، فإنها لم تخف عن البريطانيين، فقد كانوا قلقين من أي خطوة يمكن أن تصعب الاندماج الماليزي فيستغلها سوركانو.

وفي 28 تموز 1964 بعد أعمال الشغب الطائفية الأولى قابل كينغ سوي أنطوني هيد الذي علّق بقوله: إن زعماء المنظمة (UMNO) كانوا يعرفون أنه في مجابهة سياسية تقوم على الإيديولوجيا والعقيدة سوف يخسرون أمام حزبنا على المدى الطويل. كما أوضح كينغ سوي لهيد اقتراحات رزاق للتعاون والتعايش. رأى هيد أنها غير صالحة للتطبيق. وقال: إن استقالتي لن تفعل أي شيء صالح. وقال مطالباً بإبعاد مفوض سنغافورة بسبب اضطراب أحدثه المالاويون أنفسهم، الأمر الذي يمكن أن يلهب مشاعر الصينيين ويحدث ضرراً شديداً.

كان «هيد» يريد أن يعود التونكو سريعاً من الولايات المتحدة، وأن يعلن تشكيل حكومة من شأنها أن تعزز الوحدة الوطنية في وجه العدوان الإندونيسي. وقد أطلع لندن على وجهة نظره في صباح وساراواك باهتمام لأنهما لم تكونا ممثلتين بشكل كاف في مجلس الوزراء، فلا فائدة من دفاع بريطانيا عن الحدود إذا كانت المؤخرة مضطربة.

عاد التونكو إلى سنغافورة في 18 آب. وأخبرني أنه في طريق العودة من واشنطن توقف في لندن وقابل رئيس الوزراء البريطاني، الذي نصحه بأن أفضل طريقة لتضامن ماليزيا، بعد أعمال العنف الطائفية في سنغافورة هي تشكيل حكومة ائتلافية مع حزبنا (PAP). وقال التونكو: إن المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو UMNO لن تقبل أبداً بهذا، لأننا بدورنا لن نقبل الشرط الأساسي الذي وضعه رزاق، وهو أن نبقى بعيداً عن عالم الملايو.

في كانون الأول (ديسمبر) 1964 بدا الطرفان يقتربان نحو اتفاق أكثر ليناً ضمن «الاتحاد». إذ طلب مني التونكو أن أضع الأفكار التي ناقشناها على ورقة من أجل أن نوضح ما نحن مستعدون لتسويته. وبالفعل أنجزت مذكرتي في 25 كانون الثاني 1965، مقترحاً العودة إلى وضع ما قبل الاندماج جميع السلطات الدستورية التي تحت سلطة حكومة سنغافورة تعود إليها، والحكومة المركزية تكون مسؤولة عن الدفاع، والسياسة الخارجية بالتشاور معنا، ولسوف نتقاسم المسؤولية في شؤون الأمن و«مجلس الأمن الداخلي». وإلى أن تتحقق وتعمم هذه الترتيبات الدستورية، سيحظر على سكان سنغافورة والنشاطات الحزبية السياسية خارجها، وهذا ينطبق أيضاً على الماليزيين على الأرض الأساسية.

كان راجا الشخص الأكثر معارضة لأي انسحاب مؤقت من ماليزيا. لأن ذلك يعني عزلتنا كما قال محتجاً، وأضاف بأنه سيتم القضاء علينا في النهاية على يد المتطرفين. ورأى أن نبقى في «الاتحاد» لتشجيع الشعب ضد المتطرفين وبذا نحظى على فرصة أفضل لمجابهتهم. والحق أن راجا لم يبتعد أبداً عن المجابهة، مهما كانت قذرة، عندما يقتنع أننا على صواب. وكان تشين تشي معه، ولكن غالبية المجلس كانت تساندني. أعطيت مذكرتي إلى التونكو بعد يومين وناقشها معي في قصر الرئاسة لمدة ثلاث ساعات في 31 كانون الثاني.

وقد تصادفت السنة الصينية الجديدة و«هاري رايا بواسا»، الاحتفالان الكبيران للصينيين والمالاويين في يوم واحد هو 31 كانون الثاني 1965 أكدت في رسالتي بقوة على الانسجام العرقي لمواجهة الدعاية الإندونيسية التي فاقمت

المشاعر المالاوية ـ الصينية. وقد جعل النداء الذي وجهه سوكارنو من أجل الوحدة الماليزية «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ـ UMNO» تؤكد على مالاويتها للتغلب عليه. ولكن رسالتي أثارت رد فعل عنيف من جانب «التونكو» في اليوم التالي:

«هناك سياسيون يتهمون الحكومة باستخدام أساليب مسلحة قوية لفرض إرادتنا على الآخرين. إننا لسنا حكومة قوية فحسب، بل حكومة عادلة وجيدة أيضاً، ولكن القول إننا نستخدم أساليب عنيفة غير صحيح... هؤلاء السياسيون يتحدثون عن كفاح وتوتر، وعدو، و متاعب وحمامات دم قادمة، يتحدثون عن حرب... يزرعون الكآبة في عقول الناس أينما ذهبوا... في هذه الساعة من الاختبار والمحنة، فإن مثل هذا الحديث يعتبر حماقة وضرراً وخطراً وأقول لهم ياللعار».

أجبت بعد أربعة أيام في عشاء قدمته لجان خيرية أننا إذا جابهنا حقائق الحياة المنغصة، فلدينا احتمال كبير في أن نحلها بدلاً من أنها غير موجودة. والأشياء التي قيلت إذا ما سمح لها أن تستمر سوف تقود إلى تعاسة بالغة. كنت أشير إلى مقالات في صحيفة «أوتوسان ميلايو» التي استمرت في إثارة المشاعر المالاوية ضدي، وضد حزبنا وضد الصينيين. وقد نشرنا ترجمات بالإنكليزية والصينية والتاميل حول هذه الانتقادات اليومية اللاذعة، وأذعنا مقاطع في جميع اللغات عبر الإذاعة والتلفزة. كان التونكو يعلم أنني أجابه أساليبهم. أراد مني أن أبقى هادئاً وأن أناقش الأمور معه بشكل خاص. ولكنني أردت أولاً أن أكشف أمام كل فرد الحملة العرقية الشرسة التي كان يشنها كل من ألبار وصحيفة «أوتوسان».

وفيما كان التراشق العلني بالانتقادات والمجابهات مستمراً، التقيت مع كينغ سوي لإجراء مناقشة لاسيما مع التونكو ورزاق وإسماعيل. اقترحت فيها فكّ الاشتباكات لمدة بضع سنوات، مع تخفيف الروابط الاتحادية وضمان قوة أكبر لحكومة سنغافورة، وخاصة بالنسبة لشؤون الأمن الداخلي والشرطة. وأن البديل

للتعـاون فـي حكومـة وطنيـة هـي دولة تعـايش: سـنغـافـورة لن تمثل فـي الحكومـة (الوزارة)، ولكن كلتا الحكومتين، تعمل باستقلالية ضمن المجالات المتاحة للسلطة، لن يتم الاتفاق عليها، ولكن الشرط المسبق الأساسي لتعاونها أو تعايشها أن يبقى حزبنا PAP ـ لا في الملايو وحدها، بل في سنغافورة، خارج عالم المالايو ويتركه بالكامل إلى UMNO للتعامل مع المالاويين من خلال خير جوهري. فهذه المنظمة يجب أن تحتكر قيادة المالايو، حتى في سنغافورة.

وبعد عدة محاولات للوصول إلى ترتيبات وسط، استنتجت أن التونكو قد عزز موقفه. إنه مصمم الآن على إخراجنا من البرلمان الاتحادي، وهو لا يريدنا أن نشارك في مداولاته على الإطلاق. لقد أصبحنا شوكة في خاصرتهم، لاسيما في شؤون المال. وعلى سنغافورة أن تشرع بجمع ضرائبها الخاصة قبل الميزانية التالية، كما قال، على أن تدفع التزاماتها للدفاع الماليزي نظراً لأنها ستكون مزدهرة بفضل سوقهم المشتركة.

قال: «إذا كنتم خارج البرلمان نستطيع أن نكون أصدقاء، وذلك أفضل ـ أما إذا كنتم داخل البرلمان فلا بد أن تنتقدوا».

ولكن بدا مصمماً على الهيمنة على الدفاع والشؤون الخارجية. وقد كانت حجته بسيطة. «ماذا سيحدث إذا فتحت سنغافورة علاقات دبلوماسية مع الصين والدول الشيوعية الأخرى؟ ستجعل من الدفاع هراء».

منذ البداية كان يريد الاتحاد مع سنغافورة أن يكون على أساس المشاركة وليس الاندماج. وفكرته عن موقفنا هي وضع الدومينيون ـ مثل روسيا ـ كما قال إسماعيل.

قلت للتونكو: إذا كنا سندفع للدفاع فينبغي أن نمثل عندئذٍ في المجلس (البرلمان). إذ لن يكون ثمة دفع ضرائب بدون تمثيل، ولكنه كان متشدداً، وكما كتبت لزملائي في الوزارة: كانت «رغبته في إبعادنا عنيدة»، وعندما قلت: إنني

قد لا أكون قادراً على إقناعهم، بقبول أفكاري، انفجر التونكو بغضب قائلاً: «قل لهم إنني لن أقبل سنغافورة، هذا كل شيء، لا أريد سنغافورة في البرلمان، وهم لا يستطيعون شيئاً حيال ذلك».

سألت إسماعيل في اليوم التالي ما إذا كان التونكو قد فهم وجهة نظري، وهي أنه لا يستطيع أن يجعلنا خارج البرلمان ويتوقع منا أن نساهم في الدفاع والشؤون الخارجية. أجابني إسماعيل: «نعم إن التونكو تفهم تلك الفكرة ولا يمكن تحقيقها معاً».

ليس من دواعي الدهشة أننا لم نحقق أي تقدم مع «إعادة الترتيبات» ضمن «الاتحاد» والتي كنت قد اقترحتها بمذكرتي في 25 كانون الثاني (يناير). فبعد اجتماع مع «مجلس الدفاع الوطني» في 9 شباط قال رزاق لكينغ سوي: إنه من المستحيل بالنسبة للجانبين أن يفترقا عن المواقف السياسية التي تعززت بدرجة أو بأخرى على مر السنين، فما كان مناسباً لسنغافورة لم يكن مناسباً لماليزيا والعكس بالعكس.

فالاندماج كان خطأ، ولا بد من فترة انتقالية لتجنب التعارض، ومن الضروري الآن وضع صورة مختلفة من الكونفيدرالية.

وقال كينغ سوي: إن أية إعادة ترتيب دستورية ينبغي ألا تجعل سنغافورة تبدو وكأنها شبه مستعمرة، وإذا غادرت سنغافورة البرلمان الاتحادي فستقلص من مركزه وصلاحياته، وهذه ستكون مسألة خطيرة. وكرر فكرتي على أننا ينبغي أن نعمل باتجاه الوضع الذي كان موجوداً قبل ماليزيا، وهذه المرة وافق رزاق على أن شيئاً ما في هذا السبيل سيتم إجراؤه.

هذه المناقشات حول «إعادة الترتيبات» كانت مخيبة للآمال ومثيرة للمتاعب، لأن التونكو ورزاق كانا يسيران قدماً وتراجعاً، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء في اقتراحاتهم المتتالية. وبالنتيجة لم يقدما أي شيء لسبب بسيط مهم:

وهو أن البريطانين لا يريدون إضعاف ماليزيا أثناء المجابهة، وقد تدخل «هيد» بمهارة ليصد التونكو ورزاق وإسماعيل.

في 15 شباط لعبت أنا وتشين تشي وكيم سان «الغولف» مع التونكو. وذكرت عرضاً أن البريطانيين قد عرفوا ماذا يجري.

اكتشفت بعد زيارة اللورد مونتباتين لكوالا لامبور ثم سنغافورة أن التونكو قد غير أفكاره تجاه إعادة الترتيبات، متأثراً بأفكار مونتباتين وهيد. وقال: إن سنغافورة يجب أن تبقى ممثلة في البرلمان الاتحادي. والأموال الحكومية وسلطة الضرائب يجب أن تعودا إلى سنغافورة، وهو الموضوع الذي أثار الكثير من الفرقة بيننا. وكما اقترحت سابقاً فإن الدفاع والشؤون الخارجية ستبقى في أيدي الحكومة المركزية، في حين تبقى شؤون السيطرة على الشرطة وقضايا الأمن المحلي من شأن حكومة سنغافورة، ولكن الأمن القومي والمخابرات (ويقصد التونكو فرق م 15، وم 16) يجب أن تظل مركزية وإلا «ماذا يحدث إذا لم يكن حزب العمل الشعبي PAP قادراً على مواجهة حزب شديد التطرف مثل «الباريسان» يريد أن ينتزع السلطة ؟ ستصبح عندئذٍ كوبا.

طلب مني أن أعد مسودة رسالة يريد أن يبعث بها إلى هارولد ويلسون، لإبلاغه بهذه الترتيبات والتأكيد له أن ماليزيا لن تنفصم. وأرسلت له المسودة في اليوم التالي. كنا ثلاثتنا من سنغافورة مقتنعين أن البريطانيين قد دحضوا بنجاح أية فكرة تسمح للجزيرة أن «تحلق» على تعبير «التونكو». ولسوف يخبرني فيما بعد ويخبر كينغ سوي في قصر الإقامة أنه أراد الآن أن يدير الأمور ببطء. كان يخشى أي انكشاف للأمور أمام الجمهور، الأمر الذي سيكون في صالح سوكارنو.

جاء كلاود فينر، مفتش الشرطة العام من كوالا لامبور من أجل أن يراني. بدا مقتنعاً بإعطاء سنغافورة حق الإشراف على قواتها النظامية، وأبدى رضاها تجاه قدرتنا على حفظ الأمن المدني في حال أعمال العنف إذا ما استخدمنا وحداتنا وتستطيع أن تتخذ إجراء ضدهم، فمن المحتمل ألا تكونَ هناك اضطرابات تذكر.

بدا صادقاً، ولكنني كنت على خطأ في اعتقادي أن هذا كان موقفه النهائي. فبعد خمسة أيام أراني ورقة لإسماعيل، تفيد بما هو عكس ذلك تماماً: لا الشرطة ولا أمن الدولة يمكن أن يسلما الإشراف على سنغافورة. لقد غير موقفه، مثل التونكو، تماماً. أحضر السير روجر هوليس، رئيس الغرفة (M -15) الذي كان يزور كوالا لامبور لرؤية إسماعيل، وقد أقنعه هوليس أنه من المستحسن، من وجهة نظر مهنية، عدم توزيع الشرطة بين «سنغافورة و «الاتحاد». واقترح إسماعيل بدوره أن تستمر الحكومة الاتحادية في الإشراف على القانون والنظام في سنغافورة كما هو جارٍ الآن. سألت ما إذا كان التونكو قد غير رأيه أيضاً. فقال إسماعيل: لا لم يغير رأيه، ولكن من واجبه أن يقدم النصيحة المهنية التي تلقاها.

بعد ذلك بوقت قصير تناولت طعام الغداء مع «هيد» في مقر إقامته في كاركوزا، وتبادلنا مناقشات جدية لمدة 20 دقيقة بعده. كان قد قابل «التونكو» ورزاق وإسماعيل وتان، وقال: إن التونكو قد قرر التغييرات المعدلة الأخيرة، ولكن ثمة ثلاثة مفاتيح في هذا العمل. أولها أن تان كان معترضاً عليه بوصفه مسؤولاً عن المالية. والثاني أن إسماعيل اعترض على إعادة الإشراف على الشرطة والأمن إلينا. والثالث أن «منظمة» سنغافورة لم تكن تريد أن تهدأ فضلاً عن أن تتراجع. أخبرته أن فينر هو الذي وضع هذه المفاتيح تحت رعاية الشرطة. قال هيد: إنه لم يبحث الأمر مع فينر ولكن لعله يفعل ذلك فيما بعد.

اقترح أن يكون هناك توقف فيما المفاوضات دائرة، نوع من الهدنة. فذكرته بما حدث للهدنة الأخيرة. واقترحت أن يصدر التونكو وأنا بياناً يفيد بأننا وافقنا مبدئياً على أن يبتعد أحدنا عن الآخر في فترة المجابهة وأن تحل التفاصيل إدارياً كما ينبغي. وافق هيد ولكن لم يكن يعني ذلك. فقد أخبرني أن إعادة الترتيبات ستكون نصراً كبيراً ينبغي ألا نعطيه لسوكارنو لأن ذلك سيشجعه على المجابهة. ونصحني بالصبر والانتظار اللذين لن يطولا وذلك لأن اقتصاد إندونيسيا ينعاني من تضخم يمكن أن يدمره.

استمعت إليه بإصغاء وناقشت الأمر مع زملائي، واستنتجنا أن البريطانيين لا يريدون أن تتعرض ماليزيا لأي خطر من خلال تبني ترتيبات مخففة لا تطبق إلا على حكومة من حزبنا PAP في سنغافورة وستقود إلى مشكلات خطيرة إذا وصل «الباريسان» إلى الحكم. وفي اليوم التالي في 24 شباط طلبت منه أن يقابلني في «دار سنغافورة» في كوالا لامبور. قلت إنني لا أستطيع أن أحمل التونكو على إصدار بيان لأن «هيد» قد أخافه من أن يقول أو يفعل أي شيء. كان الموقف معرضاً للتدهور بسبب تنابذ الطرفين ولسوف نجد أنفسنا في حالة شغب أخرى من صنع أيدينا. وقال هيد: إنه سيجعل التونكو يعلن أنه يفكر بالقيام بتعديلات بسيطة في ماليزيا لجعل العمل أيسر، وليس بتغيرات أساسية أو جوهرية.

قدمت تقويماً مكتوباً لمجلس الوزراء: أبيّنُ فيه أن ليس مونتباتين وهيد فقط يضغطان على الزعماء الماليزيين ولكن المسؤولين البريطانيين يثقون بوزراء «التحالف» مثل فينر في الشرطة، وغولد في المالية الفدرالية، وأنهم يبذلون كل ما في وسعهم كي يجعلوا التونكو يحول دون إعادة الترتيبات. فالبريطانيون لا يريدون أي تغيير طالما أن المجابهة ما تزال قائمة، وإذا كان لا بد من إجراء بعض الترتيبات، فليكن ذلك في أدنى حد، ولا بد أن يبقى الفرع الخاص والشرطة تحت سيطرة المركز.

كان استنتاجي: «من خبرتي في مفاوضات الاندماج أن هذه أساليب بريطانية معهودة .. ولا يمكن القول: إنه لن يكون هناك تغييرات. و لا أعرف ما إذا كان هيد ينوي أن يضعفنا». لم أستبعد إمكانية إذا فشلنا في الإصغاء للتفاوض إلى نصيحة هيد فقد يشير على التونكو بأن البريطانيين سوف يكونوا مستعدين للتغاضي عن إبعاد تحدينا في الاتحاد.

كان رصيدنا في المساومة هو قوتنا السياسية المستمدة من فروع حزبنا في الملايو، وحضورنا في مجلس البرلمان، والذي كان يمكننا من استجماع قوى غير المالاويين، والمالاويين التقدميين في جميع أنحاء ماليزيا، ولكن من أجل ذلك كان على سيو تان أن يتجاهل انتقاداتنا للميزانية وأن يعرض لائحة الضريبة الإجمالية أمام البرلمان.

المناقشات التي كانت تجري خلف المسرح منعت الموقف من الغليان. فكلا الطرفين أراد أن يتجنب أي تصادم . وكلاهما كان يريد ترتيبات مخففة لإنهاء الخلاف الدائم الذي من شأنه أن يضعف موقف ماليزيا الدولي والداخلي على المدى البعيد. ولكن البريطانيين كانوا يعملون بهمة على إبقاء ماليزيا سليمة، وأيد الأوستراليون والنيوزيلانديون بريطانيا، وحثني كل من توم كريتشيلي، ونائبه في سنغافورة، بيل برتيشت، على أن أترك الأمور بدون تغيير دستوري وإداري، والخروج من السياسة الملاوية وإغلاق فروع حزبنا في شبه الجزيرة في مقابل أن يكون لنا وزيران في الحكومة الاتحادية. فقلت لكريتشيلي: إننا لا نستطيع أن نسحب حزبنا (PAP) من الملايو في الوقت الذي تعمل فيه المنظمة الوطنية UMNO في سنغافورة، وإن المالاويين المتطرفين يمكن أن يستخدموا أداة لابتزازنا بالتهديد بأعمال شغب طائفية، إن منظمة UMNO لا تستطيع أن تأخذ الكعكة وتأكلها.

في تلك الأجواء المكفهرة بالتوتر المتزايد مابين سنغافورة والزعماء الماليزيين وكان الحوار الصريح ما يزال ممكناً بيني وبين كينغ سوي من جانب، وبين رزاق والتونكو من جانب آخر، وكان تبادل الأحاديث الصريحة فيما بيننا من شأنه أن يحول دون كارثة. ولكن لما كانت المشاحنة مابين كوالا لامبور وسنغافورة تسبب قلقاً لأستراليا ونيوزيلاندة، فإن مبعوثيهما السابقين قدما لي دعوتين لزيارة بلديهما في آذار ونيسان عام 1965 . ولابتالي سأكون قادراً على شرح، لماذا سنغافورة، على الرغم من الخلافات الداخلية، كانت تقف بقوة وراء كوالا لامبور ضد المجابهة؟، فهذا تحد يساعد على التأكيد لشعوبها أن حكوماتهم ينبغي أن تساند ماليزيا ضد الإندونيسيين.

وهكذا وجدت نفسي في 5 آذار أحط في أوكلاند.

39. البحث عن التأييد في الأسفل

كانت نيوزيلاندة فرصة مناسبة للراحة، إذ مكثت أنا وتشو في فندق صغير مريح في أوكلاند، حيث تُحضر الساقيات شاي الصباح مع الخبز والزبدة إلى الفراش قبل أن يقدمن الإفطار الغني بأنواع اللحوم. انتقلنا من أوكلاند إلى ويلنغتون بالسيارة حيث توقفنا لمدة ليلتين، وفي كل بلدة على الطريق كنا نلقى الترحيب على الطريقة البريطانية، إذ يقدمون لنا الغداء والشاي وعبارات الترحيب بنا.

في ويلنغتون هتفت إلى كيث هوليوك، رئيس الوزراء في مكتبه في البرلمان، وبعد المناقشة أخذني إلى مقابلة مكتبه لتبادل حر للآراء. أكدوا ثانية أنهم يقفون بقوة وراء ماليزيا. وقد تعاطفوا مع آرائي وأيدوا الحل المتعدد الأعراق لمشكلاتنا، وأعادوا التأكيد على أنني أقف بقوة وراء ماليزيا. وفي غداء رسمي في مجلس البرلمان تحدث هوليوك بعبارات حارة. «هناك ما هو أكثر من الروابط العسكرية التي تربط نيوزيلاندة بماليزيا». وعبر عن إعجابه بالتقدم الذي حققته سنغافورة في عهدي، وقالوا: إنني عملت بدون كلل في خدمة دولة ماليزيا الحديثة، الدولة التي تعاني من متاعب شائعة في البلدان الناشئة ـ متاعب تتفاقم بتهديدات جارها الأكبر، إندونيسيا. لا شك لدي في أن السيد لي سوف يرفض الخضوع لمثل هذه التهديدات والاستمرار في العمل بدون كلل من أجل رخاء واستقرار وتقدم البلد الذي كان له دور كبير في البلد الذي كان يعمل على إيجاده. «وللإشارة إلى التهديدات، قام بعض المخربين الإندونيسيين، عندما كنت في ويلغنتون بوضع قنبلة في مطعم ماكدونالد في سنغافورة، حيث يقع مقر البعثة الأوسترالية العليا، ومصرف هونغ كونغ وشانغهاي، أدى تفجيرها إلى مقتل اثنين وجرح 35 آخرين.

فيو اليوم التالي تحدثت إلى الطلاب والأكاديميين في جامعة فيكتوريا، وأثنيت على بريطانيا لحكمتها في معرفة الثورة التي لا تقاوم والتي يُصعدها الشيوعيون أو القوميون، وبدلاً من سحق كليهما، سمح البريطانيون للقوميين بتسنم القيادة غير الشيوعية، ومن ناحية أخرى فإن الولايات المتحدة عندما حاولت قمع الشيوعية في جنوب الفيتنام، فقد اعتمدت على أشخاص مثل نغودين ديم، وأخفقت خلال 11 سنة في إيجاد جماعة تستطيع أن تقود الأمة. وهكذا تسير فيتنام الجنوبية إلى حتفها،وخسر الفيتناميون الجنوبيون أنفسهم الثقة وخسروا النزاع. وهذا ما جعل الأمريكيين أمام خيارين: زيادة احتلالهم العسكري أو القيام بانسحاب كارثي (في نيسان 1975، أي بعد عشر سنوات قاما بالخيارين معاً).

تجولت في عدة مدن في نيوزيلاندة من ويلنغتون إلى كريستشيرش، ومنها إلى داندين وإينفيركارجيل، ثم عدت بالطائرة إلى ويلينغتون. إذ وجدتها بلاد رائعة، فالنيوزيلانديون في معيشتهم وطريقة حياتهم وحديثهم أقرب إلى البريطانيين منهم إلى الأوستراليين. فالبلاد كانت خضراء ورطبة مثل جنوب إنكلترة وأهلها ودّيون وكرماء.

وكانت محطتي الثانية سيدني، نقطة الانطلاق في جولة استمرت 18 يوماً في أستراليا تنقلنا خلالها ما بين كانبيرا وميلبورن وإيدليد وبيرث.في كانبيرا تحدثت إلى أعضاء «نادي الصحافة الوطني». إذ كانت مجابهة أندونيسيا لماليزيا حاضرة تماماً في أذهانهم:

> «لدينا عدة دول مجاورة أكثر تعداداً بالسكان من كلينا وأفقر من كلٍ منا وهي تعاني من القلاقل والاضطرابات على نحو مشابه منذ وقت طويل... نعرف أن المساعدة العسكرية و الاقتصادية لا تضمن لنا نجاحنا البعيد ولكنها على الأقل تعطينا بعض الوقت».

ولكن الوضع في فيتنام الجنوبية أظهر أنه مهما كانت التغطية العسكرية كبيرة، ومهما بلغت المساعدة الاقتصادية، فإن القادة إذا لم يعملوا على ضمان نجاتهم فإن النتيجة ستظل الخراب لكل من المساعد ومن تقدم له المساعدة.

قلت:

«كلما تحدثت القيادة المالاوية أكثر عن القومية المالاوية، ازداد شك غير المالاويين في ماليزيا تجاه مستقبلهم. ونظرياً هناك ثلاثة احتمالات إذا ما حدث انفصال:

(1) أن تُضم ماليزيا أو تُغزى من قبل سلطة ثالثة

(2) أن تسيطر إحدى الجماعات على الجماعات الأخرى في ماليزيا

(3) توجه نحو الانعزال ثم الانفصال في النهاية.

«وجميع هذه الاحتمالات ذات مضامين رهيبة»

صفق حشد كبير من الصحفيين والدبلوماسيين لصراحتي وواقعيتي.

أتيح لي أن أقابل السير روبرت منزيس، رئيس الوزراء، وكان منزيس على علاقة طيبة بالتونكو. وخلافاً لهارولد ويلسون فقد كان محافظاً ويؤيد دوماً التونكو. وكان التونكو يتحدث عنه بحرارة، ولو أن منزيس حثه الآن على إيجاد حل لماليزيا من خلال التسوية السياسية، وليس القوة لنجاح أكثر مما لو كان ويلسون فعل ذلك. كان مهتماً بما أقول وقد استمر لقاؤنا 75 دقيقة، أي ضعف الوقت المقرر، وبعد ذلك أخذني لمقابلة جميع أعضاء الوزارة من أجل إجراء مناقشة حرة.

شرحت الضغوط التي يقع التونكو تحت وطأتها. فسوكارنو كان يتحكم به من خلال المالاويين في ماليزيا، الذين جاءت نسبة كبيرة منهم منذ وقت غير بعيد من سومطرة وجافا. وفي محاولة لصد السيطرة المالاوية، قرب التونكو الهنود والصينيين وهذا ما شرحت أبعاده بالتفصيل لرجل يوثق به مثل منزيس. وشرحت له أن الأعراق الثلاثة في ماليزيا ـ المالاويون والصينيون والهنود ـ لديهم انتماءاتهم الحضارية خارج ماليزيا: في إندونيسيا والصين والهند. ورؤساء هذه الدول يستطيعون التأثير في عواطف هؤلاء بمثل ما يستطيع

مع رئيس وزراء أستراليا سير روبرت مينزيس في كانبيرا، آذار 1965.

القادة الماليزيون أنفسهم، إن لم يكن أكثر. كان منزيس متعاطفاً، وقد أخذ تحليلي على محمل الجد، وطلب مني أن أعطيه مذكرة حول ما أراه حلاً لهذه المشكلة. وقد وعدت بالقيام بذلك عندما عدت إلى سنغافورة. كما أن مقابلاتي معه ومع أعضاء وزارته لم يُشر إليها في الصحف الماليزية، ربما بسبب تجنب إزعاج التونكو.

كانت رحلة مليئة، ففي كل مدينة كنت ألقي فيها خطاباً، أو أجري مقابلات مع الإذاعة والتلفزة، أو أخاطب طلاب الجامعة والصحافة. كانت تستحق الجهد. لقد رسمت صورة واقعية لماليزيا وجعلت النيوزيلانديين والأوستراليين لا يشكون بأننا نحتاج ونود مساعدتهم، وأن من الصواب أن يقدموا لنا يد المساعدة، وأننا نستطيع أن ننجح معاً.

وعندما عدت إلى سنغافورة في الثالث من شهر نيسان (إبريل) وجدت زعماء «التحالف» غاضبين، زاعمين أنني كنت منتقداً للحكومة الاتحادية والتونكو. حتى عندما كنت في أستراليا، هاجمني زعيم MIC وزير التونكو لشؤون البريد والأعمال والاتصالات لأنني «تحدثت بصورة مختلفة» حول التحالف، وقال: إنني نلت ما أردت، باسم ماليزيا،وتحدثت عن الحكومة ووصفتها بالجهل سياسياً، ويحكمها الأمراء والسلاطين والزعماء، مع أنني لم أقل شيئاً من هذا القبيل في أي خطبة أو كلمة من خطبي وكلماتي.

ومع استمرار الهجمات ضدي في الصحف الماليزية، كتب عدد من الأوستراليين والنيوزيلانديين في صحيفة «سترتيس تايمز» يدافعون عني وقد احتج صحفي أوسترالي بأنه سمعني أتحدث عدة مرات أمام جمهور جامعي، ولم أقل شيئاً عن الزعماء الماليزيين. وكتب رئيس جمعية الدراسات الآسيوية في جامعة فكتوريا في ويلنغتون أيضاً أنه، اندهش لسماع تقارير تقول: إنني انتقدت في ماليزيا لإدلائي «ببيانات غير مسؤولة تهاجم زعماء الحكومة المركزية»، فهو لم يسمع شيئاً يؤيد هذه المزاعم.

الحقيقة أن الذنب الأول في أعين زعماء التحالف هو الاستقبال الحسن في الصحافة النيوزيلاندية والأوسترالية، كذلك علموا من المفوضين الساميين الماليزيين في ويلينغتون وكانبيرا أنني استُقبلت استقبالاً حاراً من قبل رؤساء الوزراء وأعضاء وزارتهم، ولكن أكثر ما أزعجهم أن مناقشاتي وتحليلي للأوضاع كان له وزنه لدى كلتا الحكومتين. وحول دفعة الاتهامات حول إساءتي للتونكو ووزرائه وإلى ماليزيا بشكل عام، أدليت بتصريح أبيّن فيه بأن كل شيء،قلته مسجل، ويمكن الرجوع إلى هذه التسجيلات، وأنا المسؤول عن كل كلمة قيلت فيها، و قد أنكرت بشكل خاص بأنني اتهمت الحكومة المركزية بالعمل من أجل الملاويين فقط، كما اتهمني د.ليم سيو آن، من MCA (اتحاد الملاويين الصينيين) الوزير الاتحادي للتجارة والصناعة.

قلت في إجابة عن طالب ماليزي من أيليد حول حقوق الملاويين الخاصة:

«لا، لا أعتقد أن المسألة في هذه اللحظة هي الفقرة التي تقدم حقوقاً خاصة للملاويين... وإذا كانت المجموعات المهاجرة من الناس لا تريد مشكلات، وإذا كانت لا تستطيع أن تشعر ماذا يعني أن تكون الملايو فقيرة، عندئذ أقول: إنه سيواجه قريباً عدم قبوله بكل طريقة حاسمة. وستجابه البلاد كلها الاضطراب».

لم تكن تهمتي أن هناك حقوقاً خاصة للملاويين، بل إنهم لن يحلوا المشكلات لأنهم لم يحبذوا إلا قلة في القمة:

«كيف يمكن بإعطاء شهادات قيادة باصات أو إدارات شركات باصات مئة أو مئتي عائلة ملاوية، أن تحل مشكلة الفقر في الملايو. فالملاويون مزارعون. وفي أستراليا ونيوزيلاندة جميع المزارعين أغنياء. فلماذا المزارعون في ماليزيا فقراء؟ لأنه لا يوجد لدينا أبحاث ولا انتقاء بذور، أو تسميد، ولا تحسين في تقانات إنتاج المحاصيل،فماذا نستطيع أن ننمي؟».

سجلت تصريحاتي في الصحف الصادرة بالصينية والإنكليزية وليس بالصحف الملاوية. كما أنها لم تذع في راديو وتلفزيون ماليزيا. وهذا ما جعل صحيفة "أوتوسان ميلايو" تثير الشغب والضغينة ضدي.

كان التونكو غاضباً وحذر زعماء سنغافورة بأن الحكومة المركزية لن تدفع من قبل أية حكومة حول أي موضوع. وقال: إن سنغافورة جاءت إلى الاتحاد وعيناها مفتوحتان وبخاطرها. وأضاف:

(سنغافورة) «ربما تستطيع أن تكون كوبا ثانية وسيكون الوضع بالنسبة إلينا يصعب الدفاع عنه... وهذا ما جعل الحكومة المركزية تؤيد «حزب العمل الشعبي» (PAP). مع عودة الحزب إلى السلطة، اعتبرنا أن سنغافورة باتت آمنة من الشيوعيين. ولكن سرعان ما تأكدنا أن زعيم الحزب يفكر في أن يحكم ماليزيا. وهذا يعتبر أمراً غير مقبول لأن التحالف قوي إلى درجة أنه يستطيع أن يحكم البلاد بنفسه»

بعد أسبوعين من عودتي إلى سنغافورة كتبت رسالة إلى السير روبرت مينزيس ألخص له فيها الصعوبات القائمة في وجه نجاح مجتمع متعدد الأعراق مثل ماليزيا. في هذه الرسالة المؤرخة بتاريخ 20 نيسان 1965 شرحت الوضع كما أراه أو يراه زملائي في نيسان 1965. فقد شعرنا في الصميم أن الأمور إذا استمرت على هذا المنوال فسينجم شيء ما كارثي. وقد أجابني مينزيس في أيار 1965 بخطاب تأييد كان متوازناً بدقة:

«أستطيع أن أؤكد لك أنني أريد أن أرى، لمصلحتنا جميعاً، تسوية معقولة وودية، أشعر أنها ستجعل ماليزيا تعيش في أمان. وفي غضون ذلك أحث على الصبر رفيقاً دائماً لك في قدراتك البيّنة. لا حاجة إلى أن أخبرك أنه إذا كان لنفوذي أية أهمية،فإنني لن أطرح أية أحكام مقدماً،ولا ينبغي أن يبدو أنني فعلت ذلك».

اعترف بأنه سيكون من الصعب بالنسبة إلى الحكومة الأوسترالية أن تبرر إلى ناخبيها لماذا ينبغي أن تدافع عن حكومة مالاوية قمعية تضطهد غير المالاويين. أولئك الذين انضموا إلى «الاتحاد» ذي الدستور المتعدد الأعراق وقد وافق عليه التونكو ورزاق في لندن في تموز 1963.

40. حملة المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو (UMNO) ضد «لي»

يكمن صدام جوهري وأعمق بين تان سوي سين وكينغ سوي تحت التبادلات العدائية المتزايدة ما بين سنغافورة وكوالا لامبور. كان تان يجابه تقدم سنغافورة الاقتصادي، وهذا ما تبين بجلاء في مسألة شهادات الرواد. كان على «هيئة التنمية الاقتصادية» (EDB) أن تحصل على موافقة كوالا لامبور على جميع طلبات المستثمرين المحتملين في الجزيرة على شهادات الريادة (التفوق) التي تؤهلهم للإعفاء من الضرائب لفترة تتراوح ما بين خمس وعشر سنوات. ولكن خلال السنتين اللتين كنا فيهما ضمن ماليزيا لم نحصل إلا على موافقتين للإعفاء من أصل 69 طلباً. وللتأكيد المضاعف على أن سنغافورة ستتعرض للإعاقة والتضييق عليها، نصح تان في 16 شباط (فبراير) بصراحة جميع الصناعيين أن يشاوروا الحكومة المركزية قبل الاستثمار في سنغافورة كي يتجنبوا «خيبات الأمل وسوء الفهم» بسبب الافتراضات والحسابات الخاطئة. وأضاف بدون مسوغ: «إن الضمانات من قبل الخبراء (في سنغافورة) ليست ذات مصداقية دائماً».

ولم يكتفِ تان بهذا بل أراد أن يتولى أمر حصتنا الكاملة من النسيج. وكانت الحكومة الاتحادية قد أعلنت عن حصص لغزل المنسوجات وصناعة الثياب عندما لم يكن لديها مصانع لإنتاجها. وفي غضون ذلك اضطرت ثلاثة مصانع للنسيج في سنغافورة إلى تخفيض عدد عمالها بما يقارب ألفي عامل. وقال كينغ سوي ساخراً: إن سنغافورة لا تعامل على أنها ولاية قائمة بذاتها داخل ماليزيا، بل تعامل على أنها منافس خطير ينبغي الحد من خطره مهما كان الثمن. كانت الحكومة المركزية تريد أن تستخدم حصة سنغافورة لإقامة صناعة ملابس

جديدة في الملايو حارمة أعداداً كبيرة من العاطلين من عمال الملابس في سنغافورة فرصة إعادة توظيفهم،وفي النهاية،وتحت ضغط رقيق من أنطوني هيد،خجلت كوالا لامبور واضطرت إلى إعادة حصة سنغافورة. في تلك الأثناء كان كينغ سوي مقتنعاً بألا نحصل فقط على سوق مشتركة، بل إن تان سيسعى إلى سحب جميع الاستثمارات الصناعية إلى مالايو بغض النظر عما يريده المستثمرون،كان يشعر بخيبة أمل كبيرة.

ويسترجع كينغ سو في ذاكرته (عام 1981) ويقول:

«عمل تان سوي سين على أن يكيدنا. كان غيوراً جداً من سنغافورة وحقوداً على السيد لي. كان يرى في حزب PAP تهديداً «لاتحاد المالاويين الصينيين» MCAفي شبه الجزيرة،ولذا لم يكن يريد لسنغافورة النجاح. فقد عمل وزراء ذلك «الاتحاد» (تان وليم سوي أون) بطريقة سيئة،ولهذا كلما استمر انضمامنا إلى ماليزيا زادت شكوكنا في أننا اتخذنا القرار الصحيح».

وأشار كينغ سوي فيما بعد إلى محادثة جرت بينه وبين ليونارد ريست،خبير البنك الدولي الذي نصح حكومتي المالايو وسنغافورة،بسوق مشتركة وأوصى بأن يتم ذلك بخطا متقدمة.

وسأل كينغ سوي عندئذ: «لنفترض أنه (تان) لم يقم بما يجب ولم تقم للسوق المشتركة قائمة ـ فماذا يحدث؟».

أجاب ريست: «في تلك الحالة يا سيادة الوزير، لن تكون السوق المشتركة في خطر، بل إن مفهوم ماليزيا بكامله سيكون في خطر».

كان كينغ سوي متحرراً من الوهم تماماً. فبالرغم من اعتراضه على مشاركتنا عام 1964 في انتخابات مالايا إلا أنه اعترف الآن أنها كانت جيدة كما كنا نعتقد، لأنها مكّنتنا من حشد رأي سياسي يمكن أن يقيد تجاوزات الحكومة المركزية.

فقد تخلى عن أي عمل أمل بالتعاون. ولم يتوقع خيراً من خلق ماليزيا. والحق أنه توقع مشكلات لا تنتهي. وتشاؤمه جعل تشين تشي أكثر تصميماً على مجابهة استبدادية المركز. ضغينة تان كانت أحد الأسباب القوية لتحريك الأوضاع في «الاتحاد» كله.

غطت المسألة العرقية على كل شيء آخر. أثناء جلسة للبرلمان الاتحادي في ت2 1964، إذ رثى د.ليم تشونغ إيو،عضو البرلمان وزعيم حزب المعارضة الديمقراطي الموحد (UDP)، ومقره في بينانغ، لحالي بشأن أعمال العنف العرقي التي عانينا منها في سنغافورة. وقال: إنه خَبر مثل هذه الأعمال. ومن وصفه للاضطرابات التي جرت في بينانغ في الخمسينيات تيقنت أن ألبار ورفاقه في «المنظمة» قد طبقوا في سنغافورة أسلوباً مجرباً. فالشرطة والجيش طوقا الخناق فيما كانا يساندان المالاويين القائمين بأعمال الشغب ـ وهم عادة من جماعات «بير سيلات» ومن رجال العصابات. وعندما فارت العواطف وقام عدد كاف من الصينيين بهجوم معاكس، انضم مالاويون عاديون إلى المجابهة. وعندما تراجع الصينيون تعرضوا لضرب عنيف من الجيش والشرطة: فقد استخدم ضدهم القانون والنظام وليس ضد المالاويين. والنتيجة أن السكان كانوا غاضبين وخائفين.

قفزنا من مقلاة الشيوعيين لنقع في نيران الطائفيين المالاويين. فكان علينا أن نجد وسيلة للوقوف في وجه نظام الرعب هذا من خلال الثورات العرقية، حيث يُقتل الصينيون ويعذبون إذا ما تجرأوا على مقاومة الهيمنة المالاوية، قررنا أن يكون هناك نظام دفاعي واحد فعال يربط ما بين جميع مدن الاتحاد في شبكة واحدة، بحيث يمكن السيطرة على الشغب في مدينة ما ويمتد إلى مدينة أخرى، ذلك أن أي اندلاع لأعمال الشغب في عدة أماكن يمكن أن يمزق ماليزيا.

لم يكن تحركنا خافياً عن الأنظار، ففي 24 نيسان (إبريل) 1965 كشف التونكو في خطبة له عن وجود خطط لجميع صفوف المعارضة. كان يعرف أن غير المالاويين يُجمّعون قواهم من أجل جعل دولة ماليزيا متعددة الأعراق، وليس

ماليزيا مالاوية، وشكك التونكو بأنني أنا زعيم هذه الحركة، وحذر قائلاً: «إن الشعب يجب أن يدرس هذا الرجل قبل أن يعطيه عقله وقلبه في حركة كهذه، لقد عمل «التحالف» والسيد لي كيوان يو معاً من أجل ماليزيا، ولكننا نجد صعوبة في متابعة ما بعد قيام ماليزيا». كان لدى التونكو سبب مهم للاهتمام، فأعضاء المعارضة في البرلمان الاتحادي كانوا متململين بشدة وهم يستمعون إلى خطابات عرقية تصدر عن ألبار وقادة المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو «الشباب المالاويين». وأجمعت شخصيات تنتمي إلى «حزب الشعب التقدمي» في بيراك، وغيرهم من الشخصيات من سارواك والصباح وأحزاب أخرى على الارتباط بحزبنا PAP.

بدأت العملية في ك 2عندما جاء د. ليم وستيفينس لرؤيتي على انفراد. كلا الاجتماعين لم يكن مرضياً تماماً. كان د.ليم يريدني أن أكون زعيماً لاتحاد المستهلكين التابع له من أجل تشكيل جبهة واسعة من جميع الأحزاب غير العرقية في ماليزيا. وقد تراجعت، لأنه إذا كان علينا أن نعمل معاً فيجب أن يكون ذلك على المكشوف وليس بالتخفي وراء اتحاد المستهلكين، وإلا فسنخسر مصداقيتنا. كان يريد لحزبه UPCO أن يندمج في حزبنا كي يفوز بأصوات الصينيين في المدن وبذا يضمن الأكثرية في «جمعية دولة صباح». كان صحفياً ناجحاً في صباح، ووزيراً إلى أن انضم إلى الحكومة الاتحادية. ولكن لم يكن مهتماً بمشروعي الأوسع من أجل جبهة أعرض،جبهة متحدة تشتمل الأحزاب المعارضة الأخرى.

رغم هذه الانطلاقات المضللة فقد مررت مذكرة إلى جميع الوزراء:

«إذا أضعنا هذه اللحظة فقد يحتاج الأمر إلى سنوات قبل أن نحصل على مناسبة درامية مماثلة لإعادة تنظيم القوى ضمن ماليزيا. ومن ناحية ثانية فإن اتخاذ مثل هذه الخطوة التي ستندمج فيها جميع الأحزاب غير الفئوية لا بد أن تعني معارضة واسعة من جانب غير المالاويين ضد

«التحالف» الذي يقوده غير الملاويين و «المنظمة». وما إن يحدث ذلك وتنشب سلسلة من ردود الفعل في عقول الرجال، فسيكون من المؤكد أن القتال سيصبح بسرعة قتالاً حاداً وحازماً».

فعندما كانت «المنظمة» تعاملنا كخصم ولا تتعاون معنا، كان عدم اتخاذ قرار مضيعة للوقت. إذ لما كانت «المنظمة» معنية فالقتال دائر، وما لم نجمع القوى لمجابهته فإن «المنظمة» سيكون لها طرقها الخاصة.

في 12 شباط قابل زعماء المعارضة الماليزيون تشين تشي، وراجا، كما قابلوني في سري تيماسك ـ في سنغافورة، كما تقابلنا ثانية في الأول من آذار، وقررنا أن نتحرك بحذر أن نرسل لي كوون تشوي وإيدي بيكر لتقويم الموقف السياسي في ساراواك والصباح. وقد عادوا مقتنعين بأن حزبنا (حزب العمل الشعبي) ينبغي ألا يفتح فروعاً في ساراواك، فالصينيون شديدو التطرف في يساريتهم، وكانوا ما يزالون كارهين أن ينضموا إلى ماليزيا، ومساعدة حزبنا في ذلك، أما في صباح فقد كان من المحتمل أن نحصل على تأييد الصينيين وأن يفتح حزبنا فروعاً له. ولكن كان علينا أن نشكل ائتلافاً مع حزب ستيفنس UPCO، حيث يشكل أنصاره من الكادزان الأغلبية. وقررت ألا أتوجه إلى شرق ماليزيا مباشرة، بل أن أعمل مع الزعماء الحاليين للمعارضة هناك. ودعاهم تشين تشي إلى اجتماع في سنغافورة في 8 أيار. تغيب ستيفنس عن عمد ولكن رؤساء UDP (بينانغ) وPAP (بيراك) وحزب ماشيندا (ساراواك) اجتمعوا ووقعوا تصريحاً معنا من أجل ماليزية ماليزيا:

«إن ماليزية ماليزيا تعني دولة غير محدودة بتفوق ومصالح أية مجموعة خاصة أو عرق. إنها نقيض ماليزيا مالاوية أو ماليزيا صينية، أوماليزيا داياك، أو ماليزيا هندية أو كادازان وغيرها. لا بد من المحافظة على المصالح الخاصة والمشروعة للجماعات كافة وتطويرها ضمن إطار من الحقوق والمصالح والمسؤوليات الجماعية للأعراق كافة. فالتوجه

المتزايد لدى بعض الزعماء نحو دعوات مكشوفة لشوفينية طائفية. و كسب والمحافظةعلى تابعيهم قد قادهم بالتدريج أيضاً إلى نقيض لمفهوم ماليزية ماليزيا... إذا أحبط الشعب ولم يشجع على التخلي عن الولاءات الطائفية، لأنهم وجدوا أرضية مشتركة للعمل السياسي مع ماليزيين من أعرق أخرى، عندئذ يصبح الاهتمام المعلن بماليزيا ماليزية معرض لشكوك جدية». وانتهى التصريح إلى القول:

«تستحق ماليزيا الكفاح من أجلها إذا كان ثمة مستقبل مشرف في ماليزيا كهذه. وبهذه الروح وبهذا التوقع نطالب نحن الموقعين جميع الماليزيين تأييد هذا الميثاق».

رغم وجودي خارج البلاد في تلك الفترة، حيث حضرت «مؤتمر الشبيبة الاشتراكية» في بومباي، ثم زرت لادوس وكامبوديا فقد اتهمتني «المنظمة» (UMNO) بأنني كنت العقل المدبر وراء الميثاق وهاجمتني بعنف. وكان ألبار وصحيفته «أوتوسان مالايو» أشد ضراوة وجرأة في اتهاماتها. وبعث ألبار، الذي استثارته مقالة صحيفة «لندن أوبزرفر»، برسالة مكشوفة في منتصف نيسان إلى دينيس بلودورث، مراسلها في الشرق الأقصى نشرت في أوتوسان، وتضمنت هذا المقطع:

«كما تعرفون لقد واجه المالاويون وقتاً عصيباً في سنغافورة وهم يضطهدون الآن من قبل «حزب العمل الشعبي» (PAP). لي كيوان يو يتحدى باستمرار مشاعرهم القومية ببيانات استفزازية، وبالرغم من كل هذا فإن المالاويين ليسوا هم من بدأ أعمال العنف عام 1964. فقد بدأت تلك الأعمال من قبل عملاء استفزازيين ربما كانوا يتلقون أموالاً من لي كيوان يو. وإن هدف لي خلق فوضى في سنغافورة في وقت يتجمع فيه المالاويون للاحتفال بميلاد الرسول محمد، وذلك من أجل إعطاء انطباع لدى العالم الخارجي أن المالاويين واقعون تحت تأثير إندونيسيا».

قررت رفع دعوى لضبط هذه التجاوزات، وارتأى المحامون أن نستشير «مجلس الملكة» في لندن. وعندما رفض ألبار وصحيفة أوتوسان الاعتذار أو التراجع رفع المحامون الذين عينتهم دعوى ضدهما. كانوا قد وصفوني بأنني منافق وعدو وخائن لبلادي، ومدان لأنني مسؤول عن القلاقل وأعمال العنف التي تسببت بوفاة وجرح أفراد من الجمهور، وبأنني غير ملائم لمنصب رئيس وزراء سنغافورة.

أثناء الدعوى استشهدت برواية جاءت في صحيفة أوتوسان في عددها الصادر في 25 آذار 1965:

«لي متهم بأنه عدو ماليزيا وعميل إندونيسيا. قال ألبار ـ دوسوا على جثتي أولاً... وكان أيضاً الأمين العام للمنظمة (UMNO) قد اتهم ليلة أمس عضو البرلمان عن سنغافورة لي كيوان يو بأنه عدو ماليزيا وعميل إندونيسيا».

كما استشهدت بمقالة نشرت في 27 آذار: «ألبار يتهم لي كوان يو بأنه عميل للشيوعيين... كما أنه عميل لنظام جاكارتا الذي ينوي تدمير ماليزيا... كما أن لدى لي كوان يو نية لتدمير ماليزيا وتحريض الملاويين والصينيين ضد بعضهما بعضاً».

وبعد أن أصبحت هذه الكلمات موضع تدقيق المحكمة، أصبحوا أكثر حذراً. (في عام 1966، بعد الانفصال، عرض ألبار و«أوتوسان» الاعتذار في المحكمة عن طريق المحامين ودفع جميع تكاليف الدعوى).

لم أقابل حقد ألبار بتعقل فحسب،ولكن رسالتي قد وصلت أيضاً إلى زعماء الصف الثاني في «المنظمة» مثل مينتري بيسار (وزير أول). وقد صدم ألبار لأن مينتري بيسار من بيرليس، الولاية القائمة في أقصى شمال ماليزيا، فقد رحب ببياني وكرر ما قلته بأن الامتيازات الخاصة للملاويين من شأنها أن تساعد مجموعة صغيرة من البورجوازيين فحسب، في حين أننا نحتاج إلى أن نُمكّن جماهير ماليزيا المعدمين في المناطق الريفية من زيادة قدرتهم على الكسب.

ثم هاجمني رزاق على «بيان» لم أدلِ به مطلقاً وأنكرته ـ يفيد بأن المالاويين لم يكونوا شعباً أصلياً في ماليزيا. ولما قال إن هذا أمراً مؤذياً وخطراً وقد خلق وضعاً خطيراً، فقد نشر إنذاراً بأن حكومة التحالف لن تتعامل معي وأنه «إذا كان شعب سنغافورة يرغب في استمرار علاقته معنا،فعليه أن يجد قائداً آخر يكون جديراً بالثقة». وبعد يومين قامت مجموعة من UMNO بحرق صورتي في كوالا لامبور، وفي 26 أيار، قامت مجموعة أخرى بتطويق «معهد اللغات»، حيث كان من المقرر أن ينعقد مؤتمر UMNO، وكانوا يحملون لافتات كتب عليها: «عطلوا دستور سنغافورة»، «واعتقلوا لي كيوان يو» «حطموا لي كوان يو». وعندما وصل التونكو عادوا إلى ترديد شعاراتهم. وفي الاجتماع، طالبت عدة وفود باعتقالي، ولكن إسماعيل قال: «ليست هذه هي الطريقة التي تدار بها الأمور في ماليزيا، علينا أن نعمل بطريقة دستورية». أما التونكو فقد وصف الملاحظات المزعومة التي نُسبت إليّ، بأن المالاويين ليسوا شعباً أصلياً في البلاد، وبأنها طفولية، تتجاهل ثانية حقيقة أنني لم أدلِ أبداً بمثل هذه الأقوال.

حذرنا تان سيوسين بأن سنغافورة لا تستطيع أن تعيش وحدها، «أريد أن أسألهم أن يتذكروا أن سنغافورة لا تستطيع العيش بمفردها،حتى الانفصال عن ماليزيا لا يمكن أن ينفي حقيقة أن أقل من 1.5 مليون صيني محاطون بما يزيد على 100 مليون مالاوي في هذا الجزء من العالم. وعند عودتي من زيارة نيوزيلانده وأستراليا، أجبت بأن الانفصال غير وارد، ولكن هذا التصريح تُجوهل أيضاً، و نشرت صحيفة «أوتوسان مالايو» في 24 أيار أن ألبار قد حثّ إسماعيل ثانية على اتخاذ إجراء ضدي:

> «إذا كان لي كيوان يو رجلاً حقاً فينبغي ألا يعلن بياناته، وأن يكون على درجة كافية من الشجاعة كي يقول: «أريد أن أنسحب من ماليزيا لأنني غير راض». لقد انضم إلى ماليزيا مفتوح العينين، وماليزيا الحالية هي ماليزيا نفسها التي قبلها. لماذا لم يفكر بكل تلك الاعتراضات من قبل؟

لماذا يتأسف الآن فحسب؟ لماذا؟ هكذا تساءل ألبار بصوت عال. وردد الجمهور وراءه «ليسقط لي ليسقط لي» وارتفعت أصوات أخرى تقول: «اعتقلوا لي واحتفظوا به مثل الأحشاء في المرق». ابتسم داتو البار لبرهة ثم أجاب «ارفعوا أصواتكم بحيث يستطيع د.إسماعيل أن يسمع غضب الشعب. أريد أن أتأكد أن كل واحد يسمع صوت غضب الشعب».

كان ألبار يستخدم الأسلوب نفسه الذي استخدمه قبل أعمال الشغب عام 1964. وفي اليوم التالي عادت صحيفة «أوتوسان» للتهجم عليّ مستشهدةً بعنوان من «مينتري بيسار» في سيلانغور يقول: «لي كيوان يو عدو شعب الملايا»، وصحيفة مالاوية أخرى، وهي «بيرتا هاريان» وصفتني بأنني «أخطر تهديد على أمن البلاد». كانوا يصعدون الموقف إلى حد الانفجار.

بلغت التهجمات ذروتها عندما أدان مهاتير محمد،النائب في البرلمان عن «المنظمة» (ثم رئيس وزراء ماليزيا فيما بعد) حزبنا (PAP) في البرلمان الاتحادي واصفاً إياه بأنه «موال للصينيين، ذو توجه شيوعي، وضد المالايو بشدة». وقال: إن سنغافورة استعادت اللغات المتعددة وإن «في بعض مخافر الشرطة» اللغة الصينية هي اللغة الرسمية إذ تصدر البيانات بالصينية». وقال: إن المدارس ذات اللغة القومية هي الأسوأ في المعاملة معها، فحتى وقت قصير قد أعطيت بعض التسهيلات البدائية». وفي الصناعة فإن سياسة الحزب (PAP) تشجيع المالاويين على أن يصبحوا عمالاً فقط، ولكنهم لا يُمنحون تسهيلات للاستثمار أيضاً. كان مهاتير يتحدث باسم يانغ دي بيرتوان، الملك.

في اليوم التالي ألقيت أهم خطبة لي في البرلمان الاتحادي أمام جمهور معاد ومتوتر، بما في ذلك أعضاء في البرلمان كثيرٌ منهم من المالاويين الذين أشبعوا يومياً بالدعاية المضادة لحزبنا والمضادة لي شخصياً، والمضادة للصينيين على طريقة صحيفة «أوتوسان» على مرور السنة الماضية. طلبت السماح لي بالتعبير عن أسفي في أن خطاب الملك لم يُعد التأكيد على أن الأمة ستستمر في التقدم

في افتتاح البرلمان الماليزي، في 25 أيار ـ كوالا لامبور 1965، قبل يومين من إلقاء خطبتي الأخيرة الحاسمة هناك. خلفي أونغ كي هيو وستيفان يونغ عضو البرلمان من ساراواك.

بدستورها الديمقراطي نحو ماليزيا ماليزية، واقتبست منه: «نحن نواجه أيضاً تحديات من داخل البلاد»، آمل أن يشرح التونكو معنى هذا النص، فقد أعطيته هذا التأكيد الراسخ: «لدينا مصلحة أكيدة في الدستورية، والولاء لأننا نعرف ـ وكنا نعرف قبل أن ننضم إلى ماليزيا ـ أننا إذا كنا صبورين، وإذا كنا ثابتين وأقوياء، فإن هذا الدستور ينبغي أن يعني ميلاد أمة ماليزية».

ولكن خطبة مهاتير أوحت بأن هذا لا يمكن أن يتحقق، واستشهدت بما كان قد قاله من قبل عن صينيي سنغافورة «إنهم لم يعرفوا أبداً قواعد مالايو ولا يمكن أن يتقبلوا أبداً أن الشعب الذي كان تحت حكمهم طويلاً، يمكن أن يكون الآن في وضع يجعله يحكمهم». أن يحكمهم؟ لقد استخلصت تفريقاً ما بين المساواة السياسية والحقوق الخاصة والنهوض الاجتماعي والاقتصادي للمالاويين، فقد قبلت بالحقوق الخاصة للنهوض الاقتصادي والاجتماعي للمالاويين، قبلت بهذه الحقوق الخاصة، ولكن إذا أنكرت الشعوب الأخرى لماليزيا المساواة السياسية مع المالاويين فلن نحتاج إلى سوكارنو و«المجابهة» لسحقنا، وقلت ملوحاً بيدي اليمين، بنسخة من دستور ماليزيا عندما تلقون بهذا في النار فهذا يعني أنكم تفعلون ذلك لزمن طويل، والتاريخ عملية طويلة مستمرة». قلت إن ألبار يريدنا أن نتخلى عن أصدقائنا في ساراواك وصباح وبينانغ ومالقه والأجزاء الأخرى من ماليزيا ليضعها تحت رحمة «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو» UMNO ولكننا لن نخضع.

نفيت الاتهام بأننا كنا موالين للصينيين. إذا دافعنا عن ماليزيا صينية فلن نستطيع أن نكسب الأغلبية لأن الصينيين لا يمثلون إلا 42% من السكان. وإذا كنت سأفعل مثل ألبار الذي قال «حيثما أكون فأنا صيني» فإلى أين سيقودنا هذا؟. على العكس، لقد بقيت أذكر الشعب «أنا ماليزي،أنا أتعلم اللغة القومية (باهاسا كيبا نجسآن) وقد قبلت بالمادة 153 في الدستور (حول الحقوق الخاصة للمالاويين)».

وعندما وصلت إلى الجزء الأكثر حساسية في خطابي، الذي سأكشف فيه عن عدم توافق سياسة UMNO، قررت التحدث باللغة المالاوية، على الرغم من أن لغتي المالاوية ليست قوية بمستوى لغتي الإنكليزية، إلا أنني كنت ناجحاً بالمقارنة مع أعضاء البرلمان غير المالاويين الآخرين. وقلت: إذا قبلت المالاوية لغةً رسميةً وحيدةً فلا أستطيع أن أرى كيف يمكنها أن ترفع الوضع الاقتصادي للسكان، هل ستعني زيادة إنتاج المالاويين من حيث السعر، وكيف؟ وهل سيحقق ذلك تسهيلات أكبر من الحكومة؟ وأضفت: بأن التحالف إذا لم يكن لديه إجابات على المشكلات الاقتصادية الراهنة، فينبغي ألا يكبت المعارضة، إذ لدينا البديل ويستطيع أن يعمل: «في عشر سنوات سننجب جيلاً من المالاويين المثقفين المتفهمين لثقافات العلوم والإدارة الصناعية الحديثة».

عند هذه النقطة استشهدت بما قاله د.مهاتير في وقت سابق من النقاش:

«من الضروري، بالطبع، أن نؤكد على وجود نمطين من الصينيين... مؤيدو الشيوعيين الذين يتواجدون بالدرجة الأولى حيث عاش الصينيون طوال أجيال وعملوا وسط المالاويين والشعوب الأصيلة الأخرى، والنمط الأناني المتعجرف الذي يُعتبر السيد لي نموذجاً له. هذا النمط الأخير يعيش في بيئة صينية صرفة حيث يتواجد المالاويون في مستوى الخدم... فهم في معظم الأحيان لا يتجاوزون «كوزواي». إنهم صينيون أولاً، يرون الصين مركز العالم ويرون ماليزيا فقيرة جداً ثانياً».

تابعت «ماذا يعني هذا أيها الرئيس؟ إنها ليست مجرد كلمات تقال سريعاً، إنها كلمات منظومة ومُعدّة وتقرأ بإحساس بالواجب، وإذا كان علينا أن نأخذ المضامين من ذلك فالجواب بسيط جداً: إن ماليزيا لن تكون أمة ماليزية. أقول دعنا نعرف ذلك الآن».

بالنسبة إلى المالاويين «الذين يعيشون في مستوى متدن» قلت: إن «التونكو» كثيراً ما قال علانية وفي مجالس خاصة، إن الصينيين أغنياء والمالاويين فقراء، ولكنني استخدمت أمثلة بسيطة لأُبيّن بعض النقاط وأنا أتحدث بالمالاوية.

فالحقوق الخاصة والمالاوية كلغة قومية لم تكن الجواب عن هذه المشكلة الاقتصادية. إذا كنا من بين 4.5 ملايين مالاوي وثلاثة أرباع المليون من الإيبانز والكادازان وآخرين وشكلنا 0.3% منهم حملة أسهم في شركة فهل نحل مشكلة الفقر لدى المالاويين؟

كيف يستطيع المالاويون في كامبونغ أن يجدوا طريقهم خارج هذا المجتمع المدني المُحدّث؟ هل بأن يصبحوا خدماً لنسبة 0.3% الذين لديهم المال لاستئجارهم لتنظيف أحذيتهم، وفتح أبواب سياراتهم؟... هناك بالطبع صينيون من أصحاب الملايين يركبون سيارات كبيرة ويسكنون في بيوت كبيرة. هل الجواب أن نجعل قلة من المالاويين من أصحاب الملايين والسيارات الكبيرة والبيوت الكبيرة؟ كيف يمكن أن نخبر سائق باص مالاوي أن يؤيد حزباً مديره المالاوي (المنظمة) وأن نطلب من سائق باص صيني أن ينضم إلى حزب آخر لمديره الصيني (MCA) ـ كيف يحسن ذلك مستوى سائق الباص المالاوي ودليل الباص الصيني اللذين يعملان في الشركة ذاتها؟

إذا خدعنا الناس بجعلهم يعتقدون أنهم فقراء لأنه ليس لديهم حقوق مالاوية أو لأن أعضاء المعارضة يعارضون حقوق المالاويين، فإلى أية نهاية سنصل؟ أنت تدع الناس في كامبونغ يعتقدون أنهم فقراء لأننا لا نتحدث المالاوية، ولأن الحكومة تكتب بالمالاوية، لذا فهو يتوقع معجزة تحدث عام 1967 السنة التي ستصبح فيها المالاوية اللغة القومية والرسمية الوحيدة). في اللحظة التي نشرع بها بالتحدث بالمالاوية فسوف يتحسن مستوى معيشته، وإذا لم يحدث ذلك فماذا سيحدث عندئذ؟...

في الوقت نفسه عندما يحدث إخفاق في السياسات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية فإنك ستعود إلى القول: أوه إنهم الصينيون والهنود الأشرار وغيرهم وهم الذين يعارضون حقوق المالاويين. إنهم لا يعارضون

حقوق المالاويين. إن المالاويين لديهم الحق مثل المواطنين الماليزيين في أن يصلوا إلى مستوى التدريب والتعليم الذي وصلت إليه المجتمعات غير المالاوية. ذلك ما ينبغي فعله، أليس كذلك؟ ليس بتغذيتهم بهذه العقيدة الظلامية التي تفيد بأن كل ما عليهم أن يفعلوه وهو الحصول على حقوق المالاويين لقلة خاصة من المالاويين وبذا تحل مشكلاتهم...».

مثل هذه المناقشات التي تجعل المصطلحات الاجتماعية والاقتصادية مفهومة وعملية في الملايو، لم تسمع من قبل في النقاش الماليزي السياسي. وقد عرض حزبنا (PAP) مسائل حساسة حاسمة أمام الملأ بطريقة عقلانية ليكشف ضحالة الجدل السياسي لمنظمة UMNO، لأن زعماء الملايو (ومعظمهم من الأرستقراطيين ونخبة المثقفين) قد عملوا مع الزعماء الصينيين (ومعظمهم من التجار الناجحين) والزعماء الهنديين (ومعظمهم من الاختصاصيين) على نحو جيد.

كانت أهم خطبة ألقيتها في المالايو، وكانت موجهة إلى أعضاء البرلمان المالاويين، الذين يمثل معظمهم مناطق ريفية، وليس إلى منطقة الغرباء التي يغص بها مزيد من المالاويين. كنت أتحدث بدون العودة إلى نص مكتوب، وهذا ما جعل لحديثي وقعاً أكبر: وفيما كنت أتحدث خيّم الصمت، كان الجو مكهرباً.

وبعد خمس وعشرين سنة وفي الاحتفال بعيد استقلال ماليزيا السنوي قال لي إيدي في مقابلة عني: «إنه تحدث لمدة نصف ساعة، لا بد أن يتواجد في القاعة مايقارب 500 شخص ولكنك لا تستطيع أن تسمع صوت سقوط دبوس. عندما اتطلع إلى الخلف أشعر أنها كانت اللحظة التي شعر فيها «التونكو» ورفاقه بأنه من الأفضل لسنغافورة أن تكون بدون السيد لي».

كان زميلي المالاوي في الوزارة، عثمان ووك، في الغرفة. قال متذكراً: «كانت الغرفة هادئة جداً، ولم يعكر الصفو أحد. غاص وزراء الحكومة المركزية في مقاعدهم بحيث لم يكن من الممكن رؤية إلا رؤوسهم فوق الطاولة التي أمامهم. كان بوسعهم استيعاب كل كلمة. تلك كانت نقطة التحول. فقد نظروا إلى لي على أنه رجل خطير يمكن أن يصبح رئيس وزراء ماليزيا في يوم ما».

لم يكن لدي مثل هذه الأوهام. فماليزيا لن يحكمها رئيس وزراء صيني قبل مرور وقت طويل جداً. الماليزيون الحاضرون لم يتوقعوا أن أكون صينياً شوفينياً يريد أن يدمر العرق المالاوي، فأنا أتحدث المالاوية بدون أي لكنة غريبة كما يفعل الصينيون. فقد ولدت في سنغافورة وتعلمت اللغة منذ نعومة أظفاري،ويعود أجدادي إلى ثلاثة أجيال من قبل إلى سنغافورة وقد ساهموا إسهاماً كبيراً في البلاد. وكنت إلى جانبهم ولست ضدهم. كنت أريد أن أحسن من وزنهم.

بدا التونكو ورزاق غير سعيدين البتة. فقد كنت أقابلهما على أرضيتهما المالاوية وأنافسهما على التأييد بصورة سلمية مع مجادلة في نقاش مفتوح. لم أكن أشاركهما في صيحاتهما الحادة والعالية، بل والهستيرية التي تتضمن الإساءة وتشويه السمعة. إذ كنت أمتنع عن ذلك. وإذا سمح لي أن أستمر ما كنت لأزيح عن الطريق. كان بوسعه أن ير بين أعضاء البرلمان بعض الحجاج، الذين قاموا بالحج إلى مكة، والذين كانوا يهزون برؤوسهم موافقين عندما كنت أشير إلى أن مجرد الحفاظ على المالاوية بوصفها لغة قومية لن يحسن وزنهم الاقتصادي. بل كانوا يحتاجون إلى برامج عملية موجهة نحو حقلي الزراعة والتربية.

أثارت الخطبة قلقاً لدى زعماء «التحالف» وأعضاء البرلمان، وخلافاً للأنظمة أمر رئيس المجلس بألا أرد على المجادلات الموجهة ضدي. وبدلاً من ذلك فقد دعا رزاق، باسم التونكو، بأن يثير الجدل. فشن رزاق سلسلة من الاتهامات المطولة: كنت على وشك أن أبث الفوضى والمتاعب كي أبدو كزعيم يستطيع أن ينقذ البلاد. كنت خبيراً بخلق أوضاع لم يكن لها أساس. فقد قلبت الحقائق وبثّيت الشكوك في عقول الناس. وكنت أخطط لتقسيم البلاد إلى قسمين - «ماليزيا مالاوية، وماليزيا لي كيوان يو». كان رزاق في أحسن أحواله عندما استخلص «الخليج الذي يفرق ما بين «حزب العمل الشعبي» والتحالف بات واضحاً الآن. حزب العمل الشعبي (PAP) يعني التقسيم والفناء».

لم أتوقع أن تلعب خطبتي دوراً حاسماً في قرار التونكو لإبعاد سنغافورة عن ماليزيا. وبعد اثنتي عشرة سنة، في عام 1977، في كتابه «نظرة إلى الخلف» كتب التونكو: «القشة التي قسمت ظهر البعير كانت الخطبة التي ألقاها لي كوان يو في البرلمان، عندما طلب تعديلاً» «لشكر الملك على خطبته في أيار 1965. لقد أثار كثيراً من القضايا التي هزت التوازن بين أكثر الأعضاء اعتدالاً في المجلس».
وأرسل إليّ نسخة من الكتاب وفيها:

«السيد لي كوان يو

«الصديق الذي عمل بدأب شديد لتأسيس ماليزيا واستمرارها.

مع أفضل التمنيات

تونكو عبد الرحمن

26/5/1977»

فبعد خمس سنوات، في عام 1982، قال التونكو لمؤلف كتاب عن سنغافورة: هو (لي كوان يو) يعتقد نفسه أن له الحق مثلي في أن يكون زعيماً لماليزيا لأنه يتحدث اللغة المالاوية أفضل مني. لم أكن أتحدث المالاوية أفضل من التونكو، وحتى لو كان الأمر كذلك فأنا لست مالاوياً ولا أستطيع أن أكون زعيماً لماليزيا، ولكنه عندما سمعني في ذلك اليوم أتحدث في البرلمان، تحقق له أنني أوصلت رسالتي إلى مؤيديه، وهذا لم يكن مقبولاً.

41. البحث عن ماليزيا ماليزية

كانت طبيعة الجدل في البرلمان الاتحادي تدور بشكل طبيعي حول «ميثاق التضامن الماليزي» الذي سيجري في الأسبوع القادم في سنغافورة. وفي صباح يوم أحد دافئ في السادس من حزيران 1965، وفي المسرح الوطني الدائري المكشوف، جلس 3 آلاف شخص، كما آخرون على المنحدرات العشبية الجانبية. فقد كان اجتماعاً مبهجاً، أما زعماء الأحزاب السياسية الخمسة في المالايو، وسنغافورة، وساراواك فقد شعروا بالارتياح، بعد الضغوط التي كانوا يعانونها في المجلس.

كان الاجتماع فكرة تشين تشي، ومع أنه لم يكن خطيباً، مفوهاً، فقد تحدث بإقناع في كلمة الافتتاح:

> «هذا الاجتماع يعقد من أجل تعزيز الوحدة الوطنية ونشر الحقوق الأساسية لجميع الأعراق التي تشكل مجتمعنا المتعدد الهويات، والقوة التي ستوجد جميع أعراقنا في ماليزيا ماليزية هي أكثر من اللغة، وأكثر من العدوان الخارجي. لقد أظهرت التجربة أنه في الدول المشابهة، لا تنهض الأمة الموحدة إذا لم يدع أحد الأعراق أنه العنصر المتفوق، بل إن جميع المواطنين متساوون بغض النظر عن عرقهم».

كان د.سينيفازا غام من (حزب الشعب التقدمي) في بيراك صريحاً ومباشراً. لقد أصبح الاجتماع ضرورياً بسبب محاولة مكشوفة من جانب زعماء المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو، UMNO لإثارة المشاعر العرقية. في مواجهة هذا التهديد لا يستطيع الزعماء السياسيون الآخرون أن يجلسوا مكتوفي الأيدي، وقد اتهم «التحالف» باستغلال المادة 153 من الدستور المتعلقة بالحقوق الخاصة للمالاويين «للاستقواء على غير المالاويين».

كذلك تحدث أونغ كي هوي من «حزب اتحاد الشعب» في ساروواك (الوزير فيما بعد في الحكومة الاتحادية) بهذا المعنى وقال: من أجل بلادنا وشعبنا ينبغي أن تكون المساواة السياسية مبتغى كل من يعيش وتحدث د.ليم تشونغ إيو، من «الحزب الديمقراطي المتحد»، وهو رجل معتدل وحريص بطبيعته، ولكنه عبر عن مشاعره بقوة وقال:

«إذا أخفقنا اليوم في الوصول إلى حل، فلن يكون لنا مستقبل، ولن يكون لدينا مجتمع متكافئ لا لنا ولا لأولادنا، فالموقف الأساسي والأكثر أهمية الذي ينبغي أن يشهده هذا المؤتمر ويجلبه هو روح التصميم والصمود في وجه الانتقادات الخبيثة والأشبه بالهستيرية التي توجه إلينا».

وتحدث مشيل بوما من حزب ماشيندا في ساراواك وقد كان لامعاً. إذ تحدث ببساطة ولكنه ترك أثراً كبيراً. كانت خطبته مخربة جداً حتى إن الصحف البريطانية خشيت من نشر عباراته اللاذعة. قال: إنه في كل مرة يصغي فيها لإذاعة من مالايا كان المذيع يقول ـ بتوقيت أراضي المالايو لماذا لم يكن يقول بتوقيت أراضي ماليزيا؟

كان كل شيء يسمى باسم المالايو، لماذا؟ وقد نسب ذلك ببساطة إلى التفرقة العنصرية.

كان مزاج المستمعين قد هدأ قبل أن يأتي دوري كي أختتم المؤتمر. إذ أشرت إلى:

«وحشية متزايدة، أو نبرة عرقية متزايدة، وإلى الأوضاع المرعبة، والملاحظات المعقدة التي أرسلت إشاراتها إلى تابعيها على أساس العرق... إذا كان هذا سيستمر فلن تكون ماليزيا تابعة للماليزيين... إنهم يتحدثون بلغة ذات وجهين، وجه للاستهلاك متعدد اللغات ومتعدد

الأعراق والآخر لأتباعها. الرجال الطيبون، والرجال متعددو الأعراق، والزعماء يبعدون أنفسهم تماماً من وقت إلى آخر عن الطائفية ولكن المتوحشون يتابعون الضغط».

اقتبست نصيحة د.ليم لنا، القائمة على سنوات عدة من المعرفة الوثيقة بأساليبهم وتكتيكاتهم: «كونوا صامدين، كونوا حازمين، لا تخافوا».

ومن أجل أن أشجع غير الملاويين أوردت أرقاماً من الإحصاء الأخير: 39% ملاويين، و42% صينيين، وحوالي 10% من الهنود والباكستانيين، و7% كادزان وكابان وآخرون في بورنيو الشمالية، والباقون أوراسيون وسيلانيون وغيرهم. وبيّنت أن من يعزف على الوتر الطائفي فسيقتصر على طائفته، أما من يعمل من أجل الشعب كله على أساس غير طائفي فيستطيع أن يكسب ويفوز على أقلية الـ 20%. أنقصتها إلى معادلة بسيطة: 20 ـ 40 ـ 40 إذا احتكم الصينيون إلى نسبة40% مستخدمين الشعارات الصينية فلا بد أن يخسروا. وقد تركت «للمنظمة» أن نستنتج ما سيحدث على المدى الطويل فإذا احتكموا فقط إلى الملاويين.

استشهدت بكلمة رئيس وزراء: مالاقا، جعفر بابا (أصبح فيما بعد نائباً لرئيس الوزراء) الذي قال: «انظروا إلى ابتعاد الملاويين في مالاقا عن الطائفية. ففي دائرة مالايو الانتخابية صوتوا للسيد تان سيوسين».

قلت: رئيس الوزراء رجل شريف ولكن:

«في كل مرة يدور فيها السيد تان سيوسين ضارباً صدره، هذا ما يمثله، الملاويون الذين يمثلهم، الذين صوتوا له... وهذا أيضاً مع داتو سامبانثان. إنه رجل شريف آخر.. قال: إن جعفر ألبار رجل طيب. لا طائفي. هل تعرف لماذا؟ في مركزي الانتخابي وهو بيراك، سيونغي سيبوت، 90% من السكان هم ملاويون، وكان داتو يطوف عليهم ويخبرهم أن يصوتوا لي. وهكذا صوتوا لي. لذا فإن ألبار لم يكن طائفياً لأنه أخبر

أخطب في التجمع الحاسم للمؤتمر الأول لتضامن ماليزيا في سنغافورة (المسرح القومي) في 6 حزيران 1965.

الملاويين أن يصوتوا لزعماء المنظمة (UMNO) الصينيين والهنود المفضلين بحيث يمكنهم فيما بعد أن يوجهوا الجماعات الصينية والهندية في الاتجاه الذي أرادت «المنظمة» أن تسير فيه !»

كشفت أساليبهم التكتيكية ثانية:

«أظهروا الحقيقة، وسنعرف أنه لا يوجد لدينا سبب للخوف أو لنتعرض للتهديد... وإذا حدث ذلك... فسيصيبنا الويل. سيقولون لشعب خانع وخائف ومهدد: أعمال الشغب آتية وستسيل الدماء. لذا علينا جميعاً أن نعود إلى البيت، ونغلق أبوابنا ونغطي رؤوسنا بالأغطية. سيطوفون في الشوارع جيئة وذهاباً وهم يهتفون بالشعارات. وفي اليوم التالي، سلام!»

وحسب ما يقول د.ليم كان ذلك يحدث لفترة طويلة في مالايا.

أكدت على أننا لا ينبغي أن نقف ضد حقوق خاصة للملاويين وللشعوب الأصلية. بل ينبغي على العكس من ذلك أن تتنافس من أجل رفع مستواها الاقتصادي في المجتمع.

«ولكنهم (في المنظمة) لا يريدون المنافسة. إنها سيئة، أخبرونا، ابتعدوا لا تحاولوا القيام بأي شيء جيد. يقولون: إنهم قلقون بشأن ماليزيا؟ قلت: وكذلك نحن. نريد أن نرفع مستوى معيشتهم، وسنفعل ذلك وبأسرع مما يستطيعون. فبعد ذلك بـ 10 أو 15 أو 20 سنة سينمو جيل جديد لا يستجيب لما يستخدمونه. سوف ينسجمون داخل المجموعة المتعددة اللغات. وسيفكرون مثلنا ويعملون ويتدربون مثلنا، وسيكونون مستعدين للعيش معنا بوصفنا ماليزيين...»

أطلق علينا ألبار وصفاً يفيد بأننا القاطنون الذين يقيمون في بيوتهم مؤقتاً. ولكن ليم سوي أون،الوزير الاتحادي للتجارة والصناعة،قال: «لا. نحن مشاركون في الملكية،ولسنا مقيمين أو ضيوفاً»، وفي إحدى الخطب الحساسة

المتوازنة من قبل وزير مالاوي في البرلمان الاتحادي، تحدث إسماعيل عن مرحلتين: «مرحلة أولى ـ أحزاب طائفية مختلفة، ومرحلة ثانية ـ غير طائفية». وقلت: هنا يكمن الأمل.

كان اجتماعاً مثيراً بعث الأمل لدى كل من استمع إليه عبر إذاعة سنغافورة أو قرأه في الصحف، فقد قطعنا حاجز الصمت وواجهنا مخاوفهم الطائفية. في اليوم التالي دعا السيناتور واتو ت. هـ. تان،في خطبة له في مجلس الشيوخ الفدرالي، الحكومة المركزية إلى اتخاذ الإجراءات الدستورية لإخراج سنغافورة من ماليزيا، أو وضع السيد لي كيوان يو بعيداً كي يصحو. وبعد عدة أيام قال وزير الإعلام والإذاعة سينوب عبد الرحمن، الذي ينتمي إلى ولاية التونكو، التي تُدعى كيداه: إن حزب العمل الشعبي PAP ينبغي أن يلاحظ أن هناك حدوداً للصبر. ادفعنا، احشرنا في زاوية... وعندئذ سيكون الحزب مسؤولاً عن النتائج. «وطلب من زعماء الحزب الخروج إلى العلن وأن يحددوا على وجه الدقة ماذا يريدون لماليزيا». «نحن نعلم أن الحزب المذكور يريد تقسيم البلاد. هل يريد إنشاء جمهورية؟ هل يريدنا أن نتخلص من حكامنا،وامتيازاتنا؟ أخبرونا،انطقوا بذلك. اكشفوا عن ذلك».

أما راجا المناقض دوماً فقد أجاب بأنه كان مستعداً لمواجهتي في العلن في البرلمان وليناقش قضيتين، ولكن وزراء «التحالف» لن يسمحوا لي بذلك. ورد التونكو، في محاولة لتهدئة الجو فيما أظن، بأنه كان مستعداً لتمضية ساعات في الاستماع إلي ليعرف ما الذي يزعجني.

وتابع يقول: «اعتاد السيد لي أن يجلس معي على هذه الطاولة، وقد أمضينا كثيراً من الساعات مؤخراً في مناقشة كثير من المشكلات، ورغم كل شيء فهو ما يزال مصراً على الانضمام إلينا، والآن لماذا نطرح كل هذه القضايا؟، إنه لأمر سيء للغاية».

قرأت ما يشبه شعاعاً من أمل. فأجبت على الفور بقولي: «دعنا نتكلم ونحل الصعوبات التي تواجهنا، ولكن هذه الأحاديث ينبغي أن تمس بعض الموضوعات المهمة والأساسية»، والتفت إلى الرجال الذين يختلقون الأكاذيب، «أولئك الذين يتشدقون بالشعارات، أولئك المتطرفون الطائفيون بسبب حديثهم الخشن وكلماتهم الفظة... هؤلاء أطلب إليهم أن يتحدثوا مثل التونكو، بأدب ولطف وهدوء و ليكسبوا قلوب سكان سنغافورة».

في 16 حزيران غادر التونكو إلى بريطانيا ليلتحق بمؤتمر رؤساء وزارة دول الكومونولث. وفي اليوم نفسه استقال أونغ أينغ غوان فجأة من الجمعية التشريعية مبرراً استقالته بأن «الجمعية لم تعد مفيدة لخدمة أغراضها» إذا كان صامتاً وغير فعالاً، ومهمشاً تماماً عن الأحداث التي كانت تجري في سنغافورة منذ الاندماج. لم يصدر عنه أي تعليق أثناء أحداث العنف والشغب الطائفية، وفي اليوم التالي طلب من الحكومة ألا تتأخر في إجراء الانتخابات الفرعية لأنه يريد أن يشارك فيها، وإذا لم يفعل فسيفقد مصداقيته ويضيع في غياهب النسيان.

كنا نعتقد أن الحكومة الاتحادية قد مارست سلطتها على أونغ كي يقدم استقالته،و هو من أحد أعضاء، «اتحاد المالاويين الصينيين» MCA والذي كان سكرتير أونغ السابق عندما كان محافظاً في الفترة 1956 ـ 1959 أرادوا من خلال هذه الانتخابات الفرعية أن يسبروا مدى ما يتمتع به حزبنا من تأييد. إذا انتصر علينا «الباريسان» فيستطيعون تحييد حزبنا PAP وزعماءه مستخدمين قانون الأمن الداخلي، بدون إثارة ضجة كبيرة تجاه تأخرنا.

في اليوم المحدد للانتخابات الفرعية، يوم 30 حزيران رشحنا لي كون تشوي، ورشح الباريسان أونغ شانغ سام أحد أعضاء حزبنا الذي ارتد عنا. كانت حملة انتخابية قصيرة امتدت 9 أيام، وقد جرى الاقتراع في اليوم العاشر من تموز (يوليو). كان مزاج الناس مختلفاً تماماً، فقد كانوا يعرفون أن سنغافورة واقعة في مشكلة عويصة، وكان عليهم أن يختاروا ما بين حزبنا و«الباريسان» بعد أن يقرروا

أي حزب منهما يمكن أن يحمي بقاء سنغافورة ومستقبلنا. وقلنا: إما على الناخب أن يختار ما بين ماليزيا ماليزية وبين هدف الباريسان: «اسحقوا ماليزيا» بحيث تبرهن الانتخابات الفرعية لحكومة التحالف أن سنغافورة مع «ماليزيا ماليزية». أدان د.لي سيوه تشوه هذا الشعار واعتبره شعاراً طائفياً يعبر عن الاستعمار الجديد، ومع هذا عندما سئل رزاق من قبل الصحافة قال: لا يهم من يربح حزب PAP أم «الباريسان». وهذا ما أكد شكوكنا أن «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» UMNO و«اتحاد المالاويين الصينيين» MCA كانا يريدان امتحان التأييد الذي يتمتع به حزبنا PAP في سنغافورة في الأوساط الصينية، حيث تقع دائرة هونغ ليم الانتخابية في وسط «تشاينا تاون» وظهر لنا دليل آخر من خلال افتتاحيات صحيفة «أوتوسان ميلانو» التي كانت تحثّ الناس على التصويت «للباريسان» مرشحهم على الرغم من وجود قلة من المالاويين في المنطقة.

في منتصف الانتخابات الفرعية أصدر إسماعيل أمراً بطرد أليكس جوسيي على أساس أن ذلك سيكون «مؤيداً إلى مصلحة الاتحاد». وعندما سئل عن ذلك في لندن قال «التونكو»: إن جوسيي قد تورط في نشاطات تهدف إلى تمزيق الانسجام الداخلي. وفي مقالة نشرت في مجلة «بوليتين» الشهرية أكد على وجود خلافات في القيادة بين «التونكو» وبيني. وقد توقعنا الأسوأ فقد دعا تشين تشي إلى مؤتمر صحفي كي يقول إن طرد جوسيي مرتبط بإجراءات قمعية أبعد قادمة إذا استمرت الحكومة المركزية في استرضاء المسرفين». وأوضح تشين تشي:

«إننا نعرف أنه بعد الاجتماع الأخير للمجلس النيابي بوقت قصير والاجتماع الحاشد الأول لمؤتمر التضامن الماليزي في سنغافورة في 6 حزيران، أعطيت التعليمات باتخاذ قرار لاعتقال السيد «لي». وحضّينا الحكومة المركزية على ألا تعتقد أن إزاحة السيد لي من الطريق سيجعل وزراء حزب العمل الشعبي في الحكومة يذعنون بصمت لطرده».

كان كل وزير يعرف أن إزاحتي، بعد اللغط الذي أثاره إسماعيل، لن تزيح المشكلة ـ سيطرة المالاويين على الأعراق الأخرى. وقد وقفوا جميعاً مع تشين تشي في المؤتمر الصحفي لإظهار التضامن. وفي 10 تموز وصف رزاق مزاعم تشين تشي بأنها «خشنة جداً وسيئة لدرجة أنها لا تستحق أي تعليق». ولكننا اطلعنا على المعلومات من جورج بوغارز. مدير «الفرع الخاص» في سنغافورة ثم جاء نفي رزاق يوم الاقتراع. في تلك الليلة فاز مرشحنا لي كون تشوي بـ 59% من الأصوات في انتخابات هونغ ليم الفرعية، خلافاً تماماً للنتيجة التي توصلنا إليها قبل سنتين، عندما ربح حزبنا 26% من الأصوات فقط، فقد حصلنا على أكثر من الضعف الآن.

في اليوم التالي قال سينو في خطبة موجهة إليّ: إنه لا ينبغي على غير المالاويين أن يستغلوا الكرم المقدم لهم في ماليزيا. فأجبت: بأنني لا أستمتع بكرم أحد. كوني في ماليزيا كحق لي. وبعد أسبوع اجتمع زعماء «ميثاق التضامن الماليزي» في سنغافورة لإصدار بيان يحذر من أن الأمة ستواجه خطراً جسيماً إذا ما فرقنا ما بين «ماليزيا كمسألة حق»، وماليزيا كمسألة ضيافة، وأظهروا باهتمام «الاستغلال العاري والمكشوف للعواطف الدينية والعرقية ضد أولئك الذين يؤيدون الرأي القائل: «ماليزيا ماليزية». وأعلنوا خططاً لتحضير سلسلة من الاجتماعات الحاشدة في جميع أرجاء الاتحاد».

في اليوم التالي احتج سينو: «لقد شرحنا هذا عشرات المرات، نحن نعمل لكل الماليزيين بغض النظر عن الأصل... وإلا لما كان هناك «حزب التحالف»... بالطبع نريد ماليزيا ماليزية، نحن صنعنا هذا المفهوم، وتبعه رزاق ليؤكد المعنى نفسه. عندما أشار إلى شعار ماليزيا ماليزية الذي أطلقه حزبنا وقال: إن التحالف وليس حزبنا أولاً هو الذي عبر عن الفكرة. وفي مقابلة مع العضو إسماعيل في «المنظمة» أوضح أن حكومة التحالف تريد ماليزيا ماليزية، وإن تكن مختلفة عما أعلنته حكومة (PAP). فمفهوم التحالف يقوم على عاملين ـ الانسجام العرقي وماليزيا موحدة غير طائفية.

رحبت بهذه التطورات. كانت تمثل تقدماً عظيماً في موقف المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو (UMNO) وقد وافقوا الآن على موقفنا، ولكن بدون حماسة باستثناء إسماعيل. إذ بدأت الأمور تتحرك ولن تعود إلى ما كانت عليه أبداً.

بعث إلي رزاق بأنه يريد أن يتحدث إلي، وقد التقيته في 29 حزيران في مكتبه في وزارة الدفاع في كوالا لامبور، كان متشنجاً ومتعباً، حزنت لما ألحقته «أتوسان» به من أذى، والتي كانت تفرز السموم العرقية كل يوم، واشتكيت من سياسة UMNO ذات الوجهين، حيث يعقد الزعماء الكبار فيها اتفاقيات معقولة معنا وهدنة سياسية، نرى زعماء الصف الثاني يتابعون بث الكراهية من خلال صحيفتين «أوتوسان» و«مالايان ميرديكا» اللتين توزعان في القرى. قلت: أي اتفاقيات مستقبلية ينبغي أن تكون مدونة ومعروفة للجميع، بمن في ذلك القادة الثانويون، كما ينبغي وقف التذمر والمشاغبة في الصحافة المالاوية، وبدون ذلك لا يمكن أن يكون لأية تهدئة سياسية أي معنى.

كان أهم بيان أصدره رزاق هو: «نريد أن نعرف ما إذا كنتم تريدون أن تعملوا معنا أم تحاربوننا». قلت: إنكم تعرفون أن حزبنا كان يريد دوماً التعاون مع «المنظمة» (UMNO)، ولكن المنظمة، ولا سيما كبار المسؤولين فيها كانوا مصممين على سحقنا. وأشرت إلى قضائهم على التعددية الحزبية في صباح ومحاولة القيام بالشيء نفسه في ساراواك. لم يكن لدي شك في أنهم ما إن ينهون مشكلة ولايتي بورنيو الشمالية حتى يحولوا غضبهم إلى سنغافورة ويقسموننا أيضاً. كانوا قد عينوا دونالد ستيفينس، رئيساً لوزراء صباح، وعلى وشك تعيين ستيفان كالونغ رئيساً لوزراء ساراواك.

ذكّرت رزاق أنني كنت حاضراً في قصة الرئاسة في كوالا لامبور عندما طرح «التونكو» نفسه هذه الشروط أمام ستيفينس من أجل أن يبقيه في السلطة: من الآن فصاعداً سوف ينضم الصينيون في صباح إلى «حزب صباح الوطني»، وينضم الكادزان إلى «منظمة باسوك موموغان كادزان»، وينضم المالاويون إلى

«منظمة صباح الوطنية المتحدة». أجاب رزاق بأن «المنظمة الوطنية UMNO» لا شأن لها في ذلك ـ لقد كانت رغبة زعماء التحالف في «صباح». وقلت: إن الأمر لم يكن كذلك، لأنني عندما ناقشت التشرذم مع ستيفينس كان مستاء للغاية بسبب ذلك.

كانت ساعتان غير مريحتين البتة. لم يكن رزاق يريد أن يواجه المسائل التي أثرتها ولم يكن هناك توافق في وجهات النظر. ترك لدي انطباعاً واضحاً بأن «المنظمة» لن تحيد عن مبدئها الأساسي بوجود نظام سياسي له أساس مالاوي لا يتسامح مع الانتهاكات من قبل الأعراق الأخرى بسبب سيطرتها المالاوية. كان على سنغافورة أن تكيف نفسها مع البنى الطائفية التي كانت موجودة في مالايا قبل الاندماج، وهذه البنى لن تتغير. كان رزاق صارماً في هذا، ولكننا لا يمكن أن نقبل به. كنت ما أزال آمل أن يكون «التونكو» قوياً كفاية بحيث يكون مختلفاً عنه.

لم يكن الأمر كذلك. فبعد سنة أعطاني رزاق تقديراً مختلفاً لما كان يجري. ففي مقالة نشرت بمناسبة العيد العشرين «للمنظمة» كتب أنني بعد أحداث الشغب مباشرة في تموز 1964 قد شجعت التونكو وحضّيته كي يضمنا إلى ائتلاف الحكومة إذ أنها الوسيلة الوحيدة لضمان تناسق طائفي، نظراً لأن حزبنا كان يمثل صينيي ماليزيا. ولكنهما رفضا طلبي نهائياً، في وقت كنا قد بدأنا فيه بمجابهة «المنظمة» والمالاويين بإطلاق شعار غير مسؤول «ماليزيا ماليزية» من أجل الحصول على دعم غير المالاويين، مما خلق توتراً بين المالاويين والصينيين كان من الممكن أن يعرض أمن البلاد للخطر. ونسي رزاق أنه قبل أقل من سنة،في تموز 1965، أعلن هو وسينو أن «التحالف» قد استوعب وبشكل مفهوم ماليزيا ماليزية. وأضاف أنني ما إن رأيت الخطر حتى تظاهرت بإيجاد وسائل لتسهيل الوضع من أجل إنقاذ ماليزيا. وقد قاد هذا إلى لقاء بيننا في 29 حزيران، وقبل ستة أشهر من مغادرتنا «للاتحاد». كتب رزاق يقول:

«من دواعي الاستغراب أن لي كيوان يو، في الاجتماع، لم يكن لديه نية لإيجاد وسيلة للخروج من المأزق، إلا بالإصرار بقوة أن أقوم أنا و«التونكو» بإبعاد «المتطرفين» في «المنظمة» إذا كانت الحكومة المركزية تريد تعاونه... ذكر أسماء من يُدعون بـ «المتطرفين» الذين زعم أنهم مسؤولون عن الجو المتوتر. رفضت زعمه بشأن المتطرفين وقلت له: إن «المنظمة» هي حزب منظم، وإذا أراد أن يتعاون مع «التحالف» أو «المنظمة» فعليه أن يثق بالتونكو وبي وبالآخرين. ثم طلبت منه تأكيداً أنه هو ورفاقه لن يقوموا بأفعال استفزازية ضد المالاويين أو التدخل بشؤون «المنظمة» الداخلية. ومن المؤسف أنه امتنع عن إعطاء التأكيد».

نشرت رداً على ذلك مقتطفات من المذكرة التي أعددتها بعد لقائي معه مباشرة. أشرت إلى أنني ما كنت لأقترح تحالفاً مع «التونكو» في تموز 1964 بعد أحداث الشغب. عاد التونكو إلى كوالا لامبور من لندن في 14 آب، وأخبرني في اليوم التالي أن رئيس الوزراء البريطاني، سير أليك دوغلاس هوم نصحه بتشكيل حكومة وطنية من أجل ضم حزبنا (حزب العمل الشعبي). أضفت أنها لم تكن رغبة حكومة سنغافورة إحياء العداوات القديمة، ولكن الحسابات الخاطئة لمثل هذه المناقشات جعلت من المستحيل بالنسبة إلى وزراء سنغافورة أن يسكتوا.

لم يكن هناك جواب من جانب رزاق. وبعد عدة سنوات قرأت في السيرة الذاتية الرسمية للتونكو التي كتبها موبين شيبارد أن رزاق أخبره في لندن أنه لا يستطيع الوصول إلي وإقناعي بوقف النقاش السياسي. إن ما قاله التونكو قد أكد له تصميمه على إخراج سنغافورة من ماليزيا.

42. التونكو يريد إخراجنا

أصيب التونكو بهجمة من داء القوباء عندما كان في لندن في منتصف شهر حزيران، وكان ليم كيم سان الذي أخذه التونكو معه بوصفه عضواً في وفده إلى مؤتمر رؤساء الوزراء، قد زاره في المستشفى وكتب إلي في 23 حزيران:

«الرجل الكبير في السرير مصاباً بالقوباء، وروحه المعنوية ضعيفة، إنه محاط بعدد كبير من الناس، ومع هذا تمكنت من الحديث معه، إنه ما يزال يفكر باتخاذ ترتيبات ولكنه لا يعرف ما شكل هذه الترتيبات، وفي الوقت نفسه يرى أنها ليست ملحة على الإطلاق ويمكن أن تتخذ بعد المجابهة».

«لم يناقش هذا مع أي إنسان هنا، وأنا أثق به تماماً لأنني عندما قابلت إرثر بوتوملي (وزير الدولة لشؤون علاقات الكومونولث) في مؤتمر الكومونولث أخبرني أن تقريره من مالايا أشار إلى أن الأمور على ما يرام وأن المالاويين، باستثناء بعض المتطرفين الذين اعتبرهم سيكونون تحت مراقبة تونكو أو رزاق، فهمُ الآن أقل حساسية والوضع أقل انفجاراً. وأُخبر أنه حتى المتطرفون ممتنعون عن القيام بأي شيء وأنه مع وجود التونكو خارج البلاد لن يقوم أحدهم بأي شيء خشية أن يُتهم باستغلال غياب التونكو أو مرضه. قلت له: إن الاضطرابات كانت تبدأ في كل وقت يكون فيه بعيداً. ولكنه أخبرني بألا أقلق... كان ودياً ومسروراً لرؤيتي وقد قطعنا مناقشتنا حتى قبل أن يبدأ الاجتماع...».

قابلني كيم سان بعد عودته من لندن في شهر تموز (يوليو) كي يصف لي وضع التونكو ومزاجه. قال التونكو: «تستطيع أن تخبر رئيس وزرائك أنه يستطيع أن يلتحق باجتماع رؤساء الوزراء بنفسه». سأل ماذا كان يعني التونكو بذلك! هل سيكون هناك إعادة ترتيبات؟ وهل ستصبح سنغافورة دولة خاصة في الاتحاد؟ وكن لم يستطع كيم سان أن يسبر أغوار التونكو.

بعد سنوات فيما كنت أسجل تاريخي الشفوي عام 1981 أرسلت إليه نسخة من رسالته بتاريخ 23 حزيران 1965 فعلّق بقوله «في ظني، كما أخبرتك عدة مرات من قبل، أن التونكو كان يشير بصورة غير مباشرة إلى أنه سيعطي سنغافورة الاستقلال. ولم أكن حاد الذهن بحيث ألتقط أهمية بعض ملاحظاته».

كان يشير بصورة غير مباشرة إلى إعطاء سنغافورة استقلالاً، وركز كيم سان على إمكانية إجراء إعادة الترتيبات ولم ينتبه إلى المضامين الأوسع لبيانات التونكو الخفية، وفي لندن لم يقابل التونكو إلا مرة واحدة، وهذا يعني أن التونكو يفكر منذ 23 حزيران 1965 بالانفصال الكامل.

في الوقت نفسه كان كينغ سوي بعيداً في ألمانيا منذ أكثر من شهر للمعالجة الطبية، قابلني منتصف تموز ليقول لي: إنه قابل رزاق في مقر إقامته ووجد بالصدفة إسماعيل وجعفر البار هناك أيضاً، وقال: إن رزاق أراد أن يناقش إعادة الترتيبات التي تسمح لكلا الطرفين بفك الارتباط عما يمكن أن يكون ائتلافاً مدمراً.

فناقشت مع كينغ سوي جميع البدائل المحتملة، ورأيت أن كل شيء يمكن تجريته من أجل تجنب تعارض صدامي عرقي. اجتمع كينغ ثانية برزاق وإسماعيل في كوالا لامبور في 20 تموز. أخبرهم أنه لا أحد يعرف عن مناقشته مع رزاق سواي وليم كيم سان وايدي باركز. فقد كان تشين تشي وراجا مشغولين بعمق في «ميثاق التضامن الماليزي» للنظر في إجراء أية تعديلات. أكد لرزاق أنه سأكون قادراً على ضبط «حزب العمل الشعبي» إذا عولجت الأمور بشكل ملائم، ولكن أي كشف سابق لأوانه سيفسد الأمر.

سألني كينغ سوي ليقول: إن رزاق كان يريد انفصالاً كلياً. فأشار رزاق إلى نقطتين إذ أراد من كينغ سوي أن يتأكد من أنني مؤيد. قال كينغ سوي «نعم، افترض أن الأمر جرى بسرعة قبل التزام لي وانشغاله بميثاق التضامن، فهذا سيجعل من المستحيل عليه أن يخرج». وافق إسماعيل على هذه النقطة. وبدا

رزاق مرتاحاً ومتشككاً معاً. لأنه بحسب ما قال كينغ سوي، كان شبه متوقع مني أن أرفض الفكرة. قال كينغ سوي: أنني كنت واقعياً لأنني أرى أن التعارض وشيك وأن العواقب غير محسوبة.

أثار رزاق نقطة مفادها أن الانفصال ينبغي أن يكون خطوة جماعية، بمعنى آخر ينبغي أن يؤيدها حزبنا واقترح أن يتولى «الاتحاد» وسنغافورة معاً إعلام البريطانيين بمقاصدهم، وقال: إنه يشعر بأنهم سيوافقون إذا وقفنا جميعاً دفعة واحدة. في حين أشار كينغ سوي إلى أن هذا الأسلوب في العمل لا بد أن يخفق، فالبريطانيون سوف يرفضون الانفصال بصورة مطلقة، وذكّرهم كيف عارض أنطوني هيد وفريقه بشدة إعادة الترتيبات الأقل أهمية التي تم الاتفاق عليها مع التونكو في شهر شباط (فبراير) الماضي. وأصر كينغ سوي على أن يُطرح الانفصال على البريطانيين بوصفه أمراً واقعاً fait acaompli عندما يجتمع البرلمان ثانية في 9 آب (أغسطس). فالتعديلات الدستورية الضرورية يمكن أن تكون أولاً ضمان الاستقلال لسنغافورة، مع إجراء القراءات الثلاثة في اليوم نفسه، ووافق إسماعيل على الفور على ذلك، أما رزاق فقد قال: ربما تكتيكات حزبنا (PAP) هي الأفضل، وقال كينغ سوي: إنه لا يعترض إذا أطلعنا لورد هيد،من باب المجاملة، وبوصفه القوميسار البريطاني الأعلى في ماليزيا، على نوايانا في الساعة 9.30 من صباح اليوم نفسه، أي قبل نصف ساعة من طرح مسودة مشروع الاستقلال، واستقبل ذلك الاقتراح بكثير من المرح.

قال إسماعيل: إنه لا بد من وضع وثيقتين: تعديل للدستور يجعل خلافة سنغافورة ممكنة، وإجراء يعطي سنغافورة استقلالاً بموجب ذلك التعديل. ولمصلحة الأمن على الموظفين المدنيين ألا يعدوا ذلك،وسأل ما إذا كنا نستطيع أداء العمل. وأن على إسماعيل ورزاق أن يفكرا بالإجراءات الدستورية الضرورية. قال كينغ سوي: إن إيدي (وزير العدل السنغافوري) يجب أن يحاول إعداد مسودة لهم في غضون فترة تتراوح ما بين أسبوع وعشرة أيام،وتم الاتفاق على ذلك. أكد كينغ سوي على الحاجة التامة للسرية وأضاف مشيراً إلى إسماعيل أن موظفيه المدنيين الخبيرين بشكل خاص يجب ألا يعلموا بشيء عن المسألة.

شعر كينغ سوي أن رزاقاً كان يشعر بالراحة التامة والامتنان له لدوره في تشجيع هذا الحل. كان يعتقد حقاً أن هذا لن يعدل فقط من البؤس الذي بات الآن يتواجد بشكل خطير، بل سيضع نهاية أيضاً للتوتر والشقاء اللذين عانى منهما في الشهور الأخيرة. فقد استغرق ذلك نصف ساعة فقط ولكنهم أمضوا 20 دقيقة في تبادل المجاملات لأن رزاق أصر على ألا يغادر كينغ سوي مبكراً جداً. كما استطاع تدبير سيارة شرطة لتقلّه إلى قاعة الترانزيت في المطار كي يتجنب الصحفيين.

بعد أن حدثني كينغ سوي عن الاجتماع على الفور، رأيت إيدي في مكتبي. كان الموضوع حساساً للغاية بحيث إنني لم أكن متأكداً أن النائب العام في الدولة هو أفضل شخص للقيام بالعمل. فقد لا يكون قادراً على إبقاء الأمر سراً. ذهب ايدي نفسه إلى مكتب كلية الحقوق في جامعة سنغافورة ليقابل بعض الخريجين القدامى ومن ثم ليختار واحداً مناسباً. ومن أجل أن يحد عدد الأشخاص المطلوبين لم يسلم الأمر إلى مساعده الخاص، بل سلمه إلى وونغ تشوي سين،سكرتير مجلس الوزراء، وهو موظف لا يرقى الشك إلى ولائه وقدرته. والآخرون الذين شاركوا هم ستانلي ستيوارت، رئيس الخدمة المدنية، وجورج بوغارز، رئيس الفرع الخاص. وقد دعوت بوغارز إلى أن يتأكد أننا نستطيع أن نحتوي أي تهديد من جانب الشيوعيين في سنغافورة مستقلة طالما أننا لا نسمح لهم أن يعيدوا بناء منظمتهم. أكد لي أنه يستطيع ذلك.

وضع إيدي مسودة وثيقتين، ولكنني سألته أن يعد ثالثة، وهي إعلان الاستقلال. أطلعت تشو على المسودتين. كنت ما أزال غير راض عنهما. أردت لاتفاقيتنا مع دولة جوهور، التي كنا نعتمد عليها بشدة لتوفير المياه لنا، أن تدرج معهما وتصادق عليها الحكومتان باعتبارها معاهدة رسمية تحظى بالاحترام. كنت مضغوطاً بشدة، وطلبت من تشو التي كانت محامية ممتازة أن تجد طريقة

دقيقة لتحقيق ذلك. وما إن فعلت ذلك حتى صادقت على المسودات لإيدي كي يرفعها إلى رزاق. رغم كل الشكوك قررت أن أحافظ على عطلتي المقررة وأنتظر لأرى ما إذا كان التونكو ما يزال يريد إبعادنا أم أنه عدل عن رأيه.

كان هناك أسباب للشك. فقبل أسبوع واحد كان تان سيوسين قد زار سنغافورة من أجل اجتماع «لاتحاد طلاب الجامعة» كي يقول: إن الحكومة المركزية ستواصل قرارها بإغلاق «مصرف الصين» في سنغافورة الشهر القادم. ورغم الاحتجاجات غير الرسمية التي أذيعت حول إذاعة بكين، فقد نفى أن الإغلاق سيؤثر في التجارة بين ماليزيا والصين. وقد أشار هذا إلى عدم وجود نية للانفصال، فضلاً عن ابتعاد سنغافورة عن ماليزيا. وبعد ذلك قام رزاق أثناء جولة له في الجزر الجنوبية في 25 تموز بالإدلاء ببيانات متحيزة لإثارة مشاعر مالايو ضد حزبنا، قائلاً إن الروح اللاتعاونية لحكومتنا قد جعلت من الصعب على كولا لامبور أن توسع برنامجها لتطوير الريف بالنسبة إلى المالاويين المحليين. هذه الخطوة المؤذية قد جعلتني أتساءل أيضاً ما إذا كان كينغ سوي قد قرأ بشكل صحيح وأعلم رزاق أنه كان يريد حقاً أن يُبعد سنغافورة. كان هناك تصعيد ما. هل كانوا حقاً يختبرون الوضع للتشكيك بالدستور وتعيين حاكم؟ أم أنهم يخططون لأمر سيء ما؟.

كان كينغ سوي قلقاً أيضاً. لم يكن غير مرتاح بشأن العبء والملامة اللذين سيقعان على كاهله إذا انكشفت الخطة أو أجهضت. وعندما كنت أحضر هذا الكتاب عام 1994 سمح لي أن أطلع على سجله التاريخي في الفترة 1980 ـ 1981 وعلمت أنه لم يضغط على رزاق مطلقاً من أجل ترتيب أكثر ليناً كما كنت قد طلبت منه. كان يعرف أنهم يريدون لسنغافورة أن تكون خارج مجلسهم النيابي، وقد ساروا أشواطاً في تحقيق رغبتهم لإبعادنا. قال كينغ سوي أيضاً: إنه كان يريد ذلك التعهد الخطي مني لأنه كان يخشى أن أعيق الانفصال.

دعا كينغ سوي رزاقاً إلى «مقر الاتحاد» في سنغافورة في 27 تموز ليعرف ما إذا كان لديه حقاً أفكار أخرى حول الإبعاد. ومرة أخرى وجده كينغ سوي متردداً إذ يغير موقفه باستمرار. وكان يشكو من الأرق وبدا كئيباً وقانطاً.

بعد محادثة استمرت 90 دقيقة قال: إنه كتب إلى «التونكو» حول مناقشاتهما بعد ثلاثة أيام من اجتماعهما الأخير. وقد بات الآن على التونكو أن يقرر، ولكنه لن يعود من لندن قبل 4 آب. فلم يتوقع رزاق منه أن يُسرع الأمور، وكان من المشكوك فيه بالتالي أن تُعد وثيقة الاستقلال في التاسع من الشهر ـ لسبب واحد وهو وجود عدة مصالح لا بد من مناقشتها.

ثم عبر عن شكوكه حيال نتائج الاستقلال تجاه سنغافورة ـ مفترضاً أن الحكومة دخلت في صفقة مع بكين! كما طرح رزاق أيضاً أفكاراً غير مقبولة البتة حول الدفاع. قائلاً: إن ماليزيا ينبغي أن تتولى الإشراف على جيش سنغافورة. أخبره كينغ أن هذا غير ممكن. فنحن سننمي وسنحافظ على جيشنا، ولكن لأغراض عملية يمكن أن يوضع تحت إمرة من يقود جميع القوات الماليزية التي تواجه إندونيسيا. فقال رزاق: «أوه، هذا يعني أن النظام الحالي سيبقى، أي أننا سنقود جيشكم؟ ومن أجل عدم توسيع شكوكه حول الموضوع لم يشر كينغ سوي إلى أن هذا الترتيب لن يتحقق إلا عند المجابهة.

رزاق اعترض قائلاً: إن استقلال سنغافورة يعني انتصاراً مدوياً لسوكارنو. هل نريد أن نمنح سوكارنو دفعاً إلى الأمام؟ لماذا لا نتوصل إلى انفصال جزئي؟ قال كينغ سوي: نريده بأية طريقة يريدها ولو كان حالاً. قال كينغ سوي: إن مركز سنغافورة سيتعزز بتأييد من دول الكومونولث،وهذا ما ضايق رزاق أكثر، وقال: إنه لا يوجد إلا حل واحد هو الانفصال الكامل. ولكنه تراجع ثانية، وتحدث عن نوع ما من الكونفدرالية حيث تسيطر كوالا لامبور على شؤون الدفاع، والسياسة الخارجية.

أكد كينغ سوي على اتخاذ قرار مبكر قبل أن يصبح التزاماً «بميثاق التضامن الماليزي» أمراً لا عودة عنه. ولكن فيما كان هو مستعداً لذلك استمر رزاق في طرح عدة اعتراضات مختلفة حول الخطة بكاملها: كان تان سوي ضد الانفصال، وتأييد «المنظمة» العام لها ليس مضموناً. كان يخشى المعارضة. ولكن من جهة أخرى فإن قوات الشرطة والقوات العسكرية غير كافية للتعامل مع اضطرابات واسعة النطاق إذا بقيت سنغافورة في ماليزيا. لذا ربما كان الخروج هو الحل الوحيد. وسأل كينغ سوي ما إذا كان هناك طريقة أخرى. وقال كينغ سوي: إنه لا يستطيع ذلك.

ومع هذا فإن رزاق دعا عبر الصحافة حكومة سنغافورة إلى العمل الجاد مع كوالا لامبور لتنفيذ خطط التطوير بالنسبة إلى الماليزيين. بدأت أخشى أن نقع ثانية في طريق الصدام.

لم أكن متأكداً بعد مما سيحدث،هل سيكون هناك إعادة ترتيب، أم انفصال، أم تحالف، عندما ودعني فيليب مور في 30 تموز، كان سيُعيّن في وزارة الدفاع في لندن. كان فراغاً عاطفياً مؤثراً. فالبريطانيون بعد كل شيء عليهم أن يبقوا في الظلام إزاء مناقشاتنا. وكنت لا أخفي عليه أي شيء عن التغييرات التي كنا نتفاوض عليها سراً، وقد كان مور متفهماً ومؤيداً. كنت ممتناً لكل ما فعله. قلت له إن علي أن أذهب مع ماليزيا بغض النظر عن النتائج. لقد حضّيت الناس على الانضمام إلى «الاتحاد» وما كنت أستطيع أن أتخلى عنهم. لقد كان من مسؤوليتي أن أرى الدستور يحترم. فأنا لا أستطيع التراجع. وقد أظهر تعبيره اهتماماً بالغاً بسلامتي الشخصية وبمستقبل سنغافورة.

في 31 تموز غادرت سنغافورة للالتحاق بحشد جماعي لحزبنا في كوالا لامبور، ثم لأذهب إلى مرتفعات الكاميرون في عطلتي السنوية مع زوجتي تشو والأطفال، وقبل أن أغادر كوالا لامبور هتفت إلى أنطوني هيد في كاراكوزا لمدة نصف ساعة. كنت أعي أنه لا بد وقد علم شيئاً مما كان يجري. وكنت أعرف أنه

إذا نُمي إليه أقل شيء، فسيكون قادراً وقوياً بما يكفي ليحفظ كل ما اتفقنا عليه،كما فعل بخططنا من أجل إعادة الترتيب في شباط. إذ لم يظهر أي علامة شك بما كان يجري، وكنت سعيداً بأن رزاق وإسماعيل لم يفشيا أي شيء إلى فينير. وفي الواقع أن هيد أرسل هذا التقويم إلى لندن في 6 آب :

«إن الآفاق المستقبلية مظلمة. ثمة فرصة ضئيلة للانفراج السياسي نظراً لعدم ثقة كل طرف بالآخر. إن صيغة معدلة لفك الارتباط بدون عرقلة الدستور ممكنة ولكنها غير محتملة. أعمال لي عبر البحار تبدو الآن مقيدة والمتطرفون الملاويون يزدادون قوة بسرعة. أما النتيجة الأكثر توقعاً فهي أعمال عنف عرقية متجددة بحجم أكبر بكثير من ذي قبل... أحد الأسباب الرئيسية للاضطراب الحالي هو الشوفينيون الملاويون المتطرفون الذين يقودهم سينو، وزير الإعلام، وخير جوهري، وزير التربية، وجعفر ألبار الأمين العام للمنظمة (UMNO) وسينو وجعفر ألبار بشكل خاص منخرطان في مناقشة كي يكونا مالاويين أكثر من أي شيء آخر. ولو أنهما يستطيعان الانكماش أو الصمت سيكون ذلك مساعداً، ولكن رزاق أظهر أنه غير مستعد لأن يكون صارماً مع هذين الرجلين،لأنه لا شك خائف لأنهما يمكن، بسبب شوفينيتهما، أن يزيحاه عن مركزه الحالي لدى التونكو. ولهذا قرر بحذر أن يتحرك في اتجاههما لحماية مركزه السياسي...».

وكتب هيد حول السياسة البريطانية يقول:

«طالما أن إندونيسيا العدوانية تهدد استقلال ماليزيا وتكاملها الجغرافي، فإن مصلحتنا في استقرار جنوب شرق آسيا، والتزامنا بموجب «معاهدة الدفاع»، واحتياج ماليزيا إلى المساعدة ضد عدو متفوق باستمرار، يبدو مُؤكداً للحاجة إلى وجودنا المستمر هنا ... ولكن البقاء

قد يسبب صعوبات لنا، إنه قد يكون من غير الحكمة ومن قصر النظر بالنسبة إلى السياسة البريطانية أن نفترض أنه سيكون هناك فترة طويلة من الاستقرار النسبي في ماليزيا».

وفي اليوم التالي للحشد الجماهيري في ملعب تشين وفي كوالا لامبور قدت سيارتي إلى مرتفعات الكاميرون، حيث استرحت ولعبت الغولف، وتمشيت مع أطفالي، فيما كنت أنتظر مكالمة هاتفية من كينغ سوي وإيدي ليقولا لي: إنهما ينتظرانني في كولا لامبور، لم أكن أريد لهيد أن يشك في أنني عدت إلى كولا لامبور لأمر ما.

ذهب كينغ سوي إلى كولا لامبور للالتقاء مع رزاق في 3 آب أي في اليوم الذي يسبق عودة التونكو إلى الوطن. وقد كان التونكو في صالحهما، ولكن بشرطين: (آ) أن تساهم سنغافورة مساهمة عسكرية مناسبة في قوتنا الدفاعية المشتركة وأن تدخل في اتفاقية دفاعية مع ماليزيا. (ب) ألا تدخل في أية معاهدة تتعارض مع أهداف تلك الاتفاقية. وسجل كينغ سوي أن كثيراً من المقترحات التفصيلية قد طرحت أثناء المناقشة: مثل وجود مجلس دفاعي، فجميع القوات السنغافورية ستكون تحت قيادة عسكرية مشتركة، للأغراض العملياتية، والحكومة المركزية عاملة في تدريبهم وعلى سنغافورة أن تنشئ لواء مشاة، ودورية خفر سواحل لسفننا،كما أراد اسماعيل أيضاً أن تضبط السفارات الماليزية والبعثات الرفيعة في أرجاء العالم نشاط علاقات سنغافورة الخارجية.

أكد كينغ سوي أن اعتراضهم كان للحد من حجم قواتنا المسلحة وأن يكون لهم دور في السيطرة عليها. كان إسماعيل واضحاً تجاه ذلك ولكن رزاق لم يوافق. قال كينغ سوي: إننا لا نستطيع أن ننفق على مؤسسة عسكرية مكلفة بأية حال - 4 كتائب وبعض قوارب الدورية هي أقصى ما نستطيع الإسهام به. بدا رزاق مبتهجاً جداً وقال: إن كينغ سوي ينبغي أن يكون وزير دفاع سنغافورة، ولكن مسألة القيادة الشاملة ظلت غامضة، كما لم يجرِ البحث في الوضع السلمي للقوات السنغافورية بعد «المجابهة». وهذا ما قاد إلى اضطراب فيما بعد.

سألوا ما إذا كان كينغ سوي قد هيأ المسودات. قال: نعم وأطلع رزاق على الأوراق. قرأ رزاق الاتفاقية وقد تجاوز الإعلان، ولكنه تفحص جدول التعديل ملياً. بدا راضياً ثم أعاد الوثائق وطلب أن تُضم المتعلقة بترتيباتنا الدفاعية والمعاهدة الخارجية إلى المسودة الثانية. ثم ناقشوا الجدول الزمني. أراد رزاق أن يتفحص المدعي العام لديه النصوص. اقترح كينغ سوي أننا إذا قدمناها في 6 آب، بعد عودة «التونكو»، ووضعوا أية مقترحات معاكسة أو تعديلات في اليوم التالي، يمكن الوصول إلى اتفاق في 7 آب، ويتم التوقيع على الوثائق في 8 آب، ويتم كل شيء على ما يرام في 9 آب.

أشاروا إلى أن «مينتري بيسارس» من الولايات المالاوية ورئيس وزراء صباح وساراواك ينبغي إعلامهم. قال إسماعيل: إن الأخيرين ينبغي أن ينفصلا عن مستشاريهما البريطانيين،وسيكون من الأفضل دعوتهما إلى كوالا لامبور ـ فحفل استقبال التونكو يمكن أن يوفر ذريعة. سأل كينغ سوي ما إذا كان بالإمكان الاعتماد على أصوات صباح وساراواك. فحسَبَ رزاق حساباته وقال: إنهم لا يتوقعون أية مشكلة.

أثار اسماعيل مسألة الحاجة إلى وقت لطبع الاتفاقية، ومشروع القانون والإعلان، وحث كينغ سوي على اتخاذ كافة الإجراءات بسرعة، ولكن ما تزال هناك عدة عقبات في الطريق: هل سيكون ثمة وقت لدعوة رؤساء وزراء صباح وساراواك إلى كوالا لامبور في 8 آب؟ قد لا يساعد جدول رحلات الطيران على ذلك. وبعد ساعة من المداولات هتف لي كينغ سوي من سنغافورة إلى مرتفعات الكاميرون ليخبرني بالنتيجة بلغة الماندرين، لأن عامل البدالة على الهاتف لا يعرف هذه اللغة،أي أنه اتخذ هذا الإجراء من باب الحذر والحيطة.

في صباح الجمعة: 6 آب، غادرت بالسيارة إلى كوالا لامبور، وقد بقي أولادي وزوجتي في الكاميرون حتى يوم السبت، وهكذا ظن الناس أنني ما زلت هناك. لم يكن كينغ سوي ولا إيدي متأكدين من أن التونكو الذي عاد لم يغير تفكيره،

بحيث يتغير كل شيء. ولكن عندما وصلت إلى كوالا لامبور بعد ظهر ذلك اليوم، كانا هناك مع الوثائق. وبعد أن قرأت تلك الوثائق وصادقت عليها، ذهبت لرؤية رزاق وإسماعيل وقادر يوسف، النائب العام. استمر الاجتماع ساعات وساعات، انتظرت وحدي في «دار سنغافورة» نافد الصبر. وفي ساعة متأخرة من المساء هتف لي إيدي يقول: إن تان سيوسين يطلب تعديلات تتضمن الحصول على ضمانات بأن الحكومة ستُمنح القروض التي يمنحها «صندوق النقد الدولي» و«البنك الدولي» لسنغافورة، وهو تفصيل لا أهمية له، وافقت وشرع إيدي وقادر يوسف في وضع المسودات، وأخيراً قد أنجزنا العمل بعد ساعات طويلة، فقد كان ذلك بعد منتصف الليل. عدنا إلى «دار سنغافورة» ووقع إيدي الوثائق وكان شبه نائم، وسلمني إياها بعد أن تفحصها ملياً. شكرت إيدي وقلت له: «لقد استبعدنا الآن انقلاباً غير دموي». كان انقلاباً ضد الحكومة البريطانية وقنصلها العقيد «هيد»، انقلاب دستوري صمم تحت أنوف البريطانيين، والأوستراليين والنيوزيلانديين الذين كانوا يدافعون عن ماليزيا بقواتهم المسلحة. وبقليل من الانتباه استطعنا أن نفكر بطريقة لتحقيق ما لم يستطع التونكو تحقيقه بما لديه من كادر، لأن الأمر كان يقتضي منتهى السرية وأقصر وقت ممكن، بما في ذلك ثلاث قراءات لمسودة المشروع في جلسة واحدة للبرلمان، بإلحاح شديد، وإلا لما تحقق النجاح أبداً.

كنت أخشى أن يقوم هيد بناءً على نصيحة حكومته باتخاذ إجراءات دستورية استثنائية، احتمالاً، لتحديد حزبنا لو كان لديه وقت لفعل ذلك، ولكن بعد توثيق الوثائق، حتى لو حثّ البريطانيون التونكو وجماعته على عدم تقديم الوثيقة إلى البرلمان، فإنني بنشري للوثائق وإعلان الاستقلال في صحيفة الحكومة،فإن علاقات سنغافورة مع ماليزيا ستتغير بشكل يتعذر تغييره. بات عليّ الآن أن أقنع باقي زملائي بالموافقة. فهتفت لتشين تشي لأطلب منه أن يأتي إلى سنغافورة. وكذلك تحدثت إلى راجا وطلبت منه المجيء، وطلبت منهما ألا يحضرا معاً حتى لا يلفتا الأنظار، وحتى لا يختلفا حول أية ترتيبات مع ماليزيا فضلاً عن القطيعة.

وصل تشين تشي في الصباح الباكر وأطلعته على الوثائق، كان غاضباً، ومنزعجاً. وبعد ذلك وصل راجا، ثم انضم كينغ سوي وجلسنا نتحدث ونتشاور. تأمل تشين تشي وراجا ملياً بالقرار المؤلم الذي يواجههما ثم رفضا التوقيع.

وعند ظهيرة يوم السابع من آب (أغسطس) ذهبت إلى قصر الرئاسة لأرى «التونكو». انتظرت قرابة 30 ـ 40 دقيقة في غرفة الجلوس، فيما كان يتباحث مع بعض المسؤولين لديه في غرفة الطعام ـ كنت أراهم منهمكين في الحديث من خلال الباب الزجاجي. ثم جاء وجلس معي قرابة 40 دقيقة. إذ بدأت الحديث قائلاً: «أمضينا سنوات لنخلق ماليزيا، أمضيت القسم الأعظم من شبابي وأنا أعمل من أجل ماليزيا، من عام 1954 حتى عام 1963، لم نحصل على ماليزيا إلا لفترة تقل عن سنتين. هل نريد حقاً أن ننهي ذلك؟ ألا تعتقد أن من الأحكم أن نعود إلى خطتنا الأصلية، التي أوقفها البريطانيون، اتحاداً أخف وطأة أم اتحاداً كونفيدرالياً؟.

ولكنني عرفت من سماه وجهه أنه اتخذ قراره، قال: «لا، لقد تجاوزت ذلك. لا يوجد طريقة أخرى الآن، لقد اتخذت قراري، أنت تذهب في طريقك، ونحن نذهب في طريقنا. وطالما أنت على صلة بنا سيكون من الصعب أن نكون أصدقاء، لأنكم منغمسون في قضايانا ونحن منغمسون في قضاياكم. غداً عندما لا يكون لك صلة بماليزيا فإننا لن نختلف لا في البرلمان، ولا في الدوائر الانتخابية، بل سنكون أصدقاء ثانية، وسنحتاج بعضنا بعضاً، ولسوف نتعاون».

أنهيت الموضوع، بعد أن كنت أهيئ نفسي لجلسة طويلة، ولكني عندما وجدته مصمماً على فكرة واحدة، قلت له: إن ثمة صعوبة بالنسبة إلى تشين تشي وراجا، وبانغ بون، وجميعهم وزراء من سنغافورة تعيش عائلاتهم في شبه جزيرة ماليزيا. فأخبرني أنني ينبغي أن أحل المشكلة بنفسي. طلبت مساعدته وسألته ما إذا كان سيراهم؟.

أجاب: «لا، هذا غير ضروري».

عدت إلى سنغافورة لأخبر الآخرين بمناقشتنا. كان تشين تشي يجلس على مقعد عند أسفل السلم قرب غرفة الطعام،يكتب شيئاً. وفيما كنت أصعد السلم رأيت أنه رسم خطاً في أسفل قطعة من ورق، كتب على يسارها مناقشات مؤيدة، وعلى يمينها مناقشات ضد الانفصال. إنه أسلوب تشين تشي الأكاديمي الحريص. كان راجا الذي يدخن باستمرار في الخارج ينفث دخانه. سحبت عثمان جانباً وسألته إذا كان سيوقع. كان مالاوياً وسيصبح عضوَ أقليةٍ لو فعل. وقال إنه: ليس لديه صعوبة في التوقيع، ولكنه قلق بشأن الشيوعيين في سنغافورة. وتذكر بعد 25 سنة في مقابلة بمناسبة العيد السنوي لاستقلالنا أنني أكدت له «لا تقلق،هذه مشكلتي وسأعالج الأمر».

بعد أن أخفقت في تحقيق تقدم مع كل من تشين تشي وراجا طوال عدة ساعات قلت لتشين تشي: «لماذا لا ترى التونكو؟ فالرجل الكبير قال: إنه لا يستطيع أن يمسك بالوضع. ومن الأفضل أن تراه لأنني رأيته ووصلت إلى قناعة أن هذا الموضوع تجاوز المناقشة». وافق، وهكذا ذهبت إلى التونكو ثانية بعد ظهر ذلك اليوم وأخبرته أن لدي وزيرين، تشين تشي وراجا، لن يوقعا. وهما متصلبان تجاه ذلك. فعائلتاهما في مالايا وكانا يريدان أن يقابلاه.

كان التونكو حداً. «كلا لا أريد أن أراهما. قل لهما لا شيء نتناقش حوله».

قلت: «لقد أخبرتهما. ولكن ينبغي أن تكتب إليهما على الأقل. عندئذ سيعتبران كلمتك نهائية».

نهض «التونكو» من مقعده وكتب رسالة إلى تشين تشي سلمها لي قائلاً: «خذ، أعطها له. فلا حاجة لمناقشة أي شيء. لقد انتهى الأمر».

فتح التونكو الرسالة وقرأ:

عزيزي تشين تشي

«أكتب إليك لأخبرك أنني أوليت مسألة خلافنا مع سنغافورة جلّ اعتباري. وأجد أن من مصلحة صداقتنا وأمن وسلام ماليزيا ككل، أنه لا يوجد أي طريق آخر مطلقاً. إذا كنت قوياً كفاية وقادراً على ممارسة الضبط الكامل للوضع فقد أؤَخر التصرف، ولكنني لن أفعل، وإذا كنت قادراً على التمسك بالصبر والاعتدال أعتقد أن التسوية السلمية لخلافاتنا بهذه الطريقة هي الأسلوب الوحيد الممكن. أطلب منك بإلحاح أن توافق.

المخلص

تونكو عبد الرحمن»

فيما كنت أغادر المكان. قابلت تان سيوسين. كنت غاضباً وأشعر بالمرارة بسبب قصر نظره وغباوته. فقد قاوم تصنيعنا، وعمل على الانفصال شأنه شأن كبار وجهاء الملايو. كان مصمماً على إزعاجنا بأية وسيلة، وبغض النظر عن كراهيته لي ولكينغ سوي كان يعتقد أن أي تنازل لسنغافورة سيساعد حزبنا PAP على كسب الصينيين في ماليزيا. لم يكن يستطيع أن يرى أنه بدون سنغافورة فإن موقف الصينيين في ماليزيا لا بد أن يضعف.

لا أعتقد أنه فهمني الآن، أو حتى فيما بعد. فقد كان مرتاحاً وسعيداً لأن مركزه على أنه زعيم «لاتحاد المالاويين الصينيين» مضمون وأن مركز هذا الأخير في ماليزيا مضمون، لقد انزاح التهديد من جانب حزبنا، كما انزاح التهديد من حزب PAP «ميثاق التضامن الماليزي». ويذا سيكون «اتحاد المالاويين الصينيين» متفوقاً. ولكن الأمن والتفوق أمران نسبيان في مثل هذه الحالة. فبعد أربع سنوات في أيار 1969، قام المشاغبون في كوالا لامبور بقتل وتشويه مئات

الصينيين وحرق بيوتهم وسياراتهم. وفي عام 1973، عندما توفي إسماعيل، رفّع رئيس الوزراء رزاق حسين عون ليكون نائبه، ورغم ولاء تان للتحالف و«المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو» فقد كان صينياً واكتشف أنه لا يستطيع أن يكون نائباً لرئيس الوزراء. فاستقال عام 1974، مجللاً بالعار والمرارة. لم يفهم أنه خسر عندما عمل بغباوة على طرد سنغافورة من ماليزيا قبل عقد من الزمن.

كتب التونكو في كتابه «نظرة إلى الخلف»: (1977).

> ما نجح (تان سيوسين) في تحقيقه كان أبعد مما تصورت، إذ لم تمارس الحكومة المركزية سلطات مهمة في إدارة الدولة، بل إن سنغافورة وجدت نفسها ملتزمة بالتطوير المالي في ولايات بورنيو بمعدل جوهري جداً. شعرت أننا ما إن تورطنا بحياة سنغافورة اليومية وإدارتها،وضبط الإدارة الماليزية، و إذا كنا غير مستعدين لإعطاء سنغافورة الحق، عندئذ سيكون هجوم لي كيوان يو على ماليزيا مبرراً».

عندما عدت إلى «دار سنغافورة» بعد أن قابلت تان، أعطيت تشين تشي رسالة التونكو، وعندئذ فقد تأكد له ولراجا أننا وصلنا حقاً إلى نقطة الافتراق. ولاختصار المناقشات، أخبرت تشين تشي أنه إذا لم يوافق على الانفصال فلن أستمر به، لأنه قد يشق قيادة حزبنا ويسبب الاضطراب بين أتباعنا في كل من سنغافورة وماليزيا. إذ سأبقى مع قرار الأكثرية بعدم التوقيع والانسحاب، ولكن على تشين تشي وراجا أن يتحملا المسؤولية، وسرعان ما وقّع تشين تشي وتبعه راجا.

لم يكن من غير المعقول أن ينقسم أو يتفرق زملائي الوزراء وفقاً لمكان ولادتهم ونشأتهم. فقد قبل الوزراء السنغافوريون بالانفصال ولكن المالاويين كانوا منزعجين جداً. فتشين تشي ولد ونشأ في تيبينغ، بيريك، والتحق بعائلته التي كان يزورها باستمرار. أما راجا فقد ولد في سيلان، ولكنه نشأ وترعرع في سيريمبان، حيث كان له أقارب وأصدقاء كثيرون، ومن خلاله انخرطوا في حزبنا،

أثناء الانتخابات العامة في نيسان من العام الماضي. وكان أخوه مرشحاً من مرشحي حزبنا وخسر. بالموافقة على الانفصال، كارهين. ابتعد تشين تشي وراجا عن القريبين منهم، والأسوأ من ذلك أنهما شعرا، كما شعرت أننا خنا الزعماء الآخرين، في ميثاق التضامن الماليزي. وبالنسبة لأولئك الذين بقوا في ماليزيا كان الانفصال كارثة لأنه غيّر حساباتهم العرقية، فمع خروج سنغافورة بات تركيب السكان، 40% من الملاويين و 40% من الصينيين و 20% من الآخرين، وأصبح الملاويون أكثرية ثانية. ولم يعد ثمة بارقة من أمل في أن يكسب حزب متعدد الأعراق السلطة دستورياً حتى على المدى البعيد جداً.

كان بانغ بون أيضاً عاطفياً جداً تجاه الانفصال. فقد ولد ودرس في كوالا لامبور، وله جذور عميقة في سيلانغور، وكشأن تشين تشي كان راجا منغمساً بعمق في العمل في «ميثاق التضامن الماليزي». فعندما أخبرته عن الانفصال كان حزيناً جداً. حثه تشين تشي على قبول ما لا يمكن تجنبه، ولكنه أجاب بالرفض المطلق. وكان لي كهون تشو قد ولد ونشأ في بينانغ، وكان من منظمي «ميثاق التضامن الماليزي» في لقائه قبل أسبوعين. وعندما وصل إلى كوالا لامبور في صباح 9 آب صُدم عندما أُخبر أن الميثاق قد انتهى.

كانت مشكلتي التالية أن أعود إلى سنغافورة بدون الاصطدام مع الدبلوماسيين البريطانيين والأوستراليين، والنيوزيلانديين، وأن أجعل باقي الوزراء يوقعون. كانت مسألة جوهرية، وكنت أريد أن أتجنب الانشقاق في المجلس الوزاري. أخبرت جميع الوزراء الذين لم يكونوا موجودين في سنغافورة أن يلتقوا بي في سري تيماسيك. لم يكن الوزراء المولودون في سنغافورة مسرورين أو حزينين، فقد وافقوا على أن هذه هي الطريقة التي يجب أن تتبع،وقاموا بالتوقيع. كان كيم سان مرتاحاً لما حدث، كذلك لم يتأثر كل من نيوك لين وإيدي. فقد كان إيدي من سنغافورة أما نيوك لين فكان من سيرمبان ولكنه أقام في سنغافورة بعد أن تزوج هناك بعد الحرب.

كان الوقت آنذاك عصراً، وكان لدي واحدة من نسختي وثائق الانفصال. كان ستانلي ستيوارت واقفاً إلى جانب طابع وثائق الحكومة وموظفيه. فأعطاهم المجموعة الثانية ثم وضعها ضمن بريد الحكومة غيرالمغلق بحيث تبقى جاهزة للنشر على أنها بيان حكومي خاص في الساعة 10 من يوم الاثنين 9 آب.

في تلك الأثناء رتبت عودة زوجتي تشو والأطفال من مرتفعات الكاميرون إلى كوالا لامبور بعد ظهيرة يوم السبت وأن يغادروا صباحاً إلى سنغافورة، وقررنا أن نمضي الليلة في سري تيماسيك. لأننا سنكون هنا أكثر شعوراً بالأمان إذا ما قام مالاويو UMNO في سنغافورة بأعمال عنف وشغب عندما تصل الأنباء إليهم في اليوم التالي صباحاً.

كنت مشغولاً ذلك المساء، بلقاء لي كاين، القوميسار في الشرطة، لمناقشة الاحتياطات الضرورية التي ينبغي أن تتخذ، وجورج بوغارز للتأكد من أن «الفرع الخاص» لن يتأخر عن أي شغب يقع في أية جهة. كما رأيت ستانلي ستيوارت لتنظيم حضور جميع أمناء السر في البرلمان كي يجتمعوا ويطلعوا على الأمر في اليوم التالي.

كان رزاق يرغب في حضور أعضاء البرلمان من حزبنا (PAP) في جلسة 9 آب للتصويت على مشروعات قوانين. أخبر كل من كينغ سوي وإيدي رزاقاً بأنه لن يحضر أحد من أعضاء حزبنا في المجلس. إذ كان من المؤلم جداً بالنسبة لنا أن نواجه زعماء «ميثاق التضامن الماليزي» الآخرين وقد تركناهم وراءنا. فأعطينا تعلميات إلى 12 من أعضاء حزبنا في البرلمان ممن لم يكونوا وزراء أن يظلوا بعيداً. ثم قمت بحل مشكلة إرسال رسائل مماثلة إلى رؤساء وزراء الكومونولث الثلاثة لإعلامهم بالانفصال، ولماذا لم تكن ثمة وسيلة أخرى. وقد جاء في الرسالة التي بعثت بها إلى أستراليا:

«في الوقت الذي تحل فيه شيفرة هذه الرسالة ستعرف أن التونكو وأنا قد وافقنا وأعلنا معاً أن سنغافورة دولة مستقلة منفصلة. ولكن من أجل تأييدكم القوي للمارسات الديمقراطية في ماليزيا، فإنا بفضل تأييدكم

المعنوي استُبقينا وأعطي لنا الخيار أن نغادر ماليزيا مع البقاء تحت مظلة معاهدة الدفاع البريطانية الماليزية أو أن نواجه العاقبة، وهي على حد تعبير التونكو نفسه اضطراب طائفي وحمام دم، فضلاً عن النتيجة الحتمية غير المعلنة، وهي إما أساليب فاشية تنجح مؤقتاً في الإمساك بالوضع أو نتائج فوضوية في انتصار شيوعي حاسم. تستطيع أن تعتمد علي وعلى زملائي في التأكيد على أن سنغافورة ستظل غير شيوعية طالما نحن في السلطة ومهما كانت التضحيات التي ينبغي أن نقدمها. نريد أن نعمل دوماً وفق شروط مشرفة وصديقة مع أستراليا. ومن دواعي السخرية أنه بسبب اهتمامك الشخصي بي وبزملائي وبما نمثل، فإن مثل هذه النتيجة السيئة قد نجمت. ولكن من أجل اطلاعك سوف تنجم نتائج أكثر كارثية بالنسبة إلينا كلينا».

كانت الشيفرات على أساس قاموسي ومع الوقت الذي شُفّرت فيه هذه كان الوقت بعد الساعة 10 في سنغافورة. أخيراً،كان كل ما عليّ أن أفعله هو أن أنام. وكان هذا صعباً لأنني كنت مغتاظاً، هل أغفلت أية فقرة مهمة ينبغي أن توضح؟.

لم أنظر إلى الأمام لمواجهة مؤيدينا في ماليزيا الذين قد يشعرون أننا تخلينا عنهم، لقد أنعشنا آمال كثير من الناس، وقد يظنون أننا استغليناهم لإبعاد سنغافورة عن مأزق قذر. ولم أكن فخوراً من أجل إعادة رد بهذا الاختلاف التأييد القوي الذي منحني إياه هارولد ويلسون، وروبرت مينزيس وكيث هوليوك ووزرائهم. ولا سيما آرثر بوتوملي. والأهم من كل شيء، خرج المرسوم قبل العاشرة من اليوم التالي.

43. طالق، طالق، طالق (أطلقك)

نهضت في الصباح الباكر يوم 9 آب 1965، بعد ليلة متقطعة، إذ استيقظت عدة مرات لأسجل ملاحظات مستعجلة حول مئات الأشياء كان عليّ القيام بها. كل شيء كان مرتبطاً زمنياً بإعلان الاستقلال في الساعة العاشرة صباحاً عبر الإذاعة. فقررت ألا أقرأ الإعلان شخصياً. إذ كان علي القيام بأشياء أخرى متتابعة بسرعة. أولها أن أعلم موظفي الحكومة في الوزارات «دوائر التابعين إلى كولا لامبور» أنه منذ الآن سيتبعون سلطة سنغافورة، ثم قبل الموعد النهائي بقليل قابلت الدبلوماسيين الذين أمكن جمعهم في وقت قصير لأعلمهم باستقلال سنغافورة، وأطلب منهم الاعتراف من جانب حكوماتهم. لقد كان أمراً مرهقاً عاطفياً.

في الساعة العاشرة نشرت صحيفة الحكومة الإعلانين الموقعين مني ومن التونكو معاً فيما يتعلق بالوثائق المتعلقة بالانفصال. وفي الوقت نفسه أوقفت جميع برامج الإذاعة في سنغافورة من أجل قراءة الإعلان. انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم بأن سنغافورة انفصلت عن ماليزيا وأصبحت الآن مستقلة تضم ملايين البشر.

وما إن أُذيع الإعلان من سنغافورة حتى وقف التونكو ليعلن الانفصال في البرلمان الاتحادي في كوالا لامبور. انعقد المجلس من أجل القراءات الثلاثة لقرار دفع به رزاق لتفعيل وثيقة دستور ماليزيا (تعديل سنغافورة) لعام 1965 على الفور. كنت أخشى تأخيرات غير متوقعة، ولكن التونكو ورفاقه كانوا مصممين على ألا يقف شيء في طريقهم، ولكن في تلك الليلة قام البرلمان ومجلس الشيوخ بالإعلان عن أن يانغ دي بيرتوان أغونغ قد أعطى موافقته الملكية. وأصبحت سنغافورة خارج المملكة.

كان التونكو متلبد الذهن. فقد كان أمامه سبيلان للعمل: اتخاذ عمل قمعي، أو قطع جميع العلاقات مع حكومة دولة سنغافورة: «التي لم تعد تابعة للحكومة المركزية». فالعمل القمعي ضد أقلية، كما قال لن يحل المشكلة لأن بذور الحقد والخوف والكراهية قد نمت في سنغافورة. وقد سعى رزاق بدون أن ينجح للوصول إلى تفاهم مع زعمائها، ولكن ما إن تحل مشكلة حتى تظهر مشكلة أخرى.

عندما وصلنا إلى التصويت، صوت 126 لصالح الانفصال وليس ضده. وقد تغيب جعفر البار عن عمد، وأعلن استقالته في مؤتمر صحفي عقد في مجلس البرلمان، بوصفه أميناً عاماً للمنظمة الوطنية لاتحاد المالايو (UMNO) حتى ينقذ التونكو من الإحراج. كان معارضاً للانفصال بقوة كما قال، لأنه سيحرر سنغافورة من ضبط الحكومة المركزية وسيجعل ماليزيا غير منطقية.

في حديث التونكو إلى الصحافة، بعد خطبته في البرلمان، تعهد «بأن يكون الانفصال على أساس التفاهم بأننا سنتعاون تعاوناً دقيقاً في المسائل المتعلقة بالدفاع والتجارة»، وعندما قابلت الصحفيين بعد ظهر ذلك اليوم في راديو وإذاعة سنغافورة (RTS) رددت بقولي: «سيظل يحتاج أحدنا إلى الآخر ولسوف نتعاون، وهذه هي رغبتي الملحة»، وكنت قد عقدت قبل ذلك مؤتمراً صحفياً تلفزيونياً عند الظهيرة حيث غلبتني عواطفي وتوقفت آلات التصوير لمدة 20 دقيقة إلى أن استعدت نشاطي وسيطرتي على أعصابي واستطعت أن أتابع.

خيّبت آمال كثير من الناس في المالايو، وصباح وساراواك، فقد استجابوا للشعار الذي طرحناه: ماليزيا ماليزية، إنهم يشعرون مثلنا بأننا كنا نريد ماليزيا ماليزية، ولكن بقبول الانفصال فإنني قد خيبت آمالهم. والشعور بالذنب جعلني أنهار. كانت لحظة ألم شديد بالنسبة لي، صحيحٌ أن ما وقع قد وقع ولكنني كنت أشعر بنفسي مذنباً لأنني بعثرت آمال الملايين التي أحييناها. ولكن في الوقت

مقابلة الصحافة صباح يوم انفصال سنغافورة عن ماليزيا، في 9 آب، 1965.

الذي كنت أشعر فيه بأنني مهدم ومضطرب كان هناك احتفال في تشاينا تاون. إذ أشعل التجار المفرقعات والألعاب النارية، ولكن في المدينة نفسها كان العمال قلقين يتوجسون شراً من ظهور اضطرابات عرقية، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر ساد هدوء غريب. فقد ارتحل الناس إلى بيتهم باكراً.

بالنسبة لي كان يوماً مليئاً بالناس الذين كان ينبغي أن أقابلهم، وبالعمل المناط بي. وكان آخر الزائرين أنطوني هيد، الذي جاء بالطائرة من كوالا لامبور لكي يقابلني في تلك الليلة في «سري تيماسيك». بالطبع لم يكن لديه أية تعليمات لأنه لم يكن ثمة وقت. في داخلي كنت متأسفاً لأنني لم أستطع أن أرد له جهوده التي لم تعرف الكلل من أجل المحافظة على ماليزيا، وإخفائي عنه أية إشارة للانفصال الحتمي. ولكن لم يكن أمامي من خيار. فعندما وصلت الأخبار إلى لندن كان هارولد ويلسون في إجازة في جزر سيليس، وكان آرثر بوتوملي، وزير الدولة لشؤون الكومونولث في غرب إفريقية، وقد سافر وزير الخارجية مايكل ستيوارت إلى سيليس لمناقشة ويلسون. وفي 10 آب (أغسطس) تلقيت رسالة من ويلسون عن طريق نائب المستشار الأعلى البريطاني في سنغافورة جاء فيها:

«أردت أن أعلمك أننا قررنا الاعتراف بسنغافورة على أنها دولة مستقلة تماماً، وسنعلن ذلك في صحف الصباح غداً. رأيت رسالتك وأرحب كثيراً بكلماتك الرقيقة. يسرني أن أعلم أنكم تريدون أن تتعاملوا معنا بصداقة. ولا بد أن أقول: إنني كنت محبطاً لأنني لم أُستشر قبل اتخاذ هذه الخطوة المهمة، لأن لها مضامين كثيرة بالطبع بالنسبة إلينا. ونحن نفكر الآن بشكل ملح في هذه المضامين. ولكن يمكنك أن تتأكد أننا نتمنى لكم التوفيق. فأنا مهتم بأن سوكارنو قد يحاول استخدام هذا التطور لمصالحه. إنني متأكد أنك ستوافق على أن نكون جميعاً حريصين على تجنب كل ما من شأنه أن يساعده على الاستفادة من ذلك».

كان قرار ويلسون سريعاً. أما وقد اعترفت بريطانيا باستقلالنا فقد كنت واثقاً أننا لن نجد صعوبة في اكتساب الاعتراف الدولي. فالشعور في الخارج كان منقسماً وفقاً لخطوط الحرب الباردة، فحيث سيعم الفرح في جاكارتا وموسكو وبكين، سيكون هناك خيبة أمل عميقة في بريطانيا وأستراليا ونيوزيلاندة، والولايات المتحدة، والغرب بصورة عامة.

لم يكن رد الفعل الاندونيسي مؤكداً. ففي 9 آب قال سوباندريو، وزير الخارجية: إن الانفصال أظهر أن ماليزيا كانت من صنع الاستعمار البريطاني الجديد، واندونيسيا مستعدة الآن لإقامة علاقات دبلوماسية مع سنغافورة. ولكن في اليوم التالي بعد اجتماع دام 90 دقيقة مع سوكارنو، قال: إن حكومته تجد صعوبة بالاعتراف باستقلال سنغافورة بسبب وجود قواعد عسكرية بريطانية هناك. فلم يعطِ اعترافاً نهائياً، وأشارت مصادر مطلعة أن إندونيسيا ليس لديها اعتراض على القواعد طالما أنها تُستخدم فقط للدفاع عن الجزيرة، وفي هذه الحالة فإن جاكارتا سوف تستبعدها من «يالتحالف» إلى أن يتبلور الموقف. إندونيسيا مستعدة للترحيب بسنغافورة على أنها دولة صديقة إذا استطاعت أن تبرهن على أنها لن تكون جحراً للعدوان من قبل قوى أجنبية.

أجبت بأن سنغافورة بحاجة إلى القواعد البريطانية، إذ أنها لو أغلقت سيخسر 44 ألف عامل أعمالهم، وستصبح الجزيرة مكشوفة بلا دفاع. وفي يوم 17 آب، يوم استقلال إندونيسيا، ألقى سوكارنو خطبة قوية وعنيفة طلب فيها من الولايات المتحدة وبريطانيا الخروج من جنوب شرق آسيا وحذرهما بأن محور جاكارتا وفنوم بينه وهانوي وبيجينغ وبيونغ يانغ سوف يهزم الإمبريالية في المنطقة. وبعد ذلك أمر بوضع اليد على جميع رؤوس الأموال الأمريكية في إندونيسيا. كان يعيش في حالة خطر. فالاقتصاد الإندونيسي كان كاسداً، والتضخم الشديد جعل حياة الناس مستحيلة.

أما ردود فعل المعارضة في سنغافورة فقد كشفت عن عدم نضجها السياسي. فقد قال تحالف سنغافورة: إنه فوجئ بموافقة حزبنا PAP على الانسحاب بدون تفويض جديد من الشعب، لأنه لا يتوافق مع الرغبات التي عبر عنها الشعب في استفتاء 1962 ودعت «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» في سنغافورة إلى انتخابات عامة وقالت: إنهم سيقاتلون من أجل إعادة دمج الدولة في ماليزيا، وكان أسخف ردود الفعل من جانب «باريسان سوسياليس» الذين رفضوا الموافقة على استقلال الجزيرة «الشكلي» على أساس أنه مؤامرة بريطانية للمحافظة على سيطرتهم هناك.

في اليوم التالي على الانفصال اجتمعت أنا وتشين تشي مع ثلاثة من زعماء «ميثاق التضامن الماليزي» في مبنى مجلس الوزراء. كان من أتعس اللقاءات في حياتي. شرحت كيف حدث كل هذا، كانت معنوياتهم هابطة رغم كل ما شرحنا لهم من أسباب. واضطررت أن أخبر الصحافة أنه لما كان من الضروري لنا أن نكون على صواب في سياستنا مع جيراننا فإننا لا نريد لأية حكومة أن تتدخل في شؤوننا السياسية، ولم يعد بوسع حزبنا أن يظل عضواً في الميثاق. كنت عاطفياً عندما قلت:

«ولكن من أجل عدد صغير من الناس، فإن ما عملنا من أجله قد فعل الكثير من الخير بالنسبة إلى ماليزيا، وثبت أقدامها لبضعة قرون على أنها دولة مستقرة ومقتدرة ومتعددة الأعراق... أما القرابة والمشاعر المتبادلة بيننا، فإنها لا تحدد بقرار سياسي».

كان تشين تشي مفعماً بالمرارة والغيظ.

وقد جاء البيان الأكثر تعقلاً وصدقاً حول الانفصال من جانب إسماعيل. إذ تحدث في الأمم المتحدة عندما دعت ماليزيا والأردن وساحل العاج تأييد طلب سنغافورة الانضمام إلى عضوية الأمم المتحدة في 20 أيلول:

«رغم الانفصال فإن هناك وعياً كاملاً لدى قيادتي كل من ماليزيا وسنغافورة أنه مع انفصالهما دستورياً إلى دولتين، فإن هوية مصالحهما والنشاط المتضافر للناس في كل وجه من وجوه الحياة الإنسان

لانجذابهما بحكم الواقع الجغرافي الذي لا مفر منه، وخضوعهما طويلاً لحكم التاريخ كما في العقود الماضية، فقد خلقا هذا الحافز ووفرا التشجيع لكي يعيشا معاً كجارين طيبين. ففي عدد كبير من القضايا المشتركة كنا نتخذ المواقف نفسها، وأن نثمن الأفكار ذاتها. الرابطة الدستورية قد انتهت، ولكن الرابطة الإنسانية تبقى».

كان إسماعيل هو الذي فهمني وتعاطف معي أكثر من الآخرين تجاه ما أردت أن أفعله. ولكن كان في المركز الثالث في السلطة، وحتى لو كان في المركز الأول فأنا أشك فيما إذا كان يستطيع أن يسيطر على الكبار المتطرفين وينفذ سياسة: التخفيض التدريجي لامتيازات المالاويين إلى درجة الوصول إلى مجتمع غير طائفي لجميع الأعراق على قدم المساواة.

ثمة رجل واحد كان يفهم ما يجري ولماذا وهو «أنطوني هيد» ففي 11 آب، بعد يوم واحد من إعلان بريطانيا اعترافها، قال في كوالا لامبور: إن اتفاقية الدفاع والتي بموجبها أقامت بريطانيا قواعد في سنغافورة وماليزيا، يقتضي الآن إعادة النظر فيها وهذه قضية شكلية إذا لم تحدث متغيرات سياسية. كنت أكنّ احتراماً كبيراً لهيد، ولقوته الشخصية، وحكمته وبعد نظره تجاه الرجال والأمم. كان عليه أن يعود لبريطانيا مع أنه لم يمضِ في كوالا لامبور إلا أقل من سنتين. كتبت له رسالة في 14 أيلول:

«أكتب إليك على الرغم من أننا لم نكن نلتقي دوماً حول الحلول لمشكلاتنا في ماليزيا، ولم أعتقد أبداً، كما قلت ذات مرة على الغداء، أنك أحمق فعلى العكس من ذلك، كنت أعلم أنك متبصر جداً بشكل غير عادي وأنك مراقب ذكي، والأكثر من ذلك أنك كنت ممثلاً كفؤاً لحكومة جلالتها».

«آسف لأنك ستترك العمل في كانون الثاني. وسيكون خليفتك بحاجة ماسة إلى صفات الصرامة التي جعلتك من وقت إلى آخر لا تتحمل التونكو.

«هل أستطيع أن أشكرك لمساعدتك في منع التونكو من الإطاحة بي وبحكومتي. لقد كان لدي مصادر أخرى للمعلومات، وكنت أعلم أنك كنت تقوم بأقصى جهدك لجعل حكومتك تحول دون أن يقوم التونكو بما يبدو طبيعياً. ذلك كان ما أراد منه المتطرفون أن يفعله».

ما هي الأسباب الحقيقية التي جعلت التونكو ورزاق وإسماعيل يريدون إبعاد سنغافورة عن ماليزيا؟ لا بد أنهم استخلصوا أنهم إذا سمحوا لنا أن نمارس حقوقنا الدستورية، فسيتعرضون للخسارة على المدى الطويل. «فميثاق التضامن الماليزي» من شأنه أن يلم شمل غير الماليزيين، والأخطر من ذلك كله، أنه فتح في النهاية عداوات على الأرض المالاوية في شبه الجزيرة. فمواقف وسياسات حزبنا قد كسبت الولاء المطلق لزعمائنا المالاويين في سنغافورة، فلم يتذبذبوا أبداً تحت ضغط أعمال الشغب العرقية عام 1964، ولم يستجيبوا إلى الدعوات العرقية أو الدينية أو الثقافية أو إلى المداهنات الاعتيادية لجرهم إلى سيطرة «المنظمة».

كان ذلك جوهر المسألة. فإن زعماء «حزب العمل الشعبي» (PAP) لم يكونوا مثل السياسيين في مالايا. ووزراء سنغافورة لم يكونوا من محبي المتعة ولم يسعوا إلى إغناء أنفسهم. كانت المنظمة (UMNO) قد طورت إلى درجة عالية ممارسة تطويع الوزراء الصينيين أو الهنود في مالايا الذي سبب الإزعاج، ووسعت في غضون سنوات قليلة ممارساتها لتشمل صباح وساراواك. فقد قدم رزاق ذات مرة إلى كينغ سوي 5 آلاف دونم من أفضل أراضي زراعة المطاط كي تزرع ببذور من أفضل الأنواع ذات الإنتاج الوافر من «معهد البحث في شؤون المطاط». وبضحكة محرجة تذرع كينغ سوي بأنه ما كان يعرف ماذا يفعل بها وتملص من ذكر الدافع الحقيقي.

كما لم يكن من السهل أن يتوصل إلى تسوية معنا. رافقت أنا وكينغ ذات مرة «التونكو» وتان سيو سين إلى «مائدة مشتركة» في كوالا لامبور يديرها تجار صينيون أغنياء. هذه «الموائد» كانت أندية للذكور حيث «يُقدم أفخر الطعام من

قبل أفضل المطاعم، وحيث يستطيع الأعضاء وأصدقاؤهم أن يقامروا بلعبة البوكر أو لعبة المهاجونغ الصينية، وحيث تتوفر الفتيات الجميلات والنجمات السينمائيات. تناولنا وجبة طيبة، وعندما لعبوا البوكر بعد ذلك انضممت إليهم. ولكن ما إن وصلت الفتيات حتى ابتعدنا. إذ لا نستطيع أن نكون رهائن للحظ. فإذا بقينا فسنكون بعد ذلك عرضة لضغط من جانب الزعماء الماليزيين. كانوا يعتبروننا شديدين وخطرين ومراوغين في التعامل مثل الشيوعيين، ومتشددين عقائدياً. والأسوأ من ذلك أننا كنا دوماً نتصرف دستورياً وبالتالي كان يصعب التعامل معنا.

لو لم يكن ثمة مجابهة إندونيسية، لما كان التونكو وزملاؤه ليعتمدوا على مساعدة البريطانيين، والأوستراليين وقوات نيوزيلاندة الدفاعية، ولكانت النتيجة مختلفة. ولأن هذه القوى ساعدت على الدفاع عن ماليزيا فإن مجالسها النيابية سيكون دفاعها قوياً لو أن ماليزيا استخدمت أساليب غير دستورية ضد سنغافورة.

كان ذلك ما رآه هارولد ويلسون في الانفصال، الذي كتب عنه في كتابه «الحكومة العمالية 1964 ـ 1970»:

«ولكن ثمة مشكلة جديدة وخطيرة كانت تتفاقم في جنوب شرق آسيا. فقبل ثلاثة أو أربعة أشهر تلقينا تحذيراً أن التونكو عبد الرحمن، رئيس وزراء ماليزيا قد نفذ صبره تجاه زميله في البرلمان لي كيوان يو الزعيم السنغافوري إلى حد أن لي كان معرضاً لخطر الاعتقال والسجن... ولقد أصبح التونكو أكثر غضباً تجاه معارضته الحيوية. قبل بضعة أسابيع من مؤتمر الكومونولث تلقينا أخباراً عن أزمة وشيكة، تتضمن انقلاباً محتملاً ضد هاري لي وزملائه. شعرت من الضروري أن أذهب بعيداً إلى حد أن أجعل التونكو يعرف أن من غير الحكمة بالنسبة له أن يظهر نفسه أمام مؤتمر الكومونولث، نظراً لأن عدداً كبيراً من زملائه ـ وأنا من بينهم ـ

تشو وأنا، ونائب رئيس الوزراء الماليزي إسماعيل عبد الرحمن وزوجته في
سري تيماسك، نيسان 1972، بعد سبع سنوات من الانفصال

سنشعر أن مثل هذا العمل يتعارض كلياً مع ما نؤمن به جميعاً بوصفنا أعضاء في الكومونولث. «لم يحدث شيء بالنتيجة، ولكن في عطلة نهاية الأسبوع من 13 ـ 15 آب تسربت أخبار تفيد أن «الاتحاد» انهار. كانت هناك مشاعر غضب ما بين التونكو ولي. وهذا ما أدى إلى طرد سنغافورة عملياً من الاتحاد. كان لي في حالة يأس، ينفجر بالبكاء أمام آلات التصوير التلفزيوني ويأسف بسبب القطيعة. ومع هذا فقد كان عازماً على الذهاب إلى سنغافورة المستقلة حديثاً... اتخذ القرارات الضرورية والترتيبات اللازمة، وأرسلنا رسائل شديدة اللهجة إلى كلا الزعيمين لتجنب أي عمل يمكن أن يؤدي إلى انفجار العداوات، أو إلى تخريب داخلي. وطالبنا بإجراء محادثات لمراجعة اتفاقية الدفاع البريطانية ـ الماليزية، على أساس عادل بالنسبة إلى جميع الفرقاء المعنيين».

كان ويلسون صديقاً طيباً.

لم يحدث أي شيء،لأن «هيد» أعلم وزيره في 15 أيار 1965، آرثر بوتوملي أنه

«قد يرغب أعضاء «المنظمة» في تسخين الأمور إلى درجة أنهم قد يجدون حجة لما يسمونه «التعامل» وأنا أعني محاصرة لي. أكدت على أن «لي» يتمتع الآن بشهرة دولية، وأنه ما لم يكن ثمة أرضية راسخة للتعامل معه، فإن مثل هذا النهج سيصيب ماليزيا بضرر جسيم. ومع أن التونكو لم يقل شيئاً، فإن لدي شعور أن ثمة خطة في رؤوسهم».

في 17 أيار، أرسلت مذكرة إلى «مكتب علاقات الكومونولث» تفيد بأن رئيس الوزراء قد قرأ البرقية، ووضع خطاً تحت الجملة الأخيرة: «إذا كانت هناك مؤامرة فآمل أن يتأكد التونكو أن هذا سيعني تقويماً مؤلماً لنا وله».

في الأول من حزيران هتف هيد قائلاً: إنه سأل التونكو ما إذا كان ما يزال يستطيع التعامل مع لي كيوان يو وأن يحقق شيئاً من الانفراج.

أضرب الكرة في ملعب قرب تشيكرز مع رئيس وزراء بريطانيا، هارولد ويلسون، نيسان 1966.

«قال التونكو: لا، فقد كان مصمماً على ألا يتعامل ثانية مع لي كيوان يو، الذي لا يثق به، ويشعر بخيبة الأمل تماماً تجاهه. قلت: كيف سينتهي كل هذا، فأجاب التونكو: «أعرف واجبي ولن أتردد في القيام به».

«بدا هذا أمراً مشؤوماً لذا وجدت أنها اللحظة المناسبة للتعمق والقول إن الحكومة البريطانية كانت قلقة للغاية بسبب ما سمعته عن المناقشة في الصحف حول وضع لي كيوان يو على الهامش. هل كان التونكو يشير إلى هذا؟ قال: إنه كان يقصد ذلك.

«وقلت: إذا كان لي كيوان يو قد وُضع جانباً لأي سبب خلاف النشاطات الغادرة،فإن هذا سيصدم ويحرج الحكومة البريطانية وسيكون له بلا شك آثار عريضة بعيدة المدى لدى الرأي العام العالمي.

عندما قلت ذلك ظننت أن مثل هذه الخطوة، إذا لم تتخذ لسبب معقول، من شأنها أن تثير مراجعة جدية للموقف البريطاني تجاه ماليزيا. فأجاب «حسناً إذن، سأقيم سلاماً مع إندونيسيا»...

«وبعد ساعة رأيت التونكو، وقد جاء لي كيوان يو إلى بيتي. وجدته في وضع حساس جداً. أخبرته أنني كنت شديد القلق تجاه مجرى الأحداث الحالي. يبدو لي أنه إذا لم تتخذ مبادرة تجاه الوضع الحالي فهذا سيقود إلى اتجاهين. أحدهما تفاقم الخصومة السياسية والمجابهة التي تقود إلى تفاقم التوتر الطائفي والنزاع، والثاني يمكن أن يؤدي إلى سجن «لي». شعرت أنه لا بد من إيجاد طريقة لتجنب استمرار الاتجاه الحاضر ونتائجه التي تبدو حتمية. قال «لي» إن الوقت قد حان للقتال من أجل ماليزيا لا يسيطر عليها المالاويون. وهذا،في رأيه،لماذا أوجد معارضة جديدة وإذا قررت الحكومة الاتحادية وضعه فسيرحب بذلك لأن هذا سيعزز موقفه.

«قال لي: إن وقت الصبر والتأخير قد ولى وهو على أية حال قد سار بعيداً لتبني نهجاً كهذا. هناك لسوء الحظ الحقيقة والقوة في جواب لي...

«بدون ذلك إن وجهة نظري أننا كنا نجابه الآن أزمة خطيرة. ما لم يحدث شيء ما لتخفيف حرارة مجرى الأحداث الحالي الذي نتبعه الآن أعتقد أننا سنواجه في النهاية مشكلة خطيرة».

«إذا اعتقل لي، فلن يكون ذلك مقبولاً في سنغافورة، قد يكون لدى التونكو مؤشرات كثيرة، ولكن في رأينا ثمة خطر كبير من اضطراب خطير هناك، يمكن أن يؤثر في أراضي بورنيو. وإذا ما تدهور الوضع بعد اعتقال لي إلى حد استدعاء القوات البريطانية للتدخل في سنغافورة، فسيكون من الصعب تفهم وتأييد الرأي العام البريطاني».

وفي 4 حزيران كتب هيد تقريراً عن لقائه مع التونكو جاء فيه:

«إذا قرأنا ما بين السطور يصبح من الواضح أن التونكو طلب من جماعته أن تبرر تحقيقات ليرى ما إذا كان هناك أية فرصة لإزاحة «لي» من قيادة حزب العمل الشعبي PAP والإتيان بقائد بديل بارز للحزب يحل محله، ولكن لي واع لذلك وقد أخبرني به. وقلت للتونكو ثمة أمل ضئيل في هذه المناورة، عندئذ قال: أخبر حكومتك بألا تقلق، هذا وضع داخلي وعليّ أن أسويه، وينبغي ألا تتدخل في شؤوننا الداخلية. لقد فعل الأمريكيون ذلك فانظر أي خطأ قد ارتكبوا».

وفي 5 حزيران تلقى هيد برقية:

«اطلع رئيس الوزراء على البرقية رقم 960 بتاريخ الأول من حزيران. وكتب تعليقين:

1- هل ينبغي أن أرسل برقية إلى التونكو؟

2- هل يستطيع المفوض السامي أن يقترح على «لي» أن يختفي (يسافر إلى الخارج) لمدة أسبوع أو اثنين . لا نريده أن ينضم الى المؤتمر .(هارولد ويلسون)

بعد ذلك حدثت بضعة تطورات جديدة كي يكتب عنها هيد. كان التونكو في لندن وكان الرزاق يتحدث بهدوء مع كينغ سوي حول «إخراج» سنغافورة.

وبعد فترة قصيرة من الانفصال في 21 أيلول، أرسل جورج تومسون، وزير شؤون الكومونولث رسالة إلى لورد كارادون (هيوفوت) ممثل المملكة المتحدة في الأمم المتحدة يقول فيها:

«تعليقنا العام أنه مهما بدا «لي» استفزازياً من وقت لآخر.. مع هذا فإن الانفصال الحالي والتوتر الحاصل يمكن تجنبهما إذا ما أظهر التونكو والمالاويون بعض المرونة المعقولة في علاقتهم مع لي وسنغافورة».

لم يكن تومسون، رجل الأسكتلندي، يفهم عقلية المالاويين، كذلك لم أكن أفهمهما في البداية. لم أكن أعرف مدى عمق شكوكهم في الأعراق المهاجرة، ولاسيما الصينيين، ومخاوفهم من أن يسيطر عليهم، كانوا يهتمون كلياً بالسلطة الرسمية، ولاسيما الشرطة والجيش، وأية تسوية معهم يجب أن تتم بشروطهم.

قال التونكو في مقابلة أجريت عام 1982 مع باحث بريطاني: إنه لا يستطيع أن يتحمل أي تحذير من ويلسون، ولكنه أقرّ بأنه كان تحت ضغط شديد كي لا يقوم باعتقالي، وأضاف قائلاً:

«ليس من الحكمة اعتقال لي كيوان يو، لأن الصينيين في هذا الجزء من العالم، يتعاطفون معه لأنه صيني، لا أريد إثارة المتاعب بسببه، فقط من أجل سنغافورة. إذا كان لديك رجل عليلة فالأفضل أن تقطعها، وهذا ما فعلته. كنت أعلم أن لي كوان يو سيكون أفضل رجل يدير حكومة سنغافورة... فطموحاته لا تعرف حدوداً (في ماليزيا)».

كان هناك اعتبارات أخرى، لو بقيت في ماليزيا فإن لجنة التحقيق في أحداث العنف العرقية التي جرت عام 1964 سوف تسمح باستمرار أدلة تضر بكل من جعفر ألبار ومنظمة UMNO والتي ستلقى اهتماماً شعبياً كبيراً. ثم تكون

قضية الطعن والتشهير ضد ألبار ومحرري جريدة «أوتوسان ميلانو»، حيث سيجري تحقيق حول جميع المقاطع المثيرة للفتن والقلاقل التي نشروها ضدي، وهذا يعني تعرية فاضحة لزعماء UMNO، وأساليبهم في إثارة الفتن العرقية.

كان حل التونكو لجميع هذه المشكلات هو الانفصال، إذ ينبغي إخراج سنغافورة من ماليزيا وهو سوف يسيطر على سنغافورة من خلال الإمداد بالمياه من جوهور وبوسائل أخرى للضغط. وقد أُخبر «هيد» في 9 آب: «إذا كانت سياسة سنغافورة الخارجية معادية لمصالح ماليزيا، فإننا نستطيع دوماً أن نمارس الضغط بتهديدهم بقطع المياه عنهم من جوهور»، وعلّق هيد: «سيكون هذا افتراضاً مروّعاً لكيفية تنسيق السياسة الخارجية».

وفي 9 آب أيضاً أخبر التونكو توم كريتشيلي، المفوض السامي الأوسترالي: «يدنا هي العليا وعلى سنغافورة أن تشاورنا عند التعامل مع الحكومات الأجنبية».

ظن التونكو ورزاق أنهما يستطيعان أن يضعفا قوات سنغافورة ويحتلان أرضاً، وإذا اقتضى الأمر أن يقطعا عنا إمدادات المياه، كما اعتقدا أن سنغافورة لا تستطيع أن تعتمد على نفسها، أما غزالي بن شافي الوزير الدائم للشؤون الخارجية فقال بعد الانفصال مباشرة: إنه بعد سنوات قليلة من الانفصال سنكون في أوضاع شائكة وستعود زاحفة ـ هذه المرة بشروط ماليزيا.

لا، طالما أستطيع أن أعالج الأمور، لم يكن في نية شعب سنغافورة العودة بعد ما عاناه طوال سنتين من الاندماج مع ماليزيا، من تفرقة طائفية ورعب. من المؤكد أن كينغ سوي وأنا،نتحمل المسؤولية مباشرة عن قبول هذا الانفصال عن أرضنا الكبرى، وما كنا لنستسلم. فالشعب يشاركنا مشاعرنا، وقد كان مستعداً للقيام بكل ما يحتاج الأمر من أجل إنجاح استقلال سنغافورة، لم أكن أعرف أنني سأقضي بقية حياتي لا من أجل أن تنجح سنغافورة فقط،بل وأن تنتعش وتزدهر.

جدول تسلسل الأحداث

16أيلول 1923	ولد لي كيوان يو في سنغافورة
1936 ـ 1939، 1940 ـ 1942	درس في معهد رافيلز وكلية رافيلز.
15شباط 1942	احتلت اليابان سنغافورة
أيلول 1945	عاد البريطانيون إلى سنغافورة
1946 ـ 50	درس في كيمبريدج ولندن
كانون الأول 1947	تزوج من كوا هيوك تشو في انكلترة (وأبقيا ذلك سراً)
حزيران 1948	إعلان حالة طوارئ في مالايا وسنغافورة. الحزب الشيوعي الملاوي بات يعمل سراً.
آب 1950	عودة إلى سنغافورة
أيلول 1950	تزوج من كوا جيوك تشو ثانية في سنغافورة
1950 ـ 1959	مارس المحاماة، وعمل مستشاراً قانونياً لعدة نقابات
تشرين الثاني 1954	تدشين حزب العمل الشعبي (PAP)
نيسان 1955	انتخب عضواً في الجمعية التشريعية بموجب دستور ريندل الجديد. فاز الحزب بثلاثة مقاعد. أصبح لي كيوان يو زعيماً للمعارضة
أيار 1956	عضو في «البعثة الدستورية الأولى لجميع الأحزاب» في لندن، بقيادة رئيس الوزراء ديفيد مارشال. بعد أن أخفقت المباحثات. استقال مارشال. أصبح ليم يوهوك رئيساً للوزراء
تشرين الأول 1956	اعتقال وسجن زعماء الجبهة الشيوعية

16أيلول 1923	ولد لي كيوان يو في سنغافورة
1936 ـ 1939، 1940 ـ 1942	درس في معهد رافيلز وكلية رافيلز.
15شباط 1942	احتلت اليابان سنغافورة
أيلول 1945	عاد البريطانيون إلى سنغافورة
كانون الأول 1947	تزوج من كوا هيوك تشو في انكلترة (وأبقيا ذلك سراً)
حزيران 1948	إعلان حالة طوارئ في مالايا وسنغافورة. الحزب الشيوعي الملاوي بات يعمل سراً.
آب 1950	عودة إلى سنغافورة
أيلول 1950	تزوج من كوا جيوك تشو ثانية في سنغافورة
1950 ـ 1959	مارس المحاماة، وعمل مستشاراً قانونياً لعدة نقابات
تشرين الثاني 1954	تدشين حزب العمل الشعبي (PAP)
نيسان 1955	انتخب عضواً في الجمعية التشريعية بموجب دستور ريندل الجديد. فاز الحزب بثلاثة مقاعد. أصبح لي كيوان يو زعيماً للمعارضة
أيار 1956	عضو في «البعثة الدستورية الأولى لجميع الأحزاب» فى لندن، بقيادة رئيس الوزراء ديفيد مارشال. بعد أن أخفقت المباحثات. استقال مارشال. أصبح ليم يوهوك رئيساً للوزراء
تشرين الأول 1956	اعتقال وسجن زعماء الجبهة الشيوعية المتحدة، بمن فيهم ليم تشين سيونغ ,فونغ سوي سوان وديفان نير.

آذار 1957	عضو البعثة الدستورية لجميع الأحزاب إلى لندن، برئاسة ليم يوهوك. اتفاقية حول الحكم الذاتي.
31 آب 1957	استقلال «اتحاد مالايا»
كانون الأول 1957	فاز حزب العمل الشعبي بـ 13 مقعداً في انتخابات «مجلس المدينة»
آذار 1958	أول لقاء من 4 لقاءات مع الزعيم الشيوعي المتحفي فانغ شوانغ بي (بلين)
أيار 1958	عضو «البعثة الدستورية الثالثة لجميع الأحزاب» إلى لندن. وضع دستور للحكم الذاتي في سنغافورة.
أيار 1959	حزبنا يكسب 43 مقعداً من 51 مقعداً في الانتخابات العامة بموجب الدستور الجديد
4 حزيران 1959	زعماء الجبهة الشيوعية المتحدة ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سوان وديفان نير يتحررون من السجن.
5 حزيران 1959	رؤساء الوزراء الذين أدوا اليمين في سنغافورة ذات الحكم الذاتي.
شباط 1960	تأسيس «هيئة الإسكان والتنمية» مع ليم كيم سان رئيساً. بداية برنامج مكثف للإسكان الشعبي.
تموز 1960	تشكيل اتحاد شعبي لحشد تأييد أساسي لمجابهة الشيوعيين.
أيار 1960	التونكو يدعو إلى تعاون سياسي واقتصادي أوسع بين مالايا وسنغافورة ومناطق بورنيو

تموز 1961	حزبنا يفوز بالتصويت على الثقة في «الجمعية التشريعية».
آب 1961	13 من الموالين للشيوعية في حزبنا ينشقون لتشكيل حزب «باريسان سوسياليس»
أيلول 1961	الإدلاء بسلسلة من الأحاديث الإذاعية للكشف عن مؤامر شيوعية والحض على الإندماج مع ماليزيا.
أيلول 1962	صوّت السنغافوريون للاندماج مع ماليزيافي استفتاء.
شباط 1963	«عملية غولد ستور»: اعتقال الشيوعيين ومؤيديهم.
31 آب 1963	سنغافورة أعلنت استقلالها، قُدماً من تشكيل ماليزيا
16أيلول 1963	قيام دولة ماليزيا التي تتألف من مالايا وسنغافورة وساراواك وصباح. صعّدت اندونيسيا «المجابهة» ضد ماليزيا.
21 أيلول 1963	ربح حزبنا الانتخابات العامة في سنغافورة. خسرت «المنظمة الوطنية للمالاويين المتحدين» (UMNO) جميع الدوائر الانتخابية ذات الأغلبية المالاوية أمام حزبنا.
آذار 1964	ناضل تسعة مرشحين من أعضاء حزبنا في البرلمان في الانتخابات العامة، ولكنهم لم يكسبوا إلا مقعداً واحداً. زادت الصعوبات مع الحكومة الاتحادية.

12تموز 1964	«المنظمة» رعت مؤتمراً لـ 123 مالاوياً ومسلماً، قام الأمين العام «للمنظمة» جعفر ألبار بتحريض المالاويين ضدLKY
21 تموز 1964	انفجار ثان للعنف الطائفي
ك 2 ـ شباط 1965	مناقشات غير ناجحة بين LKY والتونكو من أجل «إعادة ترتيبات» مع ماليزيا.
أيار 1965	حزبنا يشكل «ميثاق تضامن ماليزيا» لتشجيع «ماليزيا ماليزية». دعت المنظمة إلى اعتقال أنصار LKY
تموز 1965	«التونكو» يقرر في لندن أن سنغافورة ينبغي أن تنفصل عن ماليزيا
9 آب 1965	انفصال سنغافورة عن ماليزيا

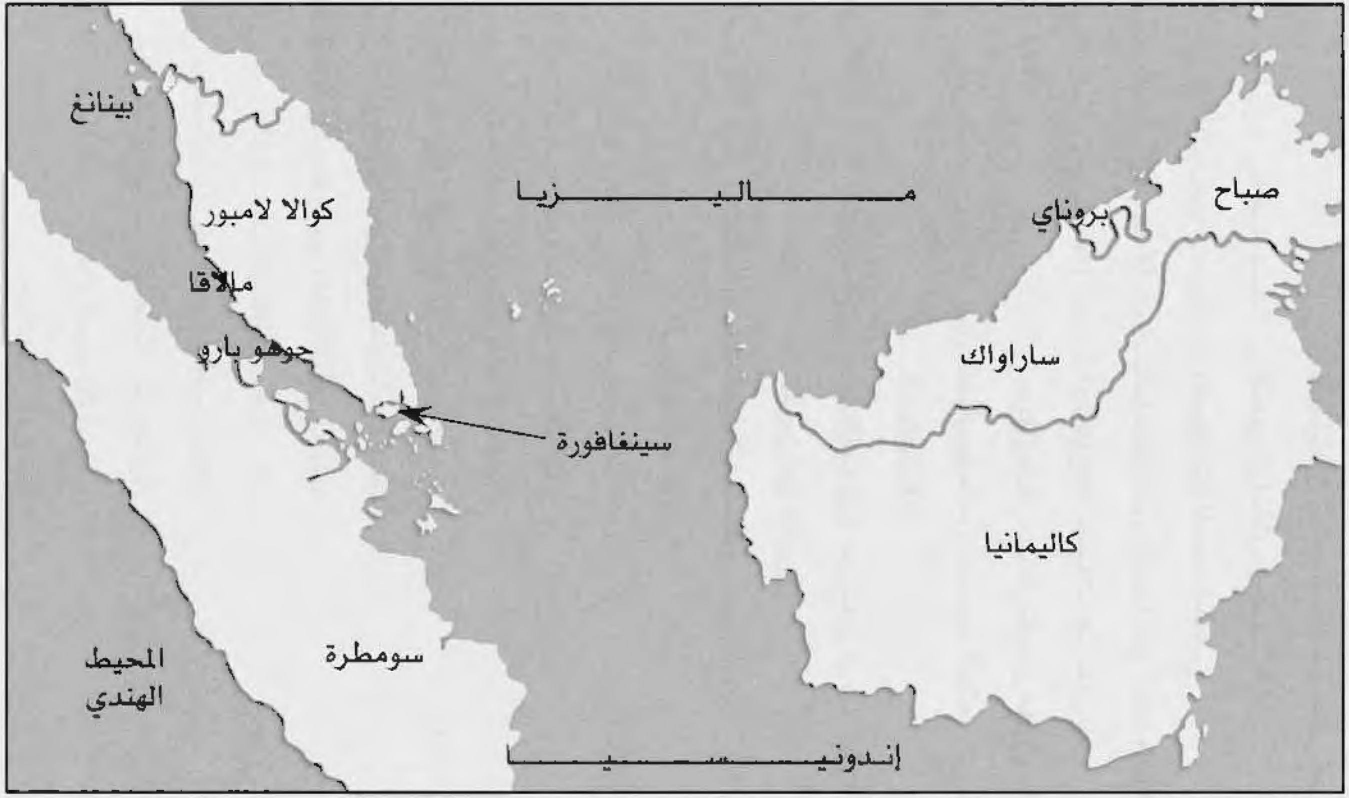

كنا نعيش في جزيرة صينية في بحر مالايو. كيف نستطيع أن ننجو في مثل هذه البيئة المعادية؟

عن المؤلف وذكرياته

كلمات تقدير للمؤلف

"لي كيوان يو واحد من ألمع وأقدر الرجال الذين قابلتهم. قصة سنغافورة ينبغي أن تُقرأ من قبل المهتمين بقصة نجاح آسيوية حقيقية. نتعلم من هذا الكتاب أيضاً الكثير عن تفكير أحد رجال الدولة المثاليين في هذا القرن".

- الرئيس الأمريكي جورج بوش ١٩٨٩- ١٩٩٣

"عندما كنت في السلطة قرأت وحللت كل خطبة من خطب هاري. لديه طريقة لاختراق ضباب الدعاية والتعبير بوضوح نادر عن قضايا عصرنا وطريقة معالجتها. لم يعرف الخطأ أبداً..."

- مرغريت ثاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا ١٩٧٩-١٩٩٠

لي كيوان واحد من الشخصيات المتطورة في آسيا، وهذا الكتاب ينصف إنجازاته الاستثنائية. بوصفه للبواعث والمفاهيم التي شجعت أداءه وشرح تصرفات معينة، كان لا بد أن يثير عدداً كبيراً من الخصوم. وإذا كان أحدهم يتفق معه أم لا فإنه لا بد أن يتعلم الكثير".

- د. هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكي ١٩٧٣-١٩٧٧

"صريح، حسن الاطلاع، مقتدر ولامع الذكاء: هذه الصفات تفسر لماذا قدّر زعماء في جميع أرجاء العالم لي كيوان يو. وهذه الصفات تنطبق على سيرته الذاتية. تستطيع أن تطلع على القضية الرائعة لسنغافورة من هذا الكتاب، وكيف تفكر في السلطة والسياسة في العالم، وكيف تحل المشكلات الدقيقة، وكيف تقود شعباً. كتاب غني كتبه رجل غير عادي".

- جورج شولتز، وزير الخارجية الأمريكي ١٩٨٢-١٩٨٩

"مذكرات تستوفى كمادة ممتازة، أفضل بكثير من السير الذاتية العادية، المليئة بالمغالطة. معالجة الأحداث متجددة. لا أحد يستطيع أن يتهمك بالظلم تجاه خصومك. لقد تمتعت بقراءتها بشدة".

. د. جوه كينغ سوي، نائب رئيس وزراء سنغافورة ١٩٧٣-١٩٨٤

"في السنوات الكثيرة التي عرفته خلالها أصبح رئيس الوزراء لي كيوان يو صديقاً غالياً ومستشاراً. تصميمه ورؤيته وطاقته تركت انطباعاً عميقاً في سنغافورة، وجعلتها قوة سياسية واقتصادية يتسع نفوذها إلى ما هو أبعد كثيراً من منطقتها. ليس لي كيوان يو مجرد شخصية سياسية متميزة، بل هو مفكر عميق. لديه الكثير مما يقوله فيما نحن نوجه مسيرتنا نحو المستقبل. آمل أن تحظى مذكراته وأفكاره باستقبال شعبي واسع"

. هيلموت كول، مستشار ألمانيا منذ ١٩٩٢

"لي كيوان يو هو رجل دولة خلق أمة ناجحة. كان معروفاً لدى الجميع. حقق أشياء مستحيلة ومذكراته تقص علينا الحقيقة".

. وليام ريس موغ، رئيس تحرير تايمز اللندنية ١٩٦٧-١٩٨١

"لي كيوان يو إنسان رائع نظراً لإدراكه للتكوين السياسي والاقتصادي للعالم. استفاد كثير من الزعماء الأمريكيين والأوروبيين من حكمته، ولا سيما تقديره للصين كقوة عالمية ولتحليله وشرحه للقيم الآسيوية".

. هيلموت شميدث، المستشار الألماني ١٩٧٤-١٩٨٢

"أن تنهض أمة من عتبة الوجود إلى واحد من أعلى مستويات المعيشة في العالم في ٣٠ سنة ليس بالإنجاز العادي. أساس هذا النجاح يكمن في عبقرية رجل واحد، هو السيد لي كيوان يو... لقد حول مدينة إلى دولة... جمع السيد لي حوله ألمع العقول، محولاً أدق المعايير داخل نظام الحكم. في ظل قيادته، مكنت أولوية المصلحة العامة، وتقديس التربية والعمل والادخار والقدرة على

التنبؤ بحاجات المدينة، سنغافورة من أن تأخذ بما أسميه "الطرق القصيرة نحو التقدم".

من خلال هذه المذكرات سيكتسب القارئ رؤية عميقة لشخصية سنغافورة المتميزة. وسيكتشف التناقض ما بين الشرق والغرب، ما بين أوروبا وآسيا.

تمكين الأفراد من تطوير العبقرية الخاصة لكل من حضارات سنغافورة: الصينية، والمالاوية، والهندية، والأوروبية، هو بالتأكيد أحد التحديات التي تواجهنا على النطاق العالمي... أليس التطور والسلام بين الأمم يقوم على هذا المشروع؟".

- جاك شيراك، رئيس فرنسا منذ ١٩٩٥

"رئيس الوزراء لي كيوان يو هو أحد الشخصيات المحورية في التاريخ الحديث لجنوب شرق آسيا. صاغت أعماله مجرى الأحداث في هذه المنطقة. رؤيته وأفكاره تستمر في إغناء الجدل الفكري ونفوذ صانعي السياسة في العالم أجمع. هذا العمل المشتمل على بذور التطور في المستقبل وصف لا يقدر بثمن لتاريخ سنغافورة والمنطقة".

- بريم تينسيلا فوندا، رئيس وزراء تاي، ١٩٨٠-١٩٨٨

"هذا تاريخ شخصي لرجل بنى لوحده تقريباً دولة كبيرة من جزيرة صغيرة... هذا أول كتاب في العالم عن كيفية بناء أمة. كان السيد لي أيضاً صديقاً عظيماً ومراقباً ذكياً لشؤون اليابان. سوف يتعلم القراء اليابانيون من هذا الكتاب صورتهم الخاصة، بالإضافة إلى صورة مستقبلهم من خلال العينين الثابتتين لهذا الزعيم السياسي العظيم".

- كيتشي ميازادا، رئيس وزراء اليابان، ١٩٩١-١٩٩٣، وزير المالية منذ تموز ١٩٩٨

"تقدم لنا هذه المذكرات رؤية فريدة لتاريخ سنغافورة الحديثة وتفكير أحد الزعماء البارزين في القرن العشرين. أنا متأكد أن كل من يقرأها سوف يتمتع بها بدرجة كبيرة".

- طوني بلير، رئيس وزراء بريطانيا منذ ١٩٩٧

"يحظى دوماً بإصغاء دقيق في أوساط الزعماء الغربيين. وهذا الكتاب يبين لنا لماذا".

- جيمس كاهلان، رئيس وزراء بريطانيا، ١٩٧٦-١٩٧٩

"كان هاري لي وما يزال واحداً من أبرز الزعماء المعروفين في النصف الثاني من القرن الماضي. كان محظوظاً بتأييد مجموعة من الوزراء من ذوي المقدرة الفائقة ممن يشرفون حكومة أية دولة كبرى. كتاريخ معاصر لا يوجد نظير لقصة سنغافورة .... من المستحيل وضع الكتاب جانباً. إنه قصة رائدة لرجل وبلد".

- مالكوم فريزر، رئيس وزراء أستراليا ١٩٧٥-١٩٨٣

"هذه سيرة ذاتية رائعة بأي مقياس ... متميزة بوضوحها وعمقها وتعبيرها وكذلك بعمق ما تناولته. أحكامه على أصحاب المراكز العليا الذين تعامل معهم في أثناء فترة حكمه الطويلة، ولا سيما رئيس وزراء بريطانيا والرؤساء الأمريكيين، رائعة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى اتصالاته الأولى بالصين".

- إدوارد هيث، رئيس وزراء بريطانيا، ١٩٧٠-١٩٧٤

"رؤية لي حكم واستراتيجية حاذقة حولت سنغافورة من مركز تجاري إلى الدولة المزدهرة الناجحة اليوم والتي يحترمها الآخرون. إن مذكراته بالنسبة إلى المهتمين بالسياسة والتنمية الاقتصادية تستحق القراءة".

. بيرسي كاردوك: مستشار السياسة الخارجية لرئيس وزراء بريطانيا، ١٩٨٤-١٩٩٢

"يعطي ذكاؤه النافذ، بجمعه الأفضل في التقاليد الصينية والبريطانية، البراغماتية السياسية مضاء حاداً جعل من سنغافورة المدينة - الدولة نموذجاً يتجاوز آسيا بعيداً. تمدنا المذكرات بمنجم من الحكمة والمعلومات يجدر بالسياسيين أن يحصلوا عليه".

- دينيس هيلاري، المستشار البريطاني للخزانة ١٩٧٤-١٩٧٩

"هذه قصة رجل وقصة بلاده. عاد إليها عندما كانت بقية إمبراطورية. كلاهما الآن محوران جيوسياسيان حاسمان. إنهما الآن لا يفترقان بسبب قدرته الفريدة على جذب أفضل ما في الحضارتين الشرقية والغربية، ويسلم بالموضوعية بدلاً من المبدئية، ويخلق دولة على شاكلته، وبهذا فإنه يُبجل بدلاً من أن يزدري... تهت في روعة هذا الرجل وأعماله. هذه الكتابات اقتصادية ومتواضعة وصريحة مثله. تعلم من التاريخ كيف يحقق ذلك. إنه لأمر حسن أنه شاركنا الدرب".

- ديفيد لانغ، رئيس وزراء نيوزيلانده ١٩٨٤-١٩٨٩

"كيف تحول أزمة إلى فائدة إيجابية هي ما يميز رجل الدولة المقتدر عن رجل الدولة العادي. يستطيع كل امرئ أن يتعلم من هذه المذكرات المثيرة جداً للاهتمام".

- سيدهي سافيتسيلا، وزير خارجية تاي، ١٩٨٠-١٩٩٠

"الفترة تزيد على نصف قرن لم يعمل لي كيوان يو على صياغة تاريخ سنغافورة فحسب، بل وتاريخ كل من سكن في هذه المنطقة. هذا عمل متبصر، صارم، عنيد وذكي كما كنا نأمل من مؤلفه المتميز".

- بول كيتينغ، رئيس وزراء أستراليا في الفترة ما بين ١٩٩١-١٩٩٦

"لي كيوان يو أحد رجال الدولة العظام في حوض الباسيفيكي، كتابه مذكرات رائعة تحمل طابع التحدي. قراءة مهمة للمؤيدين وغير المؤيدين".

- جيرالد فورد، الرئيس الأمريكي ١٩٧٤-١٩٧٧

لا بد لكل من يرغب في فهم سنغافورة وآسيا أن يقرأ مذكرات لي كيوان يو. إنه يؤكد بشكل صائب أنه لا يوجد كتاب حول كيفية بناء دولة أمة، ولكن قصته تبين كيف كوّن دولة جديدة في جزيرة سنغافورة الصغيرة. الكتاب غني

بالنظرات الثاقبة حول المؤلف نفسه وزعماء العالم الآخرين الذين سعوا إلى مشورته حول قضايا الوقت الحاضر المهمة".

- جيمس بولغر، رئيس وزراء نيوزيلانده، ١٩٩٠-١٩٩٧

"سواء أكان المرء يتفق مع جميع المواقف، والقرارات والتحليلات لدى المؤلف أم لا، فإن هذا الكتاب ضروري لكل من يريد أن يفهم القاعدة الفكرية لآسيا".

- بوب هوك، رئيس وزراء أستراليا ١٩٨٣-١٩٩١

"لعله هو ود. هنري كيسنجر رجلا الدولة العالميان الوحيدان اللذان يجدان - بعد أن غادرا السلطة- باباً مفتوحاً إلى كل رئيس دولة أو حكومة في أي مكان في العالم. تغطي مذكراته حياة مليئة بالأحداث والإنجازات منذ سقوط سنغافورة عام ١٩٤٢ وحتى مشكلات عالم اليوم المختلف جداً. حياة رائعة لرجل رائع".

- لورد كارينغتون، وزير خارجية بريطانيا وشؤون الكومونولث، ١٩٧٩-١٩٨٢

"... مذكراته المفعمة بأمثلة عن حصافته وحكمته، عنصر أساسي للتاريخ الواضح لهذه الدولة المتفردة والمهمة. لا بد من قراءتها من قبل أي دارس للشؤون الدولية".

- جيمس آ. بيكر الثالث، وزير خارجية أمريكا، ١٩٨٩-١٩٩٢

"لي كيوان يو أحد السياسيين البارزين في عصرنا. حقق انتصاراً مشهوداً على الشيوعيين في سنغافورة وأوجد أبرز مدينة - دولة منذ أثينا".

- فيليب مور، نائب المفوض السامي البريطاني في سنغافورة ١٩٦٣-١٩٦٥

"... روايته عن نصف قرن مضطرب في آسيا .. مؤرخة بشكل متسلسل بأسلوب حاد يعتبر من سماته، وكثير من أحكامه ستبدو مثيرة للجدل بل وانفجارية".

- تشارلز بويل، أمين السر الخاص لرئيس وزراء بريطانيا ١٩٨٤-١٩٩١

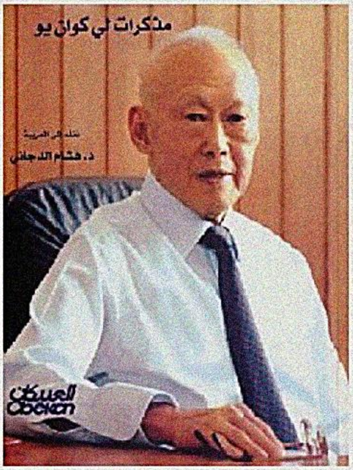

"قصة سنغافورة" أول مجلد عن مذكرات لي كيوان يو، الرجل الذي زرع هذه الجزيرة بقوة في خريطة العالم. في تفصيل عميق يسترجع "لي" المعارك ضد الاستعماريين والشيوعيين والطائفيين التي قادت إلى استقلال سنغافورة.

بمهارة سياسية كاملة قام بمجابهة خصوم، أو باستخدام مساعدتهم أحياناً ضد آخرين يعارضونه، في متابعة مخلصة لمصالح سنغافورة.

نقرأ كيف قاد نقابيين مضربين ضد الحكومة الاستعمارية، وكيف استطاع خلال لعب الغولف وشرب الشاي أن يعزز الروابط مع لاعبين بارزين في بريطانيا والملايو، كما استطاع في لقاءات منتصف الليل في غرف ذات إضاءة سيئة أن يتحدث مع زعماء الشيوعيين المختبئين من أجل الوصول إلى تحالف معهم لكسب تأييد الجماهير ذات الثقافة الصينية.

سيجد القرّاء إلهاماً عبر رؤيته وهو يقاتل من أجل عقول الناس وقلوبهم ضد الشيوعيين أولاً، ثم ضد الطائفيين في البرلمان والشوارع وعبر وسائل الإعلام.

ونراه يعطينا من خلال أوراقه الرسمية غير المنشورة، والأرشيف في سنغافورة وبريطانيا، وأستراليا ونيوزيلانده والولايات المتحدة، عن مراسلاته الشخصية، صورة حية عن نظرة الآخرين إليه: صارم (لي قد يخدع ويبتز حتى آخر لحظة) محرض (تشو كانت تعلم أنني أبذل الدم من أجل السيطرة على الهوكين) طموح (قد يفكر نفسه حرياً بأن يكون زعيم مالايا) وخطر (اسحق لي! ضعه في الداخل). إنها في بعض الأحيان صورة مناقضة ولكنها متناغمة لدواعي الغرابة مع رجل الدولة الآسيوي هذا.

هذا الكتاب ليس كتاباً سياسياً بحتاً: فالمؤلف يجذب القارئ إلى عالمه الخاص بصراحة غير عادية وبلمسة من المرح. نجد حكايات طريفة عن لحظات مهمة في حياته: طفولته، هروبه من المذابح اليابانية، خبرته كتاجر في السوق السوداء، مغامرته في تصنيع الصمغ المحلي التي قادته إلى رباط دائم مع كوا هيوك تشو. وهو يتبادل أيضاً الآراء مع الرجال الذين صاغوا العصر من أمثال جوه كينغ سوي، وس. راجا راتنام، وتوه تشين تشي، وهون سوي سين، وليم كيم سان وديفان نير، وليم تشين سيونغ، وتنكو عبد الرحمن، وتون عبد الرزاق، ود. إسماعيل عبدالرحمن، وسيد جعفر البار، ورؤساء الوزراء البريطانيين: هارولد ماكميلان، وهارولد ويلسون وغيرهما من الزعماء البريطانيين البارزين، ونهرو زعيم الهند، وعبد الناصر زعيم مصر، وروبرت مينزيس زعيم أستراليا.

ولد لي كيوان يو في سنغافورة في 16 أيلول 1923، من الجيل الثالث من المهاجرين الصينيين من مقاطعة غوانغدونغ. درس القانون في جامعة كيمبريدج في إنكلترة. وفي عام 1954 شكل "حزب العمل الشعبي". بعد خمس سنوات فاز حزبه في انتخابات سنغافورة العامة وأصبح رئيساً للوزراء في الخامسة والثلاثين من العمر. في تشرين الثاني عام 1990 تسلم منصب الوزير الأول.

ISBN:9960-54-288-2

9789960542881
ORD:000220-1

موضوع الكتاب: سنغافورة-الأحوال الاقتصادية

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com